د. محمد محمد زيتون
أستاذ التاريخ والحضارات بجامعتي الأزهر وأم القرى
وبجامعة ابن سعود الإسلامية سابقا

القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية

دار المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار المنــــار
للطبع والنشر والتوزيع
٩ شارع الباب الاخضر - ميدان الحسين
القــــاهرة

القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية

تاليف
د. محمد محمد زيتون
استاذ التاريخ والحضارة بجامعتى
الأزهر وام القرى وبجامعة
ابن سعود الاسلامية سابقا

دار المنار

إهـــداء

الى روح الصحابى الجليل عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه البطـل العربى المسـلم النافذ الفكر الذى اسس « مدينـة القيروان » المعقـل االعسكرى والسـياسى والفكرى • فشع منها الفكر الاسـلامى والحضارة العربية فى الشـمال الافريقى وجزر البـحر المتوسط وأوربا •

تحية اجلال وتقـدير واعجاب ••• »

***

« اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » .

« عقبة بن نافع الفهرى »

* * *

فهل للقيروان وساكنيها عديل حين يفتخر الفخور
بلاد حشوها علم وفقه واسلام ومعروف وخير
بناها كل بدرى كريم كان صفاح اوجههم بدور

« ابو القاسم الفزارى »

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .. وبعد ...

فالانسانية على مدى عمرها الطويل تدرجت فى مدارج الحضارة مرحلة بعد مرحلة كل منها تاخذ من سابقتها ، الى ان جاء الاسلام ليأخذ بيد الانسان الى منزلة عالية من السمو والرقى فى تفكيره وسلوكه وحياته ومعيشته ، واستطاع أن يوجه أتباعه بمبادئه السامية الى الرقى الروحى والمادى مما أدى الى نشأة حضارة اسلامية زاهرة شملت جميع جوانب الحياة وأدت الى تقدمها ورقيها .

وكان ظهور الحضارة الاسلامية وتقدمها وشمولها وتلبيتها لجميع حاجات الفرد والجماعة عاملا مهما فى جذب الافراد والجماعات الى اعتناق الاسلام واتباعه حيث يرقى بالفرد ماديا ومعنويا ، مما أدى الى انتشار الاسلام وسيادة مبادئه فى كثير من البقاع .

وهنا نشأت المدن الاسلامية التى تحمل الطابع الاسلامى المتمثل فى مناهج الاسلام ومبادئه الداعية الى توفيق الصلة بالله تعالى ، والى النظر والتفكير ، واستخدام العقل ، وبذل كل الجهود فى سبيل تقدم الحياة وازدهارها وخاصة الجانب الفكرى المؤدى الى التبحر فى العلوم والفنون والآداب .

وقد حفل العالم الاسلامى بكثير من المدن التى حملت راية الحضارة وبثتها فى كثير من ارجاء العالم ، وحظى كثير من تلك المدن بدراسات مستفيضة وضحت جوانبها المختلفة ، وابعادها المتعددة ، ولم تحظ مدينة

القيروان من بينها سوى بالنزر اليسير مما دعانى الى أن يكون موضوع هذا الكتاب : القيروان ودورها فى الحضارة الاسلامية ٠

ولقد كان الهدف الذى قصدت اليه من اختيار هذا الموضـــــوع هو التركيز فى البحث عن الحياة الفكرية فى القيروان ، وأن أتتبعها فـى مراحلها المختلفة منذ البداية وان ابين : كيف بدأت ؟ ثم كيف تمـت وازدهرت ؟

وأوضح العوامل التى ساعدت عليها ، والمجالات التى شغلتها ، والعلماء الذين تحملوا عبئها ، والدور الذى قامت به فى مجـال الفكر ، ثم فى سبيل نشره وتوصيله الى غيرها ، واخيرا بيان هذا الاتصال بالغير تأثرا وتأثيرا بما يجعلنا نلمس الحياة الحضارية والفكرية حقيقة واضحـة أمام اعيننا ، وبما يزيل الحيرة التى يقع فيها من يطلب منه أن يتحـدث عن القيروان مركزا من مراكز الفكر الاسلامى فى عصر ازدهاره ، ومظهرا أصيلا من مظاهرة الحضارة الاسلامية ٠

لقد قضيت وقتا طويلا وأنا استجلى ابعاد هذا الموضوع وأتحرى عن المصادر التى استطيع ان اجد فيها بذوره وأفكاره لكى أكشف عنها واجليها وأرى ما أستطيع أن ابحثه فيه واخيرا استقر الرأى على الاختيار وبدأت أضع له التخطيط الذى اسير عليه ٠

ومع ما كان يحيط بهذا الموضوع من غموض وابهام لا يغرى بالاقبال عليه ، الا أن ذلك الابهام الذى يكتنفه والغموض الذى يلفه كان من الدوافع التى حفزتنى الى التمسك به والحرص على بذل الجهد فى سبيله ٠

ولذلك بدأت أقرأ كتب الطبقات التى تحدثت عن علماء القيروان وأقدم ما وصل الينا من المصادر فى هذا الصدد : طبقات علماء افريقيـة وتونس لأبى العرب تميم المتوفى سنة ٣٣٣ هـ ، وكتاب رياض النفـوس للمالكى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وترتيب المدارك للقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، ومعالم الايمان فى معرفة أهل القيروان للدباغ المتوفى سـنة ٦٩٦ هـ ، وطبقات الاطباء لابن جلجل الذى ألفه سنة ٣٧٧ هـ ، وعيون

الأنباء فى طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعه المتوفى سنة ٦٦٧ هـ ، وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وغير ذلك من المؤلفات التى اهتمت بالترجمة لعلماء القيروان ٠

كما قرأت كتب التاريخ التى تهتم بالجانب السياسى ، ولكنها تورد بعض الاشارات الى الحياة الفكرية التى كنت أحاول رصدها لما تلقيه من ربط بين الجانب السياسى والجانب الحضارى والفكرى ومن أجل ذلك قرأت كتب التاريخ المشرقى والمغربى ٠ فقرأت كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ وفتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وتاريخ الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وكتاب الكامل لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ وغيرهم من مؤرخى المشرق بالاضافة الى مصنفات مؤرخى المغرب ككتاب تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيروانى المتوفى فى بداية القرن الخامس الهجرى ، والبيان المغرب لابن عذارى المراكشى المتوفى فى القرن السابع الهجرى وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ٠

وأضفت الى ذلك كتب المسالك والممالك ككتاب المغرب للبكرى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ ، وأحسن التقاسيم للمقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ، وكتاب المسالك والممالك للاصطخرى المتوفى فى منتصف القرن الرابع الهجرى ٠ وغير ذلك من المصادر القديمة الكثيرة ، ولم يفتنى الاطلاع أيضا على المراجع الحديثة التى أشارت الى الحضارة الاسلامية والحياة الفكرية اشارات حاولت رصدها وتلمس معالمها من بين سطورها مما ذكرت اسمه فى ثبت المصادر والمراجع ٠

وبالاضافة الى ذلك فقد قمت برحلة علمية الى الجمهورية التونسية زرت فيها مدينة القيروان وشاهدت معالمها الباقية والمندثرة وبعض الحفريات القائمة فيها وقابلت بعض العلماء وخاصة المهتمين بالقيروان فى الماضى ٠ كما حصلت على ثبت بالمخطوطات الباقية منذ ذلك العصر ، وقد تمكنت من قراءة بعض الكتابات البارزة أو المحفورة على المساجد الاثرية ، وشواهد المقابر وقد ضمنت الكتاب ذلك ٠

ولقد كان المنهج الذى سرت عليه هو استخلاص واستنباط الجوانب الحضارية والحياة الفرية من مظاهر الحياةالمختلفة وقراءة تراجم العلماء الذين ظهروا فى فترة البحث مع الترجمة لأهم أعلام الفكر فى القيروان انطلاقا من أن حياة العلماء ومجهودهم هى الصورة الحقيقية التى نستطيع ان نرى من خلالها ملامح وقسمات الجوانب الحضارية والفكرية واضحة جلية لا سيما اذا كان معظم المؤلفات مفقودة ولم تصل الينا ٠

ولذلك تكون الكتاب بعد هذه المقدمة من ثمانية فصول وخلاصة ذكرت فى نهايتها نتائج البحث ، وتلى ذلك تذنيل ببعض الملاحق وتعريف ببعض المصادر ٠

حيث بينت المقدمة اختيار الموضوع والهدف منه ومنهجه مع اشارة سريعة الى المصادر الرئيسية ٠

ووضحت فى الفصل الاول كيف تم الفتح الاسلامى فى الشمال الافريقى والدور العظيم الذى كان للقيروان فى اتمام هذا الفتح ٠

وفى الفصل الثانى : بينت الاسباب الداعية الى تاسيس القيروان والاهداف المقصودة منه وبينت كيفه تم اختيار مكانها ، وتخطيطها ، والحركة العمرانية فيها ونموها ٠

وتحدثت فى الفصل الثالث عن الحالة السياسية وهو يشتمل على عصر الولاة من بنى أمية وبنى العباس ٠ ثم عصر الاغالبة حيث حصلت القيروان على نوع من الاستقلال ، ثم عصر الفاطميين الذى استقلت خلاله استقلالا تاما ٠

وخصص الفصل الرابع للحديث عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى القيروان ٠

وبعد معرفة الاطار السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى كانت تعيش فى ظله القيروان ٠ كان الفصل الخامس الذى تحدث عن بداية

الحياة الفكرية وبين كيف أنها ابتدأت على أيدى الصحابة والتابعين . وكان الاساس لها القرآن الكريم ثم الحديث والفقه والتفسير ، كما تحدث عن العلماء من أبناء القيروان فى بداية الحياة الفكرية ، وكانت هذه البداية الفكرية فى القيروان مقدمة لازدهار الفكر ونموه .

ولذلك خصص الفصل السادس للحديث عن ازدهار الحياة الفكرية وتوضيح أبعادها وآفاقها التى شملت كثيرا من العلوم والفنون والآداب بحيث صارت القيروان مقصدا للطلاب من شتى الاقاليم .

أما الفصل السابع فقد تناول علاقات القيروان بغيرها من مراكز الفكر : مكة ، والمدينة ، والكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، ودمشق ، ومصر وغير ذلك وبين الجهود الشاقة المثمرة والتى قام العلماء بها فى ميدان البحث العلمى . كما وضح اتصال القيروان بالاقاليم المجاورة لها فى المغرب والاندلس وصقلية . وما ترتب على ذلك من حماية القيروان من العزلة الفكرية عن غيرها من مراكز الفكر .

وخصصت الفصل الثامن والاخير لبيان الحياة الحضارية والفكرية فى القيروان بين التاثر والتأثير مع ملاحظة السمات التى طبع بها الفكر القيروانى .

وختمت البحث بخلاصة وافية اثبت فى نهايتها النتائج التى وصل اليها البحث تلاها تذييل بملاحق اشتملت على نماذج من الخطابة والشعر والكتابة ، ويسجل عن المخطوطات الباقية فى مكتبة القيروان العتيقة وقد حصلت على هذا السجل أثناء رحلتى الى تونس واتبعت ذلك بتعريف ببعض المصادر القديمة التى اعتمدت عليها .

وانى لأرجو وقد بذلت فى اعداد هذا البحث من الجهد الشاق المضنى ما الله وحده يعلمه والذى قصدت به وجهه الكريم أن يكون التوفيق قد صاحبنى فيما قصدت اليه ، وفيما توصلت الى توضيحه وتجليته من

أمور تتعلق بمدينة القيروان العريقة ، ودورها العظيم الذى قدمتـــه للحضارة الاسلامية • وأن يجد القراء فيهما ينفعهم ويمدهم بمعلومات وافية أصيلة عن ذلك المصر الاسلامى العتيق •

ولا يسعنى فى هذا المقام الا ان أتوجه بالشكر وافرا وجزيلا لكـل من مد لى يد العون أو ساهم برأى او مشورة فى انجاز هذا البحث داعيـا المولى سبحانه وتعالى ان يجزيهم عنا خير الجزاء •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وسلم •

مكه المكرة فى غرة رمضان سنة ١٤٠٧ هـ

دكتـــور
محمد محمـد زيتون



الفصل الأول

الفتح الإسلامى فى أفريقيا

تمهيد

الفتح الاسلامى فى افريقية :

● فتح برقة(١) :

لم يذكر احد من المؤرخين القدامى او المحدثين سوى الواقدى استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقه حين الفتح العربى فقد ارسل ارسطوليس(٢) هدية الى الملك صاحب برقة وارسل اليه يعلمه بما فعله العرب فى مدة قيصر « وانهم قد اتونا ... واخذوا مصر واخذوا ملكنا وحكموا فى بلادنا بعدنا ولابد لهم منك ولا غنى لهم عنك والصواب ان تشمر لهم الهمم وتجدنا على من بغى واجرم فنحن جيرانك وكلنا جندك واعوانك والسلام »(٣) .

ثم يصور الواقدى موقف صاحب برقة من هذه الهدية والرسالة بانه عرض الأمر على ارباب دولته « وقال لهم ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟ فقالوا له ايها الملك مازالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذى اشار به هو الحق وان العرب اذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور الى بلادنا فابعث اليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة فالمسيح يعطى النصر لمن يشاء فأجابه الى ذلك وامر ابن اخيه

---

(١) برقة : كانت قبل الفتح العربى تسمى انطابلس وهى كلمة رومية ومعناها خمس مدن واسماؤها الان طوكرة ، شحات ، وبنغازى ، وسوسة ، والمرج وكانت لها اسماء اخرى يونانية انظر الطاهر الزاوى تاريخ فتح العرب فى ليبيا ص ٣٢

(٢) حاكم الاسكندرية وهو ابن المقوقس فتوح الشام ج ٢ ص ٥٤ . للواقدى .

(٣) فتح الشام ج ٢ ص ٥٢ .

اسطفانوس ان يمضى فى أربعة آلاف وامره أن يسير لمعاونة صاحب الاسكندرية »[٤] .

ومن هنا نرى ان اصرار عمرو بن العاص على مواصلة الفتح غربا بعد فتح مصر والاسكندرية امر كانت تدعو اليه ضرورة تامين فتح مصر لا سيما وقد ثبتت الاتصالات بين حاكم الاسكندرية وحاكم برقة وتعاونهما لأجل صد جيش المسلمين ومدافعتهم عن البلاد .

يضاف الى ذلك رغبة عمرو بن العاص فى مواصلة الفتح نشرا للدين الذى يؤمن به وتبلغا للدعوة التى خرج من أجلها هو ومن معه من الجزيرة العربية . ولم يكن اصرار عمرو على مواصلة الفتح التماسا للمغانم التى تعود عليه وعلى جنده من الغزو كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رايهم من المؤرخين[٥] فالخوف من احتمال مهاجمة الروم للمسلمين من المغرب برامج ثبوت الاتصال بين الحاكمين ثم ما يتسم به عمرو من الحذر جعله يعجل باستطلاع حالة الاقليم المجاور لمصر والاسكندرية غربا وبارسال الطلائع لمناوشته وجمع الأخبار والتقريرات عنه فـ « وجه عقبة[٦] بن نافع الفهرى الى زويلة[٧] وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه الى برقة فصالح أهلها »[٨] .

---

(٤) فتوح الشام للواقدى جـ ٢ ص ٥٢ .

(٥) انظر المغرب الكبير جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٦) ولد قبل الهجرة بسنة واحدة فتح المغرب لحسين مؤنس ص ١٣٠ عن أسد الغابة لابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

(٧) زويلة : مدينة من مدن فزان القديمة وتقع فى الجنوب الشرقى من مرزق بنحو ١٥٠ ك٠م وتبعد عن مدينة طرابلس الى الجنوب الشرقى بنحو ٧٧٠ ك٠م . طاهر الزاوى تاريخ الفتح ص ٣٥ .

(٨) البيان لابن عذارى جـ ١ ص ٨ وفى النسخة تحقيق ليفى بروفنسال : ووجه منها (أى مصر) عقبة بن نافع الفهرى الى لوبية وافريقية فافتتحهما . ثم توجه عمرو بنفسه الى برقة فصالح اهلها على الجزية .

وقد اقبل كثير منهم على الاسلام بل اسلم سكان برقة قيادهم للمسلمين مما جعل عمر يرسل تقريرا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول فيه « انه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى المغرب فبلغ زويلة وان ما بين زويلة وبرقة كلهم حسنة طاعتهم قد ادى مسلمهم الصدقة واقر معاهدهم بالجزية وانه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما راى انهم يطيقونه »[٩] وبذلك صار ما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين[١٠] .

والذى يبدو لى ان اهل برقة التى كان « اكثر أهلها لواته البربرية »[١١] كانوا ساخطين على حكامهم البيزنطيين لتعسفهم وظلمهم[١٢] وراوا فى قدوم العرب اليهم ما يخلصهم من البيزنطيين كما ان منهم من قبل الاسلام وآمن به ولن نجد فى تاريخ الفتح لافريقية الذى استغرق أكثر من نصف قرن ان برقة قد انتقضت على المسلمين .

ورغم عسف البيزنطيين بهم فيبدو ان سلطتهم لم تكن قوية على اهل البلاد فى ذلك الوقت فنراهم قد أرخوا عنانهم لعقبة ثم قدم عمرو فعقد بنفسه الصلح مع اهل برقة حيث « صالح أهلها على الجزية وهى ثلاثة عشر الف دينار يبيعون فيها من ابنائهم[١٣] من أحبو بيعه »[١٤] .

وقد بدأ فتح برقة فى سنة احدى وعشرين هجرية كما يذكر ذلك اليعقوبى[١٥] والطبرى[١٦] وتم خلال عام اثنتين وعشرين وفقا

---

(٩) البلاذرى فتوح ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٥٠ .

(١١) كتاب العبر لابن خلدون جـ ٢ ص ١٢٨

(١٢) انظر فتح العرب المغرب لحسين مؤنس ص ١٦ ـ ٢١ المغرب الكبير السيد عبد العزيز سالم ص ١٤٣ جـ ٢ ص ١٢٨ .

(١٣) الظاهر ان هذه كانت عادتهم فى اداء ما عليهم من ضرائب بالنسبة للروم فوافق عليها عمرو بالنسبة للجزية .

(١٤) فتوح البلدان للبلاذرى القسم الأول ص ٢٦٤ .

(١٥) تاريخ اليعقوبى ص ١٧٩

(١٦) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٣٥٠ .

ابن عبد الحكم[17] وابن الأثير[18] .

***

● فتح طرابلس(١٥) :

بعد ان انتهى عمرو من عقد الصلح مع أهل برقة واصل السير غربا متجها نحو طرابلس ولكنه التزم الحذر فسار بالطريق الساحلى بجيشه نيستولى على ما فى طريقه مما بين برقة وطرابلس ثم ارسل عقبه الى فزان[20] ففتحها ونجح فى مهمته واصبحت المنطقة الداخلية مأمونة العواقب لا خوف على الجيش الاسلامى ان يؤتى من قبلها بعد ان سكنوا من طاعة اهلها وحيادهم[21] وقد استولى عمرو وهو متجه نحو طرابلس على سرت[22] ولبده[23] ثم انتهى الى طرابلس وكانت

---

(١٧) فتوح مصر ص ١٧١ .

(١٨) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٢ .

(١٩) مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال أو قرطاجنية . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا الطاهر الزاوى ص ٤٥ .

(٢٠) فزان : واحة من واحات طرابلس الجنوبية ومساحتها اكثر من ٣٠٠ ك.م٢ . انظر الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٨٩ .

(٢١) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٦٠ .

(٢٢) سرت : بضم السين مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى بها الآن وهى تبعد عن البحر الى الجنوب بنحو ٤ كم وتقع فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٥٥٤ كم وكانت محاطة بسور من التراب وهى غير سرت المعروفة الآن سرت الحالية انشئت فى العهد التركى سنة ١٣٠٢ هـ الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٣٩ .

(٢٣) لبدة : مدينة عظيمة أسسها الفينيقيون أوائل القرن العاشر قبل الميلاد ... وتقع شرق مدينة طرابلس بنحو تسعين كم وقد أكل البحر جزءا كبيرا منها وبنيت مدينة الخمس فى أوائل القرن التاسع عشر على جزء منها وبأنقاضها . نفس المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .

حصينة مصورة فضرب الحصار عليها لامتناعها عليه . وبعد شهر من حصارها تمكن الجيش الاسلامى من فتحها بعد أن اقتحم بعض المسلمين المدينة من ناحية[٢٤] البحر[٢٥] .

وعندما تم فتح طرابلس أرسل عمرو حملة لتستولى على صبراته[٢٦] وكان اهلها قد تحصنوا وأخذوا حذرهم عندما سمعوا بوصول جيش المسلمين الى طرابلس ولكن عندما امتنعت طرابلس عليه وضرب عليها الحصار شعروا بالأمان ولم يعبئوا بجيش المسلمين ويبدو ان عمرا كان يتحسس أخبارهم اثناء الحصار فعندما انتهى من فتح طرابلس عاجلهم بجنده وانتصر المسلمون عليهم وغنموا ما فى بلدهم[٢٧] . كما بعث عمرو اثناء حصاره لطرابلس قائده بسر بن ارطاه الى ودان[٢٨] فافتتحها وبذلك يكون عمرو قد أمن جنوب طرابلس كما أمن جنوب برقة حين استولى على فزان وزويلة .

ولقد بعث عمرو بعد أن اتم فتح طرابلس الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى فتح افريقية ومواصلة الفتح غربا وكأنه كان يرى ان فتح برقة وطرابلس متمم لفتح مصر أو ان ذلك كان أمرا واجبا

---

(٢٤) لم تكن مصورة من ناحية البحر . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا طاهر الزاوى ص ٤٧ .

(٢٥) كتاب العبر ج ٢ ص ٢٨ ابن خلدون وفتوح البلدان ص ٢٢٦ . البلاذرى .

(٢٦) صبراته : مدينة قديمة ذات آثار تقع غربى مدينة طرابلس بنحو ٦٧ كم على ساحل البحر انظر طاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى ص ٥٢ .

(٢٧) ارجع الى الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢ .

(٢٨) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية فى الجنوب الشرقى من مدينة طرابلس بنحو ٧٦٩ كم والى جنوب سرت بنحو ٢٨٠ كم الزاوى تاريخ ص ٦٠ .

لأمن مصر لاسيما بعد أن ثبت استعانة حاكم الاسكندرية بحاكم برقة كما روى الواقدى ٠

ولذلك كتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخبره بفتح طرابلس ثم يطلب منه ابداء الرأى فى مواصلة الفتح الى افريقية يقول ابن عبد الحكم « أراد عمرو أن يوجه الى المغرب فكتب الى عمر بن الخطاب : ان الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »[٢٩] ولكن حديث ابن عذارى عن مضمون هـذا الكتاب يضيف الكثير عن حالة افريقية وحكامها وعدد سـكانها ثم وسائل دفاعهم ومقـدار استعدادهم وما يتصفون به من القوة وركوب الخيل فليس أمام عمرو « الا بلاد افريقية وملوكها كثير وأهلها فى عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل »[٣٠] .

وفى مضمون هـذا الخطاب عن وصف استعداد افريقية ما يوحى بأن مواصلة الفتح يقتضى مددا جديدا لا سيما وان أمامهم كثير من الملوك الحاكمين لاعداد بشرية كثيرة ذات خبرة ودربة على ركوب الخيل ٠ ولكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى قد طالت المسافة بينه وبين خط القتال غربا فى فترة لا تتجاوز عشر سنوات استولت جيوش المسلمين خلالها على الشـام ففلسطين فمصر ثم برقة فطرابلس فى هـذا الزمن الوجيز ، فلذلك لم يأذن لعمرو بن العاص فى مواصلة الفتح الى افريقية وكتب اليه ينهاه عنها ويقول : ما هى بافريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها ٠ وذلك ان أهلها كانوا يؤدون الى ملك الروم شـيئا فكانوا يغدرون به كثيرا ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم[٣١] ويضيف

---

(٢٩) فتوح ابن عبد الحكم ٠ ص ١٧٢ ٠

(٣٠) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٨ ٠

(٣١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٦ ولا شك ان ذلك يجعـل لأهلها طبيعة خاصة فى الحكم وفى سياستهم ٠

ابن عبد الحكم بأن عمر ذكر فى كتابه انه سوف لا يسمح لأحد بغزوها مدة حياته « لا يغزوها أحد ما بقيت »[٣٢] .

فامر عمرو العسكر بالرحيل قافلا الى مصر[٣٣] ويضيف ابن‌عبد الحكم سببا آخر حمل عمرا على سرعة العودة الى مصر وهـذا السبب يقوى وجهة نظر عمر بن الخطاب بعدم السرعة فى مواصلة الفتوح ومحاولة تثبيت الفتح فى البلاد المفتوحة أولا : فقد اتى الى عمرو بن العاص كتاب المقوقس يذكر له فيه ان الروم يريدون نكث العهد ونقض ما كان بينهم وبينه وكان عمرو قد عاهد المقوقس على ان لا يكتمه امرا يحدث فانصرف عمرو راجعا مبادرا لمـا أتاه »[٣٤] وان كان ابن عبد الحكم يضيف الى ذلك ان عمرا كان يواصل استطلاع الأماكن المجاورة لطرابلس وصبراته فيقول « وقد كان عمرو يبعث الجـريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون »[٣٥] .

ونستخلص من ذلك ان الأسباب التى حملت عمرا على الرجوع هى :

١ ـ عدم رغبة عمر بن الخطاب فى التوسع فى الفتح غربا بعد ان طالت المسافة وبعد خط القتال .

٢ ـ ما عرف عن أهل افريقية من الغدر .

٣ ـ نقض الروم عهد عمرو بن العاص فى مصر .

من أجل هذه العوامل مجتمعة عاد عمرو الى مصر بعد أن ترك عقبة بن نافع ببرقة يدعو للاسـلام حيث تمكن من كسب كثير من سكان البلاد من « قبائل لواته ونفوسة ونفزاوة وهراوة وزواغة فدخلوا فى الاسـلام وأصبحت برقة قاعدة لجيش المسلمين فى غرب مصر »[٣٦] .

---

(٣٢) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٢ .

(٣٣) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٨ .

(٣٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٧٣ .

(٣٥) نفس المرجع ص ١٧٣ .

(٣٦) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير جـ ٢ ص ١٥٢ .

● فتح افريقية(٣٧) :

- غزوة عبد الله بن سعد بن أبى السرح :

عندما انصرف عمرو بن العاص عن طرابلس لم يهمل شأن هذه البلاد ولم يصرف النظر عن الاتصال بأحوالها وانما كان يبعث الجريدة من الخيل فيصيبون الغنائم ثم يرجعون[٣٨] .

ولم يكن المقصد من هذه الطلائع هو الغنائم كما يعلل ذلك بعض المؤرخين وانما هو اشعار البلاد بقوة المسلمين ثم استطلاع الأخبار ومعرفة الأسرار حتى يتأتى أخذ الاستعداد الكامل لمواصلة الفتح .

ولكن بعد أن توفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وبايع المسلمون امير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وفد عليه عمرو بن العاص وسأله عزل عبد الله بن سعد بن ابى السرح العامرى عن صعيد مصر وكان عمر ولاه الصعيد قبل موته فامتنع عثمان من ذلك وعقد لعبد الله بن سعد بن أبى السرح على مصر كلها[*] وقد تابع عبد الله بن أبى السرح خطة عمرو السابقة فكان يبعث المسلمين فى جرائد الخيل كما كانوا يفعلون فى أيام عمرو فيصيبون من أطراف افريقية ويغنمون[*] .

ويزيد ابن خلدون أمر هذه الطلائع والجرائد توضيحا فيذكر أنها كانت بأمر من عثمان وان بعضها قد بلغ تعداده عشرة آلاف جندى ولكنها لم تقدر على التوغل فى افريقية لكثرة أهلها وان نتائج ما حصلت عليه هذه الطلائع من معلومات توضح ان هذا الأمر فى حاجة الى استعداد أكثر .

---

(٣٧) نعنى بافريقية هنا ما يسمى الآن تونس .

(٣٨) ابن عبد الحكم ص ١٧٢ .

(*) الكندى القضاة والولاة ص ١٠ .

(**) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

وهنا نلاحظ ان سياسة أمير المؤمنين عثمان بن عفان تختلف عن سياسة أمير المؤمنين عمر فيما يتعلق بسير الفتوح نحو الغرب لأن عمر رضى الله عنه كان يرى الوقوف عند الحد الذى وصلت اليه الفتوح فى عهده وهو افريقية حتى تستقر الأمور ٠

ووجد عثمـان ان ظروف الدولة تمكنه من مواصلة الفتوح فامر باستئناف الفتوح من جديد فاصدر أوامره الى عبد الله بن ابى السرح بزيادة نشاط الطلائع على افريقية فأرسل عبد الله بن ابى السرح عقبة ابن نافع بن عبد القيس على جند وعبد الله بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا الى افريقيا فى عشرة آلاف وصالحهم اهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة اهلها (*) ويتفق ابن خلدون مع ابن الأثير فى ارسال الجرائد الى اطراف افريقية بأمر عثمان وان كان يضيف الى ذلك ان بعض هـذه الجرائد كان على راسها عبد الله بن ابى السرح وكان المسير له عمرو بامر عثمان يقول « وفى سنة خمس وعشرين سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن ابى سرح الى اطراف افريقية غازيا بأمر عثمان وكان عبد الله من جند مصر فلما سار اليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده فلما عاد عبد الله كتب الى عثمان يستأذنه فى غزو افريقية »(**) ٠

وبعد أن تأكد عبد الله من قدرته على فتح افريقية بعد توفر وجود الجند الكافى لغزوها « كتب الى عثمان واخبره بقربهم من حرز المسلمين ويستأذنه فى غزوها فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه فى ذلك »(٣٩) ويصور صاحب رياض النفوس عزم عثمان على الغزو باستخارة

(*) ابن خلدون كتاب العبر جـ ٢ ص ١١٩ ٠

(**) الكامل لابن الاثير جـ ٣ ص ٤٢ ومن هنا نفهم ان عبد الله ابن ابى السرح خرج فى هذه الطلائع عندما كان أمر مصر الى عمرو بن العاص وعندما عاد من هذه الطلائع وكان أمر مصر قد أسند اليه كتب الى عثمان يحبذ له فتح افريقية بعد ان كان يغزو أطرافها ٠

(٣٩) ابن الحكم فتوح ص ١٨٣ ٠

عثمان لله وصلاته فى المسجد بليل ثم استشارته للمسلمين فقد قال المسور « خرجت من منزلى بليل طويل أريد المسجد فاذا عثمان رضى الله تعالى عنه فى مصلى النبى ﷺ يصلى فصليت خلفه ثم جلس فدعا ليلا طويلا حتى اذن المؤذن ثم قام منصرفا الى بيته فقمت فى وجهه فسلمت عليه فقال : يابن مخرمة واتكأ على يدى انى استخرت الله تعالى فى ليلتى هـذه فى بعث الجيوش الى افريقية وقد كتب الى عبد الله بن سعد يخبر بخبره مع المشركين وغلبهم وقرب حوزهم من المسلمين فقلت : خار الله لأمير المؤمنين قال : فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ قلت : اغزهم قال : اجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ واستشيرهم فما أجمعوا عليه فعلته أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ... ايت عليا وطلحة والزبير والعباس وذكر رجالا فخلا بكل واحد منهم فى المسجد ... فلم يختلف احد ممن شاوره[٤٠] غير الأعور سعيد بن زيد «.

وقد تحمس الخليفة لهذه الغزوة وأعان المسلمين من ماله الخاص « بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس وفتح بيوت السلاح التى كانت للمسلمين فلما توافى الناس جدوا السير وذلك فى المحرم من هـذه السنة[٤١] سنة سبع وعشرين .

ويصور أبو العرب سرعة استجابة كثير من الصحابة لنداء عثمان بأن عبد الله خرج الى افريقية فى جيش أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى[٤٢] .

وعندما اجتمع المجاهدون فى المدينة أمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم الى ان يقدموا على عبد الله بن سعد مصر فيكون اليه الأمر[٤٣] .

---

(٤٠) المالكى رياض النفوس ص ٩ .
(٤٠) ابن عذارى البيان المغرب ص ٩ .
(٤٢) أبو العرب تميم طبقات علماء افريقية وتونس ص ٧٠ .
(٤٣) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٣ .

سار الجيش من المدينة متوجها الى مصر حيث انضم اليه جند مصر وتولى عبد الله بن ابى السرح قيادته وفى طريقه الى افريقية انضم اليهم « عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فنهبوا(٤٤) الروم عندها »(٤٥) .

وكانت طرابلس قد نقضت العهد بعد فتح عمرو بن العاص لها وتحصنت فلم يقف عندها ابن ابى السرح لأنه يريد منازلة صاحب افريقية والقضاء عليه وكان صاحب افريقية آنذاك بطريق يسميه العرب جرجير ويصفون سعة ملكه بانه يملك ما بين طرابلس الى طنجة(٤٦) ، « ولكن المؤرخين اختلفوا فى تبعية جرجير آنذاك لهرقل امبراطور الروم فابن عبد الحكم يذكر انه خلع هرقل وضرب الدنانير على وجهه(٤٧) وابن خلدون وابن الأثير يذكران انه كان تحت ولاية هرقل ويحمل اليه الخراج كل سنة »(٤٨) ويزيد صاحب الخلاصة النقية انه : « كان يستند الى صاحب القسطنطينية ويستظهر فى حروبه بجيرانه من البربر »(٤٩) .

والذى تميل اليه النفس ان جرجير لم يخرج على هرقل وانما كان انشغال الدولة الرومية بشأن المسلمين على الحدود الشرقية داعيا لانشغالهم عن شئون افريقية بدليل انهم عندما قتل جرجير وعقد الصلح

---

(٤٤) لا شك ان ابن خلدون يقصد بذلك انهم استولوا عليها واذا علمنا انهم كانوا قد طردوا الوالى الذى خلفه عليهم عمرو بن العاص أثناء فتحه لطرابلس كما انهم تحصنوا دون ابن أبى السرح فالمسلمون فى حل من حربهم والاستيلاء على متاعهم .

(٤٥) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤٦) ابن الحكم فتوح ص ١٨٣ ، ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩

(٤٧) ابن الحكم فتوح ص ١٨٣ .

(٤٨) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٤٣ .

(٤٩) الخلاصة النقية للباجى ص ٣ .

مع العرب على جزية كبيرة ارسل هرقل بطريقا آخر لكى يحصل على مال يعادل ما تعهد بدفعه للعرب(٥٠) ٠

ولا شك ان جرجير كان يستعد للقاء فاصل مع العرب منذ وصلت جيوش المسلمين الى برقة وطرابلس ويرى تتابع الطلائع العربية للاغارة على افريقية ولذلك عندما قدم المسلمون بقيادة عبد الله بن أبى السرح الى افريقية سنة سبع وعشرين كان جرجير على اهبة الاستعداد حيث قد كون جيشا من مائة وعشرين الفا من الفرنج والروم والبربر وملوكهم ٠

يقول ابن خلدون متفقا مع ابن الأثير ويتابعهما صاحب الخلاصة النقية وصاحب تاريخ الجزائر فى القديم والحديث : « فجمع لهم جرجير ملك الفرنجة يومئذ بافريقية من كان بامصارها من الفرنج والروم ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم وكان ملكه ما بين طرابلس وطنجة(٥١) وكانت دار ملكه سبيطلة فلقوا المسلمين فى زهاء مائة وعشرين الفا والمسلمون يومئذ فى عشرين الفا(٥٢) ٠

التقى الجمعان فى مكان يسمى عقوبة(٥٣) على يوم وليلة من سبيطلة(٥٤) وكان دار ملكهم وكما هى عادة المسلمين عرضوا عليه الاسلام أو الجزية فأبى قبول احدهما ونشب القتال ودارت المعركة

---

(٥٠) ابن خلدون عبر جـ ٢ ص ١٣٠ ، ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٤ ٠

(٥١) طنجة : مرفأ على مضيق جبل طارق شمال المغرب ٠ فتح المغرب شيت خطاب جـ ١ ص ٥٦ ٠

(٥٢) ابن خلدون العبر جـ ٣ ص ١٠٧ ، ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٤٣ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٣ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٢٢ ٠

(٥٣) البلاذرى فتوح ص ٢٦٧ ٠

(٥٤) سبيطلة : مدينة تبعد عن القيروان سبعين ميلا وعن قفصة مرحلة واحدة وكانت عاصمة افريقية القديمة عن قادة فتح المغرب العربى جـ ١ ص ٨٠ للواء شيت خطاب ٠

واستمرت أياما كان ختامها فى صالح المسلمين فقتل جرجير وهرب جيشه ومزق شر ممزق وتبعتهم خيول المسلمين الى حصن سبيطلة فمنعوهم من دخوله وركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسانهم واكثروا فيهم الأسارى(٥٥) .

وبث عبد الله السرايا فبلغت قصور قفصة(٥٦) فسبوا كثيرا وغنموا ويعلق ابن عذارى على نتيجة هذه الموقعة ويبين اثرها فى الروم بافريقية وكيف ان جموعهم الكثيرة لم تغن عنهم من دون سيوف المسلمين شيئا مما دعاهم آخر الأمر الى طلب الصلح وقبول دفع جزية سنوية كبيرة للمسلمين فقد « اذلت هذه الوقعة الروم بافريقية ورعبوا رعبا شديدا فلجأوا الى الحصون والمعاقل ثم طلبوا من عبد الله بن سعد ان يقبض منهم ثلاثمائة(٥٧) قنطار من الذهب فى السنة جزية على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال وكان فى شرط صلحهم ان ما اصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم وما اصابوه بعد الصلح ردوه عليهم »(٥٨) .

اما ابن خلدون فيعقب على المعركة بان المسلمين قد جدوا كذلك فى أثر البربر الذين تصدوا لهم بعد قتل جرجير وحصل بينهم زحوف ثم أسر لبعض ملوكهم الذين أشخصوا الى الخليفة حيث اعلنوا اعتناق الاسلام وانه عقد لهم على قومهم فقد « حصل فى اسرهم يومئذ من ملوكهم وزمان بن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ امير مغراوة وسائر

---

(٥٥) ابن عذارى البيان المغرب ص ١١ .

(٥٦) قفصة : بلد صغير فى طرف افريقية من ناحية المغرب بينها وبين القيروان ثلاثة أيام انظر معجم البلدان (١٣٨/٧) .

(٥٧) ثلاثمائة قنطارة = الفى الف وخمسمائة الف دينار : انظر البلاذرى ص ٢١٨ .

(٥٨) ابن عذارى البيان المغرب ص ١٢ والمبلغ الذى ذكره يتفق مع ذكره البلاذرى فتوح ص ٢٦٨ .

زنانته ورفعوه الى عثمان بن عفان فاسلم على يديه ومن عليه واطلقه وعقد له على قومه »[٥٩] .

هذه النتائج التى توصل اليها عبد الله من الانتصار على جرجير وفتح سبيطة وقفصة وحصن الأجم[٦٠] ثم اذلال الروم والبربر والأهم من ذلك هو قبــول بعض ملوك البربر للاســلام ووفوده على الخليفة وعقده له على قومه : تعتبر من أهم النتائج لهذه الغزوة وكسب كبير بالنسبة للاسلام والمسلمين .. ولكن عبد الله بعد أن يوقع الصلح يعود الى مصر فلماذا يرجع عبد الله الى مصر بدون أن يترك حامية ؟ او ان يولى عليهم واليا من المسلمين ؟

ان من ينظر الى نتيجة الحرب بين ابن أبى السرج وجرجير ويرى ان المسلمين قد انتصروا يقول لمــاذا لم يستغل عبد الله هــذا النصر ويوطد أقدام المسلمين فى هذه البلاد ؟

ولكن من يمعن النظر فى هذا الرجوع يتجلى له ان عبد الله قد أدرك ان فتح افريقية لا يتم بموقعة واحدة ولا بهذا العدد القليل من الجيش لا سيما وهو لا يلتقى بجيش دولة لها كل السلطة على البلاد فاذا ما قضى على الجيش قضى على كل شىء وانما يلتقى بجيش الروم فى الشـمال ثم بقبائل البربر فى الجنــوب حيث لهــا تقاليدها وطبائعها وما تتصف به من القوة والدفاع عن حماها وان توطيد اقدام المسلمين يحتاج الى امدادات أخرى مع بعد خطوط هــذه الامدادات . ولذلك اكتفى بالانتصار فى الموقعة التى خاضها ثم بفتح بعض الحصون والحصول على الصلح والجزية الكبيرة التى يعبر عنها البلاذرى فى رواية عبد الله بن الزبير بثلاثمائة قنطار من ذهب على ان يكف عنهم ويخرج من بلادهم ، وفى رواية ابن كعب ان عبد الله بن سعد بن أبى السرح صالح بطريق

---

(٥٩) ابن خلدون عبر جـ ٦ ص ١٠٧ .

(٦٠) الاجم : العجم الأعجام وكانت مركزا حربيا طوال العهد البيزنطى : انظر فتح العرب لمؤنس ص ٨٣ .

افريقية على ألفى دينار وخمسمائة ألف دينار • ويزيد المازنى انه رجع الى مصر ولم يول على افريقية احدا ولم يكن لها يومئذ قيروان ولا مصر جامع(٦١) •

ولا شك انه كان من الممكن أن يترك عبد الله ولو حامية استطلاعية تحمل اليه أخبار البلاد التى تغلب عليها وان كان واضحا من قول البلاذرى انه قد اكتفى بالمعاهدة ولم يترك حامية استطلاعية ولعله اعتمد على

ما بدا له من استعداد بعض قبائل البربر لقبول الاسلام والايمان به •

ولذلك عاد الى مقر ولايته فى مصر بعد ان قضى خمسة عشر شهرا فى هذه الغزوة فوصل الى مصر فى سنة ثمان وعشرين هجرية •

غير « انه عاد لغزو أفريقية سنة ثلاث وثلاثين مرة ثانية حين نقض أهلها العهد(٦٢) • مما يدل على أن ابن ابى السرح حاول أن يحتفظ بأفريقية تابعة للمسلمين عن طريق المعاهدة معها فلما نقضت العهد غزاها ثانيا •

واذا اعتمدنا هذه الرواية الثانية لابن عزارى لتبين لنا أن ابن أبى السرح حاول الاحتفاظ بالانتصار الذى حققه عن طريق المعاهدة • غير أن ماجد من حوادث فى مركز الخلافة قد حالت بين المسلمين وبين الاحتفاظ بما فتحوا علاوة على مواصلة الفتح حيث قد ذر قرن الفتنة التى أحاطت بعثمان رضى الله عنه • وتوقفت بسببها الفتوح وقد استمر ذلك التوقف خلال فترة الخلاف بين على بن ابى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عن الجميع •



ـ غزوة معاوية بن حديج :

استقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان بعد عام الجماعة وجمع شمل

---

(٦١) البلاذرى فتوح ص ٢٦٨

(٦٢) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٤

المسلمين وابتدأ المسلمون يستعيدون توجيه نشاطهم ثانيا الى الخارج وبدات موجة جديدة للفتوحات فى أفريقية حيث أسند الخليفة معـــاوية بن ابى ســفيان فى سنة خمس واربعين الى معاوية بن حديج السـكونى أمر مواصلة الفتوح فى أفريقية وزوده بجيش مكون من عشرة آلاف جندى فيه بعض الصحابة والتابعين(٦٣) .

ويذكر المؤرخون ان بعض الظروف قد خدمت المسـلمين ودفعتهم للاسراع باستئناف الفتح وذلك بسبب خلاف نشـأ بين الحاكم الجديد الذى ولاه هرقل على افريقية وبين رعاياه فيها حيث قد بالغ الحاكم الجديد فى مطالبة رؤســاء افريقية بان يقدموا اليه من الأموال مثـل ما دفعوا لابن ابى السرح فى صلحهم معه مما ادى الى تذمر أهل افريقية وكثرة النزاع والخصام بينهم وبين الحاكم الجديد مما دعاه الى حبسهم(٦٤) . ولذلك تذكر بعض الروايات ان الحاكم الذى اقامه أهل افريقية بعـد جرجير لجأ الى معاوية بن ابى ســفيان واصفا له امر افريقية وطالبا منه ارســال جيش لفتح أفريقية(٦٥) .

وهكذا نرى ان أهل أفريقية قد ثاروا وغضبوا من حاكم هرقـل الجديد كما نلاحظ أن الوالى الســابق يذهب الى دمشق لكى يستنجد بالخليفة معاوية .

ولقد حاول الخليفة ان يستفيد من هذه الفرصــة السانحة فسارع بارسال معاوية بن حديج لاستئناف أفريقية .

وقد سار معاوية بن حديج بالقوة الى أرسلها معه الخليفة حتى دخل

---

(٦٣) أنظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٦ ، رياض النفوس للمالكى ص ٧

(٦٤) انظر الطبرى جـ ٥ ص ٥١

(٦٥) انظر الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٤٤ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٦

بها افريقية فنزل بجيشه على قمونية وهى قيروان أفريقية[٦٦] وغادرها الى مكان يقال له القرن[٦٧] حيث بعث الى جلولاء[٦٨] عبد الملك بن مروان فى ألف رجل ... فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها[٦٩] .

ولقد وصلت أنباء حملة معاوية بن حديج الى صاحب القسطنطينية فارسل جيشا فى البحر مكونا من ثلاثين الف مقاتل لرد جيش المسلمين غير أن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم قرب قصر الأجم[٧٠] ويقال ان الجيش الرومى قد انسحب من غير أن يقاتل جيش المسلمين الذى ارسله معاوية ابن حديج بقيادة عبد الله بن الزبير للتصدى لجيش الروم ثم تمكن الزبير بعد ذلك من فتح سوسه[٧١] ويفيدنا المالكى « ان معاوية غزا بنزرت وغنم غنائم كثيرة من نواحيها ورجع قافلا الى قمونية وبنى بناحية القرن مساكن وسماها (قيروان) وموضع القيروان غير مسكون ولا معمور[٧٢] .

ومن هذا نرى معاوية بن حديج قد تمكن من فتح جلولاء وسوسة وبنزرت وان لم يخض معارك فاصلة ولعل ذلك يوضح لنا بعض آثار غزوة عبد الله بن أبى السرح وظهور ميل الأفريقيين لوجود المسلمين

---

(٦٦) الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٤٣

(٦٧) القرن : جبل بأفريقية وهو المعروف الآن بجبل وسلات انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب جـ ١ ص ٨٠

(٦٨) جلولاء قريبة من القيروان الحالية على بعد ٢٤ ميلا منها انظر ماكينة حسين مؤنس فى فتح العرب للمغرب ص ١٢٣ هامش .

(٦٩) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٣

(٧٠) الخلاصة النقيه للباجى ص ٤ ، ٥ وتاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ١٣ وابن الأثير تاريخ الكامل جـ ٣ ص ٤٥

(٧١) انظر ابن عذارى جـ ١ ص ١٦ وسوسة ميناء على البحر وصار ميناء كبيرا أيام الأغالبة .

(٧٢) رياض النفوس للمالكى ص ١٩

فيها كما بدأت تظهر فكرة ايجاد مصر اسلامى فى أفريقية يكون مستقرا للجيش الاسلامى وقاعدة ارتكاز له ينطلق منها لتحقيق أهدافه بدون ان تكون المسافات الشاسعة قد استنفذت جهده واضعفت من قوته ٠ واذا كانت فكرة ايجاد مدينة ومعسكر ليستقر فيه المسلمون قد ابتدأها معاوية بن حديج الا أن الذى تولى تنفيذ فكرة هذه المدينة وتأسيسها واعطائها طابعها الحقيقى فانما هو القائد الذى سيتولى أمر الفتوح من بعد معاوية بن حديج وهو عقبة بن نافع الذى سيسند اليه الخليفة فى دمشق امر افريقية فاصلا بين الامارة فى مصر والقيادة فى أفريقية[٧٣] وحيث استقر ابن حديج واليا على مصر وحدها ٠

* * *

ـ عقبة بن نافع فى أفريقية :

ومما لا شك فيه أن اختيار عقبة بن نافع لقيادة الفتح فى أفريقية كان اختيارا موفقا لرجل عاش قريبا من أفريقية أو فيها منذ توجه جند من المسلمين الى المغرب وعاش كل هذه الفترة مشاركا فى الفتح أو قريبا منه ٠ لقد عاش فى برقة وتولى أمرها منذ فتحها المسلمون فكان خير داعية للاسلام واسناد أمر أفريقية اليه معناه أن يجعل أفريقية أرضا اسلامية كما صارت برقة من قبل ولذلك ابتدأ عقبة اقامته فى أفريقية بتأمين الأماكن الداخلية ثم ابتدأ يؤسس القيروان لتكون القاعدة الاسلامية والمدينة الاسلامية التى يذود عنها المسلمون والتى تنطلق منها الحملات للقضاء على الروم الذين لازالوا يقيمون فى شمالها ثم لنشر الاسلام بين السكان : فى الداخل أو على الساحل ٠

فقد خرج عقبة الى أفريقية بعد معاوية بن حديج « فاقبل حتى نزل بمغمداش »[٧٤] من سرت ٠٠٠ فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ثم سار بنفسه وبمن

---

(٧٣) انظر حركة الفتح الاسلامى لشكرى فيصل ص ١٦٢

(٧٤) مغمداش : بلد قرب من سرت بليبيا ٠

خف معه أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قرية حتى قدم ودان فافتتحها ... ثم فزان ففتح قصورها ... ثم انصرف راجعا فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر وقد جمعت خيولهم وظهرهم فسار متوجها الى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ الى أرض مزاته فافتتح كل قصر بها ... ثم بعث خيلا الى غدامس[٧٥] فافتتحت غدامس فلما انصرفت اليه خيله سار الى قفصه(٧٦) فافتتحها وفتح(٧٧) قصطيلية(٧٨) .

وقد انضم الى جيش عقبة المكون من عشرة الاف جندى من أسلم من البربر[٧٩] فى تلك البلاد مما يدل على ان أهل البلاد قد اعتنق كثير

---

(٧٥) غدامس : واحة من واحات طرابلس الصحراوية وتقع فى الجنوب الغربى من مدينة طرابلس على بعد ٥٠٠ كم ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا للطاهر الزاوى ص ٨٧

(٧٦) قفصة : بلدة بتونس وكان لها شأن كبير فى عهد الرومان بينها وبين القيروان ثلاثة أيام .

(٧٧) قصطيلية : احدى بلاد الزاب على حدود الصحراء .

(٧٨) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٥ ، ١٩٦ بتصرف .

(٧٩) البربر : قسم النسابة قبائل البربر الى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس ، البتر وقالوا ان الجماعة الأولى أبناء برنس بن بر ، وان الجماعة الثانية أبناء ما دغيس بن بر الذى لقب بالأبتر .

(أ) البرانس :

من قبائلهم المشهورة عشر : ازداجة ، ومصمودة ، أوربة ، عجيسة ، كتامة ، صنهاجة ، أوريغة ويضاف اليهم لمطة وهكسورة ، وجزولة . وهذه الأصول تنقسم الى فروع صغيرة فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة وقبيلة مليلة تنحدر من هوارة وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة .

(ب) البتر :

من قبائلهم المشهورة أربعة : ادراسة ونفوسة وضريسة وبنولوا =

منهم الاسلام وحسن اسلامه فانضم الى الكتائب المدافعة عن الاسلام ولكثرة ارتداد بعض البربر فى مداخل افريقية عن الاسلام حمل ذلك عقبة على الشدة معهم فـ « وضع السيف فى أهل البلاد لانهم كانوا اذا دخل اليهم امير أطاعوا وأظهر بعضهم الاسلام فاذا عـاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسـلم »[(٨٠)] .

ولقد كان لهـذه الغزوة أثر عميق فى الروم والبربر حيث تمكن عقبة من الاستيلاء على بعض الحصون والقلاع كما شعر الروم والبربر بقوة المسلمين علاوة على تاسيس القيروان ويعبر الدباغ عن ذلك بأنه « افتتح كثيرا من حصونها ـ اى افريقية ـ واثخن فى قتـل الروم والبربر واختط مدينة القيروان وتجول بها أياما . ثم قـدم ابو المهاجر دينار مولى مسـلمة بن مخلد الانصارى الى افريقية سـنة خمس وخمسين فعزل عقبـة وقيده وحبسه وخرب ما كان اختطه وبناه بالقيروان »[(٨١)] .

ورغم ان عقبة لم يقم خلال هذه الفترة التى تولى فيها أمر افريقية الا بتطهير الداخل ثم شن بعض الحملات خلال قيامه بتأسيس القيروان الا ان كارل بروكلمان يعده المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى افريقية الشمالية ويبالغ فيذكر انه وفق للقضاء على الحكم النصرانى فى شـمال افريقيا جملة فهو يعتبره « المؤسس الحقيقى للحكم العربى فى افريقيـة الشمالية ... ووفق بمعاونة البربر الى القضاء على الحكم النصرانى فى شمال افريقية جملة واحدة ثم عزل بعد أن انشأ مستعمرة عسكرية فى القيروان »[(٨٢)] .

= الأكبر ومن قبيلة لوا قبيلنا نفزاوة ولواته ومن قبيلة نفزاوة تنحدر قبيلة ولهاصـة ومن ولهاصة تنحدر قبيلة تيرغاش ومن تيرغاش تنحدر قبيلة ورفجوة . انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٦ .

(٨٠) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤

(٨١) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧

(٨٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ـ كارل بروكلمان ج ١ ص ١٥٢ .

ولا شك ان عقبة اثناء قيامه ببناء مدينة القيروان كان يواصل تحسس اخبار عدوه بارسال الطلائع والحملات السريعة التى تثبت قوة المسلمين كما تقوم بالدور المهم الذى يملأ شغاف قلب عقبة واصحابه وهو نشر الاسلام وتبيينه للناس وبذلك « دخل كثير من البربر فى الاسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان واطمانوا على المقام فثبت الاسلام فيها »(٨٣) .

وبهذا يتبين لنا ان بناء القيروان كان ذا اثر عميق لتقوية جنان الجنود وبعث الاطمئنان الى النفوس لترضى بالمقام ثم تثبيت بذور الاسلام فى افريقية .

وبعد ان مكث عقبة فى ولايته هذه خمس سنوات قضى معظمها فى تاسيس القيروان ونشر الاسلام فى النواحى القريبة منها عزل عنها بأبى المهاجر دينار سنة خمس وخمسين هجرية(٨٤) .

* * *

ـ ابو المهاجر دينار :

عندما اوشك عقبة على الانتهاء من تأسيس القيروان لكى يواصل الفتح فيزيل سلطان الروم من الشمال ثم يستمر فى نشر الاسلام بين البربر حسب خطته فوجىء بعزله بأبى المهاجر دينار فى سنة خمس وخمسين هجرية والبلاذرى يشير الى ولاية ابى المهاجر دون اى ذكر لاعماله فقد « عزل معاوية بن ابى سفيان معاوية بن حديج وولى مصر والمغرب مسلمة بن مخلد الأنصارى فولى المغرب ابا المهاجر دينار مولاه فلما ولى يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع على عمله »(٨٥) . وهكذا

(٨٣) ابن الأثير اسد الغابة جـ ٣ ص ١٨٤ عن فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ١٤٦ .

(٨٤) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٣٤ .

(٨٥) البلاذرى فتوح ص ٢٧٠ .

لا يسند اليه البلاذرى اى عمل قام به سوى الاشارة الى ولايته وعزلـه ٠ أما ابن عبد الحكم فيسند اليه أنه اقام بأفريقية واتخذها منزلا لا يفارقها الى الفسطاط وان كان قد كره ان ينزل فى قيروان عقبة « ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل ٠ وكان الناس قبل أبى المهاجر يغزون افريقية ثم يقفلون منها الى الفسطاط ٠ واول من اقام بها حـين غزاها أبو المهاجر مولى الانصار اقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلا »[٨٦] ٠

ولكننا نعلم ان عقبة قد أقام فى افريقية أربع أو خمس سنوات حين كان يبنى القيروان فكيف يرى ابن عبد الحكم ان أبا المهاجر هو أول من اقام بافريقية فترة الشتاء والصيف ؟

ولعله يقصد بذلك الفترة التى فضاها ابو المهاجر فى حملته على المغرب الأوسط التى انتهى فيها الى العيون المعروفة بأبى المهاجـر نحو تلمسان[٨٧] ولبث فيها هناك نحو عامين أو ثلاثة[٨٨] وفى خروجـه هذا « افتتح أبو المهاجر المذكور ميله[٨٩] (مدينة صغيرة بينها وبـين بجاية[٩٠] ثلاثة أيام) وكانت اقامته فى هذه الغزوة نحوا من سنتين[٩١] »

ويحدثنا المالكى عن الجند الذى صحب أبا المهاجر بأنهم من أهل الشام ومصر وانه حارب بهم قرطاجنة ثم يشير اشارة مهمة الى أنه قد وجه حسين بن عبد الله الصفهاجى بجيش الى الجزيرة[٩٢] فافتتحها ٠ ومن

---

(٨٦) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ ٠

(٨٧) تلمسان : مدينة بالمغرب اسمها القديم اقادير على بعد مرحلة من وهران ٠ انظر التفاصيل معجم البلدان(٢/١٠٩) ٠

(٨٨) المالكى رياض النفوس ص ٢١ ٠

(٨٩) ميلة : مدينة صغيرة بينها وبين بجاية ثلاثة أيام ٠

(٩٠) بجاية : مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب ٠ التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٦٢) ٠

(٩١) ابو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٥ ٠

(٩٢) نفس المصدر ٠

هنا يظهر لنا أن بعض القيادات من البربر من صنهاجة قد ظهر منذ زمن مبكر . ذلك ان أبا المهاجر قد « نزل بفحص تونس ويقال انه نـــزل بسيخة وبنى بها ومنها حارب اهل قرطاجنة ووجه حسين بن عبد الله الصنهاجى بجيش الى الجزيرة فافتتحها وكتب الى ابى المهاجر بذلك فرحل اليه واجتمع معه وقسم الفىء هنالك بين جميع الجيش ثم انصرف فنزل بدكرور مدينة البربر بالقرب من موضع القيروان ووجه بالخمس الى مصر »[٩٣] ويقال : ان أبا المهاجر عقد صلحا مع أهل قرطاجنة على أن يخلو جزيرة شريك[٩٤] .

ومن هنا نرى أن أبا المهاجر قد قاتل الروم فى قرطاجنة واستطاع أن يستخلص جزيرة شريك منهم ويعقد صلحا معهم ليتوجه بجيوشه الى البربر متوغلا الى المغرب الأوسط حيث ينازل البربر فى عقر دارهم ويتغلب عليهم ثم هو يتالفهم حتى يعتنقوا الاسلام ويكون ذلك نصرا لنشر الاسلام فى أماكن لم ينشر فيها من قبل ويشير الى ذلك ابن عذارى ضمن حديثه عن عقبة وموقفه من كسلة بن لمزم الاوربى « بأن ابا المهاجر فى ولايته لافريقية كان نهض الى المغرب فنزل عيونا عند تلمسان تعرف الآن بعيون ابى المهاجر فزحف منها الى كسيلة وهو فى عدة من قبائل البرانس فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الاسلام فأسلم واحسن اليه أبو المهاجر واستبقاه »[٩٥] .

ويزيد ابن خلدون الامر وضوحا بأ نكسيلة كان على دين النصرانية وانه كان رئيسا لاوربة التى كانت تتزعم البربر آنذاك وقد اجتمع اليه البرانس فزحف اليهم أبو المهاجر وانتصر عليهم « فظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه »[٩٦] وبذلك استطاع ابو المهاجر خلال فترة ولايته ان يتعمق فى الداخل بين البربر الى أن وصل الى تلمسان فى المغرب الأوسط واذا كان

---

(٩٣) المالكى رياض النفوس ص ٢٠ .

(٩٤) انظر قادة فتح المغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٣٩ .

(٩٥) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٩٦) ابن خلدون عبر ج ٦ ص ١٠٧ .

لم يستطع ان يتغلب على قرطاجنة فقد استولى على جزيرة شريك ووصل من ناحية الساحل الى ميلة ثم عاد الى المكان الذى بناه ليجد أن الخليفة يزيد بن معاوية قد أعاد عقبة لكى يتولى أمر افريقية مرة أخرى ٠

ـ عقبة بن نافع فى افريقية ثانيا :

لقد قضى عقبة وقتا طويلا فى برقة وعندما اسند اليه أمر افريقية اختط القيروان لتكون قاعدة للمسلمين لكى يواصل منها تبليغ الدعوة الى الشمال الافريقى كله ولكنه بعد أن اتم بناء القيروان عزل عن امارة افريقية ولذلك ذهب الى دمشق لكى يوضح للخليفة خطته ويبين ما يرمى اليه من نشر للاسلام وفتح للبلاد كما يوضح ما قد تم فى فترة ولايته السابقة ويورد ابن عبد الحكم أن عقبة قدم « على معاوية بن ابى سفيان فقال له فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لى ثم ارسلت عبد الانصار فأساء عزلى فاعتذر اليه معاوية »(٩٧) ٠

بينما يذكر المالكى : انه قدم على معاوية بن ابى سفيان فوجده قد توفى الى رحمة الله وتولى بعده يزيد فدخل عليه فأخبره بما صنع ابو المهاجر وما دخل عليه منه وقال له : لما افتتحتم افريقية بنيت مسجد الجماعة ثم بعثتم عبد الانصار فاهاننى واساء عزلى فغضب يزيد وقال « ادركوها قبل أن يخربها » ورد عقبة « وازال مسلمة عنها واقره بمصر وذلك سنة اثنين وستين وقدم عقبة الى القيروان بعشرة آلاف فارس »(٩٨) ورأى المالكى هذا يتفق مع رواية ابن عبد الحكم الثانية فى انه قدم على يزيد لا على معاوية ٠

---

(٩٧) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٧ ٠

(٩٨) المالكى رياض النفوس ص ٢٠٢ وبذكر الدباغ كذلك ان جند عقبة كان عشرة آلاف ولكن الدكتور حسين مؤنس يقول نقلا عن الدباغ انهم كانوا خمسة عشر الفا ٠ فتح العرب للمغرب ص ١٨١ ويتابعه د ٠ سيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٢٢٢ ٠

ابتدأ عقبة عمله من حيث تركه فبدأ بتعمير القيروان واعادتهـــا الى سابق عهدها وجعلها موطنا ومقرا للمسلمين « فجدد بناء القيروان وشيدها ونقل الناس اليها فعمرت وعظم شأنها »(٩٩) .

وبادر عقبة ذلك بحملة كبرى على المغرب وهى حملة طويلة وسريعة وصل فيها الى المحيط وقاتل فيها الروم والبربر وانتصر على كل من لاقاه وفضهم حيث استفتح حصون الفرنجة مثل باغاية(١٠٠) ولميس ولقيه ملوك البربر بالزاب(١٠١) وتاهرت(١٠٢) ففضهم جمعا بعد جمع ودخل المغرب الأقصى واطاعته غمارة « ثم اجاز الى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام وهم يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية فاثخن فيهم وانتهى الى تارودانت وهزم جموع البربر وقاتل مسوفة من وراء السوس وساسهم وقفل راجعا »(١٠٣) .

وبعض المؤرخين يذكر انه ترك بالقيروان جندا واستخلف عليهـــا زهير بن قيس البلوى كما انه عندما هزم الروم عند باغاية كرة المقام

---

(٩٩) رياض النفوس المالكى ص ٢٢ .

(١٠٠) باغاية : مدينة كبيرة فى اقصى افريقية بين مجانة وقسنطينة وهى حصن بربرى قديم وكان سكانها من البربر والروم شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ٩١ .

(١٠١) بلاد الزاب : بلاد واسعة من مدنها بسكرة وقسنطينة وقفصة وهى كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليـــه بلاد واسعة وقرى متواطنة بين تلمسان وسجلماسة والنهر متسلط عليها . وفى تاريخ المغرب الكبير (٤٢/٢) ان بلاد الزاب نطلق عليها اليوم ولاية قسنطينة المرجع السابق ص ٩١ .

(١٠٢) تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين باقصى المغـرب يقال لاحدهما : تاهرت القديمة وللأخرى : تاهرت المحدثة المرجع الســابق ص ١٠٩ .

(١٠٣) ابن خلدون عبر جـ ٦ ص ١٠٧ .

عليها فسار الى الزاب وقتل النصارى فى مدينتها اربه[١٠٤] وقد استعان الروم بالبربر فى تاهرت ولكنه تغلب عليهم وغنم المسلمون المال والسلاح كما نزل بطريق طنجة على حكمه فاستفهم منه عن حالة الأندلس وهنا نرى ان عقبة كان يتطلع الى فتح الأندلس ولكن البطريق عظم الأمر عليه فسار الى السوس[١٠٥] الأدنى ثم السوس[١٠٦] الأقصى فقتل فى البربر قتلا ذريعا وسار حتى بلغ ماليان[١٠٧] ورأى البحر المحيط فقال « يارب لولا هـذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه »[١٠٨] ٠

ويذكر ابن عذارى « ان صاحب سبتة سأل عقبة المسالمة وان ينزل على حكمه فقبل منه واجتمع به »[١٠٩] حيث صالحة وأقره على بلاده[١١٠] ٠

ويعلق الرقيق القيروانى على موقعة من المواقع التى خاضها عقبة

---

(١٠٤) اربة : مدينة بالمغرب من اعمال الزاب وهى أكبر مدينة بالزاب شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ١٠٨ ٠

(١٠٥) السوس الأدنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها : قمونية وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين المرجع السابق ص ٩١ ٠

(١٠٦) السوس الأقصى : أقصى بلاد البربر على المحيط والسوس الأقصى اسم مدينة الا انها كورة عظيمة ذات مدن وقرى وسعة وخصب يحف بها طوائف من البربر نفس المرجع ص ٩١ ٠

(١٠٧) ماليان : بلد فى أقصى بلاد المغرب ليس وراءه غير البحر المحيط ٠ معجم البلدان (٣٦٧/٧) ٠

(١٠٨) الكامل لابن الأثير بتصرف جـ ٤ ص ٥٣ ٠

(١٠٩) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦ ٠

(١١٠) تاريخ افريقية والمغرب للرقين القيروانى ص ٤٣ ٠

فى حملته على المغرب وهى موقعة ادنه[111] بقوله « فانهزم القوم وقتل فيها اكبر فرسان البربر فذهب عزهم من الزاب وذلوا آخر الدهر »[112] كما كان لهذه الموقعة اثر كبير بالنسبة للروم حيث ذهب عز الروم من الزاب وذلوا وتحصنوا[113] .

ومن هنا يتبين لنا ان عقبة قد نجح فى التغلب على كل الجموع التى تصدت له الى أن قفل راجعا ولو لم ينته الى الغاية التى سينتهى اليها من الاستشهاد لكان لتلك الغزوة اثر كبير فى عدم انتقاض الشمال الافريقى كله بعد استشهاده . ولكن الدكتور حسين مؤنس يعلق على نتيجة هذه الغزوة بقوله : « ثم انقلب بعد ذلك عائدا ادراجه ليعود الى القيروان دون أن يترك باى ناحية مر بها اثرا يذكر »[114] ثم يقول « بل لم يكن نشر الاسلام غاية واضحة فى ذهن عقبة اذ لو كان يطلب هذا فليس تلك هى السبيل التى تؤدى الى ادراك هذه الغاية انما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الاسلام وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية فان ابوا كانت الحرب هكذا كان الفاتحون فى الشام ومصر يفعلون ، بل هكذا فعل عبد الله بن سعد مع جرجير . اما عقبة فكان ينقض على المدائن محاربا مقاتلا ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون ان ينتهى مع اهل البلد الى شىء معلوم بل لو كان يرجو نشر الاسلام لخلف فيما مر به من البلاد نفرا يعلم أهله الاسلام »[115] .

ولا شك ان هذا فيه تجن كبير على عقبة رضى الله عنه فلقد كان عقبة يعرض الاسلام قبل الحرب شأن كل قادة المسلمين كما اقام المساجد

---

(١١١) ادنة : بلدة كثيرة الأنهار والعيون العذبة تبعد عن المسيلة بأربعة مراحل انظر الرقيق تاريخ افريقية ص ٤٢ .

(١١٢) المؤنس لابن أبى دينار ص ٣٠ .

(١١٣) المالكى رياض النفوس ص ٢٣ .

(١١٤) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ١٩٥ .

(١١٥) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

فى كثير من الأماكن التى مازالت تنطق بأثر عقبة وتعطينا الدليل الباقى شاهدا على ما كان لهذه الغزوة من تأثير مازال مستمر الى الآن حيث ان أهل البـلاد مازالوا يعظمون تلك المساجد التى انشأها عقبة أثناء غزوته فيها الى ماسة بمكان من السوس الأقصى فبنى بها مسجدا(١١٦) .

كما يذكر ابن عذارى انه « سار حتى نزل ايجلى بالسوس وبنى فيه مسجدا وانه لم يصح عنده ان عقبة رضى الله عنه حضر بنيان شىء من المساجد بالمغرب الا مسجد القيروان ، ومسجدا بدرعة ومسجدا بالسوس الأقصى . واما غير ذلك من المساجد المسماة باسمه فان الناس والله اعلم بنوها بموضع نزوله »(١١٧) .

وهكذا نرى ان عقبة حتى فى أثناء قيامه بالغزوة كان يبنى المساجد وهـذا يعطى دليلا على انه كان هناك من يدخل فى الاسلام من أهل هـذه النواحى وانه كان يهتم بالدعوة الى الله ونشر الاسـلام قبل أى شىء آخر . وان المساجد الكثيرة التى تحمل اسمه والتى بناها الناس بعد ذلك بالمواضع التى كان ينزل فيها . يعطى الدليل الواضح على الأثر الذى تركه عقبة فى المغرب ثم يزيد ابن عذارى موضحا انه ترك فى المغرب صاحبه شاكرا وبين انه كان يعرض الاسـلام ويدعو اليه قبل أن يشهرا السيف . يقول « ثم رجع عقبة قافلا الى المغرب الأوسط وسلك على ايفيران يطوف ثم الى تارنا ثم الى موضع شاكر وترك به صاحبه شاكرا فسمى باسمه . ثم رحل منه الى بلاد دكالة فوجد فيهـا قوما فدعاهم الى الاسـلام فامتنعوا فقاتلهم فقتلوا جملة من أصحابه فسمى ذلك الموضـع مقبرة الشـهداء الى الآن . ثم رجع من دكالة الى بلاد هسكورة الى موضع يقال له اطار فوجد فيه أقواما فدعاهم الى الاسـلام فامتنعوا فتقاتل معهم حتى فروا أمامه فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب »(١١٨) كما يعبر ابن عذارى فى مكان آخر بأنه ترك فى

(١١٦) المـالكى رياض النفوس ص ٢٦ .
(١١٧) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢٧ .
(١١٨) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٨ .

المغرب الأقصى اكثر من معلم غير شاكر كما يذكر ان كثيرا من المصامدة أسلموا على يديه يقول « وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والاسـلام ومنهم شاكر صاحب الرباط وغيره ولم يدخل المغرب الأقصى احد ولاة خلفاء بنى أمية بالمشرق الا عقبة بن نافع الفهرى ولم يعرف المصامدة غيره وقيل ان أكثرهم أسلموا طوعا على يديه »[(١١٩)] ٠

ولذلك يعود الدكتور حسين مؤنس بعد انكاره لآثار عقبة فى تلك الغـزوة الى الاعتراف ببعض آثاره فيقول « لهـذا لم يكن موت عقبة وأصحابه يقاض على كل اثر للمسلمين فيما فتحوه من البلاد ولكنه كان قاضيا على بعض الأثر السياسى لأن عمل عقبة لم يكن سياسيا وانما كان دينيا »[(١٢٠)] وقفل عقبة بعد وصوله الى البحر المحيط قاصدا القيروان « فلمـا انتهى الى ثغرة افريقية اذن لمن معه من أصـحابه أن يتفرقوا ويقدموها فوجا فوجا وعند طبنه[(١٢١)] اذن لمن بقى معه بالانصراف الى القيروان ومال فى خيل يسير يريد تهودة»[(١٢٢)]، [(١٢٣)]وكان عقبة بن نافع قد اساء الى كسيلة بن لمزم الزعيم البربرى ولم يحفل به عندما تولى امارة افريقية للمرة الثانية وتبالغ المصادر فى هـذه الاساءة التى وجهها الى كسيلة غير ان الشىء الذى لا شك فيه أن كثيرا من البربر والروم كانوا يتحينون الفرصة التى يتمكنون فيها من القضاء على عقبة بعد ان فل جموعهم وشتت شـملهم وانتصر عليهم فى كل المواقع التى خاضها

---

(١١٩) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٤٢ ٠

(١٢٠) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ٠

(١٢١) طبنة : بلدة فى طرف افريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب انظر معجم البلدان (٢٨/٦) ٠

(١٢٢) تهودة : مدينة فى جنوب جبال أوراس وفى الجنوب الشرقى لمدينـة طبنة وتبعد عنهـا ٣٧٫٥ ميـلا ٠ شيت خطـاب فتح المغـرب ج ١ ص ١١١ ٠

(١٢٣) المـالكى رياض النفوس ص ٢٥ ٠

ضدهم فما زالوا يتربصون به حتى واتتهم الفرصة عندما انفرد بعيدا عن جيشه فتمكنوا من القضاء عليه .

فقد « عرض له كسيلة بن لملم فى جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه افتراق الناس عن عقبة فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل عقبة ومن معه »(١٢٤) .

وهكذا كان عدم الحذر حتى بعد الانتصار هو السبب الذى مكن الروم والبربر للتجمع واغتنام الفرصة للقضاء على عقبة وحمل الجيش الاسلامى على مغادرة افريقية وترك القيروان حيث حاول كسيلة اغتنام كل أبعاد الفرصة التى واتته فجمع أهل الغرب وزحف الى القيروان « فانقلبت افريقية نارا وعظم البلاء على المسلمين فخرجوا هاربين لعظم ما اجتمع من البربر والروم مع كسيلة »(١٢٥) ويعلل الرقيق القيروانى خروج جيوش المسلمين من القيروان وعدم تصديهم لكسيلة والدفاع عن القيروان بعدم القدرة على مواجهته مع جموعه الغفيرة واعتقادهم بأن الهزيمة ستحل بهم حيث « لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما اجتمع معه من البربر والروم واسلموا القيروان وبقى بها أصحاب الذرارى والأثقال فارسلوا الى كسيلة يسالونه الأمان فأمنهم وأجابهم وأقام كسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميرا على افريقية وقد بقى من بقى من المسلمين تحت يده »(١٢٦) .

وبذلك تحقق لكسيلة بعد ان تمكن من اغتيال عقبة من أن يكون أميرا على كل افريقية حيث أمن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين وأقام بالقيروان أميرا على سائر افريقية والمغرب وعلى من فيه من المسلمين الى ان ولى الخلافة عبد الملك بن مروان . ولقد حاول خليفة عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى ان يقاتل كسيلة بمن بقى من

---

(١٢٤) ابن عبد الحكم فتوح ص ١٩٨ .
(١٢٥) رياض النفوس للمالكى ص ٢٨ .
(١٢٦) تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص ٤٦ .

الجيش مع الحامية التى تركها عقبة عند مغادرته القيروان وان يدافع عن القيروان غير ان اثر قتل عقبة وما اجتمع حول كسيلة من الأعداد الكثيرة من الروم والبربر حمل حنش الصنعانى[١٢٧] ان يجاهر بتفضيل الانسحاب من القيروان على لقاء كسيلة بجموعه « لا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين الى مشرقهم »[١٢٨] واضطر زهير خليفة عقبة الى مغادرة القيروان تحت هـذه الظروف القهرية الخارجة عن ارادته بالنسبة للعدو وللحامية التى معه حيث خالفه حنش[١٢٩] الصنعانى وعاد الى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير الى العودة معهم فسار الى برقة واقام بها[١٣٠] ٠

ولا شك ان قتل عقبـة فى تهودة كان مأساة حقيقيـة كمـا يقول الدكتور شكرى فيصل[١٣١] وان كان لم يفن الجيش كله فى تهودة وانما استشهد عقبة والعدد القليل الذى كان معه ثلاثمائة مقاتل ٠ ولقد قتل النعمان بن مقرن فى موقعة نهاوند ولكن كان النصر فى المعركة ٠

ولذلك فاننى القى بعض المسئولية فى خروج البلاد من طنجة الى القيروان على بقية قوات الجيش التى آثرت الانسحاب ولم تمل الى رأى

---

(١٢٧) حنش الصنعانى : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة تابعى كبير ثقة روى عن رويفع بن ثابت ، وأبى هريرة غزا المغرب وسكن افريقية وهو أول من ولى عشور افريقية فى الاسلام ، غزا الأندلس مع موسى بن نصير توفى سنة ١٠٠ هـ ٠ شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ١٥٢ ٠

(١٢٨) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣١ ٠

(١٢٩) يذكر اللواء محمـود شيت خطاب فى قادة فتح العرب للمغرب ان الصحيح هو حنش لا جيش جـ ١ ص ١٥٢ وهو حنش فى البيان لابن عذارى جـ ١ ص ٣١ ٠

(١٣٠) ابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ٥٤ ٠

(١٣١) حركة الفتح الاسلامى ص ١٧٠ ٠

زهير فى مقاومة كسيلة ولو حدث وانصتت القوات المقاتلة الى حديث زهير وهو يناديهم « يا معشر المسلمين ان صحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك »(١٣٢) لكان لهم النصر على هذه القوات التى انتصروا عليها من قبل وسينتصرون عليها بعد ذلك ولم يفضلوا الانسحاب على المواجهة ٠

* * *

ـ زهير بن قيس البلوى : يسترد القيروان :

لا شك ان مدينة القيروان قد أسست لتكون مدينة اسلامية على المسلمين ان يقطنوها ويدافعوا عنها ويضطلعوا بحمايتها ، ولقد كان تغلب كسيلة واضطراره الجيش الاسلامى الى الرحيل عنها مخلفا « أصحاب العيال وكل منقل من التجار وأهل الذمة »(١٣٣) دافعا للمسلمين لاستردادها ثم بعد ذلك متابعة الفتح ، وهكذا نرى مركز القيروان وسكانتها تطالب المسلمين جميعا بأن يدافعوا عنها فيتحدث بشانها اكابر المسلمين الى الخليفة مطالبين باستردادها فيستشير الخليفة وزراءه فيجتمع الرأى على تعيين زهير بن قيس البلوى ليتولى استخلاص القيروان واسترجاع هيبة المسلمين والأخذ بثار عقبة بن نافع « ففى سنة ٦٥ من الهجرة ولى عبد الملك بن مروان فلما اشتد سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص افريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال : لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر الا من هو مثله دينا وعقلا » فاستشار وزراءه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوى وقالوا : هذا صاحب عقبة وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم يطلب دمه فوجه عبد الملك الى زهير وهو ببرقة فأمره بالخروج على أعنة الخيل الى افريقية ليستنقذ من بالقيروان فكتب اليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم فامده عبد الملك بن مروان بالخيل والرجال

---

(١٣٢) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٣١ ٠

(١٣٣) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٥٥ ٠

والأموال وحشد اليه وجوه العرب وبعثهم اليه فوفدت الجبوش على زهير وتسرع الناس معه الى افريقية »[١٣٤] ٠

ولقد كان لكل من الشــام ومصر أثر واضح فى هذا البعث الذى أسند اليه استرداد القيروان حيث قامت مصر بتقديم الأموال والشــام بتقديم الرجال فقد « ارسل عبد الملك الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام وافرغ عليهم أموال مصر فسارع الناس الى الجهاد »[١٣٥] ٠

اما زهير فقد قضى هــذه الفترة ــ منذ غادر القيروان بعد قتل عقبة الى أن وجهه الخليفة عبد الملك بن مروان لاستنقاذ القيروان ــ مرابطا فى برقة يذود عنها من يريد بها سواء وخاض كثيرا من المواقع هو ومن بقى معه من الجيش الافريقى[١٣٦] ٠ فكانت له بها وقائع كبيرة[١٣٧] ٠

ولقد استمر حكم كسيلة للقيروان خمس سنين اتسع فيها سلطانه وأعطى الأمان للعرب الذين تخلفوا عن اللحاق بالجيش من أهل الذرارى والأثقال وعظم خلالها سلطانه على البربر[١٣٨] ٠

وكان اسناد عبد الملك ولاية افريقية الى زهير لكى يستنقذها من يد كسيلة فى سنة ٦٩ ووجه اليه جيشا كبيرا قدره صاحب تاريخ المغرب الكبير بعشرة آلاف جندى[١٣٩] ٠ وعندما احس كسيلة بقدوم جيش المسلمين أحضر أشراف اصحابه وعرض عليهم اختيار ممس[١٤٠] مكانا للمعركة

---

(١٣٤) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٣١ ٠

(١٣٥) رياض النفوس للمالكى ص ٢٩ ، ٣٠ ٠

(١٣٦) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيروانى ص ٤٧ ٠

(١٣٧) رياض النفوس للمالكى ص ٣٠ ٠

(١٣٨) العبر لابن خلدون جـ ٦ ص ١٠٧ ٠

(١٣٩) تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز جـ ٢ ص ٦٢ ٠

(١٤٠) ممس : مدينة بيزنطية قديمة وتقع فى جنوبى القيروان المــالكى رياض هامش ص ٢٨ ٠

بحيث يكون آمنا من غدر المسلمين فى القيروان ثم اذا هزم العرب تتبعهم وقطع اثرهم من افريقية كلها واذا هزمه العرب لجأ الى الجبال ونجا من قبضة المسلمين فأجابه أصحابه الى رأيه فغادر القيروان متجها الى ممس ليتمكن من الفرار من وجه العرب عند الهزيمة(١٤١) ٠

وكان استعداد كسيلة لخوض المعركة استعدادا تاما فقد تمكن من حشد عدد عظيم من البربر والروم تحت لوائه بلغ اضعاف جند المسلمين كما استشار رؤساء الجند وأشرافهم وكل ذلك أعطى لجنوده روحا معنوية جعلتهم لا يهابون المسلمين(١٤٢) ٠

وكما استعد كسيلة للمعركة وحدد مكانها فى ممس فان زهيرا حدد زمانها فلم يلتق بكسيلة فور وصوله الى القيروان بعد أن قطع جيشه مئات الأميال بل نزل قريبا من القيروان ولم يدخلها ومكث بها ليستريح جيشه ويأخذ حظه من الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة التى يأخذ بها الثأر لعقبة ويحمى القيروان ويستنقذها من كسيلة وبعد ثلاثة أيام من الراحة زحف فى اليوم الرابع فوقف على كسيلة وعسكره آخر النهار ٠ فلم ينازله ولكن الجيش بقى على مصافه طوال الليل فلما أصبح صلى مغلسا ثم تزاحف الجيشان والتحموا فى قتال عنيف ونزل الصبر وكثر القتل فى الفريقين حتى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل بممس ولم يجاوزها(١٤٣) وكتب الله النصر للمسلمين فتتبعوا فلول الجيش المنهزم ولم يمكنوهم من اللحاق بالجبال التى كانوا يريدون الاحتماء بها وقد قتل فى هذه الوقعة كثير من ملوك البربر وأشرافهم وفرسانهم كما قتل من الروم أعداد كثيرة مما أدخل الرعب

---

(١٤١) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٥٥ ٠

(١٤٢) انظر الرقيق تاريخ افريقيا ص ٤٩ ، ٥٠ البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٢ ٠

(١٤٣) الرقيق تاريخ افريقية ص ٥٠ ، ٥١ ٠

والفـــزع فى قلوب الروم والبربر ثم انصرف زهـير الى القـيروان فأوطنها[١٤٤] ٠

لقد كان لموقعة ممس فى افريقية أثر كبير فى اعادة هيبة المسلمين لـا كانت عليه قبل مقتل عقبة كما أعادت للمسلمين ما اتسموا به من عدم الخوف من عدوهم مهما كان فى كثرة كاثرة « وكان لها من الأثر الكبير فى نفوس البربر الذين كانوا يقاومون المسـلمين مثل الذى كان لمعركة تهودة فى نفوس المسـلمين من أثر قبل ، فتا فى العضد واثارة للرعب »[١٤٥] وتقوية للروح المعنوية بين المسـلمين ٠

وهكذا استطاع زهير أن يخلص القيروان وأن يسـترد للمسلمين هيبتهم فى افريقية ولكنه بعد أن يستقر له الأمر ويطمئن الى أن المسلمين قد أصبحوا فى أمان من أعدائهم يترك بالقيروان عسكرا كثيرا من أصحابه ويرحل فى جمع آخر قاصدا المشرق غير مصغ الى طلب رؤساء أصحابه بالمقام فى القيروان ٠

وعند وصوله الى برقة يلتقى بالروم المغيرين علبها حيث يلقى ربه شهيدا فى سبيل انقاذ أسرى المسلمين فى برقة ٠

فقد استغل الروم خروجه من برقة قاصدا افريقية لقتال كسيلة وأعدوا حملة بحرية كبيرة للاغارة على برقة خرجت اليها من صقلية وتمكنوا من سبى كثير من المسلمين وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك عودة زهير من القيروان وشاهد مع رجال طليعته ما فعلته تلك الحملة ضد المسلمين فخاض المعركة ضد المغيرين استنفاذا لسبى المسلمين الذين استغاثوا به عند رؤيته غير ملق بالا الى تفوق الجيش المغير على من معه وباشر القتال واشتد الأمر

---

(١٤٤) المـالكى رياض ص ٣٠ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٣٢ ٠

(١٤٥) حركة الفتح الاسـلامى فى القرن الأول وشـكرى فيصل ص ١٧٢ ٠

وعظم الخطب فتكاثر الروم عليه فقتلوا زهيرا ومن معه ولم ينج منهم احد وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية(١٤٦) .

لقد اقتص زهير من البربر لمقتل عقبة ولكنه يعود ليستشهد فى برقة بقوة مغيرة من الروم مما سيوجه نظر حسان بن النعمان الذى سيتولى أمر افريقية بعده الى محاولة القضاء على النفوذ الرومى فى شمال أفريقية حتى يقضى على كل أمل للقسطنطينية فى الشمال الافريقى كله .

ولكن لماذا عاد زهير من القيروان الى برقة أو المشرق ؟

يشير ابن عذارى وابن الأثير الى أسباب العودة بأن زهيرا رأى بأفريقية ملكا عظيما فأبى ان يقيم بها وقال « انى ما قدمت الا للجهاد وأخاف أن تميل بى الدنيا فأهلك(١٤٧) ويتفق معهما المالكى والدباغ بعبارة أخرى قريبة من ذلك . انما قدمت للجهاد ولم اقدم لحب الدنيا »(١٤٨) .

ويعلل ابن خلدون عودة زهير بقوله « ثم ترهب(١٤٩) زهير بعدها وقفل الى المشرق فاستشهد(١٥٠) ببرقة » أما الرقيق القيروانى فيذكر ما هو قريب من ذلك من رفض زهير لملك الدنيا ورغد عيشها « انى قدمت الى الجهاد واخاف أن تميل بى الدنيا فأهلك ولست أرضى بملكها ورغد عيشها »(١٥١) .

---

(١٤٦) انظر المالكى رياض ص ٣٠ ، ابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ٥٥ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٣٣

(١٤٧) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٢ ، الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٥٥

(١٤٨) رياض النفوس للمالكى ص ٣٠ ، ومعالم الايمان للدباغ جـ ١ ص ٥٩

(٣٤٩) لعله يقصد زهد فى الامارة .

(١٥٠) العبر لابن خلدون جـ ٦ ص ١٠٨

(١٥١) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيروانى ص ٥٢

هذا ما يعلل به المؤرخون القدامى عودة زهير ولم يطمئن الى ذلك الدكتور حسين مؤنس ويقول عنه : « تعليل ضعيف لان الزاهد الورع الذى يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذى يقيم على الثغور ويرابط على دار الحرب ٠٠٠ ثم يقول يبدو أن زهيرا اعتبر مهمته انتهت بعد قتل كسيلة وتخليص من بأفريقية من المسلمين ٠٠٠٠ ويبدو كذلك أن الرجل كان مسناحين هم بحملته تلك وانه لم يقم بها الا طلبا لثأر صاحبه فلما فرغ منه عجل بالعودة »(١٥٢) ٠

أما صاحب قادة فتح العرب للمغرب فيرى « ان السبب الحقيقى هو وصول معلومات اكيدة اليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة لذلك سارع الى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولا ، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الاسلامية ثانيا خاصة انه يعرف أن منطقة برقة كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريبا »(١٥٣) ٠

ويوجز صاحب حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول رأيه بقوله : « وعاد زهير ادراجه الى برقة مكتفيا بما حقق من نصر »(١٥٤) ويقول صاحب المغرب الكبير » ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير القفول الى برقة »(١٥٥) ٠

وهكذا نرى أن المحدثين من المؤرخين لا يميلون الى الأخذ برأى قدامى المؤرخين ٠

ويبدو لى أن زهيرا ربما كان لا يزال متأثرا بما حدث عقب مقتل عقبة من اختلاف الناس عليه وانه رأى ذلك طعنا فى قيادته فأثبت

---

(١٥٢) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

(١٥٣) قادة فتح العرب للمغرب شيت خطاب ج ١ ص ١٦٠ ٠

(١٥٤) حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول بشكرى فيصل ص ١٧٢ ٠

(١٥٥) المغرب الكبير سيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢٣٧ ٠

جدارته وانتصر لمقتل عقبة وبعدد أقل من جند عدوه واسترجع القيروان وأمنها وأقام عليها من يقوم بأمرها ثم بدا له انه قد اتم ما تطمئن اليه نفسه فترك ولاية افريقية وعاد . يضاف الى ذلك أنه كان يزهد فى الامارة ويرى ان امارته كانت لمهمة قد قام بها يشير الى ذلك ما عبر عنه الدباغ بعد اختيار عبد الملك له بقوله « فلما اتصل ذلك بزهير سره ذلك وسارع الى الجهاد وكتب الى عبد الملك يخبره بقلة من معه من الرجال وقلة الأموال[١٥٦] ومع ذلك فانى أقول مع الدكتور حسين مؤنس : « ذلك قصارى ما يمكن افتراضه لتعليل تلك العودة وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الأمر لا زال غامضا يحتاج الى كثير من الايضاح »[١٥٧] .

* * *

ـ حسان بن النعمان الغسانى(١٥٨) يثبت أقدام المسلمين فى أفريقية ويقضى على مقاومة الروم والبربر :

لقد استطاع زهير أن ينتصر على كسيلة وبذلك تحقق الانتصار على بربر الشمال أو البرانس وبقى بربر الجنوب البتر الذين يسكنون الأوراس ، كما بقى الروم الذين يسكنون معقلهم الحصين قرطاجنة وما يليها من مدن الساحل .

ولقد كان استشهاد زهير محددا لمن يأتى بعده للأخذ بثأره . العدو الذى يجب أن يقضى عليه حتى يصير المسلمون فى مأمن من مثل هذه الهجمات ويتفرغوا للمهمة التى يضطلعون بها من نشر الاسلام وتعاليمه فى تلك البقاع . ثم حمله الى غيرها من البقاع ان استطاعوا الى ذلك سبيلا .

---

(١٥٦) معالم الايمان للدباغ جـ ١ ص ٥٧

(١٥٧) فتح العرب للمغرب حسين مؤنس ص ٢٢٨ .

(١٥٨) انظر شيت خطاب قادة فتح العرب للمغرب جـ ١ ص ١٧٢ .

لقد استاء عبد الملك بن مروان الخليفة لاستشهاد زهير « وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة »[١٥٩] .

وكان لقتله اثره البعيد فى أفريقية فقد « اضطرمت افريقية نارا وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم[١٦٠] مما دعا اشراف المسلمين وأصحاب الراى بأن يطلبوا من الخليفة ان يوجه الى أفريقية من يستطيع ان يقوم بامرها حتى تثبت أقدام المسلمين فيها فكان اختيار الخليفة لحسان بن النعمان ليتولى أمر أفريقية وزكاه بأنه لا يصلح لافريقية احد سواه ويعبر المالكى عن ذلك بأن اشراف المسلمين سألوا عبد الملك أن ينظر الى أهل افريقية ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش اليهم فقال عبد الملك « ما أعلم أحدا أكفأ بأفريقية من حسان بن النعمان الغسانى »[١٦١] .

واختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى توجه فيها حسان الى افريقية اختلافا كثيرا فهو يتردد بين « سنة تسع وستين الدباغ[١٦٢] والرياض وسنة ثلاث وسبعين ابن عبد الحكم[١٦٣] واربع وسبعين ابن الأثير[١٦٤] وست وسبعين وسبع وسبعين وثمان وسبعين ...... ابن ابى دينار[١٦٥] وتسع وسبعين الباجى »[١٦٦] ولعل السبب فى ذلك يعود الى أن الأمر صدر بتعيين حسان ثم امر بالبقاء فى مصر لما قد

---

(١٥٩) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٣ ، المؤنس لابن أبى دينار ص ٣٣ .

(١٦٠) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .

(١٦١) رياض النفوس للمالكى ص ٣١ ، الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية والمغرب ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٦٢) معالم ج ١ ص ٦٠ ، رياض ص ٣١ .

(١٦٣) فتوح مصر ص ٢٠٠ .

(١٦٤) الكامل ص ٥٥ .

(١٦٥) المؤنس ص ٧٣ .

(١٦٦) الخلاصة النقية ص ١٠ .

يجد من أمر آخر بالنسبة للدولة • يضاف الى ذلك ان حسان عندما توجه بحملته الأولى فقاتل الروم فى قرطاجنة ثم قاتل الكاهنة فانهزم الى قصور حسان ببرقة ومكث هناك الى أن وصلته الامداد مرة أخرى ليقود حملته الثانية التى قضى بها على الكاهنة ثم طهر قرطاجنة ثانيا : كل ذلك قد جعل المؤرخين يظنون انه سار الى افريقية منذ اختياره وجعلهم يخلطون بين حملته الأولى والثانية يقول ابن عذارى « قدم حسان بن النعمان افريقية اختاره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا : اقامه اولا فى مصر بالعسكر عدة لما يحدث • ثم كتب اليه يأمره بالنهوض الى افريقية ويقول له « انى أطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك واعط الناس واخرج الى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه »(١٦٧) •

وهكذا نرى ثانيا أن أموال مصر توجه لاجل اتمام الفتح فى أفريقية ويكون اعداد الجيش صادرا من مصر ثم ينضم الى الجيش من اقام من العرب فى برقة ومن أسلم من البربر فى برقة أيضا بحيث نرى فى الجيش قيادات من بين هؤلاء البربر الذين شرح الله صدرهم للاسلام وقد استفاد حسان بخبرة تلك القوات فيوجهها فى المقدمة حيث مضى « فى جيش كبير حتى نزل أطرابلس واجتمع اليه بها من خرج من أفريقية وأطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن بكير وهلال بن ثروان اللواتى »(١٦٨) وسار الجيش الى أن وصل الى القيروان فسأل حسان

---

(١٦٧) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤ ويتفق معه فى أن عدد الجيش أربعون الف كل من صاحب المؤنس ص ٣٣ وصاحب الخلاصة النقية ص ١٠ ويقول عنه ابن الأثير فى الكامل لم يدخل أفريقية جيش مثله جـ ٤ ص ١٧٩ والمالكى فى الرياض ص ٣١ أو الدباغ فى معالم الايمان جـ ١ ص ٦ يذكر أن عدد الجيش ستة آلاف وان ذلك سنة تسع وستين •

(١٦٨) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠٠ •

اهلها عن أعظم الملوك بأفريقية قدرا فقالوا : « صاحب قرطاجنة دار ملك افريقية »[١٦٩] ولم يكن أحـد من القواد السـابقين قد تمكن من التغلب عليها فسـار حسـان اليها وخرجت اليه قواتها مع رئيسـهم فقاتلهم حسـان حتى هزمهم وقتل معظمهم ثم حاصرها حتى افتتحها و « كانت دار الملك بأفريقية »[١٧٠] ويوضح ابن الأثير كيفية الاستيلاء عليها ويبين ما حدث للمدينة وسكانها وانهم عندما ادركوا تصميم حسان على الاستيلاء عليها وعـدم نجاتهم منـه قرروا الهرب منها • ثم هدم حسـان بعض أجزائها فقـد قاتلهم « وحصرهم وقتل منهم كثيرا فلما راوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا فى مراكبهم وسار بعضهم الى صقلية وبعضهم الى الأندلس ودخلها حسـان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا وأرسـل الجيوش فيما حولها فأسرعوا اليـه خوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه »[١٧١] و « قطع القناة عنها »[١٧٢] •

ولقد حاول الروم أن ينتقموا من المسلمين لاستيلائهم على قرطاجنة فجمعوا عسكرا عظيما بموضع يسمى صطفورة[١٧٣] وحاولوا الاسـتعانة بالبربر ليتمكنوا من الانتصـار على حسـان ولكن الجيش الاسـلامى استطاع بعـد قتـال عنيف قـدم فيـه كثيرا من الشـهداء أن يتغلب عليهم وان يتتبع آثارهم فينحـاز الروم الى باجـة[١٧٤] والبربر الى

---

(١٦٩) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤ ، ويزيد صاحب الخلاصة قوله هى المدينة العظمى فزيعة رومة وضرتها واحدى عجائب الدنيـا ص ١٠ •

(١٧٠) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤ •

(١٧١) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٨٠ •

(١٧٢) المـالكى رياض النفوس ص ٣٢ •

(١٧٣) صطفورة : بلدة من نواحى افريقية • انظر معجم البلدان (٣٥٦/٥) نقلا عن قادة فتح المغرب جـ ١ ص ١٨٠ •

(١٧٤) باجة : بلدة بأفريقيـة تعرف (ببـاجة القمح) لكثرة محصولاتها من القمح انظر التحاصيل فى معجم البلدان (٢٥/٢) نقلا عن شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ١٨٠ •

بونة[١٧٥] فقد «اجتمع عليه ــ أى حسان ــ الروم وغدوا عليه عسكرا عظيما لا يعلمه الا الله تعالى وأمدهم البربر وذلك فى بلد تسمى صطفورة فزحف اليهم فقاتلهم قتالا عظيما وأصيب من أصحابه رجال كثيرون رضى الله تعالى عنا وعنهم ثم أن الله تبارك وتعالى ضرب فى وجوه الذين كفروا من الروم والبربر فانهزموا بعد بلاء عظيم فقتلهم حسان قتلا عظيما واستأصلهم وحمل باعنة الخيل عليهم فما نزل فى بلادهم موضعا الأوطئة بخيله ولجأ الروم خائفين هاربين الى مدينة باجة فتحصنوا بها وهرب البربر الى اقليم بونة ٠٠ ثم انصرف حسان الى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح اصحابه »[١٧٦] ٠

بهذا انتهى حسان من القضاء على عقبة كاداء كانت تقف فى وجه من سبقه وهم الروم فى الشمال من افريقية حيث لم يسبق أن تغلب عليهم أحد من المسلمين قبله وتمكن من فتح قرطاجنة وتطهيرها من سلطان الروم عليها وبقى عليه ان يتغلب على داخل البلاد على الأوراس ولذلك بعد ان اطمأن الى أخذ الجيش لقسط من الراحة وبرء جراح جنوده ٠ ولى وجهه نحو داخل البلاد لكى يقضى على أية مقاومة تعترض سبيله أو تقف دون تبليغ دعوة الله ٠ ويعبر ابن عذارى عن ذلك بأنه « سأل أهلها ــ أى القيروان ــ بمن بقى من أعظم ملوك افريقية ليسير اليه فيبيده أو يسلم »[١٧٧] ومن هنا نرى أنه لم يكن القصد من الحرب هو التغلب وانما الحرب عند الوقوف فى وجه تبليغ كلمة الله فان قبلت فلهم ما لنا وعليهم ما علينا والا فامتشاق الحسام ٠ فكانت الاجابة باخباره عن الكاهنة التى صار اليها رياسة البربر وقيادة بربر الداخل

---

(١٧٥) بونة : مدينة حصينة بأفريقية تقع على البحر نفس المرجع السابق ونفس الصفحة (٣٠٩/٢) ٠

(١٧٦) رياض النفوس للمالكى ص ٣٢ وانظر ابن عذارى بيان ج ١ ص ٣٥ ٠

(١٧٧) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٥ ٠

ويضيف ابن خلدون انه قد صارت اليها رياسة البربر بعد قتل كسيلة وانضمام قبائل بنى يفرن وغيرهم اليها « فلما انقضى جميع البربر وقتل كسيلة ، رجعوا الى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس[١٧٨] وقد ضوى اليها بنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناته وسائر البتر »[١٧٩] فاذا ما تمكن حسان من التغلب عليها فقد دان له المغرب كله وسقطت فيه آخر قاعدة ضخمة للمقاومة ولذلك توجه اليها حسان بجيوشه والتقى معها على نهر نينى[١٨٠] ولكنه لقى هزيمة منكرة أدت الى ضياع كل أفريقية بعد قتال عنيف وشاق كأنه الفناء ، وفقد عددا كبيرا من الشهداء وقد تتبعته الكاهنة بعد الهزيمة حتى خرج من قابس ويعبر المالكى عن اللقاء بين حسان والكاهنة فى تلك الموقعة بأنهم « اقتتلوا قتالا شديدا فعظم البلاء وظن المسلمون أنه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير فسمى ذلك اليوم يوم البلاء فاتبعته الكاهنة بمن معها حتى خرج من حد قابس[١٨١] فأسلم افريقية ومضى على وجهه وأسرت من أصحابه ثمانية رجال وقيل ثمانين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسى وكان رجلا مذكورا »[١٨٢] ٠

وهكذا يتخلى الجيش الاسلامى عن أفريقية أثر هذه الهزيمة وان كان المسلمون ما زالوا فى عاصمتهم لم تتعرض لهم الكاهنة ٠ ولكن الروم حاولوا استرداد عاصمتهم فى افريقية قرطاجنة بعد أن ارغموا تحت

---

(١٧٨) أوراس جبل بأفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر وتقع بالجزائر ٠

(١٧٩) العبر لابن خلدون ج ٧ ص ٩ ٠

(١٨٠) نينى : نهر مشهور بأفريقية معجم البلدان (٣٦٩/٨) عن شيت خطاب قادة الفتح العربى ج ١ ص ١٨٣ ٠

(١٨١) قابس : مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر نفس المرجع السابق ١٨٣ ٠

(١٨٢) رياض النفوس للمالكى ص ٣٢ ، ٣٣ ٠

ضغط جيش المسلمين على الفرار منها وكان استردادهم لها من المسلمين متسما بالقسوة والعنف فاعدوا اسطولا كبيرا بقيادة البطريق يوحنا « وظهر الأسطول البيزنطى فى مياه قرطاجنة فى سنة ٦٩٧ م (٧٨ هـ) وتمكن من الاستيلاء على المدينة فى يسر وطرد المسلمين الذين كانوا فيها وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة حتى كان ليقتل الكفار بيده كما يقول تيوفانس ونقفورا »(١٨٣) .

وكتب حسان يخبر الخليفة بهذه الهزيمة وما ترتب عليها ويقول : « ان أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف احد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها امم وهى الجنس الكثرة كسائمة النعم » فعاد له جواب أمير المؤمنين يأمره ان يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه فى عمل برقة فاقام بها وبنى هنالك قصورا تسمى الى الآن بقصور حسان »(١٨٤) ولقد تاخر ورود المدد من الخليفة لمدة طويلة جعلت الكاهنة صاحبة الشأن فى أفريقية وفى تصريف شئونها حيث « ملكت افريقية خمس سنين منذ هزمت حسان »(١٨٥) والمالكى والدباغ يحدد أن المدة التى ملكت فيها الكاهنة أفريقية بثلاث سنين ويعبران عن ذلك بأن حسان قد لقيه كتاب أمير المؤمنين « وهو نازل بمكان يقال له اليوم قصور حسان فبنى هنالك قصرا لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه ثلاث سنين وملكت الكاهنة أفريقية كلها »(١٨٦) .

---

(١٨٣) فتح العرب للمغرب الدكتور حسين مؤنس ص ٢٥٤ عن دييل .

(١٨٤) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٣٦ ، قصور حسان : قصور بناها حسان فى منطقة برقة .

(١٨٥) انظر الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية والمغرب ص ٦١ ، البيان المغرب جـ ١ ص ٣٦ .

(١٨٦) رياض النفوس للمالكى ص ٣٣ ، الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٦٣ .

وسواء ملكت الكاهنة ثلاث سنوات أو خمس سنوات فماذا فعلت خلال هذه المدة وماذا فعل حسان بن النعمان ؟

أما بالنسبة للكاهنة : فقد أخطأت الغرض من قدوم المسلمين الى أفريقية وظنت أنهم انما يقدمون للسلب والنهب للاستيلاء على المدن والذهب والفضة كما كان يفعل الغزاة سابقا وهداها تفكيرها الى أنها اذا أتلفت ذلك فقد استطاعت أن تقطع أمل المسلمين فى العودة الى افريقية حيث لا يوجد بها ذهب أو مدن ٠ ولقد كان ذلك خطأ كبيرا من الكاهنة مما عجل بالقضاء عليها وجعل اهل البلاد خارج الأوراس ينقلبون عليها بل دعا بعضهم الى اللجوء الى حسان يستغيثون به من الكاهنة وسياستها المخربة وما لحقهم منها خلال انسحاب القيادة الاسلامية الى برقة ٠ ويعبر الرقيق القيرواني عن ذلك بأن الكاهنة لما « أبطأ العرب عنها قالت للبربر : ان العرب انما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن انما نطلب منها المزارع والمراعى فما نرى لكم الا خراب أفريقية حتى ييأسوا منها ويقل طمعهم فيها فوجهت قوما الى ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون »(١٨٧) كما يعبر أيضا عن استغاثة أهل أفريقية بحسان لينقذهم من الكاهنة ويصور حسن استقبالهم له بأنه قد « لقيه من النصارى فى طريقه ثلاثمائة رجل يستغيثون اليه من الكاهنة فيما نزل بهم من خراب ومضى أى حسان حتى وصل الى قابس ، فخرج أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير مر بهم فاستأمنوا اليه وادخلوا عامله فأمنهم على مال فاستطال طريق طريق القيروان فمال الى طريق قفصة(١٨٨)

---

(١٨٧) تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٦١ ٠

(١٨٨) قفصة : بلدة صغيرة فى طرف أفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريدة بينها وبين القيروان ثلاثة أيام انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١٣٨/٧) شيت خطاب قادة فتح المغرب ج ١ ص ١٩٧ ٠

وقسطيلية[١٨٩] ونفزاوة[١٩٠] وبعثوا اليه ايضا يتعينون به من أمر الكاهنة فسره ذلك » [١٩١] وهكذا ادرك السكان الفرق البعيد بين سياسة المسلمين الكاهنة البربرية مما جعلهم يفضلون حكم المسلمين ويستغيثون تحسان ليخلصهم من حكم الكاهنة ٠

أما بالنسبة لحسان : فقد قضى هذه المدة يستعد لخوض المعركة الفاصلة ويأخذ لها الأهبة كاملة ومن اهم ما قام به فى ذلك بعد طلب المدد من الخليفة هو استطلاع أحوال العدو والتمكن من معرفة مواطن القوة والضعف حتى يستطيع أن يوجه اليه الضربة القاضية ٠ ولقد استعان فى ذلك بأحد الأسرى المسلمين الذى لقى من الكاهنة تقديرا عظيما وصل الى أن تبنته على عادة البربر[١٩٢] فارسل اليه حسان رسولا لكى يستطلع حالة الكاهنة وحالة البربر فأجابه بوصف كامل عن حالة جندهم ومقدار تماسكهم فى الرأى والمشورة وحث حسان على سرعة القدوم لان الفرصة سانحة ويصور الدباغ كيفية هذه المخابرات ووسائلها بأن

---

(١٨٩) قسطيلية : بلد بالمغرب من أرض الزاب الكبير معجم البلدان (٨٨/٧) نفس المرجع السابق والصفحة ٠

(١٩٠) نفزاوة : مدينة بالمغرب بينها وبين القيروان ستة أيام تسير من القيروان نحو الغرب معجم البلدان (٣٠٣/٨) المرجع السابق نفس الصفحة ٠

(١٩١) تاريخ أفريقية للرقيق ص ٦١ ، ٦٢ ٠

(١٩٢) وذلك كما يقول ابن‌عذارى جـ ١ ص ٣٧ « وحبست عندها خالد بن يزيد ٠ فقالت له يوما : « ما رأيت فى الرجال اجمل منك ولا أشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخالولدى وكان لها ابنان احدهما بربرى والآخر يونانى وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاع اذا فعلناه نتوارث به فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديى ففعلا فقالت « قد صرتم اخوة » ٠

يزيد أرسل كتابا « الى حسان مع رسوله وجعله فى خبزة ملة قد أنضجها ثم دفعها الى الرسول ليخفى الكتاب وليظن من رأى الخبزة أنه زاد للرجل ٠٠٠ وفيه ـ أى الكتاب ـ كل ما يحتاج اليه من خبر الكاهنة يقول فيه « ان البربر يعقدون عساكرهم بالنهار ويفترقون بالليل وليس لهم حزم فى الرأى وانما ابتلينا بأمر قدره الله واكرم به من أراد منا بدرجة الشهادة فاذا نظرت فى كتابى هذا فاطو المراحل وجد السير فان الأمر اليك ولست أسلك ان شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »(١٩٣) ٠

وعندما أتم حسان الاستعداد للقاء الكاهنه ووصلته الامداد من جنود العرب وفرسانهم ومن انضم اليهم ممن أسلم من البربر سار الى الكاهنة والتقى بها مع جيشها وتمكن من هزيمتها وقتلها ٠ ورغم جمعها وضراوة المعركة فقد تمكن من « فض جموعهم وأوقع بهم وقتل الكاهنة واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف »(١٩٤) ٠

وهكذا تمكن حسان من القضاء على الكاهنة واقتحام الأوراس وقدم اليه البربر يطلبون الأمان ويعلنون الاسلام والطاعة ولكن لما يعرفه حسان من كثرة ارتداد البربر أحب ان يشركهم معه فى الحرب ويكونوا من جنود الدولة يذودون عن حياضها ٠ ثم بعد التفقه فى الدين يكون لهم حظ المشاركة فى نشر مبادئها ورفع أعلام هدايتها فقبل البربر منه ذلك وأمدوه بما طلبه منهم من الجنود الذين سيكون لهم نصيب كبير وحظ عظيم بالمشاركة فى الفتوح القادمة ٠ ذلك أن البربر قد استأمنوا الى حسان « فلم يقبل أمانهم الا أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوه وأسلموا على يديه فعقد لواءين لولدى الكاهنة لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس وأخرجهم مع العرب يجولون فى أفريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر

---

(١٩٣) الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٦٣ ، ٦٤ ٠

(١٩٤) العبر لابن خلدون جـ ٧ ص ٩

وحسن اسلام البربر وطاعتهم وانصرف حسان الى مدينة القيروان »[١٩٥] .

وبذلك قضى حسان على البربر فى الداخل ولم يبق الا أن يسترجع قرطاجنة من الروم الذين تمكنوا من طرد المسلمين منها اثناء اقامة حسان فى برقة فتوجه بقواته الى قرطاجنة حيث قاتل اهلها قتالا شديدا شعر منه أهلها بأنهم لا طاقة لهم به مما جعلهم يصانعونه بأنهم يريدون الصلح • وكان ذلك خديعة منهم حتى يلهو رقباء حسان وعيونه ليتمكنوا من مغافلتهم ، فلما كان الليل ركبوا سفنهم فارين الى صقلية والأندلس ظانين انهم سوف يعودون ثانيا عندما تتيح لهم الظروف ذلك ولكنه كان خروجا ابديا ودخل حسان المدينة وأزال منها ما كان يعتصم به الروم وأقام بها مسجدا فكان الهداية المشعة لمن يقيم بها ممن شرح الله صدره للاسلام • والمالكى والدباغ من مؤرخى المغرب القدامى ينفردان بالحديث عن فتح قرطاجنة بعد تمكن حسان من القضاء على البربر فى الجنوب وانقيادهم للاسلام وان كان يشاركهما باشارة موجزة صاحب المؤنس فقد سار حسان « يريد قرطاجنة ••• فخرج اليه أهل قرطاجنة فحاربوه حربا شديدة فهزمهم الله وملك حسان فحص تونس وقرطاجنة فلما رات الروم قهرته لهم وعلموا أنهم لا قوام لهم به سألوه الصلح وان يضع عليهم الخراج فأجابهم الى ذلك وادخلوا ثقلهم فى مراكب كانت عندهم معدة فى البحر وهربوا من باب يقال له باب النساء فى الليل وحسان لا علم عنده بذلك وتركوا المدينة خالية لا أحد فيها ونزلوا بجزيرة صقلية وبعضهم بالأندلس فدخلها حسان فأخربها وأحرقها وبنى بها مسجدا »[١٩٦] .

وبذلك تمكن حسان من القضاء على مقاومة البربر فى الداخل ثم القضاء على الروم فى الساحل وتوج أعماله بالشروع فى اقامة مدينة ساحلية تكون عينا للقيروان على شاطىء البحر ومحرسا ترقب

---

(١٩٥) تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيروانى ص ٦٤ •

(١٩٦) رياض النفوس للمالكى ص ٣٧ ، انظر الدباغ ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن أبى دينار ص ٣٥ •

تحركات الروم وترد عادياتهم ، كما تحتل المركز الممتاز الذى كان لقرطاجنة من قبل وتكون مدينة وميناء اسلاميا عوضا عنها ليقيم بها المسلمون ويبنوا بجوارها دار صناعتهم فتتحول الى ميناء حربى وتجارى يشرف على حوض البحر المتوسط « فحسان هو الذى فرق البحر اليها ـ أى تونس ـ وجعلها دار صناعة فأخرج اليها الماء وأجراه من البحر اليها »(١٩٧) وبذلك تحقق للمسلمين فى افريقية الأمن من البحر كما تحقق لهم الأمن من الصحراء •

وقد كان لانشاء دار الصناعة وتعميرها وجلب الخبراء اليها من مصر بأسرهم هو الاستعداد الحقيقى للدور الكبير الذى ستقوم به القيروان بأسطولها القوى من الاغارة على شواطىء الروم فى عقر دارهم وشغلهم عن بلاد الاسلام فى المشرق(١٩٨) وبذلك توج حسان أعماله الحربية بالتوجه الى الأعمال الادارية والانشائية المعمارية والصناعية التى كان لها الأثر البعيد فى أفريقية وتثبيت الاسلام فيها الى الابد ان شاء الله • فقد « استقامت بلاد أفريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم افريقية وعلى من اقام معهم على دين النصرانية »(١٦٦) • كما جدد بناء مسجد القيروان وأحسن بناءه وأقام حسان فى مدينة القيروان مقر الولاية الأفريقية يوجه منها شئونها ويدير أحوالها وقد عمرها المسلمون واطمأنوا الى سكناها •

« وانتشروا وكثروا فيها وامنوا وولى حسان على صدقات الناس والسعى عليهم حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى رضى الله تعالى عنه »(٢٠٠) •

---

(١٩٧) الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٦٨ •

(١٩٨) الرقيق القيروانى ص ٦٥ ، ٦٦ تاريخ أفريقية والمغرب •

(١٩٩) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨ •

(٢٠٠) رياض النفوس للمالكى ص ٣٨ •

وعندما تمهدت افريقية وأمن أهلها رحل حسان عنها قادما على الخليفة فى دمشق بعد أن أدى واجبه عسكريا واداريا واطمأنت نفسه الى ما قام به من أعمال .

ذلك ان عبد العزيز بن مروان والى مصر « قد عزله عن أفريقية » ليولى عليها أحد اتباعه وارسل اليه أربعين رجلا من أشراف أصحابه ليتحفظوا على ما معه من الغنائم[٢٠١] فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز بن مروان أهدى اليه مائتى جارية من خيار ما معه ... فتخير ما أحب واخذ منه خيلا كثيرة ورحل حسان بمن معه من السبى والجمال والأنعام حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكى اليه ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد لذلك وأنكره فقال حسان لمن معه « أيتونى بالقرب فاتى بها ففرغت بين يدى الوليد مما فيها من الجواهر والذهب والفضة فاستعظمه وابهته » فقال له : « يا أمير المؤمنين انما خرجت مجاهدا فى سبيل الله وليس مثلى خان الله ولا الخليفة » فقال له الوليد أردك الى عملك وأحسن اليك « فحلف حسان : انه لاولى لبنى أمية ولاية ابدا فلما رأى ذلك الوليد غضب على عبد العزيز وكان يسمى حسان الشيخ الأمين ـ رحمه الله »[٢٠٢] .

لقد أدى حسان واجبه بصدق واخلاص جعله خليقا يلقب الشيخ الأمين فعلى يديه تم فتح أفريقية وصارت القيروان عاصمة لها لا يحكمها غير المسلمين « واستقامت افريقية كلها وأمن أهلها وقطع الله عز وجل مدة أهل الكفر ، وصارت القيروان دار اسلام وجميع مدن أفريقية الى يومنا هذا والى آخر الدهر ان شاء الله تعالى »[٢٠٣] .

---

(٢٠١) الرقيق القيروانى تاريخ أفريقيا المغرب ص ٦٦ ، البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ٣٨ .

(٢٠٢) الرقيق القيروانى تاريخ افريقية المغرب ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢٠٣) رياض النفوس للمالكى ص ٣٨ ، الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٦٩ .

وسوف يتجلى لنا عند حديثنا عن بداية الحركة الفكرية فى القيروان اثر هذا الفتح من الناحية الفكرية ، وما كان للقواد والجنود من الصحابة والتابعين الذين تشرفت بهم القيروان من اثر عميق فى ان يفهم النــاس حقائق الاسلام ويتمتعوا بالعيش الرغيد فى ظل الحضارة الاســلامية العربية بحيث كانت القيروان المنــارة التى يشــع منها نور الاسلام وفكره ليصل الى المغرب الأقصى ثم الى الأندلس وصقلية وغيرها من جــزر البحر المتوسط وجنوب أوربا ولكنا فى حاجة الى ان نعرف شــيئا عن تاسيس مدينة القيروان وما اكتنف تأسيســها من احــداث خلال الفترة التى سندرس الحياة الفكرية فيها .

* * *

الفصل الثاني

تأسيس القيروان

كان المسلمون يخرجون لغزو أفريقية وينتصرون فى غزوهم ثم يعودون الى مصر أو دمشق وذلك لبعد خطوط مواصلاتهم وامداواتهم وبعد عودتهم الى مقرهم فى مصر أو دمشق كان ينقض أهل افريقية الذين عاهدوهم معاهداتهم المبرمة بينهم ، كما يرتد من أهل افريقية بعض من دخلوا فى الاسلام ولقد مكث معاوية بن حديج أثناء غزوته التى قام بها بمكان يسمى القرن . ويقال انه حفر فيه أبارا وبنى فيه مساكن وسماها قيروانا . يقول ابن عبد الحكم « واتخذ قيروانا[1] عند القرن فلم يزل فيه حتى خرج الى مصر »[2] ويعبر عن ذلك المالكى بأن معاوية « قد اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان وأقام بها مدة اقامته بأفريقية وحفر آبارا عند باب تونس فى ناحية الجبل منه منحرفا للشرق بالقرب من مصلى الجنائز تسمى للآن آبار حديج غلب عليها اسم أبيه حديج وذلك قبل تاسيس القيروان »[3] .

تلك كانت المقدمة لاهمية ايجاد معسكر أو مدينة ليقيم فيها المسلمون . وعندما أسند أمر أفريقية الى عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ جعل اول أمر يقوم به هو أن يؤسس القيروان .

ا ـ فما هى الأسباب التى دعته لتأسيس القيروان ؟
ب ـ وكيف اختار مكانها ؟ وهل وفق فى ذلك ؟
جـ ـ وما هو التخطيط الذى وضعه لها ؟

---

(١) قيروان : مدينة أو معسكر أو مسلحة وقال الدباغ فى تفسيره « واختلف فى لغة العرب فى لفظ القيروان فقيل هى موضع اجتماع الناس والجيش وقيل محط أثقال الجيش وقيل هى الجيش نفسه والمعنى متقارب . انظر الدباغ معالم جـ ١ ص ٨ وفتح العرب للمغرب لمؤنس ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) فتوح ابن عبد الحكم ص ١٩٢ .

(٣) رياض النفوس للمالكى ص ٦٠ .

د ـ وماذا طرأ عليها فى مدى الفترة التى نحاول بحث الحيـــاة الفكرية فيها ؟

(أ) الأسباب التى دعت عقبة لتأسيس القيروان :

ان الأمر الذى أخرج العرب من الجزيرة لكى يصلوا الى أفريقية انما هو الاسـلام واذا كان العرب يطلبون الاقامة فى افريقية فانما من أجل ذلك واذا كانوا يبنون مدينـة فانما من أجل ذلك الدين أيضـا . ولتحقيق هذا الهدف .

فالهدف الأصلى هو تبليغ دعـوة الله ثم الوسيلة الى ذلك هى الدفاع عن هذه الدعوة . فتأسيس مدينة القيروان كان لهدف دينى ولهـدف عسكرى حربى وهذا ما يشير اليه الدباغ متفقا مع المـالكى وابن عذارى حين يورد المحادثة بين عقبـة وأصحابه « ان افريقية اذا دخلها امير تحزم أهلها بالاسـلام فاذا خرج منها رجعوا الى الكفر وانى أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسـكرا وقيروانا تكون عزا للاسـلام الى آخر الدهـــر »(٤) .

وهكذا يبدو السبب واضحا فى عز الاسـلام ونشر تعاليمه وافسـاح المجال امام شـعاعه حتى يهـدى القلوب ويزيل الضـلالة ولكن السيوف مصلتة من حوله فليكن فى المدينـة المنشـودة الحماية والمنعة والتحرز من ان يكون بين اهلها غير المسلمين الذين قد يكونون عيونا للعدو ولقـد توجه أمل عقبة الى أبعد من ذلك بان تكون القيروان مركزا علميـا مملوءا بالعلماء والفقهاء والمطيعين لله والدارسـين الذين سيتولون ذلك ويقومون به عندما تغمد السـيوف وتتلاشى المقاومة امام المد الاسـلامى ويعبر عن ذلك أبو العرب فى طبقاته تعبير حين يذكر ان عقبـة بن نافع كان معه فى عسـكره خمسـة وعشرون من أصحاب النبى ﷺ وان عقبة جمع وجوه أصحابه واهل العسـكر فدار بهم حـول مدينة القيروان واقبل

(٤) الدباغ جـ ١ ص ٨ انظر رياض النفوس ص ٦ ، وابن عذارى جـ ١ ص ٢٩ .

يدعو لها ويقول فى دعائه « اللهم املأها علما وفقها وأعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض »[٥] .

ولقد كانت القيروان عزا للاسلام وأهله حيث كانت مركزا حربيا ومدينة للمجاهدين وأسرهم وجامعة لتعليم اللغة ومبادىء الدين ومنها انتشر سلطان الاسلام فعم المغرب بأجزائه تونس والجزائر والمغرب الأقصى ثم عبر الى الأندلس والى جزر البحر المتوسط ليصل الى أوربا وامتد جنوبا ليصل الى أعماق وغرب القارة الأفريقية .

(ب) اختيار مكانها :

من فهم أهداف قيام القيروان يتبين اختيار مكانها . لقد كان الهدف فى نشر الاسلام بين أهل البلاد الأصليين وهم البربر أما المستعمرون من الروم فهم السد الذى يقف أمام انتشار نور الاسلام ولذلك لا بد من أخذ الحذر منهم الى أن يتمكن نور الاسلام من القلوب ويعم شعاعه الآفاق فيتمكن من جذبهم الى نوره أو من طردهم الى المكان الذى قدموا منه ما داموا يقفون سدا حائلا دون الاسلام وانتشار نوره ، ولذلك كان قرب مكان القيروان من الداخل يوضح الهدف ومنها وهو توضيح حقائق الاسلام والتقرب من أهل البلاد حتى يشرح الله صدرهم للاسلام .

وهكذا يعبر النويرى عن أثر قرب مدينة القيروان من البربر فى الداخل مما أدى الى انقياد كثير من البربر للاسلام وذلك عندما يعبر عما أجمع عليه المؤرخون من مناداة عقبة عند اختطاط القيروان « أيتها الحيات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنا انا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس فى ذلك اليوم الى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل اجراءها والحيات تحمل أولادها[٦]

---

(٥) طبقات علماء افريقية وتونس لابى العرب تميم ص ٥٦ .

(٦) يذكر الواقدى أن أصحاب عقبة أشاروا عليه بحرق الأشجار التى كانت موضع القيروان فخاف من حرقها بالنار لوجود الحيوانات =

فاسلم كثير من البربر »[٧] ويقول ياقوت « فحمل ذلك كثيرا من البربر على الاســـلام »[٨] ٠

ومن ذلك يبدو الأثر واضحا لتأثير اختيار مكانها فى تحقيق أهم اهدافها وهو أن تكون موطنا لنشر كلمة الاسلام ٠

ولكن المستعمرين من البيزنطيين الذين يتحكمون خاصــة فى سواحل هــذه البــلاد ما زالت لهم شــوكة وقوة وهم بلا شــك ســوف يحاولون مدافعة المسلمين عن هذه البلاد وقد ســبق لهم ذلك وسيتابعونه كمــا أن البـحر المتوســط ـ الذى يفصــل بين القسطنطينية وبين الشـــمال الأفريقى كله وخاصة أفريقية قاعدة حكمهم وتسلطهم فى هذه البــلاد ـ ما زالت لهم السيادة عليه وليس للمســلمين الأسطول المتحرك السريع والقواعد البحرية الآمنة التى يمكن به وبها مدافعــة ذلك العدو والتغلب عليه فى معارك بحرية وما زال ســبيل المســلمين الى التغلب على عدوهم من الروم هو خوض معارك برية حسب الطاقة التى يتمتعون بها بريا ومن هذا تتجلى لنا الأســباب والعوامل التى جعلت القيروان تبعد عن البـحر ليتـحقق لها الامان النسبى فى فترة تقاتل فيها عدوا يتربص بها وحتى

=

فى هذا الموضع فناداها بهذا النداء ٠ ففى هــذا تحرز من أن يحرق الحيوان بالنار لان هناك نهيا عن التعذيب بالنار ٠ ولا شك أن الحيوانات والحيات عندما سمعت بجلبة الجيش او أحست بالنار أو بقطع الاشجار رحلت عن المكان ٠ انظر المغرب الكبير ـ دكتور الســيد عبد العزيز ســالم جـ ٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ٠

(٧) النـــويرى نهاية الأرب ٦٨ ب عن فتـــح العرب للمغـــرب ص ١٤٢ ، ١٤٣ وأوردها غيره مع عدم ذكر اسلام البربر وبصورة قريبة منها ، أبو العرب طبقات ص ٥٨ الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ١٠ ، المــالكى رياض النفوس وابن عذارى جـ ١ ص ٢٠ ٠

(٨) معجم البلدان لياقوت المجلد الســابع من عشرة مجلدات ص ١٩٣ ٠

لا تكون عرضة لهجمات اسطول العدو المباغتة • خاصة عندما يكون الجيش الاسلامى يؤدى واجبه فى ردع اية مقاومة تقف فى سبيل نشر الدعوى الاسلامية فيسهل على العدو تخريبها وسبى سكانها وطمس شعاعها فتفقد الهدف المنشود من بنائها بأن تكون قاعدة دينية ودفاعية كما روعى فى اختيار موقعها سهولة امدادات الجيش من ناحية الدواب التى تحمله آنذاك •

ويمكن تلخيص أسباب اختيار المكان فى الآتى :

١ ـ البعد عن الساحل حتى لا تتعرض لاساطيل البيزنطيين •

٢ ـ القرب من البادية لتباشر نشر الاسلام بين البربر •

٣ ـ تأمين امدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهى الابل •

هذا ما نستطيع ان نفهمه من تلك المناقشة التى يرو بها المؤرخون عما دار بين عقبة وأصحابه فى اختيار مكان القيروان وموضعها بالنسبة للروم والبربر وما قام به من ارتياد الأماكن حتى توصل الى اختيار المكان المحقق لاهدافها وعبر المالكى عن ذلك وهو قريب مما ذكره ابن عذارى حين يقول : « فقال له بعض أصحابه « قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين » فقال لهم انى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه غزاة البحر لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل فيخرج فيقيم فى غارته الى نصف النهار فلا تدركها منه غارة ابدا فان كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير ، فأهلها مرابطون ، ومن كان على البحر فهم حرس لهم وهم عسكر معقود الى آخر الدهر وميتهم فى الجنة فاتفق رأيهم على ذلك فقال : قربوها من السبخة فقالوا : نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها فى الشتاء وحرها فى الصيف فقال : لا بد لى من ذلك لان أكثر دوابكم الابل وهى التى تحمل عسكرنا والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى الى دينهم • ونحن اذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من

المغازى والجهاد ونفتح الأول منها فالأول فتكون ابلنا على باب مصرنا فى مرعاها آمنة من غارة البربر والنصارى فأجابوه الى ذلك فمال الى موضع بناء المدينة على ساحل واديها »[٩] .

ولكن المقدسى يوجه الى اختيار مكانها نقدا من ناحية قلة الماء الموجود فى المكان وهو من اول الأمور اللازمة لانشاء المدن وقد تغلب على ذلك فيما بعد عند اتساع العمارة فى المدينة بايجاد المواجل لخزن المياه . وربما كانت معيشة عقبة وأصحابه فى الصحراء واستطاعتهم المعيشة بقليل من الماء جعلهم لا يلقون كبير بال الى هذا الأمر المهم ويبدو ان قلة الماء فى القيروان كانت بالنسبة لماء الشرب اما الماء اللازم للاستعمال فقد أنشئت الآبار للحصول عليه كبئر أم عياض وبئر روطة[١٠] ومع ذلك فالمقدس يثنى عليها بأنها مفخرة العرب ويذكر رخص الأسعار وتوفر الحاجيات فيها مشيرا الى ما آلت اليه فى عصره فهى :

« مصر الاقليم بهى عظيم حسن الاخباز جيد اللحوم قد جمع اضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم مع علم كثير ورخص عجيب . اللحم خمسة امناء بدرهم والتين عشرة ولا تسال عن الزبيب والتمر والأعناب والزيت . هى فرضة المغربين ومتجر البحرين — فهى مفخرة المغرب ومركز السلطان واحد الأركان . أرفق من نيسابور وأكبر من دمشق واجل من أصبهان الا أن ماءها ضعيف ، الماء مخزون فى مواجين والضرائب موضوعة على أصحاب الدكاكين »[١١] .

وهذا يوضح لنا التوفيق فى اختيار مكانها حيث نمت وازدهرت وصارت مفخرة المغرب ومركز السلطان .

ويحدد ياقوت موقع القيروان من الناحية العمرانية عامة « بأن

---

(٩) المالكى رياض النفوس ص ٦ ، ٧

(١٠) انظر الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب قسم اول ص ٤٧ .

(١١) أحسن التقاسيم للمقدس ص ٢٢٤ .

القيروان فى الاقليم الثالث طولها احـــدى وثلاثون درجـــة وأربعون دقيقـــة »[١٢] .

ويذكر الاصطخرى المســافات بين القيروان وبين المدن الاخــرى ويحددها بانها « من مصر الى برقة ٢٠ مرحلة ومن برقة الى طرابلس مثلها ومن طرابلس الى القيروان مثلها فذلك من مصر الى القيروان ٦٠ مرحلة .. ومن القيروان الى السوس الأقصى ١١٦ مرحلة فجميـــع المســافة من مصر الى اقصى المغرب فى شرقى بحر الروم نحو ٦ اشهر .. ومن القيروان الى زويلة نحو شهر ومن القيروان الى المهدية مسيرة يومين ومن القيروان الى تونس ٣ مراحل .. ومن القيروان الى سجلماسة فى البرنحوا من ٨٠ مرحلة »[١٣] .

وليس من المبالغة أن نقول أن عقبة واصحابه قد وفقوا الى اختيار موقع القيروان لكى تؤدى الهدف الذى أنشئت من أجله خاصـــة فى بداية امرها فكانت منارة للهدف شـع منها الى الشـمال الأفريقى ثم عبر الى أوربا عن طريق الأندلس أولا ثم عم جزر البحر المتوسط ليصـل الى معقل المســيحية فى روما بعــد ذلك كما كانت المقر الحكومى للولاة ثم للدولة الأغلبية والفاطمية ودولة الصنهاجيين ومما يؤيد التوفيق فى اختيار موقعها أن كســيلة عندما قتل عقبــة وحمل الجيش الاســــلامى على مفارقة افريقية . اقام كســـيلة بالقيروان مدة ســـيطرته على افريقية ولم يقم بمدينة أخرى .

ويعبر الادريس عن القيروان بما يوضح لنا التوفيق فى اختيار مكانها بما أهلها لنمو ســكانى وعمرانى وتجارى وثقافى فهى « أم أمصار وقاعدة اقطار وكانت أعظم مدن الغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا ، وأوسعها أحوالا ، واتقنها بناء ، وانفســـها هممـا ، وأربحها تجارة ، وأكثرها جباية ، وانفقها سلعة ، وانماها ربحا ، والغالب على فضلائها

---

(١٢) معجم البلدان لياقوت المجلد الســابع ص ١٩٣ .

(١٣) المسالك والممالك للاصطخرى ص ٣٧ ، ٣٨ .

التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلى عن الشبهات واجتناب المحارم ، والتفنن فى محاسن العلم ، والميل الى القصد »[١٤] رحم الله عقبة وأصحابه لقد بذلوا أقصى جهدهم لاختيار مكان مدينة القيروان كى تحقق الهدف المقصود منها ٠ فوفقوا الى ما أرادوا وقامت بأهدافها خير قيام وربما زادت على ما كان يدور فى أذهانهم أثناء البحث عن موضع لتأسيس مدينة القيروان ٠



(ج) تخطيط عقبة للقيروان :

بعد أن استقر رأى عقبة ومن معه على بناء القيروان واختيار مكانها شرع فى تمهيد مكانها للبناء وازالة الأشجار الموجودة فيها حتى يبدأ بتخطيطها واقامة المبانى التى يريد بناءها ويعبر ابن الأثير عن الأشجار التى كانت مكانها قبل بنائها وما كان يسكن فيها من الحيوان والحيات بانها « كانت دجلة متشبكة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك »[١٥] وقد اقبل المسلمون يقطعون الأشجار ويمهدون الأرض لاجل تخطيط المدينة فاذا ما انتهوا من ذلك شرع عقبة يخطط المدينة ويحدد شوارعها ومصالحها وأهم شىء فى ذلك هو ما يحقق الهدف من قيامها وهو المسجد ثم دار الامارة وبعد ذلك المساكن والدور التى سيقيم فيها الجنود وأسرهم وقد تم ذلك بالمواد الموجودة فى المكان دون عناء كبير « فكانت بناءات القيروان فى أول أمرها على غاية البساطة وقد استعمل لتشييدها قراميد الآجر لوجود الطين المناسب على عين المكان ولخلو ضواحى العاصمة من الحجارة »[١٦] وهناك حفريات

---

(١٤) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق تاليف الشريف الادريسى ص ١١٠ ٠

(١٥) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢٣٤ ٠

(١٦) الورقات لحسن حسنى القسم الأول ص ٤٤ ٠

جارية الآن بجوار المسجد كشفت عن دار الامارة وقد شاهدت ذلك اثناء زيارتى للقيروان ٠

ويذكر المؤرخون انه عندما اختط المسجد لم يحدث فيه بناء وانما كان يصلى فيه بدون بناء مما جعل الناس يحتلفون فى تحديد الفبلة ٠ وربما دعاهم الى اثارة مثل هذا الاختلاف شعور المسلمين بما سيكون لتحديد القبلة من اثر يهفون الى تحقيقه فيما يستجد بعد ذلك من المساجد التى يأملون قيامها عندما تنتشر كلمة الله ولأنه امر يتصل بالهدف الذى أقيمت المدينة من اجله وهو انتشار كلمة الله ولذلك اخذوا يتحرون مطالع النجوم والشمس شتاء وصيفا ولكنهم اختلفوا فى الاستقرار على رأى واحد مما جعل قائدهم يغتم لذلك ثم يروون حصول رؤيا لعقبة تحدد لهم قبلة المسجد بما يقطع أمر هذا الاختلاف وبما يعطى لتحديد هذه القبلة منزلة روحية سامية ٠ ويتفق على ذلك المالكى والدباغ ويعبر عن ذلك ابن عذارى [١٧] بأن عقبة « اتى الى موضع المسجد الأعظم فاختطه ولم يحدث فيه بناء وكان يصلى فيه وهو كذلك واختلف الناس عليه فى القبلة وقالوا : ان جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك فى تقويمها فأقاموا اياما ينظرون الى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغموما ، فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه فأتاه آت فى منامه فقال له « اذا صبحت فخذ اللواء فى يدك واجعله على عنقك فانك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير : فهو قبلتك ومحرابك وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة وسوف يعز الله بها دينه ويذل بها من كفر به فاستيقظ من منامه وهو جزع فتوضأ للصلاة وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس فلما انفجر الصبح وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين اذا بالتكبير بين يديه

---

(١٧) البيان المغرب ج ١ ص ٢٠ ، ٢١ المالكى رياض النفوس ص ٧ ، ٨ ، الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٠ ، ١١ ٠

فقال لمن حوله « أتسمعون ما أسمع » ؟ فقالوا : لا فعلم ان الأمر من عند الله فاخذ اللواء فوضعه على عنقه واقبل يتبع التكبير حتى وصل الى موضع المحراب فانقطع التكبير . فركز اللواء . وقال هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة . ثم أخذ الناس فى بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت وشد الناس اليها من كل أفق وعظم قدرها ».

وسواء صحت هذه الرؤيا أو لم تصح - وأن هذه الرواية من اختلاف الرواة خاصة بعد استشهاد عقبة فان قبلة المسجد قد حددت وانتهى الخلاف وبنى المحراب ولم يجرؤ احد بعد ذلك على تغييره - مع تعدد الولاة وميل بعض من قام بعمارة فى المسجد بعد ذلك الى تغييره حتى لا يكون فى المسجد أثر لسواه - وما زال المحراب قائما الى الآن منذ بناه عقبة رضى الله عنه لم يهدم منه شىء وان كان أضيف اليه ما سمحت به فنون العمارة بعد ذلك ويضيف الى ذلك صاحب الورقات « ان محراب مسجد القيروان أقدم محراب مجوف أدخل على المساجد »[18] .

ويذكر ابن الأثير مقدار مساحة دور القيروان وتاريخ اتمام بنائها بأن « دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس »[19] ويحدد ابن عذارى مساحتها بالذراع فـ « دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع »[20] وربما تكون القيروان عند نشأتها اقل من أن تشغل كل هذه المساحة مما جعل بعض المؤرخين المحدثين يصفون ذلك بالمبالغة[21] . ولكن الدكتور الحبيب الجنحانى يصفها بأن شوارعها الرئيسية تمتاز بالاتساع « اذا قورنت بالعواصم

---

(١٨) الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب القسم الأول ص ٥٩ .

(١٩) الكامل لابن الأثير جـ ٣ ص ٢٣٤ .

(٢٠) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٢١ .

(٢١) مؤنس فتح العرب للمغرب ص ١٤٥ ، المغرب الكبير السيد عبد العزيز سالم ص ٢٠٧ .

الاسلامية القديمة · اما أسواقها فانها منظمة حسب أنواع الصناعات »[٢٢] مما يؤيد صحة رأى المؤرخين القدامى عن مساحتها وسعتها ·



(د) الحركة العمرانية فى القيروان : فى فترة البحث :

عندما انتهى عقبة من بناء القيروان فوجىء بعزله وأسند أمر افريقية الى أبى المهاجر الذى لم ينزل فى قيروان عقبة فخلفه مدينة القيروان[٢٣] بميلين وابتنى ونزل وعبر ابن عبد الحكم عن ذلك بأنه « كره ان ينزل فى الموضع الذى اختطه عقبة بن نافع ومضى خلفه بميلين فابتنى ونزل »[٢٤] ثم أسند أمر افريقية الى عقبة للمرة الثانية فقدمها وجدد بناء القيروان ونقل الناس اليها وذلك سنة اثنتين وستين حين « قدم عقبة الى القيروان بعشرة آلاف فارس ··· وجدد بناء القيروان وشيدها ونقل الناس اليها فعمرت وعظم شانها »[٢٥] ·

وعندما تمكن حسان بن النعمان من القضاء على مقاومة البربر والروم وبسط سلطان المسلمين على أفريقية التفت الى مسجد القيروان « فبناه بناء حسنا وجدده وذلك فى شهر رمضان المعظم من سنة أربع وثمانين من الهجرة »[٢٦] · ويعبر ابن الابار عن مقدار التغيير

---

(٢٢) القيروان للدكتور حبيب الجنحانى ص ٥٨ ·

(٢٣) وذكر ابن عذارى أنه خلفه بميلين مما يلى طريق تونس فاختط بها مدينة · البيان ص ٢٢ · وسماها المالكى دكرور رياض ص ٢٠ وسماها الدباغ تاكروان معالم ج ١ ص ٤٧ ولعلها قرية أو مدينة كانت للبربر فنزل فيها واضاف اليها المعالم الاسلامية من مسجد ودار للامارة انظر المغرب الكبير للسيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٢١٤ ·

(٢٤) فتوح لابن عبد الحكم ص ١٩٧ ·

(٢٥) رياض النفوس للمالكى ص ٢٢ ·

(٢٦) معالم الايمان للدباغ ج ١ ص ٦٧ ·

الذى أدخله حسان على المسجد بأنه « هدمه ـ أى المسجد ـ حاشا المحراب وبناه بالطوب »[٢٧] .

وتوالت بعد ذلك الحركة العمرانية على القيروان وتعددت وتنوعت حسب حاجة المدينة ونموها وكثرة سكانها وسعة سلطان حكامها . ويمكن الحديث عن ذلك حسب الأهداف المقصودة من العمران . فبعضها كان تحصينات حربية وبعضها كان معالم دينية والبعض الآخر يعتبر من المنافع العامة ومظهرا للتقدم الحضارى .

(ا) التحصينات الحربية :

كان للأسوار والمحارس شأن مهم بالنسبة للدفاع عن المدن فى الماضى ويشير البلاذرى الى ما قام به محمد بن الأشعث فى القيروان اشارة موجزة بقوله « فرم مدينة القيروان ومسجدها »[٢٨] . أما البكرى فيتحدث عن ذلك بتفصيل يبين انه اقام السور للمدينة وجعل فيه الأبواب وعليه المحارس . ف « للقيروان من القديم سبع محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها وكان للقيروان فى القديم سور طوب سعته عشرة أذرع بناه محمد بن الأشعث بن العقبة الخزاعى سنة أربع وأربعين ومائة وهو أول قائد دخل أفريقية للمسودة وكان فى قبليه باب سوى الأربعة وهو بين القبلة والمغرب وبين القبلة والمشرق باب أبى الربيع وفى شرقيه باب عبد الله وباب نافع وفى جوفيه باب تونس وفى غربية باب أصرم وباب سلم ... ثم يقول وللمدينة اليوم أربعة عشر بابا منها المذكورة وباب النخيل والباب الحديث وللفصيل بابان وباب الطراز وباب القلالين وباب سحنون »[٢٩] ويحدثنا الأستاذ حسن حسنى عن أرباضها ودروبها بما يدل على أنها كانت محصنة خارجيا وداخليا فيقول : « أما داخل المدينة فكان ينقسم الى أرباض آهلة وحارات وشوارع وأزقة وأسواق

---

(٢٧) ابن الآبار الحلة السيراء ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٨) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٧١ .

(٢٩) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٤ ، ٢٥

عامرة ٠ فمن اشهر أرباضها (ربض السدرة) ثم (ربض الدوحا) قرب أبى الربيع (وربض البقرية) وكأنه كان معدا للملاهى والخلاعة ثم (حارة القرشيين) و (حارة القرانصة) قرب السور و (ربض المفلس) و (ربض الريدان) ومن الدروب (درب السكة) و (درب الهذلى) و (درب الفرسان) بجوار سوق اليهود وغيرها (كدرب ازهر) قرب باب تونس و (درب ابن سوادة) و (درب أم أيوب) قرب سوق الأحد »[٣٠] ومن ذلك نرى أن المدينة كانت محصنة من الداخل والخارج بحيث يمكن الدفاع عنها حتى فى دروبها وارباضها ٠ ويذكر فى الورقات انه « لم يمر نصف قرن على تاسيس القيروان حتى أصبحت أم القرى المغربية تنبعث منها أشعة الايمان والعرفان وصارت العاصمة الأفريقية التى تنتهى اليها المسالك وتتفرق منها الطرقات مثلما كانت قرطاجنة فى عصر الرومان ومع ذلك فانها المركز الحربى الممتاز الذى يقوم بالدفاع عن حوزة البلاد وفيه يستعد للهجوم على المقاومين ومستودع السلع الواردة من الشرق من بضائعه وصنائعه ومعرض دائم لمنتوجات البلاد وغيرها »[٣١] ٠



(ب) معــالم دينيـة :

لقد ابتدىء فى بنــاء مدينة القيروان ببناء المسجد الجامع ولذلك كثرت بها المساجد الى أن بلغت « زهاء ثلاثمائة بيت يعبد فيها الله »[٣٢] ولا شك أن أعظمها وأشهرها هو المسجد الجامع الذى أسسه عقبة عنــد تخطيط القيروان ٠والذى بذل كثير من الولاة والأمراء جهودا كبيرة لتجديده وتحسينه بحيث أضحى تأثيره قويا على المدينة كلها ويعبر عن ذلك الاستاذ

---

(٣٠) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٣

(٣١) حسن حسنى عبد الوهاب الورقات قسم أول ص ٥٢

(٣٢) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٦

احمد فكرى بقوله : « ويظهر فيها المسجد الجامع جليا واضحا بل أن صورة المدينة تاثرت بصورته لتزيده قوة وجلالا »[٣٣] ويذكر لنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم تخطيط جامع القيروان ويصفه بأنه « من اكبر المساجد الجامعة الباقية فى الاسلام واعظمها مظهرا اذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا وعرضه ٧٧ مترا وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا وعرضه ٣٧ مترا وصحنه فسيح واسع طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا ولهذا الصحن مجنبات[٣٤] عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر وتنقسم المجنبة الى رواقين[٣٥] ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبلة تمتد على عشرة أساكيب[٣٦] أو بلاطات عرضية وبلاط المحراب واسكوبه أوسع من بقية البلاطات والاساكيب ولا تعترضها اية عقود فهما يؤلفانه مجازين متعامدين على هيئة حرف T [٣٧] .

ويتحدث الاستاذ احمد فكرى عن ابواب المسجد والمئذنة بقوله : « ولبيت الصلاة بابان متقابلان احدهما مفتوح فى الحائط الشرقى والآخر فى الحائط الغربى وكلاهما عند نهايتى الاسكوب الخامس وللمسجد خمسة أبواب أخرى ينفذ من ثلاثة منها الى المجنبة الغربية ومن الآخرين الى المجنبة الشرقية وتقوم المئذنة فى منتصف ضلع المستطيل الشمالى ولكنها لا تقع بالضبط فى محوره وهى عبارة عن مربع طول كل ضلع

---

(٣٣) أحمد فكرى المسجد الجامع القيروان ص ١٢

(٣٤) المجنبات : الزيادات تحيط بفناء المسجد أحمد فكرى المسجد الجامع ص ١٩ ، ٢٠

(٣٥) الاروقة : الممرات المتجهة الى حائط المحراب ـ المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣٦) الأسكوب من بيت الصلاة : الممر بين الأعمدة من يمينه الى يساره والذى يعلو العمود رأس وتاج واسطوانة ، نفس المرجع السابق والصفحة ، ص ٦٤

(٣٧) الدكتور السيد عبد العزيز سالم ـ بيوت الله مساجد ومعاهد ج ٢ ص ١٧٢

منه عشرة أمتار ونصف ويختلف نظام المجنبة الشمالية التى فيها هـذه المئذنة عن نظام المجنبات الثلاثة الأخرى اذ انه قد استعيض عن كثير من اساكبها بغرف ومنافع »[٣٨] ويضيف الدكتور عبد العزيز سالم ان المئذنة من « ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة والطابق الادنى مربع القاعدة تنحدر جدرانه الى الداخل انحدارا خفيفا فيقل عرضه كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا ··· وقد اتخذت هذه المئذنة نموذجا للمآذن الاسلامية ··· لا فى المغرب والاندلس فحسب بل فى بعض المـآذن المصرية مثل مئذنة مسجد الجيوشى ومئذنة مدرسـة قلاوون وقبتها · وأصبحت مئذنة جامع القيروان تؤلف طابعا مغربيا بحتا »[٣٩] · وقد أكسبها تصميمها هذا قوة صارعت بها الزمن فـان مآذن مساجد الاسلام الأولى قد اندثرت وظلت مئذنة القيروان قائمة فهى اقدم المساجد الاسلامية»[٤٠] وقد شاهدت عند صعودى الى المئذنة أن قبتها تقوم على ستة عشر عمودا من الرخام تثير الاعجاب فى نفس من يراها ·

ولقد كان المسجد يتوسط المدينة وتحيط به الأسواق ويقارن المقدس بينه وبين مسجد ابن طولون فيذكر انه : « بموضع يسمى السماط الكبير وسط الأسواق فى سرة البلد · اكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام · ومزاريبه رصاص له باب السماط ، باب الصرافين ، بـاب الرهاذنة ، باب الفضولين ، باب المئذنة ، باب الصباغين ، باب الحواريين باب سوق الخميس ، باب الميضأة ، باب الخاصة فى التمارين ولهم باب اللحامين وسوق الرماحين »[٤١] ·

ويغنينا البكرى بوصفه الشيق الدقيق المفصل للعمارات والزيادات التى حدثت فى المسجد مع ذكر من قام بها وتاريخها فيقول : « ان أول

---

(٣٨) احمد فكرى ، المسجد الجامع ، ص ٢٠

(٣٩) بيوت الله د· السيد عبد العزيز سالم ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٤٠) احمد فكرى ، المسجد الجامع ، ص ١١٠

(٤١) المقدس حسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

من وضع محرابه وبناه عقبة بن نافع ثم هدمه حسان حاشا المحراب وبناه وحمل اليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للاول فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب ويقولون ان صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما الى الجامع زنتهما ذهبا فابتدءوا الجامع بهما • فلما كانت خلافة هشام ابن عبد الملك كتب اليه عامله على القيروان يعلمه ان الجامع يضيق بأهله وان بجوفيه جنة كبيرة لقوم من فهر فكتب اليه هشام يأمر بشرائها وان يدخلها المسجد الجامع ففعل وبنى فى صحنه ماجلا[٤٢] وهو المعروف بالماجل القديم بالغرب من البلاطات وبنى الصومعة[٤٣] فى بئر الجنان ونصب أساسها على الماء واتفق ان وقعت فى نفس الحائط الجوفى • وأهل الورع يكرهون الصلاة فى هذه الزيادة ويقولون انه اكره أهل الجنة على بيعها والصومعة اليوم على بنائه طولها ستون ذراعا وعرضها خمسة وعشرون ولها بابان شرقى وغربى وعضايد بابيها رخام منقش وكذلك عتبتهما • فلما ولى افريقية يزيد بن حاتم سنة خمس وخمسين ومائة هدم الجامع كله حاشا المحراب وبناه واشترى العمود الأخضر بمال عريض جزل ووضعه فيه وهو الذى كان يصلى عليه القاضى أبو العباس عبدون • فلما ولى زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب هدم الجامع كله واراد هدم المحراب فقيل له ان من تقدمك من الولاة توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه فلج فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثر لغيره حتى قال له بعض البناة انا ادخله بين حايطين ولا يظهر فى الجامع اثر لغيرك فاستصوب ذلك وفعله فهو على بنائه الى اليوم والمحراب كله وما يليه مبنى بالرخام الأبيض من أعلاه الى أسفله مخرم منقوش كله • منه كتابة تقرأ ومنه تدبيج مختلف الصناعة يستدير به أعمدة رخام فى غاية الحسن والعمودان الأحمران المذكوران يقابلا المحراب عليهما القبة المتصلة بالمحراب وعدد ما فى الجامع من الأعمدة اربع مائة وأربعة

---

(٤٢) الماجل : خزان يجمع فيه ماء المطر •

(٤٣) الصومعة : المئذنة •

عشر عمودا وبلاطاته سبعة عشر بلاطا ٠ وطوله مائتان وعشرون ذراعا وعرضه مائة وخمسون ذراعا وكانت فيه مقصورة فلم يزل بناء زيادة الله فيه والمقصورة اليوم انما هى دار بقبلى الجامع بابها فى رحبة الثمر لها باب عند المنبر يدخل منه الامام بعد أن ينزل فى هذه الدار حتى تقرب الصلاة ٠ وبلغت النفقة فى بنيانه ستة وثمانين الف مثقال ٠ ولما ولى ابراهيم بن أحمد ابن الأغلب زاد فى طول بلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو على آخر بلاط المحراب وفى دورها اثنان وثلاثون سارية من بديع الرخام وفيها نقوش غريبة وصناعات محكمة عجيبة يشهد كل من رآها انه لم ير مبنى أحسن منه وقد فرش من الصحن بين أيدى البلاطات نحو خمسة عشر ذراعا وللجامع عشرة أبواب ومقصورة للنساء فى شرقيها بينها وبين الجامع حائط مخرم محكم العمل »[٤٤] ٠

والحق أن البكرى قد افاد وأوجز لذكر ما حدث لتلك البناية الدينية الهامة فى القيروان مما حملنى على نقل هذا النص مع طوله لأنه خير من تحدث عن عمارة المسجد بما يعطى صورة واضحة عنه ٠

كما يورد الدباغ أسماء بعض المساجد القديمة الفاضلة : منها « (مسجد الأنصارى)[٤٥] بمحرس الأنصار وعليه بنى هذا المحرس. ٠ ولم يزل الصلحاء والأبدال يتناوبونه ويعمرونه وله بركات مشهورة ٠٠٠ و (مسجد الزيتونة)[٤٦] بمحرس الأنصار أيضا ٠٠٠ وهو مسجد كبير جليل فى وسطه ما جل مستطيل بنى هذا المسجد سنة ثلاث وتسعين

---

(٤٤) البكرى ٠ المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٢ ــ ٢٤

(٤٥) زرت هذا المسجد ومكتوب عليه اسسه رويفع بن ثابت الأنصارى أحد أعيان الصحابة سنة ٤٧ هـ ليكون محرسا وذلك قبل أن يختط عقبة القيروان ٠

(٤٦) زرت كذلك هذا المسجد ومكتوب عليه اسسه اسماعيل تاجر الله ٠

بناه اسماعيل بن عبيد الأنصارى وبهذا المسجد كان أهل القيروان يجمعون اذا كان بجامع عقبة بناء ••• و (مسجد أبى ميسرة) بناه بعض التابعين •• وهو عن يسار الداخل من باب تونس احد ابواب المدينة المذكورة ••• و (مسجد الحبلى) بدرب ازهر قرب باب تونس بناه ابو عبد الرحمن الحبلى سنة مائة هجرية •• و (مسجد حنش الصنعانى) الذى لا يزال موجودا وفيه يعلم القرآن وقد زرت هذا المسجد ووجدت به معلما للقرآن يعلم الأطفال الصغار من الذكور والاناث وقد سجلت ذلك بصورة لهم وهو يقع بباب الريح ••• و (مسجد على بن رباح اللخمى) بجوار باب نافع عن يمين الخارج قبل أن يخرج ••• و (مسجد السبت) ويعرف بمسجد الدمنة ••• و (مسجد الخميس) بالقرب منه بناه أبو اسحاق ابراهيم بن المضاء الزاهد صاحب سحنون بالدمنة أيضا ••• و (مسجد عبد الله) عند باب عبد الله الأقدم .•• وقد اندرس باب عبد الله هذا باندراس رسوم القيروان واندرس المسجد المذكور »[٤٧] •

ويذكر ابن عذارى انه : « فى سنة ٢٥٢ هـ بنى محمد بن خيرون الاندلسى المعافرى الجامع الشريف بالقيروان المنسوب اليه • بناه بالآجر والجص والرخام وبنى فيه جبابا للماء »[٤٨] وقد زرت هذا المسجد ويسمى مسجد الثلاثة أبواب ومكتوب عليه بالجص : بالخط الكوفى « بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما • بسم الله الرحمن الرحيم لله الأمر من قبل ومن بعد • أمر ببناء هذا المسجد محمد بن خيرون المعافرى الاندلسى ••• الحمد لله على نعمته وصلى الله على سيدنا محمد •

كما كان هناك بعض المصليات التى تتمثل فى مساحة متسعة

(٤٧) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ٢٧ ـ ٣٢ بتصرف •

(٤٨) لابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ١١٤ •

مربعة فى الغالب يحيط بجهاتها الأربع جدار قصير الارتفاع من غير سقف وفى قبلتها محراب بسيط الوضع واشهر هذه المصليات « مصلى باب نافع ومصلى باب سلم وبها كان أمراء الأغالبة يصلون على جنائز كبار العلماء لقربها من أبواب المدينة والمقابر »[٤٩] .

تلك هى أهم المعالم الدينية فى مدينة القيروان فما هى المنافع العامة ؟



(ج) المنافع العمرانية العامة : للدولة والشعب :

١ ـ دار الامارة والدواوين :

بعد أن اختط عقبة المسجد اختط دار الامارة جنوب المسجد لتكون مقرا للولاة يقول ياقوت : « ثم اختط دارا للامارة »[٥٠] وقد استمرت دار الامارة مقرا للولاة من قبل الأمويين والعباسيين الى أن انتقل عنها ابراهيم بن الأغلب عندما بنى بجوار القيروان مدينة القصر القديم (العباسية) ويذكر الأستاذ حسن حسنى أن دار الامارة بعد أن انتقل عنها الأمير الى رقادة « بقيت دار الامارة خاصة للدواوين »[٥١] وقد اهتم حسان بن النعمان عندما استقر له الأمر بأفريقية الى الناحية الادارية « فدون الدواوين »[٥٢] وكان مقر الدواوين عند انشائها مجاورا لدار الامارة وهى تتكون من « ديوان الجند ـ وديوان الخراج ـ وديوان الرسائل ـ وما الى ذلك من المنشآت الضرورية لتسيير دولاب الحكومة »[٥٣] . كما كان فى المدينة دار لضرب النقود وتعديل الأوزان

---

(٤٩) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٨ .

(٥٠) ياقوت الحمرى معجم البلدان ص ١٩٤ المجلد السابع من عشر مجلدات .

(٥١) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١١

(٥٢) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨

(٥٣) حسن حسنى عبد الوهاب ـ الورقات القسم الأول ص ٥٠

وضبطها وكانت « جوار باب الطراز وبها تصنع النقود وتعدل الأوزان »[٥٤] يضاف الى ذلك ان انشئت الدولة لاستقبال المبعوثين الدبلوماسيين[٥٥] والرسل من الدول الأخرى والوفود القادمة لزيارة الدولة دارا تسمى « دار الضيافة »[٥٦] .

٢ ـ مشاريع المياه والقناطر :

اذا كان المقدسى قد وجه نقدا الى قلة وجود الماء فى القيروان عندما قال : « ان ماءها ضعيف »[٥٧] فان المؤرخين يذكرون كثيرا من المشاريع التى قام بها الولاة والأمراء لاجل التغلب على مشكلة المياه بل يذكرون أن هناك آبارا قد حفرها معاوية بن حديج قبل تخطيط القيروان حين قيامه بغزوته الى افريقية حيث « نزل بمكان القيروان اليوم واحتفر بها آبارا تسمى آبار حديج الى الآن غلب عليها اسم آبيه وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه الى الشرقى عند مصلى الجنائز »[٥٨] « وانما احتفرها اذ كان عسكره هنا »[٥٩] .

كما يذكر صاحب الورقات أن هناك بئرا عذبة غزيرة الماء بين المسجد ودار الامارة ولا تبعد عنهما أكثر من خمسة عشر مترا من ناحية الشرق وربما وجود هذا البئر العذب هو الذى حدد اختيار مكان المسجد ودار الامارة وما زالت البئر موجودة الى اليوم « وهى

---

(٥٤) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٠

(٥٥) ويقصد بذلك الوفود التى كانت تأتى من القسطنطينية كما يحدث فى أيام العكى أو من غيرها كما حدث أيام ابراهيم بن الأغلب وزيادة الله والمعز لدين الله .

(٥٦) انظر حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١١

(٥٧) المقدس احسن التقاسيم ص ٢٢٤

(٥٨) الدباغ معالم الايمان ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢

(٥٩) نفس المرجع ص ٤٥

بئر أم عياض وهى المسماة اليوم بئر نكفة »(٦٠) فاذا ما كان زمن هشام ابن عبد الملك بنى والية على القيروان الماجل القديم فى صحن مسجد القيروان وبنى غيره خارج المدينة • وقد رأيت هذا الماجل فى صحن المسجد وبفوهته آثار الحبال عندما كان يستقى منه •

يقول البكرى : « وبنى فى صحنه - أى المسجد - ماجلا وهو المعروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات »(٦١) ويفيدنا الدباغ عن بعض المواجل عند حديثه عن المساجد القديمة فى القيروان بأن « مسجد الزيتونة وهو مسجد كبير جليل فى وسطه ماجل مستطيل ، بنى هذا المسجد سنة ثلاث وسبعين »(٦٢) •

ولقد كان الأهالى يستعملون جميع المياه الممكن الاستفادة بها فـ « كان السكان يستعملون ماء وادى السراويل فى قبلة المدينة فيما يحتاجون اليه من الماء فى المنازل وليس للشرب لانه كان مالحا »(٦٣) وفى سنة ١٨٠ هـ حفر هرثمة بن اعين والى القيروان البئر المعروفة الآن باسم (بروطة) أو (بئر روطة) قريبا من سوق الأحد وذلك نتيجة لامتداد العمران فى القيروان وهى بئر واسعة الفم لها سفرة رخام غزيرة الماء بالقرب من سوق الأحد »(٦٤) ، وقد شاهدت هذا البئر وشربت من مائه العذب حيث عليها ساقية يديرها بعير أبيض جميل وهى مرتفعة يصعد اليها بدرج • وهكذا نرى أنهم بحثوا عن الماء فى الآبار والعيون كما توصلوا الى فكرة اقامة المواجل لخزن ماء المطر فيها عند نزوله على أسطح المنازل ، كما أقيمت المواجل

---

(٦٠) الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب قسم أول ص ٤٧
(٦١) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب للبكرى ص ٢٣
(٦٢) الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٨
(٦٣) القيروان للدكتور الحبيب الجنحانى ص ٥٩
(٦٤) الورقات قسم أول حسن حسنى عبد الوهاب ص ٤٨

خارج القيروان ومهدت السبل لكى تصل الى المواجل مياة الأودية عندما تنزل الأمطار ٠

ولعل أعظم المواجل التى انشئت لخزن المياة سعة واتقانا هو الماجل الذى بناه أحمد بن محمد بن الأغلب فقد بلغت روعة البناء لهذا الماجل أن عبيد الله الفاطمى عندما رآه أبدى دهشته لاتقانة وروعته وعده من العجائب التى لم يرها فى المشرق « رأيت بأفريقية شيئين لم أرد مثلهما بالشرق : الحفير الذى بباب تونس يعنى الماجل والقصر الذى بمدينة وقادة المعروف بقصر البحر »(٦٥) ولا شك أن مشروعا للمياه يبقى منذ ذلك الزمن الى اليوم ولم يتصدع ولا زال فيه الماء لأمر عظيم يدعو الى الدهشة والعظمة ودقة الاتقان والمتانة وذلك الماجل هو « المشهور اليوم باسم (فسقية الأغالبة) وهو مستدير متناهى الكبر أنشىء سنة ٢٤٥ هـ وأنفق عليه ما يقرب من مائه ألف دينار (مليون ونصف فرنك) »(٦٦) ٠ ويحدثنا البكرى عما تم أيام خلافة هشام بن عبد الملك وغيره من بناء مواجل المياة خارج القيروان ويذكر عددها آنذاك ثم ينوه بهذا الماجل ويصفه وصفا تفصيليا فـ « خارج مدينة القيروان خمسة عشر ماجلا للماء سقايات لأهلها منها بنيان هشام بن عبد الملك وغيره وأعظمها شأنا وافخمها منصبا ماجل أبى ابراهيم احمد بن الأغلب بباب تونس وهو مستدير متناهى الكبر ٠٠٠ ويتصل بهذا الماجل قبلية اقباء طويلة معقودة ازاجا على ازاج وكان زيادة الله قد بنى على غربى هذا الماجل قصرا وبجوفى هذا الماجل ماجل لطيف متصل به يسمى الفسقية يقع فيه ماء الوادى اذا جرى ينكسر فيه شدة جريان الماء ثم يدخل منه الى الماجل الكبير اذا ارتفع الماء فى الفسقية قدر قامتين على باب بين الماجلين يسمى السرح وهذا الماجل عجيب الشأن غريب البنيان »(٦٧) ٠

---

(٦٥) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٦

(٦٦) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٩

(٦٧) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٦

ولقد أدى اتصال بعض المواجل ببعضها ووجود الأبواب لسور القيروان الى بناء قناطر وكبارى على هذه المواجل أمام أبواب سور المدينة فبنى زيادة الله الأول قنطرة باب الربيع وكان يقول : « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان وبنيانى قنطرة أبى الربيع وبنيانى حصن مدينة سوسة وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى أفريقية »[٦٨] . « ولقد حدث سيل عظيم بالقيروان سنة ٢٤٧ هـ هدم قنطرة باب الربيع فأمر صاحب افريقية باصلاحها وتم اصلاحها سنة ٢٤٨ هـ »[٦٩] ومع ذلك فان الماء عندما كان ينفد من مواجل القيروان كان يجلب اليها من مدينة القصر القديم التى تقع جنوبها على ثلاثة أميال[٧٠] منها . وقد كشف السيل الذى نزل بتونس سنة ١٩٦٩ م عن ماجلين آخرين بجوار الفسقية السابقة وقد شاهدت ذلك أثناء رحلتى .

٣ ـ الأسواق وحوانيت التجارة والمصانع :

لا شك أن وصف القدامى لسوق القيروان الكبير (السماط) بأنه يبدأ من المسجد الى باب الربيع ومن المسجد الى باب تونس مما يدل على أنه قد روعى عند تخطيط عقبة للمدينة أهمية السوق والتجارة والصناعات ، كما نفهم من هذه السعة والتنظيم فى تخطيط المدينة نتيجة أخرى وهى أن تخطيط المدينة بهذه المثابة لا شك يجعلها من السعة بقدر كبير فقد « كان سماط سوق القيروان قبل نقله الى المنصورية متصلا من القبلة الى الجوف وطوله من باب أبى الربيع الى الجامع ميلان غير ثلث ومن الجامع الى باب تونس ثلثا ميل وكان سطحا متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات وكان أمر بترتيبه هكذا هشام بن عبد الملك »[٧١] وقد بذل الأمير يزيد بن حاتم المتوفى سنة

---

(٦٨) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٦
(٦٩) انظر المرجع السابق ص ١١٣
(٧٠) البكرى المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٨
(٧١) البكرى المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٥ ، ٢٦

١٧١ هـ « جهده المستطاع فى تنظيم اسواق التجارة واقامة معامل الصناعة »[٧٢] حيث « رتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة فى مكانها »[٧٣] .

وكان فى المدينة الى جانب هذا السوق الكبير المشتمل على جميع أنواع المتاجر والصناعات أسواق أخرى متخصصة الأغراض « للحرف والصنائع الخاصة (كسوق الصيارفة) والمظنون انه كان معدا للعمليات المالية و (سوق الجوهريين) و (سوق البركة) يعرض فيه الرقيق والجوارى و (سوق الأحد) للمنسوجات الصوفية و (سوق الكتانين) و (سوق الغزل) وهذه الثلاثة الأخيرة كانت متلاصقة و (سوق السراجين) و (سوق البزازين) و (سوق الدجاج) جوار باب تونس . و (سوق الرهادرة أو الزهاد)[٧٤] و (سوق اليهود) الى غير ذلك من محلات البيع والشراء والتعامل »[٧٥] وان أبواب المسجد لتوصف بأسماء صناعات وتجارات فى كتب الأقدمين مما يدل دلالة واضحة على أن هذه الأبواب سميت باسم الأماكن التى تفتح عليها لكثرة وجودها فى ذلك المكان فمنها « باب السباغين ... باب سوق الخميس ... باب اللحامين .. وسوق الرماحين »[٧٦] .

وكان بجانب هذا النشاط التجارى الذى تمثله هذه الأسواق صناعات متطورة فى القيروان خاصة فى عصر الأغالبة كصناعة النسيج

---

(٧٢) عمر الركبانى خلاصة التاريخ التونسى ص ٣٠

(٧٣) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٧٨

(٧٤) رهدار من الفارسية : ره = طريق ، دار ـ صاحب أى أن معنى رهدار المسافرون من أجل الاتجار . الكعاك الحضارة العربية ص ٨

(٧٥) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ٦

(٧٦) المقدس أحسن التقاسيم ص ٢٢٥

وصناعة الزربية وصناعة الجلود والأوانى الفخارية ومنها صناعة الآجر ومواد الزخرفة البنائية وغير ذلك من الصناعات الأخرى(٧٧) .

٤ ـ الحمامات والمتنزهات والمستشفيات :

ولقد حظيت القيروان كمدينة عاصمة للاقليم بالحمامات والمتنزهات والمستشفيات وان وجود الحمامات والمتنزهات كذلك ليشير الى التغلب على مشكلة قلة الماء فى القيروان فيذكر البكرى أن « فى القيروان ثمانية واربعين حماما »(٧٨) « كما اهتم بانشاء المتنزهات خارج المدينة لتكون متنفسا لاهلها ومكانا للترويح عنهم .وقد اقيمت هذه المتنزهات قريبا من المدن التى انشئت حول القيروان لتكون مقرا للحكام فكان خارج مدينة القصر القديم » متنزه بديع الشكل يدعى « الرصافة » تشبها بسميتها بغداد »(٧٩) وعندما خرب المعز لدين الله وقادة « لم يبق منها غير بساتينها »(٨٠) كما كان فى القيروان المستشفيات لمعالجة المرضى وقد اقيم خارج القيروان مستشفى عظيم يسمى « الدمنة » كان ذا أقسام وله نظام خاص ويقال : « ان اصل وضعه كان ملجأ كبيرا للفقراء ثم خصص أيام الأغالبة للمصابين والعجزة فصار ينقسم الى قسمين احدهما للمجزومين ويعرف (بدار الجزماء) والآخر مأوى للعمى الفقراء يعالجهم به أطباء ماهرون . وكان الأمراء من كل دولة يزورون هذا المعهد الخيرى لا سيما فى المواسم ويوزعون الأموال والحلويات على المقيمين به »(٨١) .

٥ ـ المقابر :

كما أن من المنافع العامة التى ضمتها القيروان وكانت خارجة

---

(٧٧) انظر د. حبيب الجنحانى القيروان عبر عصور ازدهارها ص ١٣٨

(٧٨) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٢٦

(٧٩) حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٣

(٨٠) البكرى المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٧

(٨١) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ١٠

عنها ـ ولا شك أن ذلك أسلم من الناحية الصحية ـ هى المقابر لدفن الموتى وان سعة المدينة وكثرة عدد سكانها أدى الى تعدد المدافن فيها كما أن بعضها يحمل أسماء لصحابة رسول الله ﷺ ومن ذلك مقبرة البلوية نسبة الى الصحابى الجليل أبو زمعة البلوى الذى « مات بالقيروان ودفن بها بالبقعة التى تعرف الآن بالبلوية سميت به من ذلك الوقت »[٨٢] ومن أشهر المقابر من قديم (مقبرة قريش) غربى المدينة التى يخرج اليها من باب سلم ـ وتسمى اليوم بالجناح الاخضر ـ وهو مدفن شاسع به من قبور العلماء والصالحين شىء كثير . وأول من دفن بها بنية لعبد الله بن عمر بن الخطاب توفيت بقمونية عند الغزوة الثانية لافريقية سنة ٣٣ هـ فرفعت الى هذا المكان قبل تخطيط القيروان »[٨٣] وقد زرت هذه المقبرة وقرأت على شاهد من الشواهد فيها الرخامية مكتوبا عليه بالخط الكوفى البارز :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد نبيه ، قل هو الله أحد الله الصمد .... الى آخر السورة . كل نفس ذائقة الموت .... الى متاع الغرور . هذا قبر القاضى عبد الله بن هاشم توفى يوم الاثنين من ٦ بقين من شعبان سنة ٣٦٣ هـ وهو يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وان الجنة حق والنار حق والبعث حق والحساب حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور . وعلى هذه الشهادة حيى وعليها مات وعليها يبعث حيا رحم الله من دعا له ولوالديه ولجميع المسلمين بالرحمة والمغفرة وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم .

وبجوار قبره شاهد مكتوب عليه مكية بنت قاضى القضاة عبدالرحمن ابن محمد بن عبد الله ابن هاشم توفيت يوم الجمعة لاحدى عشر بقين

---

(٨٢) الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٩٨

(٨٣) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ٨

من شهر رمضان سنة ٤٢٧ هـ وهى تشهد ان لا آله الا الله وحــــده لا شريك له ...

كما ان هناك من المقابر الاخرى مقبرة الحاطبية ومقبرة سحنون نسبة الى العالم الجليل المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وبجواره مدافن امراء اسرة الأغالبة »[٨٤] .

* * *

(د) المنشــــات الخاصـــة :

كان فى القيروان بجانب هذه المنشآت العامة منشآت خاصة تتمثل فى قصور الاثرياء والامراء ومنشات أخرى لأجل الترفيه والتنزه ومن هذه القصور بعض ما أنشأه الاغالبة بمدينة القيروان كقصر ابى الفتح وقصر حمص وقصر الماء الذى بناه زيادة الله وكان يقع عربى الماجل الكبــير بمقربة من باب تونس[٨٥] .

وقد انفق على هــذه القصور كثير من الأموال ومما يوضح لنــا ضخامة هذه القصور ما يذكر من ان احد العلماء اتفق فى أواخر القرن الثالث على ترميم قصره بريض الروحاء الفا ومائتى دينار وهو قدر كبير بالنسبة لذلك الوقت[٨٦] .

وقد انشأ الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب فى وسط المــاجل الكبير صومعة مثمنه فى اعلاها قصبة بها قبة (كشك) مفتحة على أربعة أبواب على احد عشر رجلا لا خلل بينهم وكان ذلك الأمير عندما يمتلىء الماجل بالمــاء يدخل الى هذه القبة فى مركب يسمى (الزلاج) لسرعته و لاشك انه كان يتخذ ذلك مكانا للترفيه والتنزه[٨٧] .

---

(٨٤) انظر المرجع السابق بتصرف ص ٩

(٨٥) البكرى المغرب ص ٢٦ ، حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ١١

(٨٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٨٧) انظر المرجع السابق ص ١٠ ، والمغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٦

(هـ) حول القيروان :

خلال حكم الدولة الاغلبية والفاطمية اقيمت حول القيروان وقريبا منها ثلاث مدن كانت مقرا للحكام وأعوانهم وقد ازدهرت هـذه المدن ازدهارا عظيما كما ان بعضها قد نقل اليه أخيرا أسواق القيروان وبعضها الآخر كان يستمد من مواجلة المـاء عند نفاده من القيروان وهذه المـدن هى القصر القديم ورقاده وصبرة .

١ ـ القصر القديم أو العباسية :

فى سنة مائة وأربع وثمانين من الهجرة أسس ابراهيم بن الأغلب مدينة القصر القديم وهى تقع على ثلاثة اميال جنوب القيروان ثم انتقل اليها وصارت دار امراء بنى الأغلب وقد عمرت وكثر فيها الحمامات والفنادق والأسواق ومواجل المـاء التى كانت تستمد منها القيروان نفسها عند نفاد المـاء فيها . كما بنى فيها مسجد وصفه البكرى بان : « لـه صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم يبن احكم منهـا ولا أحسن منظرا »[٨٨] . وكان فى داخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالميدان واحيطت المدينة بسور له خمسة أبواب هى : « باب الرحمة قبلى وباب الحديد قبلى وباب غلبون شرقى وباب الريح شرقى وباب السعادة غربى يقابل المقبرة الكبيرة »[٨٩] . وقد استقبل ابراهيم بن الأغلب فى القصر القديم سفراء شارلـمان ملك الافرنج فى أبهة عجيبة « وتسمى آثارها اليوم قصور الأغالبة »[٩٠] .

٢ ـ رقـــادة :

أنشأها ابراهيم بن احمد بن الأغلب سنة ٢٦٣ هـ[٩١] على بعـد أربعة اميال من القيروان على مساحة قدرها أربعة وعشرون الف ذراع

---

(٨٨) البكرى المغرب فى بلاد افريقية والمغرب ص ٢٨
(٨٩) نفس المرجع ص ٢٨
(٩٠) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط العقيق ص ١٢
(٩١) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ ١ ص ١١٧

واربعون ذراعا وهى حسنة الموقع كثيرة المتنزهات « فأكثرها بساتين وليس بافريقية أعدل هواء ولا ارق نسيما ولا أطيب تربة من مدينة رقادة »[٩٢] . وقد عمرت ونفقت اسواقها وكثرت حماماتها وفنادقها وانتقل اليها مقر الامارة من القصر القديم كلما بنى بها ابراهيم قصورا عجيبة أشهرها وأجملها قصر البحر الذى تعجب منه عبيد الله الفاطمى عند رؤيته وبنى بها كذلك مسجدا وقد بقيت رقادة دار ملك الأغالبة الى ان سقطت دولتهم فاقام بها الفاطميون الى سنة ٣٠٨ هـ ثم انتقلوا منها الى المهدية بعد بنائها . فلحقها الوهن وفارقها سكانها . « ولم تزل تخرب شيئا بعد شىء الى ان ولى معد بن اسماعيل فخرب ما بقى منها وعفا آثارها وحرث منازلها ولم يبق منها غير بساتينها »[٩٣] وقد شاهدت فى رقادة بقايا قصر البحر وقصر الصحن وهما يقعان قرب الماجل الكبير الموجود آثاره هناك والخالى من الماء الآن وقد بنى الأغالبة ذلك الماجل كما يوجد برقادة بعض انواع الخزف الباقى من ذلك التاريخ كما يوجد بقايا من الفسيفساء فى أرضية القصر . وفى متحف عقبة بالقيروان توجد مصابيح وأوانى خزفية وقلل وصحون مزخرفة وسكريات بغطاء ومعجنة كسكسى وكانون وقلة زجاجية وكلها وجدت برقادة وترجع الى العصر الأغلبى كما نقلت بعض الآثار من رقادة الى المعهد القومى للآثار والفنون ومتحف الباردو بتونس العاصمة وقد شاهدت كل ذلك . كما شاهدت بمتحف عقبة عصاة سحنون وبعض الشواهد التى عليها تاريخ وفاة العلماء .

٣ ـ صبرة أو المنصورية :

أسسها اسماعيل بن القائم بن عبيد الله المهدى الفاطمى سنة سبع وثلاثين وثلمائة عندما تم له الانتصار على احد الثائرين أبى يزيد مخلد بن كدياد الملقب بصاحب الحمار وهى متصلة بالقيروان وتبعد

---

(٩٢) البكرى المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٧

(٩٣) البكرى وصف بلاد افريقية والمغرب ص ٢٧

عنها نصف ميل[٩٤] وانتقل اليها مقر الخلافة الفاطمية من المهدية بعد تاسيسها فهى « منزل الولاة الى حين خرابها .... كمل نقل اليها معد ابن اسماعيل أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات »[٩٥] . وقد نشطت التجارة فيها نشاطا واسعا فـ « كان يدخل واحد ابوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم »[٩٦] كما عمرت بالمبانى الجميلة والشوارع الفسيحة والمساجد والفنادق « ولها تلاثمائة حمام اكثرها للديار وباقيها مبرز للناس كافة »[٩٧] .

وكان الماء يجرى فى وسط المدينة كما سورت بسور سميك عرضه «اثناعشر ذراعا»[٩٨] . وكان لها خمسة ابواب الباب القبلى والباب الشرقى وباب زويلة وباب كتامة وهو جوفى وباب الفتوح ومنه كان يخرج بالجيوش »[٩٩] .

وقد شاهدت فى صبرة بقايا من مصنع البلور عثر عليها وخاصة الأفران لحرق البلور ووجدت هناك بعض الأدوات المنزلية وعمدانا ضخمة وما زالت بعض أرضية معمل البلور مفروشة بالبلاط الصغير الذى يسمى زليج من الخزف من صنع القيروان .

وقد تخربت واندثرت هذه المدن التى قامت حول القيروان ولم يبق منها سوى بعض الاطلال البالية والرسوم الخالية »[١٠٠] ولكن بقيت القيروان شامخة بأنفها متحدية عوامل البلى محتفظة بآثارها وتاريخها .

(٩٤) انظر ابن عذارى البيان ج ١ ص ٢١٩ ، حسن حسنى عبد الوهاب بساط العقيق ص ١٤

(٩٥) ، (٩٦) البكرى وصف بلاد افريقية والمغرب ص ٢٥ وقد خربها الهلاليون مع القيروان سنة ٤٥٢ انظر القيروان عبر عصور ازدهارها للحبيب الجنحانى ص ٦٢

(٩٧) حسن حسنى ، بساط العقيق ص ١٥

(٩٨) المقدسى أحسن التقاسيم ص ٢٢٥

(٩٩) البكرى المغرب ص ٢٥

(١٠٠) حسن حسنى ، بساط العقيق ص ١٥

الفصل الثالث

الحالة السياسية في القيروان بعد أن تم فتح أفريقيا

(أ) عصر الولاة من بنى أمية وبنى العباس :

بعد أن تم فتح افريقية على يد حسان بن النعمان وثبتت اقدام المسلمين فيها توافد الولاة على القيروان من قبل خلفاء بنى أمية تم من قبل خلفاء بنى العباس لادارة شئون ولاية افريقية التى كان مقرها القيروان ٠

وقد اتسع نطاق هذه الولاية حتى وصل الى المغرب الأقصى وعبر المضيق الى الاندلس التى انضوت تحت سلطان المسلمين ٠ فكان والى القيروان هو المسئول عن ادارة هذه الاقاليم الشاسعة ٠ ثم عاد سلطان والى القيروان فانكمش ثانيا بحيث اقتصر على افريقية وحدها بعد ان استقل الامويون بالاندلس والرسنميون تباهرت والمدراريون بسجلماسة والادارسة بفاس وبذلك انفصل الاندلس والمغرب الاقصى وبعض اقاليم المغرب الاوسط عن التبعية للسلطة الحاكمة فى القيروان ٠

وقد عانت السلطة الحاكمة فى القيروان خلال عصر الولاة كثيرا من الثورات العاتية وتعرضت فى بعضها للحصار بل تمكن الثوار فى بعض الأحيان من طردها من مقرها والاستيلاء على القيروان نفسها وانتهاك حرماتها ومقدساتها الى أن قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤ هـ ٠

١ ـ ولاية موسى بن نصير :

وقد تولى أمر افريقية بعد حسان بن النعمان موسى بن نصير سنة٨٨هـ[١] حيث قام بكثير من الفتوح كان أولها فتح قلعة زغوان ونواحيها وبينها وبين القيروان مسيرة يوم[٢] كامل ثم تابع فتوحه فتوحة غربا

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ ١ ص ٤٦ ، ويذكر البلاذرى فتوح البلدان انها سنة ٨٩ ص ٢٧٢ ، ويذكر ابن عبدالحكم فتوح انها سنة ٧٨ هـ ويخيل الى انها ٨٧ وان التاريخ فى ابن عبد الحكم قد عكس العدد وهذا ما يذكره المقرى فى نفح الطيب جـ ١ ٢٢٣

(٢) انظر ابن عذارى جـ ١ ص ٤٠

متوجها الى المغرب الأقصى ففتح طنجة وانتهت خيلة الى السوس الادنى [٣] ودان له أهل المغرب بعد حروب كثيرة خاضها ضدهم وأسر فيها كثيرا منهم فانقادوا له ودانو بالطاعة فولى على السوس الأدنى واليا واستعمل مولاه طارقا على طنجة وما والاها فى سبعة عشر الفا من العرب ، واثنى عشر الفا من البربر وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين ثم انصرف الى قيروان افريقية ولم يبق فى أفريقية من ينازعه[٤] .

وفى سنة ٩٢ هـ استطاع طارق بن زياد واليه على طنجة ان يغزو الأندلس وينتصر على حاكمها فى المعارك الأولى حيث لحق به موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ الذى تابع فتوح الأندلس[٥] وبذلك صارت الأندلس تابعة للقيروان ثم عاد موسى الى القيروان - بعد أن ترك ابنه عبد العزيز واليا على الأندلس[٦] ليجد كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالقدوم عليه فاستخلف على افريقية[٧] أكبر بنيه عبد الله وعلى طنجة ابنه عبد الملك ثم توجه الى دمشق ليصل اليها قبل وفاة الوليد بن عبد الملك بأيام قليلة[٨] .

٢ - ولاية محمد بن يزيد :

تولى الخلافة بعد الوليد أخوه سليمان بن عبد الملك فأسند امر

(٣) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٧٢

(٤) انظر البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٧٢ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٤٢ ابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ٢٥٩

(٥) انظر البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٧٣ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٤٣ ، ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠٧

(٦) تاريخ فتح افريقية للرقيق ص ٨٥

(٧) يقصد بأفريقية هنا القيروان .

(٨) انظر فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢١٠ ، الرقيق تاريخ أفريقية ص ٨٨ . توفى الوليد بن عبد الملك سلخ جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ المرجع السابق ص ٩١

افريقية والمغرب كله الى محمد بن يزيد مولى قريش واوصاه بقوله : « يا محمد بن يزيد اتق الله وحده لا شريك له وقم فيمن وليتك بالحق والعدل اللهم اشهد عليه » فخرج وهو يقول : « مالى عـــذران لم اعـدل »[٩] • وقد وصل محمد بن يزيد الى مقر ولايته سنة ٩٧ هـ ، ويتحدث المؤرخون عنه بأنه كان حسـن السيرة عادلا كما قام ببعث السرايا الى ثغـور افريقيـــة وقد اســـند أمر الأندلس الى الحـر بن عبد الرحمن الثقفى[١٠] وقام بمصادرة أملاك أسرة موسى بن نصـير فى القيروان وقد استمرت ولايته سنتين واشــهرا •

٣ ـ ولاية اسماعيل بن عبيد الله :

وعندما توفى سليمان بن عبد الملك وولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ولى على افريقية اسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم سـنة ١٠٠ هـ الذى بذل جهودا مخلصـة لأجل اقرار العـدل والســلام كما اهتم بنشر الاســلام والتعريف به بين البربر مما أدى الى اعتناق كثير من البربر للاسـلام ويذكر ابن عذارى « انه ما زال حريصا على دعوة البربر الى الاسـلام حتى أسلم بقية البربر بأفريقية على يديه »[١١] كما بعث معه الخليفة بعشرة من التابعين لتعليم اهــل افريقية الحلال والحرام وقد ولى اسماعيل بن أبى المهاجر على الأندلس السمح بن مالك الخولانى ويجمل المؤرخون الحالة السياسية فى أيام اسماعيل بقولهم : « انه كان خير أمير وخير وال »[١٢] •

(٩) المرجع السابق ص ٢٣

(١٠) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٤٧ ، الرقيـق تاريخ افريقية ص ٩٣ ، ويذكر الرقيـق أن اسمه الحسن بن عبد الرحمن القيسى •

(١١) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٤٨ ، والرقيق تاريخ افريقية ص ٩٧

(١٢) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٤٨ ، الرقيق تاريخ افريقية ص ٩٧ ، وابن عبد الحكم فتوح ص ٢٨ • يصفه بأنه كان حسن السـيرة •

٤ ـ ولاية يزيد بن أبى مسلم :

وعندما آلت الخلافة الى يزيد بن عبد الملك أسند ولاية المغرب الى يزيد بن ابى مسلم مولى الحجاج بن يوسف فقدم اليها سنة ١٠٢ هـ وكان يتسم بالقسوة والظلم سواء بالنسبة للرعية حيث حاول أن يضع الجزية على من أسلم[١٣] من أهل الذمة او بالنسبة لحرسه حيث أراد أن يسمهم على أيديهم حتى يعرفوا بذلك مما أدى الى تآمرهم عليه وقتله بعد شهر من ولايته[١٤] .

٥ ـ ولاية بشر بن صفوان الكلبى :

واختار أهل القيروان محمد بن أوس الأنصارى واليا عليهم ٠ وكان فى غزو صقلية فبعد عودته قام بالأمر وكتب الى يزيد بن عبد الملك يخبره بما حدث من قتل يزيد بن أبى مسلم واختيار أهل القيروان له[١٥] ٠ فولى يزيد على أفريقية بشر بن صفوان الكلبى الذى قدم الى القيروان سنة ١٠٣ هـ فقام بتصفية آل موسى بن نصير كما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى وفى سنة ١٠٧ هـ ولى على الأندلس ثانيا يحيى بن سلمة الكلبى كما أن بشرا مهد أمور أفريقية وغزا صقلية بنفسه فأصاب سبيا كثيرا وعند عودته الى القيروان أدركته الوفاة فى سنة ١٠٩ هـ[١٦] .

ونلاحظ هنا سرعة تغيير والى أفريقية فى القيروان الذى كان يغير بالتالى الولاة التابعين له وخاصة فى الأندلس ٠ وقد أدت سرعة هذا التغير الى عدم القيام بأعمال هامة سوى ما قام به اسماعيل بن أبى المهاجر

---

(١٣) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ١٨٨

(١٤) انظر الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ٩٩ ، ١٠٠

(١٥) انظر المرجعين السابقين البيان ص ٤٩ والرقيق ص ١٠٠

(١٦) انظر ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٨٨ ، وابن عذارى البيان جـ ١ ص ٤٩

من نشر للاسلام بين البربر وكذلك نلمح روح الثورة فى قتل والى القيروان يزيد بن أبى مسلم لعدم قيامه بالعدل فى الرعية والقسوة التى ابداها فى معاملة حرسه الخاص مما أدى الى قتله ٠

٦ ـ ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى :

وفى سنة ١١٠ هـ قدم الى القيروان عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ليقوم بحكم أفريقية خلفا لبشر بن صفوان من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث عبيدة من قبله الى الأندلس مدة حكمه أربعة ولاة كان آخرهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الذى غزا فرنسا حيث استشهد سنة ١١٥ هـ بموضع يعرف ببلاط الشهداء[١٧] كما وجه عبيدة المنستير بن الحبحاب الحرشى غازيا الى صقلية فغرقت السفن ولم تصل الى الهدف المنشود[١٨] ٠

وقد عامل عبيدة عمال الوالى السابق بقسوة وعنف وفرض عليهم بعض الغرامات فشكوه الى الخليفة مما أدى الى عزله عن افريقية[١٩] ٠

---

(١٧) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٥٠ ولعل ابن عذارى يقصد أنه فى أيامه كان يسمى بذلك ٠ ويذكر سيد امير على أن المعركة التى استشهد فيها دارت فى نقطة واقعة بين تور وبواتيه واستمرت عشرة أيام ٠٠ وسمى الميدان الذى جرت فيه تلك المعركة فى التاريخ العربى (بلاط الشهداء) بالنظر الى كثرة من استشهد فيها من مشاهير الرجال مع عبد الرحمن ٠ وما يزال الأتقياء يعتقدون أن ملائكة السماء يمكن أن تسمع هناك وهى تدعوا لمؤمنين لصلاة الغروب ٠ مختصر تاريخ العرب ص ١٤٩ ـ ١٥١

(١٨) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٦

(١٩) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٥١ ، دبوز تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢١١

٧ ـ ولاية عبيد الله بن الحبحاب :

وأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب واليا على أفريقية والمغرب سنة ١١٦ هـ وكان كاتبا بليغا يقول الشعر وكان واليا على مصر قبل اسناد ولاية أفريقية اليه[٢٠] فقدم القيروان ونظم شئونها وقام فى تونس ببناء المسجد الجامع والزيادة فى دار الصناعة[٢١] كما أرسل الولاة الى أطراف الولاية فبعث الى الأندلس عقبة بن الحجاج وولى على طنجة وما والاها ابنه اسماعيل ثم ولى بعده عمر بن عبد الله المرادى وارسل جيشا بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع الى المغرب الأقصى فبلغ السوس الأقصى ولم يقابله أحد الا ظهر عليه وفى سنة ١٢٢ هـ ارسل حبيب بن ابى عبيدة غازيا الى صقلية فتمكن من فرض الجزية عليها[٢٢] .

وكان عامله على طنجة والمغرب الأقصى عامل الرعية معاملة سيئة وأراد تخميس البربر وزعم أنهم فىء للمسلمين مما أدى الى قيام ثورة عنيفة تزعمها ميسرة المدغرى الذى تمكن من قتل والى طنجة عمر بن عبيد الله المرادى كما تمكن من قتل اسماعيل بن عبيد الله الذى كان يلى أمر السوس[٢٣] وذر قرن الفتنة فى المغرب فقد كان ميسرة المدغرى ممن يدين بمذهب الخوارج الصفرية وادعى الخلافة وتسمى بها وكثر جمعه وأعلن استقلاله عن والى القيروان فارسل اليه ابن الحبحاب جيشا بقيادة خالد بن حبيب فالتقى بالبربر الذين ولوا عليهم خالد

---

(٢٠) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١٠٧

(٢١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٥١

(٢٢) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٥١ ، الرقيق تاريخ أفريقية المغرب ص ١٠٨ ، ١٠٩

(٢٣) انظر عبد الحكم فتوح ... ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان المغرب ص ٥٢ ، ٥٣ الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٠٩ وربما كان مذهب الخوارج هو سبب الفتنة لا ظلم الولاة كما يذكر المؤرخون .

ابن حميد الزناتى خليفة ميسرة ودارت معركة عنيفة أنف العرب فيها من الفرار مما أدى الى استشهاد خالد بن حبيب وأصحابه حيث قتل فى تلك الوقعة حماة العرب وفرسانها فسميت لذلك غزوة الأشراف[٢٤] وانتقض المغرب الأقصى ضد حكم القيروان ٠ وبلغ استشهاد كماة العرب وانتقاض المغرب على والى القيروان الى أسماع هشـام بن عبد الملك فقال : « والله لاغضبن لهم غضبة عربية ولأبعثن لهم جيشـا أوله عندهم وآخره عندى ثم لا تركت حصن بربرى الا جعلت الى جانبه خيمة قيس أو تميمى » ثم كتب الى ابن الحبحاب بقدومه عليه فخرج فى جمادى الاولى سـنة ثلاث وعشرين ومائة »[٢٥] ٠ متوجها الى دمشق ٠

٨ ـ ولاية كلثوم بن عياض القشيرى :

وأسند هشـام بن عبد الملك القيـام بأمر أفريقية والقضاء على الثورة فيها الى كلثوم بن عياض القشيرى وارسـل معـه اثنى عشر الفا من أهل الشـام وأمر حكام مصر وبرقة وطرابلس بارسال الجنود معـه فوصـل الى افريقية فى رمضان سـنة ١٢٣ هـ فاستخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفارى قاضى افريقية وسار كلثوم بن عياض فى جيشه الذى بلغ ثلاثين الفا[٢٦] بعـد ان انضم اليـه جند أفريقية بقيادة حبيب بن أبى عبيدة والتقوا مع ثوار البربر بقيادة خالد بن حميـد الزناتى فدارت المعركة بينهما على وادى سبو بجنوب طنجة حيث انجلت عن قتـل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبى عبيدة وهزيمة العرب وقتل كثير من قادتهم وفرسانهم فانسحب بقية الجيش ولجا بعضـه

---

(٢٤) المراجع السـابقة فتوح ص ٢١٧ ، الرقيق ص ١١٠ ، ١١١ ، البيان ص ٥٤

(٢٥) انظر الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١١ ، ابن عذارى البيـان المغرب جـ ١ ص ٥٤

(٢٦) انظر ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٥٥ نقلا عن ابن القطان ٠

الى الأندلس والبعض الآخر الى الفيروان[٢٧] . وبعد هذه المعركة انفصل المغرب الأقصى والأوسط[٢٨] عن سلطة القيروان وأصبح هم الولاة بعد ذلك هو المحافظة على أفريقية التى هى المغرب الأدنى وفيه مقر الولاة « مدينة القيروان » .

٩ ـ ولاية حنظلة بن صفوان الكلبى :

بعد استشهاد كلثوم بن عياض ولى هشام بن عبد الملك على أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فوصل الى القيروان فى شهر ربيع الأول سنة أربع وعشرين ومائة وطلب منه أهل الأندلس ان يرسل اليهم واليا فارسل اليهم أبا الخطار بن ضرار الكلبى الذى ركب البحر من تونس الى الأندلس واليا عليها فأدوا اليه الطاعة[٢٩] ، ولم يمض على اقامة حنظلة بالقيروان وقت طويل حتى زحفه اليه الخوارج الصفرية فالتقى بعكاشة بن ايوب الفزارى بالقرن قريبا من القيروان ودارت معركة حامية كان النصر فيها لحنظلة وفر عكاشة ثم قبض عليه فقتله حنظلة . وبعد ذلك أقبل عبد الواحد بن يزيد الهوارى فنزل على ثلاثة أميال من القيروان بموضع يعرف بالأصنام وكان فى جمع

(٢٧) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢١٧ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٥٥ ، حبيب الجنجانى القيروان عبر عصور الازدهار ص ٤٧ ، ديوز تاريخ المغرب الكبير ص ٢٦٩

(٢٨) اقسام المغرب : قسم العرب المغرب بحسب قربه وبعده عن مصر التى يسيرون منها لفتحه الى ثلاثة اقسام :

ا ـ الأدنى : من السلوم فى غرب مصر الى بجاية ويشتمل على برقة وطرابلس وتونس وعمالة قسنطينية .

ب ـ والى مغرب أوسط : وهو من بجاية شرقا الى وادى ملوية ويشتمل على جبال القبائل وعمالة الجزائر ووهران الى ملوية .

ج ـ والى مغرب اقصى : من وادى ملوية الى المحيط الأطلسى . انظر دبوز تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٣٨

(٢٩) الرقيق تاريخ أفريقية والمغرب ص ١١٥

عظيم من البربر بلغ ثلاثمائة الف قاصدا القضاء على السلطة فى القيروان فخرج اليـه حنظلة باهل القيروان بعد أن جهزهم بكل الأسلحة العسكرية الموجودة لديه وقد بذل صفوان الأموال للمجاهدين فخرج أهل القيروان للدفاع عن مدينتهم وهم مستميتون لحماية مدينتهم . وشـارك فى هذه المعركة العلماء والقراء لتقوية الروح المعنوية كما شـارك نسـاء القيروان حيث عقدن الالوية وخرجن بالسـلاح عازمات على القتال ومشـاركة الرجال فى ميادين القتال وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منهم موليـا عن العدو ليقتلنه وبذلك أقبل أهل القيروان بقيادة حنظلة على قتال العدو بروح مستميته فى طلب النصر أو الشهادة ودارت المعركة واشتد القتال وانزل الله نصره وهزم الصفرية وولوا منهزمين وقتل عبد الواحد بن يزيد الهوارى وحملت راسـه الى حنظلة فخر لله سـاجدا وبذلك حفظت القيروان من هذه الثورة العاتية . ولقد كان لهاتين الموقعتين وقع حسن فى دمشـق عندما علم الخليفة بالانتصار فيهما وحماية القيروان من شر الثائرين وكان الليث بن سـعد يقول : « ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر احب الى من غزوة القرن والأصنام »(٣٠) لـما كان لها من أثر فى تارخ الاسـلام فى المغرب .

ولا شـك أن حنظلة قد حفظ بحسن قيادته القيروان من هـذه الثورة العاتية وتلك الأعداد الهائلة التى كانت تريد اجتياحها والقضاء على أى سـلطة للأمويين فيها . ولكن فى سـنة سبع وعشرين ومائة ثار بتونس عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ودعا الناس الى نفسـه فأجابوه فاقبل بجموعه الى القيروان طالبا من حنظلة مغادرتها وكره حنظلة سفك دماء المسـلمين فغادر القيروان متجها الى

---

(٣٠) انظر : الرقيق تاريخ أفريقية ص ١١٩ ، ١٢٠، ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ٩٠ ، ٩١ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٩٤

المشرق فى جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة[٣١] .

١٠ ـ ولاية عبد الرحمن حبيب الفهرى :

ودخل عبد الرحمن القيروان وتولى الامر فيها وصار هو الحاكم لافريقية ويبدو أن الذى ساعد الفهرى فى حركته هو اضطراب امر الخلافة فى المشرق الذى كان فرصة مكنت لعبد الرحمن من أن يظفر بشبه استقلال فى الحكم وان كان لم يعلن انفصاله عن الخلافة فى المشرق فقد ارسل عبد الرحمن الى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية هدايا وعلل خروجه على حنظلة باشياء تقولها عليه فكتب اليه مروان بولايته على أفريقية[٣٢] وقد استمر عبد الرحمن بحكم أفريقية عشر سنوات استطاع خلالها أن يقضى على كل الثورات التى قامت ضده وهزم كل ثائر حاول الانتفاض عليه ، وعندما اجتمع بتلمسان جمع كبير من البربر سار اليهم وفض جموعهم وظفر بهم وخافه المغرب ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية وقد بعث جيشا الى صقلية وآخر الى سردانية فانتصر على اهلهما ثم صالحوه على الجزية[٣٣] .

ولما قامت دولة بنى العباس أرسل عبد الرحمن كتابا الى أبى العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس يعلن فيه طاعته فاقره السفاح على أفريقية فلما توفى السفاح وخلفه أبو جعفر المنصور أرسل اليه عبد الرحمن بهدية ومعها كتاب بين فيه قلة دخل أفريقية وأنها قد أصبحت اسلامية ويطلب منه الا يسأله ماليس عنده فاستاء لذلك

---

(٣١) ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٢٤ ، ابن الآبار الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٤٢ ، مبارك الميلى الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٠

(٣٢) الرقيق تاريخ افريقية ص ١٢٩ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦١ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٢

(٣٣) ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦١ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٤٨ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٨٩ ، مبارك الميلى الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٠

أبو جعفر وكتب اليه يتوعده مما حمل عبد الرحمن على خلع ابى جعفر واعلان عدم تبعيته له ، وانتهز أخوه الياس ذلك فثار عليه وقتله وتولى أمر أفريقية بعده وبعث بطاعته الى المنصور مع وفد منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى أفريقية[٣٤] ، ولكن افريقية لم تسكن لالياس اذ ثار عليه حبيب بن عبد الرحمن وتمكن من القضاء عليه بعد سنة ونصف من توليه الأمر ودخل حبيب القيروان وقام بامر افريقية وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ومائة هجرية . الا ان أفريقية لم تسلس قيادها له اذ اقبل عاصم بن جميل[٣٥] امير ورفجومة من نفزة فهزم حبيبا ثم التقى عاصم مع خليفة حبيب على القيروان القاضى أبو كريب فقتل أبو كريب بعد أن قاتل ومن معه من أهل القيروان بكل بسالة وجراة ودخلت ورفجومة القيروان فاستحلوا المحارم وانتهكوا الحرمات وولى عاصم على القيروان عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى الذى سام اهل القيروان سوء العذاب وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع ، ثم التقى حبيب مع عاصم مرة اخرى فتمكن من قتل عاصم وأصحابه الا أن عبد الملك بن أبى الجعد تمكن بقبيلته ورفجومة من قتل حبيب فى شهر المحرم سنة مائة وأربعين هجرية وبذلك قضى على أسرة عبد الرحمن بن حبيب . وعاثت ورفجومة فى القيروان فسادا وفر كثير من أهل القيروان الى المدن المجاورة وشاع ما حل بالقيروان بالآفاق . فأقبل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الأباضى من طرابلس

---

(٣٤) الرقيق تاريخ ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، ابن عذارى البيان ج ١ ص ٦٨ ، ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٤٩

(٣٥) عاصم بن جميل الورفجومى : رئيس قبيلة ورفجومة البربرية من نفزة . ادعى النبوة والكهانة فبدل الدين وزاد فى الصلاة وأسقط ذكر النبى ﷺ من الآذان وقد قتله حبيب بن عبد الرحمن فقام بأمر ورفجومة من بعده عبد الملك بن أبى الجعد وهو من الخوارج الصفرية . انظر الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ١٤٩ وابن عذارى البيان ج ٠ ص ٧٠

قاصدا القيروان لقتال ورفجومة فالتقى معهم سنة ١٤١ هـ وهزمهم وشتت شملهم وتتبعهم حتى اخرجهم من القيروان وترك على القيروان نائبا عنه عبد الرحمن بن رستم وذلك فى صفر سنة احدى وأربعين ومائة من الهجرة(٣٦) .

وبذلك خرجت القيروان قاعدة أفريقية عن التبعية للخلافة المركزية فى المشرق وصارت فى يد الأباضية .

١١ ـ ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى :

ولذلك أرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى سنة ١٤٤ هـ ليسترد القيروان من الأباضية ولتكون تابعة لمركز الخلافة خاصة بعد أن وفد على ابو جعفر المنصور رجال من أفريقية يشكون اليه ما نزل بهم من ورفجومة ويستصرخونة لانقاذ أفريقية . ولقد جهز المنصور محمد بن الأشعث بجيش بلغت عدته أربعين الفا حيث التقى مع ابى الخطاب الاباضى الذى كان يعاضده قرابة مائتى ألف جندى عسكر بهم فى سرت منتظرا ابن الأشعث . وعندما التقى الجيشان دارت معركة حامية قتل فيها ابا الخطاب وشتت جيشه وتوجه بعدها ابن الأشعث الى القيروان التى فر منها عبد الرحمن بن رستم خليفة ابى الخطاب فدخلها ابن الأشعث فى صفر سنة ١٤٤ هـ وأقر فيها الأمن والهدوء ونشر الأمن فى أفريقية كلها وطهر ودان وزويلة من الأباضية كما قام باحاطة القيروان بسور أتمه سنة ١٤٦ هـ وذلك لتأمين القيروان من الأعداء ولكن بعض الجند ثار عليه فغادر القيروان متوجها الى المشرق فى ربيع الأول سنة ١٤٨ هـ(٣٧) .

---

(٣٦) انظر الرقيق تاريخ أفريقية سنة ١٤١ ، ١٤٢ ، ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٧٠ ، ٧١ ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٩٠

(٣٧) انظر تاريخ اليعقوبى ص ٤٦٤ ، ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ١٥١ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٩١ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٥ ، ٥٧

١٢ ـ ولاية الأغلب بن سالم التميمى :

وأسند أبو جعفر المنصور ولاية افريقية الى الأغلب بن سالم التميمى فوصله العهد فى جمادى الآخرة سنة ١٤٨ واستقامت له الأمور وهدأ الجند ويذكر ابن عذارى أن المنصور أوصاه « بالعدل فى الرعية وحسن السيرة فى الجند وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها ومن يترك فيها اذا رحل الى عدوه وغير ذلك من أموره »[(٣٨)] .

وقد استقرت امور افريقية على يديه غير أن أبا قرة البربرى من الخوارج الصفرية جمع جيشا كثيفا من البربر لقتال الأغلب فلم ينتظره الأغلب بل سار اليه يريد فض جمعه وعندما قاربه[(٣٩)] الأغلب فر أبو قرة وتفرق جمعه وأراد الأغلب مواصلة زحفه الى تلمسان وطنجة الا ان بعض قادة الجند كرهوا ذلك وجعلوا يتسللون الى القيروان فاستغل الحسن بن حرب الكندى[(٤٠)] ذلك وثار على الأغلب ودخل القيروان اثناء غياب الأغلب عنها الا أن الأغلب رجع الى القيروان وتمكن من اخراجه منها والانتصار عليه فعاود الحسن جمع الجند وقدم الى القيروان فخرج اليه الأغلب فقاتله واثناء المعركة أصابه سهم فقتله وسمى الشهيد وتابع جنده المعركة حتى انتصروا على الحسن وقتلوه فولى الثائرون معه منهزمين[(٤١)] .

---

(٣٨) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٧٤

(٣٩) لم يذكر أحد من المؤرخين الذين رجعت اليهم أين اجتمع أبو قرة ومن معه .

(٤٠) كان الحسن بن حرب بتونس فكاتب جميع القواد فلحق به بعضهم وأقبل معهم الى القيروان فدخلها . انظر البيان ابن عذارى جـ ١ ص ٧٤

(٤١) انظر ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٧٨ ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٧٥ ، السلاوى الاستقصا ص ٥٧

١٣ ـ ولاية عمر بن حفص :

وبعد استشهاد الاغلب ولى المنصور على افريقية عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبى صفرة أخى المهلب فقدم القيروان سنة ١٥١ هـ فمكث فى ولايته ثلاث سنين والأمور مستقيمة والأحوال هادئة وعندما شرع فى تسوير مدينة طبنة[٤٢] ثار عليه البربر فى جموع غفيرة وأعداد كثيرة يذكر المؤرخون أن منهم أبا قرة فى أربعين الفا من الصفرية ، وعبد الرحمن بن رستم فى خمسة عشر الفا من الأباضية والمسور الزناتى فى عشرة آلاف من الأباضية وغيرهم من خوارج صنهاجة وزناته وهوارة فى اعداد لا تحصى وحاصروه فى طبنة فحاول عمر صرف ابا قرة بتقديم الأموال الى بعض أنصاره الذين تخلوا عنه مما اضطر ابا قرة الى لحاقه بأنصاره الذين تخلوا عنه ، ثم أرسل عمر جيشا الى ابن رستم فهزمه حتى لحق بتيهرت ، وعاد عمر بن حفص الى القيروان فاجتمعت عليه جموع البربر بقيادة أبى حاتم[٤٣] الأباضى وضربوا الحصار حول القيروان فكان عمر يقاتلهم فى كل يوم الى أن أجهده ومن معه الحصار ونفذت المؤن فخرج للقتال فلم يزل يطعن ويضرب حتى استشهد للنصف من ذى القعدة سنة ١٥٤ هـ ودخلها أبو حاتم فأحرق أبواب القيروان وتلم سورها وأخرج أكثر الجند الى الزاب[٤٤] . وبذلك تمكن الأباضية من أن يكون لهم حكم القيروان .

---

(٤٢) طبنة : بلدة فى طرف أفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب . شيت خطاب قادة فتح المغرب جـ ١ ص ١١١

(٤٣) هو يعقوب بن لبيب الملزوزى الهوارى وكنيته أبو حاتم : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا جاهر الزاوى ص ١٤٣

(٤٤) انظر الرقيق تاريخ فتح افريقية والمغرب ص ١٤٢ ـ ١٤٧ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٧٥ ـ ٧٨ ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٩٢ . ومنتصف ذى القعدة ذكره الرقيق وابن الأثير وابن عذارى يذكران أنه منتصف ذى الحجة .

١٤ ـ ولاية يزيد بن حاتم :

وفى سـنة ١٥٥ هـ أسـند ابو جعفر المنصور ولاية افريقية الى يزيد بن حاتم وأمده بجيش بلغ ستين الفا لاعادة السـلام الى افريقية والقضاء على الثورات فيها وطرد الاباضية من القيروان فقدمها يزيد والتقى مع أبى حاتم الاباضى فى ربيع الأول سـنة ١٥٥ هـ فتمكن من قتله والقضاء على جنده الثائرين معه • ويقال : « انه كان بين الجند ـ أى جند العرب ـ والبربر من لدن قاتلهم عمر بن حفص الى انقضاء أمرهم ثلاثمائة وخمس وسبعون وقعة » وبعد أن قضى يزيد على أبى حاتم توجه الى القيروان فدخلها ونشر الأمن والسكينة فى افريقية وقضى على الفتن بها كما جدد بناء المسـجد الجامع بالقيروان ورتب اسواقها وجعل لكل صناعة مكانا خاصـا بها ومكث فى ولايته خمسة عشر عاما الى ان أدركته الوفاة فى رمضان سـنة سـبعين ومائة هجرية فى خلافـة هارون الرشـيد[٤٥] •

وقام بأمر افريقية بعد وفاة يزيد بن حاتم ابنه داود الذى استخلفه أبوه فى مرضه فقام بأمر افريقية ورد الثوار الذين حاولوا الخروج عليه من الأباضية فى جبال باجة وغيرها •

١٥ ـ ولاية روح بن حاتم :

ثم قدم روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب واليا على افريقيـة من قبل الرشـيد سنة ١٧١ هـ ويذكر الرقيق أنه رغب فى موادعـة عبد الوهاب بن رستم الأباضى صـاحب تيهرت فوادعه[٤٦] • وكانت

(٤٥) انظر الرقيق تاريخ افريقية ص ١٥٩ ـ ١٦٢ ، ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٩٣ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٨٠ ، ٨١ ويذكر ابن عـذارى أنه توفى سـنة ١٧١ هـ ، الاستقصا للسلاوى ص ٥٨ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٦٥

(٤٦) ويعتبر هذا عمل سياسى هام من روح وان كان فيه الاعتراف بانفصال تاهرت الأباضية عن سلطةالخلافة •

البلاد هادئة فى أيامه والأمن منتشرا فى ربوعها والطرق آمنة وظل واليا على افريقية مقيما فى القيروان عاصمتها الى أن ادركته الوفاة فى رمضان سنة ١٧٤ حيث دفن الى جوار أخيه يزيد بن حاتم(٤٧) .

١٦ ـ ولاية نصر بن حبيب المهلبى :

وأسند الرشيد أمر افريقية بعد روح بن حاتم الى نصر بن حبيب المهلبى الذى تولى امرها فى آخر رمضان سنة ١٧٤ هـ فقام بتيسير شئون افريقية خير قيام وذلك لحسن سيرته وعدله فى أحكامه ولم تقم بأفريقية فتن فى أيام حكمه . الا أن الرشيد عزله فى بداية سنة ١٧٧ هـ .

١٧ ـ ولاية الفضل بن روح :

وقد ولى الرشيد الفضل بن روح بن حاتم أمير افريقية فقدم القيروان فى محرم سنة ١٧٧ هـ وقد استبشر الناس بقدوم الفضل ونصبت له القباب من مسجد أم الأمير الى دار الامارة كما يقول الرقيق . الا أن واليه على تونس ـ وكان ابن أخيه ـ اساء الى الجند فيها مما جعلهم ينقمون عليه بالاضافة الى ما كان يتسم به الفضل من استبداد برأيه دون أخذ رأى قادة الجند ، مما دعا الجند فى تونس الى الثورة على وليه واخراجه من تونس وقدم الجند الثائرون بعد ذلك الى القيروان فاستولوا عليها بقيادة عبد الله بن الجارود ـ ويعرف بعبدويه الأنبارى ـ الذى قتل الفضل بن روح فى شعبان سنة ١٧٨ هـ .

١٨ ـ ولاية هرثمة بن أعين :

وقد غضب الرشيد لقتل الفضل وأرسل هرثمة بن أعين واليا على أفريقية ليقوم باصلاح امرها فدخل القيروان فى ربيع الأول

---

(٤٧) انظر الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ١٧١ ـ ١٧٣ ، الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٤٦ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٩٣ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٤

سنة ١٧٩ هـ وتمكن من القضاء على الفتنة ونشر الأمن والسكينة بين الناس وأعطى جند طرابلس أرزاقهم المتأخر اعطاؤها لهم ، وأرسل ابن الجارود الخارج على الفضل الى الرشيد ، وينسب الى هرثمة بن أعين انه بنى القصر الكبير بالمستير لسنة من قدومه الى القيروان ، وبنى كذلك السور على طرابلس مما يلى البحر . وقد ثار عليه عياض بن وهب الهوارى وكليب بن جميع الكلبى(٤٨) فتمكن من القضاء عليهما بقيادة يحيى بن موسى .وقد ادرك هرثمة كثرة الثورات بافريقية وشدة الخلاف فيها مما دعاه الى أن يطلب من الرشيد اعفاءه من حكم ولاية افريقية فاستعفاه الرشيد فخرج من أفريقية فى رمضان سنة ١٨١ هـ فكانت ولايته سنتين ونصفا .

١٩ ـ ولاية محمد بن مقاتل العكى :

وقد ولى الرشيد مكانه محمد بن مقاتل العكى الذى قدم القيروان فى شهر رمضان سنة ١٨١ هـ ويقول المؤرخون عنه أنه كان سيىء السيرة ضعيف الرأى مما أدى الى اضطراب الأمور واختلاف الجند عليه . وقد ارتكب خطأ واضحا بضربه البهلول بن راشد عابد زمانه ظلما وعدوانا وحبسه له مما تسبب عنه موت البهلول . كما « اقتطع من ارزاق الجند واساء معاملتهم ومعاملة الرعية »(٤٩) وقد أدى ذلك الى قيام بعض الجند بثورة ضده تزعمها تمام بن تميم التميمى عامله على تونس الذى التقى بابن العكى خارج القيروان فانهزم ابن العكى ولجأ الى القيروان . وتمكن تمام من دخول القيروان وأمن ابن العكى الذى خرج الى طرابلس . ولكن ابراهيم بن الأغلب العامل على الزاب غضب لاخراج ابن العكى وقدم الى القيروان مما جعل تماما يغادرها فدخل ابراهيم القيروان واستدعى ابن العكى ليكون الحاكم فيها حسب عهد أمير المؤمنين . الا أن الرعية والجند كرهوا عودة ابن العكى ويذكر الرقيق أن الرجل كان يقوم فى الجماعة

---

(٤٨) ابن خلدون عبر ج ٤ ص ١٩٤

(٤٩) الرقيق تاريخ أفريقية ص ٢٠٥

فيقول : « قد كنا استرحنا من ابن العكى فجاء ابراهيم ، فغلب على الثغر ورده فالموت خير من الحياة فى سلطان ابن العكى »[٥٠] مما جعل كثير من الناس يلجأ الى تمام الذى حاول ان يزيل الوئام بين ابراهيم وابن العكى الا أن هذه الوقيعة لم تلق اذنا صاغية . فاقبل تمام من تونس فالتقى معـه ابراهيم بن الأغلب فهزمه فمضى تمام الى تونس حيث لحق به ابراهيم بن الأغلب مستهل المحرم سنة ١٨٤ فاستأمن له تمام فأمنه واقبل به الى القيروان يوم الجمعة لثمان خلون من المحرم سنة ١٨٤ هـ . وقد استشار الرشيد خاصته ـ بعد أن بلغه سوء تصرف ابن العكى ـ فيمن يصلح لولاية افريقية فأشير عليه بتولية ابراهيم بن الأغلب فكتب اليه عهده فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ليقوم بأمر افريقية[٥١] .

وبولاية ابراهيم بن الأغلب افريقية تبدأ صفحة جديدة فى حياة القيروان وازدهارها حيث يبدأ حكم الأسرة الأغلبية التى استمرت فى الحكم أكثر من قرن من الزمن .

تلك هى الصورة التى نرى عليهما الوضع السياسى فى القيروان فى هذه الفترة من حكم ولاة أميـة وبنى العباس ونلاحظ فيها كثرة الولاة وعزل بعضهم عند اسناد الخلافة الى خليفة جديد . مما أدى الى عدم الاستقرار . يضاف الى ذلك كثرة الثورات التى قام بها الخوارج من الصفرية والأباضية أو الزعماء الثائرون من العرب وقد تمكن بعضهم أحيانا من فرض سلطته على القيروان الا أن سلطانهم كان لا يدوم

---

(٥٠) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢٠٧

(٥١) انظر تاريخ افريقية للرقيق ص ١٨٢ ـ ٢٠٩ ، ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٥٤ ـ ٥٦ ، ٦٢ ، العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٩٣ ـ ١٩٥ ، ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٨٥ ـ ٩١ ، تاريخ اليعقوبى ص ٤٩٦ ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٢ ص ٨٨ ـ ٩٠ ، ١١٠ ، الاستقصا للسلاوى ص ٥٩ ، ٦٠

طويلا ليقظة الخلافة وحرصها على تبعية القيروان لها ٠ فكانت الخلافة فى دمشق وبغداد تتابع ارسال الجيوش اليها لتقضى على الثائرين وتسترد القيروان من قبضتهم ٠

والذى يبدو لى أن الثورات التى كان يتزعمها قواد من العرب انما كان يراد بها الوصول الى مركز السلطة والجلوس على كرسى الامارة ٠ أما الثورات التى كان يقوم بها البربر وخاصة الصفرية فيظهر فيها ميلهم الى أن يكون لهم الاستقلال عن مركز الخلافة وتسيير أمور بلادهم ٠ ولقد كان الصفرية يقسون فى معاملتهم العرب المسلمين ويشتطون فى مذهبهم ٠٠٠ اما الأباضية فان ما يظهر من معاملتهم لأهل القيروان أثناء تغلبهم عليها يدل على انقيادهم لتعاليم الدين وعدم انتهاك الحرمات وان كانوا خارجين على سلطان الخليفة ولا يعترفون به ٠

ولا شك أن هذه الثورات الكثيرة ذات الأهداف المتعددة كان لها تاثير قوى فى الحياة الفكرية فى القيروان ، سوف يظهر جليا عند دراستنا للحياة الفكرية خاصة من الناحية العقائدية ٠ كما يبدو لنا اهتمام العباسيين باسترجاع القيروان وذلك بارسال كبار رجال دولتهم ذوى الخبرة السياسية والقدرة العسكرية والحنكة الادارية ليقوموا بحكم امارة أفريقية من أمثال محمد بن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد ابن حاتم ٠ وذلك خشية أن تنفصل امارة أفريقية عن التبعية للخلافة ، كما أنهم لم يولوا عليها أحدا من أهلها خشية محاولته الاستقلال بها ٠ ولقد حدث هذا الاستقلال عند تولية ابراهيم بن الأغلب رأس اسرة الأغالبة ٠ ولا شك أن كثرة تعداد الجيوش التى جاءت مع الولاة من المشرق كانت عبئا ثقيلا على ولاية أفريقية مما جعلنا نقرأ فى المصادر فى الاعانة المالية من ولاية مصر الى أفريقية وأن كان تتابع هذه الجيوش على أفريقية قد ساعد على تعريب البلاد وسيادة سلطان اللغة العربية فيها ٠

* * *

(ب) عصر الأغالبة :

١ ـ ابراهيم بن الأغلب :

كان لاسناد أمر أفريقية الى ابراهيم بن الأغلب اثر بعيد وعميق فى التغير السياسى الذى طرأ على هذه الولاية وفى تمتع القيروان بشبه استقلال أعطاها الحرية فى التصرف مما ادى الى استقرار الأمن والطمأنينة فيها ومكنها بعد ذلك من استئناف نشاط الفتوح وتوسيع نطاق سلطة القيروان .

ولقد وصل العهد الى ابراهيم بن الأغلب من هارون الرشيد فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ويذكر المؤرخون أن أهل القيروان قد حملوا ابراهيم بن الأغلب على طلب الولاية من الرشيد كما أن ابراهيم قد تنازل عن مائة الف دينار كانت تحمل الى افريقية من مصر وتعهد بدفع اربعين الف دينار الى الخلافة فى بغداد .

وكان الرشيد قد عقد مجلس شوراه لبحث هذا الموضوع فأشار هرثمة بن أعين الذى تولى امر افريقية سابقا بولاية ابراهيم .

ويصف ابن عذارى ابراهيم بن الاغلب بأنه كان « فقيها اديبا شاعرا ذا رأى ونجدة وبأس وحزم وعلم بالحرب ومكايدها جرىء الجنان طويل اللسان[٥٢] لم يل افريقية أحسن سيرة منه ولا أحسن سياسة ولا أرأف برعيته ولا أوفى بعهد منه »[٥٣] ـ وقد حاول ابراهيم بذل كل جهده فى استقرار الأمن ونشر السكينة والرقى بالبلاد الا أن ذلك لم يمنع من قيام ثورات ضده تمكن من القضاء عليها كما بنى مدينة قريبة من القيروان لتكون مقرا له ونقل اليها العتاد والرجال .

وكان من الثورات التى قامت ضده ثورة حمد يس من رجالات العرب بتونس فى سنة ١٨٦ الا أن ابن الأغلب تمكن من القضاء

---

(٥٢) لعله يقصد أنه فصيح اللسان .

(٥٣) ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٢

عليها • وقد حاول بعد ذلك أن يوسع سلطانه الى المغرب الأقصى حيث تقيم دولة الادارسة الا ان ادريس حاكم الأدارسة توسل اليه واستعطفه بقرابته من رسول الله ﷺ فكف عنه •

وكان أشد الثورات التى قامت ضد ابراهيم بن الأغلب هى ثورة عمران ابن مجالد الربيعى وقريش بن التونسى بتونس حيث تمكنا من هزيمة جيش ابن الأغلب ودخلوا القيروان الا أن الرشيد ساعد ابراهيم بالمال مما جعله يتمكن فى النهاية من هزيمة عمران بن مجالد الذى فر الى الزاب • ويذكر الرقيق القيروانى ان ابراهيم قبض على رؤساء الجند الذين كانوا يتوثبون على الأمراء وبعث بهم الى المشرق لأن كل رئيس فرقة من الجند كان يرى أنه أحق بالأمر من الوالى الذى يسند اليه الخليفة الأمر كما يذكر أن عدم سداد الوالى لأرزاق الجند كان من أسباب قيام الجند بالثورات والانضمام الى المتمردين • وقد عهد ابراهيم قبل وفاته الى ابنه عبد الملك بتولى الامارة من بعده حيث أدركته الوفاة فى شوال سنة ١٩٦ هـ(٥٤) •

٢ ـ عبد الله بن ابراهيم :

فتولى الأمر بعده ابنه عبد الله الذى كانت أيامه هادئة ساكنة لم تقم فيها ثورة ضده نتيجة لما قام به أبوه ابراهيم مما ترتب عليه نهوض البلاد • وان كان قد تخلل فترة حكمه اجحاف بالمزارعين بزيادة الضرائب مما أدى الى ضيقهم وشكواهم وقد دامت امارته خمسة أعوام حيث توفى فى سنة ٢٠١ هـ •

٣ ـ زيادة الله بن ابراهيم :

قبض على مقاليد الحكم بعده فى القيروان أخوه زيادة الله الأول الذى وصله عقب توليه امارة أفريقية التقليد من المأمون والذى أمره

---

(٥٤) انظر البلاذرى فتوح ص ٢٧٦ ، الرقيق القيروانى تاريخ أفريقية ص ٢٢٢ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٩٢ ـ ٩٣ ، ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ٦٣ ، ابن خلدون عبر جـ ٤ ص ١٩٦

فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر على المنابر[٥٥] ولم يرق ذلك لزيادة الله الذى أرسل الى المأمون دنانير من سكة الأدارسة معرضا بالتحول عن الدعوة العباسية . وفى ذلك ما يدل على ضعف تأثير بغداد على السلطة فى القيروان . وتمتد القيروان باستقلال واسع يمكنها من الانفصال عن الخلافة ان أرادت ذلك .

وقد قامت بعض الثورات ضد زيادة الله ـ والتى يعللها ابن عذارى بسوء سيرة زيادة الله فى الجند وسفكه لدمائهم ـ وقد كادت هذه الثورات أن تودى بالدولة حتى انه لم يبق تحت سلطانه الا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس . ولكنه فى النهاية تغلب عليها .

وكان أشد تلك الثورات هى ثورة منصور الطنبذى بتونس سنة ٢٠٩ هـ الذى كثر جمعه وتغلب على جيش زيادة الله ، وسار الى القيروان فملكها وحاصر زيادة الله فى مدينة القصر القديم أربعين يوما وعمر سور القيروان ووالاه أهل القيروان وحاربوا معه . غير أن زيادة الله تمكن فى النهاية من الانتصار عليه ودارت الدائرة على الطنبذى ودخل زيادة الله القيروان وعفا عن أهلها الا أنه هدم سور القيروان عقابا لأهلها على موالاة الطنبذى .

وقد قام زيادة الله بكثير من الأعمال الاصلاحية منها بنيان المسجد الجامع بالقيروان مسجد عقبة وأنفق عليه ستة وثمانون الف دينار ومنها بناء قنطرة ابى الربيع وبناء حصن سوسة كما اهتم باسناد الوظائف الى من يحسن القيام بها فولى أبا محرز قضاء أفريقية .

وفى خلال حكمه قام جيش الأغالبة بالاغارة على جزيرة سردينية وفى سنة ٢١٢ هـ أرسل حملة بحرية لغزو صقلية فتمكنت من فتحها والاقامة فيها وضمها الى أملاك الأغالبة وأصبحت تابعة للقيروان . وكان ذلك ايذانا بسيادة الأغالبة على هذه المنطقة من البحر المتوسط .

---

(٥٥) ابن خلدون عبر جـ ٤ ص ١٩٧

وفى سنة ٢٢٣ هـ توفى زيادة الله بعد أن مكث فى الحكم قرابة اثنين وعشرين عاما[٥٦] .

٤ ـ الأغلب ابن ابراهيم :

وقد خلفه على حكم أفريقية أخوه الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب الذى قام باصلاحات أهمها تحسين حالة الجيش والرعيــة واهتم بازالة المظالم وزاد فى أرزاق العمال لكى يكف ايديهم عن الرعية كما عمل على تحريم النبيذ والخمر من القيروان وعاقب على بيعه وشربه . وقضى على فتنة قامت بها قبائل لواته ومكناسـة وزواغة من البربر ، كما تابع ارســال السرايا الى صقلية حيث تمكن المسلمون من الاستيلاء على حصن البلوط وابلاطنون وقرلون ومرو ، والتقى الأســطول الأغلبى مع اسطول البيزنطيين فهزمه مما ألجأه الى العودة الى القسطنطينية . وبذلك كانت أيامه ذات استقرار داخلى وفتح خارجى وتوفى الأغلب فى ربيــع الآخر سنة ٢٢٦ هـ[٥٧] .

٥ ـ محمد بن الأغلب بن ابراهيم :

تولى الأمر بعد وفاة الأغلب ابنه محمد بن الأغلب بن ابراهيم وقد ســاد الأمن والسكينة فى أول ولايته ودانت له أفريقية وأسس مدينة بقرب تاهرت وسماها العباسـية فأحرقها افلح بن عبد الوهاب صاحب تاهرت وقد شــجع أفلح على ذلك الأمويون فى الأندلس فكافئوه بمائة

---

(٥٦) انظر البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٩٦ ـ ١٠٦ ، الكامــل لابن الأثير جـ ٦ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ١٩٧ ، أرض البطولة ليوســف الجزايرلى ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ، القيروان عبر عصور ازدهارها ، لحبيب الجبحانى ص ٧١ ـ ٧٤ ، المكتبــة الصقلية لامارى ص ٥٤١

(٥٧) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٧ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٠ ، الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٢٠٢

الف درهم · مما يدل على محاربة الرستميين فى تاهرت والامويين فى الأندلس لأسرة الأغالبة وسوء العلاقات السياسية بينهم ·

وقد حاول احمد أخو الأمير أن يستقل بالأمر دونه الا أن الأمير محمد تمكن من اخيه فى النهاية ونفاه الى المشرق واسترد كل سلطانه · وقد حاول نشر العدل بين الرعية والأخذ على يد الظالمين ولو كانوا من أهل بيته وقرابته ولذلك اعطى لقاضيه سحنون العهود والمواثيق المغلظة انه يطلق يديه على اهل بيته وقرابته وخدمه وحاشيته لينفذ عليهم الحق أحبوا او كرهوا ·

ولا شك أن هذه الروح الطيبة قد مكنته من القضاء على الفتن التى قام بها ضده سالم بن غلبون والى الزاب وعمرو بن سالم المعروف بالقويع[٥٨] الذى ثار بتونس · وتمكن جيش محمد بن الأغلب من القضاء عليهما ، كما تابع واليه على صقلية الغزو والفتح واستطاع محمد أن يمد الجيش الاسلامى فيها بما يحتاجه من عدة وسلاح الى أن ادركته الوفاة فى المحرم سنة ٢٤٢ هـ[٥٩] ·

٦ ـ أحمد بن محمد بن الأغلب :

وتولى أمر افريقية بعد وفاته احمد بن محمد بن الأغلب الذى أحسن السيرة فى الرعية واكثر العطاء للجند وكان سمحا كريما مجتنبا للظلم والعدوان ، كما كان يركب الى المسجد الجامع بالقيروان فى ليالى شعبان ورمضان فيفرق الأموال على الفقراء والمحتاجين وقد ساد الهدوء البلاد فى أيامه واستقرت سياسيا مما ساعده على القيام بكثير من المشروعات فحفر المواجل وبنى المساجد والقناطر كما يذكر ابن الأثير أنه بنى بأفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وابواب

---

(٥٨) اشتهر بالقويع انظر البيان لابن عذارى جـ ١ ص ١١٠

(٥٩) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٧ ـ ١١٢ ، ابن خلدون العبر جـ ٤ ص ٢٠٠ الكامل لابن الأثير جـ ٦ ص ٢١٣

الحديد واشترى العبيد واتخذهم له جندا • وفتحت فى فترة حكمه مدينة قصرياته من مدن صقلية فى سنة ٢٤٤ هـ وفى سنة ٢٤٩ هـ أدركتـــه الوفاة •

٧ ـ زيادة الله الثانى :

فتولى بعده ابنه زيادة الله الأصغر الذى كان يتسم بالعقل والحلم والراى والنجدة والشجاعة وقد سار على سنة سلفه الا أن أيامه لم تطل فتوفى سنة ٢٥٠ هـ لعام من ولايته •

٨ ـ ابو الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب :

فقام بامر افريقية بعده محمد بن أحمـــد بن محمد بن الأغلب ويلقب بأبى الغرانيق لأنه كان يهوى صيدها حتى بنى قصرا يخرج اليـه لصيدها أنفق عليـه ثلاثين الف مثقال من الذهب • وكان مسرفا فى العطاء مع حسن سيرة فى الرعية ثم غلب عليـه اللهو واللعب والشراب وقد أدى اسرافه الى أن ترك بيت المـال خاويا بعد وفاته • وفى عهده فتحت جزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ ولكن الروم تغلبوا على مواقع من أرض المسلمين فى صقلية وقد بنى حصونا ومحارس على ساحل البحر على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة الى جهة المغرب • وفى سنة ٢٦٠ هـ كانت المجاعة العامة بالمشرق والمغرب والوباء والطاعون وتوفى أبو الغرانيق سنة ٢٦١ هـ فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر »(٦٠) •

٩ ـ ابراهيم بن أحمـــد :

وقبل أن تدرك الوفاة أبا الغرانيق عقد لابنه أبى عقال العهد واستخلف أخاه ابراهيم بن أحمد ـ الذى كان يتولى أمر القيروان ـ لئلا ينازع ابنه ، وأمره بأن يتولى شئونه ويكون نائبا عنه الى أن يكبر ولده • فلما توفى أبو الغرانيق طالب أهل القيروان ابراهيم بن أحمـد

---

(٦٠) انظر البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ١١٢ ـ ١١٦ ، الكامل لابن الأثير جـ ٦ص ٢١٣ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠١

بأن يتولى أمرهم وذلك لما لمسوه من حسن سيرته وعدله حيث كان هو الوالى على القيروان ، وبعد أخذ ورد اجابهم الى مطلبهم وبايعه مشايخ أهل افريقية ووجوهها وبايعه جماعة بنى الأغلب ، وباشر أمور الدولة وبذل جهودا طيبه فى اصلاح امورها ، وكان حازما عادلا فنشر الأمن فى البلاد وقضى على أهل البغى والفساد ، وكان يجلس فى جامع القيروان يومى الاثنين والخميس لسماع شكوى الخصوم والفصل بينهم كما امن الطرق التجارية فكان التجار يسيرون بقوافلهم وهم آمنون مطمئنون ، واهتم بالدفاع عن الدولة فبنى الحصون والمحارس على سواحل البحر فكانت النار توقد من سبتة للنذير فيصل الخبر الى الاسكندرية فى الليلة الواحدة .

ونلاحظ هنا تدخل أهل القيروان ومشايخها وأهل الرأى من سكانها فى تنصيب الأمير وان كان اختياره من بين أفراد الاسرة الحاكمة ممن لمسوا فيه الصلاح والسهر على القيام بشئون الدولة .

وقد اهتم ابراهيم بالتجارة علاوة على اهتمامه بالناحية العمرانية فبنى سور سوسة وفى سنة ٢٦٣ هـ ابتدأ ابراهيم بن أحمد بن الأغلب بناء مدينة رقادة ، وفى السنة التالية كمل بناء الصقر المعروف بالفتح وانتقل اليـه .

كما تابع الفتوح فى صقلية على مدى فترة حكمه ففى سنة ٢٦٤ هـ تم الاستيلاء على سرقوسة وفى سنة ٢٧٥ هـ زادت حملات المسلمين فيها مما اضطر الروم الى اخلاء كثير من المدن والحصون التى تجـاور المسلمين ووصلت سرايا المسلمين الى الأرض الكبيرة فسبت وغنمت ثم عادت .

وقد حاول العباس بن أحمد بن طولون ولد صاحب مصر فى سنة ٢٦٧ هـ الاستيلاء بجيش من مصر على افريقية الا أنه لم يتمكن من ذلك وعاد دون أن يحقق شيئا . ومن هنا نرى ان ابراهيم تمكن من المحافظة على الدولة من المغيرين عليها وعمل على توسيع رفعتها بمواصلة الفتح فى صقلية وايطاليا .

ويذكر المؤرخون انه بعد فترة من حكمه تغيرت أحواله فى سياسة الدولة وصار مغرما بسفك دماء اقاربه وحجابه وخدمه وكذلك الرعية مما جعل القلوب تميل عنه وكان ذلك مما اضعف الدولة ، وكان من الاسباب المساعدة للدعوة الفاطمية التى ظهرت انذاك فى افريقية للتمكن من القضاء على الاغالبة فيما بعد .

وكان ظهور الدعوة الفاطمية فى بلاد كتامة مما حمل ابراهيم بن أحمد على تغيير سلوكه فى آخر أيامه محاولا ان يرضى العامة ويكسب قلوب الخاصة الى صفه فيقول ابن عذارى انه رد المظالم واسقط القبالات وأخذ العشر طعاما وترك لأهل الضياع خراج سنة وسماها سنة العدل وأعتق مماليكه ، واعطى فقهاء القيروان ووجوه أهلها أموالا ليفرقوها فى الضعفاء والمساكين ، كما يذكر ابن الاثير انه اظهر الزهد والنسك وعزم على الحج وخرج الى جزيرة صقلية ليجمع بين الحج والجهاد . وخاض كثيرا من المواقع فى صقلية استسلم له فيها كثير من حصونها الى أن ادركته الوفاة وهو يقاتل فى صقلية فى ذى القعدة سنة ٢٨٩ »(٦١) .

١٠ ـ عبد الله الثانى :

وعندما عزم ابراهيم على الخروج الى صقلية استدعى ابنه عبد الله وعهد اليه بالقيام بشئون الدولة ، وكان عبد الله اديبا شجاعا عاقلا وقد كتب الى العمال كتابا يقرأ على العامة يعدهم فيه بالاحسان والعدل والرفق والجهاد ، واستعان بجماعة من العلماء ليعينوه على تسيير شئون الرعية . ولقد أظهر التقشف وانصاف المظلوم وجالس أهل العلم ، وقد بلغه أن ولده أبا مضر زيادة الله والى صقلية معتكفا على اللهو وادمان الخمر فعزله عنها وحبسه . وقد تمكن زيادة الله وهو فى سجنه من التآمر على أبيه وقتله فى شعبان سنة ٢٩٠ هـ .

---

(٦١) انظر ابن عذارى ، البيان المغرب جـ ١ ص ١١٦ ـ ١٣٢ ، الكامل لابن الاثير جـ ٧ ص ١١٢ ، ١١٣ العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١ ـ زيادة الله الثـالث :

وقد تولى زيادة الله الثالث الامارة بعد قتل أبيه واجتمع أهل الدولة وبايعوا له ، فقتل الذين قتلوا أباه، ولكنه لم يسلك سياسة حكيمة يحفظ بها الدولة من الضياع وانما تابع القتل فى اعمامه وأخوته واستمر فى الانهماك فى ملذاته ولهوه وأهمل شئون دولته ، مع أن أبا عبد الله الشيعى القائم بالدعوة الفاطمية كان يزداد خطره ويعلو شأنه . وقد حاول زيادة الله أن يستفيد من جهود الفقهاء فى حمل الناس على قتال الشيعى بتبيين ما فى دعوة عبد الله الشيعى من مخالفة للدين ، كما ورد كتاب المكتفى بالله يحث اهل افريقية على نصرة زيادة الله ومحاربة الشيعى وقد قرىء كتابه على الناس . الا أن حالة الدولة كانت تنذر بالضياع خاصة فى مقابلة الدعوة الفاطمية التى تمكنت من نفوس القائمين بها . ولذلك لم تجد جيوش واستعدادات زيادة الله عنه شيئا ولحقت جيوشه الهزيمة بعد الهزيمة فسقطت المدن فى يد الشيعى الواحدة بعد الأخرى .

فسقطت مدينة طبنة ثم باغاية ثم قسطيلية وفى سنة ٢٩٦ هـ تمكن عبد الله الشيعى من هزيمة ابراهيم بن أبى الأغلب الذى كان يقود عساكر افريقية وجمهور اجنادها فى الأريس(٦٢) ودخلها عنوة .

وعندما وصل خبر الاستيلاء على الاريس الى زيادة الله سقط فى يده وعلم انه خارج عن ملكه ، فجمع ما خف حمله وغلا ثمنه المـال والجواهر ، وخرج من رقادة فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ متوجها الى مصر . وقد حاول ابراهيم بن أبى الاغلب القائد الذى هزم فى الاريس أن يستعين بأهل القيروان لمنازلة الشيعى الا أن أهل القيروان لم يوافقوا

---

(٦٢) مدينة بافريقية دارت حولها تلك الموقعة وهى من أعمال الكاف بتونس ، انظر : طاهر الزاوى ، تاريخ الفتح العربى ص ١٧٥

على ذلك فلحق بزيادة الله وبذلك انتهت دولة الأغالبة من افريقية بعد حكم دام ١١٢ عاما(٦٣) ٠

وفى نهاية حديثنا عن الحالة السياسية فى عصر الاغالبة يجدر بنا أن نلقى نظرة عامة على الجهاز السياسى والدواوين والقوى التى كانت تساعد الأمير فى ادارة تلك الامارة المستقلة والمعترفة بالخلافة العباسية حيث نجد منصب الوزارة وهى تلى منصب الامارة اسمها الاغالبة ولقبوا متوليها (بالبديل) اى نائب الأمير وخليفته عند تغيبه ، وكانت وظيفة الوزارة النظر فى دواوين الدولة ، وكانت الدواوين ثلاثة :

(ا) ديوان الجيش ٠

(ب) ديوان الجباية ٠

(جـ) ديوان الرسائل ٠

ولكل منها اقسام وفروع :

(ا) فكان ديوان الجيش ينقسم الى :

١ ـ قيادة الجيوش البرية ورئيسه يسمى (بصاحب السيف) وكان الجيش يتألف من متطوعة ومرتزقة وعبيد وقد يبلغ تعداده فى بعض الأحيان ثمانين الف مقاتل ، وكان للجيش نظام خاص فى رتبه فمنها قائد المائة (يوزباشى) وقائد الألف (امباشى) وقائد الأعنة ٠

ويلحق بديوان الجيش الحرس وهم فرقة لها ترتيب عسكرى مكلفة بحراسة المدن وصيانتها من كل طارق ومقاومة ما يحدث من ثورات أو قلاقل كما تقوم بتبليغ أوامر الأمير ودواوينه وكان الحرس يقيم فى المحارس والمعاقل المشيدة لهم فى كل مدينة ٠

وكان هناك الشرطة وهم خاضعون لأوامر والى المدينة ومهمتهم السهر

---

(٦٣) انظر : ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٣٣ ـ ١٤٨ الكامل لابن الاثير جـ ٧ ص ٢٠٦ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٣٠٥ ، المغرب الكبير للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٦٠٢ ـ ٤٠٦ ٠

على الراحة العمومية داخل العاصمة ليلا ونهارا ومراقبة المفسدين • فاذا ما اقبل الليل ومضت العشاء الثانية اغلقت القيروان أبوابها وضرب البوق فى أطراف المدينة وعندئذ ينقطع المشى من الأزقة ولا يبقى الا الشرطة والعسس ويسمى كل مركز فيها (رابطة) وكان يعاون الشرطة فى الليل كلاب للحراسة يتخذون لأجل التنبيه • وكان يتبع ديوان الجيش البريد وقد استعمله امراء افريقية لحمل السجلات وأوامر الدولة من بلد الى آخر بأسرع الوسائل واقرب الطرق •

٢ ـ والقسم الثانى من ديوان الجيش : هو قيادة البحر او الاسطول ويسمى قائده (ملندر) وهو يوازى لفظة (أميرال) وقد كان للقوات البحرية شأن خطير نظرا لموقع البلاد على البحر ومجاورتها للروم فى الشمال وقد انشأ حسان بن النعمان الميناء البحرى بتونس واحدث بنو الاغلب أواخر القرن الثانى دار الصناعة والميناء البحرى بسوسة التى توجه الاسطول الاغلبى منها لفتح صقلية • وكان لقوة الجند ولاعداد السفن البحرية والحربية المجهزة بالمقاتلين المتمرسين الفضل فى سيادة القيروان على الجزء الغربى من البحر المتوسط حيث تمكن ولاتها من بسط السيادة على جزره المتعددة •

وكان يرتبط بقيادة البحر مصلحة ولاية الثغور يتولاها قائد خبير ينظر فى عموم المحارس والقلاع المنشاة على ساحل البحر لحماية البلاد من المغيرين • واول من ابتدأ بهذه المعاقل هم أمراء ال المهلب وتبعهم الأغالبة خاصة الأمير ابراهيم بن احمد الذى بلغ عدد المحارس فى أيامه اكثر من عشرة آلاف حصن ، ولقد كانت هذه الحصون ضرورية لحماية السواحل من هجمات اعدائهم من الروم الذين كانت تتوالى على البلاد هجماتهم محاولين معاودة بسط نفوذهم على البلاد فلم يترك ولاة الامور مسافة تزيد على بضعة أميال الا ونصبوا فيها محرسا • وقد بقيت لنا من تلك الحصون الساحلية التى تسمى الرباط مرسى جراح ، ورادس والمنستير ، وسلقطة والمحرس قرب صفاقس وغيرها وكانت تلك المحارس تتخابر

بطريقة مخصوصة عندما يشعر بعضها باغارة بعض الأعداء عليها بحيث يكون الجميع فى حالة دفاع عن البلاد ٠

وقد كان الجنود يستعملون من أنواع الاسلحة ، السيوف والرماح والحراب والسهام والنشاب والدروع والترس والمنجنيق وغير ذلك من آلات الحرب ويذكر صاحب بساط العقيق ان بمكتبة جامع عقبة نموذجا عتيقا لشكل المنجنيق وقد شاهدت ذلك أثناء زيارتى لمتحف عقبة بالقيروان ٠

(ب) ديوان الجباية :

وهو لادارة دخل الدولة ونفقاتها : كقبض المكوس والاعشار والجزية وانفاقها فى المنافع العامة والعطايا مما تقتضيه مصالح الدولة وحاجة الأمة وكان من أقسام هذا الديوان دواوين : الصدقة أو دخل الزكاة، والغنيمة ، والخراج ، والجزية ، والاقطاعات : وهى توزيع موات الارض واستخلاص الأعشار المفروضة عليها فى مقابل استغلالها ثم قسم المحاسبات المخصص لمراقبة وتفقد أعمال الأقسام السابقة وكانت أموال بيت المال اما نقودا عينا او أوراقا(٦٤) مالية تقوم مقام الدراهم ٠

(جـ) ديوان المراسلات :

ويختص بتحرير المكاتبات والصكوك الصادرة عن الأمير الى عمال الجهات وولاة الاقاليم والقواد وغيرهم وكان فيه بعض الكتاب البلغاء(٦٥) ٠

---

(٦٤) يذكر الاستاذ حسن حسنى انه : عثر على رق عتيق ملصق بضفة كتاب يلوح من هيئته أنه من أوراق بعض محاسبات ديوان جباية افريقية ، فمن غريب ما يستنتج منه أن أموال بيت المال كانت اما نقودا عينا أو أوراقا مالية تقوم مقام الدراهم ٠ ولعلها ضرب من تذاكر البنوك الجارى بها التعامل اليوم ويذكر : انه سيعتنى بحوله تعالى بنشر نص هذا الرق لما جاء فيه من الارشادا تالمفيدة : انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٣٣ ٠

(٦٥) انظر بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٢٧ ـ ٣٣ ٠

(ج) عصر الفاطميين :

قيام الدولة الفاطمية :

عندما عجز الفاطميون[٦٦] وشيعتهم عن مقاومة الامويين والعباسيين فى المشرق والاستيلاء على مقاليد الخلافة وجهوا جهودهم الى المغرب مؤملين أن يتمكنوا من أن يقيموا ملكهم وخلافتهم فى المغرب ، وقد بثوا الدعاة لنشر دعوتهم وجمع الانصار لهم فى المغرب . وكان أول من حمل الدعوة الى الخلافة الفاطمية وقام بنشرها هناك هما الداعيان المسميان الحلوانى والسفيانى اللذان كان عليهما أن يحرثا الارض لأجل نجاح الدعوة الى أن يأتى صاحب البذر[٦٧] . فذهب هذان الداعيان الى أرض كتامة بالمغرب وجدا فى نشرها حتى ذاعت الدعوة منهما فى

(٦٦) الفاطميون نسبة الى فاطمة الزهراء ويذكر ابن خلدون فى العبر ج ٣ ص ٣٦٠ « ان شيعتهم يزعمون ان النبى ﷺ أوصى الى على رضى الله عنه بالخلافة بالنصوص الجلية وعدل عنها الصحابة الى غيرهم فوجب البراءة ممن عدل عنها ثم أوصى على الى ابنه الحسن ثم الحسن الى أخيه الحسين ثم الحسين الى ابنه زين العابدين ثم زين العابدين الى ابنه محمد الباقر ثم محمد الباقر الى ابنه جعفر الصادق ثم جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل الامام ثم اسماعيل الامام الى ابنه محمد ويسمونه المكتوم لانهم كانوا يكتمون اسمه حذرا عليه ثم أوصى محمد المكتوم الى ابنه جعفر المصدق وجعفر المصدق الى ابنه محمد الحبيب ومحمد الحبيب الى ابنه عبيد الله المهدى الذى دعا له أبو عبد الله الشيعى. انتهى ».

ويطعن بعض المؤرخين فى نسب الفاطميين وينسبهم الى ميمون بن ديصان القداح الثنوى المذهب القائل بوجود الهين اله النور واله الظلمة. ولكن يبدو ان نسبهم الى فاطمة صحيح انظر حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٧ ـ ٧٩ .

(٦٧) انظر ابن خلدون العبر ج ٣ ص ٣٦٠ .

كتامة وغيرها من سكان تلك النواحى وكانت الدعوة للرضا من آل محمد[٦٨] ، فلما مات هذان الداعيان اسند القيام بالدعوة فى المغرب بعدهما الى أبى عبد الله الشيعى الذى قدم الى ارض كتامة فى المغرب فى العقد التاسع من القرن الثالث الهجرى حيث نزل فى جبل ايكجان فى ارض كتامة وفى هذا الجبل فج الأخيار الذى قال عنه ابو عبد الله لكتامة : « ان هذا فج الأخيار وما سمى الا بكم ولقد جاء فى الآثار ان للمهدى هجرة تنبو عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من اهل ذلك الزمان قوم مشتق اسمهم من الكتمان فانهم كتامة وبخروجكم من هذا الفج يسمى فج الأخيار »[٦٩] .

بهذا وغيره استطاع ابو عبد الله الشيعى ان يؤثر فى كتامة وان ينشر دعوة الشيعة فيهم ويملأ بها قلوبهم وعقولهم ، ويبين لهم الآثار المترتبة على نصرتهم للدعوة الشيعية . ولقد كان عبد الله الشيعى متصفا بالذكاء والحنكه والعلم والمعرفة مع التزام حياة خشنة غير مرفهة متمسكا بدعوة الناس الى الخير والجد فى العبادة .

وعندما بلغ خبر ابى عبد الله الشيعى الى ابراهيم بن احمد بن الأغلب أمير افريقية بالقيروان ارسل الى عامله على ميله يساله عنه فحقر من شانه الا ان عبد الله الشيعى استطاع ان يجمع كلمة كتامة وزحف بهم الى ميلة فملكها على الأمان بعد ان حاصرها فأرسل اليهم ابراهيم بن الاغلب ابنه الأحول فى عشرين الفا فهزم كتامة وامتنع أبو عبد الله بجبل ايكجان، وأحرق الأحول مدينة ناصروت ومدينة ميلة ، وعاد الأحول الى افريقية

---

(٦٨) قال ابن خلدون : « وكانت شيعتهم منتشرين فى الارض من اليمن الى الحجاز والبحرين وخراسان والكوفة والبصرة والطالقان وكان محمد الحبيب ينزل سلمية من أرض حمص وكان دعاتهم فى كل ناحية يدعون للرضا من آل محمد ويرومون اظهار الدعوة » . ابن خلدون عبر ج ٣ ص ٣٦١

(٦٩) الكامل لابن الاثير ج ٨ ص ١٢ .

فبنى أبو عبد الله بجبل ايكجان مدينة سماها دار الهجرة حيث قصده اصحابه والتفوا حوله[٧٠] .

وتوفى ابراهيم بن الأغلب وتولى الأمر بعده ابنه عبد الله فوجه أخاه الأحول بجيش التقى مع الجموع الملتفة حول أبى عبد الله فانهزم الأحول ، واقام قريبا منه يقاتله ويمنعه من التقدم الا أن أمر افريقية أسند الى زيادة الله بعد قتل أبيه عبد الله فاستدعى زيادة الله عمه الاحول الذى كان منازلا لأبى عبد الله وقتله ، مما أوسع الطريق أمام أبى عبد الله الشيعى لاكتساح دولة الأغالبة والتغلب عليها .

وجعل أبو عبد الله يشيع بين انصاره ما يشعل فيهم الحماس لدعوته والتفانى فى سبيل نصرتها فيقول « المهدى يخرج فى هذه الأيام ويملك الارض فيا طوبى لمن هاجر الى واطاعنى ويغرى الناس بأبى مضر ويعيبه »[٧١] .

والتقت جيوش أبى عبد الله الشيعى بجيوش زيادة الله فى عدة مواقع كان آخرها موقعه الأريس التى انتصر فيها أبو عبد الله فازمع زيادة الله الهرب وحمل اثقاله ومتاعه ولحق بالمشرق . وعندما بلغ أبا عبد الله الشيعى هرب زيادة الله رحل قاصدا عاصمة الأغالبة وقدم بين يديه عروبة بن يوسف وحسن بن أبى خنزير فى الف فارس الى رقادة فوجدوا الناس ينهبون أمتعة الاغالبة فلم يتعرضوا لهم « وفرح أهل القيروان وخرج الفقهاء ووجوه البلد الى لقاء أبى عبد الله فلقوه وسلموا عليه وهنئوه بالفتح فرد عليهم ردا حسنا وحدثهم وأعطاهم الامان فاعجبهم ذلك وسرهم »[٧٢] ودخل أبو عبد الله الشيعى رقادة مستهل رجب سنة ٢٩٦ هـ فنزل ببعض قصورها وارسل العمال الى البلاد وتعقب أهل الشر فقتلهم واستولى على ما تركه زيادة الله من الاموال والسلاح وفى

---

(٧٠) انظر الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٣ ، العبر لابن خلدون جـ ٣ ص ٣٦٢ .

(٧١) الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٣ ، وأبو مضر هو زيادة الله آخر امراء الأغالبة .

(٧٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٧ .

يوم الجمعة « أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ولم يذكروا احد »[٧٣] ويذكر ابن عذارى : انه ولى على السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ونقش فيها الحمد لله رب العالمين (وسميت السيدية) وكان نقش خاتم ابى عبد الله « فتوكل على الله انك على الحق المبين » وفى الخاتم الذى يطبع به السجلات » وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم « ووسم فى افخاذ الخيل » الملك لله « وكتب فى بنوده سيهزم الجمع ويولون الدبر وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ٠٠ وآيات كثيرة من القرآن فى هذا المعنى وأمر بالصلاة على (على بن أبى طالب) فى الخطب بإثر الصلاة على النبى ﷺ وعلى فاطمة والحسن والحسين وأظهر التشيع فى على »[٧٤] ٠

وبذلك تم القضاء على دولة الأغالبة وكان ايذانا بقيام الدولة الفاطمية الى حين تنصيب الخليفة الفاطمى الذى كان مسجونا فى سجلماسة ٠

١ ـ عبد الله المهدى :

وبعد أن استقر الوضع فى القيروان توجه ابو عبد الله الشيعى الى المغرب قاصدا سجلماسة فى رمضان من نفس العام فى جيوش عظيمة ارعبت كل القبائل فأقبلت تدخل فى طاعة ابى عبد الله ٠ ولقد حاول ابو عبد الله الشيعى أن يتودد الى اسير سجلماسة اليسع ابن مدرار ليتمكن من استنقاذ الامام الفاطمى[٧٥] ٠ فأرسل الى اليسع رسلا مبينا له انه لم يقصده لقتاله ٠ الا أن اليسع قتل الرسل الذين أرسلهم أبو عبد الله اليه مرة بعد أخرى[٧٦] ، فالتقى أبو عبد الله الشيعى بجيوشه معه فى معركة

(٧٣) المرجع السابق ج ٨ ص ١٧ ٠

(٧٤) البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٥١ ٠

(٧٥) كان عبيد الله المهدى عندما قدم من المشرق ترك افريقية وقصد سجلماسة حيث احتجزه امير سجلماسة عندما دارت الشكوك حوله بأنه الامام الفاطمى ٠

(٧٦) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ١٨ ٠

استمرت سحابة النهار وفى الليل هرب اليسع تاركا سجلماسة . « فدخل ابو عبد الله ومن معه البلد واتوا المكان الذى فيه المهدى فاستخرجه واستخرج ولده فكانت فى الناس مسرة عظيمة كادت تذهب بعقولهم فأركبهما ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما وابو عبد الله يقول للناس هذا مولاكم وهو يبكى من شدة الفرح..ومكث المهدى بعد ذلك بسجلماسة أربعين يوما ثم سار الى افريقية ... فوصل الى رقادة فى العشر الآخير من ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ ويتابع ابن الآثير وصف دخول المهدى رقادة بانه لما قرب منها « تلقاه أهلها واهل القيروان وابو عبد الله ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه فسلموا عليه فرد جميلا وأمرهم بالانصراف ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه فى الخطبة فى البلاد وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين(٧٧) .

وكان ذلك تمام قيام الخلافة الفاطمية فى افريقية حيث تولى عبيد الله المهدى مقاليد الآمور وسير شئون الدولة فنقش فى خاتمة « افمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون » واتخذ الحجاب والكتاب وولى على بيت المال ابا جعفر الخزرى وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن القديم وعلى السكة أبا بكر بن الفيلسوف المعروف بابن القمودى وعلى العطاء عبدون بن حباسة وعلى قضاء مدينة رقادة افلج بن هارون الملوسى واقر على عمالة القيروان الحسن بن ابى خنزير وعلى القضاء بها المروزى »(٧٨) .

وبهذا دانت لعبيد الله البلاد وولى العمال على ولايات افريقية وأرسل الحسن بن أحمد بن ابى خنزير الى جزيرة صقلية حيث وصل الى مازر عاشر ذى الحجة سنة ٢٩٧ هـ ومعه القاضى العلوى اسحاق ابن ابى المنهال »(٧٩) .

وقد حاولت بعض قبائل البربر الخروج على عبيد الله الا انه تمكن

---

(٧٧) الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٨ .

(٧٨) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ١٥٩ .

(٧٩) الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٩ .

من القضاء عليها • كما تمكن فى سنة ٢٩٨ هـ من القضاء على الداعية ومؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب أبى عبد الله الشيعى الذى شعر بضياع سلطانه ونفوذه بعد تولى عبيد الله المهدى لمقاليد الامور • فتآمر مع بعض رؤساء قبيلة كتامة على القضاء على عبيد الله المهدى وقال لهم : « ان افعاله قبيحه ليست تشبه افعال المهدى الذى كنت ادعو اليه وأخشى أن اكون قد غلطت فيه »[٨٠] وقد ثارت فتنة بسبب قتل مؤسس الدولة أبى عبد الله الشيعى الا أن المهدى تمكن من القضاء عليها ونشر السكينة والأمن • وقد اثار تمادى اتباعه فى حمل الناس على التشيع فتنة ثانية « بين كتامه وأهل القيروان قتل فيها خلق كثير فخرج المهدى وسكن الفتنة وكف الدعاة عن طلب التشيع من العامة »[٨١] كما تمكن من القضاء على فتنة قامت فى صقلية وأخرى فى تاهرت وبعد تمام استقرار الأمر للمهدى « جعل ولاية العهد لأبنه أبى القاسم نزار »[٨٢] •

محاولات فتح مصر فى أيام المهدى :

لم تكن آمال المهدى قاصرة على قيام الدولة الفاطمية فى افريقية وحدها وانما كان الهدف من قيامها أن تتولى قيادة الأمة الاسلامية كلها وكان دعاة الشيعة ينتشرون فى كافة أرجاء العالم الاسلامى لنشر الدعوة الفاطمية • فوجه المهدى نشاطه الى فتح مصر بعد أن استقر له الأمر فى افريقية ووصلته كتبانصاره فى مصر بالحالة القائمة فيها ويشير الكندى الى ذلك « بان ذكا ـ والى مصر من قبل المقتدر ـ تتبع كل من يومى اليه بمكاتبة صاحب افريقية فسجن كثيرا منهم وقطع أيدى قوم وارجلهم وجلا أهل لوبيه ومراقية الى الاسكندرية فى شوال سنة أربع وثلاثمائة »[٨٣]

---

(٨٠) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ١٦١ •

(٨١) الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٩ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٣٧ •

(٨٢) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٣٧ •

(٨٣) القضاة والولاة للكندى ص ٢٧٤ •

ففي سنة ٣٠١ هـ وجه المهدى حملة لفتح مصر بقيادة ابنه أبى القاسم وكانت حملة برية وبحرية بلغ عدد قطع الاسطول فيها مائتى مركب مشحونة بالامداد والجنود واسندت قيادة الاسطول فيها الى حباسة بن يوسف . فتمكنت الحملة من الاستيلاء على الاسكندرية وتقدمت حتى استولت على الفيوم الا أن المقتدر العباسى أرسل مؤنسا الخادم فى جيش الى مصر فتمكن بعد مواقع حامية دارت على أرض مصر مع الحملة الفاطمية من هزيمتها مما اضطرها الى الانسحاب الى افريقية .

وقد حاول المهدى ثانيا فتح مصر فارسل جيشا كثيفا بقيادة ابنه ابى القاسم فى سنة ٣٠٧ هـ فاستولى على الاسكندرية والجيزة وبعض مدن الصعيد وبعث الى مكة طالبا من اهلها أن يدينوا له بالطاعة فلم يجيبوه . وتحرك المقتدر للدفاع عن مصر فارسل اسطولا من طرسوس هزم اسطول المهدى فى رشيد واحرق سفنه واسر كثيرا من جنوده وقواده كما دارت معارك برية مع أبى القاسم لحقت الهزيمة فيها بجند افريقية . ووقع الوباء فى معسكر ابن المهدى واشتد الغلاء فادى كل ذلك الى موت كثير من الجند والخيل مما حمل ابا القاسم على الانسحاب بمن بقى من جنوده الى افريقية دون ان يتمكن من تثبيت اقدامه فيها »(٨٤) .

وقد اهتم المهدى بانشاء مدينة تكون عاصمة لخلافته فخرج فى سنة ٣٠٠هـ يرتاد الاماكن البحرية فشاهد تونس وقرطاجنة حتى وصل الى مكان « قد احاط به البحر من ثلاث جهات وانما يدخل اليه من الجانب الغربى »(٨٥) فاختاره لكى يقيم عليه مدينة المهدية وشرع فى البناء فيها فتم بناؤها سنة ٣٠٥ هـ وانتقل اليها فى شوال لسنة ٣٠٨ هـ بعد أن حصنها بسور وجلب اليها المياه وبنى فيها المواجل كما اقام فيها دارا للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب وبنى فيها قصرا له وقصرا لولى عهده

---

(٨٤) انظر الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ١٨١ ، ١٨٨ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص٣٧

(٨٥) المغرب فى ذكر بلاد افريقية للبكرى ص ٢٩ .

وبانتقال المهدى بعياله وأمواله وثقله الى المهدية اطمان على عاصمة دولته من ان يتمكن اعداؤه من التغلب عليها أو النيل منها(٨٦) ٠

وعندما عجز المهدى عن فتح مصر وتثبيت اقدامه فيها وجه جهوده نحو المغرب لبسط سلطانه عليه فأرسل قائده مصالة بين حبوس سنة ٣٠٨ هـ فى جيش الى بلاد المغرب فاوقع بملك فاس من الادارسة واستنزله عن سلطانه الى طاعة المهدى ثم اضطرب المغرب سنة ٣١٥ هـ فأرسل المهدى اليهم ابنه أبا القاسم فى جيش من كتامة ومن انضم اليهم ممن اعتنـــق المذهب الشيعى ففتح بلاد مزاته ومطماطة وهوارة وسائر أراضى الاباضية والصفرية ونواحى تاهرت قاعدة المغرب الاوسط الى ما وراءها ثم مـــال الى بلاد الريف ودوخ أقطار المغرب ورجع ولم يلق كيدا ٠

ولقد حاول المهدى السير على نهج الاغالبة فى الاغارة على بلاد الروم ٠ ففى سنة ٣١٣ هـ أمر المهدى أبا احمد جعفر بن عبيد الحاجب بغزو بلاد الروم من صقلية فافتتح اماكن كثيرة منها مدينة وارى وأسر بها بطريقا صالحه عن نفسه ومدينته بخمسة آلاف مثقال وانصرف الى صقلية ٠ وفى سنة ٣١٥ ، ٣١٧ ارسل المهدى صابرا الفتى فى المراكـب للاغارة على بلاد الروم فسبى وقتل والقى الرعب فى قلوب الروم(٨٧) ٠

وكان المهدى يطمع فى ان يبسط نفوذه على كل ارجاء المغرب الا ان فرح بن عفير قائد عبد الرحمن الناصر الأموى تمكن من الاستيلاء على سبتة سنة ٣١٩ هـ وبقيت معقلا للأمويين فى الشمال الافريقى ولم يتمكن الفاطميون من انتزاعها منهم حتى فى أوج صولتهم وقوتهم ٠

واستمر المهدى يدبر أمر دولته التى شملت افريقية والمغرب الأوسط

---

(٨٦) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ ، ابن عذارى البيان المغـرب جـ ١ ص ١٦٩ ، ١٨٤ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٣٨ ٠

(٨٧) انظر العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٣٩ ، البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ١٩٠ ــ ١٩٤ ٠

والاقصى وطرابلس وبرقة وجزيرة صقلية بهمة وحنكة الى أن ادركته الوفاة فى ربيع الاول سنة ٣٢٢ هـ ٠

٢ ـ القائم أبو القاسم محمد :

تولى الخلافة بعده ابنه أبو القاسم محمد الذى تلقب بالقائم بأمر الله وقد عظم حزنه على أبيه الا أنه وجه جهوده لنشر الاستقرار فى المغرب فأرسل الجويش الى المغرب بقيادة ميسور الفتى فتمكن من نشر الأمن وبسط سلطان الفاطميين فيه ٠ كما أعد اسطولا ضخما لغزو بلاد الروم توجه الى جنوة فافتتحها وأثخن فى بلاد الروم ومر بسردانية فأوقع بأهلها ٠ ولقد عاود القائم محاولة بسط نفوذ الدولة شرقا بالاستيلاء على مصر فأرسل جيشا مع خادمه زيران فملكوا الاسكندرية فأخرج اليهم محمد الاخشيد حاكم مصر الجيوش فقاتلوهم والجئوهم الى العودة الى افريقية (٨٨) ٠

وقد قامت ثورة عارمة ضد القائم تزعمها ابو يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتى الذىاستطاعان يجمع حولهالبربر بجبلأوراس وتلب بشيخ المؤمنين ودعا للناصر صاحب الاندلس من بنى أمية ، وهنا تتجلى محاولة امويو الأندلس فى مساعدة الثوار ضد الفاطميين (٨٩) ٠ ولقد كثرت جموع يزيد فزحف الى الأريس والتقى مع جنود الفاطميين فيها فهزمهم واستولى على الاريس ثم زحف الى باجة حيث التقى بجيش الفاطميين الذى يقوده خادم القائم بشرى فهزمه ودخل باجة وكان ابو يزيد ينهب المدن التى يستولى عليها ويقتل الأطفال ويسبى النساء ٠

---

(٨٨) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٠ ٠

(٨٩) يقول ابن خلدون : وبعث ـ أى أبو يزيد ـ رسالة فى وفد من أهل القيروان الى الناصر الاموى صاحب قرطبة ملتزما لطاعته والقيام لدعوته وطالبا المدد فرجع اليه بالقبول والوعد ولم يزل يردد ذلك سائر ايام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب فى آخر سنة ٣٣٥هـ فكان له اتصال بالناصر سائر أيا م فتنته العبر جـ ٧ ص ١٥ ٠

وكانت انتصارات أبى يزيد داعية الى كثرة جموعه واتباعه الذين بلغوا كما يقول ابن خلدون مائتى ألف مقاتل[٩٠] فزحف بهم الى القيروان ونزل على رقادة وبعد قتال مع جيوش الفاطميين تمكن من الاستيلاء على رقادة والقيروان فى صفر سنة ٣٣٣ هـ ولقد استمر اتباع ابى يزيد فى سلب ونهب القيروان الى ان خرج اليه شيوخ اهل القيروان فامنهم ورفع السلب والنهب عنهم • وأرسل القائم جيشا آخر لمدافعة ابى يزيد بقيادة ميسور الفتى ولكن أبا يزيد تمكن من قهره والاستيلاء على معسكره واستولى بعد ذلك على سوسة واستباحها •

واستعان القائم برؤساء كتامة وارسل الى زيرى بن مناد رئيس صنهاجة لكى يعاونه فى القضاء على أبى يزيد الذى تمكن من الاستيلاء على معظم افريقية ومحاصرة القائم فى المهدية • وقدمت الى القائم جنود من كتامة وصنهاجة ودارت معارك حامية بين جنود الفاطميين وجنود أبى يزيد • وقد تدخل فى سير المعارك ضد أبى يزيد عامل مهم وهو انتقاض البربر على أبى يزيد لتغير سلوكه ومجاهرته بالمحرمات • فانفض عنه كثير من البربر • مما حمله الى الرجوع الى القيروان سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ولكن أهل القيروان ثاروا عليه وخرجوا عن طاعته ورجعوا الى طاعة القائم فتوجه أبو يزيد بعساكره الى سوسة وحاصرها •

٢ ـ المنصور اسماعيل بن القائم :

وقد توفى القائم اثناء ذلك فى ١٣ شوال سنة ٣٣٤ هـ بعد ان عهد لابنه اسماعيل ابى الطاهر بولاية العهد بعده فتلقب اسماعيل بالمنصور وكتم موت أبيه ولم يغير شيئا من السكة والبنود والخطبة الى أن يفرغ من القضاء على أبى يزيد واستمر فى قتال أبى يزيد فأرسل اسطولا الى سوسة مددا للقوة المقاتلة فيها مما أدى الى رفع الروح المعنوية بين الجنود فخرجوا لقتال أبى يزيد وتمكنوا من التغلب عليه ففر الى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وأخرجوا عامله وسر المنصور بهذه الانباء وارسل

---

(٩٠) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤١ •

الامان الى اهل القيروان . ورحل اليهم الا ان ابا يزيد عاد لقتال المنصور فى القيروان ودارت بين الفريقين معارك متتالية كان النصر فى ختامها للمنصور الذى كان يعلن تصميمه على القضاء على أبى يزيد بقوله: « ان انا لم آخذ أبا يزيد واسلخه فلست بابن فاطمة ولست لكم بامام »[91] وامام الهزائم اللاحقة بأبى يزيد انسحب ابو يزيد محتميا بالجبال فتتبعه المنصور الى الجهات التى يلجأ اليها حتى حصره فى قلعة كتامة وتمكن المنصور من القبض عليه مثخنا بجراحه حيث توفى متأثرا بجراحه فى المحرم سنة ٣٣٦ هـ وبذلك قضى على تلك الفتنة التى كادت أن تذهب بالخلافة الفاطمية من المغرب .

وقد توج المنصور انتصاره على أبى يزيد ببناء مدينة صبرة على نصف ميل من القيروان وسماها المنصورية وانتقل اليها من المهدية سنة ٣٣٧ هـ ونقل اليها اسواق القيروان .

ويذكر ابن خلدون[92] ان المنصور بلغه ان الافرنج يستعدون لغزو المسلمين فارسل اليهم سنة ٣٤٠ هـ حملة حربية بحرية اسند قيادتها الى مولاه فرج الصقلى ، والى عامله على صقلية الحسين ابن على فنزلوا قلورية حيث لقيهم ملك الافرنج فهزموه وانتصروا عليه ورجعت الحملة بالغنائم سنة ٣٤٢هـ[93] .

وفى المدة التى توجهت فيها تلك الحملة توفى المنصور اسماعيل ابن القائم سنة ٣٤١ هـ لسبع سنين من خلافته .

٤ ـ المعز لدين الله معد بن اسماعيل المنصور :

وتولى الخلافة الفاطمية بعده ابنه معد الذى تلقب بالمعز لدين الله

---

(٩١) الحلة السيراء لابن الآبار جـ ٢ ص ٣٨٨ .

(٩٢) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٥ .

(٩٣) انظر الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٦٥ ، ١٧٣ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٠ ـ ٤٥ ، البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ـ ٢٢٠ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٣٩ ، ٤٠ أرض البطولة للجزايرلى ص ٢١٣ .

فاهتم بتدبير امور الدولة ثم قام المعز بحملة الى جبل اوراس فنشر فيه الأمن والسلام وأسلم اليه القياد قبيلتا بنى كملان ومليلة فاحسن اليهما وكانا لم يدخلا فى طاعة من تقدمه . وامر المعز ولاة الاقاليم والمدن بحسن معاملة الرعية مما حمل عصاة البربر الى الاتيان اليه وطاعته . وكان المعز يحسن اليهم ويجزل العطاء لهم ومن هؤلاء محمد بن خزر أمير مغراوة الذى أقام بالقيروان مكرما الى ان توفى سنة ٣٤٨ هـ[٩٤] وكان عامله على « تاهرت وايفان[٩٥] يعلى بن محمد اليفرنى ، وعلى أشير واعمالها زيرى بن مناد الصنهاجى ، وعلى المسيلة واعمالها جعفر بن على الاندلسى ، وعلى باغاية واعمالها قيصر الصقلى وكان على فاس احمد بن بكر بن ابى سهل الجزامى وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناس »[٩٦] .

وفى سنة ٣٤٤ هـ قامت مناوشات بحرية بين المعز لدين الله وبين الناصر الأموى صاحب الأندلس ، فقد بعث المعز لدين الله الى الحسين بن على عامل صقلية يأمره بالخروج بالأسطول الى ساحل المرية بالأندلس فخرج الى ساحل المرية وعاث فيه فسادا وغنم وسبى وعاد الى صقلية فأخرج الناصر الأموى اسطوله الى ساحل افريقية للاغارة عليها فمنعه الاسطول الفاطمى من تنفيذ أهدافه فعاود الأسطول الأموى الهجوم سنة ٣٤٥ هـ حيث تمكن من احراق مرسى الخزر وعاث فى جهات سوسة وطبرقة فسادا ثم عاد الى الأندلس . ومن هنا يتبين لنا الى أى حد وصلت علاقات العداء بين الفاطميين والأمويين من اغارة أساطيل كل منهما على الآخر كما هدد المعز بنقض الهدنة التى كانت معقودة مع الروم بعد هزيمته لهم عندما أغاروا على جزيرة اقريطش واحتج على الروم لهجومهم على المسلمين فى اقريطش[٩٧] .

---

(٩٤) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٥ .

(٩٥) مدينة واقعة فيما وراء تاهرت .

(٩٦) العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٥ .

(٩٧) انظر حسن ابراهيم المعز لدين الله ص ٥٠ .

وقد وجه المعز لدين الله جهودا مخلصة لبسط نفوذه فى المغرب وتدعيم سيادته عليه فأرسل فى سنة ٣٤٧ هـ قائده ووزيره جوهر الصقلى فى جيش كبير كان فيه معه كبار قادة البربر منهم زيرى بن مناد الصنهاجى امير أشير ، وجعفر بن على الأندلسى أمير المسيلة وغيرهما . فاستولى جوهر على سجلماسة التى كان قد استبد بحكمها محمد بن واسول وقبض عليه واستمر جوهر فى سيره غربا حتى وصل الى البحر المحيط ثم عاد ادراجه وفى عودته تمكن من الاستيلاء على فاس بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها أولا . وبذلك خضع المغرب الأوسط والأقصى للمعز سوى سبتة وطنجة التى لم يتمكن جوهر من الاستيلاء عليهما(٩٨) .

وبعد أن توطدت أقدام الفاطميين فى المغرب توجهت انظار المعز الى المشرق لكى يحقق الحلم الذى كان يراود أسلافه منذ أن قامت دولتهم . ولقد ساعدته الظروف على تحقيق ما لم يستطع آباؤه انجازه . حيث قد ساعده على تحقيق اهدافه فى المشرق استقرار الأمر فى المغرب ، وسكون لهيب الثورات التى كانت تقوم ضد آبائه وندرتها ، وقد أدى ذلك الى زيادة دخل الدولة الذى مكنه من اعداد حملة كبيرة على مصر أنفق عليها كثيرا من الأموال وأمدها كذلك بأموال أخرى طائلة قدرها صاحب المؤنس بأنها الف حمل من المال(٩٩) . كما اهتم المعز بهذه الحملة بتعبيد سبل الارتحال الى مصر حيث أمر بحفر الآبار فى طريق الحملة الى مصر حتى لا يرهق الجيش اللجب بالبحث عن الماء أثناء تلك الرحلة الطويلة الى مصر . وكان للدعاة الفاطميين فى مصر أثرهم الهام فى نشر الدعوة بين المصريين مما أدى الى ضعف المقاومة للحملة . وكان مما أدى الى نجاح حملة جوهر على مصر اضطراب الأحوال فى مصر بعد موت كافور الأخشيدى وكثرة الفتن وسوء الحالة الاقتصادية بالاضافة الى ضعف السلطة المركزية فى بغداد

---

(٩٨) انظر الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٢٠٧ ، المعز لدين الله الفاطمى د. حسن ابراهيم د. طه شرف ص ٣١ ـ ٣٦ .

(٩٩) المؤنس لابن أبى دينار ص ٦٤ .

فلم يمكنها وضعها من أن ترسل الجنود لدفاع الفاطميين كما حدث فى الحملات التى قام بها المهدى من قبل ٠

وقد أسندت قيادة الحملة الى جوهر الصقلى فقاد هـذا الجيش الضخم الذى بذل المعز لاعداده كل طاقته وخرج المعز بنفسه لتوديعه وأقام أياما مع الجنود فى المعسكر لتشجيعهم وتقوية الروح المعنوية فيهم وحملهم على الصبر والاخلاص خاصة فى وقت التلاقى مع الأعداء ٠ وقد تحرك الجيش من افريقية فى ربيع الأول سـنة ٣٥٨ هـ متوجها الى مصر فوصلها فى شعبان سـنة ٣٥٨ هـ ٠

ولم يلق جوهر قتالا عنيفا فى دخوله الى مصر فقد تفرق معظم جند الاخشيدية وهربوا من مصر قبل وصوله اليها وبذلك تمكن جوهر من دخول مصر واقامة الدعوة الفاطمية فيها بدون قتال يذكر ٠ وارسل جوهر خبر الاسـتيلاء على مصر وقيـام الأمر فيهـا للفاطميين الى المعز لدين الله الذى سر بذلك غاية السرور ٠ وتابع جوهر بسط النفوذ الفاطمى على الشـام والحجاز ٠ وشرع ببناء مدينة القاهرة ٠ وجد فى مكاتبة المعز لدين الله يدعوه للرحيل الى مصر ٠

أزمع المعز لدين الله الرحيل الى مصر واخذ يمهد أمر افريقية قبل أن يرحل الى مصر فاستخلف على افريقية والمغرب بلكين بن زيرى وانزله القيروان وسماه يوسف وكناه أبا الفتوح ، وأسند أمر طرابلس الى عبد الله بن يخلف الكتامى وجعله غير تابع لبلكين وأسند ولاية صقلية الى حسن بن على بن أبى الحسين الكلبى ولم يجعله تابعا لبلكين أيضا ، وجعل جباية أموال افريقية الى زيادة الله بن القديم ، وعلى الخراج عبد الجبار الخراسانى ، وحسين بن خلف الموصدى وأمرهم بالانقياد ليوسف بن زيرى ٠

وبعد أن اطمأن المعز لدين الله الى اسناد ادارة افريقية والمغرب الى من يثق فيهم خرج من المنصورية فى أواخر شـوال ٣٦١ هـ الى قرية

قريبة من القيروان تسمى سردانية فيها بساتين ومتنزهات وقصور للفاطميين فأقام فيها اربعة اشهر يستعد للرحيل عن افريقية الى أن تم اعداد القوة العسكرية التى تتحرك معه وحمل معه أهل بيته وجميع ما فى خزائنه من اموال وأمتعة وكذلك جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله ٠

وفى أول صفر سنة ٣٦٢ هـ(١٠٠) رحل المعز متوجها الى مصر حيث وصلها فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ ٠

وتم بذلك انتقال الخلافة الفاطمية من افريقية الى مصر وصارت افريقية بعد ذلك امارة تابعة لمصر بعد أن كانت مقر الخلافة الفاطمية ٠ ومكث المعز خليفة يمتد سلطانه على الشمال الافريقى كله والشام والحجاز الى أن ادركته الوفاة فى ١٧ ربيع الأول سنة ٣٦٥ هـ ٠ وبعد أن دامت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة اشهر قضى الفترة الأخيرة منها بمصر وهى سنتان وتسعة اشهر والفترة السابقة عليها بافريقية(١٠١) ٠

ويحق لنا ان نشير فى نهاية الحديث عن الحالة السياسية فى العصر الفاطمى الى الجهاز الادارى الذى كان يساعد الخليفة على تنفيذ سياسته حيث نلاحظ ان الفاطميين اعتمدوا فى حكم ولاياتهم على أنصارهم الموالين لهم ، وكانوا يأخذون المسىء منهم بالشدة اذا اساء وبالترقية والتشجيع اذا أحسن ٠ كما كان الخليفة يستعين بجهاز سرى منظم يمده بصورة صادقة عن رعاياه وعماله وكان الخليفة يشعر العامل

---

(١٠٠) المؤنس لابن أبى دينار ص ٦٥ ٠

(١٠١) انظر الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٢٣٢ ، ٢٤٤ ، العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٤٧ البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، المؤنس لابن أبى دينار ص ٦٤ ـ ٦٦ ، تاريخ الدولة الفاطمية د٠ حسن ابراهيم ص ٩٣ ـ ٩٧ ، المعز لدين الله الفاطمى د٠ حسن ابراهيم د٠ طـه شرف ص ٦٩ ـ ٨٠ ٠

دائمـا بأنه وليد نعمة الفاطميين ومتربى فى افضالهم فعليه أن يبذل أقصى جهده فى خدمتهم والسهر على دولتهم ٠

وقد قسم الفاطميون بلاد المغرب الى قسمين رئيسيين اولهما افريقية (وهى بلاد تونس الحالية) والآخر البلاد الخاضعة للفاطميين وكانت مقسمة الى عدة ولايات أهمها : ولاية برقة وكان عليها فى ايام المعز غلامة افلح وولاية طرابلس ومن أشـهر ولاتها عبد الله بن يخلف الكتامى وولاية المغربين الأوسط والأقصى وكان مقرها تاهرت فى المغرب الأوسط وقد تقلدها فى ايام المعز زيرى بن مناد الصنهاجى ٠ وكان والى تاهرت يعين الولاة على اقليمى فاس وسجلماسة وسواهما ويقوم بالقضاء على الثورات التى تقوم فى قلب البلاد الشاسعة ٠ ثم ولاية صقلية التى تولى أمرها والنهوض بها أسرة الحسـين الكلبى وكانت تعتبر مركزا مهما للدفاع عن الخلافة الفاطمية خاصـة من الناحية البحرية حيث كان يقيم فيها اسـطول بحرى قوى على استعداد دائم للدفاع والهجوم ٠

وكانت هـذه الولايات تنقسم الى مدن وقرى تخضع للوالى فى مقر ولايته ، وكان الخليفة يعين الولاة بنفسه والى جانب الوالى عامل الخراج والقاضى ، وصاحب الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين ٠

وفى كثير من الأحيان كان الخليفة يعين عمال المدن فى الولايات ويتصل بهم ويشرف على أعمالهم عن طريق عمال البريد وغيرهم الذين كانوا يطلعونه على ما يجرى فى هـذه المدن[١٠٢] ٠

وبانتقال المعز الى مصر نكون قد انتهينا من عرض الحالة السياسية للفترة التى سـنقوم بدراسة الحيـاة الفكرية فيها وظهرت لنا التيارات السياسية المختلفة ومدى الاستقرار والاضطراب السياسى الذى كان ذا أثر بعيد فى الحيـاة الفكرية والتأثير فيها ٠

ويقى أن نتبع الحالة السياسية بعرض للحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية والله الموفق ٠



(١٠٢) انظر المعز لدين الله د٠ حسن ابراهيم د٠ طـه شرف ص ١٥١ ـ ١٥٥ ٠

الفصل الرابع

الحاله الإقتصادية والإجتماعية .

لــا كانت الحياة الفكرية تؤثر وتتأثر الى حد كبير بالحياة السياسية والاقتصــادية والاجتماعية ٠

لــا كان هــذا أمرا مسلما ٠٠ كان لا بد لنا بعد ذكر لمحة عن الحالة السياسية أن نذكر لمحه عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية كمقدمة لا بد منها حتى تتضح الرؤية وتفهم الحياة الفكرية على حقيقتها ٠

١ ـ الحالة الاقتصــادية

مما لا شك فيه أن القيروان بنيت لتكون قاعدة حربية لجيش المسلمين ولتكون منارة لنشر الاســلام فى الشمال الافريقى ومركزا يســتقر فيه المسلمين وتوجه منه سياستهم ولذلك لم تلبث أن صارت المقر الرئيسى للحكم الاســلامى فى الشمال الافريقى وتوطدت الحياة فيها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن الحالة السياسية ، ونتحدث الآن عن الحالة الاقتصادية :

وقد بدأت الحياة الاقتصادية فيها بعد أن انتهت فترة الفتح، ونبتت أقدام الســيادة العربية فى أيام حسان بن النعمان فبعد أن انتهى حسان من فتوحه عاد الى القيروان فرتب دواوينها ثم وجه عنايته الى الناحية الاقتصادية فوضع الخراج على عجم افريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية[(١)] والروم ، ثم ولى حنش بن عبد الله الصنعانى التابعى على جمع الزكاة من المسلمين[(٢)] ثم وجه همته منــذ البداية الى الاهتمــام بالصناعة فانشأ دارا للصناعة وعمل المراكب واستقدم ألف قبطى من

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢٠١ تاريخ افريقية للرقيق القيروانى ص ٦٤ نص عبارة الرقيق « وكتب الخراج على عجم افريقية »٠

(٢) انظر رياض النفوس للمالكى ص ٣٨ ٠

مصر بأسرهم الى افريقية فكان ذلك بداية لنشأة صناعة السفن بافريقية وتأسيس الأسطول البحرى والتجارى وصناعة الآلات الحربية[٣] .

وقد شاهدت زردا من درع وقوسا من ذلك فى متحف عقبة فى القيروان ويذكر صاحب تاريخ المغرب الكبير نقلا عن محاضرة الشيخ الثعالبى أن حسان غير [ ] فى الدينار القرطاجنى فحذف منه الصليب ووضع صورتى عبد الملك بن مروان والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزنطيين وولى عهده وبعد حين زاد حسان فى الكتابة اللاتينية بطريقة اختصار الأحرف على الوجه الأول ما تعريبه ، بسم الله الرحمن الرحيم وفى الوجه الثانى ما تعريبه : وحده لا شريك له . ضرب بافريقية فى العشرة الثالثة يساوى ٨٥ هجرية[٤] وفى ولاية موسى بن نصير تدرج التغيير فى ضرب النقود الى ان صارت الكتابة عليها بالعربية الخالصة وكانت دار ضرب النقود تقع بجوار دار الامارة بالقرب من المسجد الجامع وكان لهـا ناظر يشرف عليها يساعده عمال ماهرون باذابة المعـادن وسبكها وبعمليات الوزن والنقش والطبع وقد بقيت هـذه الدار تؤدى عملها فى القيروان مدة ولاة بنى أمية وبنى العباس ثم نقلت الى العباسية ورقادة أيام الاغالبة ثم الى المهدية فالمنصورية أيام الفاطميين وكان يلحق بضرب النقـد طبع الصنوج وهى قطعة مستديرة بقدر الدرهم أو أكبر منه أو اصغر تتخذ من الزجاج ويرسم على احد وجهيها فقط كتابة بارزة تدل على أن مثقالها هو وزن الدرهم أو الدينار الرسمى الشرعى وغالبا ما يكتب عليها اسم الأمير أو الوالى الذى أمر بضربها[٥] وبهذه الصنج يتمكن الصيرفى أو التاجر من معرفة النقص فى وزن الدرهم ، وقد شاهدت فى متحف

---

(٣) انظر تاريخ افريقية للرقيق القيروانى ص ٦٦ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك المبلى ص ٣٢ .

(٤) انظر تاريخ المغرب الكبير لدبوز ص ١١٩ وربما كان كتابة البسملة وكلمة التوحيد باللاتينية كدعاية للاسلام .

(٥) انظر الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب ـ القسـم الأول ص ٤١٠ ، ٤١٤ و ٤١٩ .

عقبة بالقيروان صنوجا لعيار الدراهم والدنانير من زجاج مضروبة بالقيروان بعضها من أيام عبيد الله بن الحبحاب سـنة ١١٦ هـ والأمير يزيد بن حاتم سـنة ١٥٥ هـ وموسى بن عيسى سـنة ١٧١ هـ والمعـز لدين الله سـنة ٣٥٠ هـ كما توجد أوزان من رصاص مضروبة برقادة ٠

كذلك رأيت قطعا فى وزن الدرهم الفاطمى من الفضة الخالصة كما يوجد نصف درهم وربع دينار ذهبى كذلك ولقد بدات القيروان تتبوا مكانها الاقتصـادى اللائق بها فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة :

(أ) ففى الزراعـــة :

كثرت محصولات القيروان وتنوعت وجلبت اليها أنواع لم تكن موجودة قبل ذلك وكانت زراعة الزيتون تدر دخلا كبيرا لأهل افريقية تحدث عنه ابن عبد الحكم بانه كان يوضع بين يديه ٠ أى عبد الله بن سعد ـ الكوم من الورق فيقال للأفارقة من اين لكم هـذا ، قال فجعل انسان منهم يدور كالذى يلتمس الشىء حتى وجد زيتونه فجاء بها اليه فقال من هـذا نصيب الورق قال وكيف ؟ قال : ان الروم ليس عندهم زينون فكانوا يأتون فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم[٦] ٠

وقد عنى الولاة وخاصـة بنى المهلب بتوزيع موات الأرض على من يستحقها وكانوا يخففون عن البادية الخراج ولا يثقلوا كواهلهم بالضرائب وفى أيام الأغالبة اقيمت مشاريع الرى العام واقيمت القناطر والجسور والسدود للانتفاع بالمياه فى الزراعة فكانت أشجار الزيتون بالجهة الشرقية للقيروان (الساحل) وكانت زراعة الحبوب فى الشمال حول وادى مجردة على طول مسيرة أيام وكان فى الجهة الجنوبية (بلاد الجريد) واحات النخيل الكثيرة وهكذا كانت البلاد مخصبة حول القيروان حيث ترد اليها محصولاتها فكان الزيت يصل الى القيروان من الساحل حيث أشجار الزيتون وكانت الحنطة وأنواع الحبوب والزعفران يأتيها من

---

(٦) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٨٥ ٠

باجة وضواحيها . وكانت الحناء والكمون والكروياء والقطن والعصفر والحبة الحلوة تاتيها من فابس كما ترسل اليها قفصة وقسطيلية العديد من القوافل المحملة تمرا وفستقا ، اما بقية الفواكه والبقول كالاترج والتين وقصب السكر وغير ذلك فكانت تاتيها من الضيعات حول القيروان وقد جلب الى أراضيها ماء الأودية فى الجداول والقنوات المبنية بالحجارة حيث تسقى بساتينها من الآبار بالدواليب التى تديرها البغال والجمال(٧) ويذكر البكرى أن قابس(٨) ، فيها جميع الثمار والموز بها كثير وهى تمد القيروان باصناف الفواكه وان بها شجر التوت الكثير الذى ساعد على انتاج اجود أنواع الحرير كما أن بها قصب السكر وكان دود القز وشجر التوت والأرز قد جلب مع الجيش الخراسانى عندما جاء الى القيروان فى القرن الثانى الهجرى(٩) ، وفى فحص القيروان كان يزرع الفول الذى يدر مالا كثيرا(١٠) .

كما كان برقادة المدينة الملوكية الأغلبية القريبة من القيروان الحمضيات البرتقال والليم الحلو والليمون وقد نقلت اليها من الهند الصينية ويذكر الأستاذ الكعاك أنواعا من المزروعات الأخرى عدا ما ذكر كالقنب والزعرور(١١) والخروب والقراصيا أو حب الملوك والمصع(١٢) وغير ذلك

(٧) انظر بساط العقيق فى حضارة القيروان لحسن حسنى ص ١٧ ، ١٨ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ١١١

(٨) قابس : مدينة بالجنوب التونسى على خليج قابس المعروف بالسرت الصغير .

(٩) انظر المغرب للبكرى ص ١٧ والحضارة العربية لعثمان الكعاك ص ٧٦ .

(١٠) تاريخ افريقية للرقيق ص ١٥٧ والفحص موضع يزرع فيه .

(١١) الزعرور : شجرة من العائلة الوردية من فصيلة التفاح لها ثمرة ذهبية أو حمراء كالتفاحة الصغيرة لذيذة الطعم يتخذ منها المربى ــ الحضارة العربية للكعاك ص ١٠٥ .

(١٢) المصع : فى تونس يسمى بوصاع : فاكهة تشبه المشمش صفراء اللون ملساء .

من أنواع المزروعات التى أدت الى رقى الزراعة فى القيروان وضواحيها والأقاليم التى تمدها بمنتوجاتها[١٣] .

كما يلحق بالزراعة اعتناء الفلاحين بتربية المواشى ولا سيما الغنم ويذكر الرقيق أن يزيد بن حاتم خرج من القيروان يوما متنزها الى منية الخيل[١٤] .. فنظر فى طريقه الى غنم كثيرة فقال لمن هذه الغنم ؟ فقالوا لاسحاق ابنك فدعا به فقال : ألك هذه الغنم ؟ قال نعم قال « لم اردتها ؟ قال آكل من خرافها واشرب من البانها وانتفع بأصوافها » قال : « فاذا كنت انت تفعل هذا فما بينك وبين الغنامين والجزارين فرق وأمر بالغنم ان تذبح وتباح للناس فانتهبوها وذبحوها وأكلوا لحمها وجعلوا جلودها على كدية فهى تعرف من ذلك الوقت الى اليوم بكدية الجلود[١٥] ويتحدث ابن خلدون عن مكاسب البربر بانها « الشاه والبقر والخيل فى الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الابل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والاظعان فى نتاج الابل وظلال الرماح[١٦] .

***

(ب) وفى الصناعة :

كان الاهتمام المبكر من الولاة بصناعة السفن الحربية والتجارية وآلات الحرب وبضرب النقود مما سبق ذكره ثم بدات القيروان تتبوأ

---

(١٣) انظر الحضارة العربية للكعاك ص ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ - ١٠٦

(١٤) منية الخيل : مكان خارج القيروان . جعل يزيد خيله هناك فى اصطبلات امر ببنائها فى هذه المنية فبذلك سميت « منية الخيل » تاريخ الرقيق ص ١٥٨ .

(١٥) تاريخ المغرب للرقيق ص ١٥٨ والكدية : مكان مرتفع من الأرض يجعلون عليه الجلود لتجف .

(١٦) العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٨٩ .

مكانتها الصناعية بعد ذلك وأهم الصناعات التى ازدهرت فى القيروان صناعة المنسوجات الصوفية : ونتمثل فى السجاد العربى الذى يسمى بالزربية ويمتاز بالزخرف الهندسى وقد وجد فى القيروان بعد وصول الجيش الخرسانى فى القرن الثانى الهجرى ومعه السجاد العجمى الايرانى حيث نشأ عنه السجاد القيروانى المشهور ودخله عنصر الحرير وأسلاك الذهب والفضة والتكليل بالجواهر والزخرف . كما تتمثل صناعة المنسوجات الصوفية فى الغطاء وأهم انواعه القفصى والتوزرى[17] الممزوج بالحرير والجربى والكافى . ومن الصوفيات الأقمشة الصوفية الرفيعة ومنها الجوخ ويسمى بتونس الملف . والمنسوجات القطنية حيث كانت تصنع الاقمشة التى كانت تطرز بالحرير وتشغل بالابرة أو تطبع بالألوان والزخارف . والمنسوجات الكتانية التى كانت تزرع بالوطن[18] القبلى حيث تستخرج سلوك وتصبغ وتصنع منها الأقمشة اللازمة للثياب الداخلية أو للثياب الصيفية وتدخله زخارف كثيرة . كما كان للمنسوجات الحريرية شأن كبير وكانت سوسة مشهورة بذلك وكان بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب وبها كانت تقصر ثياب القيروان الرقيقة[19] . ويذكر المقريزى أن المعز لدين الله الفاطمى عمل له مصور للعالم ووصفه بأنه « مقطع من الحرير الأزرق التسترى القرقوبى غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومسالكها .. وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب

---

(١٧) **التوزرى** : نسبة الى مدينة توزر فى الجنوب الغربى بتونس حاليا .

(١٨) **الوطن القبلى** : رأس أدار . وهو أكبر رأس منطلق نحو المشرق بين خليج تونس شمالا وخليج الحمامات جنوبا ومساحة ٥٠٠٠ر٥ كم^2 ـ انظر الكعاك الحضارة العربية ص ٧٥ .

(١٩) انظر المغرب للبكرى ص ٣٦ .

أو بالفضة أو الحرير وفى آخره : مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار[٢٠] .

ولقد كان للأمراء مصنع خاص يسمى دار الطراز تصنع فيه الأقمشة الملوكية ذات الزينات العجيبة والصور اللطيفة المحلاة بالخط الكوفى[٢١] ويذكر الأستاذ الكعاك أن من ابدع القطع الحريرية القابسية « العجار » التونسى وهو خمار للنساء التونسيات جامع للزخرف الهندسى والنباتى والحيوانى والخط الكوفى مع الوان بارعة واشكال لطيفة جامعة ومنها الأقمشة العجيبة من شاش ودمقس وغيرها[٢٢] .

ومن الصناعات أيضا مدبوغات الجلد القيروانية التى تدبغ بشكل خاص للكتابة عليا ولا زال يوجد بجامع القيروان مجموعات من المصاحف وغيرها المكتوبة على هذه الرقوق الداعية للاعجاب والدهشة وخاصة مصحف الأنسة فضل ومصحف الحاضنة أم ملال ومصحف الرق الازرق وغيرها[٢٣] ومن اهم المصنوعات الجلدية « السروج » البسيطة والمطرزة بالحرير والمزركشة بالذهب والفضة كما اتخذت من الجلود أيضا الأحذية والمناطق وبعض الألبسة والمحافظ بالاضافة الى تجليد الكتب الذى ظهر بالقيروان على عهد الأغالبة أو قبل ذلك بقليل وتوجهت عناية الأغالبة الى زخرفة الجلد بالتطريز والنفخ والتكليل بالجوهر .

ومن الصناعات بالقيروان الصناعات الخشبية المتعلقة بالأبواب والنوافذ والشرفات وقد يكون الخشب مطعما مع بعضه مع فرز الألوان والأشكال ومنه ما يكون مركبا من قطع صغيرة مخروطة تلفق مع بعضها

---

(٢٠) خطط ج ١ ص ٤١٧ نقلا عن كتاب المعز لدين الله لحسن ابراهيم ص ٢٨١ .

(٢١) انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ١٩

(٢٢) الحضارة العربية لعثمان الكعاك ص ٧٦

(٢٣) انظر المرجع السابق ص ٧٧

وتسمى « فرخة » و « وعرناصة » ومن ذلك محراب جامع القيروان (٢٥٠) هـ الذى فيه مربعات واطارات من خشب الساج المجلوب من الهند الصينى ومن ذلك مقصورة جامع القيروان التى زخرفت بالخط الكوفى المزهر والمعقد والمتعانق والمرتبط مع بعضه بعريش من العنب منقوش على البارز فى صميم الخشب وهذا النوع من الكسو موجود كثيرا فى الفن الفاطمى(٢٤) .

وكان فى القيروان أيضا صناعة الصدفيات والعاجيات وخاصة من سن الفيل وتوجهت الى ذلك عناية زائدة فى تلبيس أو ترصيع المربعات والمرايا والقباقيب والمناضد والخزائن وسفر الطعام والكراسى والمقاعد .

ومن الصناعات الشهيرة والراقية صناعة الزجاج والبللور ومنها تتخذ الأوانى والتحف اللطيفة الملونة والقنينات الكثيرة المزخرفة والمذهبه التى كان يستعملها الصيادلة كما استعمل الزجاج فى الشمسيات والقمريات . وهى كوى فى الجدران والشمسيات موجودة بجامع القيروان منذ القرن الثالث على عهد الأغالبة . وكان هناك سوق يسمى سوق الزجاج كان قريبا من الجامع الأعظم بالقيروان ، واتخذ الزجاج فى الثريات وتبليط أرضية البيوت والشوارع بطبقة زجاجية مختمة ومزخرفة وذلك فى « أرضية المنصورية قرب القيروان »(٢٥) وكان فى القيروان حى خاص بالزجاجين .

كذلك اشتهرت فى القيروان صناعة المعدنيات من نحاس وفضة وذهب وكان للقيروان شهرة واسعة فى صنع المجوهرات والفضيات واتخذ من النحاس الأطباق والصوانى المنقوشة بزخارف هندسية وخطية ومطعمة بالفضة أو القصدير كما يذكر المالكى أن سكن الصائغ قال : « كنت

---

(٢٤) انظر المرجع السابق ص ٤٦ ، ٥٤

(٢٥) انظر المرجع السابق ص ٨٣ ، ٨٤ ، بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٩

اصنع السلاسل من نحاس وأطليها بماء الذهب الذى يجعل فى اللجم وأبعث بها تباع ببلد السودان »[٣٦] .

كما شاعت فى القيروان صناعة الخزف المطلى والأبيض واتخذت منه أوانى الماء شديدة البياض والرفة التى تكاد تشف لطافة عما فيها[٣٧] ، وقد شاهدت بعض الأوانى الخزفية من ذلك العهد فى متحف عقبة فى القيروان .

وبجانب هذه الصناعات كانت توجد صناعة السكريات وصناعة الصابون الذى وجد بالقيروان منذ العهد الفاطمى . كما كانت توجد صناعة الورق التى انتشرت فى القيروان فى آخر أيام الأغالبة وكانت هذه الصناعات منتشرة حتى عند النساء اللواتى يصنعن مدخر الكائد السنوى لأزواجهن الكتاب[٣٨] .

كما كان هناك اهتمام بالتعدين والمناجم وخاصة لاستخراج « الفضة والكحل والحديد والرصاص »[٣٩] .

ولقد أدت هذه النهضة الصناعية الى اهتمام الولاة بتخصيص مكان لكل صناعة فى المدينة وكان ذلك فى وقت مبكر على يد يزيد بن حاتم الذى قدم القيروان اميرا عليها سنة ١٥٥ هـ[٣٠] .



---

(٢٦) رياض النفوس للمالكى ص ١١٧

(٢٧) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٠

(٢٨) المرجع السابق ص ١٩ الحضارة العربية للكعاك ص ٨٧ ، ٨٨ ، المغرب الكبير للسيد عبد العزيز سالم ص ٤٠٩ ، ٤١٠

(٢٩) انظر المغرب الكبير ص ٤٠٩ نقلا عن اليعقوبى ص ٤٥٠ ، وهذه تونس لحبيب تامر ص ١٢ .

(٣٠) انظر تاريخ أفريقية والمغرب للرقيق ص ١٤٩ ، البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٧٨ ، الخلاصة النقية للباجى ص ٢٠

(جـ) وفى التجـارة :

نتج عن النهضة الزراعية والصناعية التى كانت فى القيروان نشاط تجارى واسـع داخلى وخارجى سـاعد عليه استقرار الأمن وتسـهيل سبل المواصـلات بالاضـافة الى كثرة الانتاج الزراعى والصناعى الذى سـاعد على التقدم الاقتصادى فى القيروان ٠

وقد كانت المنتجات الزراعية فى سـائر الاقليم حول القيروان تحمل اليها كما كانت تحمل اليها المنتجات الصـناعية فى الاقليم كله فكانت القيروان بذلك سـوقا كبيرا للمنتجات الزراعية والصناعية ومقرا للتجارة الداخلية والخارجيـة ويصفها ابن حوقل بأنها « اعظم مدينـة بالمغرب واكثرها تجرا[٣١] واموالا واحسنها منازل واسـواقا وكان فيها ديوان جميع المغرب واليها تجبى أموالها وبها دار سلطانها »[٣٢] وبذلك كان يقصدها التجار من داخل الاقليم ومن خارجه فكانت سوقا كبيرا للتجارة الداخلية والخارجية ٠ وقد سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن تأسيس القيروان أسماء الأسـواق وقلنا ان أهمها هو سماط القيروان ثم أسـواق أخرى خاصة بالصيارفة والجوهريين والغزل والسراجين والبزازين والرهادرة[٣٣] وسوق اليهود وغير ذلك من الأسواق[٣٤] وقد قام يزيد بن حاتم بترتيب أسواق القيروان ٠

ويعطينا البكرى مثالا عن بعض ما كان يصل الى القيروان من المنتجات كل يوم من بعض الضواحى بقوله ومنها ـ أى جلولاء على

---

(٣١) تجرا : أى تجارة تنتج عنها كثرة الأموال ٠

(٣٢) ابن حوقل صورة الأرض طبعة بيروت ص ٩٤ نقلا عن المغرب الكبير ص ٢٠٨

(٣٣) سوق الرهادرة : أى سـوق المسافرين من أجل الاتجار أى التجار الأجانب ٠

(٣٤) راجع الفصل السابق من هـذا البحث تأسـيس القيروان المنافع العامة ص ٨٩ ٠

بعد أربعة وعشرين ميلا ـ كان يرد كل يوم الى القيروان من احمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة[٣٥] وغير ذلك من الأنواع المختلفة من المنتجات التى تحمل يوميا الى أسواق القيروان ويذكر البكرى الطرق والمسافات وأنواع المنتجات التى كانت تحمل يوميا الى أسواق القيروان العامرة النافقة بما يدل على رواج التجارة بها[٣٦] • وقد ساعد انتشار الأمن وتعبيد الطرق على سهولة نقل المنتجات الى القيروان •

كما أدت زيادة المنتجات على الاستهلاك المحلى الى قيام تجارة خارجية كانت تحمل الصادرات كما تاتى ببعض الواردات •

وذكر البكرى « أن تجارة الزيت كانت رائجة منذ القدم مع الروم ثم توسع فى تصديره الى مصر وصقلية[٣٧] وقد أمدت القيروان مصر بالقمح عند حدوث المجاعة اثناء الفتح الفاطمى لمصر وصدر القمح منها الى الاسكندرية[٣٨] •

كما كان للقيروان علاقات تجارية ببلاد السودان الغربى (مالى) وما يجاورها من البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مما ساعد على وجود الذهب المجلوب من تلك الأصقاع الى القيروان واستطاع تجار القيروان أن يتنقلوا الى ديار الملثمين وبلاد السودان حيث كانت القوافل تجلب الذهب والعبيد من الجنوب[٣٩] •

---

(٣٥) البكرى ـ المغرب ص ٣٢

(٣٦) المرجع السابق ص ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٩

(٣٧) البكرى المغرب ص ٢٠ ابن عبد الحكم فتوح ص ١٨٥

(٣٨) انظر أرض البطولة للجزايرى ص ١٨٢ ، المعز لدين الله لحسن ابراهيم ص ١٦٩

(٣٩) انظر الاسلام والثقافة العربية حسن محمود ص ٦٨ ، والورقات لحسن حسنى ص ٤٣٥ ، الحضارة العربية لآدم متز ج ١ ص ٢٧٨

وكذلك كانت التجارة راتجة بين القيروان والأندلس وكان هناك فنادق فى القيروان للتجار الأندلسيين(٤٠) .

ويتحدث الأستاذ الكعاك عن هذه الفنادق بما يعطى صورة واضحة لرقى تجارى ملموس فيصفها بأنها : سقيفة بها شهود عدول لتحرير عقود البيع والايجار .

وعامة الاحالات والاشهاد على المتعاقدين وسمسار ليكون واسطة بين البائع والمشترى ومنادى لينادى على البضائع بالمزاد العلنى وامين لتسعير البضائع والتوثيق من سلامتها من الغش ومترجم ليتولى الترجمة بين الأطراف وداخل السقيفة برادعى أو سراج لاصلاح أدوات الدواب وصفائحى وبيطار ليعالج الدواب وينعلها ومستودعات للعربات والدواب والعلف والبضائع . وفى الدور الأول غرف ليستأجرها المسافرون للمبيت(٤١) .

ولقد سن المعز لدين الله القوانين للتجار وشجع التجارة مما ادى الى رواجها(٤٢) وبذلك أصبحت القيروان مقرا للتجارة العالمية بالمغرب يصل اليها التجار من كل الأنحاء ليستوردوا منها منتجاتها ويبيعوا فيها تجارتهم(٤٣) .

ولقد ساعد القيروان على ذلك موقعها الجغرافى المتوسط ثم كثرة مراسيها ومهارة تجارها ودرايتهم بانشاء السفن وخوض عباب البحار ومسالك الصحراء فكانت البضائع تخرج من العاصمة محمولة على القوافل أو على طريق البحر الى مصر وصقلية والأندلس والسودان والمغرب(٤٤) .

---

(٤٠) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ١٦٩
(٤١) الحضارة العربية لعثمان الكعاك ص ٦٤ ، ٦٥
(٤٢) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ص ٤٨٧
(٤٣) التمدن الاسلامى لجورج زيدان جـ ٥ ص ٤٧
(٤٤) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٠

من كل ذلك يتبين لنا مدى التقدم التجارى الذى كانت تعيش فيه القيروان ويكفى دليلا على ذلك ما ذكره البكرى « أنه كان يدخل أحد أبواب القيروان من كل يوم ستة وعشرون الف درهم »(٤٥) .

تلك لمحة عن التقدم الاقتصادى المتمثل فى الزراعة والصناعة والتجارة ويكفى دليلا على ذلك كثرة الانفاق على المشروعات والهبات التى كانت تقوم بها السلطة الحاكمة فى القيروان .

ومن الأمثلة القليلة فى ذلك ما قامت به دولة الاغالبة والفاطميين من بناء المدن وتوسيع رقعة الدولة بالفتوح وزيادة العطاء للجند وبناء حوالى عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وابواب الحديد وبناء الأسوار(٤٦) وبناء المارستانات والمستشفيات لرعاية المصابين(٤٧) .

ويذكر البكرى ما ذبح من البقر فى القيروان فى يوم عاشوراء بأنه تسعمائة وخمسين راسا وهذا يدل على ارتفاع مستوى المعيشة التى كانت تعيش فيه القيروان . كما يذكر أن المهدية كانت مرفا للسفن القادمة من الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وكانت جباية ساحل القيروان سوسة والمهدية وسفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخرج الذى لغير بيت المال ثمانون الف مثقال(٤٨) .

كما يصور ابن عذارى ما كان يقوم به بعض أمراء الأغالبة من عطاء للفقراء بأنه كان يخرج فى رمضان ومعه دواب بالدراهم فكان يعطى الضعفاء والمساكين حتى ينتهى الى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس يدعون له(٤٩) .

---

(٤٥) البكرى المغرب ص ٢٥
(٤٦) انظر العبر لابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٣
(٤٧) الورقات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٢٧٣
(٤٨) البكرى المغرب ص ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٦
(٤٩) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١١٢

كما يذكر القاضى النعمان الأموال الضخمة التى انفقها المعز لدين الله فى سنة ٣٥١ هـ • حين عزم على ختان أبنائه فقد رأى أن يشرك رعيته فى افراحه فأمر بالكتب الى العمال من لدن برقة الى سجلماسة وحدودها وما بين ذلك وما حوته مملكة والى جزيرة صقلية ومن بها من طبقات الناس فى حضرويه وان يتقدموا فى طهور ابنائهم يوم الثلاثاء أول ربيع الأول من سنة احدى وخمسين وثلثمائة الى انقضاء هذا الشهر وأمر أن يحمل الى كل بلد من هذه البلدان من الحضرة أموال وخلع تفرق على كل من طهر من أبناء المسلمين من خاص وعام فكان الذى رأيناه حمل الى صقلية من المال خمسين حملا سوى الخلع ومثل ذلك ونحوه الى كل عامل ليفرقه على أهل عمله(٥٠) • وكان المعز يشفق على فقراء رعيته ويساعدهم على تزويج أبنائهم وادخال السرور عليهم بل كثيرا ما يامر ببناء الدور للفقراء منهم •

وقد ذكر المقريزى ان ما حمله جوهر الى مصر من الأموال وحدها أربعة وعشرين مليونا من الدنانير اى ما يقرب من ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات وهو مقدار لا يستهان به فى ذلك العهد(٥١) •

فاذا علمنا أن المعز عندما عزم على الرحيل الى مصر حمل معه أمواله وكانت كثيرة على الف بعير وسبك الدنانير على شكل الطواحين جعل على كل حمل قطعتين وجعل فى كل قطعة ثقبا تجمع به القطعة الى الأخرى واستعظم ذلك الجند والرعية وصاروا يقفون فى الطرق لرؤية بيت المال المحمول(٥٢) •

---

(٥٠) النعمان المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٦٥٤ نقلا عن كتاب المعز لحسن ابراهيم ص ٢٧٤

(٥١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ص ٦١ ، ٦٢ نقلا عن كتاب المعز لدين الله لحسن ابراهيم ص ٢٧٧

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٥ نقلا عن كتاب المعز لحسن ابراهيم ص ٢٧٨

وهذا بلا شك يدل على وفرة الأموال وتقدم البلاد ورخائها الواسع وازدهارها اقتصاديا • وليس معنى هذا التقدم الاقتصادى أن القيروان لم تمر بأزمات اقتصادية حادة وان كانت قد تغلبت عليها : فمن ذلك ما حدث اثناء محاصرة الخوارج لعمر بن حفص فقد شدد الحصار على القيروان حتى ضاق الحال بالناس واضطروا الى أكل دوابهم وسنانيرهم وكلابهم واخذ الناس فى أكل لحوم الخيل وغلا ثمن الأشياء حتى بلغ ثمن أوقية الملح بدرهم(٥٣) • كما انه قد توالى القحط سنة ٢٥٣ هـ الى سنة ٢٦٥ حتى أنه عم سنة ٦٠ بلاد الأندلس والمغرب ومصر والحجاز(٥٤) •

ولا شك أن الاضطرابات السياسية التى كانت تحدث بين حين وآخر كان لها آثار سيئة على التجارة فى القيروان بل على الحياة الاقتصادية كلها زراعيا وصناعيا ولولا ما كان يعترى القيروان من ازمات سياسية ونكبات مالية لبلغ التقدم الحضارى فيها درجة لم تصلها أية مدينة أخرى •

وفى سنة ٢٧٥ هـ حاول الأمير الأغلبى ادخال اصلاح فى العملة وذلك بضرب دراهم صحاح خالصة العيار وجعل كل عشرة منها تساوى دينارا ذهبيا وقد سماها العشارية وأمر بقطع التعامل بالمقطوع من الدراهم التى كانت تتخذ قبل ذلك الا أن السكان ثاروا عليه واضرب التجار واغلقوا حوانيتهم وكانت الثورة التى تعرف بثورة الدراهم الا أن الأمير تمكن من القضاء عليها وساعده ذلك على ادخال الاصلاح النقدى فى القيروان وصارت الدنانير والدراهم تؤخذ صرفا لا وزنا وقد عرف ذلك فى التاريخ بثورة الدراهم(٥٥) •

---

(٥٣) انظر الرقيق تاريخ المغرب ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٥٤) انظر مبارك الميلى تاريخ الجزائر ص ١١١

(٥٥) انظر ابن عذارى ـ البيان المغرب جـ ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، والورقات لحسن حسنى ص ٤٣٢

ومع ذلك فان هـذه الأزمات والثورات لم تمنع قوة وسلامة الحياة الاقتصادية من التغلب عليها والاستمرار فى النمو والازدهار بما حقق للقيروان وضعا اقتصاديا قويا ٠

* * *

٢ ـ الحالة الاجتماعية

بدأت الحياة الاجتماعية فى القيروان منذ تاسيسها وجعلها موطنا لجند المسلمين واسرهم فكانت تتسم بطابع الجندية فى بداية امرها كمقر لجند المسلمين تتوجه منه الحملات لتوطيد السيادة الاسلامية وكمنارة هداية لنشر التعاليم الاسلامية السامية التى تدعو الى اقامة مجتمع ناهض قوى الصلة بالله تعالى تسود بين افراده الحرية والمساواة والتعاون ٠

ولقد شارك المسلمين فى مدينتهم منذ بداية تاسيسها الجند البربرى وأسرهم الذين اعتنقوا الاسلام وحاربوا جنبا الى جنب مع الجند العربى وقد كثر هذا الجند وازداد امتزاجه عند ما توطدت أقدام المسلمين فى أفريقية وتمكن حسان بعد هزيمة الكاهنة من أن يكون فى جيشه اثنا عشر ألف جندى من البربر يعيشون مع الجند العربى ويمنزجون بهم ويعيشون معهم حياة اجتماعية تسودها الحرية والمساواة ٠ وكان من أثر ذلك أن عاشت أسر بربرية فى القيروان واختلطت بأهلها وكان بينهم تعامل ومصاهرة ومشاركة فى الحياة الاجتماعية(٥٦) ٠

وقد استوطن القيروان وضواحيها من القبائل العربية : التميميون والأنصار الأوس والخزرج ، الأزد القيسيون ، تنوخ ، بنو جرير ، الكنديون ، كنانه وغير هؤلاء(٥٧) ٠

---

(٥٦) انظر ابن عبد الحكم فتوح ص ٢٠١ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٣٨ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٣٩

(٥٧) انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ١٦

وعند استقرار الفتح فى افريقية غدت القيروان مقر الوالى ومركز الدواوين الكبرى ومصدر التوجيه والادارة وقد كفل لها ذلك وضعا خاصا جذب السكان من حول القيروان ومن الأقاليم لكى يغدوا الى القيروان لقضاء حاجتهم فى طمأنينة وسلام وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على تقدم الحياة الاجتماعية وتقوية الاتصال بين السكان ولم تحل صعوبة دون اختلاط العرب بالبربر الذين يجمعهم الاتفاق فى البيئة التى ينتمى اليها كل منهم والتى يشيع فيها طابع صحراوى أدى الى نتائج متقاربة من حيث الاجتماع والعمران ونتج عن ذلك عادات وتقاليد متشابهة(٥٨) ٠

ومع مطلع القرن الثانى للهجرة زخرت القيروان بالسكان من مختلف الأمصار الاسلامية فأصبحت بيئتها الاجتماعية تتألف من عناصر عربية وأفارقة وبربر وروم ويشير اليعقوبى الى ذلك بأن (فى مدينة القيروان أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم واشباه ذلك(٥٩) ٠

كما كانت الخلافة تبعث الى جانب الولاة بعض الأعوان الذين يسند الولاة اليهم ادارة مرافق الدولة وضمت الهيئة الاجتماعية فى القيروان بعض ذوى الشأن من رؤساء القبائل العربية الذين قصدوا افريقية ليكونوا بمنأى عن الخلافة أو لغير ذلك من الدواعى والمرغبات(٦٠) ٠

ومن ذلك يتبين لنا أن القيروان كانت تضم بطونا مختلفة تتألف من القبائل العربية التى قدمت مع عقبة حين تأسيس القيروان وجيش

---

(٥٨) انظر د٠ ابراهيم العدوى موسى بن نصير ص ٥٦ ، ٥٧

(٥٩) الورقات ص ٣٨١ نقلا عن اليعقوبى ٠

(٦٠) الورقات لحسن حسنى ص ٣٨١ أشار الى بعض الأعيان الوافدين للاقامة فى القيروان ومنهم منصور بن عبد الله بن يزيد من ذرية أحد ملوك اليمن قبل الاسلام ٠

حسان والجنود العرب الذين تركوا الجندية واقاموا فى القيروان وبمرور الزمن اقبل التجار العرب من كل مكان للاقامة فيها وكذلك المثقفون وأدى استقرار الحياة فيها الى أن أقام فيها عدد كبير من القبائل البربرية التى اعتنقت الاسلام كما يذكر المؤرخون اقامة أقلية اندلسية وأخرى مسيحية من بقايا البيزنطيين ومن سكان صقلية بعد فتحها كما كان فى القيروان اقلية يهودية كانت تسكن فى حى خاص بها(٦١) ٠

وقد انقسم هذا الخليط من السكان حسب الأعمال التى يقومون بها فى المجتمع القيروانى الى طبقات عدة أهمها :

(ا) طبقة الحكام والخواص من الولاة وكبار رجال الدولة وقادة الجيش والحرس الخاص الذى اتخذه الأمراء وكذلك انصار النظام السياسى الحاكم المتمثل فى التميميين أيام الأغالبة وفى قبيلة كتامة أيام الفاطميين ٠

(ب) طبقة التجار : التى كان لها دور كبير فى الحياة الاجتماعية فى القيروان لا سيما بعد أن اتسع التبادل التجارى وتجاوز النطاق المحلى الى النطاق العالمى وازدهرت الحياة الاقتصادية وصار للتجار علاقات تجارية مع صقلية والأندلس ومصر والروم مما مر ذكره فى الحياة الاقتصادية وأصبح فى القيروان جاليات من تلك البلاد تضطلع بالأعباء التجارية ٠

(ج) طبقة المثقفين وخاصة الفقهاء الذين كان لهم نفوذ قوى فى حياة الشعب والحكام وتأثير قوى فى الحياة السياسية وتوجيه الحياة الاجتماعية والبت فى كثير من المشاكل التى كانت تحدث فى القيروان ولم يكن المثقفون من ذوى الثراء وانما كانوا من الناحية الاقتصادية متوسطى الحال ٠

---

(٦١) انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١٦٩ ، القيروان عبر عصور الازدهار الحبيب الجنحانى ص ١٤٦ ، بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٦

(د) الطبقة الشعبية : وتتألف من الجنود النظاميين أو المتطوعين المحترفين الذين كانوا يقبلون على الجندية عند استدعاء الأمير لهم للقيام بمهمة حربيـــة ٠

ومن اصـحاب الحرف اليدوية الصناعـية الذين كانوا يعملون فى الصناعات المختلفة الخشبية والزجاجية والمعدنية وغيرها من الصناعات التى مر ذكرها فى الحياة الاقتصادية وعمال البناء الذين شـاركوا فى القيـام بالمشروعات الضخمة الانشـائية من مواجل وقصـــور وسدود وقناطر وحصون ومسـاجد وغيرها ٠

ومنهم الفلاحون الذين يعملون فى الأرض بالكراء أو أصحاب الأراضى ذات المساحات الصغيرة الذين يعملون فيها بأيديهم والعبيد الذين كانوا يعملون بالزراعة لاسيادهم ولا شـك أن هـذه الطبقة كانت قليلة الدخل كثيرة العمل من اجل الحصول على مقومات حياتها ولكنها كانت ذات اثر كبير فى الحياة الاجتماعية الناتجة عن الرقى الاقتصادى[٦٢] ومـع تعدد طبقات المجتمع فى القيروان الا انه كان لها راى عام جماعى كثيرا ما حمل الحكام على مراعاته وعلى ان يكون له اثر فى تصرفاتهم فكان كثير من الحكام عند توليه السلطة يعد الرعيـة بسلوك سياسية خاصـة يوضحها لهم ويبين فيها الخطوط العريضـة المملوءة بالاستقامة والعدالة أو يقوم بتوزيع الأموال أو باعفاء الفلاحين من الضرائب كما حدث فى السـنة التى سميت بسـنة العدل ٠ وقد تدخـل اهل القيروان فى تولية بعض الولاة وفى حمل بعض الأمراء على القيام بشئون الدولة كما حدث فى تعيين ابراهيم بن أحمد بن الأغلب سـنة ٢٦١ هـ[٦٣] وكان ظهور هذا الرأى الجماعى فى القيروان ناشـئا عن التعاون المثمر بين طبقـات

---

(٦٢) انظر القيروان عبر عصور الازدهار ـ للدكتـــور الحبيب الجنحانى ص ١٤٦ ـ ١٤٩ بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٦ ، ١٧

(٦٣) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص١١٢ ، ١١٦ ، ١٣١ ، القيروان عبر عصور الازدهار ص ١٥ للدكتور الجنحانى ٠

السكان على اختـــلافهم من العرب والأفارقة والبربر وبقايا الرومان القدماء الذين يؤلفون مجموع سـكان القيروان حيث كانوا يعيشون جنبا الى جنب فى تعاون وتآلف مستمر مكن الحكام من استغلال ثروة البلاد بما عاد عليها بالتقدم والازدهار(٦٤) .

ويمكن الاشارة الى المظاهر الاجتماعية فى القيروان فيما يأتى :

١ ـ فى السلوك الاجتماعى العام :

حيث كان يشـــيع العـــدل وترتفـع راياته ويحـارب الظـلم ويعـاقب مرتكبـوه وخاصـــة فى المعامـــلات فكان قاضى القيروان يعين المحتســب الذى كان يقـوم بمحاربة المنكرات ويحمـل النـاس على احترام المصلحة العامة كمنع المضايقة فى الطرقات والرفق بالحيوان وحمل أصحاب البيوت المتداعية على هدمها ومقاومة الغش والخداع فى البيع والشراء(٦٥) .

ويذكر ابو العرب ان أحد القائمين على أســـواق القيروان من المحتسبين توفى فلم يوجـد لديه ما يكفن فيـه حتى كفنـــه بعض التجار(٦٦) وهذا دليل واضح على أمانة هؤلاء المحتسبين وعدم أخذهم للرشـوة وعنـد تولية الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب حاول تغيير الظلم الذى أحدثه العمال ومنعهم من الاستيلاء على أموال الرعيـة وقطع النبيذ من القيروان مما جعل الناس يحمدون له ذلك غير أن ابراهيـم ابن أحمد لـمـا بنى رقادة قطع النبيذ من القيروان واباحة برقادة مما جعل بعض ظرفاء القيروان يسجل ذلك بشعر يرسله الى الحاكم .

يا سيد الناس وابن سيدهم ومن اليه الرقاب منقـــادة
ما حرم الشرب فى مدينتنا وهو حلال بأرض رقـــادة

---

(٦٤) حسن محمود الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ١٥٣
(٦٥) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٧
(٦٦) طبقات علماء أفريقية لابى العرب ص ٢٥١

وهذا مظهر من النقد الاجتماعى للحكام حيث أحل محرما فى مقره رقادة وحرمه فى القيروان [٦٧] .

٢ - وضع المرأة فى القيروان :

وكان للمرأة وضع مشرف فى القيروان يدل عليه موقفها حين هاجم الخوارج القيروان أيام حنظلة بن صفوان ومشاركة المرأة فى الدفاع عن المدينة وحملها السلاح جنبا الى جنب لحراسة المدينة والدفاع عنها حين هجوم جيش المسلمين على الاعداء [٦٨] .

بل كان للنساء تاثير قوى فى الروح المعنوية للرجال وحملهم على مواصلة القتال وعدم الفرار عند مهاجمة الخوارج للقيروان ويعبر عن ذلك الرقيق القيروانى بانهن « عقدن الألوية وأخذن معهن السلاح وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال وحلفن لأزواجهن : لئن انهزم احد منكم الينا موليا عن العدو لنقتلنه . وعلمن ما يريد بهن الصفرية من السبى والعبودية ووطن النفس على الموت فهش الناس للقتال واشتدت نصرتهم [٦٩] وقد خصص للمرأة فى القيروان يوم خاص للقضاء حيث يفصل القاضى فيه بين النساء وهو يوم الخميس فيجلس القاضى فيه للنساء بعد أن يبعد الكتاب والشهود والحجاب [٧٠] .

وكانت المرأة القيروانية تقوم بشئون بيتها المنزلية فاذا ما انتهت منها قضت أوقات الفراغ فى بيتها فى القيام بالأعمال اليدوية كغزل الصوف والقطن والتطريز بالحرير ونسج البسط أو حياكة ثياب الأسرة وربما يساعدها فى شئون المنزل بعض الخدم من الرقيق وذلك بالنسبة للأسر الغنية . وهى تتمتع بشخصية قوية وبالحرية خاصة فى شئون

---

(٦٧) انظر الحلة السيراء لابن الأبارص ١٦٨ ، ١٧٣
(٦٨) انظر مختصر تاريخ العرب ص ١٤٤ ، ١٤٥
(٦٩) تاريخ افريقية والمغرب للرقيق ص ١٢٠
(٧٠) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٦ .

الزواج ويـدل على حـرية المراة وقـوة شـخصيتها ما كانت تشترط عنـد العقـد فى الزواج من ان الزوج اذا تسرى عليهـا بغيرهـا يكـون أمـرها بيـدها حيث تطلق نفسـها ان شـاءت وتلك عادة معمول بها فى القيروان منـذ القرن الثانى الهجرى وتسمى فى أحكام النكاح بالطريقة القيروانية ونتج عن ذلك قلة رغبة أهل القيروان فى تعدد الزوجات(٧١) وفى نصيحة المعز لدين الله لشيوخ كتامة ما يحبذ الاكتفاء بالواحدة وعدم التعدد فى الزوجات لمـا ينتج عن التعدد من اثار « واقبلوا بعدها على نسـائكم والزموا الواحـدة التى تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثير منهن والرغبة فيهن فينتقص عيشكم وتعود المضرة علكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم ويضعف تمايزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة »(٧٢) ومن هـذا الوضع الخاص للمراة يظهر لنا تماسك الأسرة وقوة بنيانها ومدى تاثير المراة فى المجتمع القيروانى ٠

٣ ـ اللبـاس :

يذكر صاحب بساط العقيق ان لباس الرجل كان يتألف من قميص وسراويل وجبة صوف يتحزم عليها بازار ملون ويضع على رأسه عمامة وتسمى أيضا لفافة يوضع عليها الدوخلة التى تنزل على القفا ويلبس فى قدميه النعال فى الشتاء والخفاف فى الصيف ويلبس الأغنياء والعلماء الأسماط والشروف والفرو السامور ويلبسون القلنسوة عوضا عن العمامة وتكون صوفا أو قطنا ويختلف شكلها من قصيرة الى طويلة(٧٣) ٠

ويوضح لنا صاحب المدارك ما كان يتزيى به الامام سحنون وكيف كان يتخذ لكل وقت لباسا عند الجلوس للسماع أو حضور الجمعة

---

(٧١) بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٣ ٠

(٧٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٦٠ ـ ٦١ نقلا عن المعز لدين الله ص ٣٨ نقلا عن الحسن ابراهيم ٠

(٧٣) بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٤ ٠

وشهود الجنازة أو وقت المطر وذلك ليعطينا مثلا لما كان يسير عليه المجتمع فى لباسه يقول سليمان بن سالم : رأيت لسحنون ساجا كفليا وساجا أزرق ورداء وقلنسوة حبرة وقلنسوة زرقاء وشيا وقلنسوة تشبه الأغلب فاذا قعد للسماع لبس الرداء وقلنسوة الأغلب واذا شهد الجمعة لبس الساج وقلنسوة الحبر واذا حضر الجنازة لبس الأزرق والقلنسوة الزرقاء .. وكان له برنس أسود يلبسه فى المطر والبرد(٧٤) . كما كان ابن غانم القاضى يلبس لباسا خاصا عندما **يجلس للفصل** بين النساء فهو يلبس من الثياب ارفعها ويجعل لخصومات النساء يوما يجلس فيه للنظر بينهن فيلبس يومئذ الفرو الخشن وخلق الثياب(٧٥) وفى ذلك ما يوضح ادراكهم لأثر الثياب فى الحياة الاجتماعية .

اما المرأة فكانت تلبس رداء قطن أو حرير حسب رتبتها وتلبس فوقه غلالة تشدها بمئزر كما تتزيى بالحلى المختلفة من اساور مرصعة وخلاخيل منقوشة ومعصفرات الى غير ذلك فاذا ما خرجت لبست الرداء وضربت على وجهها المعجز وتلبس برجليها خفا لطيفا وللنساء فى كل زمان ومكان تنوع فى لباسهن حسب ما يجد من أزياء . واذا كان المؤرخون قد حفظوا لنا أزياء مختلفة للرجال فلا شك ان القيروان كانت تزخر بأزياء أكثر بالنسبة للنساء . وقد شاهدت فى متحف باردو بتونس العاصمة ثوبا للمرأة يسمى « قمجة » يلبس فى اليوم السابع من حفلة الزفاف كما يوجد فى المتحف منزل يسمى منزل تميم .

٤ ـ الطعـــام :

عندما اقام العرب فى القيروان كانوا يتناولون طعامهم المعروف بالثريد والعصيد والبسيس ثم اقتبسوا من البربر المقيمين معهم «الكسكسى» وهو الطعام الأساسى فى أكل البربر وبازدهار الحضـارة فى القيروان وتعمق التجارب بين سكانها تنوعت الأطعمة وتحددت فصاروا يطبخون

---

(٧٤) المدارك للقاضى عياض ج ٢ ص ٥٩٣ ، ٥٩٤ .

(٧٥) المرجع السابق ج ١ ص ٣١٩ .

من المرق منهـا « الكوكبية » ويدخل فيها السـلق والحمص واللحم « النسابورية » و « الفستقية » وهما يصنعان باللحم والبقول و « الكنافة » ويتبل اللحم فيها بكيفية مخصوصة وينضج على البخار • ثم « الشرائح » وهو نوع من اللحم يطبخ شرائح ويؤكل بالخبز الرقاق(٧٦) •

ويبدو انهم كانوا يتناولون كثيرا من اللحم فالبكرى يذكر أنه فى بعض ايام عاشوراء ذبح فى القيروان تسعمائة راس من البقر غير ما ذبح من أنواع الحيوانات الأخرى(٧٧) • وبجانب هـذه الأنواع الرئيسية فى الطعام كان يوجد بجوارها أصناف مختلفة من الحلو (كالأسفنج) وكان يباع فى الأسواق و (الزلابية) و (الكعك) و (الغسانية) وهى نوع من الحلوى يصنع من سمن وعسل وزعفران و (السمسمية) و (الملبس) وانواع المربات والبسكوت الملبس بالسكر والمزخرف بالترفيم والتخريم كما كان يربب أهل القيروان السمسم بالياسمين وبالورد والبنفسج(٧٨) • ولا شك أن موائد الحكام والسراة كانت تزخر بهذه الأصناف وبغيرها من انواع الأطعمة المختلفة •

٥ ـ المواكب :

أورد لنا الرقيق وصفا للموكب الذى استقبلت به القيروان الفضل ابن روح بن حاتم سنة سبع وسبعين ومائة عندما قدم واليا عليها من قبل الرشيد وكيف اقيمت السرادقات وزينت الشوارع وعلقت فيها الاعلانات وهو يوضح لنا مظهر المواكب فى القيروان فقد نصبت له القباب من مسجد ام الأمير الى دار الامارة فى رحبة التمر فزعموا أن قسطاس النصوانى نصب له قرية ريحان فى طريقه وعليها طومار قد كتب فيه بخط غليظ « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

---

(٧٦) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٥ •

(٧٧) البكرى المغرب ص ٢٦ •

(٧٨) انظر البكرى المغرب ص ٣٢ ، الحضارة العربية للكعاك ص ٨٥ ، بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٥ •

وما تأخر » فنظر اليه الفضل فقال من فعل هـذا قالوا : قسطاس قال احسن والله النصرانى فلما انتهى الى مسجد أبى نظر الى زير زجاج معلق وفيه ماء وفى المـاء حيتان تعوم فقال : من فعل هـذا فقالوا قسطاس فقال : أحسن والله(٧٩) .

كما خصصت بعض المصليات ذات المساحة الواسعة المربعة المحاطة بجدار قصير رفيع من غير سقف لأجل الاجتماعات العـامة كصلاة العيدين والاحتفال بالمواسم وبيعة الأمراء وغير ذلك من المواكب التى تحتاج الى مساحات متسعة لاستيعاب أفراد الشعب المشاركين فى الموكب واشـهر هذه المصليات (مصلى باب نافع) و (مصلى باب سلم)(٨٠) .

٦ ـ الهبات والثروة والترف :

رغم عدم كثرة الأموال نوعا ما فى فترة حكم الولاة الا ان المؤرخين رووا لنا بعض الهبات والأموال التى كانت تدفع لمن يقصد الحكام والأموال التى كانت تباح لسـكان القيروان . فهذا يزيد بن حاتم يقصده ربيعة بن ثابت الرقى فى القيروان طالبا منه مساعدته على سداد ديات وجبت على قومه فاعطاه عشر ديات ووصله وأحسن اليه احسانا عظيما(٨١) .

ويعطى أبا اليعاقيب خمسمائة دينار لأنه يحفظ قصيدة قيلت فى مدحه ، كما يبيح مزارعه لأهل القيروان لياكلوا ويتنزهوا فيها ويأمر بذبح قطيع الغنم التى يملكها ابنه لتكون مباحة للناس(٨٢) .

كما يذكر ابن عذارى ان الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب عندما تولى الحكم أمن الناس وأحسن اليهم والى الجند وأجرى على العمال أرزاقا

---

(٧٩) تاريخ افريقية للرقيق ص ١٨٤ .

(٨٠) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ٨ .

(٨١) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ١٥٣ .

(٨٢) الرقيـق تاريخ أفريقيـة والمغـرب ـ انظـر تفصيل ذلك ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

واسعة وصلات جزلة ، وان أحمد بن محمد بن الأغلب كان يركب فى ليالى شعبان ورمضان وبين يديه الشمع فيخرج من القصر القديم ويمشى حتى يدخل من باب أبى الربيع ومعه دواب بالدراهم فكان يعطى الضعفاء والمساكين حتى ينتهى الى المسجد الجامع بالقيروان فيخرج الناس اليه ويدعون له(٨٣) . وفى أيام الفاطميين خلال فترة حكم المعز لدين الله واتساع سلطانه وازدهار الحياة الاقتصادية ونمو الثروة : كان العطاء بكرم وسخاء والانفاق والبذل ، وخير مثال لذلك الاحتفال الذى قام به المعز عند ختان ابنائه سنة ٣٥١ هـ حيث أشرك رعيته معه فى أفراحه ودعاهم الى ختان ابنائهم فى كافة انحاء الدولة وأرسل الهبات والهدايا لتعطى لآباء الصغار المختتنين وقد بلغ ما انفق فى صقلية وحدها غير الكساء نصف مليون دينار ... وكان هناك عند الختان من يقفون بالبخور وماء الورد على رءوسهم يرشونه على وجوههم لما يعتريهم من الروع والسناد بأصناف الملاعب قيام عليهم يلهونهم ويصحبون من طهر منهم يزفونه الى منزله . واستمر الاحتفال شهرا كله أعياد ومسرات وأفراح وهبات بكل وجه وفى كل جهة من بدو وحضر وعم فضله الأغنياء والفقراء ودخلت المسرة على أهل كل بيت وكان أثره جميلا لم يسبقه اليه أحد قبله . وبلغ من عناية المعز لدين الله برعيته وخاصة أنصاره انه كان يقدم الأموال الكثيرة اليهم ويشفق على فقرائهم ويساعدهم على تزويج ابنائهم بل فى كثير من الأحيان كان يبنى البيوت للفقراء منهم(٨٤) . كما كانت قصور المعز آية فى الروعة والفخامة حتى ان سفير الروم بهت حين زاره فى المنصورية ونطق حين رآه جالسا فوق عرشه بقوله : « دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقا »(٨٥) .

---

(٨٣) البيان المغرب ص ١٠٧ ، ١١٢ .

(٨٤) انظر المعز لدين الله لحسن ابراهيم طه شرف ص ٢٧٣ ـ ٢٧٦ .

(٨٥) المرجع السابق ص ٢٨٠ وابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ٢٣٩ .

وذلك يصور لنا مقدار الثراء الواسع والدخل الكبير الذى كان يصل للدولة فيكون له تأثيره العميق فى الحياة الاجتماعية ·

٧ ـ مظاهر التسلية والملاهى :

مع مرور الزمن وتحول القيروان الى مدينة فيها العمال الكادحون فى الزراعة والصناعة وفيها التجارة والاداريون والمثقفون والأثرياء وجد فى المدينة وسائل للتسلية فى أيام تعطل فيها الأعمال أو فى أيام الأفراح والأعياد ومع ذلك كانت القيروان حريصة على أن تكون وسائل التسلية فيها مما يبيحه الشرع الحنيف فكانت هناك ألعاب الفروسية مثل لعبة : الصولجان أو لعبة الكرة على الخيول ثم المبارزة على الخيول بين رجلين وتولد عن ذلك الصيد على الخيول بالبازى او بالسلوقى ·

كما كان هناك من ألعاب الفروسية ما يسمى ملعب وهو ان يؤتى بطبال وصاحب ناى فينشأ عن ذلك توقيع خاص فترقص عليها الخيول اهتزازا وايقاعا وتحريكا للاعناق ثم تجرى فى سباق وهجمة يسمى « المشاف » ويرقص أصحابه فوق ظهور الخيل وقوفا وجلوسا وامتدادا على أجنابها واختفاء تحت بطونها وهذه الألعاب متولدة من الجيش القيسى الذى نظمه الأغالبة بمدينة بلزمة غرب تونس لحماية القيروان من هجمات الخوارج وكان جيشا مؤلفا من ألف فارس منتخبين يلبسون قبعات من ريش النعام الأسود يسمى العروج(٨٦) ومنها اللعب بالحراب وسباق الخيل فى ملاعب خارج القيروان ولعب الشطرنج أو الفرند ومع تحفظ القيروان لم يمنع ذلك من ان يكون هناك ربض البقرية فى طرف القيروان الذى يجمع الشبان أصحاب الخلاعة يطربون بسماع آلات الطرب ورقص الغانيات(٨٧) ويذكر بن عذارى : ان احد امراء بنى الأغلب أغرم بصيد الغرانيق حتى لقب بأبى الغرانيق وبنى قصرا يخرج اليه

---

(٨٦) انظر الحضارة العربية للكعاك ص ٨٠ ـ ٨٢ ·

(٨٧) بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٣ ·

ليصيدها أنفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب(٨٨) . كما كان هناك مركب يسمى بالزلاج فى ماجل القيروان يتخذ للتنزه فى القبة المثمنة المبنية فى وسط الماجل الكبير ، وكانت البساتين فى رقادة ذات الهواء العليل والنسيم الرقيق متنزها لطيفا لأهل القيروان(٨٩) .

وفى قصور الأثرياء كان هناك حياة خاصة حيث يوجد الغلمان والجوارى من موالى البيزنطيين وأسرى الحرب من صقلية وجوارى جلبهن التجار من المشرق ومن بلدان افريقية المختلفة حيث كان لذلك بعض الأثر فى نشر اللهو والمجون فى تلك القصور(٩٠) بل كان من حكام الأقاليم من يحذق الغناء وكان ذلك داعيا الى أن يكون من ندماء الأمير فقد ذكر ابن الأبار ان مجبر بن ابراهيم بن سفيان كان من أهل الشرف والثروة وولاة ابراهيم ابن احمد الاريس وغيرها وكان ينادمه لحذقه الغنـاء(٩١) .

٨ ـ الصحة والنظافة :

من المظـاهر الاجتماعية فى القيروان العناية بالشئون الصحية وبالنظافة فكان هناك عدد من الأطباء كما انشئت المستشفيات فى القيروان وكان أعظمها ما يسمى بالدمنة الذى خصص أيام الأغالبة للمرضى والعجزة وكان قسم منه خاص بالمجزومين ويعرف بدار الجزماء وقسم آخر كان لأمراض العيون حيث كان يعالجهم أطبـاء ماهرون فى مختلف أنواع الأمراض(٩٢) ، وكان هنـاك عناية ملحوظة بالنظافة يدل عليها كثرة مشاريع المياه بالقيروان والحمامات العامة المنتشرة هنا وهناك وقد وجد الصابون بالقيروان منذ العهد الفاطمى وهو قوام الحضارة الصحية ودليل

---

(٨٩) المغرب للبكرى ص ٢٦ .

(٩٠) انظر القيروان عبر عصور ازدهارها . للجنحانى ص ١٥٠ .

(٩١) الحلة السيراء ج ١ ص ١٨٥ .

(٩٢) انظر بساط العقيق لحسن حسنى ص ١٠ والقزاز القيروانى للمنجى الكعبى ص ١٩ .

الرقى السلوكى فى نظافة البدن والثوب والمنزل والماعون حيث تقاس حضارة المجتمع بمدى استهلاكه من المياه والصابون كما كانت شوارع القيروان تتسم بالاتساع والجمال وكان تنظيم اماكن الأسواق والصناعات والتجارات مما ساعد على نظافة المدينة وادى الى التقدم الصحى للسكان[٩٣] .

٩ ـ الأمن والروح العسكرية :

لا شك ان اتساع المدينة وكثرة سبل الحياة فيها وتنوع سكانها واختلاف النشاطات فيها جعلها عرضة لحدوث بعض المخالفات سواء بين سكانها أو بينهم وبين القادمين اليهم من الاقاليم بقصد التجارة والتسوق او العمل ولذلك كان هناك حراس للطرق يحفظون الأمن وينشرون السلام ويقبضون على من يحاول العبث بالامن أو الاعتداء على السكان أو ممتلكاتهم كما كان هناك من هم مكلفون بمنع الغش والاحتكار أو التلاعب بالأسعار فى أسواق التجارة أو من يعطل الطرق أو يقسوا فى معاملة الحيوان[٩٤] وكان للمدينة أربعة محارس خارجها وثلاثة داخلها علاوة على السور الذى يحيط بها وكل ذلك مما يساعد على نشر الأمن والاطمئنان بين السكان[٩٥] .

ومع ان القيروان انشئت أصلا لتكون مركزا عسكريا للمسلمين الا ان مرور الزمن واستقرار المسلمين وازدهار الحضارة فيها جعل الصبغة المدنية تتغلب على الصبغة العسكرية وادت الى ضعفها او تغلب الروح المدنية عليها . ولذلك عندما قامت الدولة الفاطمية فرض عبيد الله المهدى الخدمة العسكرية الاجبارية على كل من دخلوا فى مذهبه الشيعى

---

(٩٣) انظر البكرى المغرب ص ٢٦ ، الحضارة العربية للكعاك ص ٨٥ ، القيروان عبر عصور الازدهار للجنحانى ص ١٢٤ .

(٩٤) انظر تاريخ المغرب لدبوز جـ ٢ ص ١١٣ ، بساط العقيق لحسن حسنى ص ٢٣ .

(٩٥) المغرب للبكرى ص ٢٤ .

وكان ذلك ايذانا بنهضة الروح العسكرية من جديد(٩٦) وفى ايام المعز عمل على أن يكون مجتمعه وحدة قوية لا تفكك فيه خلقيا وعسكريا فكان يقول لرعيته أريد منكم ثلاثا واكره لكم ثلاثا اريد منكم الصدق واكره لكم الكذب واريد منكم العفا فواكره لكم الخيانة واريد منكم التواضع واكره لكم الكبر وهذا أخوف ما اتخوفه عليكم(٩٧) .

وبمثل هذه الروح القوية توطدت العلاقة بين الحاكم والمحكوم وشاع الأمن وظهرت الروح العسكرية وصارت الأمة قوية بحيث تمكنت من تحقيق سلامتها وأمنها ونشر سلطانها على الشمال الافريقى كله وجزر البحر المتوسط ثم التمكن بعد ذلك من فتح مصر وبسط النفوذ الفاطمى فيها .

* * *

---

(٩٦) أرض البطولة للجزايرلى ص ٢٠٨ .

(٩٧) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ٢٢ ، ٢٣ .

الفصل الخامس

بداية الحياة الفكرية فى القيروان

تمهيـــــد :

بعد هـذا العرض للحياة السياسية والاقتصـادية والاجتماعية فى القيروان والتى لمسنا مظاهرها واضحة جلية بما يساعدنا على معرفة الاطار العام للحياة فى القيروان من هـذه الجوانب ٠ نصل الى لب بحثنا وهو الحياة الفكرية فى القيروان ٠

١ ـ فكيف بدات ؟

٢ ـ ثم كيف نمت وتشعبت وازدهرت ؟

٣ ـ وما هى مراكـز الفكر التى اتصلت بهـا أو المواطن التى امتدت اليها ؟

٤ ـ ثم ما هى المظاهر التى تتسم بها مع بيان مدى التاثر بغيرهـا وتأثيرها فيـه ؟

٥ ـ وأخيرا ما هو الرأى الذى يستخلص من عرضنا للحياة الفكرية فى القيروان ؟

وتسهيلا لملاحظة النمو الفكرى جعل البحث دور بدء الحياة الفكرية يبتدىء من تاسيس القيروان ويمتـد الى نهـاية عصر الولاة ، ودور الازدهار ٠ يبتدىء بقيام الدولة الأغلبية ويمتد الى رحيل الفاطميين الى مصر وذلك لسـهولة التقسيم والربط بين الحياة السياسية والحياة الفكرية ، وان كانت الحياة الفكرية ليست نظما سياسية أو أسرا تقوم أو تختفى وانما هى عملية تربوية تعليمية فكرية ترتبط بحياة العلماء والمفكرين الذين يقضون حياتهم فى محراب الفكر الى أن تنمو البذور وتستوى قائمة فتمتد فروعها وتتشابك اغصانها وتتفتح أزهارها فتملأ الجو بالأريج والشذا بما يعود على الحياة عموما بالتقدم والازدهار ٠

١ ـ العلوم الشرعية : تعليم القرآن ، الحديث ، الفقه ، التفسير :

ابتدات الحياة الفكرية فى القيروان بالعلوم الدينية وعلى قمتها تعليم القرآن والحديث ثم الفقه والتفسير التى قدم بها صحابة رسول الله

ﷺ وتابعوهم . وقد ذكر مؤرخو الطبقات ان افريقية قد دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيا من صحابة رسول الله خلال فترة فتحهم لافريقية منهم من شهد العقبة ومنهم من شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ومنهم من شهد بيعة الرضوان وصلى الى القبلتين . وان بعضهم مكث فى افريقية وبعضهم عاد بعد انتهاء الغزوة التى قدم فيها ، كما يذكرون ان عقبة بن نافع كان معه عندما عاد للمرة الثانية خمسة وعشرون صحابيا وانه جمع وجوه اصحابه وكبراء العسكر فدار معهم حول القيروان وهو يدعو لها ويقول « اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض »[١] .

أسماء الصحابة وبعض التابعين الذين دخلوا القيروان :

وان بحثنا ليشرف بذكر اسماء هؤلاء الصحابة الذين حملوا راية الجهاد وراية الفكر وكان لهم الأثر الكبير فى تاسيس القيروان المركز الفكرى للاسلام وما منهم صحابى الا وقد روى له الدباغ حديثا عن رسول الله وهذا يدل على أن كلا منهم كان له اثر فى وضع بذور الحركة الفكرية فى القيروان وهم : ابو سعيد المقداد بن عمر البهرانى القضاعى ، وابو اليسر كعب بن عمر الأنصارى ، وعبد الله بن أنيس الجهنى حليف الأنصارى ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبو ذر الغفارى وابو عبد الله عمرو بن عوف المزنى ، وسلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى . وأبو زمعة عبيد بن أرقم البلوى[٢] .

---

(١) انظر ابو العرب طبقات علماء افريقية ص ٥٦ ، رياض النفوس للمالكى ص ٦ . ويذكر ابن عذارى ان عدد الصحابة كان ثمانية عشر جـ ١ ص ٢٠ الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ١٦٠ .

(٢) يذكر الدباغ فى معالم الايمان جـ ١ ص ٩٨ انه مات بالقيروان ودفن بها بالبقعة التى تعرف الآن بالبلوية ودفن معه قلنسوته وفيها من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد زرت ضريحه العظيم فى القيروان .

وابو سعيد المسيب بن حزن بن ابى وهب المخزومى ، وابو عبد الرحمن جرهد بن خويلد الاسلمى ، وابو محمد فضالة بن عبيد الأنصارى الأوسى ، وابو العباس عبد الله بن عباس بن عتد المطلب بن هاشم ، وابو بكر عبد الله بن الزبير بن العوام ، وعبد الله بن عمرو بن العاص القرشى السهمى وعقبة بن عامر الجهنى ورويفع بن ثابت بن سكن بن عدى بن النجار الأنصارى وحمزة بن عمرو الأسلمى وابو عبد الله عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق وابو عبد الرحمن بلال بن الحارث المزنى وابو عبد الرحمن المسور بن مخزمة بن نوفل القرشى الزهرى(٣) وجبلة بن عمرو الأنصارى الساعدى وابو يحيى عبد الله بن ابى سرح القرشى العامرى ومعاوية بن حديج ، والمطلب بن ابى وداعة السهمى ، وربيعة بن عباد الدؤلى ، وزياد بن حارث الصدائى(٤) وابو اليمن سفيان بن وهب الخولانى(٥) وابيض بن حمال السبائى المأربى وابو اليقظان(٦) وابو عبد الرحمن يسر بن ارطاة العامرى(٧) .

ويذكر الدباغ بعد ذلك اثنى عشر صحابيا نزولوا افريقية ويصفهم

---

(٣) يذكر المالكى فى الرياض ص ٤٦ انه الذى حرض عثمان على غزو افريقية .

(٤) انفرد أهل افريقية بحديثه المرجع السابق ص ٥٦ .

(٥) قال الدباغ جـ ١ ص ١٥١ : روى غياث بن ابى شبيب قال كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن فى الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه ذكر ذلك الدارقطنى .

(٦) كنى بأبى اليقظان جماعة من الصحابة منهم عمار بن ياسر ولا يعلم ايهم دخل افريقية مغالم الدباغ جـ ١ ص ١٥٦ .

(٧) انظر الدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ٧١ - ١٥٧ ، رياض النفوس المالكى ص ٤١ - ٦٢ ، طبقات علماء افريقية لأبى العرب تميم ص ٧٣ - ٧٨ فقد ترجم لهؤلاء الصحابة فى هذه المراجع وذكر الدباغ حديثا أو اكثر لكل واحد منهم .

بأنهم من صغار الصحابة[8] وهم : عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث القرشى وأبو عمر عاصم بن عمربن الخطاب وعقبةبن نافع بن عبد القيس[9] وعبيد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وعبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ومعبد بن العباس ابن عبد المطلب وعبد الرحمن بن صبيحة الليثى ومروان بن الحكم بن أبى العاص القرشى الأموى ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلى الشاعر ، وأبو منصور الفارسى مولى سعد بن أبى وقاص وكان فقيها قارئا للقرآن ومفتيا متفننا فى العلم سكن القيروان الى أن مات بها[10] ـ وأبو سعيد كيسان المقبرى وولى بنى ليث وسكن القيروان ايضا وروى عنه اهلها وادخله ابن وهب فى موطئه[11] .

وممن تولى غرس بذور الحياة الفكرية عدا كبار الصحابة وصغارهم التابعون للصحابة ومنهم : ابو عبد الله محمد بن أوس الأنصارى الذى اشتهر بالفقه والصلاح مع احاطته بالرواية والدراية[12] وحنش بن عبد الله الصنعانى الذى سكن القيروان واختط بها دارا ومسجدا وروى عن عدد من الصحابة منهم على بن أبى طالب وابن عباس وروى عنه عبد الرحمن بن أنعم وقيس بن الحجاج[13] .

---

(٨) وذلك لأنهم ولدوا على عهد رسول الله ولم يروه أو لم يسمعوا منه وبعضهم كان مسلما فى حياته انظر الدباغ جـ ١ ص ١٦١ .

(٩) وهو الذى اختط القيروان والجامع الأعظم ودار الامارة المرجع السابق ص ١٦٦ .

(١٠) انظر المرجع السابق ص ١٧٧ ، المالكى الرياض ص ٨٥ ، أبو العرب طبقات افريقية ص ٨٣ .

(١١) انظر الرياض للمالكى ص ٨٠ .

(١٢) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٨٠ ، والدباغ الايمان جـ ١ ص ١٨٩ .

(١١) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٨٣ ، والدباغ الايمان جـ ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

ومنهم على بن رباح اللخمى محدث قدم افريقية مجاهدا فى سبيل الله وكان عند أهل افريقية من حديثه ما ليس عند المصريين وقد سكن القيروان واختط بها دارا ومسجدا وتفقه أهل القيروان على يديه وكان حسن الموعظة روى عنه عمرو بن العاص وابنه عبد الله وعائشة أم المؤمنين وروى له مسلم فى صحيحه وروى عنه ابنه موسى والحارث بن يزيد(١٤) ٠

وأبو أيوب سليمان بن يسار محدث المدينة وفقيهها الكبير يقال له الافريقى والمدنى قدم افريقية غازيا واقام بها وكانت له بها آثار مشهورة ومقامات مذكورة تم رجع الى المدينة فاقام بها حتى توفى سنة ٩٤ هـ روى عن ابن عمر وابن عباس وأبى هريرة وغيرهم وروى عنه ابن شهاب وهو احد الفقهاء السبعة(١٥) ٠

وأبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس وقد قيل ان أصله من بربر افريقية وكان كثير الرواية عن مولاه وعليه معتمده ، روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبى هريرة وروى عنه خلق كثير وأدخله مالك فى موطئة وقد وثقه بعضهم وضعفه آخرون ولكنهم اتفقوا جميعا على حفظه ومعرفته بالعلم وتفسير القرآن الكريم وقد دخل افريقية واقام بالقيروان حيث كان يجلس فى مؤخر المسجد غربى المنارة ليعلم سكان القيروان فبث فيها علما كثيرا وخاصة تفسير القرآن الكريم الذى تلقــاه عن مولاه عبد الله بن عباس(١٦) ٠

هؤلاء بعض التابعين الذين دخلوا القيروان واقاموا فيهــا مددا مختلفة وعلموا خلالها أهل القيروان كتاب الله وسنة رسـوله وما يعلمونه

---

(١٤) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٨٢ ، والدباغ معالم الايمان جـ ١ ص ١٩٩ ـ ٢٠١ ، الرياض للمالكى ص ٧٧ ٠

(١٥) انظر أبو العرب طبقات علماء افريقية ص ٨٢ والرياض ص ٩٤ ٠

(١٦) أبو العرب طبقات ص ٨٢ ، ٨٣ ، المالكى رياض ص ٩٤ ، الورقات لحسن حسنى ص ١٠٦ ٠

من فقه فى الدين أو تفسير لكتاب الله الكريم ، كما كانت أخلاقهم وسيرتهم وحياتهم اسوة كريمة يقتدى بها سكان القيروان ويقترفوا من معينها ٠

فمن اولئك الصحابة وهؤلاء التابعين وغيرهم تلقى ناشئة العرب المولدون وابنـاء الأفارقة والبربر الذين شرح الله صـدورهم للاسـلام والقرآن الكريم والسنة النبوية والتعاليم الدينية والتمسك بالحق والجهر به ٠

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وجه عناية خاصـة الى المركز الاســلامى فى غرب الدولة الاسلامية فاختار عشرة من فقهـاء التابعين أهل فضل وعلم والقى على عاتقهم مهمة القيام بنشر التعاليم الدينية وتثقيف المسلمين فى افريقية فقدمت بعثة الفقهاء الى القيروان واستقرت فيها وكان لكل واحد منهم جهود موفقة ذات أثر عميق فـى تثقيف المسـلمين كانت مقدمات لبزوغ فجر الحركة الفكرية فى العلوم الدينية فى مدينة القيروان ٠

وما من شك فى ان هـؤلاء القادمين من المشرق والذين قطعوا مسافات شاسعة كانوا يتنقلون فى أنحاء المغرب لنشر التعاليم الاسلامية الا ان المقر الرئيسى لهم كان فى مدينة القيروان حيث بنى كل منهم دارا ومسجدا وكتابا او مدرسة صـغيرة ففى الكتاب يكون تعليم الصـغار للقرآن فاذا ما نموا وكبروا كان حضورهم لحلقة العلم فى المسجد حيث يتلقون الحديث والأحكام الفقهية والتفسير وسيرة الرسول وغزواته(١٧) .

وهؤلاء الفقهاء العشرة أعضاء البعثة التعليمية الى القيروان هم :

١ ــ أسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى :

وهو رئيس بعثة الفقهاء ولاه عمر بن عبد العزيز على افريقية سنة تسع وتسعين هجرية فحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله وفقههم فى الدين وعلمهم السنن وسار بينهم بالحق والعدل مما حمل كثيرا من البربر

(١٧) انظر طبقات علماء افريقية لأبى العرب ص ٨٤ ، ورياض النفوس ص ٦٥ ، ومعالم الايمان ص ١٨٧ ، والورقات لحسن حسنى ص ٨٧ ، والامام المـازرى لحسن حسنى ص ١١ ٠

على اعتناق الاسلام وكان مثالا طيبا للزهد والتواضع والتقشف ودعـوة البربر الى الاسلام وقارنه معن التنوخى فى الزهد بعمر بن عبد العزيز ٠

روى عن عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وعن غيرهما من التابعين وروى عنـه الأوزاعى بالمشرق وعبـد الرحمن بن زياد وغيره بالقيروان الى ان توفى بها سنة ١٣٢ هـ(١٨) ٠

٢ ـ اسماعيل بن عبيد الأنصارى : تاجر الله :

تلقى علمه ومعرفته وفقهه فى الدين عن جمع من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو عبد الله بن عمرو بن العاص كما روى عنه من أهل افريقية عبد الرحمن بن زيادة بن انعم وبكر بن سوادة الجذامى وكان معروفا بالفضل والعبادة والنسك والزهد والتقشف وسمى تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه فى وجوه الخير واليه تنسب السوق المعروفه ،، بسوق اسماعيل وهو الذى بنى المسـجد الكبير بالقيروان وهو احد المساجد السبعة المشهورة بالقيروان الذى يعرف الآن بمسجد الزيتونة وكان يعمره بالنعليم والعبادة وكان أهل القيروان يجمعون فيه اذا كان بجامع عقبة فى القيروان ترميم وانتقال الجماعة اليه عند توقفها فى المسـجد الأعظم جامع عقبة دليل على ان مسـجده يعتبر المسـجد الثانى بالقيروان وقد انتفع بعلمه وخلقه سكان القيروان وغيرهم ٠ ومع قيامه بالتعليم ونشر الاسلام وتعاليمه وضربه المثل فى حب العمل بالاشتغال بالتجـارة فقد خرج متطوعا بالجهاد فى غزوة عطاء بن رافع الى صقلية فغرق فى البحر فمات وهو معانق للمصحف سنة ١٠٧ هـ(١٩) ٠

---

(١٨) انظر أبو العرب طبقات ص ٨٤ ، المـالكى رياض ص ٧٥ ، ٧٦ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ وذكر وفاته سنة ١٢٣ هـ ، الامام المـازرى لحسن حسنى ص ١١ ٠

(١٩) أبو العرب طبقات ص ٨٥ ، المـالكى رياض ص ٦٩ ـ ٧٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٨ ، ١٩١ ـ ١٩٥ ، حسن حسنى الامام المـازرى ص ١١ ، ١٢ ٠

٣ ـ عبد الله بن يزيد المعافرى المعروف بالحبلى :

روى عن جماعة من الصحابة منهم ابو أيوب الأنصارى وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعقبة بن عمار الجهنى وغيرهم كما روى عنه جماعة منهم يزيد بن عمرو وابو هانى الخولانى وعامر بن يحيى المعافرى وأدخله المصنفون فى كتبهم وكان لجهوده العلمية أثر كبير فى نشر الدعوة الاسلامية وانتفع به كثير من اهل القيروان فى التفقه فى الدين وكان له طريقة خاصة فى الوعظ وذلك بضرب الأمثال التى تقرب المعانى الى الأذهان وتضفى صورة مجسمة محسوسة لها أثرها القوى فى التاثير مما يؤدى الى تحقيق الهدف الذى يسعى اليه ٠

وقد اشترك فى الجهود العسكرية لفتح افريقية وشهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير واستوطن القيروان واختط بها دارا ومسجدا وكتابا فى ناحيـة باب تونس وتوفى رحمـه الله بعد هـذه الجهود العلمية والعسكرية بالقيروان سنة مائة هجرية ودفن بباب تونس[٢٠] ٠

٤ ـ أبو مسعود سعيد بن سعد التجيبى الكندى :

صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم منهم أبو الدرداء وغيره وقد روى عنه جماعة منهم عبد الرحمن بن زيادة بن انعم وعبيد الله بن زحر وأدخله عبد الله بن وهب فى جامعه ٠ اشتهر بالدين والعقل وقلة الهيبة للملوك لا تأخذه فى الله لومة لائم وله كلمات ماثورة وحكم بالغة ذات تأثير قوى وأثر فعال فى تلاميذه ومريديه ٠ سئل عن علامة الحكيم فقال « من كان مصيبا فى قوله حليما فى غضبه ذا عفو فى قدرته راض فى منزلته غير مفتون بما ليس له قد استغنى بأمر آخرته عن دنياه » وقد سكن القيروان وبث فيها علما كثيرا واشترك مع غيره من الفقهـاء

---

(٢٠) ابو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكى رياض ص ٦٤ ـ ٦٦ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ١٨٠ ـ ١٨٣ ، حسن حسنى الامام المـازرى ص ١١ ، ١٢ ٠

فى معاونة حنظلة بن صفوان والى القيروان فى مقاومة الخوارج وقد أورد المالكى له كتابا كتبه فقهاء البعثة ليرسله الى الخوارج وهو يبين نظرتهم الى الكتاب والسنة وفيه « اما بعد فان أهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ قالوا : انه يرجع جميع ما انزل الله عز وجل الى عشر آيات : آمرة وزاجرة ومبشرة ومنذرة ومخبرة ومحكمة ومتشبهة وحلال وحرام وأمثال . فآمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر ومبشرة بالجنة ومنذرة بالنار ومخبرة بخبر الأولين والآخرين ومحكمة يعمل بها ومتشابهة يؤمن بها وحلال أمر أن يؤتى به وحرام أمر أن يجتنب وأمثال واعظة فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وانذرته المنذرة ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فلح وانجح وحيا حياة الدنيا والآخرة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وقد توفى بالقيروان ودفن بها(٢١) .

٥ ـ عبد الرحمن بن رافع التنوخى :

كان من التابعين الفضلاء يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وجماعة من الصحابة . روى عنه عبد الرحمن بن زياد وغيره وقد ولاه القضاء بالقيروان موسى بن نصير وهو أول من تولى القضاء بها وكان عادلا فى أحكامه ثقة فى نفسه ولا شك ان ذلك مكنه من نشر كثير من العلم لا سيما وهو راوى حديث تفضيل العلم والتعلم على العبادة فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « ان رسول الله ﷺ مر بمجلس فى مسجده يدعون الله ويرغبون اليه وبقوم يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال كلا المجلسين على خير واحدهما أفضل من صاحبه اما هؤلاء فيدعون الله عز وجل ويرغبون اليه ان شاء أعطاهم وان شاء منعهم واما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم أفضل وانما بعثت معلما فجلس فيهم » .

---

(٢١) أبو العرب طبقات ص ٨٧ ، المالكى رياض ص ٦٦ ــ ٦٨ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٨٤ ــ ١٨٧ .

وقد توفى بالقيروان سنة ثلاث عشرة ومائة[٢٢] .

٦ ـ موهب بن حى المعافرى :

صحب ابن عباس وروى عنه وعن غيره من الصحابة وهو تابعى من أهل الفضل والدين روى عنه عبد الرحمن بن أنعم وعياش بن عباس القتبانى وقد اشترك فى غزو المغرب ثم سكن القيروان لنشر العلم والتعليم الى أن ادركته الوفاة فيهـا[٢٣] .

٧ ـ حيان(٢٤) بن أبى جبلة القرشى مولى بنى عبد الدار :

تلقى العلم على جماعة من الصحابة منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله وعبد الله بن عباس . وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن انعم وأبو شيبة عبد الرحمن بن يحيى الصدائى وعبيد الله بن زحر وهو من أهل الفقه والدين . وقد سكن القيروان وقام بالواجب عليه نحو نشر العلم والمعرفة فانتفع به اهل القيروان فى هذا المجال وتوفى بالقيروان سـنة خمسة وعشرين ومائة[٢٥] .

٨ ـ طلق بن جابان(٢٦) الفارسى :

تابعى فقيه عالم كان يفقه المصريين ثم وجهه عمر بن عبد العزيز لتفقيه اهل القيروان ولم يذكر أحد ممن رجعت اليهم عمن روى من

---

(٢٢) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المـالكى رياض ص ٧٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ١٩٨ .

(٢٣) أبو العرب طبقات ص ٨٤ ، المـالكى رياض ص ٧٣ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢٤) ورد فى رياض النفوس (حيان) وحيان فى أبى العرب طبقات ص ٨٤ ، والدباغ معالم جـ ١ ص ٢٠٩ .

(٢٥) أبو العرب طبقات ص ٨٤ ، المـالكى رياض ص ٧٣ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٠٩ .

(٢٦) أبو العرب طبقات يذكره حابان بحاء مهملة .

الصحابة وقد روى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وموسى بن على ومن أهل مصر يزيد بن أيوب ولم يذكر أحد تاريخ وفاته[٢٧] .

٩ ـ **بكر بن سوادة الجذامى :**

من فقهاء التابعين روى عن جماعة من الصحابة منهم عقبة بن عامر وسهل بن سعد الساعدى وسفيان بن وهب الخولانى وأبو ثور الفهمى كما روى عن بعض التابعين منهم سعيد بن المسيب ومحمد بن شهاب الزهرى وأبو سلمة بن عبد الرحمن وغيرهم وثقه النسائى واستشهد به البخارى . وكان فقيها مفتيا سكن القيروان ونشر فيها العلم الذى تلقاه عن الصحابة وكبار التابعين عندما أرسله عمر بن عبد العزيز الى القيروان معلما وتوفى بها سنة ثمان وعشرين ومائة وقيل انه غرق فى مجاز الأندلس[٢٨] .

١٠ ـ **أبو سعيد جعثل بن هامان بن عمير الرعينى :**

من فقهاء التابعين يروى عن أبى تميم عبد الله بن مالك الجيشانى ولم يذكر المؤرخون عمن روى من الصحابة وقد روى عنه بكر بن سوادة وابن زحر وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم وأدخله النسائى فى مسنده . وقد أرسله عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل الفيروان وهو أحد القراء الذين كانوا يعلمون أهل القيروان . وفى أيام هشام بن عبد الملك ولاه القضاء بين الجند ليقضى فيما يحدث بينهم من المشاكل والأقضية ومن هنا نرى النشاطات التى قام بها فى القيروان من تعليم للقرآن والفقه والسنة والقضاء بين الجند .

وتوفى فى خلافة هشام بن عبد الملك حوالى سنة خمس عشرة ومائة هجرية[٢٩] .

---

(٢٧) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكى رياض ص ٧٦ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢١٥ .

(٢٨) أبو العرب طبقات ص ٨٦ ، المالكى رياض ص ٧٤ ، جذوة المقبس الحميدى ص ١٧٩ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢٩) أبو العرب طبقات ص ٢٤٠ ، المالكى رياض ص ٧٥ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ١٠٢ .

واذا تأملنا هذه البعثة العلمية التى أرسلت الى القيروان لنشر العلم والمعرفة فيها نلاحظ انها تألفت من أبناء المهاجرين والأنصار ومن العرب والعجم فقد جمع بينهم صفة الفقه فى الدين والتمسك بتعاليم الاسلام والسهر على نشرها وتعليمها فكانوا الآباء الروحانيين والغارسين الاصلاء للحركة الفكرية فى القيروان كما نلاحظ انهم أرسلوا الى القيروان واستوطنوها واقاموا فيها ولم يعودوا الى ديارهم ثانيا بل ظلوا يوقدون مشاعل الهداية الى ان ادركتهم الوفاة وبوجودهم انتشرت المساجد والمدارس الصغيرة (الكتاب) لتعليم « أبناء المسلمين وشاع تعلم القرآن والحديث والفقه والتفسير واتبع الناس التعاليم والآداب الشرعية وصار الذين يفدون الى القيروان من البربر لقضاء حاجاتهم أو للاتصال برجال الحكم والادارة فيها يعودون وقد تشبعوا بمثل عالية ومعلومات واضحة عن أحكام الاسلام ونظمه وآدابه فيصيرون دعاة لقبائلهم علاوة على المرشدين والمعلمين الذين كانوا يقضون بعض الوقت فى التعلم والدراسة فى القيروان ثم يرجعون الى بلادهم وقبائلهم حيث يتولون تعليم الناس أصول الاسلام ويقومون بوظائف الدين والقضاء(٣٠) ٠

علماء الشريعة من أبناء القيروان :

هذا العدد الكثير من الصحابة الذين آثرت ان أذكر أسماءهم ثم هؤلاء التابعون الذين حملوا حديث رسول الله ﷺ وفقه أصحابه وقد ذكرت منهم خمسة زيادة على بعثة الفقهاء العشرة وغيرهم كثير كانوا مصابيح الظلام فى القيروان والمعلمين الأوائل لنشر علوم الشريعة من تعليم قرآن وحديث وفقه وتفسير وأحكام قضائية ٠ وقد اشرنا الى ان بعضهم كان يتسم بالرواية والدراية مما يدل على وجود جذور الدراية منذ البداية ٠ وقد قاد النور الذى بثه هؤلاء الهداة الاوائل عددا من أبناء القيروان الى الرحلة متوجهين الى المشرق لأجل الاستزادة من علوم الشريعة ثم عادوا ليكونوا الخلفاء لهؤلاء الهداة وسنكتفى بالحديث عن أربعة ممن رحلوا من القيروان الى المشرق ثم عادوا الى القيروان ليكونوا

---

(٣٠) مؤنس فتح العرب للمغرب ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ٠

امتدادا لبعثة الفقهاء خلال فترة حكم الولاة وايذانا ببزوغ فجر ازدهار الحياة الفكرية فى القيروان وهم :

١ ـ عبد الرحمن بن زياد بن انعم المعافرى القاضى :

ولد عبد الرحمن بن زياد ببرقة والجند داخلون الى افريقيه سنة أربع وسبعين من الهجرة وقد بدأ الاسلام يستقر فى القلوب ٠ وتسلم افريقية العنان للمسلمين ويقبل البربر على الاسلام وبذلك نشأ فى عهد خفت فيه حدة الاضطراب وقد تلقى العلم عن التابعين فهو يروى عن جميع أعضاء بعثة الفقهاء الى القيروان وعن غيرهم من التابعين كما يروى عن أبيه زياد بن انعم عن ابى أيوب الأنصارى وبذلك صار من خيرة حملة الحديث ودخل فى زمرة العلماء المتقدمين الموصوفين بالزهد والورع والصلاح وأضاف الى اتقانه للحديث تفننه فى علوم العربية والشعر(٣١) ٠

وقد روى عنه من فضلاء أهل المشرق سفيان الثورى وعبد الله بن لهيعة وعبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك(٣٢) كما سمع منه كبار أصحاب أبى حنيفة(٣٣) ٠ ومن أهل القيروان روى عنه عبد الله بن غانم القاضى ، والبهلول بن راشد ، وعبد الله بن ابى حسان ومعاوية الصمادحى وغيرهم(٣٤) ٠ ويذكر المـالكى انه أثناء وجوده بمكة كان الطلبة يأتون اليه ليسمعوا منه وزاره فى حلقته سفيان الثورى الذى كان يعظمه ويعرف حقه حيث جرت بينهما مواعظ ومذاكرة(٣٥) ٠ ومع اخذ سفيان الثورى عنه وإعظامه له فقد قال عنه انه جاء بستة أحاديث يرفعها الى النبى ﷺ لم اسمع أحدا من أهل العلم يرويها(٣٦) ٠ وذكر الأحاديث مما جعل

---

(٣١) المـالكى رياض ص ٩٦ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٠ ، ابو العرب طبقات ص ٩٩ ، ١٠٣

(٣٢) أبو العرب طبقات ص ٩٩ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٠٣

(٣٣) المـالكى رياض ص ١٠٢ ٠

(٣٤) الدباغ معالم ص ٢٣٠ ٠

(٣٥) المـالكى رياض ص ٩٦ ٠

(٣٦) نفس المرجع ص ٩٧ ٠

العلماء يقومون نقله للأحاديث فقال عنه سحنون بن سعد : عبد الرحمن ثقة وقال أبو عيسى الترمذى هو مقارب الحديث وكان يقوى أمره . وقال أبو عمر بن عبد البر : أهل مصر وافريقية والمغرب يثنون عليه بالفضل والدين والعقل وهم أعلم به من سواهم(٣٧) .

ومع كثرة الرواة عن عبد الرحمن بن زياد فان كثيرا من علمه قد بقى فى مكنون صدره لا ينتشر عنه لعدم وجود من يستخرجه بالسؤال وقد وجد له كما يقول ابو العرب كتابان فقط رواهما عنه عبد الله بن غانم وغيره(٣٨) .

تولية القضاء :

وان مما يدل على صلاحه وتقواه وعلى سعة علمه اجماع أهل القيروان على ولايته لما يعرفونه من دينه وفضله وزهده فكان ذلك مما حمل الخلفاء على اسناد القضاء اليه سواء من الخليفة الأموى أو العباسى ففى ايام بنى امية ولاه القضاء فى القيروان مروان بن محمد المعروف بالجعدى وكتب اليه يقول : « وقد ولاك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين أهل افريقية واسند اليك أمرا عظيما وحملك خطبا جسيما فيه دماء المسلمين وأموالهم واقامة كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ . والذب عن ضعيفهم من قويهم وانصاف مظلومهم من ظالمهم والأخذ من شريفهم بالحق لخاملهم وقد رجاك أمير المؤمنين لذلك لفقهك وعدلك وخيرك وحسبك وعلمك وتجربتك فعليك باتقاء الله عز وجل وحده لا شريك له وايثار الحق على ما سواه . وليكن جميع الناس قويهم وضعيفهم فى الحق عندك سواء »(٣٩) .

واستمر فى القضاء الى زوال ملك بنى امية فتولى بعده ابو كريب

---

(٣٧) الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٥ ومقارب الحديث : أى ان حديثه يقارب حديث غيره من المقبولين .

(٣٨) ابو العرب طبقات ص ١٠٠ ولم يذكر اسم الكتابين .

(٣٩) المالكى رياض ص ١٠١ .

القاضى ـ وعندما ارسل المنصور محمد بن الأشعث لاسترداد القيروان من البربر الصفرية امره بأن يولى عبد الرحمن بن انعم قضاء القيروان فلم يزل قاضيا على القيروان ايام محمد بن الأشعث والأغلب بن سالم وعمر بن حفص وصدرا من امارة يزيد بن حاتم حيث تخلى بنفسه عن القضاء (٤٠) . وكان خلال قضائه يقتفى سيرة أهل العدل ويقيم الكتاب والسنة ولا يحابى صغيرا ولا كبيرا يدل على ذلك ما حدث منه مع يزيد ابن حاتم امير افريقية وكان سببا لاعتزاله القضاء . فقد ذكر الدباغ « ان امرأة كانت تدخل على نساء يزيد بن حاتم وكانت لها خصومة عند القاضى فكتب لها كتاب حكم وختم عليه واعطاها اياه فأخذته ودخلت به دار يزيد فقال لها يزيد : ما هذا ؟ فاعلمته فاخذه وفض خاتمه فصاحت المرأة فقال لها : لا عليك انا ابعثه اليك مختتما فلما بعث اليه قال : لا اختمه حتى تعيد البينة فبعث اليه مرة أخرى فقال : لا افعل فلما ولى رسول يزيد اخذ عبد الرحمن خاتمه فكسره وقال والله لا حكمت بين اثنين ابدا »(٤١) .

وكان لا يقبل من احد صلة ولا هدية ويقول : « اذا رايت الهدية دخلت دار القاضى من باب الدار فاعلم ان الأمانة قد خرجت من كوة داره »(٤٢) .

صراحته مع الخليفة :

وعندما تغلب الخوارج الصفرية على القيروان وقتلوا قاضيها ابا كريب وملكوها أرسل علماء القيروان وفدا منهم الى أبى جعفر المنصور يستغيثون به لاستنقاذ القيروان وكان رئيس الوفد عبد الرحمن بن

---

(٤٠) المالكى رياض ص ١٠٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٤ .
(٤١) الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٤٥ .
(٤٢) الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٤ ، المالكى رياض ص ١٠٠ ، أبو العرب طبقات ص ٩٨ .

زياد وقد استجاب لهم ابو جعفر وارسل معهم جيشا كبيرا بقيادة محمد ابن الأشعث استرجع به القيروان من أيدى الصفرية ·

وقد سال ابو جعفر عبد الرحمن عن حالة الدولة ـ لا سيما وقد كان عبد الرحمن يفد علي هشام بن عبد الملك فى بعض الشئون الخاصة بالقيروان ايام دولة بنى امية ـ قال ابو جعفر لعبد الرحمن كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ قال : رأيت ظلما فاشيا وامرا قبيحا · قال عبد الرحمن فقال ابو جعفر : « لعله فيما بعد من بابى » قال فقلت له: «كلما قربت من بابك استفحل الأمر وغلظ فقال لى : « انت لا تهوى الدخول فى شىء من امرنا[٤٣] ثم قال : كانك كرهت صحبتنا فقال عبد الرحمن ما يدرك المال والشرف الا فى صحبتكم ولكن تركت عجوزا وانى أحب مطالعتها قال اذهب فانا قد اذنا لك ثم ولاه قضاء القيروان[٤٤] · فلما توجه عبد الرحمن الى افريقية كتب الى ولده وخاصته هذه الأبيات :

ذكرت القيروان فهاج شوقى ... واين القيروان من العراق ؟
مسيرة اشهر للعيس نصا ... وللخيل المضمرة العتاق
فابلغ انعما وبنى ابيه ... ومن نرجو لنا وله التلاقى
بأن الله قد خلى سبيلى ... وجد بنا المسير الى مزاق[٤٥]

وان هذه الصراحة مع ابى جعفر تبين لنا تمسكه بالحق وجهره به وانه لم تأخذه فى الله لومة لائم فى الجهر بالحق ولذلك ظل معظما فى صدور الناس رفيع القدر والمنزلة لديهم الى ان ادركته الوفاة فى رمضان سنة احدى وستين ومائة حيث خرجت القيروان لتودع فقيهها وقاضيها والراوى عن تابعيها فى مشهد جليل لتوسده الباب بباب نافع وكان على رأس المشيعين امير القيروان يزيد بن حاتم حيث تمثل ببيت عبيد الأبرص :

(٤٣) أبو العرب طبقات ص ١٠٢ ، المالكى رياض ص ٩٨ ·
(٤٤) الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ·
(٤٥) مزاق / فحص القيروان شهر بذلك لأن السحاب يتمزق فيه ·

يا كعب ما راح من قوم ولا ابتكروا   الا وللموت فى آثارهم حادى[٤٦]

٢ ـ عبد الله بن فروخ الفارسى :

أبوه من خراسان ثم قدم الى المغرب وولد له عبد الله بالأندلس سنة ١١٥ هـ ثم قدم عبد الله الى القيروان واستوطنها وتلقى العلم فيها ، فكان فقيها ورعا فاضلا يتسم بالتواضع وعدم الهيبة للملوك ولا يخشى الا الله سبحانه وتعالى وكان حافظا للحديث والفقه[٤٧] وقد رحل الى المشرق فى طلب العلم فأخذ عن مالك بن انس وسفيان الثورى وزكريا ابن زائدة احد فقهاء التابعين كما حضر على الأعمش (سليمان بن مهران) التابعى وحمل عنه كثيرا من الحديث وقد صحب ابا حنيفة وذاكره وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة يذكر انها عشرة آلاف مسألة . ويروى انه ناظر زفر بن الهذيل فى مجلس أبى حنيفة فازدراه زفر لهيئته الافريقية ولباسه المغربى فلم يزل ابن فروخ يناظره حتى علا زفر وقطعه بالحجة والدليل وقد عاتب أبو حنيفة زفر لازدرائه على ابن فروخ ـ كما اخذ ابن فروخ عن هشام بن حسان الأسدى من كبار محدثى البصرة .

وكان ابن فروخ مع أخذه عن مالك وغيره من كبار علماء الحديث متحرر الفكر يميل الى طريقة أهل النظر والاستدلال فربما مال الى قول أهل العراق اذا تبين له ان الصواب فى قولهم[٤٨] و « عن ابن فروخ وعن تلاميذه انتشرت آراء أهل العراق فى افريقية وكان هو أول من أظهرها بها[٤٩] .

---

(٤٦) المالكى رياض ص ٩٧ ، ١٠٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٤٧) عياض المدارك جـ ٢ ص ٣٤٠ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٨ ، الامام المازرى حسن حسنى ص ٢٢ .

(٤٨) أبو العرب طبقات ص ١٠٧ ، المالكى رياض ص ١١٣ ، ١١٤ ، عياض ،لمدارك ص ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، الدباغ معالم ص ٢٣٩ .

(٤٩) الامام المازرى لحسن حسنى ص ٢٣ .

ويصفه العلماء بأنه ثقة فى حديثه وقد خرج له مسلم فى صحيحه وكان مالك يجله ويوسع له ليجلس الى جواره عندما زاره فى رحلته الثانية للحج ولم ترد مسألة الى مالك وعبد الله حاضر الا قال : أجب يا أبا محمد فيجيب • ثم يقول مالك للسائل هو كما قال لك « ثم يلتفت مالك الى اصحابه فيقول هـذا فقيه أهل المغرب[٥٠] • وقد داوم ابن فروخ على صلته بمالك فكان يرسل اليه الأسئلة فى المسائل التى يختلف فيها مع ابن غانم وقد صوب مالك رأى ابن فروخ[٥١] فى تولى القضـاء • وبعد ان استزاد ابن فروخ من علماء المشرق السـابق ذكرهم عاد الى القيروان وقام بتعليم النـاس العلم وتحديثهم بسنة رسـول الله ﷺ فانتفـع به خلق كثير من أبناء البـلاد وكان النـاس يتبركون بصحبته ويجلسون له على طريقه اذا خرج من بيته فاذا مشى مشى الناس معـه واغتنموا منه دعوة وذكرا وموعظة حتى الجامع حيث يدخلون ليستفيدو منه العلم والمعرفة • وكان لا يتقاضى أجرا على تعليمه فقد كان الى جوار علمه يعمل بالتجارة وبلغ من ورعه انه كان يغلق حانوته عندمـا يأخذ الجند اعطياتهم حتى يذهب ما فى أيديهم[٥٢] • ولم يكن تعظيم الناس له قاصرا على تلاميذه بل كان زملاؤه من العلماء يعظمونه أيضا « فقد كان البهلول بن راشد يعظم عبد الله بن فروخ ويكبر قدره ويقلده فى بعض ما ينزل به من أمور الديانة »[٥٣] ولم يكن عظم قدر ابن فروخ قاصرا على أهل القيروان وحدها بل كان معروفا كما مر فى الكوفة والمدينة ولذلك عندما عزم على الاقامة فى مصر وقدم اليها سنة ست وسبعين ومائة بعد موت الليث بن سعد رجا أهل مصر أن يكون خلفا عن الليث بن سعد الا ان منيته ادركته فكان لوفاته فجعة عظيمة فى قلوب

---

(٥٠) المـالكى رياض ص ١١٥ ، عياض المدارك ص ٣٤١ •

(٥١) الدباغ معالم ص ٢٤٥ ، عياض المدارك ص ٣٤٢ •

(٥٢) المـالكى رياض ص ١٢٠ ، ١٢٢ ، عياض المدارك ص ٣٤٢ ، حسن حسنى الامام المـازرى ص ٢٣ •

(٥٣) المـالكى رياض ص ١١٧ •

اهل العلم وقالوا طمعنا ان يكون خلفا عن الليث تعظيما له وتقديرا لامامته[٥٤] .

ومع ورع ابن فروخ وتقواه وتمسكه بالكتاب والسنة الا ان أخذه بالنظر والاستدلال جعل المعتزلة تدعى انه منها كما ان بعض أهل السنة رماه بالاعتزال الى ان اتاه حبوس بن طارق ومعه ابو خارجة عنبسة ابن الغافقى فقال له : « ما تقول فى المعتزلة ؟ فقال له : وما سؤالك عن المعتزلة ؟ فعلى المعتزلة لعنة الله قبل يوم الدين وفى يوم الدين وبعد يوم الدين وفى طول دهر الداهرين » فقال له حبوس بن طارق : لا تفعل فان فيهم رجالا صالحين فقال : ويحك ! ما احسبك تخاف فى نفسك فى قعود ولا فى قيام من الناس وهل فيهم رجل صالح ؟[٥٥] وكان اعراضه عن صلاة الجنازة على معتزلى ميت مما أدى الى تبرئته من رميه بالاعتزال[٥٦] .

وقد عرض روح بن حاتم عليه تولى القضاء بالقيروان فابى فأمر بأن يطرح من على سقف الجامع فلما صعد به قيل اتقبل القضاء ؟ قال : لا فاخذ ليطرح فلما رأى العزيمة عليه قال قبلت فجلس للناس ومعه حرس فلما قعد فى الجامع تقدم اليه خصمان فلما صارا اليه نظر اليهما وبكى وطال بكاؤه ثم رفع راسه فقال لهما : سالتكما بالله الا اعفيتمانى من أنفسكما ولا تكونا أول مشئومين على فرحماه وقاما من بين يديه ثم جعل الخصوم يكلمونه وهو يبكى ويقول ارحمونى يرحمكم الله فاعلم الحرس روحا بذلك فقال : قولوا له اشر علينا بمن تولى فقال : ان يكن أحد فعبد الله بن غانم فانى رأيته شابا له صيانة فولى عبد الله بن غانم القضاء فكان ابن غانم يشاوره فى مسائل القضاء فقال له يا ابن غانم لم اقبلها اميرا فاقبلها وزيرا فالح عليه ابن غام

---

(٥٤) المالكى رياض ص ١١٤ .

(٥٥) المالكى رياض ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٥٦) ابو العرب طبقات ص ١٠٨ ، المالكى رياض ص ١٢١ .

وشدد عليه فخاف عبد الله بن فروخ ان يتقلد امور المسلمين وطلب السلامة بأن يخرج من القيروان الى الحج فلما حج وعاد الى مصر مات بها[٥٧] .

ومع انه أبى ان يتولى القضاء فقد كان قليل الهيبة للملوك فى حق يقوله وقد أرسل اليه يزيد بن حاتم يساله عن دم البراغيث فى الثوب هل تجوز الصلاة به فقال : « ما أرى به بأسا وقال بحضرة الرسول : يسالوننا عن دم البراغيث ولا يسالوننا عن دماء المسلمين التى تسفك » وهكذا يرى ابن فروخ ان تطبيق الاسلام يجب أن يكون شاملا لكل قواعده وأحكامه فى الأمور الصغيرة والكبيرة على السواء[٥٨] .

وكان عبد الله فى بداية أمره يرى الخروج على ائمة الجور اذا كان الخارجون فى تعداد جيش المسلمين فى بدر ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وذكر المؤرخون أنه تواعد مع أصحابه ان يوافوه للخروج بباب تونس وليس آلات الحرب وأتى المكان فى الوقت المعلوم فلم يوافه الا محمد بن يسوتا وأبو محرز القاضى من العراقيين فرجع ولم يخرج وعندما خرج من القيروان متوجها الى المشرق وخرج الشيوخ يودعونه قال لهم : انى كنت اقول بجواز الخروج على ائمة الجور واشهدكم انى رجعت عن ذلك وتائب الى الله منه[٥٩] وبهذا يتجلى احساس الفقيه الورع فى التنبيه على ما يجد له من الآراء .

ولا شك ان أخذ عبد الله بالنظر والاستدلال جعله واسع الأفق فى أمور التربية فكان يمازح الطلبة الذين يتلقون عنه بما يخفف عنهم عناء الدرس الا ان ذلك لم يرق سحنون عندما ذهب اليه مع أخيه الذى كان يتتلمذ عليه ليحضر مجلسه فمجه قلبه على حد تعبيره[٦٠] .

---

(٥٧) الدباغ معالم ج ص ٢٤٢ .

(٥٨) المالكى رياض ص ١١٩ ، عياض المدارك ص ٣٤٤ .

(٥٩) أبو العرب طبقات ص ١٠٩ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٤٧ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣٤٦ .

(٦٠) عياض المدارك ج ١ ص ٣٤٦ .

الا ان ذلك لا يمنعنا من ان نعجب لدقة نظر ابن فروخ بشئون التربية بأن يتخلل عملية التعلم بعض المرح بالاضافة الى التعمق فى فقهه ونظره واستدلاله ٠

وبعد هذا الجهاد العلمى فى تحصيله والرحلة اليه ونشره بين أهل القيروان توفى فقيه المغرب عبد الله بن فروخ بمصر بعد منصرفه من الحج سنة ست وسبعين ومائة ودفن بالمقطم ٠

٣ ـ البهلول بن راشد الرعينى الفقيه الزاهد :

ولد سنة ١٢٨ هجرية بالقيروان واشتهر بالعبادة والتقوى والصلاح والتمسك بالسنة والفقه فى الدين وكان ثقة مجتهدا ورعا ٠

وقد تلقى العلم أولا بافريقية من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وموسى بن على بن رباح وعلى بن زياد ثم رحل الى المشرق فسمع من مالك والثورى والليث بن سعد والحارث بن نبهان ويونس بن يزيد وحنظلة بن أبى سفيان القرشى الجمحى بمكة(٦١) ٠

وعند عودته سمع منه جلة العلماء فى القيروان : سحنون بن سعيد ويحيى بن سلام وعون بن يوسف وأبو زكريا الحفرى وعبد الله بن مسلمة القعنبى وغيرهم كما روى عنه مسلم بن الحجاج فى سننه ـ وقد قام بالفتيا والف ديوانا فى الفقه على مذهب مالك وربما مال الى قول الثورى وكان القعنبى يصفه بأنه وتد من أوتاد المغرب ٠ ونظر مالك الى البهلول فقال : هذا عابد بلده وكان موصوفا بالزهد مع تمسكه بهيئة حسنة كما كان لا يسلم ولا يرد السلام على أهل الأهواء ويأخذ تلاميذه بذلك ويقول : « ان هذا الذى نعرف به الحق من الباطل ٠ وكان يعظم الجهاد وطلب العلم فيقول : « ما أعمال البر كلها عند

---

(٦١) أبو العرب طبقات ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، المالكى رياض ص ١٣٢ ، عياض المدارك جـ ١ ص ٣٣٠ ، الدباغ معالم جـ ١ص ٢٦٤ ٠

الجهاد الا كبصقة فى بحر وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم الا كبصقة فى بحر »[٦٢] ٠

وكان يغلظ القول لتلاميذه عندما يحاولون الاستماع الى مناظرات المعتزلة فى القدر حتى لا يحملهم ذلك على الاعراض عن السنة والوقوع فى المعتزلة[٦٣] ٠

وللبهلول رأى فى الحجة الثانية ما اشد حاجة المسلمين الى أن يفقهوه فى هــذه الايام فقد جاء مغيث بن رياح الى البهلول فاخبره بعزمه على الحج فقال له : أما كنت حججت ؟ قال : نعم ولكنى اشتقت الى بيت الله الحرام وقبر النبى ﷺ ٠ فقال : كم عددت لخروجك ؟ فقال : مائة دينار فقال له البهلول : فهل لك ان تاتينى بها فاصرفهــــا فى مواضع واضمن لك على الله عشر حجج مقبولة ٠ فقام مغيث سريعا فأتى بالصرة فافرغها البهلول تحت جلد كان قاعدا عليه وقعد مغيث بن رياح فلم يزل يدخل الرجل فيعطيه البهلول خمسة وآخر يعطيه ثمانية وآخر يعطيه عشرة فواحد يقول له « تزوج منها وعش بالباقى » وآخر يقول له : « عد بها عيالك وصبيانك » وآخر يقول له « استر بها وجهك » فلم يقم حتى نفدت المــائة »[٦٤] ٠

ومع ورع البهلول وتقواه فقد كان حريصا على تقويم تلاميذه عندما يغويهم الشيطان بحكمة ولباقة فقد كان عند البهلول شاب يطلب العلم ثم اقبل على المجانة فأعلم بذلك البهلول فساءه ما بلغة فبينما هو يوما جالس اذ مر به الشاب وتحت ثوبه طنبور فقيل للبهلول انظر اصلحك

---

(٦٢) أبو العرب طبقات ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المــالكى ص ١٣٤ ، عياض المدارك جـ ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ـ الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٦٥ ، ابن فرحون الديباج المذهب ص ١٠٠ ٠

(٦٣) أبو العرب طبقات ص ١٢٩ ٠

(٦٤) المــالكى رياض ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، عياض المدارك جـ ١ ص ٣٣٤ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ٠

الله اليه والى ما تحت ثوبه فتامل البهلول فعرف تصديق ما قيل له ٠ فقال للقائل له ذلك لعله ذاهب ليكسره ثم مضى البهلول بنفسه الى دار الشاب فاستدعاه فسلم عليه وسأله عن الذى شغله عنه واقبل يعظه حتى رجع الفتى الى الخير وترك ما كان عليه ولازم البهلول ونفعه الله به فكان له شأن(٦٥) ٠ ذلك فكر تربوى على درجة عالية ربما نحن لم نصل بعد الى الأستاذ الذى يذهب الى تلميذه فى منزله لاصلاحه وارشاده عندما يضل الطريق ويبعد عن الصواب ٠ وكان البهلول فى تعبده يدعو الله كثيرا ويناجيه بقوله « اللهم انى أسألك باسمك العظيم الأعظم واسالك باسمك الكبير الأكبر يالله يالله أنت نور كل نور وأنت نور السموات والأرض أسالك بنور وجهك ياكريم يافتاح يافتاح ياقادر ياقادر ياقادر وبنور وجهك ياقادر وبنور وجهك ياقادر وبنور وجهك ياقادر وبنور وجهك ياحليم وبنور وجهك ياحليم وبنور وجهك ياحليم اسالك ان توجب لنا رضوانك الأكبر والدرجات العلى من الجنة وتعافينا من النار ومن سخطك وتمن علينا بحفظ كتابك حتى نتلوه على الوجه الذى يرضيك عنا » قال البهلول واياك ان تدعو به فى شىء من أمور الدنيا اللهم انى قد بلغت ،. وكان يقول أيضا « اللهم ارضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت »(٦٦) ٠

وبهذا الدعاء وأمثاله أخذ البهلول نفسه وتلامذته ومريديه ليجعلهم دائما على صلة بالله تعالى وليكونوا زهادا متعبدين وقد بلغت شهرة البهلول فى زهده وورعه وتقواه الى سمرقند فى خراسان فقد ارسلت

---

(٦٥) المالكى رياض ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، عياض المدارك جـ ١ ص ٣٣٣ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٧٥ ٠

(٦٦) المالكى رياض ص ١٤١ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٧٤ ٠

اليه امراة منها قد تابت الى الله تعالى خطابا تطلب اليه ان يدعو الله الله بأن يديم عليها توبتها(٦٧) .

وكان البهلول شجاعا فى الحق لا يخشى فى الله لومة لائم مما حمله على أن ينتقد أمير افريقية محمد بن منافق العكى الذى كان يهادى ملك الروم ويلاطفه فوجه ملك الروم الى العكى فى سلاح وحديد ونحاس فلما أراد العكى توجيه ذلك اليه عارضه البهلول ووعظه لتزول عنه الحجة من الله عز وجل واستمر البهلول ينتقد العكى فى تصرفاته وفى سياسته فبعث اليه العكى ليعاقبه فتحاشد الناس عليه مما زاد فى حنق العكى فاخرج الى الناس اجناده ففرقوهم وأمر بتجريده وضربه وقد رمى بعض اتباعه انفسهم عليه لحمايته فضربوا ثم ضرب البهلول اسواطا دون العشرين وحبسه بعد ضربه ثم أطلقه فبرأ الضرب من جسمه الا اثر سوط واحد نغل فكان سبب موته فكان استشهاده فى سبيل قول الحق وذلك سنة ثلاث وثمانين ومائة هجرية(٦٨) .

٤ ـ عبد الله بن عمر بن غانم الرعينى القاضى :

مولده وثقافته :

ولد سنة ثمان وعشرين ومائة وكان والده موصوفا بالشجاعة والقوة وكان على ساقة الجيش فى وقعة القرن والاصنام حين خرج حنظلة لمحاربة الخوارج الذين أرادوا استباحة القيروان فيقال ان والده قتل منهم ثمانين ومائة ـ تلقى ثقافته الأولى بالقيروان فسمع من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وخالد بن ابى عمران ثم رحل الى المشرق فى طلب العلم فدخل الحجاز والشام والعراق وسمع من مالك وعليه اعتماده كما روى عن سفيان الثورى وعن ابى يوسف صاحب ابى حنيفة

---

(٦٧) انظر القصة فى ابى العرب طبقات ص ١٣٠ ، ١٣١ ، المالكى رياض ص ١٣٥ .

(٦٨) أبو العرب طبقات ص ١٣٥ ، المالكى رياض ص ١٤٢ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣٣٨ ، الدباغ معالم ص ٢٧٦

واسرائيل بن يونس الكوفى وداود بن قين وعثمان بن الضحاك المدنى وغيرهم وكان ثبتا ثقة فقيها مع فصاحة لسان وحسن بيان وبصر بالعربية ورواية للشعر ويذكر عن بصره بالعربية انه عندما دخل على سفيان الثورى مع صاحبيه عبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد قال لهم سفيان ليقرأ على افصحكم لسانا فانى اسمع اللحنة فيتغير لها قلبى فقرأ عليه شهورا كثيرة الى ان فارقه ما رد عليه حرفا ، وقد كان متواضعا خاصة مع العلماء والزهاد من أمثال رباح بن يزيد والبهلول بن راشد[(٦٩)] .

جهوده فى التعليم :

وبعد تلقيه عن هؤلاء العلماء الأعلام عاد الى القيروان ليبث فيه علم ومعرفة وقد روى عنه التعنبى وابن القاسم كما تعلم فى حلقته سحنون بن سعيد وداود بن يحيى وسعيد أخوه وغيرهم كثير ، وكان مالك يجل ابن غانم ويقدره وقد ادرك بفراسته منزلته فقال عندما نظر اليه هذا قاضى بلده وكان اذا جاء مالكا وقت سماعه اجلسه الى جنبه ويسأله عن اخبار المغرب فيقول أصحابه شغله المغربى عنا وبلغ من حب مالك له ما يروى من انه عرض عليه أن يزوجه ابنته ويقيم عنده فامتنع من المقام وقال ان أخرجتها معى الى القيروان تزوجتها وقد روى سحنون عنه فى المدونة وأدخله ابن عبدوس فى المجموعة .

وقد جاء ابن طالوت اليحصبى الى أسد بن الفرات بوثيقة كتبها له ابن غانم فأخذها أسد وجعل يعرضها وينقدها فلما فرغ نقرها باصبعه ثم قال : ما كان أفقهه !

ومع اعتماد ابن غانم على مالك وميله اليه فقد ذكر أن ابن غانم كان يقرأ على تلاميذه كتب أبى حنيفة فى الجمعة يوما وعندما بلغت

---

(٦٩) أبو العرب طبقات ص ١١٦ ، المالكى رياض ص ١٤٣ ، الرقيق تاريخ أفريقية ص ١٧٥ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣١٦ ، ٣١٧ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧

وفاته ابن وهب استرجع وترحم عليه وقال لقد كنت قائما بهذا الأمر يعنى الفقه والعلم وقال عنه الشيرازى فى طبقات الفقهاء أنه كان من نظراء عبد الحميد بن عبد العزيز ابو حازم قاضى البصرة ونظرائه(٧٠) .

ولايته القضاء :

وقد ولى قضاء القيروان فى رجب سنة احدى وسبعين ومائة وهو ابن اثنتين وأربعين سنة وبذلك تحققت فيه فراسة مالك وقد كان دقيقا وعادلا فى قضائه محافظا على كرامته وكرامة المهمة التى يقوم بها . وقد خصص ابن غانم يوما للفصل فى خصومات النساء يجلس فيه للنظر بينهن وكان يلبس فى ذلك اليوم الفرو الخشن وخلق الثياب ويجعل بصره الى الأرض فلا يشك من لا يعرفه انه اعمى كما كان يزيل الحجاب والكتاب عنه فى ذلك اليوم(٧١) .

وكان ابن غانم متثبتا فى قضائه فاذا عرض له من نوازل الخصوم ما لا يظهر له وجه الصواب فيه أرسل الى مالك فى هذه المسائل وكان يكتب أيضا الى ابى يوسف يستشيره فى قضائه كما كان يستشير ابن فروخ مما جعل ابن فروخ يترك القيروان خوفا من المشاركة فى القضاء وقد بلغ من دقة ابن غانم وشجاعته ما يروى من أن الأمير ابراهيم بن الأغلب دعا ابن غانم يوما فقرا عليه كتاب الرشيد يامر باحضار رجل يقال له حاتم الابزارى ويقول ان لفرج مولى أمير المؤمنين عليه عشرة آلاف دينار ويأمر ابراهيم بقبضها ويوجهها مع رسول له خراسانى . ويقول فى آخر الكتاب : واحضر ابن غانم القاضى . وقد احضر المطلوب ترعد فرائصه فلما اكمل ابراهيم قراءة الكتاب التفت الى ابن غانم

---

(٧٠) أبو العرب طبقات ص ١١٧ ، المالكى رياض ص ١٤٤ ، الرقيق تاريخ افريقية ص ١٨٠ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣١٧ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٩٠

(٧١) عياض المدارك ج ١ ص ٣١٩ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٥

فقال : « يا أبا عبد الرحمن هل سمعت ما فى الكتاب ؟ قال : نعم فلماذا أحضرتنى ؟ ألى فى هذا الكتاب محتمل ؟ فقال ابراهيم بلى لعمر الله ولم آمر باحضارك » ؟ فقال له ابن غانم : « فاول ذلك ان آمر هذا الرسول باحضار شاهدين عدلين على ان امير المؤمنين استخلفه على قبض هذا المال ان صح له ويشهد غيرهما أو هما من أهل الثقة ان هذا المال لأمير المؤمنين أو للفرج فتاه فقال الرسول : أو يكتب امير المؤمنين بالباطل ؟ فقال ابن غانم : معاذ الله امير المؤمنين اصدق واكرم من أن يأخذ مالا بغير حلة ولكن قد تختلق الاشياء دونه فقال الخراسانى لابراهيم : ما يقول الأمير ؟ فقال أقول ما قال القاضى قال فقام القاضى ابن غانم وقال لحاتم : امضى أمامى فقال ابراهيم لله دره من امرىء دحداح ـ يريد قصير القامة ـ ما انفذ بصيرته وامضى عزيمته(٧٢) ٠

وقد اكسبته دقته فى قضائه واستقامته فى سيرته منزلة سامية عند الخليفة فكان الرشيد اذا كتب كتابا لابراهيم بن الأغلب يقول فى كتابه : « وأنا أعلمك أنى لا أفك لك كتابا حتى يكون مع كتابك الى كتاب ابن غانم » وبذلك صارت ولايته من قبل الخليفة لا من قبل واليه على افريقية ٠ وكان يكتب فى عنوانه : من هارون امير المؤمنين الى قاضى افريقية عبد الله بن عمر بن غانم ٠ فأعلى ذلك من قدر ابن غانم وجعل له منزلة لا يستطيع الأمير أن يعتدى عليها وقد حافظ ابن غانم على هذه المنزلة فحفظ لنفسه عزتها وللقضاء حرمته ٠ فقد حدث أن راكب ابن غانم ابراهيم يوما فزادت دابة ابراهيم فى المشى فحول ابن غانم دابته وعرج الى داره فعاتبه ابراهيم على ذلك فقال ابن غانم أصلح الله الأمير انما نفوذ القاضى على قدر جاهه ولو ساعدتك وحركت دابتى سقطت قلنسوتى فلعب بها الصبيان ٠ وقد حمل ذلك ابراهيم على مداراة ابن غانم واكرامه وتعظيمه وكان ابراهيم بن الأغلب يصلى

---

(٧٢) المالكى رياض ص ١٤٩ ، ١٥٠ عياض المدارك ج ١ ص ٣١٨ ، ٣٢٠ ، الدباغ المعالم ج ١ ص ٣٩٣ ، ٣٩٤

بالجامع الاعظم المكتوبات كلها فخرج ليلة من الليالى من دار الامارة فدخل الجامع لصلاة العتمة وكان مشغول القلب فعثر على حصير قسقط فلما صلى بالناس وانصرف بعث فى طلب ابن غانم فأتاه الرسول وقال له : الأمير يدعوك فتغير لذلك ابن غانم وقال فى مثل هذه الساعة يواجه ورائى ثم لم يجد بدا ان قام اليه فلما دخل عليه قال يا أبا عبد الرحمن انى لم ابعث اليك الا لخير انى لما دخلت المسجد استغل قلبى عن حفظ نفسى فعثرت على حصير فسقطت فظننت بالناس انهم حسبوا انى منتبذ فأحببت ان تكون براءتى عندك ولا أبالى بغيرك فاستنكهنى[٧٣] فاستنكهه ابن غانم فوجده بريئا قال فشكر له ذلك[٧٤] .

وقد بلغ من جراة ابن غانم وعدم خوفه من الأمير فى سبيل احقاق الحق ومراعاة مصالح المسلمين انه نظر يوما الى قارورة فى يد ابراهيم فيها دهن يسير فقال لابراهيم : ما هذا ؟ فقال له دهن ثم قال : كم تظن انه يساوى ؟ فقال له هذا تافه يسير . كم عسى أن يساوى ؟ فقال ان ثمنه كذا درهما وذكر ثمنا كثيرا فقال ابن غانم : ما هذا ؟ قال : السم القاتل . قال أرنيه فدفع اليه القارورة فلما أخذها ابن غانم ضرب بها عمودا كان فى المجلس فانكسرت وذهب ما فيها فقال له ابراهيم : ما صنعت ؟ قال : أفنترك معك ما تقتل به الناس اغتيالا[٧٥] .

وهذا يبين لنا السلطة المعنوية القوية التى كان يتمتع بها ابن غانم القاضى الفقيه بالنسبة للأمير وللرعية . وان هذه المنزلة التى اكتسبها ابن غانم سيكون لها تأثير فى العلماء خاصة فيمن يسند اليه القضاء

---

(٧٣) استنكهه : أى شم رائحة فمه ليرى هل شرب نبيذا أم لا .

(٧٤) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢٢٩ ، المالكى رياض ص ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، عياض المدارك ج ١ ص ٣١٩ ، ٣٠٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

(٧٥) المالكى رياض ١٥٠ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

فيحاول أن يسير على مثل سيرته وكان ابن غانم يقظا دقيقا وخاصة مع من يعمل معه فقد كان له كاتب يعاونه وكان من عادته أن يتقدم الى مقعده فى الجامع فيجلس حتى يأتى ابن غانم وكان من عادة القاضى أن يبعث بديوانه مختوما مع وصيف له ٠ فيبقى بحاله الى أن يأتى ابن غانم فيركع ركعات ثم يجلس فاذا رأى طابعه بحاله فكه فتقدم الكاتب يوما كما كان يفعل فبينما هو جالس اذ أتاه كتاب ابنه من باديته فجاء وصيف ابن غانم بالديوان على عادته فناوله الكتاب فأخذه منه ثم فك كتاب نفسه ليقرأه فوافق ذلك دخول القاضى فابصر الكتاب فى يده فبادر الكاتب بالكتاب فأدخله فى كمه فأتى ابن غانم وما يبصر طريقا من شغل قلبه فركع ركعتين خفيفتين وعلى وجهه الكآبة والغضب ثم سكت وجلس فناوله الكاتب القمطر كما تقدمت عادته ليرى ابن غانم طابعه ويفكه ٠ فصاح عليه ابن غانم كفه ، فكف ثم طأطأ ابن غانم ثم تنهد ثم رفع رأسه وهو يقول : الله أحق أن يؤثر ليس فى فى الحق من حشمة ما هذا الكتاب الذى فى كمك ؟ فاستحى الكاتب واحمر لونه ودهش ثم قال : اصلحك الله كتاب أتانى من البادية أخبرونى فيه أن الزريعة قد فرغت فابعث الينا بالزريعة فقال له ابن غانم : لا بد من اخراجه فأخرجه له فقرأه ابن غانم فأصابه كما قال فسرى عن وجه ابن غانم ما كان ظهر عليه من الكآبة ثم امر بفك الطابع ففكه وأخذ فى النظر بين الناس وهذا غاية فى التوقى والاحتياط(٧٦) ٠

وقد مكث ابن غانم يتولى القضاء والفصل فى الخصومات ونشر العلم والمعرفة الى أن وافاه أجله فى شهر ربيع الآخر سنة تسعين ومائة فصلى عليه ابراهيم بن الأغلب ودفن بباب نافع ٠

ومن هنا نرى بذورا لكل من المذهب الحنفى والمالكى قد وردت الى القيروان مع بدء الرحلة الى المشرق وان كان لاقامة الامام مالك فى المدينة الموطن الاصلى للاسلام ثم تمسكه بالوقوف عن القرآن والحديث دون اللجوء الى

---

(٧٦) المالكى رياض ص ١٥٢ ، ١٥٣ ٠

الرأى اثر كبير فى حمل كثيرين ممن رحلوا من القيروان الى المشرق على الميل الى مذهب مالك لظهور السلامية فيه . وبذلك يتضح لنا عدم صحة الرأى الذى أخذ به الدكتور احسان عباس فى قوله « انه كان يغلب على افريقية فى القديم مذهب الكوفيين ومذهب الاحناف »(٧٧) وما ذهب اليـــه الدكتور أحمد بكير فى مقدمة المدارك « من انهم كانوا اوزاعيين مع أهل الشام النازحين فى العهد الاموى وحنفيين مع الاغالبة»(٧٨) . كما يتبيّن لنا من العرض السابق ان بنهاية هذه الفترة كان علماء القيروان قـــد اضافوا الى ما كان عندهم من آراء وعلم الصحابة والتابعين فى القيروان علم الصحابة والتابعين فى المشرق من حديث وتفسير وفقه . ووصل مذهب مالك بن انس وصار له الانصار كما وصل كذلك مذهب أبى حنيفة النعمان. وكان هناك من العلماء من يأخذ برأى مالك . ومن يأخذ براى أبى حنيفة ؛ ومن يفاضل بينهما .

فعبد الله بن فروخ مع اخذه بمذهب مالك ومعرفته له فانـــه صاحب نظر واستدلال وميل الى قول اهل العراق اذا تبين له أن الصواب فى قولهم .

وعبد الله بن غانم يتمسك بمذهب مالك ويعتمد عليه ومع ذلك يقرا فقه أبى حنيفة لتلاميذه يوما فى الاسبوع .

وبذلك أصبحت القيروان مستعدة لاستقبال ازدهار الحركة الفكرية فى مجال الحديث والتفسير والفقه التى قام بها تلاميذ هؤلاء العلمـاء الاعلام مع حرصهم على الرحلة والاستزادة من العلم فى المشرق حيث ظهر فقهاء مالكيون وآخرون حنفيون .

فكيف ازدهرت الحياة الفكرية ؟

هذا ما نبحثه فى فصل ازدهار الحياة الفكرية .

* * *

---

(٧٧) الدكتور احسان عباس العرب فى صقلية ص ٩٥ .

(٧٨) الدكتور أحمد بكير محمود مقدمة المدارك ج ١ ص ٨ .

٢ ـ العلوم العربيــــــة :

الأدب واللغة :

القيروان منذ تاسيسها مدينة عربية ومصر اسلامى لحما ودما وسكانه الأولون هم العرب القادمون من المشرق بدينهم الاسلامى ولسانهم العربى فمع أن مدينة القيروان قد أقيمت فى افريقية الا أن سكانها الاصليون هم العرب ثم خالطهم وساكنهممن دخل فى الاسلام واعتنقه واخذ عنهـــم اللغة العربية التى هى لغتهم ولغة الدين الاسلامى وكتابه المقدس فتحـدث من سكن معهم القيروان بهذه اللغة وكانت له لغة أيضا ٠

وقد ساعد على اقبال البربر على اللغة العربية انها لغة الدين الدى آمنوا به والقرآن الذى يرددون بعض سوره وآياته فى عبادتهم ، ثم الجد والنشاط الذى أبداه العرب المسلمون فى تعليم اللغة العربية للبربر وفتـح الكتاتيب حتى قبل أن يتم الفتح الاسلامى وجعلها لسان الدولة الرسمى بعد تمام الفتح فكانت دواوين الدولة منذ انشائها فى أيام حســـان باللغة العربية فالمكاتبات والرسائل والشكاوى وخطب الجمع والاعياد وغير ذلك من المصالح الادارية أو المتعلقة بأمور الدولة كلها كانت باللغــة العربية ٠

فاذا ما أضفنا الى ذلك المساواة التى بسطها الاسلام على من اعتنقــه من البربر وغيرهم بحيث يكون العربى والبربرى متساويين فى الحقـوق والواجبات فى الحرب والسلم فى الغنم والغرم حتى فى ادارة بعض فرق الجيش وتولى قيادتها تبين لنا ان كل ذلك جعل البربر يتفانون فى مخالطة العرب ومواصلة الفتح جنبا الى جنب عندما تمكن المسلمون من مواصلة فتحهم الى الاندلس وقد أدى ذلك الى حمل الكثير منهم الى المســاومة لاعتناق الاسلام والتحدث بلغته العربية ٠

واذا ما لاحظنا ان اللغة العربية ذات صلة بلغة سامية سابقة وهى اللغة الفينيقية التى كان لها تأثير قوى فى لغة البربر خـلال الحكــم الفينيقى ٠ كما أن لغتهم البربرية كانت فقيرة بالآداب والمعارف بالنسـبة

للغة القادمة تحت ظل كتاب مقدس وحكم قوى يحمل المغلوب على تقليد الغالب خاصة وقد وجد فيه بعض الصفات والميزات التى يتصف بها من شجاعة وانفة ومن ميل الى حياة الخشونة والبداوة ظهر لنا ان كل ذلك قد حمل البربر على أن يهجروا لغتهم ويقبلوا على اللغة العربية لتكون لسانا لهم ضاربين صفحا عن لغتهم السابقة ٠

ولقد كان لطول فترة الفتح التى استغرقت نصف قرن أثر كبير فى اعطاء الفرصة لتقبل البربر للغة الفاتحين لا سيما بعد ان شرح الله صدورهم للاسلام ٠

واذا ما علمنا ان الجند العربى منذ الفتح الاول لم ينتقل من جزيرة العرب بمفرده بل كان مع الجنود كثير من قبائلهم التى انتقلت بنية الاستقرار والتمكن فى الارض واستصحبت القبيلة معها شعراءها ومؤدبيها ومعلميها تبين لنا الأثر الكبير لهذه الهجرة المبكرة فى نشر اللغة فى الاماكن المهاجر اليها لا سيما اذا كان المهاجرون يعتزون بدينهم ولغتهم وثقافتهم٠ كما تبين لنا سرعة اقبال البربر على اللغة العربية وتقبلهم لها بل شغفهم بتعلمها ونطقها والتحدث بها ٠

ولانقصد من ذكر ذلك ان نقول ان أهل تونس كانوا يتكلمون اللغة العربية قبل الفتح الاسلامى كما يذهب الى ذلك مؤلف تونس العربية(٧٩) وانما نقصد ان هذه العوامل التى ذكرناها كانت من الاسباب التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى هذه البقاع وكانت سببا فى سرعة تحدث الناس بها ٠

وبذلك يظهر لنا بوضوح ان اللغة العربية كانت لغة القيروان منذ تأسيسها ثم مكنت لها كل هذه العوامل واعطتها القدرة لكى يتسع سلطانها وتنمو منزلتها وتنفسح افاقها فى مجال الادب واللغة(٨٠) ٠

---

(٧٩) احسان يحيى تونس العربية ص ١٩٤ ٠

(٨٠) شكرى فيصل المجتمعات الاسلامية ص ١٨٠ ـ ١٨٥ ، حسين

١ ـ الادب ـ خطابة ـ شعر ـ كتابة :

(أ) الخطابـــة :

ان انشغال المسلمين بالفتح ومحاولة اقناع أهل البلاد المفتوحة من شأنه أن يفسح المجال لابراز الخطباء المفوهين ، وقد كانت الخطابـة سليقة فى العرب . وكان لأمراء الجيوش خاصة فصاحة طبيعية توارثوها عن الآباء والاجداد وقد زادها حفظ القرآن والحديث بلاغة وحكمة وكان لذلك أثره البعد فى استنهاض همم الجند عند اللقاء أو الزحـف على الاعـــداء .

ويبدو أن معظم قادة الجيوش أيام الفتح ان لم نقل كلهم كانوا من الخطباء الفصحاء وكذلك الولاة الذين تولوا امارة القيروان بعد استقرار الفتح .

فهذا مؤسس القيروان عقبة بن نافع الفهرى يجمع ابناءه قبل ان يغادر القيروان لمواصلة فتح المغرب فيقول لهم : يابنى انى بعت نفسى من الله ولا أدرى ما يقضى على فى سفرى ، يابنى انى أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها :

اياكم ان تملئوا صدوركم شعراوتتركوا القرآن ، املأوا صدوركـم من كتاب الله فانه دليل على الله ،وخذوا من كلام العرب ما تهتـدى به السنتكم ويدلكم على مكارم الاخلاق ثم انتهوا عما وراءه وأوصيكم الا تداينوا ولو لبستم الغباء فان الدين ذل بالنهار وهم بالليل فدعوه تسلم لـكم اقدارکم واعراضكم وتبقى لكم الحرمة مع الناس ما بقيتم ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى

=

مؤنس فتح العرب للمغرب ص ٢٩٢ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب ص ١٨ ، عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ١٢ ، دبوز تاريخ المغرب الكبير ص ٢١٨ .

ولا تأخذوا دينا الا من اهل الورع والاحتياط فهو اسلم لكم ومن احتاط سلم ونجا وعليكم سلام الله وارانى لا ترونى بعد يومكم هذا ، اللهم تقبل نفسى فى رضاك واجعل الجهاد رحمتى من دار كرامتى عندك[81] .

فاذا ما توجه الى تاهرت وتجمع له البربر والروم قام فى الناس خطيبا . فحمد الله واثنى عليه وقال :

ايها الناس ان اشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وانزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله الى يوم القيامة ، وهم اشرافكم والسابقون منكم الى البيعة ، باعوا انفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة وانتم اليوم فى دار غربة وانما بايعتم رب العالمين وقد نظر اليكم فى مكانكم هذا ولم تبلغوا هذه البلاد الا طلبا لرضاه واعزازا لدينه ، فابشروا فكلما كثر العدو كان اخزى لهم واذل ان شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة فان الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[83] .

فاذا ما استقر المسلمون فى القيروان وجاء دور الانتشار والتوسع لتبليغ كلمة الله جاء موسى بن نصير واليا على القيروان وفى جامع القيروان يخطب الناس فيقول :

« ايها الناس ، انما كان قبلى على افريقية احد رجلين : مسلم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية ويكره ان يكلم ويحب ان يسلم أو رجل قليل المعرفة راض بالهون . وليس اخو الحرب الا من اكتحل السهر ، واحسن النظر وخاض الغمر وسمت به همته ولم يرض بالدون من

---

(٨١) المالكى رياض ص ٢٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٤٨ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٥ .

(٨٢) المالكى رياض ص ٢٤ ، ٢٤ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٨٣) الخرق : هو الحمق .

المغنم لينجو ويسلم دون ان يكلم أو يكلم ويبلغ النفس عذرها فى غير خرق[83] يريده ولا عنف يقاسيه متوكلا فى حزمه جازما فى عزمه متزايدا فى عمله مستشيرا لاهل الرأى فى احكام رايه ، متحنكا بتجاربه ليس بالمتجابن اقحاما ، ولا بالمتخاذل احجاما ، ان ظفر لم يزده الظفر الا حذرا . وان نكب اظهر جلادة وصبرا راجيا من الله حسن العاقبة فذكر بها المؤمنين ورجاهم اياها لقول الله تعالى : (ان العاقبة للمتقين) أى الحذرين .

وبعد فان من كان قبلى كان يعمد الى العدو الاقصى ويترك عدوانه ادنى ينتهز منه الفرصة ويدل منه على العورة ويكون عونا عليه عند النكبة وايم الله لا اريم[84] هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى ... ارفعها وذل امنعها ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين »[85] .

وبذا يظهر لنا ان الخطابة كان لها شأن كبير وقد أدت دورها فى نشر الفكرة والدعوة الى الهدف المنشود .

(ب) الشـــعر :

احتفظ المؤرخون لنا ببعض الشعر الذى قيل فى هذه الفترة وهو يبين لنا الافكار التى كان يدور حولها من حث على الشجاعة فى مقاتلة البربر أو الخارجين على الولاة فهو تحريض على القتال وفيه فت فى عضد الخارجين ثم مدح بالصفات الحميدة من الشجاعة والحنكة والجود والكرم واصابة الرأى .

فعندما عين هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن القيسى قدم الى القيروان سنة ١٠٩ هـ وأخذ عمال بشر ابن صفوان الوالى السابق

---

(٨٤) لا اريم : اى لا اترك فيها شيئا .

(٨٥) حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٦ ، ٢٧ .

بالشدة وتحامل عليهم وحبسهم وكان منهم الحسام بن ضرار الكلبى فقال مخاطبا الخليفة ومبينا له يدهم السابقة على الدولة لاجل حمايتها[86] .

افاتم بنى مروان قيسا دماءنا	وفى الله ان لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط	ولم تعلموا من كان ثم له الفضل[87]
وقيناكم حد القنا بنحورنا	وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغتم نيل ما قد اردتم	وطاب لكم منا المشارب والاكل
تغافلتم عنا كأن لم تكن لكم	صديقا وانتم ما رعيتم لنا فعل
فلا تامنوا ان دارت الحرب دورة	وزلت ان رناة بالقدم النعل
فينتقض الحبل الذى قد فتلتم	الا ربما يلوى فينتقض الحبل

وفى سنة ١٤٨ هـ ولى ابو جعفر المنصور الاغلب بن سالم التميمى افريقية فقدم الى القيروان وحاول نشر الامن والسلام الا ان احد قواد الجند وهو الحسن بن حرب ثار عليه وكان بينهما مكاتبات ومخاطبات بالشعر وهى تبين لنا الافكار التى كان يصورها ذلك الشعر من دعوة الى الطاعة وبيان عاقبة العصيان ثم ما اجاب به الحسن بن حرب الخارج عن الطاعة . فقد ذيل الاغلب رسالته بقوله[88] .

الا من مبلغ عنى مقالا	يسير به الى الحسن بن حرب
بأن البغى ابعده وبال	عليك وقربه لك شر قرب
فان لم تنثنى لتنال سلمى	وعفوى فادن من طعن وضرب

---

(٨٦) الرقيق تاريخ افريقية ص ١٠ ، ١٠٦ ، ابن عذارى البيان جـ ١ ص ٥٠ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٨ .

(٨٧) يشير الى يوم « مرج راهط » وما كان من بلاء قبيلة كلب فيه مع مروان بن الحكم وقيام قبيلة مع عبد الله بن الزبير .

(٨٨) البيان المغرب لابن عذارى جـ ١ ص ٧٤ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٢٩ ، ٣٠ .

وقد جاوبه الحسن بن حرب بقوله :

ألا قولا لأغلب غير ســـــر — مغلغلة عن الحسن بن حـــرب
بأن الموت بينكم وبينـــــى — وكأس الموت اكره كل شـــرب
رويدكم غيومكم قريـــــب — وان بعدا مصيرهمـا لقـــرب

وقد خرج الاغلب بن سالم لقتال الثائر وانتصر عليه فى تلك الموقعـة الا أن الحسن بن حرب عاود الكرة على القيروان وخرج الاغلب لقتاله وتصاف الفريقان للقتال فبرز الأغلب وهو يقول :

ان يهونى الموت فانى أهـــواه — كل امـــرىء يلقى يوما هـــواه

ثم شد على الميمنة فى اصحابه فكشفها وانصرف الى موقعه وهو يقـول :

اضرب فى القوم ومثلـــى يضرب — فان يكن حـــربا فانى الاغلب
لا أجـــزع اليـــوم ولا أكـــذب

ثم شد على الميسرة ففعل مثل فعله فى الميمنة وانصرف وهو يقول :

لم يبق الا القلب او امــــوت — ان تحم لى الحرب فقد حميـت
وان توليت فما بقيت

ثم حمل على القلب فلم يثن حده الى ان اصابه سهم اصاب منـــه مقتلا فمات منه ولقب بالشهيد(٨٩) . وقد حظيت القيروان ببعض الشعراء البلغاء ورواة الادب الذين حملوا اليها أشعار الجاهليين والمخضرمين وايام العرب واخبارها ووقائعها ومن هؤلاء :

١ ــ الحكم بن ثابت السعدى :

ولد سلامة بن جندل الذى دخل القيروان سنة ١٤٤ هـ وسكنها واتخذ

---

(٨٩) انظر الحلة السيراء لابن الابار جـ ١ ص ٧٠ ، ٧١ .

بها دارا وهو من الشعراء البلغاء ورواة الادب وقد روى عنه ابنـــاء افريقية كثيرا من اشعار العرب بالجاهليين والمخضرمين وقد التحق بخدمة الاغلب بن سالم اثناء ولايته وصار من قواده وشهد معه حروبه ضد الخارجين على الدولة ولما استشهد الأغلب رثاه بقوله[٩٠]:

لقد افسد الموت الحياة بأغلب ... عبيطا وبالخدين والنحرعندما[٩١]
تبدت له ام المنايا فأقصدت ... وغادرته فى ملتقى الخيل مسلما
اخا نزوات ما تزال جياده ... تصبح عنه غارة حيث يمما
اتته المنايا فى القنا فاختر منه ... فان كان يلقى الموت فى الحرب صمما
كأن على اثوابه من دمائه ... غداة غدا للموت فى الحرب معلما
فبان شهيدا نال اكرم ميتة ... ولم يبغ عمرا أن يطول ويسقما

٢ ـ ربيعة بن ثابت الرقى الاسدى :

من مشاهير الشعراء الوافدين على يزيد بن حاتم بالقيروان وهو من كبار أدباء الدولة العباسية وممن احتج الاصمعى بشعره وقد مدح يزيد بقصائد كثيرة منها القصيدة التى فضله فيها على يزيد السلمى[٩٢] ويقول فيها :

حلفت يمينا غير ذى مثنوية ... يمين امرىء آلى بها غير آثم
لشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والاغرا بن حاتم
فهم الفتى الازدى اتلاف ماله ... وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

---

(٩٠) حسن حسنى الورقات ص ١٣٥ ، مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٣٠ .

(٩١) العبيط هنا بمعنى الزعفران الطبرى ، والعندم هو صبغ احمر قان ويسمى أيضا دم الاخوين وقيل هو البقم . والبقم ورق شجر كشجر اللوز ساقه أحمر .

(٩٢) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ١٥٣ ، حسن حسنى الورقات ص ١٤١ .

فلا يحسب التمام انى هجوتـه ولكننى فضلت أهل المكـــارم

فيا أيها الساعى الذى ليس مدركا بمسعاته سعى البحور الخضارم

سعيت لوم تدرك نوال ان حاتم لفك اسير واحتمال العظائـم

كفاك بناء المكرمات ابن حاتـم فتقرع ان ساميته سن نـــادم

هو البحر انكلفت نفسك خوضـه تهالكت فى آذية المتلاطـــم

تمنيت مجدا فى سليم سفاهـــة امانى خال أو امالى حالـــم

الا انما آل المهلب غـــــرة وفى الحرب قادات لكم بالحزائم

هم الأنف فى الخرطوم والناس بعدهم مناسم والخرطوم فوق المناسـم

قضيت لكم آل المهلب بالعـــلا وتفضيلكم حق على كل حاكـم

لكم شيم ليست لخلق سواكـم سماح وصدق الباس عند الملاحـم

مهينون للاموال فيما ينوبكـم مناعيش دفاعون عن كل حـازم

ومنهـــا :

أبا خالد انت المنوه باســـمه اذا نزلت بالناس احدى العظائم

كفيت أمير الناس كل عظيمـة وكنت من الاسلام خير مزاحـم

وقد أعطى يزيد بن حاتم الشاعر عشر ديات ووصله واحسن اليـه وبعد ان اقام ربيعة مدة طويلة بالقيروان معززا فى ضيافة الامير عاد الى العـراق ٠

٣ ـ عامر بن المعمر بن سنان التيمى :

مشهور بالنجدة واصابة الرأى والمعرفة والادب وقد سجل بشعره ما قام به ابراهيم ابن الاغلب من نصرة محمد العكى عندما ثار ضده تمام بن تميم بقوله :

اذا كربة شدت خناق محمـــد فليس لها الا ابن اغلب فـارج

أتاه بتمـام على بأســه بـــه يقاد وقد ضاقت عليه المخـارج

وقد كان بالاسراف القى ســواده ولم تختلجه فى الخلاف الخوالج

فعاجله بالكيـد حتـى استعـاده وادركه من بعد ما قيـل خـارج

ولو انه يستودع الشمس نفســه   اذا ولجت منه عليه الولائــج

وقد اختاره ابراهيم بن الاغلب بعد ذلك عندما اسندت اليه الامارة لتولى شرطته فمكث فى عمله الى أن توفى فى القيروان[٩٣] .

٤ ـ المسهر التميمى :

وفد على يزيد بن حاتم واقام مدة طويلة بالقيروان فى حاشية يزيد بن حاتم وقد أنشده عندما قدم عليه[٩٤] :

اليك قصرنا النصف من صلواتنـا   مسيرة شهر ثم شهر نواصلــه
فلا نحن نخشى ان يخيب رجاؤنا   لديك ولكن اهنأ البر عاجلــه

ومن هنا يتبين لنا أن الشعر فى هذه الفترة قد تحدث فى فنون الشعر السياسى والحماسى والمدح والرثاء .

* * *

(ح) الكتابة :

وكما كان من القادمين الى القيروان ليقيموا فيها وينشروا الآداب العربية فى رحابها خطباء وشعراء ، فقد كان منهم ايضا الكتاب وقد روى المالكى ان :

١ ـ أبا ليلى دجين بن عامر الحجرى :

وهو من التابعين الفضلاء الذين دخلوا افريقية واقاموا بها وروى عنه من أهل القيروان بكر بن سوادة الجذامى ويزيد بن منصور وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم كما يذكر : انه كتب لعقبة بن نافع وشهد معه المشاهد كلها والحرب والفتوحات التى كانت بافريقية[٩٥] .

---

(٩٣) حسن حسنى الورقات ص ١٣٧ .
(٩٤) حسن حسنى الورقات ص ١٤٤ .
(٩٥) المالكى رياض ص ٩٥ .

ولا شك ان الدواوين التى أنشاها حسان بن النعمان كان فيها من يحسن الكتابة ويجيدها مما ادى الى رقيها ولقد كان احد الولاة على القيروان فى أيام هشام بن عبد الملك كاتبا قبل ان يلى الامارة وهو عبيد الله بن الحبحاب وقد ذكر الرقيق ان ابا حسان اليحصبى قال : رأيت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر فى دفتر العطاء ويملى رسالة ويأمر بحاجات فى ناحية أخرى ويأمر فى خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين . وكان أوله كاتبا ثم تناهت به الحال الى ان ولى افريقية وذلك فى ربيع الأول سنة ست عشرة ومائة[٩٦] .

واذا كان الوالى بليغا فصيحا حافظا لأيام العرب ووقائعها واشعارها تخير للعمل معه من يتقن مهنة الكتابة وهـذا مما يؤدى الى الاعتناء بها ورقيها واقبال الطلاب على النبوغ فيها لا سيما وهم يرون كاتبا يتولى الولاية فى القيروان فاذا ما كانت أيام عبد الرحمن بن حبيب وجدنا .

٢ ـ خالد بن ربيعة الافريقى :

من أبناء الأسر العربية التى توطنت فى افريقية وفى أوائل المائة الثانية رحل فى طلب العلم قاصدا الشام حيث درس على كبار اللغويين والنحاة والبارزين من الأدباء وفى اثناء طلبه العلم قامت صداقة وألفة بينه وبين عبد الحميد بن يحيى الذى اشتهر أواخر الدولة الأموية بالكاتب وربما تولى بعض أعمال الدواوين فى الحكومة الأموية كما قد يفهم من عبارة ابن النديم « ونشأ خالد بن حبيب فى الدواوين » .

وعندما عاد الى القيروان فى العقد الثالث من القرن الثانى الهجرى تولى الكتابة لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، لما أشم به من أدب وخبرة فى دواوين الكتاب ويذكر البلاذرى انه قد كتب الى صديقه عبد الرحمن بن يحيى الكاتب فى شأن الاعتراف بمخدومه عبد الرحمن

---

(٩٦) الرقيق تاريخ افريقية والمغرب ص ١٠٧ .

ابن حبيب الفهرى فاقر الخليفة مروان بن محمد عبد الرحمن على ولاية افريقية ٠

وقد وصف ابن النديم فى الفهرست خالدا بأنه « مترسل بليغ نشأ فى الدواوين وله رسائل مجموعة فى الأدب فى نحو مائتى ورقة » ٠

ويبدو ان الصلة كانت وثيقة بين عبد الحميد بن يحيى الكاتب وبين خالد بن ربيعة وكانت بينهما المراسلات التى يذكر عنها ابو القاسم البغدادى فى تاليفه « كتاب الكتاب » ان عبد الحميد الكاتب قال فى رسالة الى خالد بن ربيعة الافريقى يصف الكتاب : « ان الكتاب قليل والمتسمون بالكتاب كثير والعلم معين على نفسه من أخذه ، فمن أدخل نفسه فى الكتاب مصطبرا على ما ينويه فنه من العفاف عن المطامع ... الخ »(٩٧) ٠

وعندما قدم يزيد بن حاتم الى القيروان واليا عليها استصحب معه جماعة من الكتاب البلغاء والأدباء والنبهاء ومنهم :

٣ ـ أبو على الحسن بن سعيد البصرى :

وهو من كبار النحاة البصريين الذين اشتهروا فى دواوين الكتابة بالترسل وقد اتخذه يزيد بن حاتم كاتب سره ومباشر أمره وقد استفاد بعلمه الجم وأدبه الغزير كثير من شباب القيروان وخاصة امان بن الصمصامة وقد بقى يخدم أسرة المهالبة فى القيروان الى ان أدركته الوفاة بالقيروان فى حدود سنة ١٧٨ هـ(٩٨) ٠

وهكذا نرى ان الكتابة الأدبية قد ظهرت منذ وقت مبكر فى القيروان

---

(٩٧) البلاذرى فتوح ص ٢٧٤ ، حسن حسنى الورقات ص ١٥١ ـ ١٥٦ ، مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٣٨ ، ٣٩ ، الفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ٠

(٩٨) حسن حسنى الورقات ص ١٦٠ ٠

على يد أولئك الكتاب وغيرهم ، واذا كان فقد الكتب والمصادر المحتوية على كتاباتهم لم يمكنا من الوقوف على نماذج من كتاباتهم ٠٠ فان هذا القدر من سيرة أولئك الخطباء والشعراء والكتاب يبين لنا ان مدينة القيروان فى هـذه الفترة كانت تعيش بداية حياة أدبية ستتفتح وتنضج فى خلال فترة الأغالبة والفاطميين ٠

٢ ـ اللغـــة :

النحو ورواية الأدب واللغة :

مع أن الشعراء والكتاب الذين سبق ذكرهم كانوا يحيطون باللغة وآدابها وقوانينها الا ان هناك طائفة أخرى كانوا أكثر احاطة وميلا الى اللغـة بنحوها ورواية أخبارها وقد قدموا الى القيروان واقاموا فيها بقصد التعليم والتثقيف وعنهم أخذ أبناء القيروان أصـول اللغة وأشعارها وايام العرب واخبارها ووقائعها وبذلك أحاط ابناء القيروان باللغة وآدابها وعلى أيدى هؤلاء العلماء الأجلاء بدأت الحياة الفكرية فى اللغـة ٠ ومن هؤلاء العلماء الوافدين :

١ ـ المعمر بن سنان التيمى :

قدم القيروان مصاحبـا يزيد بن حاتم المهلبى عندما تولـى امـارة افريقية وكان المعمر محيطا بأيام العرب واخبارها ووقائعها وأشعارها ، وقد تعلم عليه ابناء القيروان وأخذوا عنه حرب غطفان وغيرها من أيام العرب ٠ وكان يزيد بن حاتم يحبه ويجعله يركب معه فى عماريته لمـا كان يجد فى مصاحبته من انس وأدب ٠

وقد استوطن المعمر القيروان وبقى فيها معلما للغة ومستشارا لأمراء بنى المهلب فى المعضلات والملمات وبقى معززا فى القيروان الى ان توفى فى حدود سنة ١٧٧ هـ(٩٩) ٠

(٩٩) حسن حسنى الورقات ص ١٣٧ ٠

٢ ـ عياض بن عوانة بن الحكم اكللبى :

من أسرة معروفة فى الكوفة برواية اللغة والأدب وكان جده وأبوه من مشاهير علمائها وقد روى الأصمعى والهيثم بن عدى وكثير من أهل العلم عن أبيه عوانه الأخبار والآثار • وقد ولد عياض بالكوفة ونشأ بها وتلقى العلم عن أبيه فروى عنه كتبه التى ألفها وهى كتاب التاريخ وسيرة معاوية وبنى امية كما تثقف على كبار علماء الكوفة •

واشتهر عياض بمعرفة النحو وكان ابوه يقول له : لا تتعمق فى النحو فانه لم يتعمق فيه أحد الا صار معلما • ولقد قدم عياض الى القيروان واستقر بها سنة ١٥٥ هجرية ايام يزيد بن حاتم حيث تعلم على يديه النحو والعربية وآدابها أبناء القيروان وخاصة ابناء امرائها المهالبة • ولقد صاحبه ولازمه أبو الوليد المهرى الذى تثقف بعلمه الغزير •

وبقى عياض فى القيروان ناشرا للغة والنحو والأدب الى أن ادركته الوفاة فى حدود سنة ١٧٥ هـ(١٠٠) وقد حظيت القيروان فى أيام يزيد بن حاتم بوفود عالمين كبيرين من علماء النحو واللغة اليها احدهما بصرى والآخر كوفى ولا شك ان شباب القيروان الحريصين على التعلم قد استفادوا منهما واغترفوا من علمهما لباب اللغة والأدب وهما :

٣ ـ يونس بن حبيب الضبى :

احد أبناء البصرة وكبار ائمة اللغة والنحو فيها وقد سمع من أبى عمرو بن العلاء وغيره كما سمع من العرب الأصلاء ، وقد تلقى العلم عنه الكسائى والفراء وروى عنه سيبويه كثيرا ، وكان صاحب حلقة بالبصرة يحضرها اهل العلم والأدب وفصحاء الأعراب من البادية •

وقد قدم يونس بن حبيب الى القيروان فى أيام يزيد بن حاتم ولا شك ان طالبى العلم فى القيروان قد اغتنموا فرصة وجود ذلك

---

(١٠٠) الزبيدى طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٤٥ ، حسن حسنى ورقات ص ١٥٦ ـ ١٦٠ •

العالم الجهبذ بينهم فتحلقوا عليه ليقتبسوا من علمه الغزير وأدبه الجم وروايته الواسـعة ٠

وقد شجع وفود يونس بن حبيب وامثاله الى القيروان أبناء القيروان على الاستزادة من علمهم ثم الحرص على مواصلة البحث فى هـذه الفنـون[١٠١] ٠

٤ ـ قتيبه الجعفى النحوى :

من علماء النحو المشهورين فى الكوفة ومن أصحاب الكسـائى وكان عالمـا فى الحديث واللغة والشعر والنسب وايام العرب واتصل بالمهدى العباسى فى بغـداد ٠

وقد وفد على يزيد بن حاتم فى القيروان واقام فى ضيافته مدة طويلة أخذ عنه خلالها جماعة من ابناء القيروان ورووا عنه الشعر ووقائع العـرب واسـتفادوا منه فائدة جمـة ثم عاد الى المشرق حيث توفى هنـاك[١٠٢] ٠

وعلى أيدى هؤلاء العلماء تخرج امان بن الصمصامة باكورة أبناء القيروان فى اللغة والنحو والشعر كما داوم على الدراسة والتعلم غيره من أبناء القيروان الذين حملوا رايـة الفكر اللغوى فى عصر الازدهار ٠

٥ ـ أمان بن الصمصامة بن الطرماح الطائى :

ولد بالقيروان وتعلم فيها وعلى العلماء الوافدين اليها الى ان صار من علماء النحو واللغة وصفه الزبيدى ، : بأنه عالم باللغة والشـعر وحافظ للقريض وشاعر مفوه ٠

---

(١٠١) السيوطى بغية الوعاة جـ ٢ ص ٣٦٥ ، حسن حسـنى الورقات ص ١٤٦ ، ١٤٧ ٠

(١٠٢) السـيوطى بغية الوعاة جـ ٢ ص ٢٦٥ ، حسن حسنى الورقات ص ١٤٨ ، جمهرة انساب العرب لابن حزم ص ٣٧٨ ٠

وقد استفاد من صحبة الحسين بن سعيد البصرى الذى قدم القيروان مع يزيد بن حاتم · وتولى الكتابة فى القيروان ليزيد ـ وقد انس الحسين الى امان بن الصمصامة وكانت بينهما مسامرات ومجالسات فى العلم والأدب تحصل منها على علم غزير ورفعت من منزلته وقدره عند المهالبة ·

وقد اخذ شباب القيروان على امان النحو واللغة والأدب وتخرج عليه جماعة منهم عبد الملك بن قطن المهرى · وقد الف امان بن الصمصامة جزءا فى النحو واللغة والشعر رواه عنه تلميذه عبد الملك المهرى · وكان امان معززا مكرما خلال حكم المهالبة فلما تولى ابراهيم بن الأغلب أمر القيروان اهمله ولم ينتفع بعلمه وخبرته وذلك لهجاء جده الطرماح بنى تميم قبيلة ابراهيم بن الأغلب[١٠٣] ·

وبهذا العرض يتبين لنا بذور الحركة الفكرية فى العلوم اللغوية التى نضجت فى عصر الازدهار · وانها قد قامت فى بدايتها على أيدى العلماء الوافدين الى القيروان من المشرق ولقد كان للكرم والسخاء والهبات التى كان يمنحها يزيد بن حاتم لمن يقصده من العلماء والأدباء والشعراء · مع طول فترة حكمه للقيروان وحبه للعلم والعلماء اثر كبير فى نمو الحياة الفكرية فى القيروان ·

(٣) العلوم العقلية العقائدية :

لم يقتصر النشاط الفكرى فى بداية الحركة الفكرية فى القيروان على العلوم الشرعية والأدب وعلوم اللغة بل تناول العلوم العقلية التى تعنى فى تلك الفترة علم العقائد والمذاهب الكلامية وبعض هذه المذاهب كان كثير الأنصار قوى السلطان بينما البعض الآخر كان قليل من الأفراد يعتنقه ويقوم بتعليمه ·

---

(١٠٣) الزبيدى طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٤٥ ، السيوطى بغية الوعاة جـ ١ ص ٤٥٩ ، حسن حسنى الورقات ص ١٦٠ ·

واهم هـذه المذاهب واكثرها انصارا واوسعها انتشارا بحيث يمثل الغالبية العظمى من سكان القيروان هم :

١ ـ اهل السـنة :

فلقد كان سكان القيروان وعلماؤها الى نهاية القرن الأول وبداية الثانى سنيين جميعا لأنهم تلقوا عقيدتهم عن الصحابة والتابعين الذين اخذوا أصـول اعتقادهم من الكتاب والسـنة وهو مذهب السلف الصالح الذى يأخـذ بكل ما جاء به كتـاب الله والامتناع عن اثاره أى نقاش او جدل حول آياته • وكان علماء السـنة يبغضون كل من يميل الى جدل او مناقشة حول آيات الله وجميع العلمـاء الذين سـبق ذكرهم فى حديثنا عن العلوم الشرعية وكثير غيرهم يأخذون بكتاب الله وسنة رسـوله ولا يؤولون فيهما[١٠٤] •

وفى مطلع القرن الثانى الهجرى انعكس على الحياة العقلية فى القيروان بعض ما كان يدور فى المشرق من مناقشـات اثارتها الفرق المختلفة من مرجئة ومعتزلة وقدرية وخوارج وذلك فى المسـائل المعروفة فى علم الكلام واهمها مسـألة الايمان وهل العمـل جزء منه أم لا ؟ ومسـألة علاقة صـفات الله تعـالى بذاته • وهل الصفات عين الذات أو مغايرة لها ؟ ومسألة حرية الارادة الانسانية ، ثم مسألة الامامة التى قام الجدل حولها بين الشيعة والخوارج وغير ذلك من مسائل علم الكلام •

وقد ذكر مؤرخو الطبقات بعض الحوادث التى وقعت فى تلك الفترة وهى تبين موقف الآخذين بمذهب أهل السـنة من هذه الفرق وكيفية معاملتهم لمن يتحدث فى هـذه المسائل او من يأخذها عنهم ، أو من يمر بحلقاتها من تلاميذهم وكان اهل السـنة متشددين فى ذلك الى درجة كبيرة •

---

(١٠٤) د• يحيى هويدى تاريـخ فلسـفة الاسـلام فى القـارة الافريقية ص ١٥٣ ـ ١٥٦ •

واننا كباحثين عن الحياة الفكرية فاننا نلاحظ هـذه المواقف التى تبين وجود حركة فكرية فى العقائد نتجت عن مثيلتها فى المشرق وان كانت فى حدود ضيقة فمن ذلك :

٢ ـ فى الاعتزال :

نرى انه كان يوجد ابن صخر المعتزلى وسقيفة العراقى وانه عندما توفى ابن صـخر وقدمت جنازته لكى يصلى عليهـا وكان ابن فروخ والبهلول وابن غانم موجودين فقيل لكل منهم الجنازة فكانت اجابة كل منهم « كل حى ميت »[١٠٥] ولم يصلوا عليهـا وذلك لانكارهم عليه أخذه بآراء المعتزلة ٠

ويذكر أبو العرب سقيفة العراقى كان يعقد حلقة يتناظر فيها الناس فى القدر فمر به احد تلاميذ البهلول فوقف ينصت الى ما يدور من جدال ومناظرة وعندما بلغ ذلك البهلول اغلظ الكلام لذلك التلميذ وهدده بأن يمنعه من حضور حلقته والتلقى عليه[١٠٦] ٠

وقد سأل حبوس بن طارق عبد الله بن فروخ ـ وكانت المعتزلـة تدعيه حتى رماه بعض أهل السنة بالاعتزال ـ فقال حبوس لابن فروخ : « ما تقول فى المعتزلة ؟ فقال له : وما سؤالك عن المعتزلة ؟ فعلى المعتزلة لعنة الله قبل يوم الدين وفى يوم الدين وبعد يوم الدين وفى طول دهر الداهرين » فقال له حبوس بن طارق : لا تفعل فان فيهم رجالا صالحين فقال : ويحك ! اما احسبك تخاف فى نفسك فى قعود ولا فى قيام من الناس وهل فيهم رجل صالح ؟[١٠٧] وبذلك نفيت عن ابن فروخ التهمة التى كان يرمى بها من أخذه بآراء الاعتزال ٠

ومن هـذه الحوادث نستطيع أن ندرك ان الاعتزال والآراء التى

---

(١٠٥) أبو العرب طبقات ص ١٠٨ ، المـالكى رياض ص ١٢١ ٠

(١٠٦) أبو العرب طبقات ص ١٢٩ ، المـالكى رياض ص ١٣٤ ٠

(١٠٧) المـالكى رياض ص ١٢٠ ، ١٢١ ٠

يدور حولها قد وصلت الى القيروان وكانت هناك الحلقات التى تعقد من اجل التناظر فيه وفى آرائه وان كانت تقابل من أهل السـنة بهذا الانكار الشديد • ولم يمدنا المؤرخون وأصحاب الطبقات الا بهذه الحوادث اليسيرة التى نستنتج منها ذلك •

٣ ـ وأما المرجئـة :

فيذكر أبو العرب والمـالكى والدباغ ان يحيى بن سلام ـ الذى قابل كثيرا من التابعين وأخذ عن كثير من العلماء بلغت عدتهم ثلاثمائة وستين عالمـا وألف مصنفات كثيرة فى فنون العلم منها كتاب فى تفسير القرآن الكريم واختيارات فى الفقه ـ انه كان يرمى بالارجاء فيقول : « ان الايمان قول باللسان واقرار بالجنان او القلب فقط » وعندما ذكر له عون بن يوسف ان الناس يرمونه بالارجاء اخذ لحيته بيده وقال : احرق الله هـذه اللحية بالنار ان كنت دنت الله عز وجل قط بالارجاء • وقال كيف وقد حدثتكم انه بدعة[١٠٨] • وهذا يبين ان الارجاء كان معروفا فى القيروان ولا شك انه كان يوجد من يعتقد به فى القيروان ولكن العلماء السنيين كانوا ينفونهم عن انفسهم عندما يرمون به •

٤ ـ الخـوارج :

وفى بداية المـائة الثانية الهجرية قدم الى افريقية والمغرب افراد من المشرق ممن يعتنقون مذهب الخوارج وكان بعضهم يعتنق مذهب الصفرية المتطرف والبعض الآخر يعتنق مذهب الاباضية وقد كان لهاتين الفرقتين انتشارا واسع فى المغرب ••• وافريقية وقدر لاتباعهما ان يكون لهما قوة ثاروا بها على السلطة الشرعية فى القيروان التى يمثلها ويقوم بها أهل السـنة •

---

(١٠٨) انظر : أبو العرب طبقات ص ١١٢ ، المـالكى رياض ص ١٢٤ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٣٢٦ ، يحيى هويدى تاريخ فلسـفة الاسـلام فى افريقية ص ١٧٥ ، ١٥٨ •

(أ) الصـفرية :

وهم من متطرفى الخوارج الذين يستحلون سـفك دماء المسـلمين وسبى وقتل اطفالهم ونسائهم وعندما اشتدت شوكتهم وكثر جمعهم قدموا من المغرب الأقصى بأعداد وفيرة للاستيلاء على القيروان الا ان حنظلة بن صفوان تمكن من الانتصار عليهم ودحرهم فى موقعتى القرن والأصنام قريبا من القيروان .

وفى أيام حبيب بن عبد الرحمن الفهرى تمكن الخوارج الصفرية من التغلب عليه وقهره وقد خرج ابو كريب قاضى القيروان آنذاك فى جماعة من اهل القيروان لرد الصفرية والتقى معهم على الوادى المعروف اليوم بوادى ابو كريب فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل ابو كريب وجميـع من معه ودخل الخوارج القيروان فى ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ وعاثوا فيها فسادا الى ان طردهم منها الخوارج الأباضية .

ولا شك ان آراء الصفرية الهدامة كانت معروفة لأهل القيروان خاصة العلماء منهم الا ان احدا منهم لم يعتنق مذهب الصفرية(١٠٩) .

(ب) الأباضـية :

وهم من الخوارج المعتدلين الذين لا يحرمون الميراث والنكاح من المسلمين ويعدونهم منافقين ونادوا بجواز القيام بينهم واول من ادخل مذهب الاباضية الى افريقية سـلمة بن سعيد الذى قدم الى افريقية لنشر المذهب الاباضى والتقى فى افريقية بعاصم السدراتى واسماعيل بن درار الغدامسى وداود القبلى النفزاوى وعبد الرحمن بن رستم وقد رحل هؤلاء الأربعة الى البصرة حيث تلقوا اصول المذهب على ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة البصرى مولى بنى تميم وهو من علماء الاباضية

---

(١٠٩) انظر السلاوى الاستقصا جـ ١ ص ٢٦٠ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، طاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى فى ليبيـا ص ١٣٢ ــ ١٤٤ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ٣١ ــ ٣٥ .

المشهورين فى المذهب وقد انضم اليهم عبد الأعلى بن السمح ابو الخطاب الحميرى اليمنى ومكثوا عند ابى عبيدة خمسة أعوام يدرسون عليه المذهب الاباضى الى ان صاروا من اعلامه ثم عادوا الى افريقية فيما بين الخامسة والعشرين والأربعين من القرن الثانى حيث قاموا بنشر المذهب الاباضى ولذلك يسمون عند الاباضية حملة العلم وقد اثر انباءهم من حوارة ولماية ونفراوة ومغيلة وبنى يفرن من زناتة ٠

وعندما أفسد الخوارج الصفرية فى القيروان وانتهكوا حرمة الاعراض والمساجد خرج الى القيروان ابو الخطاب عبد الأعلى بن السمح على راس الخوارج الاباضية الذين يقيمون فى جبل نفوسة جنوب طرابلس حيث التقى بالخوارج الصفرية خارج القيروان ودارت بينهما معركة انهزم فيها الصفرية واستولى الاباضية على القيروان سنة ١٤١ هـ واستمروا يحكمونها الى ان هزمهم محمد بن الأشعث سنة ١٤٤ هـ واعاد سلطة الخلافة فى المشرق عليها ٠

وقد عاود الاباضية محاولة الاستيلاء على القيروان ثانيا ايام عمر بن حفص واستولوا عليها لمدة وجيزة الى ان أخرجهم منها يزيد ابن حاتم[١١٠] ٠

وبالرغم من استيلاء الخوارج على القيروان مرتين فى هذه الفترة فان المؤرخين وأصحاب الطبقات لا يذكرون ان هناك من أهل القيروان من اعتنق مذهبهم وحتى ان خرجوا للقتال فى صفوفهم عند استيلاء الخوارج عليهم كما حدث مع ورفجومة الصفرية فانهم ينسحبون أثناء المعركة لكى ينهزم الخوارج مما يدل على أنهم كانوا يخرجون مكرهين ٠

ومع ن الخوارج أصحاب حركة فكرية ذات مبادىء فى العقائد

---

(١١٠) انظر الطاهر الزاوى تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ١٢٠ ـ ١٢٢ ، السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام فى افريقية ص ٣٦ ـ ٣٩ ٠

وقد تمكنوا من بسط نفوذهم على القيروان بعض الوقت الا انه يبدو ان احدا من أهل القيروان لم يمل اليهم • ولم يذكر لنا احد مؤرخى الطبقات انه كان لهم فى هـذه الفترة حلقات يبثون فيها تعاليمهم فى القيروان ولم يكن لهم من الأتباع من ينشر مذهبهم بالمناظرة فيبقى فى القيروان لنشر هـذه المبادىء •

واذا كنا قد رأينا انه كان للمعتزلة والمرجئة حلقات فمن الممكن أيضا أن يكون للخوارج كذلك حلقات فى القيروان لنشر مذهبهم وعقائدهم الا ان المؤرخين لم يذكروا لنا ذلك فى هـذه الفترة ولعله اهمل ذكره عن تعمد كرها فى الخوارج •

واتماما لكلامنا فى بداية الحياة الفكرية نحب ان ننبه الى أبا العرب تميم اشـار الى ما يفيد عن وجود بداية لحياة فكرية فى الطب فى القيروان وذلك عندما ذكر عرضا ان سبب وفاة عبد الرحمن بن أنعـم انه أكل حيتانا وشرب لبنا على مائدة الأمير يزيد بن حاتم وكان يوحنا المتطبب حاضرا وكان عبد الرحمن قد جاوز السبعين سنة فقال يوحنا ان كان الطب حقا فان الشيخ يهلك الليلة • فلما كانوا فى السحر سمعوا صيحة فقيل ما هذه الصيحة قيل عبد الرحمن مات(١١١) •

وهـذا يدل على انه كان هناك بعض الأطباء الذين يقومون بدراسة الطب وبمعالجة المرضى وذلك يشير الى وجود نواة طبية للحركة الطبية سوف تنمو وتتسع فى فترة ازدهار الحياة الفكرية •

كما نلاحظ وقد رأينا رحلة العلماء الى المشرق : مصر والشـام ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد من أجل تحصيل العلم والمعرفة مع أداء فريضة الحج ، وقدوم بعض العلماء من هـذه المدن الى القيروان – ان هـذه الرحلات كانت المقدمة لظهور الحركة الفكرية فى تسـجيل

---

(١١١) انظر ابو العرب طبقات ص ٩٩ ونقل هـذا عنه المـالكى رياض ص ١٠٢ ونقل عن المـالكى الدباغ جـ ١ ص ٢٣٧ •

الرحلات وبيان المسافات بين المدن ، والحديث عن عوائد وطبائع سكان البلاد وما تتصف به كل بلدة أو مكان بما يعبر عنه بكتب المسالك والممالك أو كتب الرحلات ٠

ولا شك ان هؤلاء العلماء وهم من المفكرين قد تحدثوا عند عودتهم الى القيروان عن المسافة بين الأماكن التى حلوا فيها ووصفوا حالة البلاد التى مروا بها وان لم يكونوا قد سجلوا ذلك فى كتب كما حدث بعد ذلك عندما ازدهر هذا الفن خلال عصر الازدهار ٠

فكيف تم ذلك ؟

ذلك ما سنراه فى الفصل القادم ٠٠٠٠٠٠

* * *

الفصل السادس

إزدهار الحياة الفكرية

تمهيـــد :

يواكب قيام الدولة الأغلبية نمو الحياة الفكرية فى القيروان وازدهارها خلال حكمها لتشمل معظم العلوم التى كانت موجودة آنذاك ان لم يكن كلها فكانت القيروان غاصــة بالعلماء فى شتى العلوم والفنون والآداب الذين نشــأوا فيها والذين سعوا الى المشرق ليغترفوا من العلوم هناك ثم قدموا بكل ذلك الى القيروان كما امتلأت القيروان بالعلماء الوافـدين اليها لنشر علمهم فيها أو استقدمهم الحكام لنشر العلوم فيها وبذلك صـارت القيروان مركزا علميا أصيلا ٠ وقصدها الطلاب من شتى أنحاء المغرب والأندلس وصقلية وغيرها من الجزر التى بســـط المسـلمون سلطانهم عليها كما كانت القيروان تمد هــذه الأقاليم بالعلماء الذين تخرجوا فى حلقات الدرس التى كانت تعقد فيها ٠

وقد استمر ازدهار الحياة الفكرية بعد ذلك خـــلال فترة حكم الفاطميين ٠ وان كان قدوم المذهب الشيعى واسـتيلاء معتنقيـه على السلطة وعملهم على حمل العلماء المخالفين له على أن يأخذوا بـه ٠ ويطبقوه فى حياتهم خاصــة فى بداية الاستيلاء على السـلطة كان له أثر كبير فى قيام وشيوع الاضطهاد للعلماء وخاصة للفقهاء المالكيين الذيـن لم ينقادوا للمذهب الشـيعى وأخذوا يدافعوه بالحجة ويردوه بالكتاب والسـنة ولم يتراجع المــالكيون عن مذهبهم رغم أن ذلك قد حمل بعضهم الى أن يلقى ربه شهيدا على أيدى الشـيعة ٠

ولكن هذه الحوادث لم تمنع من أن يضطرد ازدهار الحيـاة الفكرية فى شتى العلوم والآداب ، وفيما يلى ما يوضح هذه الحقيقة ٠

العلوم الشرعيـــة : الفقـه

مع وجود العلماء الذين تحدثنا عن بعضهم فى بداية الحركة الفكرية فى مدينــة القيروان وبثهم لعلومهم فيها الا أن الرحلة نحو المشرق قد استمرت وازدادت للاغتراف من العلوم وأخذ أبناء القيروان يجوبون

مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها لتحصيل العلوم وخاصة الشرعية منها وتبحر كثير من العلماء فى الفقه والتفسير والحديث وقد مال كثير من الفقهاء الى مذهب الامام مالك وأخذ البعض بمذهب ابى حنيفة وهما فى بداية هذه الفترة خلال حكم الأغالبة يمثلان المذهبين السائدين فى القيروان وان كانت الغالبية تميل الى مذهب الامام مالك ولكن ذلك لم يمنع من وجود المذاهب الأخرى وأخذ بعض العلماء بآرائها ويذكر القاضى عياض أن « افريقية وما وراءها من المغرب كان الغالب عليها فى القديم مذهب الكوفيين - يعنى مذهب ابى حنيفة - الى ان دخل على بن زياد وابن اشرس والبهلول بن راشد وبعدهم اسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفشوا الى أن جاء سحنون فغلب فى أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده فى اصحابه فشاع فى تلك الأقطار الى وقتنا هذا وكان بالقيروان قوم قلة فى القديم أخذوا بمذهب الشافعى ودخلها شىء من مذهب داوود ولكن الغالب اذ ذاك مذهب المدينة والكوفة »[١] .

ويذكر صاحب جمهرة أنساب العرب من فقهاء الشافعية محمد ابن الحسن الفقيه الشافعى بالقيروان[٢] . ويحدثنا القاضى عياض بأن أبا عبد الله محمد بن غلبون الصنهاجى كان فقيها بمذهب مالك ... وله ميل الى مذهب الشافعى[٣] كما يحدثنا الدباغ بأن الفضل بن نصر الباهى المعروف بابن الرايس كان يميل الى المذهب الشافعى وقال عنه المالكى كان عالما بمذهب الشافعى[٤] .

وبذلك يظهر لنا خطأ ما ذهب اليه المقدسى ان « سائر المغرب

---

(١) المدارك لعياض ج ١ ص ٥٤ يقصد بمذهب الكوفيين مذهب الأحناف . وبمذهب المدينة مذهب مالك .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى ص ٤٣ ، ٤٤

(٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

(٤) الدباغ معالم ج ٣ ص ٦٨

الى مصر لا يعرفون مذهب الشافعى[٥] الا اذا قصد بذلك ميل العامة والشعب الى الآخذ بمذهب الشافعى .

ويذكر ناشر الرياض فى مقدمته « أن صاحب الرياض أو جده كان شافعيا فكان يسمى بابن الشافعى ، فلما اتصل بالشيخ ابى الحسن القابسى لم يرض أن يسمى كبير تلاميذه بابن الشافعى فسماه المالكى ابن المالكى »[٦] ويحدثنا ابن فرحون بأن عبد الله بن طالب القاضى الف كتابا فى الرد على المخالفين من الكوفيين والشافعى[٧] ورده على الشافعى يدل على معرفة مذهبه وان هناك من كان يتمذهب به .

كما وصل الى القيروان كذلك المذهب الحنبلى فيذكر عياض ان بعض اصحاب سحنون اعرس فدعا جماعة من اصحابه « وفيهم رجل من أهل المشرق من أصحاب ابن حنبل قدم علينا وكنا نسمع منه »[٨] .

وبذلك نرى أن المذاهب الأربعة المشهورة قد وصلت الى القيروان وان كان بعضها كان له الغلبة وكثرة الاتباع وبعضها كان لا يعتنقه الا أفراد قليلون وهذا دليل على أن كل الآراء التى كانت تدور حول التشريع الاسلامى فى أرجاء العالم الاسلامى كانت معروفة وتدرس فى القيروان .

ولقد ساعد على وصول هذه المذاهب بالاضافة الى رحلة علماء القيروان الى المشرق وفود العلماء من المشرق الى القيروان فيحدثنا أبو العرب أن من هؤلاء العلماء الذين قدموا الى القيروان ونشروا فيها العلم ... أبو محمد عبد العزيز بن يحيى المدنى الهاشمى الذى قدم القيروان سنة خمس وعشرين ومائتين وخرج أول سنة ست وعشرين

---

(٥) المقدسى احسن التقاسيم ـ ص ٢٣٦
(٦) انظر مقدمة الرياض ص ٣٤
(٧) الديباج المذهب لابن فرحون ص ١٣٥
(٨) عياض المدارك ج ٢ ص ٦١٣

وكان من الحفاظ سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير وكان معروفا بمدينة الرسول ﷺ[٩] كما قدم من الكوفة عبد الله بن المغيرة الذى من سفيان الثورى ومن كبار الكوفيين وروى عنه من أهل افريقية جماعة منهم سليمان بن عمران وكان يحدث عنه عبد الملك بن حبيب فقيه أهل الأندلس[١٠] • ويذكر ابن فرحون أن أحمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد المؤمن سكن مكة وروى عنه الجلة ثم دخل العراق وأخذ عن الشيوخ بها وأخيرا سكن القيروان واخذ عنه الناس بها[١١] •

ولقد كان الأمراء يشجعون الحياة الفكرية ويعقدون المناظرات بين العلماء للوصول الى وجه الصواب فيذكر ابو العرب « أن عبد الله ابن ابى حسان قال : دخلت على زيادة الله بن ابراهيم فأصبت عنده أسد بن الفرات وأبا محرز وهما يتناظران فى النبيذ المسكر وابو محرز يذهب الى تحليله واسد يذهب الى تحريمه فلما أن قعدت قال لى زيادة الله : ما تقول يا أبا محمد ؟ فقلت له قد علمت سوء رأيى فيه وقاضياك يتناظران فيه بين يديك فقال لى ناظرنى أنت ودعهما • ثم قال لهما اسكتا فقال لى ما تقول ؟ فقلت : أصلح الله الأمير كم دية العقل ؟ فقال : وماذا من هذا ؟ فقلت بجوابك ينتظم سؤالى فقال لى : دية العقل الف دينار فقلت له : أصلح الله الامير فيعمد الرجل الى ما فيه ألف دينار فيبيعه بزجيجة تسوى نصف درهم ؟ فقال لى يا ابا محمد أنه يزول ويرجع فقلت له بعد ماذا أصلح الله الامير ؟ بعد أن قاء فى لحيته وكشف سوءته الى أهله وسب هذا وقتل هذا وضرب هذا فقال لى : صدقت والله صدقت »[١٢] •

هذه الحرية الفكرية المتجلية فى تلك المناظرات قد أدت الى تقدم الحياة الفكرية وازدهارها مما جعل علماء القيروان يقارنون بغيرهم

---

(٩) ابو العرب ـ طبقات ص ١٥٨

(١٠) المرجع السابق ص ١٦١

(١١) ابن فرحون الديباج المذهب ص ٣٧ ، ٣٨

(١٢) أبو العرب طبقات ص ١٧١ ، ١٧٢

من علماء الامصار الأخرى ويتمنى علماء المراكز الاسلامية أن يكون بينهم النابغون من علماء القيروان يقول عياض فى حديثه عن ابن محمد بن ابراهيم بن عبدوسى هو رابع المحمدين الاربعة الذين اجتمعوا فى عصره من ائمة مذهب مالك لم يجتمع فى زمان مثلهم اثنان مصريان ، محمد ابن عبد الحكم وابن المواز واثنان قرويان ، ابن عبدوسى وابن سحنون[13] .

ويذكر الدباغ أن سليمان بن سالم قال فى مجالسه دخلت مصر ورايت العلماء فيها متوافرين والمدينة ومكة وبها ثلاثة عشر محرابا فما رايت فيهم مثل سحنون وابنه من بعده[14] .

ويفيدنا بعض المؤرخين أن الوئام والصفاء كان سائدا بين المالكيين والاحناف فيخبر المقدسى انه ما رأى فريقين احسن اتفاقا واقل تعصبا منهم[15] .

ولكن يبدو أن ذلك كان لفترات قصيرة فعندما اسند ابراهيم بن احمد القضاء الى ابن عبدون وكان من كبار الكوفيين المتعصبين امتحن على يديه جماعة من فقهاء المالكية واهل السنة ضربهم ونكل ببعضهم واطلقهم واغرى الأمير ببعضهم . فقتل منهم ابراهيم بن الدمنى وابا القاسم مولى مهرية واحمد بن عبدون العطار وغيرهم[16] .

وعندما قامت الدولة الفاطمية لاقى العلماء المالكيون كثيرا من العنت والاضطهاد والقتل والتشريد والتعذيب وقد أراد أبو العباس أخو أبى عبد الله الشيعى أن ينفى من القيروان كل من يذهب من

---

(١٣) عياض المدارك جـ ٣ ص ١١٩

(١٤) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٥٣

(١٥) المقدسى احسن التقاسيم ص ٢٣٦

(١٦) عياض المدارك جـ ٣ ص ٢٣٣ وذكر ان من امتحن كان من اهل السنة : يدل على أنه امتحان فى العقيدة .

الفقهاء مذهب أهل المدينة فلم يجبه اخوه ابو عبد الله[17] الى ذلك .

ولكنهم تتبعوا من لم ينفذ أوامرهم فعاقبوه « ففى سنة ٣٠٧ هـ قتل بالقيروان عروس المؤذن بمسجد ابن عياش الفقيه بعد ان ضرب بالسياط وقطع لسانه اذ شهد عليه قوم من المشارقة بانه اذن ولم يقل : حى على خير العمل »[18] كما كان يضرب ويطاف به فى الأسواق من يفتى بقول مالك أو يطعن على السلطان ففى سنة ٣١١ هـ ـ ضرب محمد بن العباس الهذلى الفقيه بالدرة فى الجامع عريانا وصفع قفاه حتى جرى الدم من رأسه وبرح عليه فى أسواق القيروان اذ شهد عليه جماعة من المشارقة بأنه يطعن على السلطان ويفتى بمذهب مالك[19] .

ويحدثنا الدباغ عن قتل الفاطميين لبعض العلماء الذين كانوا لا يأخذون بمذهبهم من تفضيل على بن أبى طالب على غيره من الصحابة فذهب ضحيتهم فى ذلك ابراهيم بن محمد بن حسين الضبى الشهيد المعروف بابن البرذون وكان فقيها بارعا فى العلم لم يكن فى شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة واقامة الحجة على المخالفين منه فأمر أبو العباس الشيعى عامل القيروان حسن بن أبى خنزير أن يقتله مع الفقيه أبى بكر بن هذيل فضرب رقابهما « وطيف بهما مسحوبين على وجههما قد ربطا الى سند بغل فجرهما من باب تونس الى باب أبى الربيع فصلبا هنالك »[20]

ولقد كان هذا الاضطهاد الذى حاق بعلماء مذهب مالك وعدم انصياعهم للشيعة أو الأخذ بتعاليمهم مما حمى المذهب المالكى من الاندثار وجعل العامة يتمسكون به ولا يحيدون عنه ، كما انهم اغتنموا اول

---

(١٧) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٥٠ ، ١٥١

(١٨) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣

(١٩) المرجع السابق ص ١٨٨

(٢٠) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٧٧

فرصة سنحت لهم للثورة على الفاطميين وذلك عندما انضموا الى الثائر البربرى أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى عندما اقبل فى قبائل زناته يقاتل الفاطميين سنة ٣٣٣ هـ وذلك لأن علماء المالكية كانوا يرون كفر الفاطميين الذين اضطهدوهم وناصبوهم العداء وبالغوا فى ايذائهم ويذكر عياض فى ذلك أمورا لا تدرى مدى صحتها[٢١] .

لكل هذا اتفق فقهاء القيروان للخروج مع ابى يزيد لقتال الفاطميين فخرج معه « ابو الفضل الممسى وربيع بن سليمان القطان وأبو العرب بن تميم وأبو اسحاق السبائى وابو عبد الملك بن مروان ابن منصور الزاهد وأبو حفص عمر بن محمد العسال وعبد الله بن محمد الشقيقى فى جماعة المدنيين وابراهيم بن محمد المعروف بالعشاء الحنفى وغيرهم »[٢٢] .

ولقد استطاع ابو يزيد بمساعدة من خرج معه من علماء القيروان وسكانها أن .. يتغلب على الفاطميين وحصرهم فى مدينة المهدية الا انه أحب بعد ذلك أن يتخلص من علماء القيروان لعقيدته الخارجية فقال لأصحابه اذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان حتى يتمكن اعداؤهم منهم . فقتلوا منهم من اراد الله سعادته ورزقه الشهادة فمنهم الممسى وربيع ومحمد بن على البقال فى خمسة وثلاثين رجلا من الفقهاء والصالحين وذلك فى رجب سنة ٣٣٣ هـ ففارق الناس أبا يزيد بالقيروان وأظهروا السنة وحلقوا بالجامع[٢٣] .

والذى يبدو لى أن القاضى عياضا قد بالغ فى وصفه للأعمال التى قد قام بها الشيعة الفاطميون خاصة بالنسبة للنبى ﷺ والصحابة لانها أعمال لا تصدر عن مسلم بله من يدعى أنه خليفة المسلمين وأن

---

(٢١) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١٨ وقد ذكر هناك أمثلة من ذلك الاضطهاد .

(٢٢) المرجع السابق ص ٣١٩

(٢٣) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٢١

القاضى عياض كان يتحدث عنها متاثرا بمالكيته وكرهه للمذهب الشيعى وان كنت لا اشك انه من الممكن وقوع بعض الأخطاء الخطيرة خلال وقوع المصادمات الأهلية ٠

واذا كان علماء المالكية خلال فترة حكم الفاطميين للقيروان قد لاقوا الاضطهاد والقتل والتعذيب الا ان هذا الاحتكاك بين المذاهب فى القيروان قد دفع الى بذل كل الطاقات فى سبيل دفاع علماء كل مذهب عن مذهبهم مما ادى الى اثراء الحياء الفكرية بالأفكار والآراء وكانت مجالا لظهور علماء للشيعة كانوا يدرسون مذهبهم ويعلمونه مما اضاف الى الفكر التشريعى فى القيروان عنصرا جديدا وفى حديثنا عن أشهر العلماء فى عصر الازدهار سوف نتحدث عن فقيه الشيعة وقاضيهم أبى حنيفة النعمان ٠

والحقيقة انه قد نبغ خلال فترة الازدهار عدد كبير من الفقهاء فى مختلف المذاهب وخاصة المذهب المالكى الذى نبغ فيه فقيهات كذلك مثل خديجة بنت سحنون التى كانت من أحسن النساء واعقلهن ٠ ولا شك انه كان هناك غيرها من المتفقهات فى الدين(٢٤) ولا يمكن دراسة حياة كل أولئك الأعلام لان هذا البحث ليس مخصصا لدراستهم وانما للحياة الفكرية فى القيروان بجوانبها المختلفة ولذلك سنكتفى بالحديث عن بعض الأعلام الذين حملوا راية الحياة الفكرية الفقهية فى القيروان والذين يمثلون نماذج كاملة للحياة الفكرية الفقهية فى هذه الفترة ٠

١ ـ أسد بن الفرات :

أبو عبد الله اسد بن الفرات مولى بنى سليم ولد بحران من ديار بكر سنة ١٤٢ هـ وأصله من خراسان من نيسابور ٠ وقدم الى القيروان مع أبيه سنة ١٤٤ هـ وهو ابن عامين حيث كان أبوه جنديا فى جيش

---

(٢٤) انظر : عياض المدارك جـ ٣ ص ١١٩ حسن حسنى بساط العقيق ص ٣٦

ابن الأشعث وقد اقام فى القيروان خمس سنين ثم رحل الى تونس فاقام بها تسع سنين قد حفظ خلال ذلك القرآن ٠ وقام بتعليم القرآن فى قرية على وادى بجردة ٠ ثم عاد الى تونس ولازم على بن زياد وسمع منه الموطأ وتعلم منه العلم ودرس عليه كتابه الذى وضعه فى الأحكام الفقهية وسماه « خير من زنته »(٢٥) ٠

وفى سنة ١٧٢ هـ رحل الى المشرق للاستزادة من العلم والاغتراف من معينه الأصلى فقصد مالك بن أنس فى المدينة وسمع منه الموطأ وقد ابدى رغبة فى طلب العلم جعلت مالكا يقول لآذنه ان يدخل أسدا مع المصريين بعد أن كان يدخل مع عامة الناس(٢٦) وكان أسد نهما فى طلب العلم ميالا الى تحليل الصور وتسلسل المسائل والاستكشاف عن الأصول فبعد أن فرغ من سماعه منه قال له « زدنى يا أبا عبد الله سماعا منك » وكأنه استقل الموطأ واستبطأ الطريقة التى كان يسير عليها مالك فى درسه بأن يجيب اذا سئل عن مسألة فيكتبها أصحابه فيصيرلكل واحد منهم سماع مثل سماع ابن القاسم فعندما استزاده أسد أجابه مالك : « حسبك ما للناس » ويذكر بعض المؤرخين أن أسدا سأل مالكا يوما عن مسألة فأجابه فيها ، فزاد أسد فى السؤال فأجابه ، فزاد أسد فى السؤال فأجابه ثم زاد فقال له مالك : حسبك يا مغربى ان أحببت الرأى فعليك بالعراق ٠

ويذكر أنه قال له « سلسلة بنت سليسلة : اذا كان كذا وكذا كان كذا وكذا ان أردت هذا فعليك بالعراق »(٢٧) ٠

---

(٢٥) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦٣ ، المالكى رياض ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٦٥ ، الدباغ معالم جـ ٢ س ٣٢٢ ، الفاضل بن عاشور – اعلام الفكر الاسلامى س ٢٦

(٢٦) كان أذن مالك يدخل اهل المدينة ثم المصريين ثم عامة الناس ٠

(٢٧) انظر المالكى رياض ص ١٧٤ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٣ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٦٦

توجه أسد الى العراق والتقى بأصحاب أبى حنيفة النعمان فى الكوفة أبى يوسف صاحب أبى حنيفة الأكبر واسد بن عمر ، ومحمد ابن الحسن وغيرهم كثير وكتب الحديث عن يحيى بن أبى زكريا بن أبى زائدة والمسيب بن شريك(٢٨) وغيرهما .

ومع أن أسدا قد قصد العراق من اجل العلم الا أنه قد حصل على قدر كبير منه فى المدينة بسماعه للموطأ على مالك بحيث استطاع أن يكون لما عنده من علم الأثر فى العراق فيذكر أن أسدا أتى الى أبى يوسف فوجده جالسا ومعه شاب يملى عليه مسألة فلما فرغ منها قال ليت شعرى ما يقول فيها مالك ؟ فقال أسد كذا وكذا يقول أسد فنظر الى فلما كان فى اليوم الثانى كان مثل ذلك وفى الثالث مثله فلما افترق الناس دعانى وقال من اين انت ومن اين اقبلت ؟ قال فأخبرته . قال وما تطلب ؟ قلت ما ينفعنى الله به فعطف على الشاب الجالس فقال ضمه اليك لعل الله ينفعك به فى الدنيا والآخرة فخرجت معه الى داره فاذا هو محمد بن الحسن فلزمته حتى كنت من المناظرين من أصحابه(٢٩) .

وكما استقل أسد السماع من مالك اشتكى الى محمد بن الحسن قلة السماع منه فقال له محمد « اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك . قال : فكنت ابيت عنده وكنت فى بيت فى سقيفته ـ وكان يسكن العلو ـ فكان ينزل الى ويجعل بين يديه قدح فيه الماء ثم يأخذ فى القراءة فاذا طال عليه الليل ورآنى قد نعست ملأ يده ونضح به فى وجهى فانتبه وكان ذلك دأبى ودأبه حتى أتيت ما اريد من السماع على يديه »(٣٠) .

---

(٢٨) أبو العرب طبقات ص ١٦٣ ، ١٦٤

(٢٩) أبو العرب طبقات ص ١٦٤ ، عياض المدارك ج ٢ ص٤٦٧ ، ابن فرحون الديباج ص ١٩٨

(٣٠) المالكى رياض ص ١٧٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٧ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٥

ومع هذه الرغبة الملحة من أسد فى طلب العلم وتحصيله فقد نفد ماله ولم يبق معه من المال ما يكفى لانفاقه على نفسه وعندما لاحظ استاذه محمد بن الحسن ذلك أرسل اليه ليلا بثمانين دينارا مع اعتذار عن عدم علمه باحتياجه الى المال · ولما أزمع أسد العودة الى القيروان ولا مال معه ساعده استاذه بذكر وضعه عنه ولى العهد الذى ساعده بالمال لينفق منه حتى يصل الى القيروان(٣١) ·

وبعد أن أدرك أسد بغيته من الفقه والحديث فى العراق وكان مالك بن انس قد توفى اثناء اقامته فى العراق عاد اسد الى مصر وبها كثير من اصحاب مالك فأحب أسد أن يحصل من اصحاب مالك ما فاته ادراكه منه عندما غادر المدينة الى العراق وكان لأسد وجهة نظر فى أن يمزج بين مذهب أهل العراق ومذهب أهل المدينة أى أن يدعم الآراء بالأحاديث أو بأقوال صاحب مذهب الحديث ·

وفى مصر اجتمع أسد مع عبد الله بن وهب فسأله عن مسألة فأجابه ابن وهب بالرواية فأراد أن يدخل عليه غير الرواية فقال ابن وهب : حسبك اذ أدينا اليك الرواية · ثم أتى أشهب فسأله فأجابه اشهب بقوله لا بقول أبى حنيفة أو مالك · فتركهما وأتى الى عبد الرحمن ابن القاسم فسأله عن مسألة فأجابه ثم أدخل عليه فأجابه حتى انقطع أسد فى السؤال فقال له ابن القاسم : يامغربى زد وقل لى من أين قلت حتى أبين لك قول مالك فعند ذلك قام أسد على قدميه فى المسجد فقال : « معاشر الناس ان كان مالك بن انس قد مات فهذا مالك بن انس » فكان يغدو اليه كل يوم فيسأله ويجيبه ابن القاسم حتى دون ستين كتابا وسماها الأسدية(٣٢) ·

---

(٣١) المالكى رياض ص ١٧٦ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٧ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٦٢٥

(٣٢) انظر المالكى رياض ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ٨

ويحدثنا عياض عن طريقة اسد مع ابن القاسم بأن أسدا قال : « كنت أكتب الأسئلة بالليل فى قنداق من أسئلة العراقيين على قياس قول مالك واغدو عليه بها فأسأله عنها . فربما اختلفنا فتناظرنا على قياس قول مالك فيها . فأرجع الى قوله او يرجع الى قولى . قال : وقال لى ابن القاسم كنت اختم فى اليوم والليلة ختمتين فقد نزلت لك عن واحدة رغبة فى احياء العلم[33] .

وبهذه الطريقة استطاع أسد أن يؤلف كتابه الأسدية المكونة من ستين كتابا جمع فيه غالب مسائل مالك بهذه الطريقة من المراجعة بينه وبين ابن القاسم وقد أمده ابن القاسم ـ لما لاحظه عنده من الحرص على العلم ـ عند رجوعه الى افريقية بسماعه عن مالك وقال له : ربما أجبتك وأنا على شغل ولكن انظر فى هذا الكتاب فما خالفه مما أجبتك فيه فأسقطه[34] .

وبعد أن انتهى أسد من تدوين كتابه الأسدية رغب أهل مصر فى نسخها منه فأبى عليهم فرفعوا امره الى القاضى بمصر فاقر القاضى حق أسد فى ذلك وقال لأهل مصر : « اى سبيل لكم عليه » رجل سأل رجلا فأجابه وهو بين أظهركم فاسألوه عما سأله . فرغبوا الى القاضى فى سؤاله أن يقضى حاجتهم فسأله القاضى فأجابه الى ذلك فنسخوها حتى فرغوا منها »[35] .

ومن هنا ندرك أن أسدا بتاليفه الأسدية قد ساهم فى الحياة الفكرية فى مصر ويدل على ذلك حرص أهل مصر على نسخ الأسدية من أسد كما ساهم من قبل بتبليغ رأى مالك الى أهل العراق فى حلقة أبى يوسف .

---

(٣٣) عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٦٩

(٣٤) المرجع السابق ص ٤٧٠

(٣٥) المالكى رياض ص ١٧٩ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧٠ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٨

لقد شعر أسد بالرضا عما حصل من علم ومعرفة ـ انفق فيها نحو عشر سنوات من عمره مغتربا فى طلب العلم والجد فى تحصيله وحضر خلالها على مالك فى المدينة وعلى علماء العراق وعلماء مصر واخذ عنهم علمهم فازمع العودة الى وطنه القيروان ليقوم برسالته فى نشر العلم والمعرفة وبث روح جديدة فى الحياة الفكرية فيها وليكون عاملا جديدا يضاف الى ما قد نما فى بداية الحركة الفكرية(٣٦) . فعاد الى القيروان سنة ١٨١ هـ وبدأ يقوم بدوره للمساهمة فى الحياة الفكرية فسمع منه خلق كثير وتفقهوا عليه منهم سحنون بن سعيد وامثاله من المدنيين ـ أى من يقول بقول أهل المدينة كما سمع منه كل معروف بصحبته محمد بن وهب وسليمان بن عمران ومحمد بن قادم وابى المنهال وسائر من يقول بقول الاحناف وكان اسد فى تدريسه يأخذ من اقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وافق الحق عنده يقول المالكى . ويحق له ذلك لاستبحاره فى العلوم وبحثه عنها وكثرة من لقى من العلماء والمحدثين(٣٧) .

وبذلك استطاع أسد أن يجمع فى حلقته من يأخذ بمذهب اهل المدينة ومن يميل الى رأى أهل العراق لانه درس وتعمق فى المذهبين وقد قال أبو سنان زيد بن سنان الأسدى « كان اسد اذا سرد اقوال العراقيين يقول مشايخ كانوا يجالسونه ممن يذهب الى مذهب أهل المدينة : أوقد القنديل الثانى يا أبا عبد الله فيسره أقاويل المدنيين »(٣٨) .

وقد أثارت طريقة أسد فى الجمع والمزج بين المذهب المالكى

---

(٣٦) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٤٧ ، الفاضل ابن عاشور أعلام الفكر الاسلامى ص ٢٧

(٣٧) انظر المالكى رياض ص ١٨١ ، ١٨٢ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧٤

(٣٨) انظر المالكى رياض ص ١٨٣ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١١ ، المدارك عياض جـ ٢ ص ٤٧٥

والحنفى وابداء الرأى بعض العلماء والمتعبدين فى القيروان ومعظمهم كان يميل الى الآخذ بالآثار ومذهب السلف ومذهب مالك فبين لهم أسد وجهة نظره فيما يذهب اليه فقد أتى عبد الخالق المتعبد الى أسد فقال له : « يا أبا عبد الله جئتنا بالرأى وتركت الآثار وما كان عليه السلف » فقال له أسد « اما علمت يا عبد الخالق أن قول أصحاب النبى ﷺ هو رأى لهم وهو أثر لمن بعدهم وكذلك التابعين هو رأى لهم وهو أثر لمن بعدهم » ؟ وأما ما فى كتبى من قول ابن القاسم « أرى وأظن » فلقد كنت أسأله عن المسألة فيجيبنى فأقول له « هذا قول مالك » ؟ فيقول لى : « كذلك أحسب وكذلك أرى » وكان ابن القاسم ورعا وكان يكره أن يهجم على الجواب وهو يشك فيه ولقد دفع الى لما أردت الانصراف الى افريقية كتابا وقال لى : « كنت أجيبك بأجوبة وربما شككت فيها انها قول مالك . وهذا سماعى من مالك فى هذا الكتاب فخذه ليكون عندك وقابل بما فيه واصلح ما خالفه عليه « فسكت عبد الخالق »[39] .

وكان أسد يعلم تلاميذه كيف يفتون عندما تتعدد الآراء وتختلف وهو الذى درس المذاهب وعرف اختلافها . فقد سئل عن الرجل يسأل عن المسألة وهو يعرف اختلاف الناس فى مثلها ، هل يفتى بالأقاويل أو يستحسن أحدهما فيفتى به ؟ فقال : « اذا كان المفتى من أهل النظر فلا يفتى بالقولين لانه يدع السائل فى حيرة ، ولكنه يفتى بأحسن الاقاويل عنده ، وان كان من غير أهل التمييز فليخبر المستفتى بما روى عن العلماء ولا يتخير له »[40] . وهذا يدل على فهمه وعدم تعصبه للآراء ما دام له رأى ثاقب يرى ما يطمئن اليه .

وقد ولى زيادة الله بن الأغلب أسد بن الفرات القضاء فى القيروان سنة ٢٠٣ هـ شريكا لابى محرز القاضى فكانا قاضيين فى وقت واحد . وقد ظل قاضيا فى القيروان الى أن خرج الى صقلية غازيا سنة ٢١٢ هـ

---

(٣٩) المالكى رياض ص ١٨٢ ، ١٨٣

(٤٠) المالكى رياض ص ١٨٣ ، ١٨٤

وقائدا للجيش الذى ارسل لفتحها فكان قاضيا واميرا للجيش وقد أبدى من ضروب البسالة والشجاعة ما جعله يفوز بالشهادة وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣ هـ ٠

وقد كان أسد ثقة لم يكن فيه شىء من البدع ، شجاعا فى مقاومة الباطل ثم فى الجهاد فى سبيل الله لاتاخذه فى الحق لومة لائم ٠ وقد حاول منصور الطنبذى الثائر على زيادة الله بعد ان استولى على القيروان أن يستميل القاضيين اليه : فخرج اليه أسد وأبو محرز وهما جميعا قاضيان ٠ فدخلا على منصور وعنده وجوه الاجناد وغيرهم فقال لهما منصور فى كلام كان منه أخرجا معنا اما تعلمان ان هذا اليائس ظلم المسلمين ؟ فاما ابو محرز فانه خاف من منصور وأصحابه فقال نعم وظلم اليهود والنصارى وأما أسد فقال لهم : قد كنتم اخوانا له قبل هذا الوقت وأنتم وهو على مثل هذا الحال وكما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فكذلك يسعنا الوقوف عنه وحده[41] ٠

وكان أسد شديدا على من يخالفه فى حلقة درسه وخاصة فى العقائد فقد حدث أسد يوما بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة وسليمان الفراء فى مؤخر المجلس فتكلم الفراء وأنكر فسمعه أسد فقام اليه وجمع بين طوقه ولحيته واستقبله بنعله فضربه ضربا شديدا حتى أدماه[42] ٠

وهذه الصراحة والشجاعة هى التى جعلت مالكا وقد لاحظ ذلك منه يقول له عندما ودعه « أوصيك بتقوى الله تعالى والقرآن والمناصحة لهذه الأمة »[43] وجعلت محمد بن الحسن يمدحه بمكة ويصفه بالمناظرة والدراسة والسماع[44] ٠ وعندما ذهب أسد ليودع أستاذه ابن القاسم قبل

---

(٤١) المالكى رياض ص ١٨٦ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٣

(٤٢) أبو العرب طبقات ص ١٦٤ ، ١٦٥

(٤٣) المالكى رياض ص ١٧٤

(٤٤) المالكى رياض ص ١٨٣ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٢

مغادرته مصر الى القيروان قال له ابن القاسم : « أوصيك بتقوى الله والقرآن ونشر هذا العلم »(٤٥) .

وقد حقق أسد ما توسمه أساتذته فيه فحضر عليه خلق كثير وسمعوا منه الأسدية والموطأ وغير ذلك من العلوم وانتشرت أمامته .

وقد وجد الباحث خلال رحلته الى تونس أنه يوجد بمكتبة القيروان العتيقة من الأسدية : كتاب السرقة وقطع الطريق رواية محمد ابن أبان المتوفى سنة ٢٨٠ هـ عن المعمر بن منصور عن أسد بن الفرات عن محمد بن الحسن الشيبانى عن أبى يوسف عن أبى حنيفة وأرقامه المسلسلة بالمكتبة فى سجل الصور من ١٠٣٥ الى ١٠٥٧ وهى مما وجد فى المكتبة من الفقه الحنفى الذى جاء به أسد من العراق ونشره فى القيروان . وتاليف هذه القطعة يجرى على طريقة السؤال : قلت أرايت والجواب قلت كذا .. وهى من الأسئلة الحنفية التى دخل بها اسد من العراق الى أصحاب مالك بمصر وأخذ الأجوبة عنها من عبد الرحمن ابن القاسم ودونها فى كتابه الذى سماه (الأسدية) فيما يظهر والقطعة فى حاجة لزيادة تمحيص .

وقد أحضر اسد معه الى القيروان عدا الاسدية كتبا لا يزال يوجد منها بمكتبه القيروان العتيقة جزء مخطوط من كتاب المبسوط لمحمد ابن الحسن الشيبانى رواية لأسد بن الفرات القيروانى ورقمه المسلسل فى السجل من ٨١٠ الى ٨٥٧(٤٦) .

وقد حث أسد الناس على طلب العلم والجد فيه وبيان الخير الذى يعود على طالبه ماديا ومعنويا عندما قام خطيبا وهو يتوجه الى غزو صقلية وقد صهلت الخيول وضربت الطبول ونشرت البنود فقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له . والله يا معشر الناس ماولى لى أب ولا جد

(٤٥) مجلة العربى عدد ١٠٤ ص ١٠٦.

(٤٦) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبه القيروان العتيقة .

ولاية قط ولا رأى أحد من سلفى مثل هذا قط . وما رأيت ما ترونه الا بالاقلام فاجهدوا أنفسكم واتبعوا ابدانكم فى طلب العلم وتدوينه وكاثروا عليه وأصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة[٤٧] .

وكان أسد يتحدث عن نفسه بثقة واعتزاز المؤمن فيقول : « أنا أسد وهو خير الوحوش وأبى فرات وهو خير المياه وجدى سنان وهو خير السلاح »[٤٨] .

ان أسدا هو اللبنة الأولى فى صرح ازدهار الفقه فى القيروان رحمه الله رحمة واسعة .

٢ - سحنون[٤٩] : أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى :

ولد فى القيروان سنة ١٦٠ هـ وأصله شامى من حمص قدم ابوه سعيد فى جند حمص فى القرن الثانى وقد نشأ فى القيروان وتعلم على مشايخها فأخذ عن العباس بن أشرس والبهلول بن راشد وعبد الله بن عمر ابن غانم ، ومعاوية الصمادحى . وذهب الى على بن زياد بمدينة تونس وتلقى عليه الموطأ للامام مالك بن انس كما اخذ الاسدية عن أسد بن الفرات بعد عودته من المشرق[٥٠] .

وفى سنة ١٨٨ هـ رحل سحنون الى المشرق وتلقى العلم عن كثير من علماء الامصار الاسلامية وقد أورد المالكى تفصيلا للعلماء الذين التقى بهم وأخذ عنهم والمدن التى ينتسبون اليها فقد سمع بمصر من ابن

---

(٤٧) المالكى رياض ص ١٨٨ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧٧

(٤٨) عياض المدراك جـ ٢ ص ٤٨٠

(٤٩) سحنون : لقب له سمى باسم طائر حديد النظر لحدته فى المسائل . انظر المدارك لعياض جـ ٢ ص ٥٨٦ .

(٥٠) المالكى رياض ص ٢٥٠ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٨٦ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٤٩ ، حسن حسنى : مجمل تاريخ تونس ص ٥٢ ، الامام المازرى ص ٤٤

القاسم ، وأشهب ، وابن وهب ، وعبد الله بن طليب المراوى ، وعبد الله ابن عبد الحكم ، وسعيد بن الليث بن سعد ، ويوسف بن عمرو ، وسمع بالمدينة من عبد الله بن نافع الصائغ ومعن بن عيسى ، وأبى ضمرة أنس ابن عياض ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن ابى سلمة الماجشون ، وسمع من سفيان بن عيينة . وأصله من الكوفة . ثم نزل مكة وسمع من عبد الرحمن بن مهدى (بصرى) ووكيع بن الجراح (كوفى) وحفص ابن غياث (كوفى) ويزيد بن هارون (واسطى) ويحيى بن سليمان (طائفى) وأبى داود الطيالسى (بصرى) وأبى اسحاق الازرق وغيرهم وقد عاد الى القيروان من رحلته سنة ١٩١هـ(٥١) .

وقد حاول سحنون خلال رحلته أن يستقصى مذهب مالك فى كل البلاد التى زارها ومن كل العلماء الذين التقى بهم وأن يجمع كل المسائل التى أخذت عنه وقد عبر سحنون عن تتبعه لكل أقوال مالك بقوله لتلميذه سليمان ابن سالم لما أراد الخروج الى الحج : « انك تقدم طرابلس وقد كان فيها رجال مدنيون ومصريون ثم تقدم الى مصر وبها الرواة ثم تقدم المدينة عش مالك ثم تقدم مكة . فاجتهد مجهودك فان قدمت على بنفظة خرجت عن دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها فاعلم أن شيخك كان مفرطا يعنى نفسه »(٥٢) .

وقد خرج سحنون من رحلته بالكتاب الذى حمل اسمه وخلده وتزعم به المذهب المالكى فى المغرب كله والمدونة التى هى استدراك على الاسدية وتصحيح لها فقد راجع سحنون ابن القاسم فى الاسدية مراجعة فقيه قد تفقه فى علم مالك فهذبها ابن القاسم مع سحنون واسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك وما أجاب فيه ابن القاسم أسدا بقوله : « وأظن

---

(٥١) المالكى رياض ص ٢٥٠ ، وانظر ابو العرب طبقات ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٥٨٧ ، ابن فرحون الديباج ص ١٦٠

(٥٢) المالكى رياض ص ٢٥٥

مالكا قال فى هذه المسألة كذا وكذا واخال مالكا قال كذا وكذا »[٥٣] وقد كتب ابن القاسم الى أسد ليعارض كتبه على كتب سحنون لانه رجع عن أشياء مما رواها عنه ولكن أسدا لم يرجع عما اتفق عليه مع ابن القاسم مع رجوع ابن القاسم عنه لانه فيما يبدو كان يرى لنفسه منزلة الاجتهاد والاختيار وكان اعراضه عن الرجوع الى قول ابن القاسم مما أدى الى أعراض الناس عن الاسدية وافسح الطريق أمام مدونة سحنون ٠

مال الناس الى التفقه بكتب سحنون التى عكف عليها سحنون بالتهذيب والتبويب والتنظيم ٠ والحق بها بعض المسائل التى اختلف فيها كبار أصحاب مالك مما ظهر له فائدة فى ذكره ثم ذيل مسائلها وأبوابها بالحديث والآثار ٠ الا كتبا منها بقيت مفرقة على أصل اختلاطها فى السماع ولذلك سميت كتب سحنون المدونة والمختلطة لاختلاط المسائل فى الأبواب ٠

وقد خرج سحنون من رحلته بالكتاب الذى حمل اسمه وخلده وتزعم وذلك بالحاق المسائل فيه بالأحاديث والآثار مع الحفاظ على ما أفاده اياه أسد من لقاح جديد بطريقة العراق وبذلك رجع فقه مالك الى الموطأ ووردت مسائله صحيحة لا تتسم بأخال وأظن[٥٤] ٠

وصارت كتب سحنون أصل المذهب المرجح روايته على غيره عند المغاربة وانتشر ذكرها فى الآفاق وعول عليها الناس واعرضوا عن الاسدية وغلب عليها اسم سحنون[٥٥] ٠ بل نسيت الاسدية فلا ذكر لها الآن[٥٦] ٠

وقد اقبل علماء القيروان على مدونة سحنون بالاختصار والشرح

---

(٥٣) المرجع السابق ص ١٨٠

(٥٤) انظر عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧١ ، ٤٧٢ ، تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة د ٠ حسين مؤنس ص ١٦ ، ٤ اعلام الفكر الاسلامى للفاضل ابن عاشور ص ٣٨

(٥٥) المالكى رياض ص ١٨١

(٥٦) عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧٢ ٠

والتعليق فاختصر ابن أبى زيد المدونة والمختلطة فى كتابه المسمى«بالمختصر» ولخصه أيضا أبو سعيد البرادعى من فقهاء القيروان فى كتابه المسمى « بالتهذيب » واعتمده المشيخة من أهل افريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه[٥٧] وبذلك كان للمدونة اثر كبير فى توجيه الفقه فى القيروان وجميع بلاد المغرب ٠

وقد اشتغل سحنون منذ عودته الى القيروان بتدريس المدونة ونشر مذهب الامام مالك وقد كثر تلاميذه واتباعه الذين اخذوا العلم عنه وتأدبوا بأدبه وكانت حلقته غاصة بالطلاب والعلماء لا من القيروان وحدها بل من جميع أنحاء المغرب وصقلية والأندلس ولا نقرأ عن تاريخ العلماء فى أى بلد من المغرب الا ونجد منهم عددا كبيرا قد حمل الفقه عن سحنون وحضر فى حلقتهفىالقيروان ويذكر لنا المالكى عددا كبيرا ممن ترجم لهممن العلماء الافذاذ فى القيروان الذين اخذوا عن سحنون وكان لهم دوركبيرمنهم محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس وعبد الجبار السرتى ، واحمد ابن متعب وعبد الله بن احمد بن طالب وحمد يس القطان ويحيى بن عمر وابن الحداد وغيرهم كثير[٥٨] ٠

كما يذكر لنا ابن الفرضى فى ترجمته لعلماء الاندلس أسماء من سمع من سحنون من أهل الاندلس وهم كثيرون جاوزوا السبعين عالما منهم ابراهيم بن يزيد مولى عمر بن عبد العزيز وابراهيم بن شعيب الباهلى من أهل البيرة وابراهيم بن خلاد وكان فى البيرة فى وقت واحد سبعة من رواة سحنون والصباح بن عبد الرحمن بن الفضل من أهل مرسية ، وعميرة ابن عبد الرحمن بن مروان العتقى ومحمد بن وضاح مولى عبد الرحمن ابن معاوية من أهل قرطبة وعدد كثير ترجم لهم ابن الفرضى فى تاريخه وكلهم قد لقوا سحنون وتلقوا عليه العلم[٥٩] ٠

---

(٥٧) تاريخ الفكر الاندلسى ترجمة د٠ حسين مؤنس ص ٤١٦ ، ٤١٧

(٥٨) المالكى رياض ص ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٩٦ ، عياض المدارك جـ٢ ص ٥٨٩

(٥٩) انظر ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس ص ٩ ، ١٠ ، ٢٠٢ ، ٣٢٨ ، وقسم ثان ص ١٥ الخ ٠

وبذلك يظهر لنـا الأثر الكبير لسحنون فى القيروان وغيرها وصدق ما ذكره الدباغ عن ابن حارث : « كان سحنون أيمن عالم دخل المغرب كان أصحابه مصابيح فى كل بلد عد له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبتـه وانتفعوا بمجالسته »[٦٠] . فكان سحنون هو حامل لواء الفقه فى القيروان والناشر له عن طريق تلاميذه ومريديه فى المغرب كله وفى الاندلس وصقلية .

ومن الكتب التى أحضرها سحنون ورواها تلاميذه عنه وتوجد بمكتبه القيروان العتيقة : الجزء الخامس والجزء الرابع من كتب الحج لأشهب ابن عبد العزيز المصرى رواية أبى سعيد سحنون بن سعيد وأرقامهـا المسلسلة بالسجن من ١٠٨٣ الى ١١٢٤ وكتاب البيوع من موطأ مالك رواية سحنون عن عبد الرحمن بن القاسم وأرقامه المسلسلة من ١٣٤٢ ـ ١٣٥٣

وكتاب العلم من جامع عبد الله بن وهب المصرى رواية عيسى ابن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب وأرقامه المسلسلة من ١٦٠١ ـ ١٦٥٢

وقطعة من المدونة بها سماع مؤرخ فى سنة ٣٠٦ هـ وبها تعـداد كتب أشهب سماعات بخطوط أصحابها فى آخر ورقة من كراس من جزء من المدونة وهو كتاب الايمان بالطلاق ورقمـه المسلسـل من ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧

وكتاب الشعر والغناء من جامع عبد الله بن وهب رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب ورقمه المسلسل من ١٨١٧ ـ ١٨٣٨

كما يوجد كذلك الموطأ رواية سحنون بن سعيد القيروانى عن عبد الرحمن بن القاسم نسخة جيدة[٦١] .

---

(٦٠) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٦٣

(٦١) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

وفى سنة٢٣٤هـ اسند اليه الامير محمد بن الاغلب قضاء افريقية وسنه اذ ذاك أربع وسبعون عاما فلم يزل قاضيا الى أن توفى سنة ٢٤٠ هـ ولم يقبل سحنون القضاء عندما عرض عليه الا عندما تبين له أنه لا مناص من قبوله لاغلاظ الامير عليه وحلفه بأشد الايمان ان يتولى سحنون القضاء واجماع الفقهاء على تولية سحنون . ومع ذلك فلم يقبل القضاء الا بعد أن اشترط على الأمير شروطا . قال سحنون : لم اكن أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير ضمينان : احدهما أنه اعطانى كل ما طلبت واطلق يدى فى كل ما رغبت حتى انى قلت له : « أبدأ بأهل بيتك وقرابتك واعوانهم فان قبلهم ظلامات للناس وأموالا لهم منذ زمان طويل اذ لم يجترىء عليهم من كان قبلى فقال لى نعم لا تبدأ الا بهم وأجر الحق على مفرق رأسى فقلت له « الله » قال لى : « الله » ثلاثا . وجاءنى من عزمه مع هذا ما يخاف المرء منه على نفسه وفكرت فلم اجد احدا يستحق هذا الأمر ولم أجد لنفسى سعة فى رده(٦٢) عند ذلك قبل القضاء ودخل على ابنته والكآبة بادية فى وجهه وقال لها : اليوم ذبح أبوك بغير سكين . وكان سحنون لا يأخذ على قضائه اجرا(٦٣) ولكنه كان يأخذ لاعوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب .

وقد أدخل سحنون على القضاء خلال ولايته كثيرا من الاصلاحات والتنظيمات والتشريعات التى استنها لتطبيق الشريعة واصلاح الحياة الاجتماعية .

١ ـ فكان فى قضائه يكتب للناس أسماءهم فى رقاع تجعل بين يديه ويدعو بهم واحدا الا ان يأتى مضطر أو ملهوف فيقدم النظر فى أمره .

٢ ـ وكان يجلس فى بيت فى الجامع بناه لنفسه اذ رأى كثرة الناس وكثرة كلامهم فكان لا يحضر عنده غير الخصمين ومن يشهد بينهما فى دعواهما

(٦٢) المالكى رياض ص ٢٧٣ ، عياض المدارك ج ٣ ص ٥٩٦
(٦٣) ابو العرب طبقات ص ١٨٥

وسائر الناس بمعزل لا يراهم ولا يسمع لغطهم ولا يشغل باله أمرهم فصار الجلوس فى ذلك البيت سنة لقضاة المالكية .

٣ ـ كان يضرب الخصوم اذا آذى بعضهم بعضا بكلام او تعرض للشهود وكان يقول : اذا تعرض للشهود كيف يشهدون ؟ وكان يؤدب الخصم اذا طعن على الشاهد بعيب أو تجريح ويقول للخصم : « انا أعنى بذلك منك وهو على دونك » .

٤ ـ وكان اذا دخل عليه الشاهد ورعب منه أعرض عنه حتى يستانس ويذهب روعه فان طال ذلك به هون عليه وقال له : « ليس معى سوط ولا عصا ولا عليك باس اد ما علمت ودع ما لم تعلم » .

٥ ـ قال جبلة : كان سحنون يؤدب الناس على الايمان التى لا تجوز من الطلاق والعتق ـ حتى لا يحلفوا بغير الله ويؤدبهم على سوء الحال فى لباسهم وما نهى عنه ويأمرهم بحسن السيرة والقصد .

٦ ـ وهو أول القضاة : جعل فى الجامع اماما يصلى بالناس وكان ذلك للامراء .

٧ ـ ونظر سحنون فى أمر الاسواق : فنظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع وجعل الامناء على ذلك وادب على الغش ونفى من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من نظر فى الحسبة من القضاة وامر بتغيير المنكر .

٨ ـ وكان أول القضاة فرق حلق أهل البدع من الجامع وشرد اهل الاهواء منه وكانوا فيه حلقا من الصفرية والأباضية والمعتزلة يتناظرون فى المسجد ويظهرون زيفهم وعزلهم أن يكونوا ائمة للناس أو معلمين لصبيانهم أو مؤدبين وأمرهم إلا يجتمعوا . وأدب جماعة منهم بعد هذا خالفوا امره .

٩ ـ كتب مرارا الى أعوانه يأمر بقتل الكلاب المنتشرة وسيب وراءها الاعوان بالحراب اتقاء انتشار داء الكلب وذلك ناشىء من معرفته

بالطب وهو ما عبر عنه ابو العرب « بأن سحنون كان جامعا للعلم نقيه البدن » .

١٠ ـ وكان سحنون مع تمسكه بمذهب مالك يولى قضاء الاقاليم بعض الاحناف فقد ولى سليمان بن عمران قضاء بجاية وباجة والأربس قال سليمان : ولانى سحنون القضاء . وقال : عليك يا أبا الربيع بالحجازية فقلت : القاضى مفت فما كنت افتى به فبه اقضى فسكت عنى (٦٤)

وكان سحنون مع علمه وفهمه ودقته يتانى فى الفتوى ويزرى على من يتعجل بالفتوى وينكر عليه ذلك وينقل ذلك عن المتقدمين من معلميه. فقد ورد ان رجلا من اهل صطفورة سال سحنون عن مسالة فاقام يتردد عليه ثلاثة أيام فقال بعد ذلك « مسالتى اصلحك الله لى ثلاثة أيام » فقال له : « وما اصنع بك يا خليلى مسالتك نازلة وهى معضلة وفيها اقاويل وانا متحير فى ذلك » فقال له الصطفورى : « وانت اصلحك الله لكل معضلة » . فقال له سحنون : « هيهات يا ابن أخى ليس بقولك ابذل لك لحمى ودمى للنار » . ما أكثر مالا أعرف ان صبرت رجوت أن تنقلب بحاجتك وان أردت تمضى الى غيرى تجاب فى ساعة واحدة » فقال له : « انما جئت اليك ولا أستفتى غيرك » فقال : « فاصبر عافاك الله ثم اجابه بعد ذلك »(٦٥) . ولذلك كان يقول : أجرأ الناس على الفتيا اقلهم علما يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن أن الحق كله فيه وانا أحفظ مسائل سماها تبلغ ثمانية اقاويل من ثمانية ائمة فكيف ينبغى لى أن أعجل بالجواب حتى اتخير فلم الام فى حبس الجواب ؟(٦٦)

وقد اتسم سحنون بالشجاعة فى قضائه فكان لا يخشى فى الله لومة

(٦٤) انظر فيما سبق : المالكى رياض ص ٢٧٥ ـ ٢٧٨ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩٨ ـ ٦٠١ ، أبو العرب طبقات ص ١٨٤ .

(٦٥) المالكى رياض ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٦١٤

(٦٦) أبو العرب طبقات ص ١٨٧

لائم ولا يهاب سلطانا فى حق يقيمه عليه وقد اكثر فى رد الظلامات من رجال بن الاغلب والمصادر التى ترجمت له مليئة بالحوادث الكثيرة التى قامت بينه وبين أعوان الامير ومحاولتهم استعداء الامير عليه وثبوت سحنون لهم وللامير وعدم تزحزحة عن الحق الذى يؤمن به ولو كان فى ذلك غضب الامير واعوان الأمير وقد حاول الأمير فى مرات عديدة أن يثنيه عما يقضى أو يتصرف به فى اعوانه وأرسل اليه يقول : انهم فيهم غلظة وقد شكوك ورايت معافاتك من شرهم فلا تنظر فى امرهم فقال سحنون للرسول « ليس هذا الذى بينى وبينه وقل له : خذلتنى خذلك الله » . فلما انهى الرسول الرسالة الى الامير قال له : « ما نعمل بـه ؟ انما اراد الله »[٦٧] .

وأراد الأمير مرة نقض حكم قضى به سحنون فى بعض اعوانه وأرسل اليه فى ذلك فأرسل سحنون ابنه محمدا بسجله مع الفتى الى الأمير وقال له : قل له هذا سجلك وجعل الله « زوكاى » ـ المتضرر من حكمه شفيعك يوم القيامة . فوصلا اليه وأبلغاه ما قال فقال محمد له : « هذا سجلك بعث به لتولى امور المسلمين من تراه » . فقال أبو العباس ـ الأمير ـ : اقرأ على ابيك السلام وقل له : جزاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيرا فقد احسنت أولا وآخرا ونحن نرضى قائدنا من اموالنا وأمضى على احسن نظرك . فبلغ ذلك سحنون واجتمع اليه وجوه الناس وأهل الخير وشكروا فعله فقال لهم : ان الله احب الشكر من عباده فتقدموا الى باب الأمير واشكروه على تأييد الحق ففى ذلك صلاح الخاصة والعمة ففعلوا ذلك[٦٨] .

وكان بن الأغلب يقول فى قضيته مع سحنون : ان سحنون لم يركب لنا دابة ولا ثقل كمه بصرة فهو لا يخافنا[٦٩] .

---

(٦٧) المالكى رياض ص ٢٧٩

(٦٨) نفس المرجع السابق ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٦٠٧

(٦٩) المالكى رياض ص ٢٨٢

وبذلك كان سحنون نزيها فى حكمه عادلا فى قضائه لا يخشى الا الله عز وجل فحصل الناس بتولية القضاء امنا واستقرارا وعدالة بين الكبير والصغير ٠

ويعتبر سحنون من ائمة أهل السنة بالقيروان ولذلك كان يعارض من يقول بخلق القرآن ويحمل عليه فى دروسه ولا يرى الصلاة خلفه ٠ وحدث أن حضر جنازة وصلى عليها ابن ابى الجواد الذى كان يتولى القضاء قبله وكان يقول بخلق القرآن فلم يصل سحنون خلفه ٠ ووصلت هذه الحادثة الى الأمير زيادة الله ٠ فامر بأن يوجه الى عامل القيروان بضرب سحنون خمسمائة صوت ويحلق رأسه ولحيته ٠ الا أن وزيره على ابن حميد تدخل لمنع ذلك وذكر الأمير بما حدث للبهلول مع العكى فأوقف الأمير ما مر به ٠

وكان سحنون يرى انه لم يبلغ الى درجة العلماء الذين يضربون من الامراء لتمسكهم بالسنة ولذلك قال لمن بلغه ما حدث « لم ابلغ انا مبلغ من يضرب انما يضرب مثل مالك وابن المسيب »(٧٠) ٠

وقد امتحن سحنون عندما ولى احمد بن الاغلب الامارة واخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وخطب بـه فى القيروان فخرج سحنون فارا الى عبد الرحيم الزاهد بقصر زياد فوجه اليه لكى يمتحن فى رايه فى القرآن فلما وصل جمع الأمير له قواده وقاضيه ابن ابى الجواد وغيره وساله عن القرآن فقال له سحنون : اما شىء ابتدئه من نفسى فلا ولكنى سمعت من تعلمت منهم وأخذت عنهم كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق » فقال ابن ابى الجواد : كفر فاقتله ودمه فى عنقى ٠ وقال غيره مثله ممن يرى رأيه وقال بعضهم : يقطع أرباعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا فقال الامير لداود بن حمزة ما تقول انت؟ قال قتله بالسيف راحة ولكن اقتله قتل الحياة فتاخذ عليه الضمناء

---

(٧٠) المالكى رياض ص ٢٨٥ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٦٠٩ ،

٦١٠

وينادى عليه بسماط القيروان الا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره »[٧١].

وهكذا منع سحنون من أن يعلم الناس لقوله بعدم خلق القرآن ولكن ذلك لم يدم طويلا لسرعة وفاة الأمير بعد ذلك **بقليل** .

وكانت أهم كتب سحنون التى الفها هى المدونة التى ارتضاها الناس وأخذوا بها وتركوا ما عداها كما يذكر له عياض كتاب « الرجوع عن الشهادات »[٧٢] وكان بعض تلاميذه ينكرون ذلك الى أن أراهم ابنه محمد ذلك بخط أبيه .

ويذكر مؤرخو الطبقات من كلامه وحكمه الشىء الكثير الدال على تفكيره ونظره الى الامور فمن ذلك قوله بالنسبة للعلماء :

« ما اقبح بالعالم ان يؤتى الى مجلسه فلا يوجد فيه فيسأل عنه فيقال : هو عند الأمير ـ هو عند الوزير ـ هو عند القاضى »[٧٣] .

وقوله بالنسبة للتصرف السليم فى شئون الحياة وأمور المعاش واختيار الزوجة : « ما أحب أن يكون عيش الرجل الا على قدر ذات يده ولا يتكلف الى أكثر من ذلك وان احتاج الى امرأة طلبها على قدر ذات يده فى مؤنتها وقناعتها حتى يبقى فى يده ما يستغنى به وان كان له مال صالح حلال ـ والحلال هو ما ارتضاه الله عز وجل لانبيائه حسين يقول : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) والطيب هو الحلال ـ اعتمد عليه وتفرغ للعبادة وان لم يكن عنده ، فعليه بكسب يده أولى به من ذل المال وهو مسألة الناس وان كان مسغنيا عن الزوجة فتركها أحب الى وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من اكلها بالعلم والقرآن اذا احتاج الى ذلك »[٧٤] .

---

(٧١) المالكى رياض ص ٢٨٦ ، عياض المدارك ج ٢ ص ٦١٠ ، ٦١١

(٧٢) عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٥

(٧٣) المالكى رياض ص ٢٥٢

(٧٤) المالكى رياض ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

ومن وصاياه فى الاخلاق والمعاملة قوله لابنه محمد : « يا بنى سلم على الناس فان ذلك يزرع المودة . وسلم على عدوك وداره فان راس الايمان بالله مدارآة الناس »(٧٥) .

وفى التربية :

« العلم صيد والكتابة قيد »(٧٦) .

وفى عدم المبالغة فى الطعاة :

« كل دابة تعمل على الشبع الا ابن ادم اذا شبع رقد »(٧٧) .

وعندما تتازم الأمور يقول : « ضيقى تنفرجى يامالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين » ويبين أن العلم لا تتحقق فائدته الا بالعمل : « من لم يعمل بعلمه لم ينفعه العلم » . « مثل العلم القليل فى الرجل الصالح مثل العين العذبة فى الأرض العذبة يزرع عليها صاحبها ما ينتفع به . ومثل العلم الكثير فى الرجل غير الصالح مثل العين الخرارة تهدر بالليل والنهار ولا ينتفع بها »(٧٨) .

* * *

آراء العلمــاء فيه وصـفاته :

هذا النشاط الفكرى والتعليمى الذى قام به سحنون خلال تعلمه وتعليمه جعل اساتذته وتلاميذه يبينون مقدار ما يتسم به وما يتحلى به مما يوضح لنا قدره بين أبناء عصره وبعد عصره فقال عنه ابن القاسم

---

(٧٥) عياض المدارك جـ ٢ ص ٦١٣

(٧٦) مجمل تاريخ الادب حسن حسنى ص ٥٦

(٧٧) عياض المدارك جـ ٢ ص ٦٢٠

(٧٨) عياض المدارك جـ ٢ ص ٦٢٠ ، حسن حنى مجمل تاريخ الأدب ص ٥٦

استاذه : ما قدم الينا من افريقية أحد مثل سحنون لا ولا ابن غانم »[٧٩] وقال عنه ابن وضاح « كان سحنون يروى تسعة وعشرين سماعا وما رأيت فى الفقه مثل سحنون فى المشرق »[٨٠] وقال عنه سليمان بن سالم فى مجالسه : « دخلت مصر فرأيت فيها العلماء متوفرين : ابن عبد الحكم والحارث بن مسكين وأبا الطاهر وأبا اسحاق البرقى وغيرهم ودخلت المدينة وبها أبو المصعب والقروى ودخلت مكة وبها ثلاثة عشر محدثا ودخلت غيرها من البلدان ولقيت علماءها ومحدثيها فما رأيت بعينى مثل سحنون وابنه بعده »[٨١] .

وقال عنه الشيرازى مبينا منزلته فى المغرب وتسلمه للرياسة فيه ومقارنا بينه وبين غيره من أصحاب مالك مع كثرة من اخذ عنه : « اليه انتهت الرئاسة فى العلم بالمغرب وعلى قوله المعول به . وصنف المدونة وعليها يعتمد أهل القيروان وحصل له من الاصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك وعنه انتشر علم مالك فى المغرب »[٨٢] .

وقارن سليمان بن عمران بينه وبين أسد بن الفرات بقوله : « اذا سألت أسدا عن مسألة أجابنى من بحر عميق ومعنى جوابه لا تزد . واذا سألت سحنون أجابنى من بحر عميق ومعنى جوابه زد فى سؤالك . وكان العلم فى صدر سحنون كسورة من القرآن من حفظه »[٨٣] .

ويعبر سحنون عن تعمقه فى الفقه واضافته اليه بأن يجعل من المسائل كتبا فيقول عندى ستة أو أربعة وأربعون كتابا من البيوع منها كتابان أو ثلاثة أصلها أربع مسائل فى الموطأ[٨٤] .

---

(٧٩) المالكى رياض ص ٢٥٣

(٨٠) عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩١ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٥٢

(٨١) عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩٢

(٨٢) نفس المرجع ص ٥٩٢

(٨٣) نفس المرجع ص ٥٩٠

(٨٤) نفس المرجع ص ٥٩٠

وصور محمد بن حارث أثر سحنون فى افريقية بالنسبة لمن سبقه بقوله : « كانت افريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لانه رحل اليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقى مالك بن أنس وسمع منه وكان الفقه والفتوى فى قليل منهم كما كان ذلك فى علماء البلاد ثم قدم سحنون بذلك المذهب واجتمع له من ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف، والانقباض فبارك الله فيه للمسلمين . فمالت اليه الوجوه واحبته القلوب وصار زمانه كأنه مبتدىء قد أمحى ما قبله فكان أصحابه سرج أهل القيروان »(٨٥) .

فهو عندهم كما قال أبو على البصرى « سحنون فقيه أهل زمانه شيخ عصره وعالم وقته »(٨٦) وهو الذى قال ابن الاغلب فى قضيته معه : « ان سحنون لم يركب لنا دابة ولا ثقل كمه بصرة فهو لا يخافنا »(٨٧) .

ووصف أبو العرب سحنون بأنه كان ربع القامة بين البياض والسمرة حسن اللحية كثير الشعر اعين بعيد ما بين المنكبين . كثير الصمت قليل الكلام يتكلم كثيرا بالحكمة مهيبا جدا يأخذ من شاربه على المشط حسن اللباس وكان به فتق فى جوفه فكان يعصبه بلبد . وكان له برذون يركبه وقلما رئى متطوعا فى المسجد »(٨٨) .

وعن بزته وتواضعه قال سليمان بن سالم : « رأيت لسحنون رحمه الله ساجا كحليا وساجا أزرق وقلنسوة حبر وكان يركب بلجام حديد ليس فيه من الفضة شىء وكان له برنس أسود كثيرا ما يلبسه فى المطر والبرد والريح وربما قعد للسماع وهو عليه وربما حمل حزم البصل من حانوت جامع العطار وغير ذلك الى داره تواضعا لله عز وجل(٨٩) .

---

(٨٥) نفس المرجع ص ٥٩١ (٨٦) نفس المرجع ص ٥٩٢

(٨٧) المالكى رياض ص ٢٨٢

(٨٨) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٣

(٨٩) المالكى رياض ص ٢٦٤

ذلك هو الامام سحنون حامل لواء الفقه فى القيروان فى القرن الثالث الهجرى والذى اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت فى غيره من الفقه البارع والورع الصادق والصرامة فى الحق والزهادة فى الدنيا والتخشن فى الملبس والمطعم والسماحة . وكان يصل اخوانه بالثلاثين دينارا ، ولا يقبل من أحد شيئا سلطانا أو غيره ولم يكن يهاب سلطانا فى حق يقوله . مع سلامة صدره للمؤمنين وشدته على أهل البدع . انتشرت امامته بالمشرق والمغرب وسلم له الامامة أهل عصره وأجمعوا كلهم على فضله وتقدمته »[٩٠] .

بكل هذا كان سحنون ذا أثر قوى فى ازدهار الحياة الفكرية ونضوجها لا فى القيروان وحدها بل فى المغرب كله . وذلك بما أبداه من آراء صائبة فى الفقه والتشريع ، وبما بثه فى تلاميذه من علم ومعرفة، وما دونه فى كتبه من حقائق فكره . ثم بسلوكه الشخصى الذى كان فيه خير قدوة لتلاميذه ومريديه رحمه الله تعالى .

* * *

٣ ـ سليمان بن عمران :

ولد سليمان بن عمران سنة ١٨٣ هـ . ولم يذكر أصحاب الطبقات أين ولد ولا شيئا عن نشاته الأولى بل أهملوا كثيرا من أخباره الا بعض أخبار عارضة .

ولذلك قد استقصيت سيرته من اضطلاعى على تراجم العلماء المعاصرين له وما ورد عنه فى أثناء الحديث عن أساتذته أو العلماء والقضاة الذين عمل معهم . وقد حرصت على أن أترجم له رغم الصعوبة فى ذلك لانه يمثل المذهب الحنفى وكان الواسطة بين من أخذ عن أسد ابن الفرات المذهب الحنفى حيث كان أسد يمثل المذهبين المالكى والحنفى بينما سليمان يمثل المذهب الحنفى وتلقاه عنه أتباع المذهب الحنفى .

---

(٩٠) المالكى رياض ص ٢٤٩ نقلا عن أبى العرب .

ويبدو لى انه ولد فى القيروان وتلقى العلم بها الى أن ظهرت جدارته فكان قرينا لسحنون كما سيظهر لنا ذلك فيما بعد .

فقد تلقى سليمان العلم على أسد بن الفرات وسمع منه كتب أبى حنيفة[٨١] ويذكر أبو العرب محدثاعن أحمد بن خلف وغيره من تلاميذ سليمان « أنهم كانوا يسمعون من سليمان بن عمران فلما بلغ الى قوله تعالى « يا موسى انى انا الله لا اله الا أنا » وضع سليمان الكتاب من يده وقال سليمان هكذا صنع أسد »[٩٢] ويح لاهل البدع هلكت هوالكهم يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاما يقول ذلك الكلام المخلوق « أنا الله لا اله الا أنا » وقد كان سليمان يسأل أسدا كما يسأل سحنون ويأخذ العلم عنهما ويذاكرهما ويقول : اذا سألت أسدا عن مسألة أجابنى من بحر عميق ومعنى جوابه لا تزد فى سؤالك واذا سألت سحنون أجابنى من بحر عميق ومعنى جوابه زد فى سؤالك[٩٣] .

وعبر ابن حارث عن ملازمة سليمان لاسد بن الفرات بأنه« كان لا يلقى أسد بن الفرات فى موضع الا ويلقى سليمان ماشيا وراءه »«[٩٤] .

كما تلقى سليمان العلم على بعض الأحناف القادمين الى القيروان وروى عنهم ومنهم عبد الله بن المغيرة الكوفى وقد علم سليمان تلاميذه ما أخذه عن هؤلاء العلماء الوافدين »[٩٥] .

ولا شك أن سليمان بن عمران قد تلقى العلم على هؤلاء وعلى غيرهم من العلماء الذين كانت تزخر بهم القيروان الى ان صار مضارعا

(٩١) انظر المالكى رياض ص ١٨٢ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧٤

(٩٢) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦٥

(٩٣) عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩٠

(٩٤) المالكى رياض ص ٤٩٠ نقلا عن الطبقات .

(٩٥) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦١ ، ١٦٢

لسحنون مما حمل سحنون الى أن يشير هو وغيره من العلماء بأن يتولى سليمان بن عمران القضـاء عندما استشار الأمير الفقهاء فيمن يوليـه القضاء سليمان كان يجل سحنون فقال : ما ظننت أنه يشـاورنى فى سـحنون • حججت فرأيت أهـل مصر يتمنون كونه بين أظهرهم وما يستحق أحد القضاء وسحنون حى(٩٦) •

وبذلك تتضح لنا المنزلة العلمية التى وصل اليها سليمان ولكنـه مع ذلك كان يجل سحنون ولا يرى أن يتقدم عليه مع اختلافه معـه فى المذهب •

وقد تلقى العلم على سليمان عدد من العلماء وتخرجوا على يديه منهم محمد بن عبدون الذى برع فى العلوم الشرعية وتولى قضـاء أفريقية بعد ذلك وله جملة مؤلفات فى الفقه على مذهب أبى حنيفة منها كتاب الشروط وغير ذلك(٩٧) • كما تلقى العلم عنه ابراهيم بن يزيد وأحمد ابن خلف وأحمد بن تميم والد أبى العرب صاحب الطبقات وغيرهم(٩٨) •

وقد حافظ سليمان على تعليم العلم حتى بعد أن أسند اليه القضاء فقد كان له يوم فى الأسبوع أو يومان يقرأ عليه فيه العلم : تفسير القرآن وغيره (٩٩) •

وعندما تولى سحنون القضاء كان سليمان بن عمران يكتب له ثم قال له سحنون : ابتليتنى • فوالله لأبتلينك وولاه قضاء بجاية وباجـة والأربس وقال له عليك يا أبا الربيع بالحجازية فقال له سليمان القاضى مفتى فما كنت أفتى به فيه أقضى فسكت عنه(١٠٠) •

---

(٩٦) انظر المـالكى رياض ص ٢٧٢ •

(٩٧) انظر الورقات حسن حسنى ص ٢٦٤ ، ٢٦٦ •

(٩٨) انظر أبو العرب طبقات ص ١٦٢ ، ٦٥ ، ١ عياض المدارك جـ ٣ ص ٥٩٨ •

(٩٩) المالكى رياض ص ٤٩١ نقلا عن الطبقات للخشنى •

(١٠٠) المالكى رياض ص ٢٧٥ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩٨ ويقصد بالحجازية مذهب مالك •

وذلك يوضح أنه كان يقضى حسب مذهبه الحنفى ويتضح لنا عدم صحة ما ذهب اليه ابن حارث الخشنى فى قوله : ولم يول سحنون سليمان بن عمران قضاء باجة حتى امتحنه فى مذهبه فأظهر له سليمان أن مذهبه مذهب المدنيين وأنه تارك لمذهب العراقيين[١٠١] .

ويؤيد تمسكه بالمذهب الحنفى فى قضائه ما ذكره الدباغ من أن أهل باجة اشتكوا به الى سحنون بن سعيد فقال ماتقولون فيه فقالوا أنه يحكم علينا بمذهب أبى حنيفة فقال ما قدمته عليكم الا وأنا أعلم انه يحكم بمذهبه فأنصرفوا[١٠٢] . ويمكن ان يحمل قوله : ان مذهبه مذهب المدنيين من ناحية العقائد وأنه ممن لا يقول بخلق القرآن وقد سبق ما ذكرناه من بيان رأى استاذة اسد فى قوله بعدم خلق القرآن وأخذ سليمان بذلك[١٠٣] .

وما كان سليمان ليظهر رجوعه عن مذهبه الحنفى وهو الذى اهتم بالصراحة فيما تميل اليه نفسه بما تصوره الحادثة التى رويت من أن سحنون لما ولى سليمان القضاء دخل عليه من الغد فقال له سحنون : عزمت يا أبا الربيع فقال له : ان قلت لا كذبتك أنا أريد فقال سحنون لمن عنده انظروا : ان كان دخله رياء لا ظهر تمنعا مثلك يا أبا الربيع يكون ناظرا للمسلمين[١٠٤] .

ومن ذلك نستطيع أن ندرك الصلة بين العلماء مع اختلاف المذهب وأن سحنون المالكى يولى سليمان الحنفى ويقدر كفاءته وصدقه ويقول له : مثلك يكون ناظرا للمسلمين .

---

(١٠١) المالكى رياض ص ٤٩٠ نقلا عن طبقات الخشنى .
(١٠٢) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٩٩ .
(١٠٣) أبو العرب طبقات ص ١٦٥ .
(١٠٤) المالكى رياض ص ٢٧٥ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ .

وقد ولى سليمان قضاء القيروان بعد وفاة سحنون سنة ٢٤٠ هـ وكان حاضر الجواب لطيف المنطق حاد الذهن وكان يقول : لو شئت أن أقضى بين الخصمين بلا بينة لفعلت والله ما يقعد بين يدى الخصمان ويتناظران الا وأنا أعرف من له الحق منهما[١٠٥] واستمر قاضيا الى سنة ٢٥٧ هـ حيث عزل وولى ابن طالب وفى سنة ٢٥٩ هـ رد سليمان ثانيا الى القضاء ومكث فيه الى أن شاخ وكبرت سنه فعزل عنه سنة ٢٦٩ هـ[١٠٦] ٠

وقد عبر سليمان عن رأى الناس فيه عند توليه القضاء وعند عزله عنه أن رأى الناس كيف كان يقضى بينهم بقوله : وليت القضاء فى زمان فقال الناس : انا لله وانا اليه راجعون ولى سليمان لقد خسف الله بالدنيا ثم عزلت فى زمان فقال الناس انا لله وانا اليه راجعون عزل سليمان عن القضاء وأين مثل سليمان[١٠٧] ٠

ومما يدل على لطفه فى قضائه ومعرفته كيف يصل الى الحقيقة عندما يحاول الخصم الاستعانة بشهاد الزور ما يروى من تخاصم رجلين اليه واقامة المدعى على خصمه شهداء اربعة فشهدوا عنده وقبل شهادتهم ثم أعذر الى المطلوب ٠ فلما نظر المطلوب الى أنه أزف الحكم ولم يبق الا التنفيذ وهو برىء مما شهدوا عليه به قصد القاضى سليمان بعد صلاة المغرب واستأذن عليه فلم يأذن له ثم الح فى الاستئذان وقال : ان لم يأذن لى بت على باب داره حتى أكون أول من لقيه صباحا ٠ فاذن له سليمان فدخل عليه فقال له : عزم القاضى على أن يسجل على وبقى فى قلبى شىء أخبره به وأقوله له فقال له قل فأخرج الرجل مصحفا من كمه فحلف له به ثم اتبع ذلك بيمين الطلاق والعتاق والمشى والصدقة أنه برىء من ذلك المطلوب وان الشهود الذين شهدوا عليه قصدوا بشهادتهم

---

(١٠٥) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٠٠ ٠

(١٠٦) المالكى رياض ص ٣٧٧ ، عياض المدارك جـ ٣ ص ١٩٦ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٠٧ ٠

(١٠٧) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ٠

الزور صراحا ثم خرج عنه ووقع بقلب سليمان انه صادق • فلما جلس سليمان من الغد فى مجلس القضاء فى الجامع اتاه الطالب يستنجزه التنفيذ قال له : اذهب آتنى بالشهود الذين شهدوا لك عندى فى أصل الحق حتى يحضروا تنفيذ الحكم لك فذهب الرجل فأتى بهم فلما نظر القاضى اليهم اعرض عنهم وتغافل بغيرهم طويلا • ثم قال لغلامه يابشر اذهب الى صاحب سوق الجمال وقل له كى يبعث الى اربعة جما لحتى اطوف عليها رجالا شهدوا عندى بالزور • ثم اشتغل فلم يشك الشهود الاربعة انهم أصحاب المحنة فتسللوا من مجلسه ثم تقدم الطالب فقال له : نفذ لى الحكم فقال : بحضرة شهودك قال : قد أحضرتهم قال : قربهم فقال هاهنا كانوا أذهب فيهم فلما سار اليهم امتنعوا عليه من السير الى القاضى فبقى الطالب مترددا بين توقف القاضى عن الحكم الا أن يحضر الشهود وبين امتناع الشهود من الحضور حتى سل الطالب وترك طلبه • يقول ابن حارث وهذا وان لم يكن وجه القضاء على ظاهر الحق فهو من باب اللطف والسياسة (١٠٨) •

وكان سليمان مع تفهمه وعلمه يميل الى النوادر المضحكة وقد يدعوه ذلك الى أن يتعرض الى القاب الناس فقد دخل عليه رجل يلقب «بالفقوسة» فقال سليمان : « كنت أعرف لكم مقثأة فما صنع الله بها ؟ » فقال له الرجل : « كانت حسنة لولا خروفة دخلتها فافسدتها »(١٠٩) •

ودخل عليه رجل من خاصته فقال له : « لقد اندر فيك اليوم على بن حميد بنادر فقا لما هو ؟ قا لأبو طباخة فأتاه فى سفرته بصور قرأسك بقلنسوتك وجميع هيئتك • فجعل يأكله هو وأصحابه فأرسل سليمان الى على بن حميد : الناس ينتقلون من حال الى أشرف منها وأنت ترتكس •

---

(١٠٨) المالكى رياض ص ٤٩١ ، ٤٩٢ نقلا عن طبقات الخشنى •

(١٠٩) المرجع السابق ص ٤٩٣ وكان سليمان يلقب بخروفة لانه كان لا يلقى الا ماشيا وراء أسد بن الفرات فشبه اتباعه له باتباع الخروف لامه •

كنت عند الناس طباخا فرضيت ان تصبح رواسا » وذلك لأنه باحكام دار على بن حميد للطبخ يضر بـالمثل بالقيروان (١١٠) .

ويبدو انه مع اتصاف سليمان بالميل الى النادرة فقد كان متسامحا مع من يخالفه فقد ترك حمد بن القطان الصلاة خلف القاضى سليمان ابن عمران فى جنازة فجاء انسان فاخبر بذلك سليمان فقال سليمان له : خل الناس على ما هم عليه (١١١) .

وقد طال العمر بسليمان بن عمران الى ان توفى عن سبعة وثمانين سنة فى صفر سنة ٢٧٠ هـ وارسل الامير الى ابن اللباد ليصلى عليه فوقف متفكرا ثم قال نفعل ، ثم عطف بن طالب على بن اللباد وقال : ظلمنى والله بن عمران وحبسنى افتر ىان صلاتى عليه اجلال له ؟ ماذا اقول عليه من الدعاء وقد ظلمنى وكان معه قرآن واسلام فقرأ عليه فى صلاته قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للدين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (١١٢) .

قال بن ناجى : وقبره مزار وعند رأسه لوح مكتوب فيه هذا قبل القاضى سليمان ابن عمران (١١٣) .



٤ ـ ابو عثمان سعيد بن محمد الغسانى المعروف بابن الحداد :

ولد فى سنة ٢١٩ هـ وتعلم فى افريقية بالقيرروان وتونس وطرابلس (١١٤)

---

(١١٠) المرجع السابق نفس الصفحة .

(١١١) عياض المدارك جـ ٣ ص ١٥٧ .

(١١٢) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ٢٠٤ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٠٣ .

(١١٣) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٠٤ .

(١١٤) المناضل بن عاشور اعلام الفكر الاسلامى ص ٤٢ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢١٥ .

ولم يرحل الى المصرى فقد تلقى العلم على سحنون بالقيروان وابى سنان زيد بن سنان وابى الحسن الكوفى بطرابلس[(١١٥)] • وغيرهم من العلماء الاجلاء الذين كانت تزخر بهم القيروان • ويتحدث بن الحداد عن أساتذته فيقول : « جالست المتكلمين فكل من لقيت من أهل العلم فما رأيت منهم أصح غريزة من سحنون وكان وقورا فيها »[(١١٦)] •

وقد داوم بن الحداد على تحصيل العلم والجد فيه الى أن برع فى العلم ولم يتقيد بالمذهب المالكى بل درس المذهب الشافعى ومال اليـــه من غير تقليد له[(١١٧)] وكان يميل الى المناظرة وفهم القرآن والمعرفة بمعانيه مع احاطة تامة بالنحو ونحو وعلوم اللغة فكان لا يلحن فى كلامه •

ويبدو أن ما اتسم به من ذكاء وتحرر قد دعاه الى دراسة كل المذاهب كما يفهم من مؤلفه الذى رد فيه على كل المذاهب • ويخيل الى انه لم يكن متقيدا بمذهب[(١١٨)] وانما كان يجتهد رأيه مع تقديره للعلماء الذين تلقى عليهم العلم فهو دائما يذكرهم ويثنى عليهم بخير •

وقد تلقى العلم عنه ابنه عبد الله وأبو العرب تميم واحمد بن موسى التمام ومحمد ابن محمد اللباد[(١١٩)] وعند قراءتنا لطبقات أبى العرب نجـد كثيرا من الاخبار قد أوردها أبو العرب رواية عن ابن الحداد كما يذكر القاضى عياض كثيرا من الاخبار عنه فى المدارك[(١٢٠)] مما يبين لنا المنزلـة التى بلغها ابن الحداد عند العلماء المعاصرين له ومن تلقوا عنه •

---

(١١٥) أبو العرب طبقات ص ٢٠٢ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٢ •

(١١٦) المدارك عياض جـ ٢ ص ٥٩٢ •

(١١٧) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٢ •

(١١٨) حسن حسنى المازرى ص ٢٩ •

(١١٩) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٢ •

(١٢٠) انظر طبقات أبى العرب ص ٩٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ـ ١٤٤ ، المدارك عياض ص ١٤ ، ٢٨ ، ٢٢١ ، ٣٣١ ـ ٣٣٧ •

وقد ألف ابو عثمان الحداد كثيرا من الكتب منها كتاب ايضـــاح المشكل وكتاب الاستيعاب وكتاب الامالى وكتاب عصمة النبيين وكتـــاب العبادة الصغرى والكبرى وكتاب الاستواء وكتاب المقالات رد فيه على أهل المذاهب اجمعين ويذكر الدباغ انه كان يسمى المدونة لسحنون المدودة[(١٢١)] انتقدها نقدا جعل أصحاب سحنون يعرضون عنه واعتقد أن الدبـــاغ قد غالى فى وصف ابن الحداد للمدونة وأنه ان كان انتقدها الا أنه لم يكن نقده بأن يصفها بالمدودة لا سيما وقد سبق ذكرنا اعجابه بسحنون فى العلم. ويذكر بن حارث أن ابن الحداد الف كتابا رد به على الشافعى وبعث به المزنى وابن ابى سعيد فلما ورد على المزنى رآه وسكت فجعل رجـل من البغداديين يحركه فى جوابه والمزنى يعرض عنه فلما اكثر عليه رمى اليـه بالكتاب وقال أما أنا فقرأته وسكت فمن كان عنده علم فليتكلم »[(١٢٢)] . وذلك يدل على دقته فى نقده وتحريه الصواب بحيث لم يستطع صاحب الشافعى أن يرد عليه ويذكر المالكى أنه كان يسىء الرأى فى ابى حنيفة واصحابه وروى عنه أنه قال تذكرت بقلبى مسائل لأبى حنيفة ركـــب فيها المحا لاضطرارا نحوا من اربعمائة مسألة[(١٢٣)] .

وكل ذلك يبين لنا الاطلاع الواسع لابن الحداد على كل مذهب بذهن يقظ وعقل ناقد يتحرى الصواب والدقة فى كل ما يقرأ وقد اكســـبه كل ذلك نفاذ رأى فيما يعرض عليه من المسائل كما اكسبه اعتدادا بنفسه. فقد ذكر الدباغ أن ابن الحداد سـئل يوما عن مسألة مقفلة من كلام اشهب فبدأ بتنزيلها والنظر فيها شيئا فشيئا حتى بلغ فيها ما بلغ اشهب فقـال له السائل يا أبا عثمان كذا قال فيها اشهب فقال ابن الحداد لعل اشهب ما وضعها حتى تدبرها اياما ونظر فيها حينا[(١٢٤)] .

---

(١٢١) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٢ .

(١٢٢) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٣ .

(١٢٣) نفس المرجع والصفحة .

(١٢٤) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

ويوجد بمكتبة القيروان العتيقة من كتب بن الحداد : قطعة من كتاب فى الرد على الشافعى مبدؤها فتحرم الصلاة التى صلاها فى الكعبة وآخرها آخر الكتاب لأبى عثمان سعيد الحداد ورقمها المسلسل من ١١٥٦ - ١٢٢١ .

وكتاب الطلاق من أمالى أبى عثمان سعيد بن محمد على أجوبة المدونة ورقمه المسلسل من ١٤٨٠ - ١٥١٨ .

كما يوجد الجزء الرابع من معانى الاخبار خرجه وشرح معانيه ابو عثمان سعيد بن محمد ورقمه المسلسل من ١٥١٩ - ١٥٤٩ .

وكذلك توجد قطعة من تفسير فى قالب طويل يظهر انه لأبى عثمان سعيد الحداد أولها ولا يجوز فى الصفة . وآخرها : يدخلون عليهم ورقمها المسلسل من ٨٧٧ - ٩٠٤ (١٢٥) .

وقد وجه ابو عثمان الحداد كل علمه ومعرفته ودقة فهمه للدفاع عن السنة ورد شبه أهل البدع المخالفين للسنة حتى مثله أهل القيروان بأحمد ابن حنبل أيا مالمحنة ولم يقصر أو يجبن عندما ملك الفاطميون القيروان وأظهروا تبديل مذهب أهل القيروان واجبروا الناس على مذهبهم الشيعى بطريق المناظرة واقامة الحجة ولم يكن علماء المالكية الآخذين بالآثار والمتمسكين بطريقة السلف فى الأخذ بظواهر النصوص بدون تاويل مع التنزيه والامتناع عن الاستدلال بالمقدمات النظرية والاصول الجدلية - عندهم المقدرة الكافية للموقوف والجدل مع الفاطميين الشيعيين فلجأ أهل القيروان الى أبى سعيد فسألوه التقية فابى من التقية وقال قد قاربت التسعين ومالى فى العيش من حاجة .... ولا بد لى من المناظرة والمناضلة عن الدين وان ابلغ فى ذلك عذرا (١٢٦) . وقد خوفه ولده من مخالفته للشيعى أول دخوله فقال له يابنى حسبى من غضبت له وعن دينه

---

(١٢٥) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة.

(١٢٦) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٤ .

ذبيت • وشمر للأمر وأخذ اهبته ونازلهم وناظرهم مناظرة الند للند بدون خوف أو وجل : ومما يروى عما دار فى هذه المناظرات[١٢٧] قوله لما اجتمع بأبى عبد الله الشيعى فى مجلس المناظرة وقال له أبو عبد الله أنتم تفضلون على الخمسة اصحاب الكساء غيرهم يعنى بأصحاب الكساء محمدا صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين وعليا وفاطمة ويعنى بغيرهم ابا بكر فقال أبو عثمان : ايما افضل خمسة سادسهم جبريل أو اثنين الله ثالثهما فبهت الشيعى[١٢٨] •

وذكر المالكى ان ابا عبيد الله الشيعى قال له من اين قلتم بالقياس فقال له أبو سعيد قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل قال : فأين تجد ذلك ؟ قلت قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » فالصيد معلومة عينه والجزاء الذى امرنا ان نمثله بالصيد المعلوم ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى انما أمرنا ان نمثل مالم ينص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد ومنه قوله عز وجل يحكم به ذوا عدل منكم فلم يكله الى حاكم واحد حتى جعلهما اثنين ليقيسا ويجتهدا[١٢٩] •

وذكر الدباغ ان أبا عثمان دخل على ابى العباس أخى عبد الله الشيعى وهو يقول لرجل ممن ينتسب الى العراقيين أليس العالم أفضل من المتعلم أبدا والعراقى يقول له نعم قال أبو عثمان ففهمت مراده ومقصوده بذلك توكيد الطعن على ابى بكر رضى الله عنه فى سؤاله عليا رضى الله عنه عن فرض الجدة فقلت أنى أسمع كلا ما يجب لله على ان لا أسكت قال وما ذاك قلت له المتعلم يكون أعلم من المعلم أبدا ويكون

---

(١٢٧) هناك اربع مجالس مناظرات بين أبى عثمان والشيعى مروية ذكرت فى ملاحق كتاب عبيد الله المهدى لحسن ابراهيم وطه شرف •

(١٢٨) الدباغ معالم ج٢ ص ٢٠٤ •

(١٢٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ نقلا عن المالكى •

افضل منه قال وما دليله قلت قال رسول الله ﷺ رب حامل فقه الى من هو افقه منه ورب حامل فقه غير فقيه . وآخر ما هو متعارف وهو أن المعلم يعلم الصتيان القرآن فلا يزال يعلمهم حتى يكبر الصبى فيعطى الله عز وجل الصبى من الفهم بعلم القرآن وخواصه وبظاهره وباطنه ما لم يقدر المعلم على علمه ابدا(١٣٠) .

وكان أبو عثمان فى دفاعه متمسكا بالحق لا يخشى الا الله تعالى مع شدة الشيعة على مخالفيهم وكان لا يذهب الى الشيعى الا أن يوجه اليه ولما بعث فيه وفى أصحابه ودخل عليه قال أين أصحابك ؟ قال هم أولاء على اثرى وتكلم معه يوما فغضب عليه من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبى موسى شيخ المشايخ وقام اليه بالرمح فمنعه ابو عبيد الله من ذلك ثم عطف على ابى عثمان وقال له ياشيخ لا تغضب اتدرى اذا غضب هذا الشيخ يغضب لغضبه اثنا عشر الف سيف فقال له عثمان ولكنى انا يغضب لغضبى الله الواحد القهار الذى هلك عادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا(١٣١) .

ذلك طرف من بعض المناظرات التى خاضها أبو عثمان مع الشيعة وهى تؤيد ما وصفه به محمد بن حارث من انه لسان القيروان وفصيحها(١٣٢) .

وكان أبو عثمان فقيرا ومتقللا من الدنيا فى ابتداء أمره حتى كان اذا باضت دجاجة فى داره فرحوا لذلك لانهم يشترون بها بقلا وكان مع ذلك يحافظ على مظهره وملبسه رغم فقره فكانت كسوته آنذاك تقدر بعشرين دينارا وكانت له همة يتيه بها على أهل الدنيا ويلبس لباس الشرفاء للتيه فى أعين الاعداء يعنى عبيد الله وشيعته وكان متقللا فى طعامه ويقول : القناعة غنى(١٣٣) .

---

(١٣٠) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(١٣١) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢١٠ .

(١٣٢) عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩١ .

(١٣٣) انظر الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢ .

ومن حكمه المأثورة :[١٣٤] « تقديم من أخره الله وتأخير من قدمه فتنة فى الأرض وفساد كبير » سل ربك العافية من بلاء يضطرك الى معصية » ٠

« انما هو دين او مروءة فمن عرا منهما فقد عرا من كل خير » ٠

« القرب من السلاطين فى غير هذا الوقت حتف من الحتوف فكيف به فى هذا الوقت » ٠

« ليس من كل ذنب يجب فيه العفو ولا كل حالة يجب فيها الحلم » ٠

« القلب الحى كاللحم الحى اليسير يؤلمه والقلب الميت كاللحم الميت الكثير لا يؤلمه » ٠

وقد ظل ابو عثمان ينشر علمه وفكره ومعرفته بين تلاميذه ويدافع عن السنة ضد من يعتدى عليها الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٠٢هـ فكانت وفاته خسارة لأهل القيروان فى مقاومة الشيعة بالحجة والمنطق ولذلك خرج البريد يبشر أمير الفاطميين بوفاته ٠ وقد رثاه شعراء القيروان بما يدل على شدة حزنهم وأسفهم لوفاته رحمه الله رحمة واسعة[١٣٤] ٠

٥ ـ النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون يكنى أبا حنيفة المغربى[١٣٥] :

لا نعرف متى ولد النعمان الا أن ما ذكر عنه من أنه كان مالكى المذهب ثم انتحل المذهب الاسماعيلى الشيعى فأخلص له[١٣٦] يمكن أن يفهم منه أنه ولد وتمذهب بالمذهب المالكى قبل قيام دولة الفاطميين

---

(١٣٤) انظر الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢١٥ ، الفاضل بن عاشور اعلام الفكر الاسلامى ص ٤٣ ٠

(١٣٥) الولاة والقضاة للكندى ص ٥٨٦ عن رفع الاصر ص ١٣٦ ٠

(١٣٦) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٤ ٠

سنة ٢٩٦ هـ وعند قيام الدولة الفاطمية ودراسته للآراء الشيعية مال اليها واعتنقها ودخل فى خدمة عبيد الله الفاطمى سنة ٣١٣ هـ ولا شك أن الفاطميين لم يسندوا اليه عملا الا وقد انسوا منه فهما حقيقيا لمذهبهم واعتناقا لـه ٠

وقد وجه النعمان جهده العلمى أيام المهدى والقائم والمنصور الى الجمع والحفظ ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الشيعى وقد عين قاضيا أيام المهدى(١٣٧) كما تولى قضاء طرابلس أيام القائم وعندما تولى المنصور عينه قاضيا لقضاته ومنحه بعض النفوذ وكتب له عهدا « بالقضاء على المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن افريقية »(١٣٨) ٠

وكان النعمان يقيم الحق على الشريف والمشروف ويحكم بالعدل بين القوى والضعيف وقد قدر المنصور وابنه المعز من بعده هذه الصفات فى النعمان وحثاه على الاستمرار فى التمسك بها ٠

كما كان من مهمته كقاضى للقضاة أن يخطب فى كثير من الأحيان فى المساجد الجامعة فى القيروان والمنصورية والمهدية ويعين من ينوب عنه فى الأقاليم ويعزل من يستحق العزل وكان يضع لقضاته فى الأقاليم الخطة التى يسيرون عليها فى القضاء بين الناس وما يستطيعون به أن يحتفظوا بهيبتكم أمام الناس واخذ الحق للمظلومين ٠

وقد ذكر النعمان فى وصيته لبعض القضاة الخارجين الى الاقاليم ما يبين به وجوب تمسكهم بالحق وادائهم للامانة وتمسكهم بالصواب « أن أحق ما نظرتم فيه وعملتم له الوفاء بالعهد واداء الأمانة فيما قلدتموه وامتثال ما عهد أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) اليكم فيه لما يجب لله وله عليكم فى ذلك ٠ ولا أقل من أن تنظروا فيما تدوم

---

(١٣٧) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ١٩٠ ٠

(١٣٨) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ١٩٠ نقلا عن المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٢٠٣ ٠

لكم به النعمة وأن تقتدو فى ذلك بما تشاهدونه من عوام الناس مثـــل ضراب[١٣٩] وصائغ وخياط وقصار[١٤٠] وأمثالهم من الصناع فقد ترون أن احدهم يسـلم اليه العمل يساوى المـال العظيم ، يعمل بالاجر التافه اليسير ولا يشهد به عليه ولا يتوثق فيه منه وقد يكون فقيرا أو غير ورع ولا امين ولا ناظر فى علم ولا دين فيفى بأمانته ويصرف ما دفع الى من استعمله فيه ويقبض تافها من الاجر عليه ولا يدعوه الى ذلك الا انه يعلم أنه أن احتبس مما دفع اليه وانكره تناذره[١٤١] الناس فلم يستعملوه فيرى أن ما يأخذه من الاجر شيئا بعد شىء أجدى عليه وانفع له وأنتم تصيبون من فضل الله ما أن استمدمتموه بحفظ ما استحفظتم دام لكم مع حســـن الاحدوثة فيكم ورجاء الزيادة لكم ، وما ترجون من ثواب ربكم فمن سمع من أولياء الله مثل ما قدمت ذكره فلينزله على ما نزلته[١٤٢] ولا يذهـــب به الى حيث ذهب من نطق الكتاب بذمه[١٤٣] وبين الله عليه فساد ما توهمه وذهب اليه . والله يهدى من تمسك بحبل أوليائه[١٤٤] الى طاعته والعمل بما يرضيه ويرضيهم قولا وعملا ونية وموافقة للصواب[١٤٥] .

وقد ألف النعمان فى كثير من العـلوم والفنون فألف فى الفقـه الشيعى وفى المناظرة والتأويل والعقائد والسير والتاريخ والوعظ وغير ذلك ويذكر الدكتور حسن ابراهيم أن النعمان ألف بضعة وأربعين كتابا بقى منها حتى اليوم نحو عشرين كتابا وضاع الباقى[١٤٦] .

---

(١٣٩) الضراب : النجاد .

(١٤٠) القصارة : الصناعة . فالقصار هو الصانع .

(١٤١) تناذره الناس : حذر بعضهم بعضا من معاملته .

(١٤٢) أى يقدره ويعمل به ليكون مثالا .

(١٤٣) ذم الله من لم يطع ربه ورسوله وأولى الأمر .

(١٤٤) يقصد بالأولياء : أنصار الدولة وأشياعها .

(١٤٥) المعز لدين الله حسن ابراهيم وطه شرف ص ١٩٠ ، ١٩١ نقلا عن المجالس والمسايرات للنعمان جـ ١ ص ١٣ ـ ١٥ .

(١٤٦) تاريخ الدولة الفاطمية لحسن ابراهيم ص ٤٧٥ .

ومن بين هذه الكتب كتاب « دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام » فى الفقه الشيعى ويعتز به البهرة فى اليمن والهند وجعله حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم فى فارس فى كتابه راحة العقل فى المرتبة التى تلى القران والحديث[١٤٧] . ومن كتب النعمان كتاب الينبوع وكتاب الايضاح وكتاب مختصر الآثار وكتاب الطهارة وكتاب كيفية الصلاة وكتاب منهاج الفرائض . ومن كتبه فى المناظرة التى الفها : الرسالة المصرية فى الرد على الشافعى والرسالة ذات البيان فى الرد على ابن قتيبة وكتاب فى الرد على بن سريج البغدادى وكتاب اختلاف أصول المذاهب وقد ألف فى العقائد كتاب القصيدة المختارة وكتاب المهمة وكتاب الشروط وكتاب التعاقد والانتفاد .

وفى الأخبار والسير ألف كتاب شرح الأخبار ، وارجوزة تسمى « ذات المنن » وارجوزة تسمى « ذات المحن » وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة وكتاب مناقب بنى هاشم .

كما ألف فى الوعظ كتاب المجالس والمسايرات ، ومعالم الهدى[١٤٨] وغير ذلك من الكتب التى تبحث فى كثير من الموضوعات والدالة على ما امتاز به النعمان من عقل حصيف وذهن وقاد .

وقد عرض النعمان كل هذه المؤلفات بأسلوب سهل بعيد عن الاغراق والشطط ومن عرضنا لأسماء هذه الكتب والموضوعات التى كتبت فيها يتبين لنا الأثر الكبير والمجهود العظيم الذى قام به النعمان فى الحياة الفكرية كما يعطينا صورة لبعض ما كانت عليه القيروان فى أيام الفاطميين وقد استمر النعمان يشغل منصبه كقاض للقضاة الى أن قدم مصر صحبة المعز وظل يتولى القضاء فى عسكر المعز الى أن ادركته الوفاة فى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ[١٤٩] وصلى عليه المعز .

---

(١٤٧) المرجع السابق ص ٤٧٦ .

(١٤٨) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨ ، المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ .

(١٤٩) الولاة والقضاة للكندى ص ٥٨٦ نقلا عن رفع الاصر ص١٣٦

وهكذا نرى بعد هذا العرض أن القيروان مع ازدهارها بالعلماء الأجلاء الأفذاذ فى الفقه المالكى الذين تزعموا المدرسة المالكية وتخرج على أيديهم الاعداد الكثيرة التى انتشرت فى أرجاء المغرب والأندلس وصقلية فاننا مع كل هذا نرى علماء أجلاء فد درسوا المذهب الحنفى وحملوا الويته وعندما قامت الدولة الفاطمية لم نتخلف القيروان عن دراسة المذهب الشيعى مع معاداة معظم العلماء له بل انتجت القيروان الفقهاء والمفكرين فى المذهب الشيعى كذلك • كما كان هناك من العلماء من مال الى مذهب الشافعى أو درس المذهب الحنبلى •

وبذلك يتجلى لنا بوضوح أن الحركة الفكرية فى القيروان فى علوم الفقه والتشريع والقضاء لم تقصر أو تتأخر عن مثيلاتها فى مراكز الفكر الاسلامى الأخرى • وانما تعددت مناحيها وتنوعت أغراضها وشملت معظم المذاهب الاسلامية الشريعية فى العالم الاسلامى • بما يعطى لهذا المركز الاسلامى مكانته الهامة فى الحياة الفكرية فى العالم الاسلامى ويدل على الدور العربى والأصيل الذى قام به فى نشر الثقافة الاسلامية فى الجزء الغربى من العالم الاسلامى ثم فى العمل على عبوره الى أوربا عن طريق صقلية وسردانيا والأندلس وقبل ذلك ساعد على انتشاره فى وسط وغرب افريقيا •



القرآن والتفسير والحديث

ان اعتناء علما القيروان وسكانها بحفظ القرآن الكريم أمر مفروغ منه ومسلم ولكن الذى حدث فى فترة الازدهار هو الاقبال على تعرف القراءات وأحكامها والتأليف فيها وتعليمها للناس كما كان هناك من يعتنى بتحسين صوته بتلاوة القرآن وهذا دليل على وجود حركة فكرية فى فن القراءات وأحكامها •

ومع احاطة العلماء الفقهاء الذين تحدثنا عنهم بقراءة القرآن والتفسير والحديث الا أن هناك علماء فد وجهوا معظم اهتمامهم الى

قراءة القرآن أو اشتهروا بالتفسير أو الحديث وكان معظم جهدهم موجها الى ذلك .

ومن أجل هذا أفرد البحث الحديث عنهم باعتبار انهم يمثلون جانبا فكريا من العلوم الشرعية ومالوا الى التبحر فى هذه العلوم مع عدم توجيه كل اهتمامهم الى الفقه كما حدث بالنسبة للذين حملوا رأيه الفقه والقضاء الذين تحدثنا عن أهم اعلامهم .

وكان الغالب على اهل القيروان قراءة القرآن بحرف حمزة ولم يكن يقرأ بحرف نافع الا الخواص(١٥٠) ويذكر صاحب النجوم الزاهرة أن ورشا المقرىء امام القراء أصله من القيروان وأن شيخه نافع هو الذى لقبه ورشا لشدة بياضه(١٥١) ، وقد ظل الحال على ذلك أن قدم محمد بن خيرون الأندلسى الذى سكن القيروان ورحل الى المشرق وأخذ القراءات بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطى وأبى الحسن اسماعيل ابن يعقوب الأزرقى المدنى ودخل العراق وسمع من أصحاب على بن المنى ويحيى بن معين وعاد الى القيروان فأخذ يقرىء الناس بحرف نافع وكان اماما فيها فاجتمع اليه اهل القيروان وأخذوا هذه القراءة عنه وكان ابن خيرون يحمل بشدة على مذهب المشيخة من أصحاب ورش فروى عنه عامة أهل القيروان وسائر المغرب قراءة نافع(١٥٢) وتركوا ما عداها ولذلك يخبرنا المقدس « أما القراءات فى جميع الأقاليم فقراءة نافع فحسب »(١٥٣) وقد توفى ابن خيرون سنة ٣٠٦ هـ وهكذا سادت القراءة بحرف نافع حتى أن ابن طالب أيام توليه القضاء فى القيروان

---

(١٥٠) نفح الطيب للمقرىء جـ ٢ ص ٢٧١ .

(١٥١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٢ ص ١٥٥ واسمه عثمان بن سعيد ولد سنة ١١٠ هـ وتوفى سنة ١٩٧ هـ .

(١٥٢) انظر نفح الطيب للمقرىء جـ ٢ ص ٢٧١ ، العرب فى صقلية لاحسان عباس ص ١٠٤ نقلا عن المتفق للمقريزى .

(١٥٣) احسن التقاسيم للمقدس ص ٢٣٨ .

امر ابن برغوث المغربى بجامع القيروان الا يقرىء الناس الا بحرف نافع(١٥٤) .

ويذكر لنا أصحاب الطبقـات عددا ممن اشتغلوا بتعليم القـرآن او بعلم القراءات وبعضهم حاول أن يكون صوته حسنا بقراءة القران فاحمد بن يزيد القرشى الذى سمع من سحنون كان أول عمره يعلم القرآن(١٥٥) ، وربيع بن عطاء الله القطان المتوفى سنة ٣٣٤ هـ كان عالما بالقرآن وقراءته وتفسيره ومعانية وعبد الله بن اسحاق التبان كان من احفظ الناس بالقرآن والتفنن فى علومه(١٥٦) . وابو بكر بن بشير المتوفى سنة ٣٠٨ هـ كان معلما للقرآن ومتهجدا بقراءته(١٥٧) . وابراهيم بن الحسن بن محمد التميمى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ كان من أهل العـلم والقرآن وأعطى حسن الصوت بالقرآن(١٥٨) وامام الجامع بالقيروان محمد بن مسعود التميمى طلب العلم بالمشرق والمغرب وجود القراءات(١٥٩) . وابو بكر محمد بن أبى الفتح المعروف بابن الصواف المقرىء والذى أم الناس بجامع القيروان وتوفى سنة ٣٤٤ هـ كان مجودا للقرآن حسن اللفظ به(١٦٠) .

وفى نهاية أيام الفاطميين بالقيروان كان أبو عبد الله محمد بن سفيان المقرىء الذى تلقى علم القراءات على أبى الطيب بن غلبون المقرىء وقد فاق أهل زمانه فى القراءات وأخذ عنه علم القراءات كثير من الناس وقد ألف فى فن القراءات كتابه «الهادى فى القراءات»(١٦١) .

---

(١٥٤) المـالكى رياض ص ٣٧٨ .

(١٥٥) المـالكى رياض ص ٣٧٤ .

(١٥٦) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٣٢ ، ٥١٧ .

(١٥٧) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(١٥٨) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٨ ، ٤٩ .

(١٥٩) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .

(١٦٠) المصدر السابق ص ٦٧ .

(١٦١) المصـدر السـابق ص ١٩٦ ، نفـح الطيب للمقرىء جـ ٣ ص ٣٩٨ .

هـذا بالاضافة الى عدد كبير من العلماء والعباد كانوا مشتغلين بقراءة القرآن حتى أن أبا الحسن ابن دارس المتعبد عندما حضرته الوفاة قال : هـذه الجبة الصوف والكساء ختمت فيهما القرآن ثمانية آلاف ختمة ليلا ونهارا كفنونى فيهما(١٦٢) . ومحمد بن نصر المتعبد كان يختم القرآن كل ليلة ثلاث ختم(١٦٣) .

وهكذا يتبين لنا كيف كان يهتم أهل القيروان بالقرآن قراءة وحفظا وتجويدا .

ومع اهتمام العلماء فى القيروان بالقرآن فقد كان هناك اهتمام كذلك بالتفسير ومن اشـهر المفسرين فى أيام الأغالبة يحيى بن سلام التميمى الذى ولد بالكوفة سنة ١٢٤ هـ وسكن القيروان وتوطنها مدة من الزمان ثم خرج الى المشرق فتوفى بمصر سنة ٢٠٠ هـ وله كتاب فى التفسير رتبه تلميذه أبو داود العطار(١٦٤) .

وتوجد أجزاء وأوراق فى مكتبة القيروان العتيقة من هذا التفسير بعضها من تفسير الفاتحة والبقرة (فى كراس أوراقه عشرة لم يصور) والبعض من سورة الأنعام رقمه المسلسل من ٤٨٤ ـ ٥١٥ .

والموجود من الربع الثانى من القرآن البعض من سورة الأنفال والبعض من سورة التوبة (مصورا من ٧٠٩ ـ ٧٩٨ ومن ٥٨٢ الى ٦٠٩) والبعض من سـورة يوسف والرعد والحجر من (٤٨٠ الى ٤٨٣ ـ ومن ٦٥١ الى ٦٨٩ ومن ٧٩٩ الى ٨٠٢) وجزء به تفسير آخر سورة الكهف (مصور من ٥٢٠ الى ٥٤٩) .

والموجود من الربع الثالث : جزء به تفسير بقية سورة طه وبعض

---

(١٦٢) المـالكى رياض ص ٣٨٩ .

(١٦٣) الدباغ معالم ج ٢ ص ٢٤٢ .

(١٦٤) أبو العرب طبقات ص ١٦١ ، المـالكى رياض ص ١٢٢ ، الدباغ معالم ج ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، تقويم تونس سنة ١٩٤٦ ص ٤٨ .

الأنبياء (لم يصور) والبعض له صور من (٥٥٠ ـ الى ٥٦١) وهذا الربع الثالث يوجد كاملا بالمكتبة العبدلية على الرق مكتوب بخط أندلسى جميل فى سنة ٣٨٣ هـ ورقمه بالفهرس ١٣٤ ٠

والموجود من الربع الرابع من القرآن فى المكتبة العتيقة : البعض من أول سورة الجاثية والأحقاف ومحمد والفتح (مصورا من ٤٧٢ الى ٤٧٩ ، ومن ٥٦٢ الى ٥٨١) ومن السور الآتية : الواقعة ـ الحديد ـ المجادلة ـ الحشر ـ الممتحنة ـ الصف ـ الجمعة ـ المنافقون ـ التغابن ـ الطلاق ـ التحريم ـ الملك ـ القلم ـ الحاقة ـ المعارج ـ نوح (مصور من ٣٣٣ الى ٣٦٥ ومن ٤٠٣ الى ٤٨٦ ومن ٧٣١ الى ٧٣٣)[(١٦٥)] ٠

وقد سبق أن ذكرنا فى الحديث عن أبى عثمان الحداد أن مذهبه كان المناظرة وفهم القرآن ومعانيه وكان يقول : ما حرف من القرآن الا واعددت له جوابا ولكن لم اجد له سائلا[(١٦٦)] ، وكان محمد بن زرور يقول : انى احفظ تفسير يحيى بن سلام كما احفظ القرآن[(١٦٧)] ٠

وتمدنا المصادر بأسماء عدد ممن كان مهتما بالتفسير فى القيروان منهم :

أبو الأسود موسى بن عبد الرحمن القطان الذى ألف فى أحكام القرآن اثنى عشر جزءا وقد أعجب به أهل مصر عندما قدم عليهم وولى قضاء طرابلس وتوفى سنة ٣٠٦ هـ[(١٦٨)] ٠

وأبو بكر محمد بن محمد بن اللباد الذى ضرب بسهم وافر فى

---

(١٦٥) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة ٠
(١٦٦) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٣ ٠
(١٦٧) المصدر السابق ص ١٦٧ ٠
(١٦٨) المصدر السابق ص ٢٣٣ ، البيان لابن عذارى جـ ١ ص ١٨١، الدباغ لابن فرحون ص ٣٤٢ ٠

علم القرآن قراءته واعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه[١٦٩] ، وعبد الله ابن اسحق المعروف بابن التبان وكان متفننا فى علوم القرآن وأبو اسحاق الجبنيانى الذى كان حسن القراءة للقرآن يحسن تفسيره واعرابه وناسخه ومنسوخه[١٧٠] • وغير هؤلاء كثير ممن كان مهتما بتفسير القرآن ومعرفة أحكامه والذين نجد لهم أخبارا متفرقة فى مختلف المصادر وذلك يعطينا فكرة عن اهتمامهم بالتفسير وأن لم يصل الى درجة اهتمامهم بالفقه كما تبين لنا أو بالحديث كما سيتبين بعد •

فقد كان لبعض العلماء فى القيروان اهتمام كبير بالنسبة للحديث جمعه وحفظه ومعرفة رجاله وأسمائهم وكناهم وتقصى الضعفاء منهم والثقات والعلم بمعانى الحديث وعلله وغريبه •

وممن وجه عناية كبيرة الى الحديث وتلقيه من علماء القيروان والرحلة فى سبيل جمعه من الأمصار الأخرى المشرق فى بداية عصر الازدهار موسى بن معاوية الصمادحى الذى كان ثقة مأمونا عالما بالحديث كثير الأخذ عن الرجال المدنيين والكوفيين والبصريين وغيرهم من أهل الأمصار[١٧١] • فقد تلقى فى القيروان عن البهلول بن راشد ورباح بن زياد كما تفقه على على بن زياد فى تونس وعند رحلته الى المشرق تلقى الحديث عن وكيع بن الجراح وسفيان بن عيينة والفضل بن عياض وعبد الرحمن بن مهدى وزيد بن هارون وجرير بن عبد الحميد • قال موسى معبرا عن رحلته : رحلت من القيروان ولا أظن أنى أرى أحدا أخشع من البهلول بن راشد حتى لقيت وكيع بن الجراح ولم ألق أحدا أروى من وكيع كان يروى خمسة وثلاثين الف حديث يقرأها علينا ظاهرا على تأليفها ما يشك فى حديث منها[١٧٢] • وقد تجشم موسى فى جمع

---

(١٦٩) الدباغ معالم ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤ •

(١٧٠) عياض المدارك ج ٣ ص ٤٩٩ ، ٥١٧ •

(١٧١) أبو العرب طبقات ص ١٩٠ •

(١٧٢) المدارك عياض ج ٣ ص ٦ ، الدباغ معالم ج٢ ص ٣٣ ، المالكى رياض ص ٢٩١ •

الحديث عناءا ومشقة كبيرة فقد سافر فى سبيل جمع الحديث الى أبعد من المدينة ومكة والشـام والعراق حيث رحل ليلقى جرير بن عبد الحميد الضبى فى مدينة الرى فى أرض خراسان(١٧٣) . وهـذا يوضح لنا الجهد الذى بذله علماء القيروان فى البحث عن الحديث وجمعه وكانت رحلة موسى سنة ١٨٤ هـ وعاد الى القيروان سنة ١٨٩ هـ وقد سمع منه الحديث سحنون وابن وضاح وأحمد بن يزيد القرشى وابو الفضل بن حميد وعامة أهل افريقية(١٧٤) . يقول ابو العرب اما رجاله الذين تلقى عنهم فكثرة لا احيط بهم لكثرتهم(١٧٥) . قال عنه ابو الحسن الكوفى : لم يكن عندكم بافريقية محدث الا موسى بن معاوية وعباس بن الوليد بن الفارسى اى انهما اعظم المحدثين بافريقية .

وقد الف موسى بن معـاوية كتاب الزهد وكتاب مواعظ الحسن محمد بن رشيد مولى عبد السلام ابن مفرج الربعى .

ويوجد بمكتبة القيروان العتيقة كتاب فيه احاديث فى السنة والنهى عن البدعة لـمـا حدثنى به أحمد بن زيد المعلم عن موسى بن معاوية الصمادحى وغيره . رقمه المسلسل من ٩١٩ ــ ٩٣٦(١٧٦) .

وقد توفى موسى بن معاوية سنة خمس وعشرين ومائتين عن خمس وستين سنة(١٧٧) .

ومن العلماء بالآثار : محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ هـ وقد

---

(١٧٣) المـالكى رياض ص ٢٩٤ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ٣٦ .
(١٧٤) انظر ابو العرب طبقات ص ١٩٠ ، ١٩١ ، عياض المدارك جـ ٣ ص ٦ .
(١٧٥) المصدر السابق .
(١٧٦) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .
(١٧٧) ابو العرب طبقات ص ١٩١ ، عياض المدارك جـ ٣ ص ٨ .

سمع من موسى بن معاوية الصمادحى[(١٧٨)] ومنهم محمد بن يحيى بن سالم التميمى الذى كانت له عناية كاملة بالحديث ونقله وروايته وضبطه ومعرفة رجاله وحملته عارفا للسنن جامعا لها اماما فيها وقد توفى سنة ٢٦٢ هـ[(١٧٩)] ٠

وأبو عبد الله أحمد بن يزيد المعلم الذى يروى عن موسى بن معاوية الصمادحى وكان عالما بالحديث وعلله[(١٨٠)] وتوفى سنة ٢٨٤ هـ ، ويحيى بن عمر بن يوسف الأندلسى الذى حضر على علماء القيروان ورحل الى المشرق ثم سكن القيروان وسمع عليه عدد كبير من أهل القيروان فى الجامع بها وله كتب كثيرة وكتب فى أصول السنن ككتاب الميزان وكتاب الرؤية وكتاب الوسوسة وكتاب احمية الحصون وكتاب فضل الوضوء والصلاة[(١٨١)] توفى سنة ٢٨٩ هـ ومنهم عيسى بن مسكين الذى تعلم فى القيروان وسمع من علمائها ورحل الى المشرق وكان عالما بالحديث واسماء الرجال وكناهم وقويهم وضعيفهم وقد تولى القضاء فى القيروان وتوفى سنة ٢٩٥ هـ[(١٨٢)] ٠ ومنهم أبو سليمان ربيع بن عطاء الله القطان كان حافظا للحديث عالما بمعانيه وعلله ورجاله وغريبه وخرج الى الحج مرتين الأولى سمع فيها الحديث وكانت له حلقة بجامع القيروان أيام أبى يزيد وسمع منه ابن أبى زاهر وأحمد بن زياد وابن اللباد وأبو العرب وأبو جعفر القصرى والتمار وغيرهم ٠ وقد قتل شهيدا فى حصار المهدية سنة ٣٣٤ هـ[(١٨٣)] وأبو الحسن القابسى الذى صنف فى

---

(١٧٨) المالكى رياض ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ٠

(١٧٩) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٩٥ ، ٩٨ ٠

(١٨٠) المصدر السابق ص ١٣٧ ٠

(١٨١) انظر الديباج لابن فرحون ص ٣٥١ ٠

(١٨٢) عياض المدارك جـ ٣ ص ٢١٣ ، الديباج لابن فرحون ص ١٧٩ ٠

(١٨٣) نفس المرجع ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥ ، ٣٣٠ ٠

الحديث كتاب الملخص جمع فيه ما اتصل اسناده من حديث مالك بن انس فى كتاب الموطأ[184] .

وبهذا يتبين لنا مدى ما وصلت اليه القيروان من عناية بالحديث وتصحيحه والبحث عن رجاله وعلله بما يعطها وضعها بين غيرها من مراكز الفكر الاسـلامى .

* * *

٢ ـ العلوم العربيـة

تمهيــــد :

كما نمت العلوم الشرعية وازدهرت خلال حكم الأغالبة والفاطميين فقد ازدهرت العلوم العربية خلال هــذه الفترة بشتى فروعها الأدبيــة واللغوية فكان هناك الشعراء والخطباء والكتاب وعلماء النحو واللغــة من أبناء القيروان الذين رحلوا الى المشرق أو تعلموا فى القيروان وعدد آخر وفد من المشرق الى القيروان . وكثير من هؤلاء وهؤلاء كان يعقد الحلقات التى تغص بالطلاب لتلقى العلوم العربية والاحاطة بقوانين اللغــة .

وقد شجع على كل ذلك تحلى كثير من الأمراء بالميل الى الآداب والعلوم واتخاذ ذلك وسـيلة لبسط سلطان الدولة واتساع نفوذها والدفاع عنها ضد أعدائها . مما أدى الى ازدهار الكتابة والخطابة وقيام الشعر بدور كبير فى كثير من اغراضه واهدافه وخاصة فى تصوير الحياة وتجسيد الآمال والزود والدفاع عن الدولة ونشر مبادئها ونلاحظ ذلك بصفة واضحة خلال قيام الدولة الفاطمية .

---

(١٨٤) انظر ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٩ .

١ ـ الأدب :

خطابة ـ شعر ـ كتابة

(أ) الخطـــابة :

ان قيام دولة من الدول أو مذهب من المذاهب يحتاج الى السنة ناطقة لشرح المبادىء والأهداف ثم بعد قيام الدولة أو المذهب يحتاج الى من يدافع عنه بالفكرة والبيان واللسان الذرب والمنطق الفصيح ، ولذلك كان قيام الدولة الأغلبية ثم الدولة الفاطمية بمذهبها الشيعى عاملا من عوامل رقى الخطـابة وازدهارها وقد وصف المؤرخون راس الـدولة الأغلبية ابراهيم بن الأغلب بأنه خطيب مفوه ذو رأى وبأس وحزم ومعرفة بالحرب جرىء الجنان طويل اللسان حسن السيرة(١٨٥) .

وقد خطب ابراهيم بن الأغلب فيمن نهض معه لاستخلاص القيروان من يد تمام بن تميم التميمى الذى طرد العكى منها ... فحمد الله واثنى عليه وتكلم بكلام كثير حرضهم به على قتال تمام وكان فيما قال لهم : « والله ما لكم من شام تلجئون اليه ولا عراق تستمدون منه ما لنا ملجأ الا السيوف ، ولا تذرع الا الصبر فمن عزم على غير هذا فقد أذنا له فى الانصراف » ولذلك قام عمرو بن معاوية فقال : « أصلح الله الأمير مانشك فى طاعتك وخلافه ولا فى حقك وباطله وانك اذا نهضت فى قلة من المـال والفرسان بنفسك وأهل بيتك لواثق بان ينصرك الله نصرا يكون مثلا فى الناس لأنك أهل لذلك بحسن نيتك وخلوص سريرتك وانك بقية أبرار وخلف أخيار ونحن نبلغ مبلغ الجهد فى مناصحتك وايثار هواك فى الحق على هوانا ولك الاجابة منا الى الدعوة اليه ان شاء الله . فقام عمران بن مجالد فقال : « أصلح الله الأمير فوالله أحصى ما شهدت من العساكر ما منها عسكر الا وطلائعه أكثر من عسكره والله لا يأتيك أمر من الموت بين تلك الجماعة ولكأنى بك غدا على منبر القيروان وان

---

(١٨٥) انظـر تاريخ افريقيـة للرقيـق ص ٢١٢ الحلة السـيراء لابن الابارط ص ٩٣ ، ٩٤ .

نفسى لتحدثنى من نصر الله عز وجل ما لو أرسلت رجلا واحدا لأخذها لك ان شاء الله » ولذلك وصف شاعر ، ابراهيم بن الأغلب فى هـذا الموقف وقد جمع ابراهيم أهل بيته وبنى عمه وخاصته فكانوا سبعين فارسا فقال :

هاتوا لنا رجلا اردى بنجدته سبعين الفا بسبعين من الناس
ما مر يوم لابراهيم بعلمـه الا وشيمته للجود والباس

وقد خطب ابراهيم بن الأغلب من على منبر القيروان عندما دخلها خطبة بين للناس فيها عواقب الخلاف وذكر الناس فيها بحالتهم وبين فيها الهدف من قدومه[١٨٦] .

وقد كان من ابناء الأسرة الأغلبية الحاكمة بعض الأدباء والخطباء منهم محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب الذى كان عالما اديبا شاعرا خطيبا مع حسن عشرة لاخوانه ولين لأخدانه لا ينادم الا اهل الأدب وقد ألف كتاب « راحة القلب » وكتاب « الزهر »[١٨٧] .

ولقد ازدهرت الخطابة الدينية فى هذه الفترة وقد تفتحت اكمام العلوم الشرعية وشاع التعليم الدينى ، وقد أورد لنا المالكى وصاحب المدارك خطبة فى الاستسقاء القاها ابو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقى المتوفى سنة ٢١٠ هـ وهى تبين لنا الفهم الدقيق للاسلام وسعة الأمل فى الله سبحانه وتعالى وتمكن الخطيب من ناصية اللغة مع سلاسة فى الأسلوب واصابة للمعانى وتشبع بالروح الدينية ، فقد بسط يديه وقال : « انت مولانا ما لنا غيرك ولا سواك بك نالوا الدرجات الرفيعة والمواهب العالية ، ولولاك ما نالوها وأنت ذو رحمة واسعة وأنت العالم بأحوالنا وقبيح أعمالنا ومالنا غيرك ولا سواك وقد قامت آمالنا بك وقد جئونا بين يديك بهائمنا جائعة وارضنا سوداء يابسة وقلوبنا خائفة وبيوتنا

---

(١٨٦) انظر ملحق الخطابة .

(١٨٧) ابن الأبار الحلة السيراء ج ١ ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

فارغة وسماؤك عامرة وخزائنك واسعة فاسقنا سقية نافعة تجدد الايمان فى قلوبنا ولا نبرح من بين يدى كريم حتى يسقينا » ووسيلتنا اليك نبينا الذى جعلته رحمة لنا صلى الله عليه وسلم قال نصر بن خالد : فرأيت سحابة بيضاء رقيقة ثم رأيت السماء اندفقت بالغيث فرايت أبا خارجة وهو يرفع ثيابه وهو يقول : « بهذا يعرف الكريم هذا فعلك فى من قصدك فبهذا تعرف وتوصف »[(١٨٨)] .

وقد ذكر الدباغ أن عبد الله بن احمد به طالب التميمى القاضى كان فطنا فصيحا فى خطابته وكان يخطب بمسجد القيروان وأن محمد ابن زرقون أقام اماما وخطيبا بمسجد القيروان عشرين سنة وقد توفى سنة ٢٧٨ هـ[(١٨٩)] .

وعندما قامت الدولة الفاطمية وهى سلطة جديدة ذات مذهب جديد كانت ذات اثر فى نهضة الخطابة لتثبيت أركانها ونشر مذهبها وقد كان أمراء هذه الأسرة جميعا فى مرتبة عالية من المعارف فما منهم من لم يفرض الشعر وينطق بالخطبة الفصيحة ارتجالا لا فرق بين متولى الحكم منهم ومجرد الأمير .

وكان الخليفة الثانى القائم بأمر الله خطيبا فصيحا يلقى الخطبة ارتجالا[(١٩٠)] وما من خليفة فاطمى الا كان مهتما بالعلم والمعرفة وخاصة بالنسبة لمذهبه الشيعى وكان ذلك مما أدى الى نهضة الخطابة دفاعا عن الدولة ومذهبها الذى قامت عليه ومن أجل نشره وتعميمه بين الناس .

(ب) الشـــعر :

ازدهر الشعر فى هذه الفترة ازدهارا استطاع خلاله ان يتحدث

---

(١٨٨) المالكى رياض ص ١٦٤ ، عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٨٩ .
(١٨٩) الدباغ معالم الايمان جـ ٢ ص ٨٦ ، ١٢٢ .
(١٩٠) مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٧٧ ، ٨٢ .

عن معظم الأغراض التى طرقها الشعراء فكان هناك الشعر السياسى والمذهبى ، وقال الشعراء شعرا فى الغزل والرثاء والفخر والزهد والحكمة ، كما كان هناك الشعر الوصفى والتاريخى والاجتماعى وقال بعض الشعراء القصائد فى العتاب وطلب العفو وغير ذلك من الأغراض التى عبر الشعراء عنها خلال هذه الفترة ٠

ولقد كان هناك عدد كبير يقول الشعر فى القيروان بلغ كما يقول الدباغ الى ثلاثمائة شاعر وقفوا وقالوا الشعر عند وفاة محمد بن سحنون رثاء له(١٩١) ٠ وكانوا يحتكمون الى الحكماء اللغويين من الأدباء لتقدير قصائدهم وبيان مدى ما تتمتع به من الجودة والاتقان ويذكر انه لما اجتمعت المراثى فى محمد بن سحنون أتوا بها « المهرى » ليعرضوها عليه فقام شاب من اهل الساحل فانشأ يقول :

خل المدامع كى تجول مجالها ٠٠ قطعت يمين العلم ثم شمالها

فقال له : حسبك ياهذا لا تزده فلو قلت ما عسى أن تقول ما قلت مثل هذا البيت(١٩٢) ٠

وقد بلغ من شدة اهتمام الأمراء بالشعر والشعراء أنهم كانوا يخصصون لهم وقتا يلقونهم فيه ويستمعون الى شعرهم وقصائدهم(١٩٣) ٠ ويغدقون عليهم الأموال الكثيرة والجوائز السنية بل بلغ الأمر بعبيد الله المهدى عند قيام الدولة الفاطمية أن أمر لابن سعدون الورجلى الشاعر الأغلبى المتشيع بعملة جزيلة كانت تجرى عليه كل عام وذلك لانشاده امام عبيد الله المهدى قوله :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت ... لقدومه أركان كل أمير
هذا الامام الفاطمى ومن به ... أمنت مضاربها من المحذور
يامن تخير من خيار دعاته ... أرجاهم للعسر والميسور(١٩٤)

---

(١٩١) انظر معالم الايمان للدباغ جـ ٢ ص ٨٨ ٠

(١٩٢) المالكى رياض ص ٣٦٠ ٠

(١٩٣) المدارك جـ ١ ص ٣٢٣ ٠

(١٩٤) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن ابراهيم ص ٦٨) ٠

كما نجد من أمراء الأغالبة والفاطميين من يقول الشعر فى بعض الأغراض ويجيد فى ذلك كل الاجادة .

فهذا ابراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة يصور سيرته مع الثائرين وكيف قضى على رءوس الشر التى تثير الفتن وتعطل تقدم سير الحضارة وتقضى على الأمن وكيف قتل بعضا ونفى بعضا آخر لكى تسلم له البلاد من الثائرين المشاغبين وهو من قبيل الشعر السياسى حيث يقول :

ما سار كيدى الى قوم وان كثروا — الا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا أقول اذا ما الأمر نازلنى — ياليته كان مصروفا وقد وقعا
حتى أجليه عن قهر بمعتزم[195] — كما يجلى الدجى بدرا ذا طلعا
قوما قتلت وقوما قد نفيتهم — ساموا الخلاف بأرض الغرب والبدعا
كلا جزيتهم صدعا بصدعهم — وكل ذى عمل يجزى بما صنعا[196]

وهذا عبيد الله المهدى مؤسس دولة الفاطميين يفتخر ويصف يقظته واقتحامه للحروب وهو يقود الجيوش الجرارة فيقول :

من كان مغتبطا بلين حشية — فحشيتى وأريكتى سرجى
من كان يعجبه ويبهجه — نقر الدفوف ورنة الصنج
فأنا الذى لا شىء يعجبنى — الا اقتحامى لجة الوهج
سل عن جيوشى اذ طلعت بها — يوم الخميس ضحى من الفج[197]

وقال يحذر المخالفين ويعدهم ويتوعدهم :

---

(١٩٥) معتزم : فرس جامح لا ينثنى .

(١٩٦) ابن الأبار الحلة السيراء ج ١ ص ٩٧

(١٩٧) حسن حسنى يحمل تاريخ الأدب ص ٧٨ ، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمالك .

فان تستقيموا اســـتفم لصلاحكم　　وان تعدلوا عنى ارى قتلكم عدلا
وأعلو بسيفى قاطعا لســـيوفكم　　وادخلها عنوا وأملؤها قتـلا[198]

وفد كان من الامراء من ينقد الشعر نقدا يدل على تذوقه للشعر ودقة فهمه له فيذكر بن عذارى أن ابراهيم بن أحمد حبس كاتبه محمد ابن حيون المعروف بالبريدى فكتب اليه من السجن :

هبنى اسأت فأين العفو والكرم　　اذ قادنى نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الأيدى اليه أما　　ترثى لصبا نعاه عنـــدك القلم
بالغتفىالسخط فاصفح صفحمفتدر　　ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فلما قرأ ابراهيم بن أحمد أبياته قال : يكتب الى « هبنى أسأت » وهو قد اساء ٠

اما انه لو قال :
ونحن الكاتبون وقـــد أســـانا　　فهبنـــا للكرام الكاتبينـــــــا
لعفوت عنه[199] ٠

ولا شك أن كل ذلك قد أدى الى ازدهار الشعر ونموه والى اعتناء الشعراء بالاجادة فى اشعارهم والتدقيق فى معانيهم وسـاعد على النضج الأدبى فوجد من الشعراء والشاعرات من يقول الشعر الجيد ٠

(أ) ومن الشعراء الذين ظهروا فى هذه الفترة خلال حكم الأغالبة :

١ ـ أبو عباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب :

تولى امارة الأغالبة فى سـنة ٢٢٦ هـ وتوفى سـنة ٢٤٢ هـ وكان موصـوفا بالشجاعة والبصر بالحروب وقد وطد أركان الدولة وقضى على الخارجين عليه بصبره وحزمه وتمكنت الجيوش الأغلبية فى أيامه

---

(١٩٨) نفس المرجع السابق والصفحة ٠

(١٩٩) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ ٠

من الاستيلاء على بعض القلاع فى صقلية ومن اهم غزواته استيلاؤه على مدينة رومة عاصمة المسيحية الكبرى حيث قصدها من البحر فى أساطيله وامتلكها بعض الوقت سنة ٢٣٢ هـ وغنم ما فى كنائسها من الذخائر والتحف ولكن تكاثر النجدات المسيحية جعلته يجلو عنها ٠

وقد ازدهرت العلوم والآداب فى عهده وهو الذى أسند الى سحنون بن سعيد ولاية القضاء فى القيروان والاشراف عليه فى أفريقية وكان حليما جوادا يتذوق الأدب ويقول الشعر ٠

فمن قوله يفخر بحسبه ونسبه ويدل بشجاعته وحسن سياسته ومنائه للمكرمات (٢٠٠) : وقيادته للجيوش بأسلوب قوى ومعان واضحة تدل على قوة شاعريته :

اليس ابى وجدى أو طانى ... وجد أبى وعماى الرقابا
ورثت الملك والسلطان عنهم ... فصرت أعز من وطىء الترابا
أنا الملك الذى اسمو بنفسى ... فابلغ بالسمو بها السحابا
اذا نقبت عن كرمى ومجدى ... وجدتنى المصاصة واللبابا (٢٠١)
أنا الملك الذى ايدت ملكى ... بسيفى اذ كشفت به الضبابا
أفض اذا سروت الجفن عنه ... فأغتصب النفوس به اغتصابا

ثم يقول :

أظل عشيرتى بجناح عزى ... وأمنحها الكرامة والثوابا
واصطنع الرجال واصطفيهم ... واغفر للمسىء اذا أنابا

---

(٢٠٠) انظر الحلة السيراء لابن الآبار جـ ١ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، حسن حسنى يحمل تاريخ الأدب ص ٥٨ ، ٥٩

(٢٠١) اللباب : المختار الخالص من كل شىء ، والمصاصة والمصاص من الشىء خالصة يقال فلان مصاصة القوم ٠

وأسموا بالخميس الى الاعـــادى فأكسر بالعقاب له العقابا[٢٠٢]
أنا ابن الحرب ربتنى وليدا الى ان صرت ممتلئا شــبابا
لعمر أبيك ما ان عبت قومى وما أخشى بقومى أن أعــابا
بنيت لهم مكارم باقيـــات اذا ما صارت الدنيا خرابــا

٢ - مجبر بن ابراهيم بن سفيان(١٠٣) :

من أفراد الأسرة الأغلبية وقد نولى عــدة أعمال بافريقية ثم ولى على صقلية فخرج فى شينى يريد ارض قلورية[٢٠٤] فاسرته الروم وحمل الى القسطنطينية فمات بها أسـيرا سـنة ٢٨٥ هـ وقد قال قصيدة وهو فى أسره عنـد الروم وبعث بها الى القيروان ورددها أكثر الناس أيام بنى الأغلب وفيها يتعجب من اخواته بالقيروان لعــدم اسراعهم الى تخليصه من الأسر • وفيها كلمــة طخطختنا متنافرة الحروف ، كمــا يذكر فيها ما حدث للأنبياء الســابقين ليتأس بهم ويدلنا ذلك على معرفته بتاريخ الأنبياء •

الا ليت شعرى ما الذى فعل الدهر باخواننا يا قيروان ويا قصر[٢٠٥]
ونحن فأنا طخطختنا رحى النوى فلم يجتمع شمل لدينا ولا وفر[٢٠٦]
رأينا وجوه الدهر وهى عوابس بأعين خطب فى ملاحظهــا شرز

---

(٢٠٢) العقاب : من معانيه الحجر الذى يقوم عليه الســاقى • وسيل المــاء الى الحوض •

(٢٠٣) انظر الحلة السيراء لابن الأبار ط جـ ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٧٦ ، ٦٨ •

(٢٠٤) أرض قلورية : البلاد الكائنة بجنوب ايطاليا وتســـمى اليوم (كلابرية) •

(٢٠٥) يا قصر : يشير الى القصر القديم التى انشأها ابراهيــم ابن الأغلب ســنة ١٨٥ وســكنها الأغالبة وتسمى أيضا العباسية •

(٢٠٦) ولا وفر : أى ولا مال وافر يستعين به فى أسره •

ويختم قصيدته بقوله :

لعل الذى نجى من الجب يوسفا ... وفرج عن أيوب اذ مسه الضر
وخلص ابراهيم من نار قومه ... واعلى عصا موسى فذل له السحر
يصبر اهل الأسر فى طول أسرهم ... على معضلات الأسر لاسلم الأسر

٣ ـ أحمد بن ابى سليمان داود الربعى المعروف بالصواف :

من أبناء القيروان وقد تعلم على ابيه وعلى سحنون وكان ثقة كريم الأخلاق بارا بمن قصده ٠ اكثر كلامه حكمه وكان له بالشعر عناية فى أول أمره واكثر قوله للشعر فى الحكم وطول العمر وذكر الجنة ويوم القيامة وطلب رحمة الله ومغفرته مع تاثر بألفاظ القرآن ومعانيه ، وكان له نظرة ثاقبة فى نقد الشعر ، فقد تحدث اليه بكر بن حماد وانشده قوله :

نهار مشرق وظلام ليل ... الحا بالبياض وبالسواد
هما هدما دعائم عمر نوح ... ولقمان وشداد وعاد
فيابكر بن حماد تعجب ... لقوم سافروا من غير زاد
تبيت على فراشك مطمئنا ... كأنك قد امنت من المعاد
فيا سبحان من ارسى الرواسى ... واوتدها على السبع الشداد

فقال أحمد بن أبى سليمان : أمسك رفعت الجبال فوق السموات وأنزلت السموات تحت الجبال فقال له وكيف ؟ فقال له : اقرأ سورة عم يتساءلون فقرأها حتى انتهى الى قوله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) فقال له : والله لقد انشدته بالعراق ومصر وتاهرت والقيروان فما فهمه أحد وقد كسرته أنت فاصلحه فقال له : أفلا قلت : فأوتدها مع السبع الشداد ٠ فقال له قد اصلحت ما أفسدت ٠ وقد تتلمذ على أحمد كثير منهم عبد الله بن مسرور التجيبى وعلى بن محمد الدباغ وأحمد بن نزار ومحمد بن محمد اللباد وأبو العرب محمد بن

أحمد بن تميم وحبيب بن الربيع ومحمد بن زرقون وعالم كثير . وقد ولد سنة ٢٠٤ هـ وتوفى سنة ٢٩١ هـ(٢٠٧) .

وقد قال أحمد بن ابى سليمان شعرا كثيرا فى الصبر والحكمة والزهد وفى طول العمر وتغير الدنيا بأهلها ، وعدم الركون اليها . ووصف الجنة والنار . والأمل فى عفو الله . بأسلوب رصين ومعان قوية وروح شعرية شفافة تظهر فيها صدق التجربة قوة الشعور بالمعانى التى يختارها . كما تتجلى فى شعره الروح الدينية المذكرة بالتجلد والصبر وسعة الأمل فى الله تعالى . وقد ذكر البحث نماذج من شعره فى محلق نماذج من الشعر .

ومن قوله فى الصبر :

سالبس للصبر ثوبا جميلا وافتل للضجر حبلا طويلا
واصبر بالرغم لا بالرضا اخلص نفسى قليلا قليلا(٢٠٨)

ومن قوله فى الحكمة :

١ – أرى البرق من نحو القريب توقدا
تغيب طورا لمعه وترددا
٢ – افق ايها الباكى المسائل منزلا
تشتت منه اهله متبردا
٣ – كفى عجبا انا جهلنا ما خلا
ملاعب ولدان ونوما ومرقدا
٦ – وكان نساء الحى يهوين طلعتى
ليالى كان الشعر ارجل اسودا

---

(٢٠٧) انظر المالكى رياض ص ٤٠٧ – ٤٠٩ ، عياض المدارك ج ٣ ص ٢٤٢ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢٠٨) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٧٠ .

٧ ـ فلما اكتسيت الشيب صرت الى الضنى
واصلحت من شانى الذى كان مفسدا

٨ ـ لبست به ثـوب الوقـار وكلما
بليت وابليت الشـباب تجـددا

٩ ـ جزى الله طول العمر خيرا فانه
هدانى الى التقوى ودل وأرشـدا

١٤ ـ أرانى بحمد الله فى المـال زاهدا
وفى شرف الدنيـا وفى العـز ازهدا

١٥ ـ فخليت من دنياى الا ثلاثـة
دفاتر من علم وبيتا ومسـجدا

١٦ ـ غنيت بها عن كل شىء حويته
وصرت به اغنى واقنى وأسعدا(٢٠٩)



٤ ـ مهرية الأغلبيـة :

وكما وجد الشعراء فى القيروان وجدت الشاعرات كذلك وحصلن على حظ وافر من تلقى العلوم والآداب واستطاعت المرأة أن تأخـذ بحظها من العلوم فكان هناك الفقيهة خديجة بنت سحنون والشـاعرة مهرية بنت الحسن بن غلبون الأغلبية التى نشـأت فى القرن الثالث الهجـرى وتلقت العلوم والآداب واتقنت العربيـة وقالت الشـعر . الا أنه لم يصلنا من شعرها الا قطعـة ذكرها المـالكى والدباغ اثنـاء حديثهما عن أخيها الشاعـر الزاهد ابى عقـال بن غلبـون الذى تـرك القيروان وأقبل الى مكة ليكون مجاورا فى بيت الله الحرام . وقد كتبت اليـه أخته مهرية من القيروان الى مكة كتبا كثيرة الا أنه لم يقرأ تلك الكتب فاوصت اليـه بغير كتاب تقول : « بحق الثدى الذى رضعته معك الا أريتنى وجهك قبل الموت وفراق الدنيـا ! مالك ؟ فى حين

---

(٢٠٩) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

صباك وجناياتك وكثرة ما كان يطرأ علينا بسببك كنت عندنا وحين صرنا نفتخر بك ونتبرك برؤيتك فارقتنا » ؟ فقال لرسولها : « قل لها ما كنت لأدع بلدا عرفت الله عز وجل فيه وأمضى الى بلد عصيت الله تعالى فيه وأخشى أن تقتضينى العوائد » ثم قدمت عليه أخته بعد ذلك من المغرب وأقامت بمكة حتى توفيت فى حدود سنة ٢٩٥ هـ وأبياتها الباقية الواصلة الينا هى التى وجدت على قبر أخيها فى مكة ترثيه[٢١٠] فيها وهى :

ليت شعرى ما الذى عاينته	بعد دوم الصوم مع نفى الوسن
مع نزوح النفس عن أوطانها	من نعيم وحميم وسكن
يا وحيدا لى من وجدى به	لوعة تمنعنى من أن أجن
فكما تبلى وجوه الثرى	فكذا يبلى عليهن الحزن

ولا شك أنه كان يوجد فى القيروان كذلك عدد من الشاعرات اللاتى قلن الشعر واشتغلن وحرصن عليه وتحلين به خلال هذه الفترة الا أن المصادر التى بين أيدينا والتى وصلت الينا لم تشر اليهن ولعل الأيام تسعدنا بالعثور على بعض المصادر التى تمدنا بشعر وأسماء الشاعرات فى القيروان فى هذه الفترة •

٥ ـ بكر بن حماد بن سهر الزناتى :

من مواليد مدينة تاهرت وتعلم وتثقف بالقيروان حيث تلقى العلم على سحنون وغيره وكان شاعرا فصيحا ثم رحل الى المشرق سنة ٢١٧ هـ فسمع من جلة علماء البصرة والكوفة وبغداد وكان له عناية بالفقه والحديث وتمييز الرجال وقول الشعر واجادته • وقد أجتمع فى المشرق بكثير من الأدباء والشعراء فى ذلك العصر فلقى دعبلا وحبيبا

---

(٢١٠) انظر المالكى رياض ص ٤٣٦ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٤٤ ، حسن حسنى بساط العقيق ص ٣٦ مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٧١ •

الطائى وصريع الغوانى عليا بن الجهم وغيرهم من شعراء العـراق • وقد استطاع ان يزاحم شعراء العراق فمدح الخليفة العباسى المعتصم حيث وصله الخليفة بصلات جزيلة وله أبيات الى المعتصم يحرضه فيها على دعبل يقول فيها :

أيهجو امـير المؤمنين ورهطـه ويمشى على الأرض العريضة دعبل
اما والذى ارمى ثبـيرا مكانـه لقد كادت الدنيـا لذاك تزلزل
ولكـن امـير المؤمنين بفضـله يهم فيعفـوا او يقـول فيفعـل

فعاتب حبيب الطائى بكرا وقال له : قتلته والله يا بكر فتابع انشـاده :

وعاتبنى فيـه حبيب وقال لـى لسـانك محـذور وسـمك قاتل
وانى وان صرفت فى الشعر منطقى لأنصف فيما قلت فيـه واعـدل

وهذا يدل على استطاعة بكر بن حماد من أن يتصدى لاحد شعراء العراق حتى بين يدى الخليفة وذلك لـما يتمتع به شعره من اجادة وقوة •

وبعد أن ارضى بكر نهمه الى المعرفة فى المشرق عاد الى القـيروان فاقام بها اكثر حياته حيث مدح كلا من الامراء ابراهيم الثانى وعبد الله وزيادة الله الأخير من أمراء الأغالبة وكانت قصائده ذائعة شائعة فى عصره وبعده وقد حمل عنه أبناء القيروان رواية الحديث ودواوين شعر المعاصرين الذين اجتمع بهم فى رحلته الى المشرق • وقد أكسبه ذلك منزلة رفيعة فى نقله الأدب الى المغرب •

وقد ذكر الرقيق ان بكر بن حماد غدا يوما الى ابراهيم الثانى ليمدحـه بقصـيدة فأخبر بانه مشـغول مع جواريه فكتب فى رقعـة أبياتا منها :

خلقن الغوانى للرجـال بليـة فهن مواليـنا ونحن عبيـدها
اذا ما أردنا الورد فى غير حينه اتتنا به فى كل حين خدودهـا

وكتب تحت الأبيات :

فان تكن الوسائل اعوزتني فان رسائلي ورد الخدود

ووصل الشعر الى ابراهيم فلما قراه امر الجوارى بانشاده وايقاعه على العود بمحضر مؤنس المغنى فأظهر الجوارى سرورا كبيرا بذلك وتوسطن الى الأمير أن يبعث بصرة مختومة فيها مائة دينار ذهبا الى الأديب القائل وليس هذه أول صلة تصله منه .

وقرب نهاية دولة الأغالبة سعى ببكر الى الامير الأغلبى فخرج هاربا من القيروان يريد بلدة تاهرت فتصدى له جماعة فى الطريق فقتل ابنه عبد الرحمن وجرح بكر جراحات كانت سببا فى وفاته عند وصوله الى بلده سنة ٢٩٦ هـ بعد ان عمر ستا وتسعين عاما .

ودخل عليه بعض محبيه قبيل وفاته فعجز عن القيام له فقال :

احبو الى الموت كما يحبو الجمل قد جاءنى ما ليس فيه حيل

ومع مدح بكر بن حماد للخلفاء والأمراء قال كثيرا من الشعر فى الزهد والمواعظ وذكر الموت وهو له (٢١١) ، فمن ذلك قوله :

زرنا منازل قوم لا يزورونا انا لفى غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم جدوا الرحيل فما يرجوا الملاقونا
الموت أصبح بالدنيا يخربها وفعلنا فعل قوم لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها لو كان جمع فيها مال قارونا (٢١٢)

---

(٢١١) انظر ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، الدباغ المعالم جـ ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٤ ، حسن حسنى الورقات ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٧٢ ـ ٧٤ .

(٢١٢) سوف نذكر له بعض النماذج فى ملحق نماذج الشعر مما قاله فى الوصف وفى الموت وفى الرثاء .

(ب) ومن الشعراء الذين ظهروا خلال حكم الفاطميين :

١ ـ أبو القاسم محمد بن عبد الله الفزارى :

من ابناء القيروان وشعرائها المجيدين ولد فيها ونشأ وترعرع فى رياضها وبرع فى الأدب واشتهر بالشعر وكان فى أول أمره مواليا لآراء علمان القيروان السنيين يذم الفاطميين ويندد بمذهبهم الشيعى • وعندما استطاع أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجى ان يستولى على القيروان من ايدى الفاطميين قال ابو القاسم قصيدة طويلة أنشدها بين يديه بمحضر علماء القيروان السنيين يذم الفاطميين ويندد بمذهبهم الشيعى • وعندما غيرها من المدن ويصف بنى عبيد وما هم عليه ويذمهم فيها فلما دخل اسماعيل بن ابى القاسم بن عبيد الله الفاطمى الى القيروان بعد أن قتل أبا يزيد مخلد بن كيداد طلب ابا القاسم الفزارى فاختفى أبو القاسم ولجأ الى الشيخ أبى اسحاق السحائى وذكر ما يخافه على نفسه من القتل ؟ فقال له أبو اسحاق ما كان مقصد قصيدتك ؟ قال : وجه الله قال له : الله ؟ قال نعم قال اذهب فانه لا يلحقك منه مكروه فساروا به الى اسماعيل فلما مثل بين يديه قال له أنشدنى قصيدتك تلك الرائية فأنشدها اياه • فلما فرغ منها حرضه بعض أشياخه على قتله فأعرض عنه وأذن له بالانصراف ولم يعرض له بمكروه ويذكر الاستاذ حسن حسنى أن المنصور الفاطمى كان امن أهل القيروان عندما استردها أمانا عاما فدخل عليه ابو القاسم الفزارى فى جملة من استأمن وتقرب اليه بقصيدة فريدة أورد فيها أخبار مشاهير الجاهلية والاسلام ومدح الخليفة المنصور فيها فعفا عنه ولم يصب بسوء وقد توفى أبو القاسم فى حدود عام ٣٤٥ هـ(٢١٣) •

ومن قوله فى قصيدته عن القيروان مفاخرا بها بغداد ومتحدثا عما فيها من علم ومعرفة ومشيرا الى فضل من بناها من صحابة رسول الله ﷺ وما حدث عند بناء قبلة المسجد :

---

(٢١٣) انظر : عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٢٢ ، الدباغ المعالم جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٣ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٨٣ ـ ٨٧ •

فهل للقـــيروان وســـــاكنيها عديل حين يفتخر الفخـــــور
بلاد حشـــوها علم وحلـــم واسلام ومعروف وخـــــير
عراق الشـــام بغداد وهـــذه عراق الغرب بينهما كثـــير
ولست اقيس بغـــدادا اليهـــا وكيف تقاس بالسنة الشـــهور ؟
بلاد تقصف العظماء قصـــفا اذا ما رامهـــا منهـــم غـــدور
بلاد خطها اصحاب بـــدر وتلك اختط ســاحتها أمـــير
بناها المستجاب وقد دعا فى جوانبها دعـــاء لا يبـــور
بناها كل بدرى كريـــــم كأن صـــفاح اوجههم بـــدور
هم صلوا بمســجدها براحـــا وليس له جـــدار مســـتدير
هم وضعوا له اسسا وساســـا فقدست المواضـــع والصـــخور
وقادهم الأذان اليـــه حتى اضـــاء لهم من المحراب نـــور
ولم يســـبقهم ملك ظـــلوم لتاسيس ولا ملك كفـــــور
واصـــحاب النبى له بنـــاة ولا عصـــيان ثم ولا فجـــور
اقاموا شـــطر قبلتـــه ســـويا الى البيـــت العتيق فلم يجوروا
وان عراصـــــه لمقدســـــات مباركـــة وتربتـــه طهـــــور

وقال يرثى شيخه ابا الفضل الممسى الذى استشهد فى موقعـــة المهدية مقاوما للفاطميين اثناء ثورة أبى يزيد :

عليك أبا الفضـــل استباق دموعـــى وشغلى بأنواع الأسى وولوعى

ومنها :

منوع من الفحشاء والاثم نفســه وليس لباغى فضله بمنـــوع
بنفسى صريع جالت الخيل حوله بمعترك الأبطال اى صريع
ولست له ابكى ولكن لمعشر أصيب به من مفرد وجميـــع
وللفقه والاسلام والدين والتقى وطول اجتماع واصطناع منيـــع
مضى علم العلم الرفيع وطالمـــا اصابت قنـــاة الموت كل رفيـــع

وقد قال أبو القاسم الفزارى أمام المنصور الفاطمى قصيدة تبـــين لنا مقدار ما حصل من علم ومعرفة دقيقة واســـعة بتاريخ العرب فى

الجاهلية والاسلام وهى توضح لنا مستوى الثقافة الأدبية التاريخية التى كانت تسود القيروان آنذاك • وسنذكر تلك القصيدة فى ملحق نماذج الشعر •

٢ ـ أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى :

شهر بابن هانىء الاندلسى وهو فى الاصل من افريقية فقد كان أبوه هانىء شاعرا فى بعض قرى المهدية ويرجع نسبة الى يزيد بن حاتم المهلبى امير افريقية • انتقل أبوه هانىء الى اشبيلية بالاندلس فولد له محمد سنة ٣٢٦ هـ ونشأ بها ومال الى الادب فحفظ اشعار العرب واخبارهم وقال الشعر وظهرت موهبته واتصل بصاحب اشبيلية ونال عنده حظوة ويذكر مؤرخو ابن هانىء أن اهل اشبيلية اتهموه بالاشتغال بالفلسفة • وان ذلك سوف يؤدى الى اتهام أمير اشبيلية بالفلسفة مما جعل الأمير ينصحه بالتغيب عن اشبيلية حتى ينسى الناس ذلك •

ومن يدرى ؟ لعل طموح بن هانىء الى المجد الادبى جعله لا يكتفى بأن يوقف شعره على أمير اشبيلة وقد حمله ذلك الى أن يبحث عن متنفس لموهبته وشاعريته فانتقل الى افريقية وله من العمر سبع وعشرون سنة حيث مدح جوهرا القائد ثم ارتحل الى جعفر ويحيى ابنى أحمد بن حمدان أمير المسيلة واقليم الزاب فأحسنا اليه •

وعلم المعز لدين الله بالشاعر النابه فاستقدمه اليه فكان مصور أمجاد الفاطميين فى القيروان وانتصارهم فى معاركهم البحرية فى مياه البحر المتوسط فى قصائده الغر القوية • وقد أطلق عليه معاصروه لقب (متنبى المغرب) الذى سجل مفاخر المعز لدين الله فى مقاومته الخطر الخارجى الذى كان يتهدد البلاد الاسلامية وقد بين ابن هانىء فى قصائده كيف أن المعز وجيشه هو المدافع عن شواطىء افريقيا الشمالية كلها وجزر البحر المتوسط الاسلامية وفى مقدمتها صقلية • وقد رسم ابن هانىء كل ذلك بشاعريته الملهمة فى وصف انتصار القوة الاسلامية على الروم فى البر والبحر • ووصف الاسطول الضخم الذى استطاع ان

يكون سيد البحر المتوسط ٠ وتمكن من فرض سلطان القيروان على كل الاعداء الذين كانوا يبغون بها الدوائر ٠

وتتحرك شاعرية ابن هانىء فيتغنى بما حققه الاسطول من نصر حاسم على الروم ويسجل بطولات الجنود المسلمين وشجاعتهم مما جعله خليقا بأن يسمى متنبى المغرب كما سجل متنبى المشرق أحمد بن الحسين معارك سيف الدولة ٠

ومع اهتمام بن هانىء بتسجيل مفاخر الانتصارات فقد تحدث أيضا عن المذهب الشيعى معليا مآثر المعز ومشيدا باحقية الفاطميين للخلافة وقد غلا فى ذلك بعض الغلو وجاوز حدود المالوف ٠ ولعل كرم المعز واغداقه عليه الاموال الطائلة قد دفعه الى ان يقوم بنصيبه كشاعر للخلافة الفاطمية فى نشر مذهبهم ٠

وقد كان المعز يعتز به ويرجو أن يفاخر به اهل المشرق فى مصر حين انتقاله الى القاهرة وودع الشاعر المعز اثناء انتقاله الى القاهرة وعاد ليصحب اسرته ويلحق بالمعز الا انه اغتيل فى برقة سنة ٣٦٢هـ[٢١٤] وحرم المعز من شاعره الذى كان يريد أن يفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر له ذلك[٢١٥] ٠

قال بن هانىء يمدح المعز وقيل انها أول ما انشده بالقيروان وأنه

---

(٢١٤) انظر مقدمة الديوان ص ٢ ، ٣ جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٩٤ ، حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣ المعز لدين الله لحسن ابراهيم وطه شرف ، حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٩٠ ـ عدد العربى رقم ١١٨ ص ٦٠ ـ ٦٤ مقال حسن الامين ٠

(٢١٥) يذكر الاستاذ حسن الامين ان حكام الاندلس ارسلوا اليه من اغتاله وهو فى الطريق الى مصر عند برقة سنة ٣٦٢ هـ ولعله قد يكون محقا فى ذلك انظر عدد العربى ١١٨ ص ٦٤ ٠

امر له بدست قيمة ستة آلاف دينار فقال له يا أمير المؤمنين مالى موضع يسع الدست اذا بسط فأمر له ببناء قصر فغرم عليه ستة آلاف دينار وحمل اليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار . وفى هذه القصيدة بمدح المعز ويظهر فيها التشيع فيصفه بأنه ضمير النشأة الاولى وهو الغيب المكنون كما يصفه بالكرم واللين وهو نور وكل نور دونه ظلمة وهو صائب الرأى يعرف الشىء قبل أن يحدث .

ومن أبيات هذه القصيدة التى بلغت أبياتها ستا وثمانين بيتا قوله :

هـــذا معـــد والخلائق كلهـا ... هذا المعز متوجـــا والديـــن
هذا ضمير النشأة الاولى التـــى ... بدأ الاله وغيبها المكنـــــون
الروض ما قد قيل فى أيـــامه ... لا انه ورد ولا نسريــــــــن
والمسك ما لثم الثرى من ذكره ... لا ان كل قرارة داريـــــــن
شـــيم لو ان اليم اعطى رفقهـا ... لم يلتقم ذا النون فيـه النـــون
فى الغيث شـــبه من نداك كانما ... مسحت على الانواء منـك يمـين
أما الغنى فهو الذى أوليتنـــا ... فكأن جودك بالخلود رهـــين
لو لم تكن حزما اناتك لم يكـن ... للنار فى حجر الزناد كمـــين
قد جاء أمر الله واقترب المـدى ... من كل مطلع وحان الحـــين
ورمى الى البلد الامين بطرفـــه ... ملك على سر الاله أمـــين
النور أنت وكل نور ظلمـــــة ... والفوق انت وكل قـــدر دون
لو كان رايك شائعـا فى أمـــة ... علموا بما ســيكون قبلَ يكـون
أو كان يشرك فى شعاع الشمس لم ... يكسف لها عند الشروق جبين(٢١٦)

وقال فى قصيدة يمدح فيها المعز ويذكر حال المسلمين وقد اعتـدى عليهم الروم فى المشرق واخذوا يستولون على مدينة بعد أخـــرى ويبين أن المعز هو المدافع عن الدين وانه أمل العرب فى كل مكان وأنه متقلـد سيفا من نصر الله وسيفا مرهفا يشتت به شمل الاعداء ويذب به عن أرض الاسلام وكل ذلك بأسلوب فخم ضخم .

---

(٢١٦) ديوان بن هانىء ص ١٩٦ ــ ١٩٩ .

اسفى على الاحرار قل حفاظهم ... ان كان يغنى الحر ان يتأسفا
هلا استعان باهل بيت محمد ... من لم يجد للدين عنكم مصرفا
يا ويلكم أفما لكم من صارخ ... الا بثغر ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعد أخرى تستبى ... وطريقة فى أثر أخرى تقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة ... وتزلزلت ارض العراق تخوفا

ويقول :

فتربصوا فالله منجز وعده ... قد آن للظلماء ان تتكشفا
هذا المعز ابن النبى المصطفى ... سيذب عن حرم النبى المصطفى
فى صدر هذا العام لا يلوى على ... أحد تلفت خلفه وتوقفا
فالى العراق وذر لمن قدمته ... مصرا فهذا ملك مصر قد صفا
متقلدا سيفين سيف الله من ... نصر وسيفك ذا الفقار المرهقا(٢١٧)

وقد قال بن هانىء الشعر فى اغراض كثيرة منها ما قاله فى وصف اسطول المعز وانتصاره على الروم فى المعارك ٠ وفى فتح مصر وكيف تم الفتح بدون سفك دماء ٠ كما قال فى وصف الغيث والروض ٠ وفى الهمة والجد فى السعى ٠

وقد قال شعرا كثيرا فى التشيع وقد جاوز فى بعضه المألوف ، وقد اقتصرنا هنا على النموذجين السابقين وذكرنا بعضا من شعره فى ملحق الشعر ٠

وكل ذلك يوضح لنا المستوى الادبى الرفيع الذى وصل اليه الشعر فى القيروان بحيث صارت بشاعرها ابن هانىء تضارع المشرق بشاعرها احمد بن الحسين ٠

ومن اراد المزيد من شعر بن هانىء ففى ديوانه المطبوع بالمطبعة اللبنانية فى بيروت سنة ١٨٨٦ م يجد ما يشفى الغليل ٠

---

(٢١٧) ديوان بن هانىء ص ١٠٩ – ١١٠ ٠

٣ ـ على بن محمد الايادى :

نشأ وتثقف بمدينة تونس ولكنه التحق بخدمة الدولة الفاطمية بالقيروان والمهدية ، ويعتبر من اشهر الشعراء خلال خلافة القائم والمنصور وامتدت حياته الى أيام المعز لدين الله وكان مبجلا عند العامة والخاصة جيد الشعر يقرنوه بفحول الشعراء البلغاء المعاصرين له كمتنبى المشرق ومتنبى المغرب وقد وصفه محمد بن شرف شعره بقوله : شعره المورد العذب ولفظه اللؤلؤ الرطب وهو بحترى الغرب يصف الحمام فيروق الانام ويشبب فيعشق ويحبب » ٠

ولا نعرف متى ولد أما وفاته فكانت سنة ٣٦٥ هـ[٢١٨] ٠

وقد أبدع الايادى فى وصف القصر الذى بناه المنصور بصبرة احدى ضواحى القيروان فكان قبة للملك فى وسط الساحات الحسنة ـ والبساتين الخضراء الغاصة بالطيور التى تشدوا بأعذب الالحان ٠ ثم الجدول الجارى الذى يصب فى بركة القصر الواسعة حيث يتوسطها مجلس للخليفة يحاكى قصر الخورنق عندما يفيض الفرات ٠

ولما استطال المجد واستولت العلا ... على النجم وامتد الرواق المروق
بنى قبة للملك فى وسط جنة ... لها منظر يزهى به الطرف مونق
بممشوقة الساحات أما عراصها ... فخضر وأما طيرها فهى نطق
تحف بقصر ذى قصور كأنما ... ترى البحر فى أرجائه يتدفق
له بركة للماء ملء فضائه ... تخب بقطريها العيون وتعنق[٢١٩]
لها جدول ينصب فيها كأنه ... حسام جلاه القين بالارض ملصق

---

(٢١٨) انظر حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ٩٦ ـ ١٠١ ، بساط العقيق فى حضارة القيروان ٠

(٢١٩) تخب : أى تعدو عدوا فسيحا ، والعدو ضرب من السير دون العنق ٠

لها مجلس قد قام فى وسط مائها كماقام فى فيض الفرات الخورنق (٢٢٠)
كأن صفاء الماء فيها وحسنه زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق
اذا بث فيها الليل أشخاص نجمه رأيت وجوه الزنج بالنار تحرق
وان صافحتها الشمس لاحت كأنها فرند على تاج المعز ورونق (٢٢١)
كأن شرافات المناصر حولها عذارى عليهن الملاء المنطق
يذوب الجفاء الجعد عن وجه مائها كماذاب آل الصحصحان المرقرق (٢٢٢)

وقال يصف فرسا للامير جعفر بن محمد وأنه فى سرعته يشبه البازى الذى تساعده الريح على الوصول الى عشه ، عذب الصوت عند الصهيل كأنه حاد يغنى ، له نخوة وشهامة تجعله يفوق الاقران ومع سرعته فهو رفيق سهل مع من يركبه ، يتحرك فى السهل والوعر كما تتحرك السفينة على سطح الماء . والفاظه فى القصيدة قوية وأسلوبه جزل ذو جرس قوى . ومعانيه مبتكرة متناسقة يأخذ بعضها بعناق بعض .

واقب من لحق الجياد كأنه قصر تباعد ركنه عن ركنه (٢٢٣)
وكأنما انفجر الصباح بوجهه حسنا أو احتبس الظلام بمتنه
مستبطر بالراكبين كأنه باز تروح به الجنوب لوكنه (٢٢٤)
حلو الصهيل تخال فى لهواته حاد يصوغ بدائعا من لحنه
ذو نخوة شمخت به عن نده وشهامة طمحت به عن قرنه

---

(٢٢٠) الخورنق : هو قصر عظيم مشهور فى التاريخ والادب عند العرب . أحدثه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بالعراق قبل الاسلام .

(٢٢١) الفرند : السيف وجوهره ووشيه والمقصود منه هنا ، السنا البراق وقد كان الخلفاء الفاطميون يلبسون فى المواكب تيجانا من الذهب مكلله باليواقيت والجواهر .

(٢٢٢) الجفاء . الجعد : هو المزيد المتراكم .

(٢٢٣) واقب : متواصل السير ولاج فى الهناة ، والقبب بالتحريك دقة الخصر وضمور البطن ، واللحق : الضامرة أو السريعة .

(٢٢٤) مستبطر : مسرع . ووكنه اى عشه . والوكن عش الطائر .

قد راح يحمل جعفر بن محمـد حمل النسيم لوابل من مزنـه
لبست قوائمه عصائب فضـة رغدتبسـمرصفا المسيل ودكنه (٢٧٥)
قيد العيون اذا بصرن بشحصه ورضا القلوب اذا اصطلين بضغنه
يستوقف اللحظات فى خطواته بكمال خلقته ودقة حسنه
متجبر ينبى بعتق نجـاره اشراف كاهله ودقة أذنـه
وكأنه فلك اذا حركتـه جـار على سهل البلاد وحزنـه

وقد وصف على بن محمد الايادى اسطول القائم الفاطمى وأبـدع فى ذلك بشاعريته العذبة المتفننة فى المعانى والاساليب كما قال الشعر فى وصف الحدائق والبساتين والزهور والحمام ٠

وقد وجه بعض الشعراء شعرهم الى توحيد الله عز وجل والـرد على الزنادقة والملحدين ، مثل محمد بن زرزر ٠ وبعضهم قال الشعر فى النقد الاجتماعى ٠ وبعض آخر قال الاراجيز مثل احمد بن المروزى ٠ ونجد عيسى بن مكين يقول الشعر فى الشباب وبيان منزلته فى عمـر الانسـان ٠

وفى ملحق الشعر نماذج تبين ذلك ذكرناها هناك خوف الاطالة ٠

(جـ) الكتـــابة :

نهضت الكتابة وازدهرت فى هذا العصر وقد ساعدت النهضـة العلمية الواسعة والتقدم فى جميع فروع الحياة على ذلك وكانت الكتابـة فى بداية هذا العصر تذيل فيها الرسائل بالشعر وقد تشتمل على بعض آيات القرآن التى تناسب المقام وذلك هو طابع العصر العـام وكانـت الرسائل تتخذ فى الرد على الاعداء والخصوم ، وايراد الحجج القويـة لردع الخصوم والفت فى عضدهم ٠

وقد أورد لنا المؤرخون نماذج من تلك الكتابة توضح هذه المعانـى

---

(٢٢٥) رغدت : اختلطت ٠

ومن ذلك ما دار من رسائل بين ابراهيم بن الاغلب مؤسس دولة الاغالبة وبعض الخارجين عليه وكيف كان يفند حجج الخصم فقد كتب خريش بن عبد الرحمن الكندى أحد وجوه الجند العربى الذى ثار سنة ١٨٦ هـ وخلع طاعة بنى العباس الى ابراهيم بن الاغلب فى القيروان يقول :

« من خريش القائم بالعدل الى ابراهيم بن الاغلب

أما بعد

فانى اقمت عن الخروج قبل يومى هذا لأنى كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب فلعمرى لقد أرانا الله فيكم ما قوى به أهل دعوة الحق عليكم فلما وليت أنت وعلمت أنهم مقسومون بين خوفه منك ورجاء لك ، عرفت قلة طمعهم فيك ، ولو كان أحد ممن ولى هذا الثغر ممن لا نرى طاعته يستحق ان يرضى بولايته لكنت أنت ذلك ، وقد كان على بن ابى طالب رحمة الله عليه يقول : اذا ولى عنكم عدوكم من أهل الملة فلا تتبعوهم • ولست أطلبك ان خرجت عن الثغر فلا ترد أن تصلى بحربى وليكن رأيك طلب سلمى والسلام » •

وكتب فى آخره :

قل جهرة لأبى اسحاق تنصحه ... هذا فراقكم للغرب قد حانا
فلا يعود اليه منكم أحد ... حتى يعود من الاجداث موتانا
فارجع من الغرب أو الق السواد به ... لا تخترمك المنايا حين تلقانا
وسوف تعلم أن الموت يسمع لى
اذا التقت بنواحى الفحص(٢٢٦) خيلانا

وعندما وصل الكتاب الى ابراهيم أجابه بقوله :

« من ابراهيم بن الأغلب الى خريش رأس الضلالة •

سلام على من أتبع الهدى ... أما بعد

---

(٢٢٦) الفحص : المراد فحص تونس وهو السهل المحيط بها •

فان مثلك مثل البعوضة التى قالت للنخلة اذ سقطت عليها : استمسكى فانى اريد أن أطير فقالت النخلة : ما شعرت بسقوطك فيكربنى طيرانك ، فأما انتظارك فى الحرب فناء فلو لم يبقى فى المغرب من أهل الطاعة غيرى ، ما وصلت أنت فى من معك بخلافكم اليه ، ولرجوت أن أظفر بكم بطاعتى ونصرة دولة أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ٠٠ فكيف وعندى من شيعته وأبناء انصاره من يعلم الله أنى أرجوه أن ينتقم منك على يدى ٠

وأما ما ذكرت عن على بن ابى طالب رضوان الله عليه فذاك أمر غاب عنك وان كان كما ذكرت فلست منهم ، لأن أهل الملة خلافهم خلاف هوى فى نقمة على جور ، وخلافكم خلاف فرقه دين ، وشق عصا المسلمين ونقمتهم ما هو لله رضا ٠ وستعلم انت واصحابك ان لقيناكم غدا انا سنتبعكم وان صبرتم انا سنفنيكم واما ذكرك الفحص فان تركتك حتى تصير اليه فأنا فى مثل جلدك»[٢٢٧] ٠

ثم ذيل كتابه بهذه الأبيات :

بلغ خريشا بأنى سوف أصبحه	كأسا سيقرع منها سن حيرانا
نهدى الطعان له سمر مثقفة	تغرى اسنتها فى الحرب أعدانا
من كل أزرق يغتال النفوس به	يضحى به من دم الاجواف ملآنا
وسوف تعلم هل القى السواد اذا	أرست اليك المنايا حين تلقانا
انى سأهدى اليك الموت فى عطب	فأشرب منيته من كف عمرانا

ومن الرسائل البليغة القوية الرسالة التى أرسلها عامر بن نافع بن عبد الرحمن الى زيادة الله بن الاغلب وفيها يتجلى نقض الدعاوى بالحقائق والاحداث وكان زيادة الله كتب اليه يدعوه الى الطاعة ويعرفه باشفاقه عليه وعلى حرمه ويحذره عاقبة أمره وهى دليل على رقى الكتابة آنذاك[٢٢٨] ٠

---

(٢٢٧) انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٤ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسىص ٤٢ ـ ٤٤ لابن الابار ٠

(٢٢٨) انظر : الرسالة فى ملحق نماذج الكتابة ٠

ومن الكتابات التى اشتملت على ايات من الفران فى مقـــــــام الاستشهاد مع تذكير بالموت وشدته والقبر وظلمته والتذكير بالله والنزاهــة فى الحكم والمحافظة على الفرآن وتدبره ٠

ذلك الجزء من الرسالة التى ارسلها قاصى الفيروان عبد الله بن احمد بن طالب الى محمد بن حمود قاضى طرابلس :

« ٠٠٠٠ فلا تبق غاية من الخير الا بلغنها واتفيت الله فيما استرعيت عليه بحسن الكفاية والاجتهاد وما بلغنى عنك الا الجميل فقد ربيتك وعلمتك وعرفتك العلم فلو لم تحفظ الا اياى فكيف وقد عرفت ما عند الله عز وجل لمن سأل عنه ؟ الا تراه عز وجهه الكريم يقول لنبيه داود عليه السلام : « ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » وأكثر ذكر الموت وشدة هوله وظلمة القبر ووحشته وتضرع الى الله تعالى فى خلواتك ولا تنســـك الجماعة حظك من القرآن وتدبره والوقوف عند عجائبه ٠ وبالله توفيقك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »(٢٢٩) ٠

واننا لنجد أن الكتابة فى القيروان قد اشتملت كذلك على الحكم النثرية التى حوت المعنى الكبير فى اللفظ القليل وان كانت لم تصل الى درجة كبيرة من التاثير ٠ ومعظم الحكم التى وصلتنا يدور معناها حول التحلى بالمعانى النفسية والاستقامة فى السلوك ومعظمها يميل الى السجع ويظهر ذلك فيما روى عن عيسى بن مسكين وعبد الجبار بن خالد السرتى وقد أورد البحث نماذج لهما فى الملحق(٢٣٠) ٠

ومن بين الكتاب الذين ذكرهم المؤرخون لنا واضطلعوا بالكتابة فى هـذا العصر :

---

(٢٢٩) المـالكى رياض ص ٣٨٣ ٠

(٢٣٠) انظر الملحق الخاص بنماذج الكتابة ٠

١ ـ أبو سليمان داود الكاتب القيروانى :

لا يعرف عنه أكثر من اسمه وكنيته ونسبته الى القيروان وهو من الأدباء المجيدين ٠ ويبدو انه رحل الى المشرق للتزود من العلم والأدب ، وعاد الى القيروان مع الأمير محمد بن مقاتل العكى حيث تولى ديوان رسائله واختص بخدمته سنة ١٨٠ هـ فلما عزل العكى وتقلد ابراهيم بن الأغلب الامارة خشى داود على نفسه لأنه تمالأ مع محمد بن مقاتل فى آخر أيام امارته على ابراهيم بن الأغلب ٠ فاختفى أياما ثم كتب رسالة الى الأمير ابراهيم يستعطفه فيها :

وقد أحسن المدخل فى استعطافه للأمير الغاضب عليه حيث ان الأمور تجرى على خلاف ما يهوى العباد فى أنفسهم ٠ ثم يعترف بدنبه وأن الأمير أهل للعفو عنه ٠ وهو أعرف به منه بنفسه وهو يذكر بعض الحكم فى اعتذاره ليتوصل بذلك الى ازالة الغضب من القلوب والأسلوب واضح المعنى نحو الهدف الذى يرمى اليه وذلك حيث يقول :

« أما بعـد :

أعز الله الأمير فلو كان احد يبلغ بحرصه رضاء بشر بصحة مودة وتفقد حق ، وايثار نصيحة لرجوت أن أكون بما جبلنى الله عليه من تفقد ما يلزمنى من ذلك أكرم عند الأمير منزلة والطفهم لديه حالا ، وابسطهم أملا ، ولكن الأمور تجرى على خلاف ما يهوى العباد فى أنفسهم ، وان من ساعده الدهر حظى فى اموره كلها ، واستحسن القبيح منه ، واظهرت محاسنه ، وسترت مساويه ، ومن خالفه القضاء ، وأعان عليه الدهر لم ينتفع بحرص ولم يسلم من بغى ٠ وقد كنت اذا افتخر الناس بسادتهم ، للأمير ذاكرا ، وبيومه مسرورا ، ولغده راجيا ، الى أن أتانا الله من ذلك بما كنت ابسط له املى ، واعظم فيه رجائى ، وكان عنى فى أجهاد نفسى بالقيام بما يلزمنى من نصحية الأمير ـ أطال الله بقاءه ـ حسب الذى يحق علينا فبينما انا مشرف على ادراك كل خير وبلوغ كل فضل اذ رماني الدهر بفرقته ، ولزمنى من ذلك ما كنت

أشد الناس رزية به ، فوجد أهل البغى والفرية لى سبيلا ، وقد صرت ـ أيد الله الأمير ـ لمكان الخوف الذى ملكنى نازع[٢٣١] أمكنه ، وعرض السنة ، فلو تحقق الأمير سىء حالى وكبت العدو[٢٣٢] لأشفق على ورثى لى ، وذنبى عظيم ، وخنافى ضيق ، وحجتى ضعيفة ، وعفو الأمير وطوله[٢٣٣] أعظم من ذلك كله ، فان تداركنى الأمير ـ اعزه الله ـ بما أؤمل فذلك الذى يشبهه وينسب اليه وأرجوه منه ، وان يعاقب فبالذنب الذى اجترمته وهو أحق بانتشالى من زلتى ، ورجاء ما يرجوه مثله من أهل المنة والطول من مثل ما عظمت المنة عليه ، والأمير أولى فى ، وانظر منى لنفسى ، واعلى بما سألته ورغبت اليه فيه عينا ويدا ، والله ولى توفيقه فيما عزم عليه من ذلك وعليه التوكل لا شريك له ٠ وأنا أرجو ـ اعزه الله ـ أن يكون ممن يتعظ بالتجربة ويقيس موارد اموره بمصادرها ولا يدع تصحيح النظر لنفسه فيما يستقبل منها ان شاء الله ، اتم الله على الأمير نعمه ، وهناه كرامته والبسه امنه وعافيته فى الدنيا والآخرة » ٠

فعفا الأمير عنه وقبل رجاءه ، وصار كاتبا له ٠ الى ان ادركته الوفاة حولى سنة ٢١٠ هـ[٢٣٤] ٠

٢ ـ أبو اليسر ابراهيم بن محمد(٢٣٥) الشيبانى البغدادى :

يعرف بالرياضى من اهل بغداد وبها تعلم وتثقف وسمع من كبار المحدثين والفقهاء ولقى كثيرا من النحويين والأدباء والشعراء والكتاب فقد التقى بالجاحظ والمبرد وثعلبا وابن قتيبه وقابل من الشعراء أبا تمام والبحترى ودعبلا وابن الجهم ومن الكتاب سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن طاهر وغيرهم ٠

---

(٢٣١) نازع أمكنة : غريب ٠

(٢٣٢) كبت العدو : مذلته واهانته ٠

(٢٣٣) الطول : الفضل والقدرة ٠

(٢٣٤) انظر حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص٤٥ ، ٤٦

(٢٣٥) فرنفح الطيب ابن أحمد جـ ٤ ص ١٣٠

وكان أبو اليسر حسن الأخلاق كريم النفس ٠ تجول فى البلاد شرقا وغربا من خراسان الى الأندلس ثم استوطن القيروان ٠ وكان عالما أديبا ومرسلا بليغا وكان ذا أثر كبير فى ادخال رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف اخبارهم الى القيروان ٠ وقد تولى الكتابة فى أواخر أيام الدولة الأغلبية فكتب لابراهيم بن أحمد بن الأغلب ثم لابنه عبد الله ثم لزيادة الله آخر امراء الأغالبة وكان أيام زيادة الله على بيت الحكمة ٠

وعند قيام الدولة الفاطمية تولى لعبيد الله الفاطمى الكتابة الى أن توفى بالقيروان سنة ٢٩٨ هـ وله من العمر خمس وسبعون سنة ٠

وقد الف ابو اليسر عدة كتب منها مسند فى الحديث ، وكتاب فى القرآن ومشكلة واعرابه ومعانيه سماه « سراج الهدى » وكتاب « لقيط المرجان » فى الأدب و « المرصعة » و « المدبجة » و « الوحيدة المؤنسة » و « قطب الأدب » وغير ذلك من المؤلفات(٢٣٦) ٠

وقد أورد بن عذارى كتابا لعبيد الله المهدى الفاطمى ويتسم بالايجاز وقد ارسل الكتاب الى الشيعة فى المشرق بعد أن قتل عبد الله الشيعى واخاه أبا العباس فقال فيه : « أما بعد فقد علمتم محل أبى عبد الله وأبى العباس من الاسلام ٠ فاستزلهما الشيطان فطهرتهما بالسيف والسلام »(٢٣٧) ٠

ومن الكتاب الذين ظهروا فى هذه الفترة وتولوا الكتابة فى نهاية الدولة الأغلبية محمد بن حيون ومحمد بن محمد بن الفرج البغدادى(٢٣٨) ومحمد بن أحمد بن أحمد بن هارون البغدادى الذى تولى الكتابة لعبيد الله المهدى بعد موت أبى اليسر البغدادى(٢٣٩) ٠

---

(٢٣٦) انظر بن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، المقرىء نفح الطيب جـ ٤ ص ١٣٠ ، ١٣١

(٢٣٧) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٥

(٢٣٨) المرجع السابق ص ١٣٦

(٢٣٩) المرجع السابق ص ١٦٣

وكان للكتابة فى عهد الفاطميين منزلة رفيعة تلى منزلة الوزارة فى الرتبة وكان يسندها الخلفاء الى من انسوا فيهم الكفاية والمقدرة على حل المشكلات ومعالجة الأمور ، فاذا رضى الخليفة عن الكاتب كان ذلك مرشحا له لتولى الوزارة فى اى وقت •

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمى جوهرا الصقلى كاتبا له سنة ٣٤١ هـ (٢٤٠) •

ومما يبين بجلاء ما كانت عليه الكتابة والنثر فى هذا العصر من القوة والرصانة خاصة فى نهاية الدولة الفاطمية بالمغرب • العهد الذى أعطاه جوهر الصقلى الكاتب لأهل مصر عند فتحها ، حيث يذكر الألقاب التى كانت تضفى على المعز لدين الله من انه مولانا وسيدنا • وامير المؤمنين صلوات الله عليه •

كما تبين الهدف من فتح مصر وانه من اجل اعزاز أهل مصر وحمايتهم والدفاع عنهم ضد الدولة البيزنطية • والدفاع عن كل بلاد المسلمين فى المشرق ثم اقامة فريضة الحج الذى تعطل واهمل العباد فرضه وحقوقه • وبسط الأمن والعدل ونشره • واصلاح الطرق وضبط ضرب النقود ، والقضاء على الغش فيها وفى غيرها •

ثم اسقاط الضرائب والرسوم الجائرة واصلاح المساجد وتزيينها بالفرش والوقود والعناية بالقائمين عليها • كما يبين انه مع أن الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة فقد اجاب أهل مصر الى ما طلبوا تطمينا لنفوسهم باقامتهم على مذهبهم ودراسة العلوم فى المساجد حسب ما كان عليه سلف الأمة وفقهاء الأنصار وما هم سائرون عليه فى تطبيقهم لأركان الاسلام وتعاليمه وأن تحفظ لأهل الذمة حقوقهم على ما هم عليه ولهم عليه فى كل ذلك الأمان التام العام الدائم المتصل ثم عليهم المحافظة على الطاعة والمثابرة عليها • كل ذلك وغيره يذكره جوهر فى

---

(٢٤٠) حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠

عبارة طلية جلية واسلوب سهل قوى جذاب يلمسه كل من يقرأ ذلك العهد كما أورده المقريزى فى اتعاظ الحنفاء مما يدل على الازدهار الفكرى الذى وصلت اليه الكتابة فى نهاية الدولة الفاطمية بالمغرب[٢٤١] ٠

٢ ـ اللغـــة :

النحو ورواية الأدب واللغة :

عظم الاهتمام باللغة والنحو وفروع العربية الأخرى فى هذه الفترة التى ازدهرت فيها الحياة الفكرية ، وبذل العلماء جهودا كبيرة فى تحصيل العلوم العربية والتبحر فيهـا واقبل الطلاب على الأسـاتذة المتخصصين فى ذلك يتزودون من علمهم ومعرفتهم ويأخـذون عنهم قوانين اللغـة : النحوية والصرفية والبلاغية وقوانين الشـعر العروضية فدرسوا مذاهب البصريين والكوفيين فى النحو والصرف ٠ وعنوا بالاغتراف من معين اللغـة برواية آدابها واخبارها وسهلها وغريبها ، بل كان بعض المهتمين باللغـة يحفظ كتب الأغانى الموصلى ويميل الى استعمال الغريب والأغراب فيه حتى يطيعه لسانه ، كما فعل أحمد بن أبى الأغلب[٢٤٢] ٠

وقد استطاع بعض علماء القيروان أن يضيف الى دراسـة علوم العربية التى كانت تدرس فى المشرق من نحو اللغـة وصرفها ابتكار دراسة جديدة وهى دراسـة النحو المقارن وكان ذلك بين اللغـة العربية والعبرية والبربرية بما اثبت أن أصلها واحد وقد بدأ ذلك يهوذا بن قريش التاهرتى الذى كان يتقن اللغات الثلاث مع الفارسية والذى الف كتابا لا يزال موجودا الى اليوم بمكتبة اكسفورد حيث يعتبر أول واضع لعلم النحو التنظيرى ، وفى أيام الفاطميين نبغ العلامة دونش بن تميم الفيلسوف اللغوى الذى سار على خطة يهوذا بن قريش والف فى أصول

---

(٢٤١) انظر نص عهد جوهر فى ملحق نماذج من الكتابة ٠

(٢٤٢) انظر الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٧٩

اللغتين العبرية والعربية[٢٤٣] . وبذلك كان بداية ابتكار النحو التنظيرى فى تاهرت والقيروان فى هذه الفترة .

كما الفت معاجم فى اللغة العربية والبربرية معا واعتنى كذلك اصحاب المعاجم النباتية مثل بن الجزار وغيره بايراد التسميات البربرية للنباتات[٢٤٤] مما يدل على وجود مقارنة حتى فى المعاجم اللغوية .

ولا شك ان ذلك مما أدى الى اقبال البربر وتشجيعهم على تعلم العربية والتعمق فى فهمهما تعمقا مبنيا على الدقة فى فهم المعانى العربية .

ويذكر لنا المالكى وفود بعض العلماء النحويين من المشرق الى القيروان منهم ابو سليمان النحوى صاحب الكسائى الصغير[٢٤٥] . وكان تتابع قدوم مثل هؤلاء العلماء مما ساعد على تمام ازدهار الحياة الفكرية .

وقد كان العلماء يجمعون خلال هذه الفترة بين الاحاطة بالنحو والاشتغال باللغة ورواية الأدب الا ان بعضهم كان يغلب عليه الاشتغال بالنحو بينما البعض الآخر يميل الى رواية الأدب واللغة مع الاحاطة بالنحو .

(أ) وممن غلب عليهم الاشتغال بالنحو :

١ ـ أبو الوليد عبد الملك بن قطن المهرى :

ولد بالقيروان ونشأ بها وكان سبب ميله الى دراسة النحو والتبحر فى علوم اللغة أن أخاه ابراهيم كان يقرأ النحو ويهتم به فأخذ عبد الملك يوما كتابا فى النحو من أخيه يقرأ فيه فنهره وقال له مالك ولهذا ؟ .

---

(٢٤٣) انظر كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى ص ٧٧ ، ٧٨ ، عثمان الكعاك البربر ص ١٠٥

(٢٤٤) عثمان الكعاك البربر ص ١٠٠ ـ ١٠٢

(٢٤٥) المالكى رياض النفوس ص ٣٥٠

فغضب عبد الملك وبدأ يدرس النحو واللغة واتصل بأساتذتها فأخذ عن ابن الطرماح وعياض بن عوانه وابو عبد الرحمن المقرىء الكوفى وقتيبة النحوى وكثير من الأعراب منهم أبو المتبع الأعرابى ٠

وكان ذا حافظة قوية فحفظ أنساب العرب واشعارها ووقائعها وأيامها الى ان صار شيخ النحويين واللغويين والرواة بالقيروان ٠ وكان الشعر الجاهلى يلقى عليه فيشرحه ويبين معانيه فلمـــا قدمت الشروح من المشرق لم يجد من تلقى عنه خلافا بين شرحه وشرح المشارقة ٠

وقد تلقى عليه ابناء القيروان علوم العربية واخذ عنه كثير من العلماء الذين اشتغلوا بعد ذلك بالنحو واللغة منهم حمدون النحوى وأبو محمد عبد الله المكفوف ، وأحمد بن أبى الأسود النحوى وغيرهم ٠

وله كتب كثيرة ألفها منها كتاب فى اشتقاق الأسماء مما لم يأت به قطرب وكتب تسمى الألفاظ وكتاب فى تفسير مغازى الواقدى ٠

وكان أبو الوليد مع ذلك شاعرا خطيبا بليغا متصفا بالجود والكرم وقد طال عمره الى أن أدركته الوفاة بالقيروان واختلف فى سنة وفاته بين ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٢٥٦ هـ[(٢٤٦)] ٠

٢ - أبو عبد الله بن اسماعيل :

اشتهر بحمدون النحوى ولقب بالنعجة وهو من كبار تلاميذ أبى الوليد المهرى وتلقى عليه علوم العربية وكان مقدما بعده فى النحو واللغة بل قيل انه كان أعلم منه بالنحو خاصة لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه ٠

وكان له مكتب بالقيروان يعقد فيه حلقة يستمع اليه فيها المهتمون

---

(٢٤٦) انظر المالكى رياض ص ٣١١ ، الزبيدى طبقات ص٢٤٩ ، السيوطى بغية جـ ٢ ص ١١٤ ، حسن حسنى ورقات ص ٩٥ ، مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٠ ٠

بالنحو واللغة من العلماء كما كان يقصده الطلاب للاستفادة من علمه فى النحو واللغة ويتلقون عنه دواوين الشعر واوضاع اللغة ٠

وذكر الزبيدى ان له كتبا فى النحو واوضاعا فى اللغة ولم يذكر اسماءها وانه قال شعرا متكلفا ضعيفا الا انه كان فى النحو والعربية والغريب الغاية التى لا بعدها ٠

وقد توفى بعد وفاة استاذه ابى الوليد المهرى قبيل انقراض الدولة الأغلبية وربما فى حدود سنة ٢٨٥ هـ اذ لم يبين احد من المؤرخين تاريخ وفاته(٢٤٧) ٠

٣ ـ ابو العباس احمد بن ابى الأسود النحوى :

ولد بالقيروان وتربى بها وتلقى العلوم فيها وكان من أصحاب ابى الوليد المهرى وقد لازمه وتخرج عليه وهو يعد من أنبغ تلامبذه فى النحو واللغة ٠

وكان له حلقة يعقدها فى مسجد بالقيروان قرب منزله حيث كان يتلقى عليه التلاميذ النحو واللغة وكان يقول الشعر الجيد وألف كتبا قيمة فى النحو واللغة والغريب لم يذكر المؤرخون اسماءها الا أن الزبيدى وصفها بأنها مؤلفات حسان ٠ وكانت وفاته فى نهاية القرن الثالث الهجرى(٢٤٨) ٠

٤ ـ أبو القاسم ابراهيم بن عثمان بن الوزان النحوى :

من أبناء القيروان النابهين فى العلوم العربية مع اتسامه بالأخلاق الكريمة والتواضع وخفض الجناح ، وقد تعلم على اساتذة القيروان فى

---

(٢٤٧) انظر : الزبيدى طبقات ص ٢٥٦ السيوطى بغية ج ١ ص ٥٦ حسن حسنى ورقات ص ١٦٧ ـ ١٦٩

(٢٤٨) الزبيدى طبقات ص ٢٦٥ السيوطى بغية ج ١ ص ٢٩٧ حسن حسنى ورقات ص ١٦٣ ، ١٦٤

العلوم العربية وبذل جهدا كبيرا فى تحصيلها فكان يحفظ كتاب سيبويه وكتب الفراء وكان يميل الى مذهب البصريين مع علمه بقول الكوفيين . وكان يفضل المازنى فى النحو ، وقد حفظ فى اللغة كتاب العين للخليل بن احمد الغريب المصنف لأبى عبيد وكتاب ابن السكيت وغير ذلك من كتب اللغة ، وكان يفضل ابن السكيت فى اللغة .

وقد بلغ بجده واجتهاده فى تحصيل العلوم الى منزلة عالية فى القيروان فكان اماما فى النحو واللغة والعروض وأقر له علماء القيروان بالتقدم فى ذلك فكان ابو محمد المكفوف اذا وردت عليه مسائل فى النحو سأله الاجابة عنها وقال عنه : لو قال قائل انه أعلم من المبرد وثعلب لصدقه من وقف على علمه ، كما كان يستخرج من مسائل النحو والعربية ما لا يستخرجه أحد وأمره فى ذلك يفوق كل أمر .

وذكر السيوطى ان له تصانيف كثيرة فى النحو واللغة الا انه لم يذكر أسماءها وقد ادركته الوفاة يوم عاشوراء سنة ٣٤٦ هـ(٢٤٩) .

٥ ـ أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القزاز :

ولد فى العقد الثالث من القرن الرابع الهجرى بالقيروان ونشأ بها وتلقى العلوم على علمائها وشغف بالاقبال على دراسة النحو واللغة على علماء القيروان كابن الوزان والعنبرى وغيرهما وقد رحل الى العراق وأخذ عن الآمدى صاحب الموازنة والتقى بغيره من كبار النحويين واللغويين وتلقى عنهم علومهم وآدابهم .

وقد اشتغل القزاز بالتدريس ولمع نجمه فى النحو واللغة خاصة ، وتخرج عليه كثير من نجباء التلاميذ كابن رشيق وابن شرف القيروانى والحسين بن محمد التميمى وأحمد بن مكى بن أبى طالب وعبد الرحمن ابن عبد الله المطرز وغيرهم كثيرون .

---

(٢٤٩) الزبيدى طبقات ص ٢٦٥ السيوطى بغية جـ ١ ص ١ حسن حسنى ورقات ص ٩٦ ، القزاز القيروانى للمنجى الكعبى .

وكانت طريقة القزاز فى درسه أن يلقى على تلاميذه مشكلات المسائل اللغوية وأبيات الشعر العويصة ويطلب منهم بيان معانيها وتفسير الفاظها وفهم أغراضها .

وقد ألف كتبا كثيرة قسمها المنجى الكعبى الى :

(أ) كتب النحو :

١ ـ الحروف وكان تأليفه بطلب من المعز لدين الله الفاطمى وموضوعه شرح الحروف التى ذكر النحاة أنها جاءت لمعنى وهو يقع فى ألف ورقة وفرغ منه فى سنة ٣٦١ هـ بالقيروان وهو مفقود لا يعلم له أثر اليوم .

٢ ـ اعراب الدريديه وشرحها .

٣ ـ كتاب المعترض .

٤ ـ كتاب المفترق .

٥ ـ ما يجوز للشاعر فى الضرورة هذا الكتاب موجود وقد حققه المنجى الكعبى .

(ب) كتب اللغة :

١ ـ الجامع .   ٢ ـ المثلث .

٣ ـ كتاب فيه ذكر شىء من الحلى وهو أول كتاب مطبوع للقزاز نشره الشيخ طاهر النعسانى واحمد الكيلانى مطبعة العرفان صيدا بالشام سنة ١٩٢٢[٢٥٠] .

٤ ـ العشرات وهذا الكتاب موجود وقد طبع بصيدا بالشام سنة ١٩٢٥[٢٥١] .

٥ ـ المثات .

٦ ـ الضاد والظاء .

٧ ـ الكلمات المشاكلة الصور .

---

(٢٥٠) المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٦٤

(٢٥١) المرجع السابق ص ٦٧

(جـ) كتب ادبية عامة :

١ ـ التعريض والتصريح ٠
٢ ـ شرح رسالة البلاغة فى عدة مجلدات ٠
٣ ـ ما أخذ على المتنبى من اللحن والغلط فى جزء ٠
٤ ـ ابيات معان فى شعر المتنبى فى جزء ٠
٥ ـ معانى الشعر ٠
٦ ـ شرح رسالة الشيخ جعفر العدوى ٠
٧ ـ أدب السلطان والتأدب له ٠

وبهذا المجهود الضخم كان القزاز اماما لدراسة النحو واللغة فى القيروان له هيبة عند الملوك والعلماء محبوبا عند الخاصة والعامة وقد أمد الله فى عمره الى أن ادركته الوفاة بالقيروان سنة ٤١٢ هـ(٢٥٢) ٠

(ب) وممن غلب عليهم الاشتغال والميل الى اللغة :

١ ـ أبو محمد عبد الله بن محمد :

كان كفيفا وولد ونشأ بالقيروان وتلقى اللغة والنحو على علمائها وتتلمذ على أبى الوليد المهرى وفاق انداده فى دراسة العربية وتفسير الدواوين وأيام العرب وأخبارها الى أن صار من مشاهير رواة اللغة والأدب فى القيروان وخلف أستاذه المهرى فى دراسة اللغة وتفسير الدواوين وارتفعت منزلته وذاعت شهرته واقبل الطلبة عليه لا من القيروان وحدها بل كانت الرحلة اليه من جميع افريقية والمغرب ٠

وكان ذكيا المعيا ومما يذكر فى سرعة حفظه وقوة ذاكرته : انه كان يجلس مع حمدون النعجة فى مكتبه فربما استعار بعض الصبيان كتاب فيه شعر أو غريب أو من أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه فاذا الح

---

(٢٥٢) انظر : السيوطى بغية جـ ١ ص ٧١ ، حسن حسنى ورقات ص ١٠٢ ، المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧

عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف فيقول : اقرأه على فاذا فعل قال اعده ثانية ثم يقول رده على صاحبه ومتى شئت فتعال أمليه عليك ٠

وقد ذكر الزبيدى أن له كتبا كثيرة أملاها فى اللغة والعربية والغريب وله كتاب فى العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بين فيه وقرب من الشرح والتوضيح ٠

وفد ظل يؤدى واجبه فى نشر اللغة والمحافظة عليها الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٠٨ هـ[٢٥٣] ٠

٢ ـ أبو بكر أحمد بن ابراهيم بن أبى عاصم اللؤلؤى :

ولد بالقيروان فى حدود عام سنة ٢٧٢ هـ ونشأ بها وحضر على جهابذة العلماء وكبار اللغويين والأدباء فيها وفد لازم أبا محمد المكفوف وأخذ عنه اللغة والنحو وتفسير الدواوين الى ان صار من العلماء النقاد فى العربية والغريب والنحو ٠ وفام بشرح اكثر دواوين العرب وكان ثقة فى علمه أمينا فى بيانه ومعرفته يسال عنه من مسائل لغوية ٠ وكان يقول الشعر الجيد ٠

ومن ذلك قوله :

أيا طلل الحى الذين تحملوا ۝ بوادى الفضا كيف الأحبة والحال
وكيف قضيت البان والعمر الذى ۝ بوجنته ماء الملاحة سيال

وفى أواخر أيامه ترك الشعر ومال الى الحديث والفقه ، وقد الف كتابا فى اللغة بعنوان الظاء والضاد ٠

ولم يطل به العمر فقد توفى عن ست وأربعين عاما فى سنة ٣١٨ هـ[٢٥٤] ٠

---

(٢٥٣) الزبيدى طبقات ٢٥٦ السيوطى بغية جـ ٢ ص ٦٢ حسن حسنى ورقات ص ٩٨ ٠

(٢٥٤) السيوطى بغية جـ ١ ص ٢٩١ ، حسن حسنى ورقات ص ١٦٦ المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٧٣ ٠

٣ ـ أبو محمد حسن بن محمد التميمى العنبرى :

شهر بالداروينى نسبة الى (دارون) منزل كان لبنى تميم فى فحص القيروان وقد ولد ونشأ وتربى بالقيروان وتلقى العلم على أساتذتها ومال الى علوم اللغة والنحو فحصل منها على قسط كبير الى أن صار اماما فى اللغة والعلم بالشعر والنحو . ولأنه تميمى كان شديد الافتخار بهذا النسب مع اعجاب بعلمه وكان له حلقة يحضر عليه فيها الدارسون للغة استمرت مدة طويلة وابتدأت فى حياة أبى محمد المكفوف وكان اعلم الناس بديوان ذى الرمة ، شغوفا به كثير الشرح له ولغيره من دواوين الجاهلية .

وقد داوم على أداء واجبه العلمى الى أن أدركته الوفاة فى عام ٣٤٣ هـ[٢٥٥] .

٣ ـ العلوم العقلية العقائدية :

تمهيد :

كانت القيروان خلال فترة عصر الازدهار تزخر بالافكار العقائدية المختلفة ولم يمنع ميل أكثر الناس الى آراء أهل السنة والأخذ عنهم واعتقادهم أن ذلك هو الطريق الأسلم فى العقيدة ، من أن يحدث فى القيروان ما حدث فى المشرق وأن توجد المذاهب المختلفة الى جوار مذهب أهل السنة . ومع وجود الخوارج فى بداية الحركة الفكرية وتمكن أهل السنة من طردهم من القيروان الا ان ما ثار فى المشرق من آراء فى المسائل العقائدية والكلامية كان له وجود فى القيروان ، كمسألة خلق القرآن وحرية الارادة وصفاة الله ورؤيته فى الآخرة .

ولقد دار النقاش والجدال بين علماء القيروان حول هذه الآراء وبلغ بهم الأمر الى أن كان أحدهم لا يصلى على الآخر عند وفاته لطعنه

---

(٢٥٥) الزبيدى طبقات ص ٢٦٧ ، السيوطى بغية جـ ٢ ص ٤١ حسن حسنى ص ٩٨ المنجى الكعبى القزاز القيروان ص ٢٤ .

فى عقيدته ورميه بالزندقة ويذكر المـالكى : ان اصحاب أسـد بن الفرات كانوا يقرءون عليـه فى تفسـير المسيب بن شريك الى أن قرأ القـارىء (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وكان سليمان بن حفص جالسـا بين يديه فقال له : « يا أبا عبد الله من الانتظار » وكان الى جانب أسـد نعل غليظ فاخذ أسـد بتلابيبه وكان ايدا وأخـذ بيده الأخـرى نعله وقال : « أى والله زنديق لتقولنها او لابيض بها عينك » ! فقال : « نعم ننظره »[٢٥٦] ٠

وقد حدث بعـد ذلك عندما تولى احمد بن الأغلب الامـارة أن اخـذ الناس بالامتحان بخلق القرآن ونال المعتزلة من أهـل السـنة وامتحنوهم وسـوف نشير الى ذلك عند حديثنا عن أهل السـنة والمعتزلة وكان أغلب الذين يقولون بخلق القرآن يتمذهبون بالمذهب الحنفى ٠

وعندما تمكن أهل السـنة المـالكيون من ولاية القضاء فى القيروان اثناء ولاية سـحنون نجده قد طرد أهـل البدع من الجامع وشرد أهـل الأهواء منه وكانوا فيـه حلقـا من الصـفرية والاباضية والمعتزلة[٢٥٧] ٠ وليس معنى تفريقهم من المسـجد الجامع بالقيروان مسجد عقبـة بن نافع انهم كانوا لا ينشرون آراءهم فى بيوتهم ومجالسهم او فى غير ذلك من المسـاجد المتعددة فى القيروان بل حاولوا ذلك ولكن ليس فى المسجد الجامـع ٠٠

وكان من أهل السـنة من هو عارف بأصول الديانات[٢٥٨] ومن الف كتبا فى الرد على النصـارى وأهل الشرك وأهل البدع[٢٥٩] مما يدل على دراسـة الأديان فى القيروان ولا شك أن ذلك مما مكن محمد بن سحنون

---

(٢٥٦) المـالكى رياض ص ١٨٢ ٠

(٢٥٧) المالكى رياض ص ٢٧٦ ٠

(٢٥٨) الدباغ المعالم جـ ٢ ص ٢٥

(٢٥٩) عياض المدارك جـ ٣ ص ١٠٦

من الرد على أحد اليهود فى مصر اثناء ذهابه الى الحج مما جعل اليهودى يعتنق الاسلام[٢٦٠] ٠

وخلال فترة حكم الأغالبة كان هناك من اهل السنة من يميل الى الزهد والتصوف وسلكوا الى ذلك طريقا عمليا بالرباط والدفاع عن ثغور الاسلام فهم زهاد مجاهدون لا يميلون الى الدنيا ولكنهم مع ذلك نذروا حياتهم لجهاد العدو الذى كان يحاول الاغارة على بلاد الاسلام ٠

فاذا ما قضى على الدولة الاغلبية وقامت الخلافة الفاطمية الشيعية ثار الخلاف والجدال والمناظرة بين أهل السنة والشيعة وعقدت المجالس للمناظرة فى الامامة والتفضيل بين الصحابة ومفهوم بعض النصوص الدينية خاصة فيما يتصل بالامامة والتفضيل ٠ وفى النهاية استعمل الشيعة القوة والايذاء بالنسبة لأهل السنة لحملهم على اعتناق المذهب الشيعى الا أن أهل السنة تصدوا لذلك وتحملوا الاضطهاد والتعذيب والتشريد والقتل ٠

واثناء خلافة القائم ثار ابو يزيد مخلد بن كيداد وكان يتمذهب بمذهب الخوارج النكارية من الاباضية ويبطن رأى الصفرية واستطاع بمن تابعة أن يستولى على كثير من المدن ويدخل القيروان ٠ واتفق أهل السنة فى القيروان معه على قتال الشيعة وخرج العلماء معه املا فى الانتصار على الشيعة ولما رأى ابو يزيد الخارجى أن الغلبة ستكون لهم على الشيعة ، عرض أهل السنة من علماء القيروان لسيوف الشيعة تخلصا منهم فاستشهد منهم عدد كبير ٠ ولكن فى النهاية دارت الدائرة على ابى يزيد الخارجى واندحر وقتله الشيعة ٠ وعاد الشيعة ليبسطوا سلطانهم على القيروان ويحاولوا نشر مذهبهم فيها بالحجة والاقناع ٠

وبعد هذا العرض السريع نتحدث عن هذه الفرق فنقول :

---

(٢٦٠) سيفصل ذلك عند الترجمة لمحمد بن سحنون ٠

١ ـ أهل السنة :

كان أهل السنة يأخذون برأى الصحابة فى عدم التأويل ويرضون عن جميع الصحابة ويقولون كما قال سعيد بن المثيب وقد قيل له ما تقول فى عثمان وطلحة والزبير ؟ اقول ما قولنيه الله عز وجل : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا(٢٦١) .

وقد حمل أهل السنة لتمسكهم بمذهبهم لواء الرد والمعارضة على المخالفين من المعتزلة والشيعة والخوارج فنصدوا للقائلين بعدم رؤية الله فى الآخرة وبخلق القرآن وعلى الشيعة فى قولهم بالامامة والتفضيل وفى الاسماء والصفات .

وقد ذكر المالكى أن أسد بن الفرات تحدث بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى فى الآخرة وسليمان العراقى آخر المسجد فتكلم وأنكر فسمعه فقام اليه وجمع بين طوقه ولحيته واستقبله بنعله فضربه ضربا شديدا حتى أدماه وعندما كان أسد يعرض التفسير تلا قوله تعالى : « فاستمع لما يوحى اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى » فقال أسد عند ذلك « ويل لاهل البدع هلكت هوالكهم يزعمون أن الله عز وجل خلق كلا ما يقول ذلك الكلام المخلوق لا اله الا انا »(٢٦٢) .

ولذلك عندما ولى أحمد بن الأغلب الامارة وأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وخطب به فى القيروان خرج سحنون وكان امام اهل السنة فارا الى عبد الرحيم الزاهد بقصر زياد فوجه الامير فى طلبه فلما وصل الى الامير جمع له قواده وقاضيه ابن أبى الجواد وغيره وساله عن القرآن فقال سحنون : أما شىء ابتدئه من نفسى فلا ولكنى سمعت من تعلمت منهم وأخذت عنهم كلهم يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق فقال ابن أبى الجواد كفر فاقتله ودمه فى عنقى وقال مثله غيره ممن

---

(٢٦١) مبارك الميلى ـ تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٤

(٢٦٢) المالكى ـ رياض ١٨٢

يرى رأيه وقال بعضهم يقطع أرباعا ويجعل كل ربع بموضع من المدينة ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا فقال الأمير لداود بن حمزة : ما تقول أنت ؟ قال قتله بالسيف راحة ولكن أقتله قتل الحياة فنأخذ عليه الضمناء وينادى عليه بسماط القيروان الا يفتى ولا يسمع أحدا ويلزم داره(٢٦٣) .

وكان أهل السنة شديدى التمسك بمذهبهم ولا يتزحزحون عنه قيد أنمله ولو أن السلطان كان مع مخالفيهم فقد ذكر القاضى عياض أن ابن أبى الجواد قاضى القيروان وكان معتزليا امتحن موسى بن معاوية الصمادحى فسأله عن القرآن فقال موسى : سمعت فلانا وفلانا وذكر جماعة من أهل العلم يقولون لمن قال القرآن مخلوق فهو كافر . فقال له ابن أبى الجواد لقد أعمى الله قلبك كما أعمى بصرك وكان موسى اذ ذاك قد كف بصره(٢٦٤) .

ولذلك عندما تولى سحنون القضاء شرد أهل الاهواء من المسجد الجامع وكانوا فيه حلقا للصفرية والاباضية مظهرين لزيغهم(٢٦٥) .

ويبالغ المالكى فيما كان بين أهل السنة والمعتزلة وان كلا منهما كان يكفر الآخر فيذكر أنه عندما توفى سحنون استعفى رجال ابن الأغلب من الصلاة عليه وقالوا : قد علمت ما بيننا وبينه وانه يكفرنا ونكفره لأن أكثرهم كانوا معتزلة - وانما خرجنا طاعة لك فان صلينا عليه رأى الناس أنا رضينا حاله فاعفاهم وتقدم وصلى فى عبيده وعامة أهل السنة وجماعة المسلمين(٢٦٦) وقد بلغ من شدة تمسك أهل السنة بمذهبهم أن كان الواحد منهم عندما تحضره الوفاة يوصى بأن يكتب على قبره : هذا قبر فلان بن فلان كان يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول

---

(٢٦٣) المالكى - رياض ص ١٨٥ ، ١٨٦

(٢٦٤) القاضى عياض المدارك جـ ٣ ص ٨٢٧

(٢٦٥) أبو العرب طبقات ص ١٨٤

(٢٦٦) المالكى رياض ص ٢٨٨

الله وأن القرآن كلام الله غير مخلوق متحديا للاعتزال جهارا فى حياته وبعد موته[٢٦٧] •

وبعد وفاة سحنون نشأ بين أهل السنة خلاف فى مسألة الايمان : وهى هل يجوز أن يقول الشخص أنا مؤمن او لا بد من زيادة أن شاء الله فقال ابن سحنون ومن تابعه بالاول وقال بن عبدوس ومن تابعه بالثانى[٢٦٨] وكان بن سحنون يقول المرء يعلم اعتقاده فكيف يعلم أنه يعتقد الايمان ثم يشك فيه • ويقى بينه هو وأصحابه بعده وبين أصحاب ابن عبدوس وغيرهم فى المسألة تنازع مجادلات وكانوا يسمون من خالفهم الشكوكية لاستثنائهم وقد علق القاضى عياض على ذلك بانه خلاف الفاظ لا حقيقة فمن التفت الى مغيب الحال والخاتمة وما سبق به القدر وقال بالاستثناء ومن التفت الى حال نفسه وصحة معتقدة فى وفته لم يقل به[٢٦٩] وقد أيد محمد بن عبد الحكم فى مصر راى ابن سحنون فقد ذكر عبد الله بن غافق التونسى أن محمد بن عبد الحكم سأله عن مسألة الايمان وما وقع فيها من الاختلافات فى القيروان فقال له : قال قوم نحن مؤمنون عند الله ، مذنبون • وقال قوم نحن مؤمنون ولا ندرى ما نحن عند الله فقال : ما قال فيها محمد بن سحنون فقال له : مؤمنون عند الله ، فقال : دعنى بهذين فبعث اليه فقال الصواب ما قال محمد بن سحنون[٢٧٠] •

وكان أهل السنة يردون على القدرية بما روى عن عون بن يوسف : اذا أردت أن تكفر القدرى فقل له : ما أراد الله عز وجل من خلقه ؟ فان قال أراد منهم الطاعة فقد كفر لأن منهم من عصى وكل الله لا تتم طاعته فليس باله وان قال : أراد منهم المعصية فقد كفر لان منهم من

---

(٢٦٧) عياض المدارك ج ١ ص ١١

(٢٦٨) معالم الايمان ج ٢ ص ٩٢

(٢٦٩) عياض المدارك ج ٣ ص ١١٥ ، ١١٦

(٢٧٠) المرجع السابق ص ٢٧٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اطاع وكل اله لا تتم ارادته فليس باله قال : فان قال لك أمسئول ما أراد منهم ؟ فقل اراد منهم الذى أراد لهم والذى كان لهم يريد ما سـبق لهم عنده فى اللوح المحفوظ[٢٧١] .

وعند قيام الدولة الفاطمية اشـتد النزاع بين اهل السـنة وبين الشـيعة وقد سبق شىء من ذلك عندما ترجمنا لابن الحـداد فى العلوم الشرعية وكيف جادل الشـيعة أهل السـنة ويذكر عيـاض بعض هـذه المناقشـات أثناء ترجمتـه لعبد الله بن اسـحق المعروف بابن التبـان عندما وجـه عبد الله التشـيعى الى ابن التبـان فاذا به داخل وعيناه تتواقدان كأنهما عينا شـجاع فدخل وسـلم فقال ابطأت عنا يا ابا محمد فقال فى شغلك كتـاب الفقه فى فضـائل أهل البيت السـاعة أتانى به المجلد ففال يا أبا محمد ناظر هؤلاء الدعاة قال : فى ماذا ؟ فى فضائل أهـل البيت فقال لهما ما تحفظان فى ذلك فقال ابو طالب أنا أحفظ حديثين ــ ولحن ــ وسـال الآخر فقال له وأنا أحفظ حديثين فقال : فيما ذان الحديثـان اللذان تحفظ انت ؟ فقال له : همـا يحفظان حديثين ــ ونطق بلحنهما ــ أنا أحفظ فى ذلك تسعين حديثا فأولى بهما الرجوع الى ، ثم قال عبد الله يا أبا محمد من افضل أبو بكر او على ؟ قال ليس هذا موضعه فقال لا بد فقال : أبو بكر افضـل من على فقال عبد الله : أيكون أبو بكر افضـل من خمسـة جبريل عليه السـلام سادسهم ؟ فقال أبو محمد : أيكون على افضـل من اثنين الله ثالثهما ؟ انى أقول لك ما بين الوجهين وأنت تاتينى بأخبـار الآحاد فضـاق عبد الله وقال : فمن افضـل عائشـة أو فاطمة ؟ فقال له : هذا آخر سؤالك الأول قال لابد قال عائشـة رضى الله عنها وسـائر أزواج النبى ﷺ أفضـل من فاطمة قال : من أين ؟ فقال له قال الله تعالى : يانسـاء النبى لستن كأحـد من النساء ان اتقيتن . فيقال أن بعض الدعاة قال له فى هـذه المسـألة أيما أفضـل أمراة أبوها رسول الله ﷺ وامها خديجة الكبرى وزوجها على بن أبى طالب بن عم رسـول الله ﷺ

---

(٢٧١) المـالكى رياض ص ٢٩٨

وولداها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة أو أمرأة أمها أم رومان وابوها عبد الله بن أبى قحافة ؟ فقال له أبو محمد : أيهما افضل عندك أمرأة اذا طلقها زوجها أو مات عنها تزوجها عشرون زوجا أو أمرة اذا مات عنها زوجها او طلقها لم تحل لأحد ؟ ويذكر الدباغ انه قال له الجواب عن ذلك من عشرة أوجه احدهما ما تقدم والثانى ان عائشة رضى الله عنها مع النبى ﷺ فى درجته وفاطمة مع على بن أبى طالب فى درجة ودرجة على لا تساوى درجة النبى ﷺ وانه سرد عليهم بقية الاجوبة فيحكى أن أبا عبد الله قال له : يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنين ومن يوثق بك أدخل العهد وخذ البيعة فعطف عليه أبو محمد وقال له : شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا ؟ لو نشرت بين اثنين ما فارقت مذهب مالك فلم يعرض له ويقال : ان عبد الله ترك طلب بقية الشيوخ بعد ذلك المجلس(٢٧٢) .

وقد الف ابراهيم بن عبد الله المعروف بالمقلانسى كتابا فى الامامة والرد على الرافضة وامتحن على يدى عبيد الله المهدى وضربه سبعمائة سوط وحبسه فى دار البحر أربعة اشهر بسبب تاليفه ذلك الكتاب(٢٧٣) .

ويذكر ابن فرحون أن يحيى بن عمر بن يوسف الف كتابا فى الرؤية وكتابا فى الرد على الشكوكية وكتاب الرد على المرجئة وغير ذلك من الكتب(٢٧٤) وكان من المتكلمين احمد بن نصر بن زياد المتوفى سنة ٣١٧ هـ وكان عالما بالمناظرة مليئا بالشاهد صحيح المذهب سليم القلب يعقد حلقة للمناظرة فى المسائل(٢٧٥) .

---

(٢٧٢) عياض المدارك جـ ٣ ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ الدباغ معالم جـ ٣ ص ١١٤ ــ ١١٦

(٢٧٣) عياض المدارك جـ ٣ ص ٥٢٤ ــ بن فرحون الديباج المذهب ص ١٨٨

(٢٧٤) بن فرحون الديباج ص ٣٥١

(٢٧٥) انظر بن عذارى البيان جـ ١ ص ١٩٥

وقد بلغ عدد المتكلمين من أهل السـنة خلال القرن الثالث الهجرى وبداية القرن الرابع ما يربو على الثلاثين عالمـا[٢٧٦] ومعظمهم قد ألف فى الرد على المخالفين لاهل السـنة • ومن المؤلفين البارزين من علمـاء أهل السـنة عالمـان هما :

١ ـ محمد بن سـحنون :

ولد بالقيروان سنة ٢٠٢ هـ ونشأ بها وكان أبوه يقول لمعلمـه : لا تؤدبه الا بالكلام الطيب والمرح فليس هو من يؤدب بالضرب والتعنيف وانى لأرجو أن يكون نسيج وحده وفريد أهـل زمانه وعندما شـب تلقى العلم على أبيه وسـمع من موسى بن معاوية الصمادحى وعبد العزيز ابن يحيى المدنى وعبـد الله بن أبى حسـان اليحصبى وفى سنة خمس وثلاثين رحل الى المشرق فلقى أبا مصعب الزهدى صاحب مالك ويعقوب ابن حميد بن كاسب وشيبة بن شبيب النيسابورى وغيرهم[٢٧٧] •

وقد بلغ منزلة عالية فى العلم والمعرفة الى أن صـار اماما فيـه ولم يكن فى عصره أحذق بفنون العلم منه وخاصـة فى الفقه والنظر والرد على أهل الاهواء والتأليف فى كثير من فروع العلم وبلغ من ذكائه أنه كان يناظر أباه وكان الطلبـة يحلقون عليـه بعد حلقة أبيه وجلس فى حلقة أبيـه بعد وفاته وكان يؤلف فى حياة أبيه •

وقد أثنى عليه العلماء لمـا رأوا من علمه فقال عنه يحيى بن عمر : كان من أكثر الناس حجة وأتقنهم بها وقال عنه أبوه ما أشبهه الا بأشهب ونزل فى مصر أثناء حجه على أبى رجاء بن أشهب عندما سـأله النزول عنـده وأتى اليـه العلماء وحلقوا عليـه وسـألوه وكان منهم المزنى صـاحب الشـافعى فلما سـئل عنه قال والله ما رأيت أعلم منه ولا أحد ذهنا على حداثة سنه •

---

(٢٧٦) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢١٨

(٢٧٧) انظر المـالكى رياض ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، عياض المدارك ج ٣ ص ١٠٤ ، الدباغ ج ٢ ص ٧٩

ويذكر المالكى أن صاحبا لابن سحنون قد بدأ مناظرة فى مصر مع رجل يهودى استعلى فيها اليهودى على الرجل بكثرة الحجاج والمناظرة بالباطل لضعف الرجل وقلة معرفته بالمناظرة فدخل معهما محمد فيما هما فيه ورجعت المناظرة بين اليهودى ومحمد بن سحنون حتى حضرت صلاة الظهر فأقام محمدة الصلاة وصلى ، وعاد الى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر فأقام محمد الصلاة وصلى العصر ثم عاد الى المناظرة حتى حضرت صلاة المغرب وقد اجتمع الناس اليهما من كل موضع وشاع ذلك بمصر وقال الناس بعضهم لبعض : امسوا تسمع المناظرة بين الفقيه المغربى وبين اليهودى فلما كان عند صلاة المغرب انحصر اليهودى وانقطع وظهر عليه محمد بن سحنون بالدلائل الواضحة والحجة البالغة فلما تبين اليهودى الحق بالبرهان واراد الله عز وجل هدايته قال عند ذلك اشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله فاسلم وحسن اسلامه فكبر الناس عند ذلك وعلت اصواتهم بالتكبير وقالوا : أسلم اليهودى على يد الفقيه المغربى وقد لام محمد صاحبه اشد اللوم وقال له كاد أن يجرى على يديك فتنة عظيمة كيف تأتى الى رجل يهودى تناظره وانت ضعيف المناظرة والجدال(٢٧٨) .

وعندما وصل محمد بن سحنون مسجد النبى ﷺ بالمدينة وجد جماعة عظيمة محلقة على شيخ متكىء لكبر سنه وهم يتنازعون فى مسألة من مسائل امهات الأولاد فنبههم على نكته فاستوى الشيخ جالسا وقررها فزاد ابن سحنون أخرى فقال الشيخ من اى البلاد أنت قال من افريقية قال من أى بلدة منها قال من القيروان قال ينبغى أن تكون أحد رجلين اما محمد بن سحنون واما محمد بن لبدة بن أخى سحنون فان هذا التنكيت لا ينبغى أن يكون الا من أهل دار سحنون فقال له أنا محمد ابن سحنون فقام اليه وصافحه وخرجوا من المسجد وجعل ابن سحنون يملى على الشيخ بالطريق وهو يكتب المسألة(٢٧٩) وهذا يبين لنا

---

(٢٧٨) المالكى رياض ص ٣٥١ ، ٣٥٢

(٢٧٩) الدباغ معالم ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢

المنزلة الرفيعة السامية التى وصل اليها محمد بن سحنون ومنزلته فى مصر والمدينة كما يبين لنا مستوى الحياة الفكرية فى القيروان وان علماءها كان لهم منزلة رفيعة فى مصر والمدينة . ومما يدل على علو منزلته فى الدفاع عن السنة المناقشة التى دارت عندما طلب منه على بن حميد الوزير فى القيروان ان يناظر احد المعتزلة فى خلق القران وهو ابو سليمان النحوى صاحب الكسائى الصغير وكان يقول تخلق القرآن ويذهب الى الاعتزال فقال محمد تقول ايها الشيخ او تسمع ؟ فقال له الشيخ قل يابنى فقال محمد : ارايت كل مخلوق هل يذل لخالقه ؟ فسكت الشيخ ولم يجد جوابا ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشىء فقال له محمد : كم سنة اتت عليك ايها الشيخ ؟ فقال له ثمانون سنة فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد قد اختلف اهل العلم فى الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته .... وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت فى عداد الموتى فقد سقطت الصلاة عليه باجماع : ثم قام فسر بذلك على بن حميد واهل المجلس فسئل ابن سحنون أن يبين لهم معنى سؤاله هذا فقال ان قال كل مخلوق يذل لخالقه فقد كفر لانه جعل القرآن ذليلا لانه يذهب الى انه مخلوق وقد قال الله عز وجل وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وان قال انه لا يذل فقد رجع الى مذهب اهل السنة لانه لا يذهب فى هذه الحالة الى انه مخلوق الذى هو صفة من صفاته(٢٨٠) .

وقد ذكر المالكى أن احمد بن مسعود سال ابن عبدوس يوما فقال : ما تقول فى الايمان أصلحك الله انه مخلوق هو أم غير مخلوق فقال له ابن عبدوس : لا أدرى ولكن سل صاحب الكوة وهو يريد ابن سحنون وكان ابن سحنون يجلس فى طاق فى مسجده فاتى الرجل ابن سحنون فقال له فاين صاحبك فقال قد سألته فلم يجبنى وأرسلنى اليك فقال له محمد : هذه مسالة تحتاج أن يختلف فيها سنة ثم قال له الايمان بضع وسبعون درجة ادناها اماطة الأذى عن الطريق

(٢٨٠) المالكى رياض ص ٣٥٠ ، ٣٥١

واعلاها شهادة ان لا اله الا الله فالاقرار غير مخلوق وما سوى ذلك من الأعمال مخلوقة[٢٨١] .

وذكر القاضى عياض ان ابن الأغلب وجه الى ابن سحنون فسأله ما تقول فى يزيد ؟ فقال : أصلح الله الأمير ما أقول ما قالت الاباضية ولا ما قالت المرجئة قال : وما قالت ؟ قال : قالت الاباضية ان من اذنب ذنبا فهو من اهل النار . وقالت المرجئة لا تضر الذنوب مع التوحيد . اما يزيد فكان ذنبه عظيما جسيما ويفعل الله فى خلقه ما أحب[٢٨٢] .

وقد الف ابن سحنون مؤلفات كثيرة فى فروع كثيرة من العلم ذكر المالكى انها نحو مائتى كتاب واشار عياض وابن فرحون الى أن منها رسالة فى ادب المناظرة جزءان وكتاب تفسير الموطأ أربعة أجزاء وكتاب الحجة على القدرية وكتاب الحجة على النصارى وكتاب الاباحة وكتاب الرد على البكرية وكتاب الورع وكتاب الايمان والرد على اهل الشرك وكتاب الرد على أهل البدع ثلاثة كتب وكتاب الامامة الذى كتب بماء الذهب عندما وصل الى بغداد وأهدى الى الخليفة ومنها كتاب فى الرد على الشافعى وعلى اهل العراق وكتاب طبقات العلماء سبعة أجزاء وكتاب الاشربة ، وغريب الحديث وكتاب التاريخ ستة أجزاء والف احكام القرآن والمسند فى الحديث والجامع فى فنون العلم والفقه وكتابه فى المعلمين ورسالة فى السنة[٢٨٣] .

ومع توجيه محمد بن سحنون كل جهده الى العلم والمعرفة الا انه لم يحرم نفسه من العبادة والمشاركة فى الجهاد والرباط فقد روى انه قصد قصر الطوب للعبادة والحرس على المسلمين فنزل بعض قطاع الروم بساحل ذلك البحر للاعتداء على المسلمين وسلبهم فتصايح الناس

---

(٢٨١) المرجع السابق ص ٣٥٥

(٢٨٢) عياض المدارك جـ ٣ ص ١١٣

(٢٨٣) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ١٠٦ ، ابن فرحون الديباج ص ٢٣٤

ولم يكن مع محمد بن سحنون الا بغل فتقلد بسيف وأخذ رمحا وركب ذلك البغل الذى معه واجتمع اليه الناس فى جماعة من المرابطين ومن يقرب من القصر من أهل البوادى وتمادى بمن معه الى الروم فوجدهم قد اشرفوا على نهم الاموال وسبى الحريم فكبر عليهم هو ومن معه وناشبوهم القتال فهزمهم الله على يديه وقتل منهم مقتلة عظيمة واتبعهم بالهزيمة حتى ادخلهم البحر هاربين(٢٨٤) وبذلك جمع ابن سحنون بين العلم والعمل وقد ظل ابن سحنون يؤدى واجبه فى الدفاع عن أهل السنة والرد على المخالفين الى ان أدركته الوفاة سنة ٢٥٦ هـ ودفن بباب نافع وكان لوفاته وقع عظيم فى القيروان فأقام الناس على قبره شهورا عدة حزنا عليه ورثاه كثير من الشعراء بمراث كثيره وطويلة بلغ بعضها ثلاث مائة بيت من الشعر وقال فيه شاب من أهل الساحل :

خل المدامع كى تجول مجالها   قطعت يمين العلم ثم شمالها

وقال احمد بن سليمان فى مرثيته :

وناظر أهل العلم أمرد يافعا   ولما التحى بالعلم قام مناديا
ولما علاه الشيب ابصرت نوره   لما كساه الله أزهر فاشيا
ويافبر سحنون وقبر محمد   اظلكما الله الغمام الغواديا
توافى شريف الحلم والعلم فيكما   ووافاكما التفضيل لما توافيا

٢ ـ ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزاوى المشهور بابن أبى يزيد القيروانى :

ولد بالقيروان سنة ٣١٠ هـ ونشأ بها وهو من قبيلة نفزة البربرية وشهد بداية الخلافة الفاطمية ولكنه كان سنيا واشترك مع شيوخ المذهب المالكى السنيين فى حركة أبى يزيد ضد الخلافة الفاطمية وقد تلقى العلم على شيوخ القيروان وخاصة أبا بكر بن اللباد وأبا الفضل

(٢٨٤) انظر المالكى رياض ص ٣٤٨

الممس ومحمد بن مسرور العسال وعبيد الله بن مسرور بن الحجام والقطان والابيانى وزياد بن موسى وسعدون الخولانى وابى العرب واحمد بن ابى سعيد كما تلقى على الاصيلى من شيوخ الاندلس ودراس بن اسماعيل من شيوخ فاس وسمع من شيوخ مصر واخصهم ابن شعبان صاحب الزاهى وشيوخ العراق وخاصة ابا بكر الابهرى والقاضى احمد ابن ابراهيم من آل حماد كما حج فسمع من ابن الاعرابى وابراهيم ابن محمد بن المنذر ٠

وقد اكسبه ذلك علما واسعا اعانه عليه حافظة قوية وقريحة المعية الى أن صار امام المالكية فى وقته فهو المدافع عن المذهب والبصير بالرد على أهل الاهواء مع اتصافه بالصلاح والورع والعفة وفصاحة القلم واللسان ٠

وقد ذاعت شهرته واقبل الطلاب عليه من أبناء القيروان ومن ابناء ليبيا وصقلية ومن أبناء المغرب الأوسط والأقصى ومن الأندلس ليغترفوا من علمه ومعرفته فمن أصحابه القرويين : أبو بكر بن عبد الرحمن وأبو القاسم البرادعى واللبيدى وابنا الاجدابى وابو عبد الله الخواص وأبو محمد مكى المقرى ٠ ومن الأندلس : ابو بكر بن موهب المقبرى وابن عابد وأبو عبد الله بن الحذاء وأبو مروان القنازعى ٠ ومن أهل سبتة : أبو عبد الله بن العجوز وأبو محمد ابن غالب وخلف بن ناصر ومن اهل المغرب : ابن امدكنو السجلماسى وسمع منه خلق كثير غير هؤلاء ٠

ولقد عرفه معاصروه قدره فقال عنه أبو الحسن القابسى انه امام موثوق به فى درايته وروايته واستجازه ابن مجاهد البغدادى وغيره من أصحابه البغداديين ولقد لقبه علماء عصره بمالك الصغير لرجوعه بالفقه الى صفائه العلمى وأبعاده عن قيود الجدليات والعصبيات كما رد على المعتزلة والقدرية وكتب فى أصول التوحيد وبيان المعرفة واليقين الحق ٠ ومؤلفاته تربو على الثلاثين ٠ ذكر عياض منها كتاب النوادر والزيادات على المدونة وكتاب مختصر المدونة وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب

فى التفقه . وكتاب الاقتداء بأهل السنة وكتاب الذب عن مذهب مالك وكتاب الرسالة وهو مشهور يدرس الى اليوم وكتاب القول فى أولاد ـ المرتدين ومسألة الحبس على ولد الاعيان وكتاب تفسير أوقات الصلاة وكتاب الثقة بالله والتوكل على الله سبحانه وكتاب المعرفة واليقين وكتاب المضمون من الرزق وكتاب المناسك ، ورسالة فيمن تأخذ عند قراءة القرآن والذكر حركة . وكتاب رد المسائل وكتاب حماية عرض المؤمن وكتاب البيان عن اعجاز القرآن وكتاب الوساوس ورسالة اعطاء القرابة من الزكاة ورسالة النهى عن الجدال ورسالة فى الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادى المعتزلى وكتاب الاستظهار فى الرد على الفكرية وكتاب كشف التلبيس فى مثله ورسالة الموعظة والنصيحة ورسالة طلب العلم وكتاب فضل قيام رمضان ورسالة الموعظة الحسنة لاهل الصدق ورسالة الى اهل سجلماسة فى تلاوة القرآن ورسالة فى أصول التوحيد .

ويوجد بمكتبة القيروان العتيقة مجموعة من كتب ابن ابى يزيد حوالى اثنا عشر كتابا تشمل الاوراق من رقم ٥٤ الى ٣٣٢[(٢٨٥)] .

وقد الف ابن أبى يزيد كتاب الاستظهار للرد على عبد الرحيم الصقلى ورد كثيرا مما تقلده من خارق العادات وقد أدى ذلك الى أن شنع المتصوفة وكثير من اصحاب الحديث عليه واشاعوا انه نفى الكرامات مع ان القاضى عياض يقول أن من طالع كتابه عرف مقصده وانه لم ينف الكرامات وقد رد عليه جماعة من اهل الاندلس ومن أهل المشرق ككتاب ابى الحسن بن جهضم الهمذانى وكتاب أبى بكر الباقلانى وأبى عبد الله بن شق الليل وأبو عمر الطلمنكى[(٢٨٦)] .

(٢٨٥) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة .

(٢٨٦) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٥ ، ابن فرحون الديباج ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، حسن حسنى مجمل تاريخ الادب التونسى ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، الفاضل بن عاشور أعلام الفكر الاسلامى ص٤٦ ـ ٤٨ ، احسان عباس العرب فى صقلية ص ١١٤

وابن أبى زيد فى رسالته المذكورة فى مذهب مالك يذكر : ان قوله تعالى : « على العرش استوى » من المتشابه وقد منع مالك تاويله · لكن من الجائز تاويله تاويل ايضاح بمعنى ان استواءه على العرش أى أنه استولى عليه استيلاء ملك قادر قاهر وهو هنا يخالف الامام مالك ويقول بالنسبة لاسماء الله وصفاته : ان مما يجب اعتقاده أن له تعالى الأسماء الحسنى وهو غير محصورة فى التسعة والتسعين الواردة فى الحديث وان له الصفات العلى ، أى المرتفعة عن كل نقص · وأنه لم يزل بجميع صفاته وباسمائه · ومعنى لم يزل عبارة عن القدم · وفى هذا رد على المعتزلة والرافضة الزاعمين بأن الله تعالى كان فى ازله بلا اسم ولا صفة وان عباده هم الذين خلفوا له الأسماء والصفات · وصفات الأفعال كالخلق والرزق والاحياء والاماته قديمة كذلك · على عكس ما ذهب الأشعرى من أنها حادثة لانها متجددة من حيث أنها اضافات تعرض للقدرة وفرق بينها وبين صفات الذات القديمة وهى ثمانية : القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام والبقاء ·

ومما يجب اعتقاده أن الله كلم موسى بكلامه القديم الذى هو صفة ذاته وأن كلامه ليس بصوت ولا حرف يسمع من كل جهة بكل جارحة وان القرآن كلام الله القائم بذاته الخ[٢٨٧] ·

وقد بقى ابن أبى زيد يؤدى واجبه فى العلم والتعليم والتاليف ويزود عن أهل السنة ويرد شبه أهل البدع الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٨٦ هـ ·

٢ ـ الزهد والتصوف :

من أهل السنة فريق مال الى الزهد والتصوف وهم مع ذلك متمسكون بالكتاب والسنة مع البعد عن الدنيا وعن الاكثار منها وقد امتاز التصوف فى القيروان بمزجه بالجهاد والرباط للدفاع عن حوزة

---

(٢٨٧) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٧٨ ، ١٧٩

الاسلام ٠ فهم أولا : فاهمون لكتاب الله وسنة رسوله وثانيا : لا يميلون الى متاع الدنيا ويتقللون منها ٠ وثالثا : هم مرابطون على الثغور لدفاع الروم وصد هجومهم عندما يغيرون على الشواطىء الاسلامية القريبة من القيروان كالأربطة المنتشرة عند سوسة ولمطة والمنستير ورباط قصر زياد وكلها على ساحل البحر ٠

وكان الزهاد والمتصوفة يرابطون فيها حيث يتجمع حولهم الناس والمريدون وقد وضعوا بحياتهم وسلوكهم قواعد الرباط والزهد والتعبد بضرب المثل الصالح والقدوة الحسنة التى يحتذى بها ٠

ومن الزهاد الذين ذاع صيتهم وتستجاب دعواتهم :

(ا) أبو على شقران بن على :

وكان رجلا صالحا ضرير البصر مع كثرة صلاة وصيام ورقة قلب وتخشع وكان عالما بالفرائض وألف فيها كتابا وهو ينطق بالحكمة ويعظ الناس وقد انتفع به كثير من المريدين منهم ذو النون المصرى الاخميمى وغيره ٠

وقد روى عنه سحنون بن سعيد ، وعون بن يوسف الخزاعى وكان مؤاخيا للبهلول بن راشد(٢٨٨) ومن وصاياه لذى النون فى الحث على العمل والتوكل على الله والاستعانة به :

« يافتى كل من كد يمينك مما عرق فيه جبينك ولا تأكل بدينك فان خفت ان يضعف يقينك فاستعن بالله يعنك ٠ اعلم أن لى ولك غدا موقفا بين يدى الله عز وجل فاتق الله ولا تشك من يرحمك الى من لا يرحمك »(٢٨٩) ٠

---

(٢٨٨) انظر ابو العرب الطبقات ص ١٣٩ ، المالكى رياض ص ٢٢٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٠٩

(٢٨٩) المالكى رياض ص ٢٢٣

وهو يعرف الزهد وما يجب أن يتحلى ويتصف به فى مسكنه وملبسه ومعرفته بالقرآن ومراقبته لله وذكره ثم المحاسبة للنفس فيقول : « اعلم أن الزاهد فى الدنيا قوته فى الدنيا ما وجد ومسكنه حيث أدرك ولباسه ما يستر ، والخلوة مجلسه والقرآن حديثه والله العزيز الجبار انيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والصمت محبته والخوف محجته والشوق مطيته والنصيحة نهمته والاعتبار فكرته والصبر وساده والتراب فراشه والصديقون اخوانه والحكمة كلامه والعقل دليله والحلم خليله والتوكل نسبة والجوع ادامه والله عونه » قال ذو النون فقلت له : « يرحمك الله تعالى بم يتبين العبد الزيادة فى هذا المكان ؟ قال بالمحاسبة للنفس والمناقشة لها حسبك الآن حسبك»(٢٩٠) .

وكان شقران صاحب كرامات ٠ وكان أهل القيروان يقصدونه يستنزلون به القطر فقد قحط الناس بالقيروان فجاءة قوم فقالوا : يا أبا على ادع الله يسقينا فقد ترى ما الناس فيه من الجهد والغلاء « فشد ازاده على وسطه ورفع يديه بالدعاء والتضرع الى الله عز وجل وجعل يقول فى دعائه : عزيمة منى عليك أسقنا الساعة الساعة فأرعدت السماء وأبرقت وأمطرت فخرجوا من عنده يخوضون فى الماء الى أنصاف سوقهم(٢٩١) .

وكان البهلول مع زهده وورعه يقصد شقران يطلب منه الدعوات فقد ذهب اليه مع رجل له ابن صغير أصابه الجدرى فهو لا يبصر فقال له البهلول « ان أخانا هذا ليس له غير ابنه الذى معه وقد ابتلى فى بصره فادع الله تعالى أن يرد اليه بصره : فاستقبل شقران القبلة وهو على سريره فحمد الله عز وجل وصلى على نبيه ﷺ ثم قال : اللهم ان أخانا هذا قد سألنا ما علمت فنسألك أن ترد الى ولده بصره ٠ فالتفت الصبى الى ابيه وقال يا أبت ما هذا »(٢٩٢) .

---

(٢٩٠) المرجع السابق ص ٢٢٥

(٢٩١) المالكى رياض ص ٢٢٨

(٢٩٢) المرجع السابق ص ٢٢٨

وقد توفى شقران سنة ١٨٦ هـ وقد جاوز السبعين سنة ودفن بباب سلم[٢٩٣] .

(ب) أبو محمد عبد الرحمن بن عبد ربه الربعى الزاهد :

من الزهاد الذين يستجاب دعاؤهم بالقيروان ولذلك يعرف بعبد الرحيم المستجاب وقد نشأ بالقيروان وتلقى العلم على سحنون وأسد بن الفرات وجد فى طلب العلم والعناية به وقد حبس كتبا كثيرة بخطه وضبطه للانتفاع بها وكان سحنون يجله وقد قال لرجل فاته بعض السماع منه : اين انت من الشيخ ؟ يعنى عبد الرحيم أسمعها منه فكأنك سمعت منى وقد سمع منه عيسى بن مسكين وغيره[٢٩٤] . وكان يعمل تاجرا فى سوق البزازين فى القيروان ثم ترك التجارة وأراد الخروج مع أسد بن الفرات لغزو صقلية الا أن سحنون قال له : انك كنت تريد بناء قصر زياد وبنيانك لهذا القصر ليكون حرسا للمسلمين وغوثا لهم يلجأون اليه ويرابطون فيه افضل من مسيرك الى صقلية وقد اقر أسد رأى سحنون ودخل اسد على زيادة الله بن الأغلب الأمير فخرج ومعه سجلان : سجل منهما بولايته على صقلية اميرا وقاضيا وسجل آخر لعبد الرحيم فى الأذن له فى بناء قصر زياد وقد انفق عبد الرحيم فى بناء قصر زياد اثنى عشر الف دينار ستة آلاف من عنده وستة آلاف من عند اخوانه .

ولم يكن زهد عبد الرحيم لعدم وجود الثروة فقد كانت له ضيعة واسعة وكان عنده سبعة عشر ألف شجرة زيتون وكان مع ذلك ازهد أهل زمانه كثير الصدقة والمعروف لم يكن للدنيا عنده قدر .

وقد لازم الرباط مع ما فيه من مشقة دفاعا عن المسلمين والتزاما لسلوك خاص فى الحياة والعبادة والطعام والشراب ولذلك نقد بعض

---

(٢٩٣) انظر الدباغ معالم ج ١ ص ٢١٣

(٢٩٤) أبو العرب طبقات ص ١٩٧ ، المالكى رياض ص ٣٢٧ ، عياض المدارك ج ٣ ص ٩٥ . حبس : بمعنى أوقف .

المرابطين عندما لم يلتزموا بآداب الرباط فقد خرج سنة من السنين الى المنستير فنزل فى القصر الكبير فلما كان العشى سمع حس مهاريس فقال ما هــذا ؟ فقيل له المرابطون يدقون التوابل لقدورهم فاسترجع عند ذلك وقال ما هكذا أعرف حالة المنستير • قديما عند سكانها كان عند المرابطين شىء من دقيق الشعير فى العلة وشىء من زيت فاذا كان عند افطارهم لتوا ذلك الدقيق بشىء من الزيت فأكلوه • لله على ألا أبيت فى شىء من المنستير • فخرج منها ذلك الوقت فغابت الشمس عند قصر لمطة • ولم يعد الى المنستير بعــد ذلك •

ومن وصايا عبد الرحيم لمريديه « يابنى أوصيك أن تتقى الله وتجتنب محارم الله وتؤدى فرائض الله عز وجل وتحسن الى عباد الله وان زدت زادك الله »(٢٩٥) •

وقد قضى عبد الرحيم حياته أعزب لم يتزوج أو يتسر وظل ملازما للرباط مداوما على صيام النهار وقيام الليل وتلاوة كتاب الله عز وجل حتى أدركته الوفاة سنة ٢٤٧ هـ ودفن على شاطىء البحر شرقى قصر زياد وقد رثاه حاتم الجنبنيانى المتعبد بقوله :

لهفى على عبــد الرحيم وفضــله	حتى المــات بكل قلب يســتعر
ما كان اتقـــاه وأحسن أمـــره	فى الله يســعى قد تشــمر واتزر
أما النهـــار فصــائم متهجــد	والليل يهتف بالقرآن الى السحر
شرب الهــدى فملا الرشاد فؤاده	وحوى الصلاح فما على ذنب عثر
طلب الخـــلود فباع دنياه بمـــا	يبقى فقد ربح الســعيد وما خسر
يامعشر العبـــاد قوموا فانصروا	دين النبــى ووقروه كمـــا نصر
وصلوا الرباط وجاهدوا فعساكم	أن تظفروا بالصالحات كمـــا ظفر

---

(٢٩٥) المـــالكى رياض ص ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، عيــاض المـدارك ج ٣ ص ٩٧ •

٣ ـ الخـــــوارج :

لم تمدنا المصادر التى بين أيدينا بأسماء علماء الخوارج الذين كانوا يقومون بتدريس ونشر مذهبهم فى القيروان خلال حكم الأغالبة سوى ما ذكر فى ترجمة الامام سحنون من أنه « نرد أهل الاهواء من المسجد الجامع » وكانوا فيه حلقا للصفرية والاباضية والمعتزلة وكانوا فيه حلقا يتناظرون ويظهرون زيفهم »[٢٩٦] وبهذه الاشـارة العارضة يمكن أن يتصور ان فرق الخوارج من الصفرية والاباضية كانوا يدرسون مذهبهم ويعقدون الحلقـات للنقاش حول مبادئه فى المسـجد الجامع بالقيروان وانهم مع ركونهم الى عدم طلب السلطة او تطبيق مبادئهم التى أقاموها مثلا فى تاهرت اكتفوا بتعليم ونشر مبادئهم فى القيروان الى أن تولى سحنون سلطة القضاء وفرق حلقاتهم من المسجد .

وليس معنى ذلك انه قضى على الفكر الخارجى فى القيروان ولا يمنع ذلك من ان يكون أولئك العلماء من الخوارج قد لجئوا الى أماكن أخرى فى القيروان غير المسجد الجامع يدرسون فيها مذهبهم كما أن ذلك يدل أيضا على قلة العدد الذى كان يعتنق المذهب الخارجى فى القيروان .

وهناك اشارة أخرى يذكرها الدكتور يحيى هويدى وهى « أن الخلفاء الرسميين قد درجوا على دعوة الأئمة السنيين الى تاهرت لمناقشة الأئمة الاباضيين فى أمور الدين »[٢٩٧] واذا اعتمدنا صحة ذلك فانه يدل أيضا على وجود صلات أخرى أكثر وأعمق زيادة عما تفيده الاشارة السابقة بالنسبة للمعرفة بالمذهب الخارجى وعلى استعداد بعض أهل السـنة للنقاش حول مبادىء المذهب الخارجى الذى يتلخص أهمها فى :

١ ـ ان الخلافة تكون بالاستفتاء .

---

(٢٩٦) انظر أبو العرب طبقات ص ١٨٤ ، المالكى رياض ص ٢٧٦

(٢٩٧) دكتور يحيى هويدى تاريخ فلسـفة الاسـلام فى القـارة الافريقية ص ٤٠

٢ ـ ان الخلافة ليست وقفا على القرشى ٠

٣ ـ ان العمل شرط للايمان مخالفين المرجئة وما يترتب على ذلك من ارتكاب المعاصى بالنسبة للايمان وللجنة والنار ٠

وقد وفدت من المشرق فرق الخوارج الثلاث التى انتشرت فى العراق وهى :

١ ـ الأزارقة : أصحاب نافع بن الأزرق ومن اهم مبادئهم : البراءة من سائر المسلمين وتكفيرهم والاستعراض اى القتل من غير سؤال عن حال احد وقتل الاطفال واستحلال الأمانة لأن نافع بن الأزرق يراهم كفارا وهذه الفرقة اقل فرق الخوارج انتشارا فى المغرب ٠

٢ ـ الصفرية : اتباع عبد الله بن صفار وهم يوافقون الأزارقة فى مبادئهم الا انهم الين عريكة منهم وخاصة تجاه القعدة ٠

٣ ـ الاباضية : أصحاب عبد الله بن اباضى التميمى وهم لم يحرموا الموارثة والنكاح من المسلمين واكتفوا بان عدوهم منافقين ٠

ونادوا بجواز القيام بينهم لأنهم يهدفون الى كسب جماعة المسلمين الى مذهبهم لا ان يعدوهم مشركين كما ذهب الى ذلك الأزارقه ، والصفرية ، والاباضية هما الفرقتان اللتان انتشرتا فى المغرب وقد وجدتا فى القيروان كما سبقت الاشارة الى ذلك[٢٩٨] ٠

وقد تمكن الاباضية من اقامة دولة لهم فى تاهرت الا أن الاباضية انقسمت بعد ذلك الى :

(أ) النكارية : الذين أنكروا امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم فى تاهرت وسموا نكاثا أيضا لنكثهم بيعة الامام ٠

(ب) الخليفة : أتباع خلف بن السمح بن عبد الأعلى المعافرى الذى أنف من مبايعة افلح بن عبد الوهاب وخرج عليه ٠

---

(٢٩٨) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ٣١ ، ٣٢

(جـ) النفاثية : اتبـاع نفاث بن نصر الذى قـام ضـد افلح بن عبـد الوهاب ينكر عليه قلة محاربته المسـودة وما هو فيه من خفض العيش[٢٩٩] •

وكان الخوارج النكارية الاباضية بقيادة أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى هم الذين ثاروا على أبى القاسم الشيعى واستطاعوا أن يستولوا على كثير من المدن التى تحت حكم الخلافة الفاطمية وقد تمكن من الاستيلاء على القيروان • وقد انضم الخوارج فى الثورة على الشيعة علماء القيروان السنيون ورأوا أن الخروج مع أبى يزيد الخارجى متعين لحكمهم بكفر الشيعة • بينما رأوا أبا يزيد الخارجى من أهل القبلة وكان أبو اسحاق السبائى يقول : ويشير بيده الى أصحاب أبى يزيد : هؤلاء من أهل القبلة ، وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة يريد بنى عبيـد فعلينا أن نخرج مع هـذا الذى من أهل القبلة لقتالهم ، فان ظفرنا بهم لم ندخـل تحت طـاعة أبى يزيد واللـه يسـلط عليهم اماما عـادلا يخرجه عنا[٣٠٠] •

وقد كان أبو يزيد الخارجى عندما دخل القيروان أظهر لأهلها خيرا وترحم على أبى بكر وعمر ودعا الناس الى جهاد الشيعة وأمر الناس بقراءة مذهب مالك[٣٠١] •

ولا شك أن هـذه الروح التى أبداها أبو يزيد قد جعلت علماء القيروان يميلون اليه ويقاتلون معه •

ولقد أبدى العلماء والصلحاء من أهل القيروان شجاعة عظيمة فى قتال الشيعة ولكن أبا يزيد الخارجى عندما أحس أن الأمر صائر اليه وقد أوشك أن يقضى على الشيعة قال لجنوده اذا التقيتم مع القوم انكشفوا

(٢٩٩) المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٧ • يقصد بالمسودة : اتباع العباسيين •

(٣٠٠) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١٨ ، ٣١٩

(٣٠١) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢١٧

عن أهل القيروان حتى يتمكن اعداؤكم من قتلهم فيكونوا هم الذين قتلوهم لا نحن فنستريح منهم[٣٠٢] فقتل من الفقهاء والصالحين خمسة وثلاثون رجلا منهم الممسى وربيع القطان ومحمد بن على البقال وغيرهم ممن أراد الله سعادته بالشهادة[٣٠٣] .

وكان ابو يزيد يظن انه اذا قتل شيوخ القيروان وائمة الدين تمكن من اتباعهم فيدعوهم الى عقيدته الخارجية فيجيبوه ولكن اهل القيروان فارقوا ابا يزيد واشتد بغضهم له ولمذهبه الخارجى وجعل سكان القيروان علماء وغيرهم لا يقبلون الخوارج منذ تلك الموقعة .

وقد تمكن المنصور الفاطمى فى المحرم من سنة ٣٣٦ هـ من القضاء على الثورة الخارجية وقتل ابى يزيد بعد قتال عنيف ضد أتباعه ومطاردة شاقة لأبى يزيد الى أن تمكن منه .

٤ ـ المعتزلة :

فى بداية القرن الثالث الهجرى كانت مشكلة خلق القرآن التى قال بها المعتزلة من أهم الأمور التى دعوا اليها وأخذوا يتصدون للدفاع عنها ويستغلون كل فرصة لحمل الناس على الاعتقاد بها وقد كان ابو محرز قاضى القيروان أثناء ولاية زيادة الله ممن يقول بخلق القرآن[٣٠٤] .

وقد رمى البعض أسد بن الفرات شريكه فى القضاء بأنه يقول بخلق القرآن وذكر ذلك لسحنون فنفاه عنه وقال : والله ما قاله[٣٠٥] .

وكان علماء أهل السنة لا يصلون خلف المعتزلة وقد عرضهم ذلك لغضب الأمير الأغلبى عندما كان يتولى المعتزلى منصبا من مناصب الأمير :

---

(٣٠٢) ابن عذاري البيان جـ ١ ص ٢١٨
(٣٠٣) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٢١
(٣٠٤) أبو العرب طبقات ص ١٦٤
(٣٠٥) عياض المدارك جـ ٢ ص ٤٧٣

فقد حدث أن حضر سحنون جنازة وتقدم ابن أبى الجواد الذى كان قاضيا قبله وكان يذهب الى رأى الأحناف ويقول بالمخلوق فصلى عليها فرجع سحنون ولم يصل خلفه فبلغ ذلك الامير زيادة الله فأمر بأن يوجه الى عامل القيروان أن يضرب سحنونا خمسمائة سوط ويحلق لحيته ورأسه(٣٠٦) وقد دخل وزيره على بن حميد فجعل الأمير يوقف العقوبة ٠

واشتدت المحنة بين أهل النة والمعتزلة عندما ولى احمد بن الأغلب الامارة وأخذ الناس بالمحنة بالقرآن وخطب به فى القيروان وقد سبق أن بينا عند حديثنا عن أهل السنة كيف أمتحن سحنون والصمادحى فى المحنة بخلق القرآن وكان المعتزلة لا يصلون على أهل السنة أيضا كما قدمنا فقد استعفى رجال ابن الأغلب من الصلاة على سحنون وكان أكثرهم معتزلة وقالوا للأمير ان صلينا عليه راى الناس انا رضينا حاله فأعفاهم(٣٠٧) ٠

ويفهم قول المالكى والدباغ أن كثيرا ممن يعمل مع الأمير كانوا معتزلة وان كان ذلك لم يؤد الى أن يعتنق كثير من سكان القيروان الاعتزال أو يقول بخلق القرآن أو بعدم رؤية الله يوم القيامة ٠

وكان المعتزلة يقولون بحدوث الأسماء والصفات ويتناظرون مع أهل السنة فيها ٠ فقد قال سليمان بن حفص الفراء المعروف بابن أبى عصفور لمحمد بن سحنون يا أبا عبد الله سمى نفسه أراد بذلك أن يقول له نعم فثبت عليه الاقرار بحدوث الأسماء والصفات ٠ فقال له ابن سحنون الله سمى نفسه لنا ولم يزل وله الأسماء الحسنى(٣٠٨) : وكان سليمان يقول كذلك بخلق القرآن وقد دعا الناس اليه فهموا بقتله(٣٠٩) ٠

---

(٣٠٦) المالكى رياض ص ٢٨٥

(٣٠٧) المرجع السابق ص ٢٨٨ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٦٧

(٣٠٨) المالكى رياض ص ٢٨٨ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٦٧

(٣٠٩) الرياض ص ٥٠٤ نقلا عن الطبقات لمحمد بن الحارث الخشنى ٠

ويقال عنـه ان له كتبا فى خلق القـرآن[310] ويذكر الخشنى أن سليمان الفراء سال سـعيد بن محمد الحداد فقال : يا ابا عثمان أين كان ربنا اذ لا مكان ؟ فقال له : السؤال محال لأن قولك أين كان يقتضى المكان وقولك اذ لا مكان ينفى المكان فهذا نعم لا • قال فكيف كان ربنا اذ لا مكان ؟ قال له السـؤال صحيح ثم أجابه بجواب لم أحفظه عن حياكه أى الخشنى[311] •

ومع هـذه الخصـومة بين المعتزلة وأهل السـنة يذكر الشـيخ الفاضل بن عاشور أن أهل السـنة قد تتلمذوا على المعتزلة أولا لاقتباس أساليبهم ثم انقلبوا ينصرون بتلك الأساليب الحكيمة والمذاهب الكلامية عقيدة أهل السـنة ويثبتون ما نفاه المعتزلة[312] ولم يأخذوا برأيهم •

وعندما قامت الخلافة الفاطمية ناظر المعتزلة الشيعة فى مسالة الامامة الا أن بعضهم قد مال الى مذهب الشيعة ومنهم أبو بكر القمودى المشهور بالفيلسوف الذى تربى فى القيروان وتخصص فى الجدل والمناظرة وغلب عليه الاعتزال حتى لقب بالفيلسوف فصار لقبا له وكان مضـادا للشـيعة وناظر أبا العباس الشيعى برقادة مناظرة أفحمه فيها مما جعل أبو عبد الله الشيعى يقول له انك لتنظر لأهل البيت ما ارى منك من البغضاء وتنصب فى توهين أمرهم ما اسمع من حجاجك فاضطر الى الاعتذار وخاف سفك دمه • فانضم الى دعوة الشيعة وأسند اليه الاشراف على دار الضرب لسك النقود[313] •

وقد بلغ عدد العلماء من المعتزلة فى عصر الازدهار حوالى عشرين

---

(٣١٠) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١١٩ •

(٣١١) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٦١ عن الخشنى •

(٣١٢) أعلام الفكر الاسلامى للفاضل بن عاشور ص ٤٢

(٣١٣) انظر بن عذارى البيان ج ١ ص ١٥٩ ، حسن حسنى الورقات ص ٢٥١

عالمـا متكلما من أشهرهم القاضى أبو محرز وابن أبى الجواد وسليمان الفراء وابى اسحاق العمشاء الذى كان يناظر بشدة فى خلق القرآن وله أصحاب وأتباع يحلقون عليه ومحمد بن الأسود المعروف بالصدنى بن حبيب الصدنى ومحمد الكلاعى الذى رد على أبى سعيد الحداد فى احد مؤلفاته وأبو الفضل المعروف بابن ظفر ومحمد المسحى وأحمد بن المعروف بابن شـهر(٣١٤) .

٥ ـ الشـــيعة :

لم يحدثنا المؤرخون عن ظهور الأفكار الشيعية فى القيروان خلال القرن الأول والثانى ومنتصف الثالث الهجرى ومع اتصال علماء القيروان بالمشرق الا انه لم يذكر المؤرخون أن أحدا منهم قد اعتنق التشيع ولكن عندما قدم دعاة الفاطميين الى المغرب وأقاموا فى ارض كتامة حاولوا بث افكارهم فى القيروان قبل التغلب عليها فالتشيع لم يظهر بالمغرب الا على يد العلويين العبيديين وأما دولة الادارسة التى قامت فى فاس فى المغرب الأقصى فانها ليست دولة شـيعية بل حكمت البـلاد حكما سـنيا(٣١٥) .

وفى أواخر دولة الأغالبة وصلت الأفكار الشيعية الى القيروان حتى ان وزراء زيادة الله بن الأغلب آخر امراء الأغالبة كانوا لا يبالون الا بنجاح المذهب الشيعى الذى قد اعتنقه معظمهم(٣١٦) وقد ولى أبـو عبد الله الشيعى عند دخوله القيروان محمد بن عمر المروزى فى منصب القضاء فأمر باسقاط صلاة الاشفاع فى شـهر رمضان واحتج على الفقهاء وانكر الاقتداء بفعل عمر بن الخطاب وتركهم الاقتداء بفعل على بن أبى طالب

---

(٣١٤) انظر المـالكى رياض ص ٥٠١ ، ٥٠٢ ، الحبيب الجنحانى القيروانى عبر عصور الازدهار ص ١٦١ ، ١٦٢ ، يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٥٩ ، ١٦٠

(٣١٥) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٤٩.

(٣١٦) انظر حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠

فى زيادة حى على خير العمل فى الآذان وقال لهم : اعملوا بمذهب اهل البيت واتركوا الفضول[٣١٧] وهـذا يدل على انه كان من انصار المذهب الشـيعى القليلين الذين مالوا اليه فى القيروان قبل انتصـار ابى عبد الله الشيعى واذا ثبتت صحة هـذه الآراء فهو يدلنا على أن المذهب الشيعى كان قد عرف بالقيروان وقد اعتنقه ومال اليه البعض قرب قيام الدولة الفاطمية ولا شك أن ذلك مما مكن الفاطميين من القضـاء على الأغالبة •

ولكن علماء الطبقات لا يذكرون الا تشريق بعض العلماء من المعتزلة والأحناف وقد تشرق بعض المـالكية كما حدث بالنسبة للنعمان المغربى الذى كان مالكيا وتشرق أى صار شـيعيا وكان ذلك عند قيـام الدولة الفاطمية[٣١٨] • ويذكر بن عذارى أن أبا عبد الله الشيعى أمر وجوه كتامة بدعوة الناس الى مذهبهم من التفضيل لآل على والبراءة ممن سواه فدخل فى ذلك معهم كثير من الناس فلذلك سميت دعوتهم التشريق لاتباعهم رجلا من اهل المشرق[٣١٩] •

مبادىء الشـــيعة :

وقد كان انتصار الفاطميين على الأغالبة ودخولهم رقادة والقيروان بداية رسمية عملية للدعوة الى المبادىء الشيعية التى يعتقد فيها الشيعة وهى تنزيه ذات الله تعالى تنزيها مطلقا فهو واحد لا شريك له وانه ليس كمثله شىء • يقول القاضى النعمان بن محمد فى الرسـالة المذهبية « أكبر درجات الشرك من جعل لله شريكا فى ملكه أو معينا على قدرته أو مشيرا فى أمره اذا أراد شـيئا أن يقول له كن فيكون • وقال ليس كمثله شىء وهـو السـميع البصـير • وقال قل هـو الله احـد الله الصـمد »[٣٢٠] •

---

(٣١٧) انظر ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٥١ ، ١٥٢

(٣١٨) انظر المـالكى رياض ص ٤٢٠ ، ٥٠١

(٣١٩) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٥٢

(٣٢٠) انظر يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٠٥

ولا يوصف الله عند الشيعة الفاطميين بأى صفة من الصفات لأنه متعال لا ينال بصفة ما • ووجوده من ذلك النوع الذى يقول عنه الكرمانى فى راحة العقل « لا يوجد فى اللغات ما يمكن الاعراب عنه » ويذهب الدكتور يحيى هويدى الى أن مذهب الشيعة الفاطميين فى مسألة صفات الله لا ينطوى على نفى لها كما لا ينطوى على اثبات • فالله لا يوصف بالنفى ولا بالاثبات ومعنى هذا انهم نزهوا الذات الالهية عن الحكم بالاثبات المطلق لأن الاثبات المطلق يقتضى شركة بينه وبين سائر الموجودات من الجهة التى اطلقت الصفة عليه • ونزهوها ايضا عن النفى لأن فى النفى سلب صفات عن الله ولا يجوز أن يوصف الله بالسلب وهذا يرجح القول بأن الشيعة الفاطميين ليسوا معطلة بل الأحرى أن يقال انهم منزهة(٣٢١) •

والشيعة يذهبون الى أن الايمان هو الباطن وأن الاسلام هو الظاهر وهم يخالفون المرجئة الذين يقولون بانه قول فقط وغيرهم الذين يقولون بانه قول وعمل فهو عندهم قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان يقول القاضى النعمان بن محمد فى دعائم الاسلام « الايمان لا كما زعمت المرجئة انه قول بلا عمل ولا كالذى قالت الجماعة من العامة أن الايمان قول وعمل فقط • وقول الجماعة ان الايمان قول وعمل بعد اعتقاد نية محال لأنهم قد اجمعوا على ان رجلا لو امسك عن الطعام والشراب يومه الى ليله وهو لا ينوى على الصوم لم يكن صائما ولو قام وركع وسجد وهو لا ينوى الصلاة لم يكن مصليا(٣٢٢) •

والايمان الذى هو الباطن عندهم قائم على المعرفة والتصديق بالقلب والمعرفة قائمة على التأويل الباطنى لآيات الكتاب وهو وقف على الأئمة من أهل بيت الرسول ﷺ اى أن المعرفة التى هى شرط للايمان وقف على الأئمة وهذا يؤدى الى وجوب الاتباع للأئمة فالمؤمن يتلقى العلم

---

(٣٢١) يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٠٧ ، ١١٥

(٣٢٢) يحيى هويدى تاريخ فلسفة الاسلام ص ١٢٥

والمعرفة من مصدرها الوحيد العارف بحقيقة التأويل الباطنى وهو الامام وبهذا اتباع الأئمة والانقياد التام لهم يقول القاضى النعمان بن محمد فى اساس التأويل « جعل عز وجل ظاهره (اى ظاهر الكتاب) معجزة رسوله وباطنه معجزة الأئمة من اهل بيته لا يوجد الا عندهم ولا يستطيع أحد ان يأتى بظاهر الكتاب غير رسوله ﷺ جدهم ولا أن يأتى بباطنه غير الأئمة من ذريته وهو علم متوافر بينهم مستودع فيهم[٣٢٣] ٠

ولجأ الشيعة الى آيات من القرآن وأحاديث من سنة الرسول ﷺ ليتخذوها وسيلة الى ضرورة التأويل الباطنى كقوله تعالى : « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » وقوله « واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وقوله « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الأحاديث » وقول رسول الله « ما نزلت على من القرآن آية الا ولها ظهر وبطن » ٠

ومن أمثلة تأويلاتهم فى فهم القرآن قولهم : فى فهم المقصود من الشيطان فى قوله تعالى : « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر » هو عمر بن الخطاب وأن الانسان هو أبو بكر ٠ وأن معنى اكفر : لا تقل بامامة على بن أبى طالب[٣٢٤] ٠ وغير ذلك من التأويلات التى استخدمت لصالحهم ٠ وهذه المبالغة من الشيعة بأن الأئمة هم المسئولون وحدهم عن التأويل الباطنى مما اثار عليهم أهل السنة الذين يعتقدون بان كتاب الله وسنة رسوله هى المصدر الوحيد للدين وهم بذلك ينفون أن هناك مصدرا ثالثا وهم الأئمة ٠

وكان الأئمة يهتمون بتعليم أولياء عهودهم وتعريفهم بالتفسير الباطنى ومعرفتهم لكتب الباطن يقول المهدى للمنصور وقد أعطاه كتابا من كتب الباطن ٠ « يابنى ذلك هو الطب الحقيقى وهو طب الأرواح فى الدار الآخرة به يعالج من ألمها ويداوى ممن سقمها ٠٠٠٠ انظر فيه

---

(٣٢٣) المرجع السابق ص ١٢٦

(٣٢٤) انظر عبيد الله المهدى طه شرف وحسن ابراهيم ص ٢٦١

واعرف معانيه ، واحفظ اصـوله فان فيه أصـولا من العلم الشريف فاذا انت حفظت ذلك واتقنت معرفته فاصرفه لاعطيك غيره »(٣٢٥) .

تلك هى مبادىء الشـيعة فى الله وصفاته وفى الامام وعصمته والتفسير الباطنى ومع ذلك فقد ذكر بعض المؤرخين أمور نرى انها مبالغ فيها من ذلك قول ابن عذارى ان « ايمان كتامة اول دخولهم افريقية كانت : وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهد ، الذى برقادة » حتى كتب بعض احداث القيروان(٣٢٦) :

الجـــور قد رضينـــــا لا الكفـــر والحمـــــاقة
يا مدعى الغيـــــــوبا من كاتب البطـــــالة

ويضيف ابن عذارى أنه فى سنة ٣٠٩ هـ حبس عبيد الله المهدى نحو مائتى رجل اظهروا التشريق بالقيروان وباجة وتونس وجاهروا بتحليل المحرم واكلوا الخنزير وشربوا الخمر فى رمضان جهارا فكتب عبيد الله الى عماله بهذه المواضع بان يرفعوهم اليه مقيدين ثم حبسوا فمات اكثرهم بالسـجن(٣٢٧) اى أن اتباع الشـيعة بالغوا فى تشيعهم فعاقبهم عبيد الله .

وعند دخول الشـيعة الى القيروان وفرضهم لسلطانهم عليها حاولوا نشر آرائهم ومعتقادتهم بالاقناع والمناظرة وعقدوا المجالس مرة فى كل أسبوع للمناظرة بين علماء القيروان السنيين وبين الشـيعة وقد عقدوا حوالى أربعين مجلسا وكان يدور الجدال والمنافشة حول مفهوم بعض النصوص الدينية فى العقائد وخاصـة فيما يدعوا اليه الشـيعة من الامامة والتفضيل ، وقد ذكرنا بعض المناقشات والحجج التى كانت تدور فى

(٣٢٥) المعز لدين الله لطه شرف وحسن ابراهيم ص ١٥ عن المجالس والمسايرات جـ ٢ ص ٥٤٢

(٣٢٦) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٦٠

(٣٢٧) المرجع السابق ص ١٨٦

الحداد وابن التيان مواقف قوية فى الدفاع عن السنة[٣٢٨] .

هـذه المجالس عند حديثنا عن أهل السـنة وقد كان لأبى عثمان سعيد

وقد ذكرت أربعة من هـذه المناظرات فى ملاحق كتاب عبيد الله المهدى التى دارت بين ابن الحداد وأبى العباس المخطوم[٣٢٩] نقلا عن أبى العرب تميم .

ولا شك أن الدولة الفاطمية التى تميزت بصبغة خاصة فى العقيدة والتشريع قد قامت بعد أن كان معظم سـكان القيروان قد أشربت قلوبهم آراء أهل السنة فى المسائل المختلفة فيها من الامامة والتفضيل وعصمـة الأئمة . ولذلك وجد الشيعة خصوما عارفين بمعتقداتهم مطمئنين الـى هذه المعتقدات مستعدين للدفاع عنها والتصد ، لمعارضيها ولو ادى ذلـك الى الاضطهاد والتشريد والقتل ومصادرة الأموال والفصل من الوظائف .

فقد كان محمد بن حفص يتولى صلاة جامع رقادة وكان يرتزق كل شهر عشرة مثاقيل ، فأحضره محمد بن عمر المروزى قاضى الشيعة وقـال له لا يؤم بنا الا ولى من أولياء أمير المؤمنين فأدخل الى بعض الدعاة ياخذ عليك الصحة وتبقى على خطتك فقال له انظرنى اليوم أشاور نفسى فأنظره ثم أتاه من الغد وقد كره الدخول معهم فى شىء مما هم عليـه فعزل عن الصلاة[٣٣٠] .

كما كان يعذب من العلماء من كان يعرض عن الافتاء بفقه الشـيعة الى فقه الامام مالك فيذكر القاضى عياض أن النفطى قاضى الشيعة ضرب محمد بن العباس الذهلى فى القيروان عريانا وصفع قفاه حتى سال الدم من رأسه وبرح عليه فى الاسواق واطافه عريانا على حمار لأنه كان يفتـى بمذهب مالك ويطعن على السلطان وقد توفى سنة ٣٢٩ هـ[٣٣١] .

---

(٣٢٨) حسن حسنى الورقات ص ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
(٣٢٩) عبيد الله المهدى حسن ابراهيم ، طه شرف ص ٣٣٣ ـ ٣٤٢ .
(٣٣٠) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٨٩ .
(٣٣١) عياض المدارك ج ٣ ص ٣٤٥ .

ويذكر الدباغ تعذيب الشيعة واضطهادهم لمن يدافع عن أهل السنة بالحجة القوية خاصة أبى العباس المحظوم كما حدث لابراهيم بن محمد الضبى المعروف بابن البرذون ، كما يشير الى نهب الشيعة لأموال أهل السنة والاستيلاء على ثرواتهم كما حدث لمحمد بن خيرون(٣٣٢) ويذكر ابن عذارى ايذاء الشيعة بعض المؤذنين لعدم اضافة حى على خير العمل فى الأذان(٣٣٣) .

ومع هذه القسوة والاضطهاد فاننا نرى أن علماء الطبقات قد بلغوا فى رمى الشيعة بالخروج عن دين الاسلام من مثل ما ذكر عياض من تعليق رؤوس الاكباش والحمر على أبواب الحوانيت عليها قراطيس معلقة ومكتوب فيها اسماء الصحابة(٣٣٤) وفيما ذكره الدباغ رواية عن المالكى من أن عبيد الله لما وصل الى رقادة أرسل الى القيروان من أتاه بابن البرذون وابن هذيل فلما وصلا اليه وجداه على سرير ملكه جالسا وعن يمينه أبو عبيد الله الشيعى وعن يساره أبو العباس أخوه فلما وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس اشهد أن هذا رسول الله واشار الى عبيد الله فقالا جميعا بلفظ واحد والله الذى لا اله الا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان أنه رسول الله ما قلنا أنه رسول الله(٣٣٥) .

ولكن هذه الشدة التى سار عليها الشيعة مع رعيتهم ورغبة مؤسس الدولة الفاطمية فى أن يجعل رعاياه شيعة لم تؤد الى أن يأخذ جميع الرعايا بالآراء - الشيعية - ولذلك استمرت الدعوة الشيعية التى أنشئت قبل قيام الدولة الفاطمية حين كانت الدولة التى قامت على أسس مذهبية بحتة حتى تتكون مدارس الدعوة آداة اتتصال بينه وبين أشياعه لا بينه وبين رعاياه عامة .

---

(٣٣٢) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٨ .

(٣٣٣) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٨٢ .

(٣٣٤) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١٨ .

(٣٣٥) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٧٨ .

ولم يدخر كل الخلفاء الفاطميين جهدا مدة اقامتهم فى القيروان أو المهدية أو المنصورية فى نشر تعاليم الشيعة وتوضيحها املا منهم فى أن يعتنقها الناس ويدينوا بها ٠ وكانت المحاضرات والمنشورات تلقى بعد صلاة الجمعة والعيدين فى المنصورية فى ايـام المعز ويلقى قاض القضاة النعمان بن محمد العظـات فى تلك الاحتفالات والاجتماعات كما كانت تلقـى المحاضرات فى قصر الخليفة فى المنصورية وبذلك كانت قصور الخلافة والمساجد مدارس لنشر عقائد الشيعة ٠ وكان الخلفاء انفسهم هم القـدوة فى ذلك فكان المنصور يعلم المعز ويقول له « أنه لا يأتى امام الا أعطاه الله فضل الامام الذى مضى وعلمه وحكمته وزاده مثل ستة اسـبـاع ذلك »[٣٣٦] ويذكر المعز أن اباه المنصور كان يشرح له بعض كتب الباطـن الرمزية الخاصة بشرح معانى الحروف الابجدية والكتب التى ورثها عن المهدى وكان يهتم بتدريس هذه الكتب له اهتماما بالغا فكان يقول له : « كنت أحب ان أعيش لك أكثر مما عشت لافيدك وأزيدك[٣٣٧] وكان المعز نفسه مثلا أعلى فى شرح هذه الكتب وكان يؤلف الرسائل والمحاضرات ليسهل فهمها على المستمعين لها من الشيعة أو السنيين ويوقعها ثم يعطيها لقاضى قضاته ليلقيها على المستجيبين فكثر المستجيبون لذلك وقد أعد المعز مكانا فى قصره خصصه للنعمان قاضى قضاته ليقوم بشرح كتب الشـيعة التى أمده بها المعز ويذكر النعمان كثرة ازدحام الناس على سماع هـذه المجالس حتى غص المكان بهم وخرج احتفالهم عن حد السماع وملئوا المجلس الذى أمر باجتماعهم فيه ومساحة من رحبة القصر وصاروا الى حيث لا ينتهى الصوت الى آخرهم[٣٣٨] ٠ وكان المعز يخصص وقتا لأخذ العهود على المستجيبين للدعوة الشيعية بنفسه ويرمى من وراء ذلك الى اثارة حماسة أتباعه نحو الدعوة والدولة وكان المستجيبون يقدمون من مشارق الارض ومغاربها ليحظوا بأخذ العهد عليه وكان المعز ينتهز فرصة اجتماع

---

(٣٣٦) المعز لدين الله لطه شرف ص ١٩ عن المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٧٥ ٠

(٣٣٧) المرجع السابق ص ٢٣٣ ٠

(٣٣٨) المرجع السابق ص ٢٣٤ ٠

المستجيبين وخاصة الغرباء فيلقنهم مبادىء الدعوة التى لقيت بفضل هـذا المجهود رواجا فى أرجاء العالم الاسلامى وساعدت على اتصـال مدينة المنصورية بغيرها من المدن الاسلامية ٠

وكان الشيعة خلال حكمهم فى المغرب يهتمون باختيار الدعاة لنشر مذهبهم الشيعى وكانت كتب الدعوة تزخر بالنصائح التى توجه الـى الدعاة ليسيروا على هديها ويترسموا خطاها بحيث يستطيعون التميز بين المستجيبين ويشرحوا لكل واحد منهم بقدر ذكائه واستعداده وكان لا يؤذن بالدعوة الا للعلماء الافوياء الذين يتقون بهم ويرتضونهم ٠

وينصح ابو حنيفة النعمان المغربى الدعاة عندما يكون من يحاجونـه افوى منهم بالحجة وأبين فى المنطق بأن يستتر الداعى بالباطن فيقول : «متى ناظرك من ترى أنه الحن بالحجة منك فاستتر بالباطن يعنى أن يقطع كلامه ويومى الى أن فى ذلك باطنا لا يتهيأ ذكره ولا يتمادى فى الكلام الى أن يظهر مخاصمه فيكون ذلك فتنة وداعيا الى الاصرار على ما هو عليه ولكن يبقيه على شبهة من أمره ٠ ان كان قد وجل فى مناظرته وان علم أنه الحن منه قبل المناظرة لم يناظره واسـتتر كذلك بالباطن منه ما أمكنه لأن احتجاج المبطلين ربما نبهوا به وخيلو للسامعين انه الحـق »(٣٣٩) ٠

ويبين القاضى النعمان ما يجب أن يتخذه الداعية بالنسبة للدعـوة من دراسة حال ووضع من يدعوه وكيف يسير بتؤدة فى تلقينه المبـادىء فيقول : فينبغى للداعى اختبار أمر من يدعوه وتعرف أحوالهم رجلا رجـلا وتمييز كل أمرىء منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى اليه ويحمله عليـه من أمر الله وأمر أوليائه ومقدار ما يحمله من ذلك ومدى قوته وطاقتـه ومتى يوصل ذلك اليه وكيف يغذوه به وامتحان الرجال وتعرف الامـوال ومقدار القوى ومبلغ الطاقات وعلم ذلك هو أفضل ما يحتـاج اليه الدعاة فى باب السياسات والرياضيات(٣٤٠) ٠

(٣٣٩، ٣٤٠) المرجع السابق ص ٢٣٧

ثم يستمر النعمان فى بيان ما يجب أن يتحلى به الداعية الى المذهب الشيعى فى نفسه من سلوك حسن وجلال ووقار وان يكون مصدر ذلك : حسن الصمت وخفض الجناح ولين الجانب وحسن العشرة وجميل المخالفة من غير تجبر ولا تكبر عليهم بل يكون التواضع سيماه والوقار همته(٣٤١) . وقد قسمت الدعوة الى دعوة ثقافية ودعوة دينية أو سياسية وتذرعوا بالفلسفة لاقناع بعض العقول وبالتصوف لاقناع بعض العقول الاخرى(٣٤٢) .

وبهذا المنهج القويم الذى وضع للدعوة والداعية سارت الدعـوة الشيعيه سيرا صحيحا فى داخل البلاد وخارجها فكان الدعاة يلقون مبادىء المذهب الشيعى فى صورة محاضرات أو منشورات فى أوقات معينة على الرعايا تارة وعلى الاتباع تارة أخرى وكانت تلقى المحاضرات فى المساجد أحيانا وفى قصر الخليفة بالمنصورية أحيانا أخرى .

وقد الف القاضى النعمان فى العقائد الشيعية فى المنصورية كتـاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة وأساس التأويل والمجالس والمسايرات وكتـاب دعائم الأسلام .

كما الف جعفر بن منصور اليمن كتب سرائر النطقاء وكتاب أسرار النطفاء وكتاب الشواهد والبيان(٣٤٣) .

ومع هذا الصراع العنيف بين أهل السنة ودعاة التشيع فى القيروان ومحاولة الشيعة مصادرة حرية اهل السنة فى الاعتقاد فمما لا شك فيه أن هذا الصراع قد أدى الى ثروة عظيمة فى توضيح عقائد أهل السنة والشيعة كما كان مع ماصاحبه من مشقات ومصادرات للآراء والحريات والاموال وفصل من الوظائف عاملا من عوامل ازدهار الحياة الفكرية العقائدية فى القيروان .

---

(٣٤١) المرجع السابق ص ٢٣٧ .

(٣٤٢) اثر العرب فى الحضارة الاوروبية. عباس العقاد. ١٧١ .

(٣٤٣) حسن ابراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٨٤ .

٤ ـ العلوم الاجتماعية والتربوية :

هدفنا فى هذا الموضوع أن نستجلى حقيقة الوضع فى القيروان ٠ هل كان هناك فكر تاريخى وجغرافى واجتماعى وتربوى ؟ وما مداه ؟ وما مظاهره ؟ أم انهـا كانت خلوا منه واقتصر الفكر على العلوم الشرعيـة والعربية والعقلية ؟ والحقيقة أن المصادر قد امدتنا ببعض الاسماء التى عملت بالفكر التاريخى والجغرافى وأشارت اشارات عابرة الى الوعى الاجتماعى والتربوى ٠

وقد فقدت معظم مؤلفات المؤرخين القدامى ولا نعرف الا اسماءها ٠ الا ان من جاء بعدهم من المؤرخين قد روى عنها باعتبار انها كانت موجودة فى زمنهم ثم فقدت بعد ذلك ٠ وبيحثنا فى المصادر التى بين أيدينا نستطيع ان نقـول :

١ ـ التـــاريخ :

ان من اقدم المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ افريقية ولم تصلنا كتبهم عيسى ابن محمد بن ابى المهاجر وجده أبو المهاجر هو الذى ولـى افريقية بعد ولاية عقبه فى المرة الاولى وقد الف كتابا فى فتوح افريقيـة وقد توفى فى نهاية القرن الثانى الهجرى[(٣٤٤)] ٠ وعبد الله بن أبى حسان اليحصبى الذى كان عالما بالتاريخ وانساب العرب وقال عنه الدباغ أنـه من أعلم الناس بالتاريخ ويذكر المنجى الكعبى أن له كتابا فى التاريخ مفقود أيضا وقد توفى سنة ٢٢٧ هـ عن سبع وثمانين سنة[(٣٤٥)] ٠

ولقد كان هناك من اهتم بمعرفة أخبار الانبياء السابقين والامم السابقة وكان الامراء يستمعون الى هذه الاخبار « فعبد الملك الملشونى

---

(٣٤٤) انظر أبو العرب طبقات ص ٢٠٦ ، مقدمة تاريخ افريقية للرقيق ص ١٥ ٠

(٣٤٥) انظر أبو العرب طبقات ص ١٥٥ ، مقدمة الرقيق تاريـخ افريقية للرقيق ص ١٥ الدباغ معالم جـ ٢ ص ٣٧ ٠

وابنه اسحاق كان صاحب اخبار ومغاز وله كتاب كبير فى أخبار الانبياء صلوات الله عليهم • وقد دخل سحنون بن سعيد على الامير محمد بن الاغلب أول يوم من شهر رمضان فالفى الامير خاليا ففال له أراك أيها الامير خاليا فقال نعم انفردنا فى هذا الشهر المعظم وخلونا فيه وتركنا ما كان لغير الله عز وجل فقال سحنون فاين انت أيها الامير من اسحق الملشونى يحدثك باخبار الامم السالفة والاعوام الماضية فامر محمد بن الاغلب باحضاره وكان يحضر عند محمد بن الاغلب فى كل يوم يحدثه بذلك حتى انفضى شهر رمضان وينقل البكرى عن اسحق بن عبد الملك الملشونى انه لم يدخل افريقية نبى من الانبياء[346] كما يذكر المالكى ايضا ان مغازى الجهاد لابن وهب »[347] كانت تقرا على سحنون فى القيروان مما يدل على العناية بسير الحروب والغزوات فى أيام الرسول ﷺ •

ولعل مما يدخل فى تاريخ الانبياء ما يذكره الدباغ من أن فرات بن محمد العبدى كان يقرأ عليه الزبور[348] كما يذكر عياض أن محمد بن سحنون قد الف كتابا فى التاريخ ستة اجزاء[349] وان كتابه فى الامامة الذى يمثل الفكر التاريخى العقائدى قد كتب بماء الذهب وقدم للخليفة فى بغداد[350] وقد ألف محمد بن زيادة الله بن الاغلب كتابا فى تاريخ بنى الأغلب دون فيه اخبار اسرته الى ما قبل وفاته سنة ٢٨٣هـ[351] •

كما أن من المؤرخين الذين فقدت كتبهم محمد بن يوسف الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ وهو حجة فى تاريخ افريقية والمغرب وقد نقل عنه البكرى كثيرا فى كتاب المسالك والممالك •

---

(٣٤٦) المالكى رياض ص ٣١٠ ، البكرى المغرب ص ٤٥ •
(٣٤٧) المرجع السابق ص ٢٦٥ •
(٣٤٨) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٦٨ •
(٣٤٩) عياض المدارك جـ ٣ ص ١٠٦ •
(٣٥٠) المالكى رياض ص ٣٤٦ •
(٣٥١) انظر الحلة السيراء لابن الابار جـ ١ ص ١٧٩ •

ومن المؤرخين الذين حفظت لنا الايام بعض كتبهم الفترة التى نبحثها أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمى رافع لواء التاريخ بالقيروان وصاحب طبقات علماء افريقية وتونس وهو من مصادر هـذا البحث ولابى العرب كتب أخرى منها كتاب التاريخ سبعة عشر جزءا وكتاب مناقب بنى تميم وكتاب عباد افريقية وكتـاب فضائل مالك وكتاب فضائل سحنون[٣٥٢] وغير ذلك ٠

ويوجد له بمكتبة القيروان العتيقة ورقتان بظاهر أولهما : الكتاب الثالث من البيوع عن يحيى بن سلام بخط أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم[٣٥٣] ورقمها المسلسل من ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥ ٠

وقد استشهد ابو العرب فى الثورة ضد الشيعة سنة ٣٣٣ هـ ٠

وكذلك من المؤرخين الذين عثر على جزء من تاريخهم ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم الذى اشتهر بالرقيق القيروانى والذى نشر له المنجى الكعبى جزءا من كتاب تاريخ افريقية والمغرب من أواسط القرن الأول الى أواخر القرن الثانى الهجرى ٠ وهو ايضا من مراجع هذا البحث[٣٥٤] وقد صور لنا جانبا سياسيا من الحياة فى القيروان مع ذكر المكاتبات والأشعار التى كانت تدور بين الحكام والخارجين عليهم ٠

وخلال فترة حكم الفاطميين وجه أبو حنيفة النعمان المغربى جانبا من فكره الى الناحية التاريخية فألف كتاب شرح الأخبار وارجوزة تسمى ذات المنن وأخرى تسمى ذات المحن وقد فقدتا أما كتابه (افتتـاح الدعوة الزاهرة فهو من أشـهر كتبه التاريخية وهو مخطوط محفوظ بجامعة القاهرة وله كتاب مناقب بنى هاشم ولم يعثر له على أثر[٣٥٥] ٠

---

(٣٥٢) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٣٥ ٠

(٣٥٣) انظر الملحق عن سجل مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة ٠

(٣٥٤) انظر مقدمة تاريخ افريقية والمغرب ص ٢١

(٣٥٥) انظر حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٧

وقد كان العرب قبائل تعتنى كل قبيلة بنسبها وتاريخها وتاريخ العلماء والأفذاذ فيها من الخطباء والشعراء والفرسان وجميع النبغاء فيها • وقد أدى ذلك الى أن البربر فى العصر الاسلامى وصاروا يعتنون كذلك بضبط انسابهم وحاولوا الحاقها بحمير وقد اهتم بذلك القبائل البربرية التى شاركت مشاركة فعالة فى تاريخ الاسلام كقبيلة كتامة وزواوة وعمارة ومقلاطة وهوارة وصنهاجة ومعظم النسابين ينتمون الى قبيلة مطماطة التى يوجد لها جناح بالجنوب التونسى •

وكان بداية الاهتمام بتسجيل النسب البربرى منذ عهد الأغالبة ومن اشهر النسابة المؤرخين للنسب البربرى أبو سهل الفارسى النفوس حفيد الامام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرسمية وقد الف ديوان شعر باللغة البربرية ضمنه تاريخ البربر وحروب الاباضية والسنيين ولكن هذا الديوان أحرق بعضه النكاريون وربما كان موجودا فى عصر ابن خلدون وعنه أخذ أنساب البربر • ومن النسابة خالد بن خداش المطماطى وخليفة بن خياط المطماطى وقد ذكرهما ابن خلدون واعتمد عليهما فيما يتعلق باستيلاء ابى قرة الخارجى على القيروان سنة ١٥٠ هـ •

أما فى العصر الفاطمى فمن اشهر النسابة أبو أيوب بن ابى يزيد مخلد بن كيداد وقد نشأ نشأة مؤرخ نسابة وقد اتصل بأبى يوسف الوراق اكبر مؤرخى العصر الفاطمى وأعطاه نسب أبيه الذى ينتسب الى قبيلة يفرن ومن النسابة فى هذا العصر أبو محمد بن يغنى البرزالى الاباضى وكان فقيها عالما بأنساب البربر وروى عنه ابن حزم فى جمهرته أنساب البربر ومن كان منهم من الاباضية والسنية •

ويذكر الأستاذ الكعاك ان هؤلاء النسابة والمؤرخين فى عصر الأغالبة قد دونوا كتبهم باللغة البربرية وفى العصر الفاطمى جمع الكتاب بين اللغة العربية والبربرية فى مؤلفاتهم وقد ضاعت كتبهم الا انه قد انتفع بها من أتى بعدهم قبل فقدها(٣٥٦) •

(٣٥٦) انظر عثمان الكعاك : ابربر ص ٥٧ ـ ٥٩

ومن هنا نرى الفكر التاريخى فى القيروان قد اهتم بسيرة الرسول ﷺ وقصص الأنبياء وتاريخ الأمم السالفة ومغازى الفتح وتسجيل حياة العلماء كما كان هناك المؤرخون الذين اهتموا بأنساب البربر ٠

٢ ـ الجغــــرافيا :

فى بداية عصر الازدهار لم تكن كتب الجغرافيا الواصفة للبـلاد والطرق وخاصـة المسالك والممالك قد دونت وأن كانت الرحلات الى المشرق للحج والتعلم والتجارة أو الى أرجاء افريقيا التى تربطها بهـا صلات تجارية وكذلك الرحلات الى جزر البحر المتوسط والأندلس وجنوب أوربا كل هـذه الرحلات كانت مستمرة ودائمة ولا تنقطع ولم يذكر لنا علماء الطبقات فى بداية عصر الازدهار من الف فى المسالك والممالك والمسافات والعادات ووصف أحوال البلاد وطبيعتها الجغرافية من أنهار واشـجار ومطاعم وملبوسات وان لم يكن هناك شك بأن هـذه الأمور والأحوال والصفات كانت معروفة لهم لأنهم لا يدرسونها وانما يمارسونها ويلاحظونها اثناء رحلاتهم ٠ كما أننا لا نشك انهم كانوا يروونها ويتحدثون بها عند عودتهم أو الى من يرافقهم فى رحلاتهم المتكررة ٠

وقد سبق أن رأينا كثيرا من العلماء قد قصد الى اقطار كثيرة فى المشرق مصر والشـام والحجاز والعراق بل أن موسى بن معاوية الصمادحى القيروانى المتوفى سنة ٢٢٥ هـ وصل فى رحلته الى خراسان ثم قصد جريرا فى الرى ويسأله جرير أين بلدكم فيقول افريقية فقال افريقية يستعظم ذلك(٣٥٧) ٠ وربما قد كتب هؤلاء الرحالون فى وصف البلاد التى زاروها الا أن كتبهم قد فقدت أوانهم اكتفوا فى هـذه الفترة بالرواية عما يشاهدونه ٠

ولكننا نلاحظ فى العصر الفاطمى فى القيروان فى القرن الرابع أن هناك بعض العلماء الذين الفوا فى المسالك والممالك الا ان كتبهم قد فقدت بعد أن استفاد منها منْ أتى بعدهم فقد الف محمد بن يوسف

---

(٣٥٧) المـالكى زياض ص ٢٩٤ ، ٢٩٦

الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ كتابا ضخما فى مسالك افريقية وممالكها وعنه ينقل البكرى كثيرا فى المسالك والممالك وما ينقله يبين كيف كان الوراق دقيقا فى وصفه مع ملاحظاته للظواهر مثل تعدد الأدوار للبناء وكيفية بنائه ومرابطة النساء وتخصيص اماكن لهن ثم الحمامات والملاحات فقد قال محمد بن يوسف فى وصف محرس المنستير بسوسة « هو قصر كبير عال داخله ربض واسع وفى وسط الربض حصن ثان كبير كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض وفى القبلة منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة ينزل حولها النساء المرابطات تعرف بقباب جامع وبها جامع متقن البناء وهو ازاج معقودة كلها واقباء لا خشب فيها ولها حمامات كثيرة وكان اهل القيروان يخرجون اليهم بالأموال والصدقات الجزلة وبقرب المنستير ملاحة عظيمة تشحن فيها السفن بالملح الى البلاد وبقربه محارس خمسة متقنة البناء معمورة بالصالحين »(٣٥٨) .

وينقل البكرى ايضا فى كتابه عن محمد بن يوسف فى ذكر الساحل من طبرقة الى تونس قوله « مرسى القبة عليه مدينة بنزرت وهى مدينة على البحر يشقها نهر كبير كثير الحوت ويقع فى البحر وعليها سور ضخم وبها جامع وأسواق وحمامات وبساتين وهى أرخص البلاد حوتا »(٣٥٩) وهذا وصف دقيق للموقع والمنتجات والأسعار والأسوار ثم لا ينسى أن يذكر الحمامات والبساتين مما يدلنا على الفكر الجغرافى الوصفى عند الوراق القيروانى .

كما اننا نفهم من الخريطة التى عملت للمعز فى المنصورية معان كثيرة تتعلق بالتقدم فى الفكر الجغرافى فقد بين عليها كافة اقطار العالم ثم الجبال والبحار والأنهار والطرق والمدن .

واذا كانت هذه الخريطة تبين ذلك فان هذا يعطينا المعنى الوصفى

---

(٣٥٨) البكرى المغرب ص ٣٦ ، ٥٣

(٣٥٩) البكرى المغرب ص ٥٧ ، ٥٨

الذى كان يستمد منه صانع الخريطة المعانى الجغرافية التى تتعلق بالأقطار وحدودها والطرق اليها ثم ما فيها من جبال وأنهار ومراسى ثم المدن وما يدور فيها من سكان ومزروعات ومصنوعات وغير ذلك من الأمور التى تتعلق بالجغرافيا يقول المقريزى : « ان الخليفة المعز الفاطمى أمر فى سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التسترى والقرقوبى المنسوج بالذهب كان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة »[٣٦٠] .

وقد نشك فى قوله كافة أقطار العالم الا اذا حددنا ذلك بالعالم المعروف لهم أو ان الكتب التى الفت فى المشرق حول المسالك والممالك تكون قد وصلت اليهم فى القيروان ككتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الموجود فى القرن الثالث الهجرى وكتاب البلدان لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ والذى زار ارمينية وايران والهند ومصر والمغرب ودون نتائج رحلاته فى كتابه . وابو الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ وهو من كبار الرحالة المسلمين وقد زار بلاد الفرس والهند وسرنديب وصحب التجار الى بحار الصين كما زار زنزيار وسواحل افريقية الشرقية والسودان وبحر قزوين وآسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وزار مصر سنة ٣٣٠ هـ[٣٦١] ويذكر ابن النديم أنه الف كتاب ذخائر العلوم وما كان فى سائر الدهور وكتاب التاريخ فى أخبار الأمم من العرب والعجم وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر[٣٦٢] . وكذلك كتاب احسن التقاسيم للمقدس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ .

عند ذلك نصدق قول المقريزى أن الخريطة التى عملت للمعز فى

---

(٣٦٠) انظر حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٤

(٣٦١) انظر زكى محمد حسن الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٣٦ .

(٣٦٢) ابن النديم الفهرست ص ٢٢٥

القيروان كانت تحتوى على كافة اقطار العــالم ثم نتبين المدى البعيد الذى وصل اليه الفكر الجغرافى فى **القيروان** ٠

٣ ـ اجتماع او الوعى الاجتماعى :

عندما نتحدث عن الاجتماع فى القيروان انما نقصد بعض المظاهر الاجتماعية والاشــارة اليها على انها تمثل نوعا من الفكر الاجتماعى والوعى الاجتماعى ٠ وقد اشرنا الى بعض المظاهر الاجتماعية اثنــاء حديثنا عن الحالة الاجتماعية الا اننا ونحن نتحدث عن الفكر الاجتماعى نشير الى انه كان هناك تسجيل لبعض المظاهر الاجتماعية وتفكير فيها مما يدل على عناية بالفكر الاجتماعى وان لم يصل الى درجة التقنين والتقعيــد ٠

فنلاحظ على سبيل المثال ما حدث اثناء عدم انقياد سحنون القاضى فى تصرفه لأوامر الأمير وتفضيله العزل من القضــاء على تنفيذ اوامر الأمير ثم عدول الأمير عما اراده وقوله لابن سحنون الذى جاء يطلب الاستعفاء لأبيه ٠ « اقرأ على أبيك السلام وقل له : جزاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيرا فقد أحسنت أولا وأخيرا » وما ترتب عليه عندما بلغ هــذا القول سحنون وجاء وجوه الناس وأهل الخير يشكرون سحنون على فعله فقال لهم سحنون موجها لهم الى عمل جماعى يكون له اثر فى سياسة الأمير نفسه ثم فى بيان اجتماع الناس ايضا ٠ وليكون ذلك محركا لهم الى الجمع دائما وبيان موقفهم بالنسبة للأمير قال سحنون لهم : « أن الله قد أحب الشكر من عباده فتقدموا الى باب الأمير واشكروه على تأييد الحق ففى ذلك صلاح الخاصة والعامة ففعلوا ذلك »(٣٦٣) ٠

ومما يدل على مراعاة الآداب الاجتماعية بحيث لا يجتمع الشخص بمن لا يحب عند زيارة انسان أو عيادته ما حدث عندما مرض محمد بن سحنون وأراد أبو محمد عبد الله المهرى زيارته الا انه خاف أن يرى

---

(٣٦٣) انظر المــالكى رياض ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

ما يغتم به عنده فقال له سليمان بن سالم : انا احمل عنك المؤونة فمضيا لزيارته فلما كان بالقرب من دار محمد بن سحنون قال سليمان لعبد الله انتظر ثم دخل على محمد بن سحنون فوجد عنده جماعة فقال له فيما بينه وبينه : ان ابا محمد يريد الدخول وانت تعرف احواله فقال له وأين هو ؟ قال قد اقعدته فى القرب فالتفت محمد بن سحنون الى من كان فى البيت فقال لهم : انصرفوا فى عافية . وامر غلامه ان يقف بالباب فلا يدخل احدا . قال سليمان فذهبت الى ابى محمد وصحبته فجاء ودخل ودخلت معه فقعد ما شاء الله ثم انصرف(٣٦٤) .

ويذكر لنا المالكى حادثة تدل على معاكسة الشباب للبنات ثم الحكمة فى التوجيه السليم لهم من الشيوخ بما يؤدى الى صلاح الشباب ونقاء المجتمع من هذا العبث فقد خرج عبد الجبار السرتى من داره يوم الجمعة لصلاة الجمعة فاذا شاب جميل له هيئة ولباس جميل قد اتبع صبية يمشى خلفها فلما رآه عبد الجبار شق عليه ذلك فاتكأ برجله على رجله الأخرى فقطع شسع نعله ثم صاح ياشاب فالتفت الشاب اليه فمشى اليه عبد الجبار قد كبرت سنى وضعف بصرى وقد انقطع شسع نعلى فاصلحه لى فأصلحه له ثم نظر عبد الجبار الى الصبية وقد امسكت فى مشيتها فأخذ النعل من الشاب وادخله فى رجله وتمادى الشاب فى اثر الصبية واتكأ عبد الجبار على نعله ثانية فقطعه ثم صاح ياشاب ياشاب وكانت لعبد الجبار هيبة عظيمة فعاد اليه الشاب فقال له : اصلح النعل يامبارك ما أصلحته جيدا اظنك أصلحته وانت مستعجل فأخذه الشاب واصلحه فعطف عليه عبد الجبار وقال ياشاب انا قطعت النعل فى المرة الأولى والثانية وانما فعلت ذلك اشفاقا عليك ورحمة لك وخفت يابنى على هذا الشباب الصبيح من لفح النار وبكى عبد الجبار وبكى الشاب ثم قال له : جزاك الله خيرا فوالله لا اعود الى ما كان منى ابدا ثم صحب عبد الجبار الى الجامع وتاب وحسنت توبته وانابته وكان من

---

(٣٦٤) انظر ابو العرب طبقات ص ٢١٠

فضلاء أهل وقته ونفعه الله عز وجل بنية عبد الجبار وبتلطفه وترفقه(٣٦٥) .

ونفهم من للحادثة التى وقعت لعبد الله بن طالب القاضى أن طلبة العلم كان لهم زى خاص وسمت خاص يتسمون به فقد قال : كنت يتيما لا أب لى وكنت آتى مع معلمى الخميس والجمعة أحضر حلقة العلم وأنا اذ ذاك صغير ذو جمة فقرىء يوما على سحنون فى الموطأ اسم عمر ابن حسين فى كتاب الزكاة فقال سحنون : هذا كان يشاور فى القضاء أيام مالك ثم قرأ القارىء فبعد قليل قال سحنون : كيف سميت لكم الرجل الذى كان يشاور فى القضاء أيام مالك فقد نسيت اسمه فسكت الناس فقلت له انا من موضعى : هو عمر بن حسين اصلحك الله فقال : بارك الله عليك . أحسنت ياغلام . من هذا الغلام ؟ فعرف بى . قال : أحب ان ارى عليك زى المعلم ما ينبغى ان يمنح هذا العلم من أحد فما أتيت الموعد الآخر الا وقد حلق راسى وكسيت ثياب العلماء(٣٦٦) .

ولقد كان الأمير يشاور وجوه القيروان فيمن يوليه القضاء على القيروان مما يدل على فكر شورى جماعى(٣٦٧) ثم مما يبين ميل الناس واحتفاءهم بمن يولى منصبا دنيويا ما ذكره ابن طالب من أنه دخل مرتين على الأمير وهو يراجعه فى توليته القضاء ولا اهتمام هناك من أحد به ثم رجع الأمير وقبل القضاء وكتب له عهده وأمر له بكسوة وصلة وحملين . قال ابن طالب « وكنت لما دخلت اليه المرتين ما رفع لى أحد راسا فلما وليت وخرجت وجدت أهل الأرض وقوفا ينتظروننى على الباب فعلمت هوى الناس للدنيا »(٣٦٨) .

واذا صح ما يذكره المالكى فى تفويض الأمير ابراهيم بن أحمد

---

(٣٦٥) المالكى رياض ص ٣٦٥

(٣٦٦) انظر المالكى رياض ص ٣٧٧

(٣٦٧) انظر المالكى رياض ص ٣٧٧

(٣٦٨) انظر المالكى رياض ص ٣٧٧ ، ٣٧٨

الى القاضى عبد الله بن طالب النظر فى الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والولاية وأمره بقطع المنكر والملاهى من القيروان . فجعل على اكتاف اليهود والنصارى رقاعا بيضاء فى كل رقعة منها قرد وخنزير وجعل على أبواب دورهم الواحا مسمرة فى الأبواب مصور فيها قردة وضيق على أهل القيروان فى ملاهيهم وملاعبهم(٣٦٩) .

اذا صح هـذا ولم يكن هناك بعض المبالغة منه فاننا بهذا النص يمكن أن نتصور معاملة القاضى لليهود والنصارى وتمييزهم وهو مظهر اجتماعى ؛ ثم انه كان فيها الملاهى والملاعب وهناك الاهتمام بمنع المنكر منها ، كما نلاحظ الاهتمام بتسجيل هذه المظاهر الاجتماعية .

ولعل اليهود والنصارى كانوا يشيعون المنكرات ويحاولون نشر ذلك بين المسلمين فأراد القاضى تمييزهم فى ملابسهم وبيوتهم اشـارة الى مخالفتهم للمسلمين فى العقيدة حتى لا يغتر بهم المسلمون فيقلدونهم فيما يقومون به من اعمال تخالف الشرع الحنيف .

ومن المظاهر الاجتماعية التى مارسوها وسجلوها : جمع العلماء بين العلم والمرابطة والجهاد كأسد بن الفرات الذى تولى قيادة الحملة لفتح صقلية وكثير من العلماء الزهاد الصالحين كان يميل الى المرابطة والدفاع عن حوذة البلاد فى المحارس التى كانت تنتشر على الساحل بل تعدى الأمر الى مشاركة النسـاء للرجال فى الرباط واذا كانت المرأة تشارك الرجل فى هـذا الميدان فهو دليل على المشاركة الفعلية فى كافة ميادين الحيـاة العملية وقد سـبق أن ذكرنا أثنـاء حديثنا عن الحالة الاجتماعية ان بينا مشاركة المرأة للرجل فى العمل وذلك بالغزل فى المنازل وعمل الكاغد(٣٧٠) . كما أن من المظاهر الاجتماعية التى يمكن ملاحظتها مقاومتهم للظلم اذا صدر من الوالى أو أعوانه وعدم رضوخهم لهذا الظلم ومحاولتهم رفعه سواء بالشكاوى الجماعية أو بالتذمر فقد

---

(٣٦٩) المرجع السابق ص ٣٨١

(٣٧٠) المرجع السابق ص ٣٤٨ ، البكرى المغرب ص ٣٦

تصدى جماعة من أهل القيروان بالنساء والذرية لأبى القاسم الفاطمى وشكوا اليه سر جور أبى سعيد واصحاب المحارس ووصفوا افسادهم واغارتهم على أموالهم فاستأذن لهم على أبيه فادخلوا كافة وشكوا اليه بما شكوا به الى أبى القاسم وأبو سعيد جالس عنده فحلف لهم عبيد الله أنه ما علم بظلمهم وأمرهم بالانصراف ووعدهم بالانصاف وأمر أبا سعيد برفع كاتبه وقوم من أصحاب المحارس اليه فحبسهم عبيد الله وأطلق كاتبه(٣٧١) .

كما يذكر لنا ابن عذارى غلاء سعر الحاجيات فى القيروان فى سنة ٣١٦ هـ فاذا كانت السنة التالية زاد غلاء سعر الأشياء حتى كان قفيز القمح بالكيل القرطبى بمثقال من الذهب كما حدث وباء عظيم ويبدو أن ذلك كان ناتجا عن قحط حل بالقيروان فعندما نزلت الأمطار فى العام التالى سنة ٣١٨ هـ صلحت الأحوال ورخصت الأسعار وذهب الوباء وحل الرخاء(٣٧٢) .

وهكذا نرى علماء القيروان وان لم يكن لهم تقنين للفكر الاجتماعى كما حدث بعد ذلك عند ابن خلدون فى مقدمته الا أن المظاهر الاجتماعية التى سجلوها تدل على وعى بالفكر الاجتماعى فى القيروان كما بدا لنا من هذا العرف .

٤ ـ التربيـــــة :

نقصد بالتربية هنا النظرات التربوية التى يمكن أن نتلمسها من الحياة التعليمية والارشادات التى كانت توجه فى حقل الحياة التعليمية فيتضح لنا مستوى الفكر التربوى فى القيروان ومدى ما وصل اليه .

ولا شك اننا قد لمسنا فى مدارس الدعاة للمذهب الشيعى بعض المبادىء التربوية التى كانت يجب أن يتحلى بها الدعاة والوصايا التى

---

(٣٧١) انظر ابن عذارى البيان جـ ١ ص١٨٦

(٣٧٢) انظر المرجع السابق ص ١٩٣ ـ ١٩٥

كان يطلب منهم ان يتصفو بها ويلتزموا نهجها فى نشرهم لمبادئهم وفى قراءتنا لكتب الطبقات نلمس بعض الآراء التربوية فمن ذلك :

ملاحظة سحنون بأن من الأطفال من يؤدب بالقول الجميل وبالمدح لا بالذم وان منهم من يؤدب بالضرب والتعنيف وأن ابنه من النوع الدى يؤدب بلطيف الكلام يقول لمعلمه لا تؤدبه الا بالمدح ولطيف الكلام ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف فانى أرجو أن يكون نسيج وحده وفريد اهله وانركه على نحلتى واخاف أن يكون عمره نصيرا[٣٧٣] .

وكان من الآراء التربوية التى يسيرون عليها أن يراعى حال السامع فلا يقال له شىء لا يستطيع أن يدركه خاصة اذا كان فى العقائد فـان ذلك يؤدى الى فتنة فقد حدث ان كان عند البهلول رجل عليه لباس حسن وهيئة فقال له البهلول : احب ان تذكر لى ما يحتمل به القدرية فسكت الرجل حتى تفرق الناس ثم قال له : يا أبا عمرو انك سألتنى عما تحتج به القدرية وهو كلام تصحبه الشياطين لأنه سلاح من سلاحهم فذكره بمزينه فى قلوب العـامة وفى مجلسك من لا يفهم ما أتكلم به من ذلك فلا آمن أن يحلو بقلبه منه شىء فيقول سمعت هـذا الكلام فى مجلس البهلول فقال له : والله لأقبلن رأسك أحييتنى أحياك الله[٣٧٤] ويبدو أن محمـد بن سحنون عندما الف « كتابه فى المعلمين »[٣٧٥] لم يراع هـذه النظرية وذلك قال ابو اسحاق الجبنيانى وكان يعلم القرآن للصبية فى نقد كتاب محمد بن سحنون رحم الله محمد بن سحنون لو علم لرفق بالمتعلمين يريد لأنه هدد عليهم فى كتابه[٣٧٦] . وهو يريد تعليم الأولاد لأن محمدا قد جلس فى حلقة ابيه بعد وفاته وكان يعلم فى حياته الا انه لم يشتغل بتعليم الصبية الذين تظهر فيهم هذه الفروق بوضوح .

---

(٣٧٣) المـالكى رياض ص ٣٤٥

(٣٧٤) المرجع السابق ص ١٣٤

(٣٧٥) عياض المدارك جـ ٣ ص ١٠٦

(٣٧٦) المرجع السابق ص ٥١٥ ، ٥١٦

وممن الف فى التربية من اهل القيروان أبو الحسن على بن محمد ابن خلف المعافرى المعروف بابن القابسى القيروانى الف رسالة مفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين وقد راعى فيها المعلم والمتعلم(٣٧٧) ٠

وكان الجنيانى يوصى باختيار المعلم الصالح او بمعنى اخر أن يكون المعلم حسن الاعتقاد حسن الأخلاق متسما بالعفاف ويضرب لذلك المثل فى النتائج فيقول : لا تعلموا أولادكم الا عند رجل حسن الدين فدين الصبى على دين معلمه فلقد عرفت معلما كان يخفى القول بخلق القرآن ففطن له فلما علم انه يطرد وقف بين يدى مكتبه وقال لصبيانه : ما تقولون فى القرآن ؟ قالوا لا علم لنا ٠ فقال هو مخلوق ولا تزالون عن هـذا القول لو فتلتم فماتوا كلهم على هـذا الاعتقاد ٠ قال وبلغنا عن معلم عفيف رئى وهو يدعو حول الكعبة ويقول : اللهم ايما غلام علمته فاجعله فى عبادك الصالحين فبلغنى انه تخرج على يديه نحوا من نسعين عالم وصالح(٣٧٨) ٠

ومن هذه النظرية كانوا يرون مسئولية الأستاذ عن تلميذه عندما تعتريه مشكلة نفسية أو نازع شهوانى يجعله يلهو أو يقصر فى الدراسة أو ينقطع عنها فيحاول الأستاذ معالجة ذلك واصلاح ما أعوج من التلميذ ٠ فقد كان عند البهلول شاب يطلب عليه العلم ثم اقبل على المجانة فاعلم البهلول بذلك فساءه ما بلغه فبينما هو جالس يوما اذ خطر به الشاب وتحت ثوبه طنبور فقيل للبهلول : انظر أصلحك الله اليه والى ما تحت ثوبه فتامله البهلول فعرف تصديق ما قالوا فقال للقائل لعله انما ذهب ليكسره فلما كان بعد ذلك بقريب مضى البهلول بنفسه الى دار الشاب فقرع الباب فقالت له أمه : من هـذا ؟ فقال لها : بهلول ٠ فقالت له ما تريد ؟ قال : ولدك ٠ فلم يزل به حتى خرج عليه الشاب فسلم البهلول عليه وقال له : يا ابن أخى مالك انشغلت عنا ؟ أكل هذا زهادة منك

---

(٣٧٧) انظر الدباغ معالم ج ٣ ص ١٧٠

(٣٧٨) عياض المدارك ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٦

فى الخير ؟ وأخذ يعظه ويرفق به ويتعاهده بذلك حتى رجع الفتى عما كان عليه من المجانة وعاود مجلس البهلول وكان له شأن نفعه الله تعالى ببهلول وصحبته[٣٧٩].

وكانوا لا يرون الحياة بالنسبة للصبيان دراسة كلها بل اللعب حق لهم أيضا وهو دليل على صحتهم فقد سأل عبد الله بن محمد البغدادى معتب بن أبى الأزهر قائلا ما حال صبيانكم ؟ قال : ولع كثير . قال : ان لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمائم . يريد انه لا يكسرهم من اللعب الا المرض[٣٨٠] وان كان المنجى الكعبى فى حديثه عن حياة القزاز القيروانى يذكر الجد الذى كان يؤخذ به عندما يستيقظ عند الفجر ليتوجه الى المكتب القريب من بيته ليمضى شطرا من النهار بين يدى المعلم الذى يحفظه القرآن ويعلمه الخط والكتابة ومبادىء الحساب فاذا ما حان وقت الزوال عاد الى منزله وقد أخذ منه الاعياء مأخذه فيتناول طعامه ويأخذ قسطا من الراحة واللعب ليستأنف الدراسة بعد الظهيرة الى قريب من الغروب ثم يأخذ عطلته الاسبوعية ظهر الخميس ليستأنف الدراسة يوم السبت فاذا ما حفظ القرآن اقيمت له حفلة بهيجة لختم القرآن يسر بها أسرة التلميذ ومعلمه[٣٨١].

وقد كان الآباء أيضا يهتمون بمعرفة أحوال الأبناء ويسالونهم عن مستواهم الدراسى ويناقشونهم خاصة اذا كانوا من العلماء . وكانوا يكافئون معلمى أبنائهم مكافآت جزيلة فقد دخل على عبد الله بن غانم ابنه وقد انصرف من المكتب فسأله عن سورته فقال الصبى حولنى المعلم من سورة « الحمد » فقال له اقرأها فقرأها فقال له تهجها قال فتهجاها فاعطاه ما يقارب عشرين دينارا فحملها الى معلمه فانكر المعلم ذلك واتى بها الى ابن غانم وأخبره أن الصبى أتاه بها فقال له ابن غانم

---

(٣٧٩) انظر المالكى رياض ص ١٣٨ ، ١٣٩

(٣٨٠) انظر عياض المدارك جـ ٣ ص ١٢٧

(٣٨١) القزاز القيروانى المنجى الكعبى ص ١٦

كالمعتذر « لم يحضرني غيرها يا معلم » اتدرى ما علمته ؟ علمته « الحمد لله رب العالمين » لحرف واحد مما علمته خير من الدنيا وما فيها[٣٨٢] .

وبعد أن ينتهى الصبى من ختم القرآن يواصل الدراسة بعد ذلك فى حلقات المسجد حول سوارى الجامع الكبير بالقيروان حيث التخصصات فى الشريعة أو اللغة والأدب وغيرها من العلوم .

وكان مما يسلكونه فى طرق التدريس القاء الأسئلة للاجابة عنها فاذا ما أشكلت المسألة على الطلبة بينها لهم الاستاذ ذكر عياض ان حماسا القاضى قال : كان ابن عبدوس يلقى علينا المسائل . فاذا اشكلت شرحها فلا يزال يفسرها حتى نفهمها فيسر بذلك وأن لم يرنا فهمنا غمه[٣٨٣] .

وكان ابو محمد بن أبى زيد يفتتح مجلسه بجواب سؤال السائلين عن غوامض المسائل ودقائقها وربما قال حدثتنى نفسى أن فى هذا المجلس كذا وكذا سؤالا فأيكم صاحب سؤال كذا فيقول بعض الحاضرين انا فيجيب[٣٨٤] .

ولا شك أن هذا من طرق التدريس الناجحة التى كان يطبقها ذلك الشيخ فى درسه ويوضح بعض الطرق التربوية التى كان يسير عليها العلماء فى القيروان .

وكان من رأيهم فى التربية أن يتلقى الطالب العلم على أستاذ ولذلك كانوا يهتمون بذكر الأساتذة الذين تلقوا عليهم ويرون من يتفقه أو يتعلم بنفسه من غير التلقى على أستاذ يعد عيبا فيه ولذلك عندما انكر أحمد بن نصر الداودى على معاصريه من علماء القيروان سكناهم فى مملكة

---

(٣٨٢) انظر المالكى رياض ص ١٤٥ ، ١٤٦

(٣٨٣) عياض المدارك ج ٣ ص ١٣٠

(٣٨٤) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٤٤

بنى عبيد وبقاءهم بين أظهرهم وأنه كتب اليهم مرة بذلك فأجابوه : اسكت لا شيخ لك . اى لأن درسه كان وحده ولم يتفقه فى أكثر علمه عند امام مشهور وانما وصل الى ما وصل بادراكه يشيرون الى انه لو كان له شيخ يفقهه حقيقة الفقه لعلم أن بقاءهم مع من هناك من عامة المسلمين تثبيت لهم على الاسلام ولو خرج العلماء من القيروان لاعتنق مذهب الشيعة الآلاف فرجحوا خير الشرين[٣٨٥] .

كما تتسم الحركة التربوية بأنها لم تكن قاصرة على الكتاتيب والحلقات فى المساجد بل كان الاثرياء والامراء يحضرون المعلمين لابنائهم فى منازلهم حيث يحيطون بالعلوم السائدة فى ذلك العصر وكانوا يجزلون الأموال لأولئك المعلمين حتى أنه روى عن يحيى بن عمر أنه أنفق فى طلب العلم ستة آلاف دينار[٣٨٦] .

كما ان نظرتهم التربوية لم تكن تقصر التعليم على الذكور بل كان الاناث أيضا يتعلمون وقد برع من النساء خديجة بنت سحنون التى برعت فى الفقه وتلقته من أبيها كما كان هناك الشاعرات كمهرية بنت الحسن بن غلبون[٣٨٧] .

ومن نظراتهم التربوية اباحة التعليم لكل راغب فى العلم دون التقيد بسن أو بتسجيل للتلاميذ فالتعليم للجميع وليست المحاضرات والدروس قاصرة على الطلبة المنتظمين بل الحلقات مباحة الحضور لجميع من يودون الاستماع اليها من الشباب أو الشيوخ .

وكان من نظراتهم التربوية توفير الجو الملائم للطلاب الغرباء وهم بعيدون عن ديارهم وأهلهم فكانوا يعدون بجوار الاماكن التى خصصت

---

(٣٨٥) المدارك عياض جـ ٤ ص ٦٢٣

(٣٨٦) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٥٨

(٣٨٧) انظر بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٣٦

لتلقى الدروس أماكن اخرى يسكن فيها الطلاب الغرباء ليكون ذلك أعون لهم على دراستهم[٣٨٨] .

ومما يلفت انظارنا عنايتهم بالتربية الجنسية أو بتعبير آخر المحافظة على الطالب من الناحية الجنسية ورعاية حاجته من هذه الناحية بطريق شرعى ولا شك أن ذلك يعتبر تقدما تربويا لم نصل نحن بعد اليه واذكر هذه الحادثة التى يرويها الدباغ وهى من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تعليق لبيان ما تحمله من القيم التربوية الجنسية التى تشير اليها والتى تبين لنا عدم اغفالهم للحاجات التى يحتاجها الطالب عدى العلم والطعام والمسكن .

فقد ذكر الدباغ أن بعض طلبة الاندلس قدم على أبى محمد عبد الله بن أبى زيد القيروانى للقراءة عليه فاكرمه وأنزله وأجرى عليه ما يحتاج اليه من نفقة وجعله امام مسجده فبينما هو ذات يوم خارج من داره الى الصلاة وكانت داره التى أنزله فيها مجاورة للمسجد فى قبالة حمام أبى محمد اذ نظر الى أمراة خارجة من الحمام وقد كشفت عن وجهها لما نالها من حر الحمام ولم تظن ان أحدا ينظر اليها فلما رأته سترت وجهها وانصرفت فقيدت بصره وأخذت من نفسه مأخذا عظيما فتبعها الى أن دخلت دار الفقيه أبى محمد بن أبى زيد والفقيه محمد ينظر اليه فى تلك الحالة فلما رآه ينظر اليه سقط ما فى يده وداخله من الحياء والخجل ما لا مزيد عليه ورجع الى داره حزينا كئيبا فلما تأخر عن الصلاة أتاه المؤذن يؤذنه بها وأعلمه أن الشيخ أبا محمد بعث اليه فاتى وصلى بالناس ثم أخذ الفقيه معه فى المذاكرة والمؤانسة الى أن صلى العشاء الآخرة فقال له أبو محمد انصرف الى دارك حتى أصل اليك فلم يشك أنه يقول له فى ذلك وظن سوءا وعاد اليه حزنه وكآبته فلما وصل الى داره لم يجلس الا وابو محمد

(٣٨٨) انظر دكتور احمد شلبى الفكر الاسلامى منابعة وآثاره ص ٦٠

فى أثره فقال له يابنى انما جئت لك معتذرا من تقصيرى فى حقك اذ لم أقم بجميع ما تحتاج اليـه وذلك انى لم أتفقد أنك تحتاج الى النسـاء فانك شـاب وها أنا شـيخ أحتاج الى الزيادة من ذلك فكيف أنت ؟ وأما الصبية التى رأيتها خارجـة من الحمام فاننى ربيتها صغيرة لنفسى وهى لك وما أخرتها لهذا الوقت الا أنهم فى الدار من ذلك الحين يصلحون من شـأنها فلم يبرح حتى وصلت الصبية بجميع ما تحتاج اليـه من ثياب وحلى وفرش وتركها فى منزله وانصرف بعد ان عقد له النكاح عليها(٣٨٩) .

وهذا يوضح بجلاء مقدار فهمهم لحاجة الطالب والمطالب التى يجب توفيرها له بما يضمن له نموا تربويا صحيحا ونضجا كاملا بعيدا عن أى تقصير يؤدى الى عدم تفوقه فى دراسـته .

ونختم الحديث عن الافكار التربوية بذكر الآداب التى كانوا يرون وجوب تحلى طالب العلم بها قبـل التعلم وبعد التعلم قال أبو جعفر أحمد بن أبى سليمان فيما أوصى به طالب العلم : يا طالب العلم اذا طلبت العلم فاتخذ له قبل طلبه أدبا تسـتعين به على طلبه واتخذ له بعد طلبه أدبا تستعين به على حمله . ومن آداب العلم الحلم وكظم الغيظ وان يغلب علمك وحلمك هواك اذا دعاك الى ما يشينك . وعليك بالوقار والتعفف والرزانة والصيانة والصمت والسمت الحسن والتودد الى الناس ومجانبة من لا خير فيه والجلوس مع الفقهاء ومحبة الاخيار ومنابذة الاشرار والقول الحسن فى اخوانك والكف عمن ظلمك ولا تهمز أحدا بقول ولا تلمزه ولا تقل فيـه ولو كان عدوك فان فعلت ذلك شرفت عند العقلاء وعرفت حقك الجلسـاء ولحقت بالعلماء وهابك السـفهاء وحللت محل الأبرار وبرئت من الاشرار . فافهم وتفهم واستعن بالله يعنك الله(٣٩٠) .

ولا شك أن ذلك رقى تربوى ما زلنا نحن فى حاجة الى أن نسـير عليـه بعد مضى عشرة قرون .

---

(٣٨٩) انظر الدباغ معالم ج ٣ ١٤١ ، ١٤٢

(٣٩٠) المـالكى رياض ص ٤٠٨

٥ ـ الترجمـــة :

لم تمدنا المصادر بأسانيد كثيرة تبين لنا بوضوح مدى الترجمـــة وبدايتها والمشتغلين فيها بيانا كاملا او تذكر بالتفصيل الكتب التى ترجمت وتطور كل ذلك وما ترتب عليه الا أن الاخبار المتفرقة هنا وهناك والقليل من أسماء المترجمين . والمتناثر من الحوادث فى ثنايا كتب الطبقـــات تعطينا العلامات أو الاشـارات الدالة على وجود الترجمـة فى القيروان وعلى وجـود اللغات التى كان يعرفها ويتكلم بها بعض ســكان القيروان أو بمعنى آخر بعض الافراد فى القيروان وذلك يضـع أمامنا صـورة مصغرة لمـا كان يجرى فى ذلك الوقت بالنسـبة للترجمة واذا ما عثر على بعض المصـادر الكثيرة المفقودة فى تاريخ القيروان فسـوف يظهر لنـا بوضوح مدى ما وصلت اليه الترجمة فى القيروان .

ولا شـك أنه عندما يعثر على مثل هذه الكتب سـوف يكون الضوء ســاطعا لبيان المدى الذى وصلت اليه ـ وان كانت الاشــارات التى وردت والنتائج التى ترتبت عليها وخاصـة فى الناحية الطبية كما سيتبين لنـا عنـد الحديث عن الطب فى القيروان ـ فاذا ما أضفنا الى ذلك الصـلات الوثيقة التى كانت للقيروان بصقلية حيث بدأت تبسـط سلطانا عليها سنة ٢١٢ هـ وعلى غيرها من جزر البحر المتوسـط ، ثم الصـــلات العدائية الطويلة المدى بين حكام القيروان وحكام ايطاليا وجنوب فرنسـا والسـفارات التى كانت تقوم بينهم فأن كل ذلك بلا ريب قد أدى الى وجود نوع من المحاولة لمعرفة كل طرف للغة الآخر ومعرفة اللغة تؤدى الى معرفة الفكر والحضـارة والعلوم المختلفة بما يؤدى الى ازدهار للترجمة وتقدم لها .

وقد ذكر المـالكى ما حدث فى مسـجد القيروان من نقاش ومحاكمة لعبد الله بن أحمد بن طالب القاضى المعزول وكيف رد حمديس القطان على الامير بقوله : أمر الله فوق أمر الامير فقام اليه « بلاغ » الخــادم

مغضبا ليهم به « فكلمة الامير بالصقلية فانكف »[٣٩١] ومعنى هذا أن الامير يعرف الصقلية وان فى بلاطه وفى رجال دولته من يعرف هـــذه اللغة • كما يذكر الدباغ حادثة اخرى يتحدث فيها الامير بالصقلية الى خادمه فى بعض المناقشـات[٣٩٢] •

ويفيدنا صـاحب الورقات أن ثلاثة من أمراء الاغالبة وهم ابراهيم الاصغر وابنه عبد الله الثانى وزيادة الله الأخير كانوا يجيدون اللســان اللاتينى وقـد تعلموا ذلك عندما كانوا يتولون ولاية صقلية • وان الروح التى لمسـت فى الامير ابراهيم بن أحمد بن الاغلب من ميله للمناقشـة بين العلماء وفى تعلمه اللغة اللاتينية والصـقلية قد دعته بلا شـك الى تخير بعض المصنفات اللاتينية فى العلوم الرياضية التى اطلع عليها ثم كلف بعض المتعلمين من الصقليين الذين يعرفون اللغة العربية بترجمتها مع مراجعتها ممن يحذق العربية من علماء القيروان ليعم نفعها •

وقد ذكر حسن الوزانى فى رحلته أنه رأى فى تونس ترجمة كتاب بلينـــــوس (plenus) الرومانى فى علم النبات باللغة العربية وقـــد نقل عن هـــذا الكتاب العشابون المغاربة ولم تقع ترجمة هذا الكتــاب بالاندلس فى مدة عبد الرحمن الثالث ولا فى أيام ابنه الحكم الثانى مما يؤيد أنه ترجم فى القيروان •

وقد عثر فى المكتبة العتيقة المحفوظة فى جامع عقبة بالقيروان على نسـخة من ترجمة عربية لكتاب « تاريخ الأمم القديمة » نســب وضعــه الى القديس المسـيحى برونيم الرومانى ولاثانى لهذه النسـخة وقد رسـم على هوامشــها بعض كلمات بالحروف اللاتينية منها تسـمية المؤلف أن (برونيم)[٣٩٣] •

---

(٣٩١) انظر المـالكى رياض ص ٣٨٦ ، ٣٨٧

(٣٩٢) الدباغ جـ ٢ ص ٢١٨

(٣٩٣) حسن حسنى ـ الورقات ص ٢٠٠ ، ٢٠٣

ولقد ازدهرت حركة الترجمة عندما أسس ابراهيم بن أحمد بيت الحكمة واستقدم من صقلية جماعة من القسيسين ليقوموا بترجمة المؤلفات اليونانية واللاتينية فى شتى الموضوعات من فلسفة وتاريخ وجغرافيا وطب ونبات ، كما أرسل الى الفسطاط ودمشق وبغداد لاستقدام علماء مختصين من أطباء فلكيين وغيرهم وكان لهم اثر كبير فى رقى الترجمة ووصول ترجمة الكتب المختلفة الى القيروان[٣٩٤] .

ويفيدنا الأستاذ الكعاك بأن كتاب العشريات فى تاريخ الرومانيين للمؤرخ الرومانى طيطس ليوشى قد قام بترجمته بعض المترجمين ببيت الحكمة بالقيروان فى القرن الثالث من اللاتينية الى العربية وهو أحد مصادر ابن خلدون فى بعض الأقوال[٣٩٥] .

وممن ولد فى القيروان فى أواخر القرن الثالث الهجرى واتقن اللغة العربية والعبرية وتفقه فى الشريعة الموسوية أبو سهل دونش بن تميم ويلقب بالشفلجى الاسرائيلى وتعلم على علماء القيروان فى الطب والحساب والنجوم وقد الف كتاب المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية وبين المشابهة القوية الموجودة بين اللسانين العربى والعبرى وهو مكتوب بالعربية ويتخلله كلمات بالعبرية[٩٣٦] .

وكما قامت حركة الترجمة بالنقل من اليونانية واللاتينية والعبرية الى العربية فقد قام المترجمون كذلك بالنقل من العربية الى غيرها من اللغات ويذكر صاحب الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض وصاحب الورقات أن جماعة من المترجمين القيروانيين انتقلوا الى ايطاليا ونقلوا اليها كتب ابن الجزار الطبيب من العربية الى اللاتينية ومن هؤلاء المترجمين قسطنطين بن محمد القيروانى ويحيى بن افلح ويحيى السراج

---

(٣٩٤) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٦ ، ٣٢٥

(٣٩٥) انظر عثمان الكعاك كتاب البربر ص ٣٦

(٣٩٦) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٩٧

الذين قاموا بترجمة الكتب العلمية من طبية وصيدلية ونباتية ورياضية الى اللغة اللاتينية وقد ترجم قسطنطين الافريقى لاسحاق بن سليمان الطبيب القيروانى كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب العناصر وكتاب الحدود والرسوم ومعها سبع مقالات اخرى وترجم كتاب الملاتخوليا للطبيب اسحاق بن عمران وكتاب زاد المسافر وقوت الحاضر للطبيب احمد بن الجزار القيروانى كما ترجم مصنفات اخرى من غير الطب مثل كتاب البارع فى الفلك والنجوم والكتاب الملوكى لعلى بن العباس وغير ذلك من الكتب فى العلوم المختلفة وقد ترجم زاد المسافر الى اليونانية واللاتينية والعبرية وأخيرا الى الفرنسية(٣٩٧) ٠

وبهذا يتبين لنا رغم قلة حديث المصادر عن الترجمة المدى البعيد الذي وصلت اليه الترجمة فى القيروان وقد استمرت حركة الترجمة تنمو وتزدهر خلال العصر الفاطمى واكبر شاهد على ذلك ما ذكر عن المعز لدين الله من انه كان يجيد غير اللغة العربية اللغات البربرية والسودانية واللاتينية والاسبانية والصقلبية(٣٩٨) ٠

٦ ـ العلوم الطبيعية أو علوم الأوائل :

نقصد بالعلوم الطبيعية العلوم التى تتصل بالحياة العملية كالطب والصيدلة والطبيعة والكيمياء وعلوم الزراعة والرياضة والفلك والنجوم ٠ وقد ابتدأ بعضها فى القيروان فى منتصف القرن الثانى ثم أخذ فى النمو والازدهار بحيث استطاع أن يقوم علماء كل علم بدور فكرى خصب وأن يؤدى بكل منهم واجبه فى رقى الحياة والمساعدة على تقدمها ٠

---

(٣٩٧) عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ١١٦ ، ١١٧ ، الورقات حسن حسنى ص ٢١١ ، ٣٠٧

(٣٩٨) المقريزى اتعاظ الحنفاء ص ٦٥ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٣ ، المعز لدين الله حسن ابراهيم ص ٢٢٣ ، الورقات حسن حسنى ص ٨٨

(ا) الطب والصيدلة :

اشرنا فى ختام بداية الحياة الفكرية الى وجود يوحنا المتطبب لدى يزيد بن حاتم وكان قد تعلم فى بيمارستان جند نيسابور فى العراق وقد اقام مدة فى القيروان(٣٩٩) وربما قد تعلم عليه بعض ابناء القيروان الا أن المصادر تصمت فلا تحدثنا عن الأطباء بعده الى ان ينتصف القرن الثالث الهجرى ٠

وعندما يتأسس بيت الحكمة(٤٠٠) يستقدم الأطباء من المشرق فنجد عددا من الأطباء الذين يمارسون الطب والصيدلة كما نجد الحديث عن المستشفيات (مستشفى الدمنة ودار الجذماء) وليس معنى الصمت الذى تلوذ به المراجع عن الفترة الماضية خلوها من الاطباء ومن العناية بالمرضى وانما قد يكون من يهتم بالطب عدد قليل فأهمله المؤرخون او انهم تحدثوا عنهم فى الكتب المفقودة التى لم تصل الينا ٠

ويشير المؤرخون الى ان البداية الحقيقية للفكر الطبى فى القيروان قد بدات على يدى الطبيب المشهور ٠

١ ـ اسحاق بن عمران الملقب بسم ساعة :

وهو طبيب بغدادى تعلم فى بغداد وبرع فى الطب حتى اشتهر بسم ساعة لما يظهر من سرعة تاثير الادوية التى كان يصنعها للمرضى وقد استقدم الى القيروان وقام بنشر الطب فيها حيث تلقى عليه عدد من ابناء القيروان الطب والفلسفة وكان طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الادوية المركبة بصيرا بتفرقة العلل أشبه الأوائل فى علمه وجودة

(٣٩٩) حسن حسنى الورقات ص ٢٧٠

(٤٠٠) بيت الحكمة : معهد للعلم والترجمة ودراسة الرياضيات والطب والصيدلة وبه مكتبة للدراسة والمطالعة ومحل لنسخ الكتب ومقابلتها انشأه ابراهيم بن الأغلب سنة ٢٦٢ ـ ٢٨٩ هـ ٠ انظر الورقات حسن حسنى ٢٦ ، ٩٧ وهذه تونس لحبيب تامر ص ١٢ ، ١٣

قريحته . وممن برع من تلاميذه فى القيروان زياد بن خلدون واسحاق ابن سليمان الاسرائيلى الوافد من مصر وابو بكر محمد بن الجزار وغيرهم(٤٠١) .

وقد الف وهو فى القيروان عدة كتب فى الطب هى :

١ ـ كتاب فى المالنخوليا وهو الموجود من كتبه فى مكتبة ميونخ ولم يسبق الى مثله(٤٠٢) .

٢ ـ كتاب الأدوية المفردة .

٣ ـ كتاب العنصر والتمام فى الطب فى مقالة فى الاستسقاء .

٤ ـ مقالة وجيزة كتب بها الى سعيد بن توفيل المتطبب فى الابانة عن الأشياء التى يقال انها تشفى الاسقام وفيها يكون البرء مما أراد اتحافه به من نوادر الطب ولطائف الحكمة .

٥ ـ كتاب نزهة النفس .

٦ ـ كتاب فى الفصد .

٧ ـ كتاب فى النبض .

٨ ـ مقالة فى علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته وهى الرسالة التى كتب بها الى العباس وكيل ابراهيم بن الاغلب .

٩ ـ كتاب فى البول من كلام ابقراط وجالينوس وغيرهما .

١٠ ـ كتاب جمع اقاويل جالنيوس فى الشراب .

١١ ـ مسائل له مجموعة فى الشراب على معنى ما ذهب اليه ابقراط وجالينوس فى المقالة الثالثة من كتاب تدبير الأمراض الحادة

---

(٤٠١) ابن جلجل طبقات الأطباء ص ٨٤ ، ٨٥ ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء جـ ٢ ص ٣٥ ، حسن حسنى الورقات ص ٢٣٣

(٤٠٢) ابن جلجل طبقات الأطباء ص ٨٥ ، ٨٦

وما ذكر فيها من الخير كلام له فى بياض المدة ورسوب البول وبياض المنى(٤٠٣) .

وقد حدث سوء تفاهم بين زيادة الله بن الاغلب آخر أمراء الاغالب وبين اسحاق بن عمران أدى الى قتله سنة ٢٩٤ هـ بعد أن ادى واجبه فى نشر الطب وتعليمه فى القيروان وفى قيام المدرسة الطبية بها(٤٠٤) .

٢ ـ اسحاق بن سليمان الاسرائيلى :

حمل راية الفكر الطبى بعد اسحق بن عمران فى القيروان وهو من اهل مصر وكان كحالا فى بدايته اى يهتم بأمراض العيون ثم سكن القيروان وتتلمذ على اسحاق بن عمران وبرع فى الطب والف فيه كتبا كان يعتز بها ويراها انها تخلد ذكره أكثر من الولد لانه لم يتخذ زوجة وقد عمر اكثر من مائة عام وتوفى قريبا من سنة ٣٢٠ هـ بعد أن عاصر الأغالبة والفاطميين وقد الف كتبا فى الطب والمنطق وقال عنه ابن جلجل له تواليف لم يسبقه احد الى مثل بعضها ومنها(٤٠٥) :

١ ـ كتاب الحميات خمس مقالات ولا يوجد كتاب فى معناه اجود منه وقال عنه على بن رضوان الطبيب « ان هذا الكتاب نافع وجدع رجل فاضل وقد عملت بكثير مما فيه فوجدته لا مزيد عليه وبالله التوفيق والمعونة » وتوجد من هذا الكتاب نسخة بمكتبة أحمد الثالث استنابول .

٢ ـ كتاب الادوية المفردة والاغذية ومنه نسخة بمكتبة الفاتح فى مجلدين مكتوبة سنة ٧٠٩ هـ .

---

(٤٠٣) انظر المرجع السابق ص ٨٥ ، ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء جـ ٢ ص ٣٦

(٤٠٤) انظر اخبار وفاته فى طبقات الأطباء لابن جلجل ص ٨٥

(٤٠٥) ابن جلجل طبقات ص ٨٧ ، ابن أبى أصيبعة عيون الانباء جـ ٢ ص ٣٦ ، ٣٧

٣ ـ كتاب البول قال عنه ابن جلجل اشبع كتاب الفه مؤلف بذ فيه جميع المتقدمين وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ٠

٤ ـ كتاب الاسطقسات ٠
٥ ـ كتاب الحدود والرسوم ٠
٦ ـ كتاب بستان الحكمة وفيه مسائل من العلم الالهى ٠
٧ ـ كتاب المدخل الى المنطق ٠
٨ ـ كتاب المدخل الى صناعة الطب ٠
٩ ـ كتاب النبض ٠
١٠ ـ كتاب الترياق ٠
١١ ـ كتاب فى الحكمة(٤٠٦) ٠

وقد ذكر الدباغ اثناء ترجمة بعض الفقهاء من اهل القيروان الاشارة الى اشتغالهم بالطب كقوله عن يحيى بن عمر المتوفى سنة ٢٨٩هـ أنه كان فقيه البدن يريد انه كان طبيبا وقال عن على بن ظفر انه يعرف الطب كما يذكر من فقهاء البدن محمد بن فرج البنامولى بنى الاغلب توفى سنة ٣٠٣ هـ وابا عبد الرحمن بن دحمان وموسى بن عبد الرحمن القطان توفى سنة ٣٠٦ هـ ونصر بن فتح التسورى توفى سنة ٣٠٦ هـ(٤٠٧) كما يذكر ابن عذارى فى سنة ٣٠٧ هـ(٤٠٨) وفاة جماعة من الأطباء مما يدل على وجود عدد غير قليل من الاطباء فى القيروان كما يقول أبو العرب فى ترجمته لسحنون أنه فقيه البدن(٤٠٩) ٠ ومن اشتهر بالطب وكان يعالج الامراء والرؤساء كما يزور المرضى فى المشافى زياد بن خلفون الذى تتلمذ على اسحاق بن عمران وكان من عادته أن يزور مرضى مستشفى الدمنة

---

(٤٠٦) انظر نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ٠
(٤٠٧) انظر الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٥٩ ، ١٧٦ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤
(٤٠٨) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٨٣
(٤٠٨) أبو العرب طبقات ص ١٨٤

فى ايام معينة من الأسبوع كما يزور المرضى بدار الجذماء وقال عنه البكرى « كان زياد بن خلفون المتطبب اذا خرج من القيروان يريد مدينة رقادة وحاذى باب اصرم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء برأسه كالمتداوى »(٤١٠) وهو ممن اشتغل بالطب فى نهاية الدولة الأغلبية ثم خدم المهدى مدة عشر سنوات الى ان اغتاله بعض حاسديه فى القيروان سنة ٣٠٨هـ وقال عنه ابن عذارى « كان زياد بن خلفون عالما بالطب حسن الذهن فيه وكان عبيد الله قد احتاج الى زياد فقربه من نفسه(٤١١) وقد هال المهدى خبر مقتله وتأسف عليه كثيرا(٤١٢) ومن الأطباء الذين ظهروا فى العهد الفاطمى موسى بن العزار الذى برع فى الطب ومهر فى معالجة أمراض العيون فى القيروان وكانت له مكانة عند المعز لدين الله وقد انتقل معه الى مصر حيث أدركته الوفاة سنة ٣٦٣ هـ وقد الف كتبا منها :

١ ـ الكتاب المعزى فى الطبيخ ٠

٢ ـ كتاب السعال وهو مقالة أجاب بها سؤالا عرضه عليه احد الباحثين عن حقائق العلوم ٠

٣ ـ كتاب الاقرباذين « أى الصيدلة » ٠

وقد انجب ابناء تعلموا عليه وبرعوا فى الطب واشتغلوا به والتحقوا بخدمة المعز ايضا وهم عون الله بن موسى واسحاق بن موسى واسماعيل بن موسى وحفيده يعقوب بن اسحاق بن موسى(٤١٣) ٠

وممن أشتهر فى القيروان بطب العيون اعين بن اعين وكان فى أيام المعز لدين الله الفاطمى وحاز سبقا ومهارة فى معالجة الرمد المزمن

---

(٤١٠) البكرى المغرب ص ٢٤

(٤١١) ابن عذارى البيان جـ ١ ص ١٨٣

(٤١٢) حسن حسنى الورقات ص ٢٤١

(٤١٣) انظر حسن حسنى الورقات ص ٣٠١ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٢

وشـــفى على يديه عـــدد كبير من المصابين به مثـل الشريف أحمـد ابن عوانة وابنه وشيخ المـالكية عبد الله بن أبى زيد الفقيه • وقد انتقل مع المعز الى مصر واستقر بها وله ذكر جميل بها وحسن معالجة لأهلها وتوفى سنة ٣٨٥ هـ وقد ألف كتاب أمراض العين ومداواتها وكتـــاب كنابش فى الطب(٤١٤) •

وعلى رأس من نبغ من أبناء القيروان فى الطب •

٣ ـ أحمد بن ابراهيم الجزار :

ولد بالقيروان سنة ٢٨٥ هـ من أسرة اشتغلت بالطب واشتهرت به فكان أبوه طبيبا وكان عمه أبو بكر طبيبا وقـد تلقى عليهما العلوم الطبيـة كما تتلمذ على اسحاق بن سليمان واستفاد من علمه وخبرته • وقد برع فى الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ ووصفه ابن جلجل بأنه من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم •

وكانت له عيادة للمرضى جعلها فى مكان مستقل بجوار بيته كما خصص قسما للصيدلة أجلس فيه غلامه رشيقا وأعد له الأدوية من معجونات وأشربة ومراهم وغير ذلك من الادوية فاذا فحص هو المريض وشخص العلاج تحول المريض الى رشيق ليأخذ منه العلاج وكان يراقب الصيدلية كل يوم ليكمل ما ينقصها •

وكان له سمت خاص يسير عليه فلم يخلد الى لذة ولم يرتكب زلة وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها ولا يذهب الى الرؤساء والحكام مع عنايته بالفقراء فيحسن اليهم ويداويهم بدون أجر تقربا الى الله وقد أكسبه ذلك منزلة عالية فى القيروان وقد تلقى الطب عنه عدة تلاميذ من أشهرهم أبو حفص عمر بن بريق الاندلسى فقد لازمه فى القيروان مـدة وروى عنه مؤلفاته ثم عاد الى الأندلس والتحق بخدمة الأمراء الأمويين

---

(٤١٤) انظر حسن حسنى الورقات.ص ٣٠٥

وخاصة الخليفة عبد الرحمن الناصر وقد نشر تلميذه ابو حفص كتبه فى الأندلس حيث ترجمت الى لغات عدة .

وقد الف ابن الجزار كتبا عدة فى الطب والتاريخ والجغرافيا والادب وغيره ذكر منها ابن أبى أصيبعة اثنين وعشرين مؤلفا واوصلها الأستاذ حسن حسنى الى سبعة وثلاثين مؤلفا ومنها فى الطب :

١ ـ زاد المسافر وقوت الحاضر : وهو من أهم الكتب الطبية التى ألفها المسلمون ويوجد منه نسخ فى مكتبة الشعب بباريس وفى الجزائر والمانيا الغربية وأكسفورد والهند وهولندا وقد ترجم الى اللاتينية فى أواسط القرن الخامس الهجرى كما ترجم الى اليونانية ويوجد منه نسخ بمكتبة الفاتيكان فى روما كما نقل هذا الكتاب الى العبرية .

٢ ـ كتاب العدة لطول المدة .

٣ ـ كتاب الاعتماد فى الادوية المفردة ويوجد بالجزائر والمتحف البريطانى وترجم الى اللاتينية والعبرية .

٤ ـ كتاب البغية .

٥ ـ نصائح الأبرار .

٦ ـ قوت المقيم .

٧ ـ المعدة وأمراضها ومداواتها .

٨ ـ أصول الطب .

٩ ـ مجربات فى الطب .

١٠ ـ المختبرات .

١١ ـ البلغة فى حفظ الصحة .

١٢ ـ الفرق بين العلل التى تشتبه أسبابها وتختلف اعراضها .

١٣ ـ ابدال الأدوية رسالة موجودة بمجموعة طبية فى خزانة السيد أحمد خيرى بك بالبحيرة بمصر .

١٤ ـ التحذير من اخراج الدم من غير حاجة دعت الى اخراجه .

١٥ ـ طب الفقراء والمساكين موجود فى مكتبة السيد عبد الحى الكتانى بفاس وترجم قديما الى العبرية ٠

١٦ ـ النصح جمع فيه أدوية الملوك والخواص ٠

١٧ ـ طب المشايخ : عالج فيه الحالات التى تعترى المسنين والمعمرين وهو موجود فى مجموع طبى مخطوط محفوظ فى مكتبة السيد أحمد خيرى بك بالبحيرة بمصر ٠

١٨ ـ سياسة الصبيان وتدبيرهم ٠

١٩ ـ الخواص وقد ترجم قديما الى العبرية ٠

٢٠ ـ الزكام ٠ أسبابه وعلاجه ٠

٢١ ـ الجذام ٠ أسبابه وعلاجه ٠

٢٢ ـ الوباء ونعت الأسباب المولدة له فى مصر وطريق الحيلة فى دفع وعلاج ما يتخوف منه ٠

٢٣ ـ المقعدة وأوجاعها رسالة ٠

٢٤ ـ الحمامات منافعها ومضارها مقالة ٠

٢٥ ـ اسباب الوفاة رسالة ٠

ثم ذكر له الأستاذ حسن حسنى علاوة على ذلك خمسة كتب فى التاريخ والجغرافيا وسبعة كتب فى الأدب وغيره واذا كان ابن الجزار قد الف هذه المجموعة فى الطب وغيره بما يدل على علو كعبه وتفوقه فقد كانت له مكتبة ضخمة يملكها ويرجع اليها قدرت بخمسة وعشرين قنطارا من كتب طبية وغيرها ٠ مما يدل على اهتمامه بالقراءة والاطلاع وتسجيل تجاربه حتى وصل الى ما وصل اليه مما يجعله فى المغرب يعادل الفارابى وابن سينا فى المشرق ٠ ومع كثرة مساعدته للفقراء ومداواته لهم مجانا فقد وجد له بعد وفاته أربعة وعشرون الف دينار عدا الكتب مما يدل على شهرته والأجر الذى كان يتقاضاه وقد استمر يؤدى واجبه الى أن أدركته الوفاة سنة ٣٦٩ هـ[٤١٥] ٠

(٤١٥) انظر ابن جلجل طبقات ص ٨٨ ـ ٩٠ ، ابن ابى اصيبعة عيون الأنباء جـ ٢ ص ٣٨ ، ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢٣٧ ، حسن حسنى الورقات ص ٣٠٦ ـ ٣٢٢

وبهذا العرف يتبين لنا الفكر الطبى والصيدلى فى القيروان وكيف كان يدرس الطب نظريا وعمليا فقد كان الطلبة يتمرنون فى المارستانات (المشافى) وكانوا يتخصصون فى الأمراض الباطنية والجراحية ثم الكحالون الذين كانوا يعالجون أمراض العيون • وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملما باللغات الأجنبية وبخاصة السريانية واليونانية بجانب معرفة الطب • كما يذكر المؤرخون أن الأطباء كانوا يزورون مستشفى الدمنة للكشف على المصابين وتتبع سير مرضهم وعاهاتهم وكان يشرف عليها مسئولون عنها يسهرون على نظامها وعلى راحة المقيمين فيها كما كان هناك نساء زنجيات من السودان يخدمن المرضى ويقمن بشئونهن فى الغرف وخارجها •

وعند رحيل المعز الى مصر اصطحب معه بعض الأطباء من القيروان الى القاهرة مما يدل على تقدم الفكر الطبى فى القيروان(٤١٦) •

(ب) الرياضة والفلك :

لقد أشرنا فى حديثنا عن تأسيس القيروان الى المبانى والمنشآت :

الحربية والدينية والمعمارية فيها مما يدل على تقدم العلوم الهندسية أو الفكر الهندسى وخاصة المعمارى وهو فكر عملى لا يزال شاهد عيان الى الآن فى مسجد القيروان والآثار الباقية فى القيروان منذ ذلك العصر من المواجل والفسقيات والحصون الحربية بالاضافة الى ان سفن الاسطول التى كانت تمخر عباب البحر والآلات الحربية التى كانت تستخدم آنذاك • كل ذلك يدل على وجود هندسة المبانى وبناء السفن والآلات الحربية وان لم يكن ذلك بالمستوى الموجود الآن الا أن ذلك كان بمستوى يتفق والحضارة الموجودة آنذاك •

---

(٤١٦) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٧٧ ، حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠١ ، أحمد شوكت الطب عند العرب ص ١٢٦ ــ ١٣١

كما كان هناك عناية بالحساب وبحركة الأفلاك والنجوم وتحديد الأوقات وخاصة أوقات الصلاة وقد درس هذه العلوم بعض الراحلين الى المشرق وبعد أن تاسس بيت الحكمة واستقدم له العلماء من المشرق درست هـذه العلوم فى القيروان على أيدى بعض الأطباء الذين سبق ذكرهم وقد كانوا يحيطون بالرياضة والفلك الى جانب الطب والصيدلة وممن رحل الى المشرق من أهل القيروان ودرس الفلك والتنجيم وعند عودته الحقه ابراهيم بن الأغلب ببيت الحكمة اسماعيل بن يوسف الذى قال عنه الزبيدى « أنه كان غاية فى علم النجامة » الا أننا نلاحظ كثرة ميله الى الاشتغال بالكيمياء ٠ وممن غلب عليه الاشتغال بالرياضة والفلك والف فى ذلك بعض المؤلفات :

١ ـ أبو سهل (دونش) أدنيم بن تميم ويلقب بالشفلجى :

وقد ولد بالقيروان فى أواخر القرن الثالث الهجرى وتلقى العلم على الطبيب اسحاق بن سليمان وتخرج عليه فى الطب والفلسفة والحساب والنجوم ٠ بل درس الديانة الموسوية وبرع فيها حتى صار اليهود فى الأندلس ومصر والعراق يستفتونه فى ديانتهم وخاصة فى حساب مواقيت اعيادهم ومعرفة سنى تاريخهم ٠

وقد عمـل دونش فى خـدمة الفاطميين أيام خـلافة المنصـور والمعز لدين الله والف كثيرا من الكتب فى الحساب والنجوم والطب ، بل الف كذلك فى اللغة وفى العقيدة اليهودية ٠

ومن المؤلفات التى الفها دونش فى هذه العلوم المتعددة :

١ ـ كتاب فى الحساب الهندى المعروف بحساب الغبار وهو من اقدم المؤلفات فى الموضوع ٠

٢ ـ كتاب فى الفلك وحركة الكواكب كتبه الى صديقه أبى يوسف حسداى طبيب الأمير الحكم بقرطبة وفيه تعديل السنين الشمسية بحساب الشـهور القمرية ٠

٣ ـ مصنفا كبير فى علم الفلك قدمه لى مخدومه المنصور بن القائم الخليفة الفاطمى ٠

٤ ـ كتاب التلخيص فى الأدوية المقررة وفى آخر هذا الكتاب بيان للأوزان والمكاييل المستعملة فى المادة الطبية فى زمانة ٠

٥ ـ المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية ٠

٦ ـ شرح على سفر يصيرا اى سفر التكوين وأصله محرر باللغة العربية الفصحى ثم نقل الى العبرية وهو موجود فى عدة مكتبات فى أوربا ولا اثر للأصل العربى اليوم ٠

ويذكر الأستاذ حسن حسنى أن له عدة رسائل محفوظة فى المكتبة البودليه باكسفورد وكلها ترجمت الى العبرية وبقيت لغتها المكتوبة فيها هى العربية وهى كتاب المستلحق ٠ رسالة التنبيه ورسالة التسوية ورسالة التقريب والتسهيل ورسالة اللمع ورسالة الأصول ٠

وقد أدركته الوفاة بالقيروان فى حدود عام ٣٦٠ هـ(٤١٧) ٠

وممن برع فى الفلك نسيم بن يعقوب القيروانى الذى تتلمذ على اسحاق بن سليمان وادنيم بن تميم وقد فاق معظم اقرانه الذين كانوا يتلقون العلم معه خاصة فى علم الهيئة وحركة الكواكب وقد بلغت شهرته وتفوقه الى العراق والأندلس فكان يهود العراق فى المشرق ويهود الأندلس فى المغرب يستفتونه فى توقيت مواسمهم الدينية اذ لم يكن بينهم من هو أعلم منه بهذا الشأن(٤١٨) ٠

وكان ابراهيم بن الأغلب يرسل السفراء لاستقدام العلماء المتخصصين من العراق ومن مصر ويبذل الأموال الكثيرة فى سبيل ذلك كما كان

---

(٤١٧) انظر حسن حسنى الورقات ص ٢٩٧

(٤١٨) المرجع السابق ص ٢٦

يوصى سفراءه بشراء مؤلفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الأمير بها خاصة •

وكان يوجد فى بعض قاعات بيت الحكمة دواليب تحفظ فيها الآلات الفلكية لحساب سير الكواكب ورصدها كالاسطرلابات والمفتطرات والجيوب وما يشابهها من أدوات البحث وتحقيق الأوقات وضبط الأطوال والعروض مما يستعمل فى علمى الفلك والتنجيم • وقد كان التنجيم وهو الرغبة فى استكشاف المغيبات مما يستهوى قديما ميول الرؤساء والكبراء وشغل ملوك المسلمين وغير المسلمين بالسواء(٤١٩) •

ويخبرنا ابن عذارى بأن احمد بن زياد الفارسى صاحب الوثائق بالقيروان والمتوفى سنة ٣١٩ هـ له كتب فى الوثائق والشروط وفى مواقيت الصلاة(٤٢٠) • كما يذكر القاضى عياض أن عبد الله بن أبى القاسم بن مسرور التجيبى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ الف كتبا كثيرة فى أنواع العلوم منها :

كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان(٤٢١) •

(جـ) الكيميــــاء :

اشارات قليلة نجدها عند قراءتنا للمصادر القديمة توضح لنا الاشتغال بالكيمياء وان كان ذلك قدرا ضئيلا وممن اشتغل بالكيمياء واهتم بهـا اسماعيل بن يوسف الذى ولد فى القيروان فى أواسط القرن الهجرى وقرأ فيها مبادىء العـلوم ثم رحل فى طلب العلم الى مصر والشـام والعراق وفى بغداد اتصل بمعمل كيميائى مشهور بتحضير مواد التجميل للنسـاء البغداديات وكان يسمى آنذاك بالطلاء وبعد ان اكتسب خبرة منه وحذق صنعة الكيمياء واطلع على غامض أسرارها قدم الى القيروان ونقل ما تعلمه الى القيروان وقد نال حظوة عند الأمير ابراهيم بن الأغلب

---

(٤١٩) حسن حسنى الورقات ص ١٩٦ ، ١٩٧ •

(٤٢٠) ابن عذارى البيان المغرب جـ ١ ص ٢٠٤ •

(٤٢١) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٤٢

وبعد قيام الدولة الفاطمية اشتغل فترة بتحضير الطلاء للسيدات فى القيروان ثم رحل الى قرطبة لاتهام الفاطميين له بعمل الدنانير والدراهم الزائفة وربما عمل هناك فى تحضير المواد الكيمائية والارتزاق من بيعها الى أن ادركته الوفاة فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى[٤٢٢] .

ويذكر الدباغ أنه كان فى القيروان من يشتغل بالكيمياء وان بعض الفقهاء قد فهم من الكيمياء تحضير الذهب حتى انهم نظروا فى حل ذلك وحرمته وبحثوا الحكم بين الذهب المتحصل من الكيمياء والذهب الابريز . وكان البعض يقول ان عملها لا يجوز لأن من يدفع له من ذهبها شىء لو علمه ما قبله وقد وجد فى تركة أبى عمران الفاسى (الكبريت الأحمر) ولما مات محمد بن أبى زيد وجد فى تركته آلتها[٤٢٣] (اى الكيمياء) مما يدل على اهتمام العلماء واشتغالهم بها .

ونجد فى ترجمة محمد بن حارث الخشنى أنه قد تعلم على أحمد ابن يوسف فى القيروان وأنه كان حكيما يعمل بالادهان ويتصرف فى الأعمال اللطيفة وكان يتعاطى صنعة الكيمياء[٤٢٤] .

ومما يدل على وجود الكيمياء فى القيروان والعناية بها هو الوصول الى التأليف فى بعض فروعها ومن ذلك كتاب العطر الذى الفه أحمد ابن الجزار وذكره ضمن كتاب طب المشايخ . وقد خصصه لصناعة الروائح السارية وطرق تقطيرها من النباتات والعقاقير التى يستخرج منها[٤٢٥] .

٧ ـ التأليف والمكتبات :

(أ) التأليف :

ان الحصيلة الحقيقية للحركة الفكرية فى القيروان والتصوير

---

(٤٢٢) حسن حسنى الورقات ص ١٠٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤

(٤٢٣) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٠١ ـ ١٠٣

(٤٢٤) عياض المدارك ج ٣ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ ولعله يقصد اسماعيل ابن يوسف .

(٤٢٥) حسن حسنى الورقات ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢

الصحيح لهـا انما يكون امرا واقعا ونتاجا ثابتا اصيل الجـذور باسق الأغصان ناضج الثمار عندما يتحول الى النشـاط التاليفى الذى يتمثل فى الكتابة فى شتى موضوعات الفكر التى ملأ فراغها الفكر القيروانى ٠

فلقد توجت هـذه النهضة الفكرية فى جميع العلوم والتقدم فيها بتسجيل الحياة الفكرية والتاليف فيها وزخرت القيروان بالمؤلفات الكثيرة المتعددة التى الفها العلماء فى القيروان ٠

وقد أسهب المؤرخون فى بيان الكتب التى الفها علماء القيروان فى شتى الموضـوعات على مدى العصر الذى ندرسه ٠ ومازال بعض نتاجها الفكرى يرجع اليه الآن ٠ وان كانت يد الدهر وأحداث الزمن قد عبثت بالكثير مما كتب فى ذلك العصر ٠ وأصبح الكثير مما الف فى فروع العلم المختلفة لا نسمع الا عن اسـمه أو عما بقى من ترجمته أو نقرأ بعض الاقتباسات عند المؤلفين الذين أتوا بعد هـذا العصر ونقلوا من مؤلفاته المفقودة الآن ٠

ونحن عندما نطالع كتب الطبقات نجد حصيلة من المؤلفات التى الفت فى القيروان من رجالها وعلمائها فى شتى العلوم فهناك ما يحدثنا به الدباغ من أن أسد بن الفرات كان يغدو على ابن القاسم كل يوم فيسأله ويجيب ابن القاسم حتى دون سبعين كتابا وسـماها الأسدية وقدم بها القيروان(٤٢٦) ٠

كمـا يذكر عياض أن سحنون صنف المدونة وعليها يعتمـد اهل القيروان(٤٢٧) ٠

ويفيدنا المـالكى عن محمد بن سحنون بأنه لم يكن فى عصره احد أجمع لفنون العلم منه الف فى جميع ذلك كتبا تنتهى الى نحو مائتى

---

(٤٢٦) الدباغ معالم ج ٢ ص ٨

(٤٢٧) عياض المدارك ج ٢ ص ٥٩٢

كتاب فى جميع العلوم وفى المغازى والتواريخ[٤٢٨] . وقد ذكرنا تفصيل كتبه اثناء الحديث عنه .

ويخبرنا عياض عن المؤلفين ومؤلفاتهم فيذكر موسى بن معاوية الصمادحى وتأليفه لكتاب الزهد وكتاب مواعظ الحسن محمد بن رشيد مولى عبد السلام بن مفرج الربعى القائد[٤٢٩] ومحمد بن عبدوس الذى الف كتابا شريفا سماه المجموعة على مذهب مالك واصحابه وكتاب التفاسير وله كتب فسر فيها اصولا من العلم كتفسير كتاب المرابحة وتفسير كتاب الشفعة وكتاب الدور وله ايضا اربعة اجزاء فى شرح مسائل المدونة وكتاب فضائل مالك وكتاب مجالس مالك أربعة اجزاء[٤٣٠] .

ونجد لعبد الله بن طالب كتابا فى الرد على من خالف مالكا وثلاثة اجزاء من اماليه وله تاليف فى الرد على المخالفين من الكوفيين وعلى الشافعى[٤٣١] . والف محمد بن سليمان القطان تاليف فى الفقه وتعرف كتبه بالكتب السليمانية[٤٣٢] اما يحيى بن عمر بن يوسف فله مصنفات منها كتاب الصراط وكتاب الميزان وكتاب النظر الى الله عز وجل وكتاب يرد فيه على الشافعى وكتاب اختصار المستخرجة المسمى بالمنتخبة وكتاب اختلاف ابن القاسم واشهب وكتاب أحمية الحصون وكتاب فضل الوضوء والصلاة وكتاب النساء وكتاب الرد على الشكوكية وكتاب الرد على المرجئة وكتاب فضل المنستير والرباط[٤٣٣] كما الف أخوه محمد بن عمر كتابا فى أكرية السفن[٤٣٤] .

---

(٤٢٨) المالكى رياض ص ٣٤٥

(٤٢٩) عياض المدارك جـ ٣ ص ٨

(٤٣٠) المرجع السابق ص ١٢٠ ، ١٢١

(٤٣١) المرجع السابق ص ١٩٥ ، ١٩٦

(٤٣٢) المرجع السابق ص ٢٣٤ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٣٦

(٤٣٣) عياض المدارك جـ ٣ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٦٣

(٤٣٤) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٤٢

اما أبو عثمان سعيد بن الحداد فله تآليف كثيرة منها كتاب ايضاح المشكل وكتاب المقالات رد فيه على أهل المذاهب أجمعين وكتاب الاستيعاب وكتاب الامالى وكتاب عصمة النبيين وكتاب العبادة الكبرى والصغرى وكتاب الاستواء(٤٣٥) .

وقد ألف أبو بكر بن اللباد كتاب الطهارة وكتاب عصمة النبيين صلى الله وسلم عليهم أجمعين وهو كتاب اثبات الحجة فى بيان العصمة وكتاب فضائل مالك وكتاب الآثار والفرائد عشرة أجزاء(٤٣٦) كما نجد لأبى الفضل الممسى تآليف كتاب فى تحريم المسكر ناقض به كتاب الطحاوى وألف أيضا كتابا فى قبول الأعمال وكتاب اختصار لكتاب محمد بن المواز(٤٣٧) . وقد سبق أن ذكرنا الكتب التى ألفها محمد بن أبى زيد وأبو العرب تميم . أما على بن محمد المعافرى المعروف بابن القابسى فقد ذكر له تآليف بديعة مفيدة ككتابه . المهذب فى الفقه وأحكام الديانة وكتاب المنقذ من شبه التأويل وكتابه المنبه للفطن من غوائل الفتن ، والرسالة المعظمة لأحوال المتقين وأحكام المتعلمين والمعلمين وكتاب الاعتقادات ، وكتاب مناسك الحج ، وكتاب الذكر والدعاء ، ورسالة كشف المقالة فى التربية وكتاب ملخص الموطأ ، وكتاب رتب العلم وأحوال أهله وكتاب أحمية الحصون ورسالة تزكية الشهود وتجريحهم ورسالة فى الورع(٤٣٨) .

ويفيدنا المالكى أنهم ألفوا فى كثير من الفنون حتى فى كيفية صرف النقود للصرافين فكان هناك كتاب الصرف الذى طلب القاضى عبد الله بن طالب من الصرافين الا يصرفوا حتى ينظروا فى كتاب الصرف(٤٣٩) كما يذكر ابن عذارى أن أحمد بن زياد الفارسى المتوفى

(٤٣٥) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٢٠٢

(٤٣٦) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦

(٤٣٧) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١٤

(٤٣٨) المرجع السابق ص ٦١٨ ، ٦١٩

(٤٣٩) انظر المالكى رياض ص ٤٠٨

سنة ٣١٩ هـ الف كتبا فى الوثائق والشروط وفى مواقيت الصلاة[٤٤٠] .

وكان الأمراء والخلفاء يشجعون التاليف ويقترحونه على العلماء فنرى المعز لدين الله يقترح على النعمان قاضيه تاليف كتاب دعائم الاسلام[٤٤١] كما يقترح على القزاز القيروانى تاليف كتاب الحروف لشرح الحروف التى ذكر النحاة انها جاءت لمعنى[٤٤٢] وغير ذلك من الكتب التى كان يطلب من العلماء التاليف فيها مع منحهم العطايا الجزيلة تشجيعا لهم .

وقد ذكرنا اثناء حديثنا عن العلوم المختلفة وترجمة بعض النبغاء الذين برزوا فيها كثيرا من كتبهم التى الفوها فى العلوم الشرعية وفى اللغة والأدب وفى العلوم العقلية وفى الطب والصيدلة والرياضة والفلك فلا حاجة لذكرها ثانيا .

وهذا قل من كثير يوضح لنا الحركة التاليفية الضخمة التى قامت بها القيروان خلال فترة البحث وهى تعبير أصدق تعبير عن النمو الثقافى والازدهار الفكرى فى القيروان وتجلى لنا الحياة الفكرية فيها وتنوعها .

(ب) ثم ياتى دور المكتبات :

وعندما ننظر الى وجود الكتاب فى القيروان نجد انه بدا بداية متواضعة ثم تطور الحركة الفكرية ففى البداية كانت الكتب قلة تشتمل على آثار الصحابة والتابعين وتسجيل الآثار التى تروى عنهم وعندما بدات الرحلة الى المشرق اخذ العلماء الراحلون الى المشرق يدونون سماعهم عن العلماء الذين يتعلمون عليهم ثم يحضرون تلك المرويات القيروان لتكون نواة اخرى تضاف الى النواة السابقة فى وجود الكتاب فى القيروان كما ان هؤلاء الرواد الأوائل حاولوا لحرصهم على المعرفة

---

(٤٤١) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٧٥

(٤٤٢) المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٤٥

أن يحضروا معهم ما يستطيعون أن يحضروه الى القيروان من الكتب المؤلفة فى المشرق ٠

وعندما بدأ الفكر يؤتى ثماره ونشطت حركة التأليف فى العلوم المختلفة كانت المؤلفات القيروانية رافدا خصبا وعينا ثرة أمدت المكتبة بالمدد الذى لا ينفذ ٠ وبتنوع العلوم تعددت الموضوعات فى المكتبة وقد سبق أن ذكرنا عددا غير قليل من المؤلفات التى الفت فى القيروان والتى لا شك أن المكتبات فى القيروان قد ضمتها الى مذخوراتها ٠

وكان تأسيس بيت الحكمة خطوة عملية من الحكام نحو تنشيط الوعى المكتبى ولم يكتف فيه بالمؤلفات التى الفت فى القيروان ٠ بل ان ابراهيم بن الأغلب كان يمد البعثة التى يرسلها الى دار الخلافة فى بغداد بالأموال ويكلفها بشراء نفائس الكتب التى توجد فى بغداد مما لا نظير له فى القيروان وخاصة الكتب العلمية لا سيما مؤلفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الأمير بها خاصة كما كانت تشترى الكتب النادرة من دمشق والفسطاط ٠

وكانت مكتبة بيت الحكمة تتفتح أبوابها للدارسين والمطالعين ولمن يريد نسخ الكتب أو مقابلتها على الأصول المعتمدة وكان ابراهيم بن الأغلب يكلف كبار العلماء بتصحيح مخطوطات المكتبة وتفسير مفرداتها ولا زال فى المكتبة العتيقة التى كانت بجامع عقبة نماذج من العصر الأغلبى توضح ذلك(٤٤٣) ٠

ومما ساعد على كثرة الكتب رغم عدم ابتكار المطابع ما كان يتسم به المرابطون على الثغور من نسخ للكتب بالمجان مما أدى الى كثرة وجود المخطوطات وسهل على المتعلمين وجود الكتب بالاضافة الى

---

(٤٤٣) انظر الورقات حسن حسنى ص ١٩٦ ، ٣٢٥

تعلم القيروانيين لصناعة ورق الكافد الذى لا تزال نماذج قيمة منه موجودة فى المكتبة العتيقة التى كانت بجامع القيروان(٤٤٤) .

وكانت الترجمة من اللغات المختلفة الى العربية من العوامل المهمة التى امدت المكتبة فى القيروان بمادة خصبة وزودتها بعلوم السابقين من تاريخ وجغرافيا وطب ونبات وغيرها من العلوم التى اشرنا اليها اثناء حديثنا عن الترجمة ونصل الى انه كان يوجد ببيت الحكمة كتب عربية وكتب غير عربية ترجمت الى العربية .

وقد ورث الفاطميون بيت الحكمة بكتبه المختلفة ونظامه الدقيق ولا شك أنهم قد اضافوا اليه معارفهم والكتب المؤلفة على مذهبهم او مما أهدى اليهم وربما قل اهتمامهم بالكتب المؤلفة على غير مذهبهم . ولكن عند انتقالهم الى القاهرة نقلوا بيت الحكمة أو بالأحرى الكتب الثمينة التى كان يحتوى عليها الى القاهرة وقد نمت المكتبة المنقولة وتضاعفت حتى كانت ايام العزيز الفاطمى تحتوى على نحو مليون من كتب الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجابة والروحانية وسائر العلوم القديمة(٤٤٥) .

وبجانب هذه المكتبة الحكومية العامة كانت هناك خزانات الكتب التى توضع فى المساجد وتوقف على طلبه العلم وقد اوقف عبد الله بن هاشم بن مسرور التجيبى ثلث مكتبته التى كانت تزن سبعة قناطير كتب على طلاب العلم وما زال بعض الأجزاء من ذلك الثلث الموقوف موجودا فى مكتبة جامع القيروان وعلى غالبها خط ابن أبى زيد وغيره(٤٤٦) .

---

(٤٤٤) انظر عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ٦١ ، حسن حسنى الورقات ص ٢٠٧

(٤٤٥) انظر جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٦٩

(٤٤٦) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣٤١ ، حسن حسنى ورقات ص ٣٤٠ ، المنجى الكعبى القزاز ص ١٨

كما يذكر الفاضل بن عاشور أن بالمكتبة العتيقة بجامع عقبة بن نافع بالقيروان قطعة فريدة من موطأ على بن زياد من رواية موسى الصمادحى[٤٤٧] وان بقاء قطعة من موطأ مالك منذ ذلك الحين لدليل على الاعتناء بالمكتبات رغم مرور الايام وتوالى الأحداث • وأثناء رحلتى الى القيروان وجدت أن المكتبة العتيقة بالقيروان قد نقلت الى دار الكتب الوطنية فى مدينة تونس • وعندما التقيت بالأستاذ حسين ماجول أمين قسم المخطوطات بدار الكتب الوطنية بتونس أخبرنى أن نقل المكتبة العتيقة من القيروان الى تونس • انما هو نقل مؤقت الى حين بناء مكتبة ومتحف عقبة بن نافع بجوار المسجد الجامع بالقيروان فتنقل اليها المكتبة ثانيا •

والكتب الموجودة من المكتبة العتيقة تشمل أربعة انواع :

النوع الأول :

قطع مفككة ولكنها مجنسة لخطوط كوفية وفيها أوراق لمصحف مكتوب بماء الذهب •

النوع الثانى :

أسفار علمية من أمهات كتب المذهب المالكى كالمدونة والمختلطة والواضحة والموازية والعتبية وفيها قطع من جامع عبد الله بن وهب ومن الموطأ (رواية سحنون عن ابن القاسم) وقطعة من الموطأ رواية على بن زياد التونسى وهو اول من أدخل الموطأ الى افريقية وأجزاء عديدة من تفسير يحيى بن سلام ومن كتاب التصاريف فيما اتفق لفظه واختلف معناه من كلام الله عز وجل ليحيى الحفيد ومن بينها مختصرات لابن أبى زيد ومؤلفات له •

ويوجد بها سفران أحدهما من كتاب المبسوط والثانى أسئلة فقهية كلاهما رواية أسد بن الفرات عن محمد بن الحسن فى الفقه الحنفى •

---

(٤٤٧) الفاضل بن عاشور أعلام الافكر الاسلامى ص ٢٥

وأسـفار قليلة فى اللغة والجدل كلها بالخط الكوفى والنسخى وعلى هذه الأسـفار سـماعات وخطوط لكثير من علماء القيروان مع ملاحظة أنه لا يوجـد من بين هـذه الأسـفار الا أسـفار التفسير والفقـه والردود العقائدية وقليل من العربية .

النوع الثالث :

عقود بالشهادات العادلة فى المعـاملات بين الأفراد أو فى بعض التحابيس أو من عقود الزواج ومعظمها على الرق بالخط النسـخى المشرقى .

النوع الرابع :

أوراق منفصلة من أصول ضائعة أصابها شىء من التخريق أو الترهل وقد حفظت كل ورقة منها مع ما يقاربها .

وفى نهاية البحث أوردنا ملحقا ذكرت فيه قائمة بأسماء كتب المكتبة العتيقة بالقيروان حسب ترقيمها بأرقام مسلسلة(٤٤٨) .

وقد ذكر لنـا المؤرخون أخبارا متفرقة عن وجود المكتبات الخاصة لدى العلماء وهى توضـح لنا العناية الفردية بالكتاب والمكتبات وتصور لنا الوعى المكتبى آنذاك حيث نجد أن كتب أبى العرب تميم بلغت ثلاثة آلاف وخمسـمائة كتابا كلها بخط يده(٤٤٩) . وأن عبد الله بن هاشـم التجيبى اقتنى كتبا كثيرة من جميع العلوم وزنها سـبعة قناطير كلهـا بخط يده(٤٥٠) .

وبلغ من شغفهم بجمع الكتب ما يذكر من أن أبا جعفر أحمد بن محمـد القصرى كان يقول : لى أربعون سـنة ما جف لى قلم من كثرة

---

(٤٤٨) انظر الملحق عن سـجل مخطوطات مكتبـة القيروان العتيقة .

(٤٤٩) الدباغ معالم جـ ٣ ص ٤٣

(٤٥٠) المرجع السـابق ص ٧١

نسخة للكتب وقد ذهب مرة الى سوسة لزيارة شيخه يحيى بن عمر فوجده ألف كتابا فلم يجد ما يشترى به رقا يكتبه فيه فباع قميصه الذى كان عليه واشترى بثمنه رقوقا وكتب الكتاب وقابله وأتى به الى القيروان[٤٥١] ٠

ويذكر عياض أن أبا الحسن الكانشى قال : أدخلنى عيسى بن مسكين الى بيت مملوء بالكتب ثم قال كلها رواية وما فيها كلمة غريبة الا وأنا أحفظ لها شاهدا من قول العرب[٤٥٢] ٠ كما يذكر ان ابراهيم بن الزاهد الاندلسى من سكان القيروان كانت كتبه بعد وفاته موقوفة لا يتصرف فيها الا بالقراءة والانتفاع[٤٥٣] ٠

ونجد أن مكتبة احمد بن الجزار كانت خمسة وعشرين قنطارا من كتب طبية وغيرها[٤٥٤] وكان العلماء يسترخصون الاموال فى سبيل جمع الكتب فقد بلغ ما بيعت به مكتبة أبى الفضل احمد بن على بعد وفاته الف دينار ومائتى دينار[٤٥٥] ٠

وقد كان للمعز فى المنصورية مكتبة ذاخرة بالكتب يعرف مواضع ما فيها من الكتب وما تحويه من المعلومات ٠ وقد قيل أن المعز امر خازن كتبه أن يحضر له كتابا فلم يحضره على الفور فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب ثم قرأه واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم الليل فى القراءة وهو واقف على قدميه وكان يقول : واللـه ما تلذذت بشىء تلذذى بالعلم والحكمة[٤٥٦] ٠

---

(٤٥١) الدباغ معالم جـ ٣ ص ١١

(٤٥٢) عياض المدارك جـ ٣ ص ٢١٣

(٤٥٣) المرجع السابق ص ١٣١

(٤٥٤) ابن جلجل طبقات ص ٩٠

(٤٥٥) المالكى رياض ص ٣٨٨

(٤٥٦) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ٢٢٢ نقلا عن المجالس والمسايرات جـ ١ ص ٩١

وقد ادرك التجار المشـارقة هذه الرغبة القوية لعلماء القيروان فى اقتناء الكتب فعملوا على جلبها من المشرق لبيعها فى القيروان والاندلس فقـد وفد على القيروان سـنة ٣٢٩ هـ ابو على اسماعيل بن القاسـم البغدادى فى قافلة ذات أحمال كثيرة من المؤلفات النفيسـة المشرقيـة ما بين لغوية وادبية وتاريخية ودواوين من شـعر الجاهليين والمخضرمين والمولدين فباع منها فى مدة عام كل ما شـاء أن يبيع لاهل القيروان ثم تحول بعد ذلك بما بقى الى الاندلس(٤٥٧) سنة ٣٣٠ هـ ٠

ولا شك أن هـذا الخبر بعـد علمنا بارسـال البعثات الى المشرق لاجـل شراء الكتب يبين لنا الشغف الذى كان موجودا فى القيروان للحصول على نفائس المخطوطات وتكوين المكتبات والاطلاع على كل جديد فى الفكر مما حمل أهل المشرق على اشـباع ذلك الميل بالاتجار فى الكتب وحملها الى القيروان لـمـا يحوزونه من الأموال الطائلة ٠ كما يوضـح النضج الفكرى فى القيروان ٠



---

(٤٥٧) حسن حسنى ورقات ص ٣٤١

الفصل السابع

العلاقات الفكرية بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر

تمهيـــد :

أريد فى هذا الفصـل ان أوضح العلاقات بين القيروان وبين غيرها من مراكز الفكر ولا أريد ان أذكر كل العلماء الذين كانت لهم رحلات الى مراكز الفكر المختلفة أو العلماء والطلاب الذين قدموا الى القيروان فان ذلك يدعو الى تطويل ممل ولكنى أريد الاشـارة الى العلاقات الفكرية التى قامت بين القيروان وبين غيرها مع ذكر بعض الذين شـدوا الرحال وتغربوا عن أوطانهم فى سـبيل طلب العلم والمعرفة سـواء من القيروان أو اليها • فكانوا الصـلة القوية بين القيروان وغيرها •

وذلك بلا شـك سـوف يظهر لنا العلاقات القوية الفكرية التى جعلت القيروان على صلة وثيقة بغيرها من مراكز الفكر تأثيرا مما جعلهـا دائما فى نمو فكرى متجدد بحيث تأخذ وتعطى أو تؤثر وتتأثر وذلك مما أدى الى النمو المضطرد فى الحركة الفكرية فى القيروان وجعلها منارة مشعة من منارات الفكر فى العالم الاسـلامى : فلا يظهر فيها أو فى غيرهـا أى جديد الا وكان لها منه أو فيه نصيب •

واذا كان ذلك هو الطابع السـائد فى المدن الاسلامية فى ظل الدولة الاسـلامية الموحدة فان الذى يعنينا فى بحثنا هو ذكر العلاقة الخاصـة بين القيروان وغيرها من أمهات المدن الاسلامية •

١ ـ القيروان ومكة والمدينة :

لقد كانت صلة القيروان بمكة والمدينة وثيقة منـذ تأسيسها ذلك لأنها المنبع الاصلى للاسـلام وشريعته واللغة العربية • ولقد حظيت القيروان منذ تأسيسها بعدد غير قليـل من الصحابة والتابعين الذين أتوا اليهـا ومكثوا فيها ينشرون ويعلمون الشريعة والآداب الاسلامية واللغة العربية الى ان أدركتهم الوفاة فيها وبعضهم عاد ثانيا الى المشرق وقد ذكرت فى بداية الحيـاة الفكرية أسـماء أولئك الاعلام من الصحابة والتابعين

الذين تشرفت بهم القيروان فى بداية الحياة الفكرية فيها فكانوا الصلة القوية التى تربط القيروان بمكة والمدينة ٠

ولا ننسى بعثة الفقهاء من التابعين الذين ارسلهم عمر بن عبد العزيز الى القيروان لتعليم ابنائها كما لا ننسى أن نذكر انه كان من القادمين الى القيروان أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله بن عباس وحامل علمه الذى اقام بالقيروان وبث فيها العلم وكان مجلسه فى مؤخر جامع القيروان فى غربى الصومعة(١) ٠

ودجين بن عامر الحجرى الذى روى عنه من اهل القيروان بكر ابن سوادة الجذامى وعبد الرحمن بن زيادة بن انعم(٢) ٠

وقد نتج عن قدوم بعض الصحابة والتابعين الى القيروان وبث العلم فيها أن انفردت القيروان ببعض الأحاديث ولذلك وجدنا عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم يسمع الطلبة منه فى مكة(٣) بل تفيدنا الاثار أن الجلة من أهل المشرق ومنهم سفيان الثورى وعبد الله بن لهيعة وعبد الله ابن وهب وأبو عبد الرحمن المقرى وغيرهم قد رووا عنه(٤) أحاديث لم ترو عن غيره ٠

كما نجد ان ابا زكريا يحيى بن سلام قد روى عنه مالك بن انس والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة(٥) ٠ ومن أبناء القيروان وعلمائها الذين رحلوا الى مكة والمدينة للتزود من العلم وفد سبق ان ترجم البحث لهم أثناء الحديث عن بداية الحياة الفكرية وازدهارها عبد الرحمن بن زيادة بن أنعم وعبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد وعبد الله بن

---

(١) المالكى رياض ص ٩٢
(٢) نفس المرجع ص ٩٥
(٣) نفس المرجع ص ٩٦
(٤) أبو العرب طبقات ص ٩٩
(٥) المالكى رياض ص ١٢٢

غانم واسد بن الفرات وموسى بن معاوية الصمادحى وسحنون بن سعيد ومحمد بن سحنون ومعظمهم قد لقى مالك بن انس امام دار الهجرة ٠

وقد تتابعت هذه الرحلات للتزود من العلم على مدى العصر الذى ندرسه لتعميق هذه الصلات والعلاقات الفكرية بين القيروان وبين مكة والمدينة ٠ فمن الذين لم يترجم لهم ورحلوا الى مكة والمدينة من اجل المعرفة ـ ويمكن التعرف عليهم بالرجوع الى المصادر المذكورة قرين كل منهم ـ : صقلاب بن زيادة الهمدانى الذى سمع من مالك بن أنس ومن غيره(٦) وابو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقى وحاتم بن عثمان المعافرى(٧) وعبد الله بن أبى غسان ويزيد بن محمد الجمحى(٨) وعمر ابن الحكم اللخمى وكلهم قد سمع من مالك بن أنس وزكريا بن محمد ابن الحكم اللخمى الذى سمع من مالك بن أنس(٩) وحيوة ابن شريح(١٠) ٠

وبعد وفاة مالك بن انس رحل ابناء القيروان الى مكة والمدينة للاخذ عن علمائها ومنهم ابو يحيى حماد بن يحيى الذى سمع من عبد الملك ابن الماجشون وكان أول من قدم بفقهه الى القيروان(١١) وسالم بن سالم القطان الذى دخل المدينة فحدث عن محمد بن مالك(١٢) وعبد الله ابن سهل القبريانى الذى لقى عبد الملك بن الماجشون بالمدينة(١٣) وعون ابن يوسف الخزاعى الذى قدم المدينة بعد موت مالك بسنة فأدرك بها أربعين رجلا من معلمى بن وهب منهم عبد الرحمن بن زيد بن اسلم

---

(٦) أبو العرب طبقات ص ١٣٩
(٧) نفس المرجع ص ١٥٠
(٨) المالكى رياض ص ١٦٢
(٩) نفس المرجع ص ١٦٨
(١٠) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٩١
(١١) ابو العرب طبقات ص ٢٠٣
(١٢) ابن فرحون الديباج المذهب ص ١٩
(١٣) الدباغ معالم ج ٢ ص ٧٢

وسمع من المفضل بن فضالة وابن وهب[١٤] واحمد بن معتب سمع من العثمانى بالمدينة وحسين بن حسن المروزى[١٥] ويحيى بن عمر ابن يوسف سمع بالحجاز من ابى مصعب الزهرى ونصر بن مرزوق[١٦] وربيع بن عطاء الله القطان سمع بمكة من ابن شاذان الجلاب وابى محمد بن يزيد المقرىء وغيرهم[١٧] والعباس بن عيسى الممسى الذى سمع بمكة من ابى الحسين بن المنتاب[١٨] .

وكانت القيروان تتصل بالمدينة عن طريق آخر غير الرحلات وذلك بارسال الرسائل للاستفتاء فيما يحدث من القضايا مما لا تكون وجهة النظر فيه ظاهرة ٠ مما يدل على قوة العلاقة والصلات بين المفكرين والمشرعين فى الأمصار الاسلامية وكان سببا فى سرعة النضج والنمو الفكرى يدل على ذلك ما ذكرد ابو العرب من ان عبد الله بن فروخ كان يكاتب مالكا وكان مالك يعرفه ويكاتبه بجواب مسائله[١٩] وكان عبد الله ابن غانم قاضى القيروان اذا اشكلت عليه تخبة ارجأ امر الخصمين حتى يعود عليه جواب مالك بن انس[٢٠] .

اما سحنون فقد كتب الى عبد الملك بن الماجشون : يذكر ما حدث عندهم من الكلام فى التشبيه والقرآن ويساله الجواب عليه وكتب اليه عبد الملك مرة : من عبد الله بن الماجشون الى سحنون بن سعيد سلام عليك فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا هو ٠ أما بعد وفقنا الله واياكم لطاعته سألتنى عن مسائل ليست من شأن اهل العلم والعمل بها جهل

---

(١٤) عياض المدارك ج ٢ ص ٦٢٧
(١٥) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٣٠
(١٦) نفس المرجع ص ٢٣٥
(١٧) نفس المرجع ص ٣٢٤
(١٨) ابن فرحون الديباج ص ٢١٧
(١٩) ابو العرب طبقات ص ذ١٠
(٢٠) الرقيق تاريخ افريقية ص ١٧٨

فيكفيك من مضى من صدر هذه الأمة انهم اتبعوا باحسان ولم يخوضوا فى شىء منها وقد خلص الدين الى العذراء فى خدرها فما قيل لهـــا كيف ولا من أين ؟ فاتبع لما اتبعوا واعلم انه العلم الاعظم الذى لا يشاء الرجل ان يتكلم فى شىء من هذا فيكب فيهوى فى نار جهنم[٢١] .

وبذلك كانت الصلة العلمية قائمة بين القيروان وبين المدينة بكل الطرق الممكنة آنذاك . وبجانب هذا الاتصال عن طريق الرحلة الى مكة والمدينة وارسال الرسائل اليها للاستفتاء والاستفهام كان هناك طريق آخر للاتصال . وذلك عن طريق وفود بعض العلماء من مكة والمدينة الى القيروان للزيارة كاساتذة زائرين ـ أو للاقامة فيها . منهم عبد العزيز بن يحيى المـدنى الهاشمى الذى قدم القيروان سنة ٢٢٥هـ وخرج منها سنة ٢٢٦ هـ وكان من الحفاظ سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير[٢٢] وعلى بن يونس الليثى الذى سمع من مالك ومن ابن عيينة ومن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم يقدم الى القيروان وحدث عنه سعيد بن اسحاق[٢٣] وعبد الله بن يزيد المقرى الذى روى عنه ابن وهب وقدم القيروان سنة ١٥٦ هـ وكان وكيلا لرجل من التجـار وقد اقرأ القرآن بالبصرة ستا وثلاثين سنة وبمكة خمسا وثلاثين سنة[٢٤] ولا شك أن المهتمين بالقرآن وقراءته قد سارعوا اليه يتلقون عنه ويسمعون منه . وزكريا بن يحيى الوقار الذى قدم سنة ٢٢٥ هـ الـى القيروان وسمع منه أبو عياش بن موسى وغيره من أهل القيروان وكان يحدث عن ابن وهب[٢٥] ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المؤمـن من مكة ودخل العراق فاخذ عن عبد الله بن مجاهد البصرى وغيره وسكن آخرا القيروان وصحب ابا محمد بن ابى زيد وغيره من أئمة القـيروان وناظرهم وذاكروه وأثنوا عليه واخذوا عنه[٢٦] .

(٢١) عياض المدارك جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٢٢) ابو العرب طبقات ص ١٥٨ .

(٢٣) نفس المرجع ص ١٥٩ .

(٢٤) نفس المرجع ص ١٦٣ .

(٢٥) نفس المرجع ص ١٨٢ .

(٢٦) عياض المدارك جـ ٣ ص ٤٦٥ .

وبجانب هؤلاء العلماء فى الشريعة فقد كانت العلاقات الادبية قائمة وقد ذكرنا ان الشعراء الذين وفدوا الى القيروان الحكم بن ثابت السعدى، وربيعة بن ثابت الرقى ، والمسهر التميمى .

كما يذكر الدباغ أن ابا عقال غلبون بن الحسن الاغلبى هجر القيروان واقام بمكة وهو من الشعراء الفصحاء الادباء الذين قالوا شعرا كثيرا فى الزهد والتصوف بعد أن تاب واناب(٣٧) .

وبذلك يتبين لنا الاتصال العميق الجذور المتواصل الأسباب بين مكة والمدينة والقيروان على طول الفترة التى يهتم البحث بدراستها والذى أدى الى نضج الحياة الفكرية فى القيروان وازدهارها .

٢ ـ القيروان والعراق (الكوفة والبصرة وبغداد) :

كما اتصلت القيروان بمكة والمدينة فاننا نجد بعض الرواد الاوائل الذين غادروا القيروان متجهين الى المنبع الاصلى للاسلام فى مكة والمدينة لتحصيل العلم قد امتد طموحهم للقاء علماء البصرة والكوفة وبغداد وكانوا بذلك مثلا أعلى يقتدى بهم من جاء بعدهم . وممن ترجم لهم البحث من هؤلاء الرواد الذين اغترفوا من علم المدينة ومكة ثم واصلوا السير على طريق المعرفة الى المشرق ـ الكوفة والبصرة وبغداد وغيرها ـ للالتقاء بعلمائها ولد وربط علاقات القيروان بها : عبد الله ابن فروخ ، وعبد الله ابن غانم ، وأسد بن الفرات ، كما سمع سحنون وهو بمكة من علماء كانوا بها من البصرة والكوفة وواسط ونجد بكر بن حماد قد سمع من علماء البصرة والكوفة وبغداد والتقى بحبيب الطائى وصريع الغوانى ودعبل وعلى بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق وتمكن من مدح الخليفة المعتصم . ومحمد بن جعفر التميمى الذى رحل الى العراق وأخذ عن الآمدى صاحب الموازنة والتقى بغيره من كبار النحويين واللغويين وتلقى

---

(٢٧) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٤٢ .

عنهم العلوم والآداب ـ واسماعيل بن يوسف الذى تعلم الكيمياء والطـلاء فى بغداد(٣٨) .

وهناك كثير غير هؤلاء ممن قام بعبء هذه العلاقات ممن رحـــل الى العراق ولم يترجم لهم ومنهم محمد بن يسوتا الذى سمع من سفيـان الثورى(٣٩) ويزيد بن محمد الجمحى الذى سمع من ابى بكر بن عياش وجماعة كوفيين وبصريين(٣٠) . وموسى بن معاوية الصمادحى الذى أكثر الأخذ عن الرجال الكوفيين والبصريين بل واصل الرحلة الى خراسان والرى للأخذ عن علمائها(٣١) .

وقد اتصلت القيروان بالعراق عن طريق الرسائل والاستفتـاءات والمشاورة فى بعض الاقضية مما يقوى الصلة بها فكان عبد الله بن غانم يكتب الى ابى يوسف القاضى فقد قال هشام بن معدان . كاتب أبى يوسف : كنت الى جانب أبى يوسف فى مجلس قضائه اذ ورد عليه رجل معتم فى زى أهل افريقية فصاح كتاب أبى عبدالرحمن بن غانم قاضىافريقيةفدعا به فلما صار بين يديه رفعالكتاب اليه فسأله من أنت قال : أنا ابو التمام عبدالوهاب ابن محمد خرجت حاجا فكتب معى ابن غانم هذا الكتاب اليك وأمرنى بايصاله بنفسى وآخذ الجواب . فقال هشام فدفعه الى وقال : فضه واقراه وارفع صوتك ياهشام واعلن بقراءته ففعلت وقرأته عليـه واصاخ نحوه فاذا فيه مسائل مما نزل به يشاوره فيها ويستقضيه فى جوابها فلما فرغـت من قراءته أمر بدرجة ثم التفت الى أبى التمام وقال احضر سفرك قـال نعم . قال : « قد ترى ما نحن فيه ولعله لا يتهيأ لك الوصول الينا فخـذ جوابك فى مقامك . ياهشام اكتب له فى ظهره : من يعقوب بن ابراهيم

---

(٢٨) انظر من ترجم لهم فى بداية الحياة الفكرية وازدهارها فى هذا البحث .

(٢٩) ابو العرب طبقات ص ١٥٤ .

(٣٠) نفس المرجع ص ١٦٨ .

(٣١) نفس المرجع ص ١٩٠ ، المالكى رياض ص ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

الى عبد الله بن غانم قاض افريقية ثم دعا له وشكره على تثبته فيما ينزل به واعلمه ان ذلك كان ـ فعل ـ صدر السلف الماضين ٠ ثم تابـع املاء المسائل على نحوها فى كتابه كل مسألة وجوابها وما اعاد نظرا فـى الكتاب وأمرنى فختمته وعنونته والقاه الى ابى التمام وقال له : هذا جواب صاحبك فان امكنك الوصول الينا جددت معك كتابا[٣٢] ٠

ونلاحظ هنا الدقة فى أمره للرسول بايصاله بنفسه وأخذ الجواب ثم ختم الجواب بخاتم القاضى ثم بيان ان ذلك امر قام منذ أيام السلف الصالح رضى الله عنهم وهو دليل على تثبت علماء القيروان وحرصهم على الدقة فى الاحكام والسؤال عنها عند خفاء وجه الصواب فيها ٠

وقد استمر هذا الاتصال بين القيروان والعراق وشمل غير ذلك من الامور التى تجد فى القيروان فقد حدث ان أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكرى الصقلى انكر الكرامات وذلك عندما اكثـر المريدون فى عصره من ادعائهم رؤية الله سبحانه فى اليقظة فالف كتابا يقتضى انكار الكرامات وانكار الرؤية فأنكر علماء القيروان عليه ذلـك وأرسلوا الجواب من القيروان الى القاضى أبى بكر بن الطيب ببغداد حيث أجاب بجواز ذلك والف كتابا فى ذكر جواز الكرامات[٣٣] ٠

ومن عوامل الاتصال بالعراق ما سبق ان ذكرناه اثناء حديثنا عن المكتبات من ارسال البعثات بالأموال لشراء نفائس الكتب التى توجد فى بغداد مما لا نظير له فى القيروان ثم قدوم بعض التجار بالكتب من بغداد لبيعها فى القيروان ٠ ووصول بعض الكتب المؤلفة فى القيروان الى بغداد كما حدث لكتاب الامامة لمحمد بن سحنون ٠

وكمـا رحل من القيروان طلاب وعلماء الى العـراق للتعلم على أساتذتها وعلمائها والتلقى عنهم فقد قدم بعض العلماء الى القيروان

---

(٣٢) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ٠

(٣٣) الدباغ معالم الايمان ج ٣ ص ١٨٣

من العراق وقد سبق ان ذكرنا اثناء حديثنا عن بداية الحياة الفكرية وازدهارها بعض هؤلاء العلماء الذين نشروا اللغة والأدب والنحو والكتابة وكانوا حلقة اتصال قوية بين العراق والقيروان وقد ترجم منهم للحسن بن سعيد البصرى الذى كتب ليزيد بن حاتم وعياض بن عوانة بن الحكم الكلبى ويونس بن حبيب الضبى وقتيبة الجعفى الكوفى وابو اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى البغدادى واشرنا الى أن يوحنا المتطيب قدم القيروان أيام يزيد بن حاتم . واسحاق بن عمران الطبيب البغدادى الذى قدم الى القيروان ومكث فيها وعمل فى بيت الحكمة(٣٤) وقد قدم من العراق الى القيروان واستقر فيها علماء آخرون لم يترجم لهم وكانوا أيضا ممن قوى العلاقات بينهما ومنهم الحارث بن نبهان البصرى(٣٥) وعبد الله بن المغيرة الكوفى الذى سمع من سفيان الثورى ومن كبار الكوفيين مسعر بن كدام وعمر بن ذر وقطر بن خليفة وقد روى عنه من أهل القيروان سليمان بن عمران(٣٦) ومنهم أحمد بن عبد الله بن عبد المؤمن من الحجاز وسكن مكة وروى عن الجلة فيها ثم دخل العراق واخذ عن الشيوخ بها ثم سكن اخيرا القيروان واخذ عنه العلماء والطلاب(٣٧) .

وقد سبق ان ذكرنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن المكى الذى دخل العراق فأخذ عن أبى عبد الله بن مجاهد البصرى وغيره ثم سكن القيروان فكان صلة بين مكة والعراق والقيروان .

ولا شك ان هذه الرحلات والرسائل والكتب من القيروان الى العراق ومن العراق الى القيروان كانت عاملا قويا فى نمو وازدهار الصلات الفكرية بينهما .

---

(٣٤) انظر بداية الحياة الفكرية وازدهارها ص ١٦٢ ـ ١٦٣

(٣٥) أبو العرب طبقات ص ١٠٥

(٣٦) نفس المرجع ص ١١٦

(٣٧) ابن فرحون الديباج ص ٣٧ ، ٣٨

٣ ـ القيروان والشام :

مع ان القيروان اسست فى عهد الخلافة الأموية فى دمشق الا أننا نلاحظ قلة الاتصال الفكرى بين القيروان ودمشق اما لأن الحياة الفكرية ابتدأت بالعلوم الشرعية التى حملها الصحابة والتابعون وهم روادها وحاملو لوائها ومنبع ذلك ومصدره الأصلى هو مكة والمدينة أو لأنهم أغفلوا ذلك .

ومع ذلك فقد كان عمر بن عبد العزيز هو الذى ارسل بعثة الفقهاء الى القيروان كما ذكر لنا المؤرخون بعض من قصد الشام وتلقى على علمائه وسمع منهم وخاصة عبد الله بن غانم الذى دخل الشام فى طلب العلم[٣٨] وسحنون بن سعيد الذى سمع بالشام من الوليد بن مسلم وأيوب بن سويد[٣٩] ومنهم خالد بن ربيعة الافريقى الذى رحل الى الشام وصادق عبد الحميد الكاتب وقد تولى الكتابة لعبد الرحمن بن حبيب عند عودته الى القيروان . وقد ترجم لهؤلاء فى بداية الحياة الفكرية وازدهارها .

وممن تلقى على علماء الشام عدا هؤلاء محمد بن يسوتا الذى سمع من اسماعيل بن عياش العنسى الراوى عن الأوزاعى واعلم الناس بحديث أهل الشام[٤٠] ويزيد بن محمد الجمحى الذى سمع من جماعة من أهل الشام[٤١] كما يذكر المالكى ان عمر بن الحكم اللخمى الذى سمع من مالك قد روى عنه الأوزاعى حديثا عن رسول الله ﷺ : « من خرج يوم جمعة مسافرا دعت عليه الملائكة الا يصحب فى سفره

---

(٣٨) المالكى رياض ص ١٤٣ ، عياض المدارك جـ ١ ص ٣١٦

(٣٩) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٤٩

(٤٠) أبو العرب طبقات ص ١٥٤

(٤١) المرجع السابق ص ١٦٨ ، المالكى رياض ص ٦٢

ولا تقضى حاجته »[٤٢] ومنهم عيسى بن مسكين بن منصور الذى رحل الى الشــام وسمع بها من ابى جعفر الأيلى[٤٣] ٠

وبهذا يتبين لنا ان القيروان قد اتصلت بالشــام فكريا أيضا وان كانت هـذه الصلات تتسم بالقلة والندرة الا ان علماء القيروان وطلابها لم يغفلوا عن عقد الصلات من علماء الشــام بل اتصلوا بالفكر الشرعى واللغوى والأدبى فيها ٠

٤ ـ القيروان ومصر :

لا شك ان كل من رحل من القيروان الى المشرق سواء الى الحجاز أو الى العراق او رحل من المشرق الى القيروان كلاهما قد مر بمصر ونزل بها وقد يكون العديد ممن قصد المشرق قد تلقى على علماء مصر ٠ وجلس منصتا فى حلقات الدروس التى كانت تلقى فى مساجدها المختلفة ٠

ولكن المؤرخين قد ذكروا بعض هؤلاء ممن تلقى العلم فيها وتتلمذ على أعلامها وخاصــة من أعلام القيروان الأوائل ومن حاملى راية الفكر فيهــا وقد ترجم لبعضهم فى بداية الحيــاة الفكرية وازدهارها ومنهم اسد بن الفرات الذى الف اسديته فى مصر على ابن القاسم وسحنون الذى الف مدونته فى مصر أيضا اخذا من ابن القاسم ٠ اما عبد الله بن فروخ فبعد ان استوطن القيروان وابى ان يتولى القضاء فيها خرج الى مصر بعـد وفاة الليث بن سعد فقال عنه عبـد الله بن وهب المصرى مصورا منزلة عالم من القيروان فى مصر لقد رجونا ان يكون عبد الله ابن فروخ خلفا لنا من الليث بن سعد فما لبث الا يسيرا حتى مات فدفناه فى مقبرتنا هــذه وجعلت على نفسى الا احضر جنازة الا وقفت على قبره ودعوت له وترحمت عليه[٤٤] ٠

---

(٤٢) المــالكى رياض ص ١٦٨
(٤٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٢١٢٠
(٤٤) الرقيق تاريخ ص ١٨٣

اما محمد بن سحنون الذى نزل فى مصر على أبى رجاء بن أشهب نكان علماء مصر يأتون اليه ويسلمون عليه وممن اتاه المزنى صاحب الشافعى وقد ناظر فى مصر يهوديا الى أن أسلم[٤٥] .

وممن رحل الى مصر ممن لم يترجم له عدا هؤلاء عيسى بن مسكين الذى سمع بمصر من الحارث بن مسكين ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم[٤٦] وكذلك عبد الله بن احمد بن طلب الذى لقى من المصريين محمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى[٤٧] ومنهم لقمان بن يوسف الغسانى الذى حج فسمع بمصر كثيرا[٤٨] وربيع بن عطاء الله القطان الذى سمع بمصر من أبى عبد الله الحمرى وأبى محمد بن رشيد[٤٩] وعون بن يوسف الخزاعى الذى تلقى العلم فى مصر على بن وهب والمفضل بن فضالة[٥٠] وحمد بن القطان احمد بن محمد الأشعرى من ولد أبو مومى الأشعرى وقد رحل الى مصر فتلقى بها عن أصحاب ابن القاسم وأشهب وابن وهب[٥١] . وأبو الفضل الممى سمع بمصر من احمد بن جعفر بن أحمد الحضرمى وأبى عبد الله الجيزى وأبى بكر بن مروان المالكى[٥٢] ومنهم محمد بن نظيف خرج من القيروان الى مصر عند ظهور حسب السلف أيام الفاطميين فسمع بها من محمد بن أحمد بن خروف وأبى اسحاق بن شعبان[٥٣] وعبد الله بن مسرور التجيبى رحل

---

(٤٥) المالكى رياض ص ٣٤٦ ، ٣٤٧
(٤٦) عياض المدارك جـ ٢ ص ٢١٢
(٤٧) المالكى رياض ص ٣٧٥
(٤٨) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١٤
(٤٩) نفس المرجع ص ٣٢
(٥٠) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٣٣
(٥١) نفس المرجع ص ١٣٣
(٥٢) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١٤
(٥٣) نفس المرجع ص ٢٨٤ ، ٤٨٥

الى مصر فسمع من علمائها وسمع منه اهلها واهل الاسكندرية[٥٤] . وزيادة بن يونس اليحصبى سمع بمصر من محمد بن الربيع الجريرى وأحمد بن مروان وابن رمضان[٥٥] وعلى بن محمد بن خلف المعافرى رحل الى مصر فسمع بها من جماعة وسمع فى الاسكندرية من على بن جعفر التابيانى[٥٦] .

وبجانب ذلك كانت هناك علاقة بين القيروان ومصر بالمراسلة فقد كتب على بن أحمد بن اسماعيل البغدادى الذى سكن مصر الى فقهاء القيروان رسالة يدعوهم فيها الى الاعتزال والقول بالقدر والمخلوق وغير ذلك من مذاهبهم . وكان على يقول بالاعتزال ويدعو اليه فجاوبه فقهاء القيروان وردوا عليه ومنهم أبو محمد بن أبى زيد الذى رد عليه برسالة ظهر فيها علمه وقوته فى الكلام والرد على اهل الأهواء[٥٧] . كما رحل بعض العلماء من مصر الى القيروان وقد سبق ان ترجم لاسحاق بن سليمان الاسرائيلى المصرى الذى تزعم الطب فى القيروان بعد اسحاق بن عمران .

ومنهم زيد بن بشر بن عبد الرحمن الازدى المصرى الذى كان طلبته فى القيروان يهتمون به ويحيطون به حتى وهو ذاهب الى المسجد[٥٨] . ومحمد بن أحمد الحصنى الشاعر الذى خرج من مصر سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة ووصل الى القيروان فامتحن بها من الشيعة واقام محبوسا بالمهدية معتقلا فى دار البحر ثلاثة أعوام وسبعة أشهر[٥٩] ثم خرج بعد ذلك الى الأندلس .

---

(٥٤) نفس المرجع ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، الدباغ معالم جـ ٣ ص ٧٠ ، ٧١

(٥٥) الدباغ معالم جـ ٣ ص ٩٨

(٥٦) نفس المرجع ص ١٦٩ ، ١٧٠

(٥٧) عياض المدارك جـ ٣ ص ٤٨٦

(٥٨) المالكى رياض ص ٣٠١

(٥٩) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى قسم ٢ ص ١١٦

كما اننا نجد بعض الباحثين يرجح أن يكون محمد بن جعفر التميمى القزاز القيروانى قد درس فى مصر اثناء وجوده بها عندما قدم اليهـا صحبة المعز لدين الله وان طلاب مصر قد اقبلوا عليه بشغف للاستفادة من علمه وربما يكون الطلبة فى مصر قد عقدوا المجالس العلمية بينه وبين شيخهم ابن النحاس النحو المصرى المشهور(٦٠) .

وكل ذلك يوضح لنا العلاقة الفكرية الوثيقة التى قامت بين القيروان ومصر لاسيما وهى تعتبر أقرب المراكز الفكرية اليها والتى تتصل بهـا عن طريق البر والبحر .

٥ ـ القيروان والمغرب الأوسط والأقصى :

كانت القيروان هى المركز الرئيسى بالنسبة للمغرب الاوسط والأقصى وهى المنارة العلمية الأولى التى امتد شعاعها الى هـذه البقاع ولذلك لم يكن غريبا ان نجد ابناء المغرب الأوسط والاقصى يقصدون القيروان للتزود من العلوم والمعارف والتلقى عن علماء القيروان والمشاركة فى الحياة الفكرية وربما طغى الطموح والشوق ببعضهم لكى يتجه الى المشرق بعد ذلك . فرحل قاصدا مراكز الفكر فى المشرق وبعد العودة يستقر فى القيروان وكأنه يرى نفسه اهلا بعد ان حصل على قدر كبير من المعارف للاقامة فى القيروان والاستقرار فيها لكى يتلقى العلم عليه طلبة القيروان أو ان يفضل الاقامة فيها كمركز فكرى أوسع وأعمق يتناسب مع ثقافته ومع ما يطمح اليه من نشر لمـا حصل عليه من المعرفة .

ومن أبناء تاهرت الذين تلقوا العلم فى القيروان ثم رحلوا الى المشرق وعادوا الى القيروان بعد رحلتهم الى المشرق بكر بن حماد وقد ترجمنا له(٦١) وممن قصد القيروان من أهل مدينة فاس دراس بن اسماعيل الذى تلقى العلم بالقيروان من أبى بكر بن اللباد(٦٢) ومن أهل سجلماسة

---

(٦٠) المنجى الكعبى القزاز القيروانى ص ٣٠ ، ٣١

(٦١) انظر فصل الازدهار فى هذا البحث .

(٦٢) عياض المدارك جـ ٤ ص ٣٩٥

عيسى بن سعادة السجلماسى الذى طلب العلم بالقيروان وكان صاحب ابى الحسن القابسى عند الشيخ(٦٣) ومن أهل السوس الأقصى محمد بن أحمد السوسى الذى سكن القيروان واستوطنها وصحبه البهلول بن راشد وانتفع به هو وغيره من أهل القيروان(٦٤) ٠

وقد كان كثير من أهل سبتة وسجلماسة يحضرون فى القيروان على محمد بن أبى زيد فمن أهل سبتة أبو عبد الرحمن بن العجوز وابو محمد بن غالب وخلف بن ناصر ومن أهل سجلماسة أبو على بن امدكنو السلجماسى(٦٥) ٠

وممن دخل سبتة من أهل القيروان محمد بن حارث الخشنى الذى تفقه بالقيروان على أحمد بن نصر وأحمد بن يوسف وابن اللباد والممسى وغيرهم وقد دخل سبتة قبل العشرين وثلاثمائة فحبسه أهلها عندهم وتفقه عليه قوم منهم وقد حقق قبلة جامعهم اذ ذاك فوجد فيها تغريبا(٦٦) فامتثلوا رايه وشرقوها(٦٧) ٠

ومن هنا نرى الصلة التى كانت تربط مدن المغرب الأوسط والأقصى بالقيروان ٠

٦ ـ القيروان والأندلس :

كانت القيروان هى المدينة الاسلامية التى أقامها المسلمون لتكون حصنا صامدا ومنارة مشعة وموطنا أصليا للحياة الفكرية فى الشمال الافريقى وعندما عبر المسلمون الى الأندلس من القاعدة القيروان كان لزاما للفكر أن يعبر معهم وبدأ الفكر يشع من القيروان فى الأندلس الى أن نمت

---

(٦٣) نفس المرجع ص ٥٣٩

(٦٤) المالكى رياض ص ١٢٨

(٦٥) ابن فرحون الديباج ص ١٣٦ ، ١٣٧

(٦٦) تغريبا : انحرافا الى المغرب ٠

(٦٧) الدباغ معالم ج ٣ ص ١٠٠ ، ابن فرحون الديباج ص ٢٥٩

بذور الفكر وصارت أشجارا باسقة تتنقل البلابل الصادحة على أغصانها وأفنانها من فرع الى فرع ومن شجرة الى أخرى أو من مدينة الى أخرى وكانت البلابل الصادحة بالفكر خلال ذلك تحن الى الموطن الأصلى . فكانت الرحلات المتتابعة لأبناء الأندلس من شتى أرجائه وبقاعه الى القيروان للتزود من علمائها فى العلم والمعروفة فى شتى العلوم والفنون وعلى مدى الفترة التى خصص البحث لها .

وليس من هدفنا أن نتحدث عن كل من شد الرحال من الأندلس الى القيروان فى سبيل نمو الحياة الفكرية وللتزود من العلم أو من وفد من القيروان الى الأندلس لنشر العلم والفكر فيها ويكفى أن نذكر أن ابن الفرضى فى تاريخ علماء الأندلس قد ترجم فى هـــذه الفترة لأكثر من مائة عالم قد رحلوا من مدن الأندلس الى القيروان للتلقى على علمائها وخاصة عن سحنون وتلاميذه ممن كانوا يتمسكون بالمذهب المالكى . وقد قدموا الى القيروان من كافة مدن الأندلس ونذكر على سبيل المثال ممن قدم من قرطبة ابراهيم بن يزيد بن قلزم الذى سمع من سحنون بن سعيد[٦٨] وابراهيم بن قاسم القيسى[٦٩] . وانه كان فى مدينة البيرة فى وقت واحد سبعة من رواة سحنون منهم ابراهيم ابن خلاد اللخمى وابراهيم بن خالد[٧٠] ومن أهل طليطلة حزم بن غالب الرعينى[٧١] وزكريا بن قطام[٧٢] ومن اشبيلية عباس بن محمد بن عبد العظيم[٧٣] ومن شذونة اصبغ بن منبه الذى سمع من محمد بن سحنون[٧٤] ومحمد بن وضاح الصدفى[٧٥] ومن مرسية الصباح بن عبد الرحمن العتقى[٧٦] ومن أهل جيان طوق بن عمرو التغلبى[٧٧]

---

(٦٨) ابن القرضى تاريخ علماء الأندلس ص ٩

(٦٩) نفس المرجع ص ١١ (٧٠) نفس المرجع ص ٩ ، ١٠

(٧١) نفس المرجع ص ١١٧ (٧٢) نفس المرجع ص ١٥٠

(٧٣) نفس المرجع ص ٢٩٧ (٧٤) نفس المرجع ص ٧٩

(٧٥) نفس المرجع قسم ٢ ص ٣٠

(٧٦) نفس المرجع قسم ١ ص ٢٠٢

وهاشم بن محمد اللخمى سمع من سحنون[٧٨] ومن أهل تدمير عميرة بن عبد الرحمن العتقى وقد سمع من سحنون[٧٩] وعلاء بن محمد الذى سمع من ابى بكر بن اللباد[٨٠] ومن اهل بجانة فضل بن سلمة الجهنى وسمع من يوسف بن يحيى المغامى[٨١] ومن اهل استجة عبد الله بن حمدون الأسلمى سمع من سحنون[٨٢] ومن أهل تطيلة محمد بن محمد وسمع من سحنون[٨٣] ومن أهل وشقة فرح بن أبى الحزم وسمع من سحنون[٨٤] وكثيرون غير هؤلاء قدموا من شتى مدن الأندلس لتلقى العلم فى القيروان ولا نرى حاجة الى ذكر أسمائهم .

ويورد لنا الخشنى فى كتابه قضاة قرطبة أن من قضاة قرطبة الذين تلقوا العلم فى القيروان والتقوا بعلمائها عامر بن معاوية اللخمى الذى رحل الى القيروان فسمع من سحنون[٨٥] وأسلم بن عبد العزيز الذى التقى بسليمان بن عمران فى القيروان[٨٦] ومحمد بن عبد الله بن عيسى الذى لقى من شيوخ القيروان محمد بن اللباد ومحمد بن على البجلى وغيرهما[٨٧] .

ويترجم صاحب جذوة المقتبس لخمسة وعشرين عالما رحلوا الى القيروان وسمعوا من سحنون أو من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وخاصة

---

(٧٧) نفس المرجع قسم ١ ص ٢٠٨
(٧٨) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٧١
(٧٩) نفس المرجع قسم ٢ ص ٣٢٨
(٨٠) نفس المرجع ص ٣٢٩
(٨١) نفس المرجع ص ٣٥٢
(٨٢) نفس المرجع ص ٢١٦
(٨٣) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٥
(٨٤) نفس المرجع قسم ١ ص ٣٤٩
(٨٥) الخشنى قضاة قرطبة ص ٩
(٨٦) نفس المرجع ص ١٠٦
(٨٧) نفس المرجع ص ١١٩

محمد بن أبى زيد ومنهم محمد بن موهب القبرى تفقه بالقيروان على محمد بن أبى زيد وأبى الحسن القابسى[٨٨] ومحمد بن يحيى بن عمر يروى عن حماس بن مروان قاضى القيروان[٨٩] وعبد الله بن أبى الوليد سمع من محمد بن سحنون[٩٠] وعمر بن يوسف الذى رحل الى القيروان فسمع من جماعة من اصحاب سحنون[٩١] .

ونرى فى كتاب المدارك كثيرا من الطلاب والعلماء الذين قدموا من الأندلس الى القيروان وتلقوا العلم على علمائها ومنهم عبد الله بن محمد بن خالد بن مرتيل القرطبى الذى سمع من سحنون فى القيروان وكان رأس المالكية بالأندلس والقائم بالمذهب المالكى المدافع عنه[٩٢] وعثمان بن ايوب بن أبى الصلت سمع بالقيروان من سحنون وهو أول من أدخل المدونة بالأندلس[٩٣] ومنهم عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم من اهل قلعة أيوب من ثغر شرق الأندلس وقد سمع من ابن اللباد بالقيروان[٩٤] وتمام بن عبد الله المعافرى الطليطلى وقد سمع بالقيروان من أبى عبد الله بن ممرور الغال[٩٥] وعبد الرحمن بن محمد بن يحيى القرطبى الذى سمع بالقيروان من ابن أبى زيد والقابسى[٩٦] .

وأفادنا صاحب الصلة أيضا ببعض من رحل من الأندلس الى القيروان ومنهم سعيد بن محمد بن سيد أبيه وابن العلاء القشيرى ومحمد بن عمروس بن العاص ووسيم بن أحمد بن محمد الأموى وغيرهم ومعظمهم

---

(٨٨) الحميدى جذوة المقتبس .
(٨٩) نفس المرجع ص ٩٨
(٩٠) نفس المرجع ص ٢٦٥
(٩١) نفس المرجع ص ٣٠٣
(٩٢) عياض المدارك ج ٣ ص ١٣٤
(٩٣) نفس المرجع ص ١٣٧
(٩٤) نفس المرجع ج ٤ ص ٥٧٤ ، ٥٧٥
(٩٥) نفس المرجع ص ٥٧٨
(٩٦) نفس المرجع ص ٦٥٨ ، ٦٥٩

تلقى بالقيروان عن ابى محمد بن مسرور وابى محمد بن ابى يزيد[٩٧] .

كما أورد ابن فرحون عددا من رحل الى القيروان من الأندلس لتلقى العلم الا ان من ذكرهم لم يجاوز من ذكرهم هؤلاء المؤرخون السابقون والمعاصرون لفترة البحث[٩٨] وقد كان من الأطباء الذين رحلوا من الأندلس الى القيروان لتلقى العلم عن ابن الجزار ابو حفص عمران ابن بريق الأندلسى فقد لازم ابن الجزار فى القيروان فترة أخذ عنه فيها الطب وروى عنه تآليفه وقد عاد الى الأندلس فكان فى خدمة الأمراء الأمويين وخاصة عبد الرحمن الناصر وقد ادخل ابن بريق كتب أستاذه الجزار الى الأندلس فتلقاها عنه الأخصائيون فى الطب من مسلمين ويهود ونصارى ومنهم سليمان بن جلجل[٩٩] .

وكان طلبة الاندلس يهتمون بتلقى العلم فى القيروان ويستعدون لذلك بكتابة الكتب قبل القدوم لسماعها وقد حدث « أن قوما من الاندلسيين قد كتبوا المدونة وارادوا أن يسمعوها من سحنون » فقال لهم : انى مشغول فقال له شاب منهم انا قد كتبناها فما نصنع بها ؟ لئن لم تسمعناها لنطرحنها فى هذا الغدير واشار لغدير ماء بين يديه فتغير سحنون وعض على بنانه من الغيظ ثم قام الى ازواجه وهى تحرث ثم رجع اليهم فقال : انى لو احتجت اليكم فى مثل هذه ورفع شيئا من الأرض ما سوى علمى عندكم شيئا ثم اسمعهم[١٠٠] .

ومع كثرة من سمع من سحنون فى القيروان من أهل الاندلس فان وفودهم كانت تتتابع للسماع حتى يوم وفاته ٠ وقد ورد ان سليمان

---

(٩٧) الصلة لابن تشكوال جـ ١ ص ٢٠٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٥٨٥

(٩٨) انظر ابن فرحون الديباج ص ٣٧ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٧٣

(٩٩) ابن جلجل طبقات ص ١٠٧ حسن حسنى ورقات ص ٣٠٩ — ٣١٢

(١٠٠) المالكى رياض ص ٢٦٧ ويقصد بقيامه الى ازواجه الى اثنين من البقر يجران المحراث وتحرث الأرض ٠

ابن سالم راى « يوم مات سحنون مشايخ من أهل الاندلس يبكون ويضربون خدودهم كالنساء يقولون : يا أبا سعيد ليتنا تزودنا منك نظرة نرجع بها الى بلدنا »[١٠١] وكان الحجاج من أهل الاندلس يغتنمون مرورهم بالقيروان ويقيمون وقتا فيها يتعلمون من علمائها[١٠٢] .

ولا نغفل عن ذكر العلاقات الفكرية بين القيروان والاندلس عن طريق المراسلة فقد أورد عياض اشارة الى مراسلة بين قاضى القيروان وقاضى قرطبة حيث نجد فيها « انه جاء فى كتاب سحنون الى محمد بن زياد قاضى قرطبة يأمره بالشدة والمعاقبة لمن تفالس وتكرار الأدب والعذاب عليه حتى يؤدى أو يموت قال اى سحنون : وبذلك أخذت فى ابن ابى الجواد ضربته اربعا وعشرين ومائة درة وأوقفته يوم الجمعة للناس فى صحن الجامع وسوف أضربه ابدا حتى يؤدى تحت الدرة او يموت »[١٠٣] .

وقد كانت هذه المراسلات الفكرية متصلة بين قاضى القيروان وقاضى قرطبة . وكان قضاة القيروان يرون أنهم المقدمون على قضاة قرطبة ولهم المنزلة الأولى ويصور ذلك ما ورد من : « أن سليمان بن عمران قاضى القيروان كان يكتب الى عمرو بن عبد الله . من سليمان ابن عمران قاضى القيروان الى عمرو بن عبد الله فكان عمرو يسوغ ذلك ولا ينكره عليه ويكتب اليه الجواب بتقديم سليمان بن عمران وتأخير نفسه فلما ولى سليمان بن الأسود عامله سليمان بن عمران تلك المعاملة فلم يحتملها سليمان بن أسود فجاوبه بتقديم نفسه فكان سليمان بن عمران يقول : يا عجبا يعزل مثل عمرو بن عبد الله عن القضاء ويلى مثل سليمان بن أسود ذلك الجلف الجافى »[١٠٤] .

---

(١٠١) نفس المرجع ص ٢٨٨

(١٠٢) نفس المرجع ص ٤٠٧

(١٠٣) عياض المدارك ج ٢ ص ٦٠٦

(١٠٤) الخشنى قضاة قرطبة ص ٧٠ ، ٧١

وكما كان هنـاك علاقة بين القيروان والاندلس بالرسـائل وبوفود الطلاب والعلماء الى القيروان من الاندلس فقد رحل بعض العلماء من ابناء القيروان الى الأندلس واستوطنوا فيها وبثوا فيها علمهم ومعارفهم ومن هؤلاء العلماء حباشـة بن حسـن اليحصبى الذى تلقى العـلم بالقيروان من زياد بن عبد الرحمن بن زياد ومن ابراهيم بن عبـد الله الزبيدى المعروف بالقلانسى ثم رحـل الى الاندلس فلزم العبـادة ودراسـة العلم والجهاد الى ان توفى بقرطبـة سـنة ٣٧٤ هـ[١٠٥] وتميم بن محمد ابن احمـد التميمى الذى رحل الى الأندلس واسـتوطن قرطبة وحدث فيها عن أبيه وعن عبد الله بن محمد الرعينى وجماعة سـواهم وفـد سـمع منه الناس كثيرا الى ان توفى بها سـنة ٣٦٩ هـجرية[١٠٦] ومحمد ابن هشـام اليحصبى الذى تلقى العلم بالقيروان عن يحيى بن عمـر ونظرائه من علماء القيروان ثم رحل الى قرطبة واستوطنها وتلقى العلم عليـه كثير من ابنائها وقـد أسـند اليـه النظر فى الأوقاف أيام ولاية محمـد بن عبـد الله بـن أبى عيسى على القضـاء وتوفى بهـا سـنة ٣٤٣ هـ[١٠٧] .

ومحمد بن أحمـد البلوى القيروانى الذى سـكن بجانة وحدث بها عمن تلقى عنهم من علمـاء القيروان[١٠٨] ومحمد بن أحمد الفارسى من اهل القيروان وتعلم بها وبمكة والاسـكندرية ثم رحـل الى الاندلس فكان يتنقل بين قرطبـة وشـذونة واشبيلية واستقر أخيرا بقرطبـة وسمع النـاس منه كثيرا وكان خيرا متمسـكا بالسـنة شـديد الانكار على أهـل البدع الى أن توفى سـنة ٣٥٩ هـ[١٠٩] .

ومنهم محمد بن الحارث الخشنى الذى ولد ونشـأ بالقيروان حيث

---

(١٠٥) ابن القرضى تاريخ علماء الاندلس ص ١٢٨

(١٠٦) نفس المرجع ص ٩٩

(١٠٧) نفس المرجع قسم ٢ ص ١١١

(١٠٨) نفس المرجع ص ١١١

(١٠٩) نفس المرجع ص ١١٢

تعلم بها ثم رحل الى قرطبة فسمع من شيوخها . وكان حافظا للفقه عالما بالفتيا حسن القياس وقد ولى الشورى بقرطبة وكان يعمل الادهان ويتصرف فى ضروب من الأعمال اللطيفة مع قوله الشعر البليغ وقد تردد فى كور الثغر ثم استقر بقرطبة والف كتبا كثيرة وخاصة فى التاريخ والفقه وتوفى سنة ٣٦١ هـ(١١٠) ومحمد بن الحسين ابن النعمان بن المقرىء القيروانى وقد عنى بالقرآن وجوده على علماء القرآن فى القيروان ومصر ثم رحل الى الاندلس فقرأ عليه كثير من الناس وتوفى بالاندلس سنة ٣٦٨ هـ(١١١) .

ومنهم محمد بن يوسف الوراق الذى نشأ بالقيروان وتعلم بها ثم رحل الى قرطبة واستوطنها والف بالاندلس للحكم المستنصر كتابا ضخما فى مسالك افريقية وممالكها وغير ذلك من الكتب الكثيرة وخاصة فى تاريخ ملوك افريقية وأخبار تاهرت ووهران وسجلماسة وغيرها(١١٢) ومكى بن محمد حموش المقرىء الذى ولد بالقيروان وقرأ على شيوخها ثم رحل الى مصر وقرأ بها على عبد المنعم بن غلبون المقرىء الحلبى ساكن مصر وعلى غيره ثم ذهب الى الاندلس واستوطن قرطبة وقرأ عليه الطلبة بها وكان اماما مشهورا فى القراءة(١١٣) .

ولا شك أنه بعد قيام الخلافة الفاطمية واضطهادها لعلماء القيروان السنيين قد رحل من القيروان بعض أولئك العلماء الى جهات متعددة وخاصة الاندلس التى كانت تناوىء الفاطميين العداء . بل نجد ان الاندلس كانت ترحب بمن يأتى اليها ويفد الى رحابها من علماء القيروان وخاصة الذين كان يضطهدهم الشيعة ومنهم حكم بن محمد القيروانى القرشى الذى تعرض لسجن عبيد الله المهدى بسبب مهاجمته للفاطميين

---

(١١٠) نفس المرجع ص ١١٣ ، ابن فرحون الديباج ص ٣٥٩

(١١١) ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس سنة ١١٣

(١١٢) الحميدى جذوة المقتبس ص ٩٧

(١١٣) نفس المرجع السابق ص ٣٥١

وكان يتردد بين قرطبة والقيروان[١١٤] وكان ذلك مما ساعد على تقوية العلاقات الثقافية ونقل الأفكار بين القيروان والاندلس ٠

كما نلاحظ فى هذه الفترة فى البداية والازدهار أننا لا نجد من أهل القيروان من رحل الى الاندلس لأجل التعلم فيها والتقى عن علمائها وانما كان أهل الأندلس هم الذين يأتون الى القيروان لأجل التعلم وهذا دليل قوى على أن هذه الفترة كانت القيروان فيها هى المركز الفكرى فى المغرب ٠ واليها كانت تفد رحلات الطلاب من الجهات المحيطة بها ٠ واذا ذهب الى الاندلس عالم من القيروان فانما لبث علمه وتعليم الناس هناك ولم نجد عالما من القيروان ذهب الى الاندلس لطلب العلم ثم عاد ليعلم فى القيروان ما تلقاه فى الاندلس ٠

ولقد كان لكثرة التلقى على سحنون وتلاميذه اثر فى انتشار المذهب المالكى فى الأندلس والالتزام به ولعل ما سبق يضع أمام أعيننا الصورة الحقيقية للعلاقات الفكرية المتنوعة التى أوجدت جسرا متينا بين القيروان والاندلس ويوضح الدور العظيم الذى قامت به القيروان بالنسبة للاندلس حيث كانت هى همزة الوصل بين المشرق وبين الأندلس ٠

٧ ـ القيروان وصقلية :

اننا عندما نعرف أن قائد جيش الفتح لصقلية هو أسد بن الفرات فقيه القيروان وقاضيها فان ذلك يعطينا لمحة عن طبيعة هذا الفتح وعن الجنود الذين كانوا تحت امرته ولا شك أن كثيرا منهم كانوا من الفقهاء والعلماء الصالحين والزهاد ٠

واذا كان هذا هو ما يتسم به جيش الفتح فان ذلك كان له الاثر الكبير فى نشر الثقافة الاسلامية بها ٠ وعند استقرار المسلمين فيها نجد

---

(١١٤) السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٦١٥ نقلا عن التشيع فى الاندلس لمحمود مكى ص ١٢٤

الحنين الى الموطن الأصلى من أبناء هـــذا الجيش الفاتح يجـذبهم الى القيروان ٠

فبعد استقرار الفتح فيها اقبـل أبناء صقلية وأبناء الفاتحين الى القيروان لتلقى العلم والمعرفة من علماء القيروان وان لم يكن علمـــاء الطبقات قد ذكروا لنـا أسماء من رحل من صقلية قاصـدا القيروان لتلقى العلم بها الا أننا نجـد ابن الفرضى يذكر لنـا وافدا الى الأندلس من صقلية بعـد أن تعلم فى القيروان وهو عباس بن عمرو الكنـانى الوراق الذى خرج من صقلية الى القيروان سـنة ٣١٥ هـ فمكث بها الى سـنة ٣٣٦ هـ حيث خرج الى الأندلس وكان بصيرا بالرد على أصحاب المذاهب عالمـا بالكلام حافظا الأخبـار أبى عثمان الحـداد وقـد حـدث بالاندلس عن أساتذته وقـد كتب عنـه ابن الفرضى نفسـه بعض احاديثه وتوفى بقرطبـة سـنة ٣٧٩ هـ(١١٥) ٠

واذا كان المؤرخون قد اغفلوا ذكر من رحل من صقلية الى القيروان فقـد زودونا بأسـماء بعض من قام بنشر الفكر القيروانى فى صقلية ممن رحل من القيروان اليها وخاصـة من القضـاة الذين كانت الدولة تسند اليهم القضـاء فيها فكانوا يقومون بجانب القضـاء بالتعليم ونشر العلوم والمعرفة ٠ ومن هؤلاء محمد بن سليمان بن سـالم القطان الذى سـمع من سـحنون وابنه وغيرهما من علماء القيروان ورحل الى المدينـة فحدث عن محمد بن مالك بن أنس وتعلم على يديه كثير من طلبة القيروان ولقوا كثيرا من بره بهم ٠ وكان الغالب عليـه الرواية والتفسـير والف فى الفقه كتبا تعرف بالسليمانية وقـد تولى قضاء باجة ثم مصالح القيروان وأخيرا أسـند اليه القضاء فى صقلية فخرج اليها سـنة ٢٨١ هـ فنشر بها علما كثيرا وعنـه انتشر مذهب مالك فى صقليـة وظل فيها قاضيا ومعلما الى أن توفى بها فى سـنة ٢٨٩ هـ(١١٦) ومنهم أبو عمر وميمون بن عمرو

---

(١١٥) ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس ص ٢٩٩

(١١٦) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٣٤ ، الدباغ معالم ج ٢ ص ١٣٦ ، احسـان عباس العرب فى صقلية ص ٩٦

الذى سمع من سحنون وتولى القضاء بصقلية وكان مثالا فى الصلاح والتقى والزهد وتوفى سنة ٣١٦ هـ(١١٧) وابو القاسم الطرزى الذى بقى قاضيا فى صقلية مدة عشر سنوات(١١٨) وغيرهم من القضاة الذين قاموا بالتدريس فى صقلية ٠

وممن رحل الى صقلية من أهل القيروان لنشر العلم سعيد بن يحيى المعروف بابن الفرات وقد سمع من ابن سحنون وغيره ومات بصقلية(١١٩) ولقمان بن يوسف الغسانى الذى تلقى العلم بالقيروان من اصحاب سحنون وعيسى بن مسكين وغيرهم ٠ وكان عالما باللغة والحديث والرجال والقرآن يحيط باثنى عشر صنفا من العلوم وقد سكن صقلية مدة أربع عشرة سنة يدرس المدونة لأبنائها ولا شك انه قد بث فيها قدرا كبيرا من علمه الغزير الذى حصله وقد توفى بتونس سنة ٣١٩ هـ(١٢٠) ٠

وربما شجع بعض العلماء على الرحلة الى صقلية ما كان فى فى القيروان من مقاومة عنيفة من الفاطميين لعلماء السنة لا سيما بعد ان تمكن الخليفة الفاطمى من القضاء على ثورة أبى يزيد التى أيدها وشارك فيها فقهاء المالكية مما حمل كثيرا منهم الى الهجرة الى صقلية ومع انها كانت تابعة للفاطميين غير ان الاضطهاد لعلماء السنة فيها كان أقل منه فى القيروان(١٢١) ٠

وممن كان له جهد تأليفى وتعليمى فى صقلية خلف بن أبى القاسم

---

(١١٧) المكتبة الصقلية ص ١٩١ نقلا عن رياض النفوس ، ص ٦٤٨ نقلا عن العبر للذهبى ، ابن فرحون الديباج ص ٣٣٤

(١١٨) المكتبة الصقلية ص ١٨٩ نقلا عن رياض النفوس ، احسان عباس العرب فى صقلية ص ٥٥

(١١٩) عياض المدارك جـ ٣ ص ١٣٠

(١٢٠) عياض المدارك جـ ٣ ص ٣١١ – ٣١٣ المكتبة الصقلية ص ١٩٢ نقلا عن الرياض

(١٢١) احسان عباس العرب فى صقلية ص ٩٧

الازدى المعروف بالبرادعى الذى تلقى العلم فى القيروان من ابى محمد ابن ابى زيد وابى الحسن القابسى الا ان علماء القيروان كرهوه لمصاحبته سلاطين القيروان الشيعيين فلم تحصل له رياسة فى القيروان . فخرج منها قاصدا صقلية فكانت له منزلة كبيرة فيها والف كتبا منها كتاب التهذيب فى اختصار المدونة الذى نال شهرة واسعة بالمغرب والاندلس واقبل طلاب الفقه على تلقيه منه فى صقلية بل ان المناظرة فى جميع حلقات الدروس فى صقلية كانت بكتاب البرادعى التهذيب وقد اكسبه ذلك منزلة رفيعة وله أيضا كتاب التمهيد لمسائل المدونة ، وكتاب الشرح والتمامات لمسائل المدونة وكتاب اختصار الواضحة ونلاحظ أن كتبه انما هى اختصار لكتاب او شرح له الا ان اقبال الطلاب على دراسة كتبه اكسبه شهرة واسعة(١٢٢) .

ولا شك ان الكتب كانت تنقل من القيروان الى صقلية لا سيما المدونة فى الفقه المالكى والموطأ وملخصه الذى الفه القابسى وغير ذلك من الكتب المؤلفة فى فنون العلم المختلفة التى ازدهرت فى القيروان(١٢٣) .

وقد سبق ان ذكرنا عند حديثنا عن الترجمة ان بعض المترجمين كان من صقلية كما ان بعض سكان القيروان قد تعلم اللغة الصقلية فيها .

وهذا يوضح لنا العلاقات الفكرية التى كانت تربط بين القيروان وصقلية . كما كان للقيروان علاقات فكرية ايضا بالجزر التى كانت تحت سلطة القيروان او تتصل بها كجزيرة قوصرة وجزيرة مالطة وجزيرة سردانيا وجزيرة كرسكة(١٢٤)

---

(١٢٢) ابن فرحون الديباج المذهب ص ١١٢

(١٢٣) احسان عباس العرب فى صقلية ص ٩٢ ــ ٩٥

(١٢٤) انظر عثمان الكعاك الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط ص ٨ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٤١ القيروان غير عصور الازدهار الحبيب الجنحانى ص ١١٦

وفى ختام هذا الفصل أحب أن أبدى بعض الملاحظات هنا :

وهو أن هذه الرحلات الشاقة ـ التى كانت تذهب الى المشرق والمغرب أو الى الجزر فى البحر المتوسط لتكون جسرا قويا متينا تربط القيروان وهذه المراكز وكانت تبذل الجهود الشاقة فى لقاء العلماء وقضاء الأعوام فى تحصيل العلم وترقية الفكر ـ كانت رحلات يقوم بها العلماء والطلاب بمحض اختيارهم وعلى نفقتهم الخاصة ورغبة من أولئك العلماء الاجلاء والطلاب النبهاء ـ الذين حملوا راية الفكر فى هذه الفترة وأوجدوا هذه الصلات الفكرية الوثيقة بين مدن مراكز الفكر المختلفة فى الحصول على المعارف المختلفة من شتى البقاع ٠ وانهم كانوا يقوموا بذلك لا لأجل منصب من مناصب او مركز من مراكز السلطة ٠ وانما كانوا يقومون بذلك ارضاء لحب المعرفة والاحاطة بالعلوم ٠ واذا كان البعض منهم قد يلقى حظوة بعد ذلك فى مناصب الدولة كمناصب الكتابة والرسائل مثلا فان ذلك كان امرا عارضا ٠ اما غيرهم وخاصة أصحاب العلوم الشرعية فكانوا يقومون بالتعليم ابتغاء وجه الله وحب الخير بل كان كثير منهم عندما يتولى القضاء لا يتقاضى أجرا على عمله ٠

وبذلك يتضح لنا الحب العميق الذى كان يسود علماء القيروان من أجل الحصول على المعرفة وتنمية الفكر ٠ ذلك الحب الذى كان يفوق حب المناصب ومتاع هذه الحياة ٠

وان هذه العلاقات التى أوجدها أولئك العلماء والطلاب بين شتى المراكز الفكرية ـ آنذاك لم تكن تتولاها الدولة سوى بعثة الفقهاء الأولى التى أرسلها عمر بن عبد العزيز ثم الأطباء والمترجمين الذين استقدمهم أمراء الاغالبة خاصة عندما أنشئوا بيت الحكمة وبذلوا جهدهم لرقيه وتقدمه وعملوا على شراء الكتب المختلفة واحضارها له من كل مكان ٠

كما نلاحظ ان وفود العلماء والطلاب من القيروان واليها ظل مستمرا طوال الفترة التى خصصت لها هذه الدراسة ولم يستطع تغير

الولاة ولا قيام الدول والامارات المختلفة أو سقوطها أو العداء السياسى والمذهبى الذى يقوم أحيانا بين الحكام أن يقف حائلا دون ذلك • بل كان الاشعاع الفكرى الحر يخترق كل الحجب السياسية بخصوماتها وعداواتها المتعددة المتنوعة فكانت الحياة الفكرية هى الصلة التى لم تنقطع ولم تتأثر بالعداء السياسى بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر •

وهذا الاتصال الفكرى المستمر الذى لم ينقطع قد ضمن للقيروان منذ تأسيسها احاطة بما يجد من فكر فى غيرها من المراكز الفكرية ولم يجعلها فى عزلة عن غيرها بل كانت على صلة بالحركة الثقافية الفكرية آنذاك •

وكانت الرحلات والسفارات والمراسلات العلمية المتبادلة بين القيروان وبين غيرها من المنابع الأصلية فى المشرق أو بينها وبين الروافد فى الأندلس والمغرب عاملا من عوامل الربط الثقافى والامتزاج الفكرى مع المراكز الأخرى للفكر خ هذه الفترة •

* * *

الفصل الثامن

الحياة الفكرية في القيروان بين التأثير والتأثر

تمهيـــــد :

تبين لنا من عرضنا للحياة الفكرية فى القيروان انها بدأت منذ تأسيسها على أيدى الصحابة والتابعين ثم كانت بعثة الفقهاء الى القيروان فى نهاية القرن الأول الهجرى وقد سبق ان تحدثنا عنهم كما تحدثنا عن الخطباء والشعراء والكتاب الذين قدموا من المشرق الى القيروان • ولا مراء فى ان الحياة الفكرية فى القيروان بدأت بتلك البذور القادمة من المشرق ثم نمت فى القيروان • وخلال نموها كانت تتغذى كذلك من المشرق فكان الطلاب والعلماء من أبناء القيروان يرحلون الى مكة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد والشام والفسطاط • وكانوا يتلقون الحديث والفقه والتفســـير وغيرها من العلوم الشرعية ، وكذلك الأدب واللغة والنحو وما يتعلق بذلك من قوانين اللغة العربية وآدابها ، كما ذهبت بعثة من القيروان لتلقى علم العقائد فى المشرق • وعندما ازدهرت الحياة واستوت على سوقها تطورت الأهداف المقصودة فشملت غير ذلك من علوم الاوائل •

التأثير والتـأثر بالنسبة للمشرق :

مما لا شك فيه أن القيروان فى بداية هذه الفترة كانت متأثرة بالحياة الفكرية فى المشرق • خاصة بالمراكز الفكرية التى اتصت بها ســـواء فى مكة والمدينة أو الكوفة والبصرة وبغداد أو الشام ومصر • ولقد كانت رحلة العلماء والطلاب الى هذه المراكز للأخذ عن علمائها فى مختلف العلوم والآداب فيها : هى المظهر العملى الواقعى لتأثر القيروان بهذه المراكز والتفاعل معها فى حقل الحياة الفكرية •

وقد سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن بداية الحياة الفكرية وازدهارها وعن العلاقات بين القيروان والمراكز الفكرية فى المشرق اسماء عدد كبير ممن تصدى للاتصال بالحركة الفكرية فى مراكزها السابقة وخاصـــة عبد الرحمن بن انعم وعبد الله بن فروخ والبهلول بن راشد وعبد الله ابن غانم وخالد بن ربيعة الافريقى وأسد بن الفرات وسحنون بن سعيد

وبكر بن حماد ومحمد بن جعفر التميمى وغيرهم . فمنهم من تلقى على العلماء فى مكة والمدينة ومصر ومنهم من ذهب الى الكوفة والبصرة وبغداد والشام فتلقى على العلماء منها وتأثر بهم وبأفكارهم .

كما لا نغفل تاثر القيروان بمن قدم اليها من المشرق وقد ذكرنا منهم الحسن بن سعيد البصرى أحد كبار نحاة البصرة الذى استفاد منه شباب القيروان كثيرا من علمه وادبه وعامر بن المعمر بن سنان التميمى الذى نقل الى القيروان أيام العرب واخبارها ووقائعها وعياض بن عوانة الكلبى الكوفى الذى تعلم ابناء القيروان على يديه علم النحو وآداب اللغة وابراهيم بن محمد الشيبانى الذى تولى الكتابة فى نهاية دولة الاغالبة وادخل القيروان رسائل المحدثين واشعارهم وطرائف اخبارهم[1] وتعلم على يديه الكثير من أبناء القيروان . ويذكر عياض أن « افريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لانه رحل اليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقى مالك بن انس وسمع منه »[2] كما استقدم الأطباء من بغداد ومصر الى القيروان فكان لهم تاثير فى الطب فيها .

أضاف الى تأثر الفكر فى القيروان بذلك تأثره بالكتب التى كانت تشترى من المشرق وتحضر الى القيروان ليتعلم منها ابناء القيروان ويطلعوا على الافكار المشرقية فى مختلف العلوم والفنون والآداب . بل بلغ الأمر بهم ان الأمير أبا ابراهيم أحمد بن محمد الاغلبى لكى يزين عقد المحراب وما يحيط به من جدار المحراب فى جامع عقبة بن نافع استقدم تربيعات من الخزف ذى البريق المعدنى (قراميد) من العراق[3] .

ولعل هذا يوضح لنا مبلغ تاثر الحياة الفكرية فى القيروان بهذه المراكز الفكرية فى المشرق الا أننا مع ذلك نلاحظ خلال تتبعنا لعوامل تاثر

(١) المقرى نفح الطيب جـ ٤ ص ١٣٠
(٢) عياض المدارك جـ ٢ ص ٥٩١ .
(٣) دكتور السيد محمود سلم : بيوت الله مساجد ومعاهد جـ ٢ ص ١٧٧

القيروان بالمراكز الفكرية فى المشرق بذور التاثير أبناء القيروان فى غيرهم فى هذه المراكز • ويحفيهم شرفا بدون تحيز ــ أنهم وهم القادمون لأجل التعلم ان يكون عندهم من الزاد الفكرى ما يستطيعون ان يناظروا به وينافحوا عنه ويحموا الخصم اذا حاول ان يزدريهم •

• ذلك ان القيروان مع تاخر تاسيسها عن الكوفة والبصرة والفسطاط الا انها قد انفردت ببعض الأحاديث التى رويت عن الصحابة فيها بما يعطى لها فضل المشاركة فى المنزلة التى كانت تتميز بها المدن التى سكنها وأقام فيها بعض الصحابة رضى الله عنهم • فنرى سفيان الثورى وعبد الله بن لهيعة وعبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك وكبار أصحاب أبى حنيفة[٤] يروون بعض الأحاديث عن أبناء القيروان حتى أن الثورى قال : جاءنا عبد الرحمن بن زياد الافريقى بستة أحاديث يرفعها الى النبى ﷺ لم اسمع أحدا من أهل العلم يرفعها[٥] كما يرون عن موسى بن على بن رباح القيروانى أكابر العلماء منهم الليث وابن المبارك وابن وهب[٦] ، وعن يحيى بن سلام يروى مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة[٧] • وهكذا نرى كيف يروى كبار علماء مصر والكوفة والمدينة عن علماء القيروان وابنائها بما يبين لنـــا بعضا من جهود ابناء القيروان فى المشرق • وان القيروان مع تاخر تأسيسها فقد حازت شرف الانفراد ببعض الأحاديث للرسول عليه الصلاة والسلام مثل غيرها •

وقد اشرنا سابقا الى ان ابن فروخ زفر فى مجلس أبى حنيفة فازدراه زفر للغريبة فلم يزل ابن فروخ يناظره حتى علا على زفر وقطعه بالحجة[٨] هذا يصور لنـــا نوعا من تأثير الفكر القيروانى فى الكوفة ومقدار

(٤) أبو العرب طبقات ص ٩٩ ، المـــالكى رياض ص ١٠٢ ، الدباغ معالم جـ ١ ص ٣٣٠

(٥) الدباغ معالم جـ ١ ص ٢٣٦

(٦) المـــالكى رياض ص ١١٢

(٧) نفس المرجع ص ١٢٢

(٨) نفس المرجع ص ١١٦

تقدمه ممثلا فى ابنائه ليقف مواجها للفكر العراقى وقد اعترف الامـــام مالك بذلك فكانت لا ترد عليه فى مجلسه مسألة وعبد الله بن فروخ حاضر الا وقال أجب يا أبا محمد فيجيب ثم يقول مالك هذا كما قال . ثم يلتفت مالك الى أصحابه ويقول : هذا فقيه المغرب ولذلك عندما قصد عبد الله ابن فروخ مصر بعد وفاة الليث بن سعد طمع علماء مصر أن يكون ابن فروخ خلفا عن الليث وكانوا يعظمونه ويعتقدون امامته [٩] .

وقد كان فى بعض أبناء القيروان جرأة فى تحصيل العلم وزيادة الاستقصاء وتحرى المعرفة حتى وهم يتلقون العلم فى هذه المراكز الفكرية « فقد سأل أسد بن الفرات مالك بن انس يوما عن مسألة فأجابه فيها ، فزاد أسد فى السؤال فأجابه فزاد أسد فى السؤال فأجابه ثم زاد فقال مالك : حسبك يا مغربى ان أحببت الرأى فعليك بالعراق [١٠] وقـــد أدرك مالك فى أسد التحرى والجرأة فأرشده الى توجيههما الى العـــلم والعمل به فقال له عند توديعه « أوصيك بتقوى الله تعالى والقرآن والمناصحة لهذه الأمة [١١] ومن تأثير القيروان فى العراق ما يروى من أن أسد ابن الفرات عندما وصل الى العراق « أخذ عنه أبو يوسف موطأ مالك » [١٢] ومن التأثير فى مصر ما يذكر من أن أسدا بعد ان اتم كتابة الاســـدية التى ألفها من الاجابة على الاسئلة التى وجهها الى ابن القاسم فى مصر وأراد الرحيل الى القيروان شعر أهل مصر بقيمة كتاب الأسدية الذى ألفه أسد فنسخوه منه وذلك يوضح تأثير أسد بمؤلفه الاسدية فى مصر [١٣] ، قبل رحيله عائدا الى القيروان .

وقد جاوزت شهرة أحد زهاد القيروان وعبادها حدا بعيدا فاق حتى هذه المراكز الفكرية فوصلت الى سمرقند فقد ذكر مؤرخو الطبقات انه

---

(٩) عياض المدارك ج ١ ص ٣٤١

(١٠) المـالكى رياض ص ١٧٤

(١١) نفس المرجع والصفحة .

(١٢) عياض المدارك ج ٢ ص ٤٦٥

(١٣) المـالكى رياض ص ١٧٩

دفع للبهلول بن راشد كتاب ففضه فاذا فيه : « من امرأة من سمرقند مجنت مجونا لم تمجنه الا هى ثم تابت الى الله وسألت عن العباد فى أرضه فوصف لهـا أربعة : بهلول بافريقية أحدهم » قالت له فسألتك بالله يا بهلول الا دعوت ان يديم ما فتح لى فيه « فسقط الكتاب من يده وخر على وجهه وجعل يبكى حتى لصق الكتاب بطين دموعه ثم قال يا بهلول ذكرت بسمرقند خراسان الويل لك من الله ان لم يستر عليك »[١٤] .

كما رحل الى شقران بن على فى القيروان ذو النون المصرى الاخميمى وغيره لينتفع بمصاحبته ويتلقى عنه الزهد والتصوف وتهذيب النفس بالتزامها بالمثل العليا[١٥] وذلك يوضح تاثير القيروان فى هذه الأماكن بما عرف عن زهد عباد القيروان الذى وصل الى ذلك المدي البعيد وأصبح اهل تلك البلاد يقتدون به .

وفى القرن الثالث الهجرى عندما بلغ الفكر فى القيروان مرحلة الازدهار كان لعلمائها منزلة كبيرة فى المراكز الفكرية التى كانت متأثرة بها من قبل وخاصة فى العلوم الشرعية .

وقد سبق أن ذكرنا عند ترجمتنا لمحمد بن سحنون كيف ناظر يهوديا فى مصر الى ان اسلم اليهودى وكذلك فان ما حدث لمحمد بن سحنون فىمصر والمدينة يبين لنـا منزلة علماء القيروان فيهما فتحليق العلماء عليه فى مصر وسؤاله وثناء المزنى صاحب الشافعى عليه عنـد خروجه بعـد لقـائه بابن سحنون بقوله « والله ما رايت اعلم منه ولا احد ذهنا على حداثة سنة[١٦] يبين منزلة ابن سحنون فى مصر ثم ما حدث عندما دخل محمد بن سحنون مسجد النبى ﷺ بالمدينة ووجد جماعة عظيمة

---

(١٤) ابو العرب طبقات ص ١٣١ ، عياض المدارك جـ ١ ص ٣٣١ ، ٣٣٢

(١٥) المـالكى رياض ص ١٢٣

(١٦) الدباغ معالم جـ ٢ ص ٨١

محلقين على شيخ متكىء لكبر سنه وهم يتنازعون فى مسالة من مسائل امهات الأولاد فنبههم محمد بن سحنون على نكتة فاستوى الشيخ جالسا وقررها فزاد ابن سحنون اخرى فقال الشيخ من اى البلاد انت . قال من افريقية . قال من اى بلدة منها . قال من القيروان . قال ينبغى ان تكون احد الرجلين اما محمد بن سحنون واما محمد بن لبدة ابن اخى سحنون فان هذا التنكيت لا ينبغى ان يكون الا من اهل دار سحنون فقال له : انا محمد بن سحنون فقام اليه وصافحه وخرجوا من المسجد وجعل ابن سحنون يملى على الشيخ بالطريق وهو يكتب المسالة »(١٧) .

وهذا يوضح لنا كيف بدأت القيروان تؤثر فى كل من مصر والمدينة وتصل منزلة بعض علمائها الى هاتين المدينتين ويكون لعالمها سحنون منهجا فى التفكير يعرفه أولوا العلم .

وقد وصلت مؤلفات علماء القيروان الى بغداد وبلغ من تقديرهم لاحد هذه المؤلفات وهو كتاب الامامة لمحمد بن سحنون ان كتب بماء الذهب واهدى الى الخليفة(١٨) .

كما نرى أن الرسالة التى الفها ابو محمد بن ابى زيد القيروانى لتعليم أولاد المسلمين « انتشرت فى سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بـــلاد افريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان وتنافس الناس فى اقتنائها حتى كتبت بماء الذهب وأول نسخة منها بيعت ببغداد فى حلقة أبى بكر الابهرى بعشرين دينارا ذهبيا »(١٩) .

وهذا يبين لنـــا المستوى الرفيع الذى وصلت اليه القيروان فى فكرها واستطاعت به ان تؤثر فى غيرها من مراكز الفكر التى كانت متأثرة بها

(١٧) نفس المرجع ص ٨١ ، ٨٢
(١٨) المـــالكى رياض ص ٣٤٦ ،
(١٩) الدباغ معالم جـ ٣ ص ١٣٨

من قبل اثرت فى كافة انحاء العالم الاسلامى · وقد بلغت منزلة محمد ابن ابى زيد ان كان يعرف بمالك الصغير واستجازة بن مجاهد البغدادى وغيره من أصحابه البغداديين[٢٠] ·

وعند رحيل الفاطمين الى مصر استصحب المعز لدين الله معه العلماء من القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والكتاب والاطباء كما استصحب معه مكتبة ضخمة من القيروان الى القاهرة · ولا شك أن كل ذلك كان له اثر كبير فى تأثير القيروان فى مصر[٢١] ·

ونخلص من كل هذا الى ان القيروان اذا كانت متاثرة فى بداية اتصالها بالمراكز الفكرية فى المشرق فانها فى النهاية قد وصلت الى درجة من التقدم الفكرى جعلها تؤثر فى المراكز التى كانت تتأثر بها من قبل مع اختلاف فى درجة التأثر والتأثير يبينه عرضنا السابق ·

التـأثير والتاثر بالنسـبة للمغرب :

هذا هو وضع الحياة الفكرية القيروانية فى التاثير والتاثر من المراكز الفكرية فى المشرق ، أما بالنسبة للمغرب : من المدن والاقاليم والجزر التى كانت تتصل بالقيروان او تتصل القيروان بها · فقد كان للقيروان تاثير قوى فيها بل لا نغالى اذا قلنا ان الحياة الفكرية فيها وخاصة فى البداية كانت امتدادا للحياة الفكرية فى القيروان ، وبمرور الزمن كان هناك بعض تأثر من القيروان بهذه المدن والاقاليم ·

ومن قراءتنا لكتب الطبقات يتجلى لنا ذلك التأثير القوى الذى قامت بـه القيروان بالنسبة لغيرها من المدن والاقاليم والجزر فى كثير من العلوم والفنون · وليس من هدفنا تتبع كل الحالات الفردية التى اثرت بها القيروان فى غيرها وانما هدفنا استجلاء ملامح التاثير الفكرى للقيروان فى غيرها من مدن واقاليم وجزر المغرب :

---

(٢٠) عياض المدارك جـ ٤ ص ٩٣ ٤

(٢١) حسن ابراهيم الفاطمية ص ١:٥ ، حسن إبراهيم وطه شرف المعز لدين الله ص ٢٥٦

(أ) ففى مجال العلوم الشرعية :

نجد ـ كما سبق أن بينا فى علاقات القيروان ـ اعدادا كثيرة من الطلاب والعلماء يقصدون القيروان ليتلقوا على علمائها ثم نجد انهم قد قاموا بحمل هذه الافكار لتؤدى دورها وتشع من نورها فى الاماكن التى قدموا منها وسوف نذكر بعضا من هؤلاء العلماء مع الاشارة الى الاعمال التى قاموا بها فى بلادهم وفى غيرها بعد تزودهم من الحياة الفكرية فى القيروان ومدى تاثيرهم فى المدن والاقاليم التى قدموا منهـا • وذلك سيضع أيدينا على أمثلة ونماذج من التاثير القوى الذى قامت به القيروان فى مجال الفكر فى غيرها من المدن والاقاليم •

فابراهيم بن محمد بن باز القرطبى الذى سمع من سحنون كان فى الأندلس مقدما فى الفتيا وقد حدث عنه الناس[٢٢] واحمد بن الوليـد الذى سمع من سحنون تولى قضاء طليطلة وجيان[٢٣] وحزم بن غالب الرعينى الطليطلى لقى سحنون بن سعيد ثم انصرف الى بلده فكان يستفتى فيها وولى الصلاة واحكام القضاء وكان يرقى المنبر وتوفى سنة ٣٠٥ هـ[٢٤] وسعيد بن فلحون بن سعيد من البيرة وسكن بجانة وقـد أدرك بجامع القيروان ستة عشر رجلا من رواه سحنون كما التقى فى القيروان بعبد الرحمن بن عبيد البصرى فسمع منه ثم عاد الى بلده وطال عمره فكان يرحل اليه للسماع من قرطبة وغيرها[٢٥] وتوفى سنة ٣٤٦ هـ والتقـاؤه بعبد الرحمن البصرى فى القيروان يوضح لنا كيف كان يلتقى العلماء من المشرق والأندلس فى القيروان بما يجعلها مركزا للتاثير والتاثر • ومنهم فضل ابن سلمة الجهنى البجانى الذى سمع بالقيروان من يوسف بن يحيى المغامى ولقى جماعة من اصحاب سحنون وكان حافظا للفقه على مذهب

---

(٢٢) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ١٠

(٢٣) نفس المرجع ص ٢٤

(٢٤) نفس المرجع ص ١١٧

(٢٥) نفس المرجع ص ١٦٩

مالك بعيد الصوت فيه وكان يرحل اليه للمساع منه والتفقه عنده وقد حدث عنه من اهل قرطبة : احمد بن سعيد وغيره فى جماعة من اهل البيرة وبجانة وتدمير[٢٦] ومحمد بن وضاح القرطبى مولى عبد الرحمن ابن معاوية سمع بالقيروان من سحنون وعون بن يوسف وغيرهما من علماء القيروان وكان عالما بالحديث بصيرا بطرقه متكلما على علله سمع الناس منه الحديث ونفع الله به اهل الاندلس فكان ناشرا للحديث فيها[٥٧] كما يحدثنا عياض ان ممن سمع من ابى محمد بن زيد من اهل سبتة : ابو عبد الله بن العجوز وابو محمد بن غالب وخلف بن ناصر ، ومن اهل المغرب ابن امدكنو السجلماسى[٥٨] .

ونجد من ابناء القيروان نفسها من رحل الى غيرها من الاقاليم والمدن او مر بها او أوفد اليها ليتولى أمور التعليم ونشر العلوم الشرعية فيها فكان عاملا لتاثير الفكر القيروانى فى تلك الاماكن : فاهل اجدابيه قد سمعوا من سحنون عند عودته من رحلته الى المشرق سنة ١٩١ هـ[٥٩] وموسى بن عبد الرحمن القطان كان يحسن الكلام على مذهب مالك وولى قضاء طرابلس فنفذ الحقوق واقام أحكام القرآن اثنى عشر جزءا ثم عزل وسجن فكان سبب اطلاق سراحه ما امتاز به من الدقة فى الافتاء وحل المشاكل[٣٠] واحمد بن سليمان الذى روى عن سحنون رحل الى الاندلس وحدث عنه سعيد بن فلحون وتوفى ببجانة سنة ٢٩٦ هـ[٣١] . وتميم بن محمد التميمى استوطن قرطبة الى ان توفى بها سنة ٣٦٩ هـ وقد حدث عن أبيه وعن عبد الله بن محمد الرعينى وسمع الناس منه كثيرا[٣٢] .

---

(٢٦) نفس المرجع ص ٣٥٢

(٢٧) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٥ ، ١٦ .

(٢٨) عياض المدارك جـ ٤ ص ٤٩٤

(٢٩) عياض المدارك جـ ٤ ص ٤٩٤

(٣٠) نفس المرجع ص ٣٤٢

(٣١) ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس ص ٦٠

(٣٢) نفس المرجع ص ٩٩

وحكم بن محمد بن هشام القرشى القيروانى المقرىء قرأ القرآن على أهل القراءة بمصر ودخل العراق فقرأ على جماعة من اصحاب القراءات بها ثم ذهب الى الاندلس فكان يقرأ ويقرىء القرآن بها كما كتب عنه الحديث بها وقد توفى سنة ٣٧٠ هـ[٣٣] . وحباشة بن حسن اليحصبى سمع بالقيروان من زياد بن عبد الرحمن بن زياد وغيره ورحل الى المشرق فسمع من المحدثين به ثم انصرف الى الاندلس وكان فقيها فى المسائل حافظا للاختلاف عالما بالسنن والآثار وقد لزم العادة ودراسة العلم والجهاد الى أن توفى سنة ٣٧٤ هـ[٣٤] ومحمد بن احمد الفارسى القيروانى سمع بالقيروان من علمائها ومن علماء مكة والاسكندرية ثم سكن قرطبة مع تجوله فى شذونة واشبيلية وكان متمسكا بالسنة شديد الانكار على اهل البدع وقد سمع الناس منه كثيرا بقرطبة وتوفى سنة ٣٥٩ هـ[٣٥] . ومحمد ابن الحسين بن محمد المقرىء عنى بالقرآن وجوده وكان حسن الصوت به ثم رحل الى الاندلس فكان الناس يقرؤن عليه وتوفى بها سنة ٣٦٨هـ[٣٦].

وقد أوفد الى صقلية عدد من القضاة من أبناء القيروان كانت لهم مجهودات مشكورة فى سبيل نشر الفكر فيها منهم : محمد بن سليمان القطان الذى وصل الى صقلية سنة ٢٨١ هـ فنشر فيها علما كثيرا وعنه انتشر مذهب مالك بها وقد ظل فيها قاضيا الى أن توفى سنة ٣٨٩ هـ[٣٧]. وأبو عمرو ميمون بن عمرو الذى تولى قضاء صقلية فخرج اليها بكتبه وخادمته وفروته وجبته وكما خرج اليها عاد منها بدون أى متاع تعففا وزهدا . فكان قدوة للصقليين فى الزهد والتصوف وقد توفى سنة٣١٦هـ[٣٨].

---

(٣٣) نفس المرجع ص ١٢١ .

(٣٤) نفس المرجع ص ١٢٨

(٣٥) نفس المرجع قسم ٢ ص ١١٢

(٣٦) نفس المرجع ص ١١٣

(٣٧) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٣٤

(٣٨) المكتبة الصقلية ص ١٩١

وممن كان له تاثير كبير فى صقلية فى العلوم الشرعية لقمان بن يوسف الغسانى الذى اقام بصقلية أربع عشرة سنة يدرس المدونة وكان عالما باثنى عشر صنفا من العلوم[٣٩] وخلف ابو القاسم الازدى البرادعى الذى تعلم عليه فى صقلية كثير من الطلاب والف كتبا اشهرها كتاب التهذيب فى اختصار المدونة وقد كان مدار الدراسة على هـذا الكتاب فى كثير من حلقـات الدرس فى صقلية[٤٠] • ومن اهل صقلية الذين طلبوا العلم فى القيروان عبد الرحمن بن محمد الصقلى الذى الف كتبا فى التصوف منها كتاب الأنوار فى علم الأسرار ، وكتاب كرامات الأولياء والمطيعين من الصحابة والتابعين وغيرهما[٤١] •

ولعل هـذه اللمحات عن تاثير القيروان فى غيرها فى العلوم الشرعية يوضح لنا الأثر الكبير الذى قامت به القيروان فى نشر الشريعة الاسلامية فى تلك المدن والأقاليم قال عياض نقلا عن ابن عجلان الأندلسى مصورا تاثير سحنون بن سعيد أحد علماء القيروان « ما بورك لأحد بعد اصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون فى اصحابه أنهم فى كل بلد ائمة » وقال ابن حارث حاكيا رأى اهل عصره « سمعتهم يقولون كان سحنون من أيمن العلماء دخل المغرب • كان أصحابه مصابيح فى كل بلدة عد له نحو سبعمائة رجل ظهروا بصحبته وانتفعوا بمجالسه »[٤٢] •

(ب) وفى مجال العلوم اللغوية والأدبية :

يحدثنا ابن الفرضى ان قاسم بن أصبغ بن محمد القرطبى قد سمع بالقيروان من احمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر وغيرهما وقد برع فى النحو والغريب والشعر مع بصر بالحديث وقد

---

(٣٩) المكتبة الصقلية ص ١٩٢
(٤٠) ابن فرحون الديباج ص ١١٢
(٤١) احسان عباس العرب فى صقلية ص ١٤٥
(٤٢) عياض المدارك جـ ٢ ص ٦١٣

طال عمره وسمع منه كثير من اهل الأندلس الى أن توفى سنة ٣٤٠ هـ[٤٣] .
وقد رحل الى الاندلس عبد الرحمن بن بكر بن حماد الشاعر القيروانى فكتب عنه كثير من ابناء قرطبة اشعار أبيه[٤٤] ، كما كان من علماء اللغة الذين رحلوا الى صقلية لقمان بن يوسف الغسانى الذى سبق أن بينا أنه قد درس المدونة فيها وكان يحسن اللغة والنحو ولا شك أن من ابناء القيروان الذين رحلوا الى صقلية من كان يقول الشعر ويهتم بالأدب وأثروا بذلك فيها الا أن المصادر لم تمدنا بأسماء أولئك العلماء .

(ج) وفى مجال العقـائد :

نجد عبـد الملك بن العاصى القرطبى الذى رحل الى القيروان فسمع بها من علمائها كما سمع بمكة وبغداد وبعد ذلك عاد الى الأندلس فنشر فيها علما كثيرا وكان متصرفا فى علم الرأى حسن النظر فيه وكان مشـاورا فى الأحكام وقد توفى سنة ٣٣٠ هـ[٤٥] ، وأحمـد بن محمد التميمى المعروف بالقصرى الذى قرأ مرارا بصقلية كتاب تحديد الايمان وشرائع الاسلام الذى ألفه يحيى بن عمر[٤٦] . ولقد كانت الدولة الفاطمية تحاول بث المذهب الشيعى بكل الوسائل فى كل الشمال الافريقى وفى صقلية بل امتد تاثيره الى ايطاليا وفرنسا[٤٧] .

ويذكر الدكتور الحبيب الجنحانى ان القيروان كانت مؤثرا مباشرا فى انتشار مذهب المعتزلة فى الأندلس[٤٨] وان كنت لم أجد ما يشير الى ذلك فى المصادر التى رجعت اليها .

---

(٤٣) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ٣٦٦
(٤٤) نفس المرجع ٢٦٨
(٤٥) نفس المرجع ص ٢٧٤
(٤٦) المكتبة الصقلية نقلا عن الرياض ص ١٩٣ ، ١٩٤
(٤٧) يوسف الجزايرلى أرض البطولة ص ٢١٨
(٤٨) يوسف الجنحانى القيروان عبر عصر الازدهار ص ١١٨

(د) اما بالنسبة للعلوم الاجتماعية وخاصة التاريخ :

فنجد للقيروان تأثيرا وضحا فى الاندلس : فأحمد بن سعيد الصدفى القرطبى الذى رحل فسمع بمكة ومصر نجده قد سمع أيضا بالقيروان من احمد بن نصر ومحمد بن محمد اللباد وغيرهما وعندما انصرف الى الاندلس صنف تاريخا فى المحدثين يقول فيه ابن الفرضى بلغ فيه الغاية وقرىء عليه ولم يزل يحدث الى ان توفى سنة ٣٥٠ هـ[٤٩] . ومحمد بن اسامة الحجرى من أهل سرقسطة وقد رحل الى المشرق وهو من مدنها ثم استقر اخيرا فى قرطبة وكان عالما بالأخبار وأسماء الرجال والف كتبا كثيرة منها تاريخ علماء الأندلس وتاريخ قضاة الأندلس وتاريخ الافريقيين وكتاب فقهاء المالكية . وكتاب التعريف وكتاب المولد والوفاة وكتاب النسب وكتاب الاقتباس وقد ظل بقرطبة الى أن توفى بها سنة ٣٦١ هـ[٥٠] وقد كان لحياة ومؤلفات ابن حارث فى الأندلس اثر كبير فى الناحية التاريخية كما نجد عبد الله بن محمد الازدى المعروف بابن الفرضى القرطبى قد رحل فى طلب العلم الى القيروان ومصر ثم عاد الى الأندلس وقد ألف كتاب تاريخ علماء الاندلس وهو من مراجع هذا البحث[٥١] . وهذا يوضح تأثير القيروان فى الأندلس بالنسبة للعلوم الاجتماعية .

وقد قامت القيروان بتأثير قوى فى مجال الأوائل وخاصة الطب والصيدلة . وكان بيت الحكمة القيروانى من العوامل الدافعة الى قوة تأثير القيروان فى ذلك فقد ذهب خريجوه الى كثير من الأماكن فى المغرب والأندلس لمعالجة المرضى[٥٢] وقد قدم الى القيروان من قرطبة الطبيب أبو حفص عمر بن بريق حيث لازم أحمد بن الجزار ستة أشهر

---

(٤٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ٤٤

(٥٠) المرجع السابق قسم ٢ ص ١١٣ ـ عياض المدارك جـ٢ ص٥٢١

(٥١) جرجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٧١

(٥٢) حسن حسنى ص ٢٠٩

وهو الذى ادخل الى الأندلس كتاب زاد المسافر لابن الجزار وغيره من الكتب الطبية حيث تلقاها عنه المهتمون بالدراسة الطبية[٥٣] .

وقد شاع الطب فى صقلية فى بداية القرن الرابع بتأثير من القيروان[٥٤] ومنها انتقل الى ايطاليا حيث أثرت مدرسة القيروان الطبية فى كلية سالرن بايطاليا ، كما انتقل جماعة من المترجمين القيروانيين الى ايطاليا فترجموا كتب أحمد بن الجزار وغيرها من الكتب العلمية فى الرياضة والنبات والطب والصيدلة الى اللغة اللاتينية ومن هؤلاء المترجمين الذين قاموا بنقل العلوم العربية الى اللاتينية قسطنطين بن محمد القيروانى ويحيى بن افلح ويحيى السراج وقد كانت القيروان بتأثيرها فى صقلية وبمشاركتها بالتدريس والترجمة فى كلية سالرن بايطاليا أسبق بالتأثير فى أوربا من مدرسة طليطلة وكانت مدرسة سالرن بهذا التأثير القيروانى دعامة للنهضة العلمية فى أوربا وخاصة فى العلوم الطبية[٥٥] .

واذا كنا قد رأينا كل هذا التأثير للقيروان على غيرها من الأقاليم المحيطة بها فى كثير من مجالات الحياة الفكرية . فاننا نلاحظ ايضا بداية لتأثرها بغيرها وان كان تأثرا قليلا الا انه دليل على تفاعل الحياة الفكرية فيها مع النمو الفكرى فى هذه الاقاليم . وقد بدأ ذلك فى حالات فردية لاحظناها خلال بحثنا فقد رأينا على سبيل المثال ان : دراس بن اسماعيل من مدينة فاس كان حافظا للرأى على مذهب مالك وقد رحل

---

(٥٣) ابن جلجل طبقات الأطباء ص ١٠٧ ، حسن حسنى الورقات ص ٣٠٨

(٥٤) احسان عباس العرب فى صقلية ص ١٢٢

(٥٥) عثمان الكعاك الحضارة العربية ص ١١٦ ، ١١٧ ، أحمد شوكت الشطى الطب عند العرب ص ١٤١ ، غستاف لوبون حضارة العرب ص ٥٧٧

الى مكة ولقى بالاسكندرية على بن ابى مطر وسمع منه كتاب ابن المواز وحدث به فى القيروان وسمعه منه ابو الحسن ابن القابسى وأبو محمد ابن أبى زيد وقد رحل الى الأندلس ثم توفى بفاس سنة ٣٥٧ هـ(٥٦) . وسعيد بن شعبان بن قرة الأندلسى سمع منه بالقيروان وكان كثير الكتب ضابطا لما كتب ثم خرج الى صقلية فتوفى بها سنة ٢٩٥ هـ(٥٧) ، ومحمد بن اسامة الحجرى من أهل سرقسطة وقد رحل الى المشرق وهو شاب ثم قدم الى القيروان فتلقى عنه احمد بن نصر وغيره « مستخرجة العتبى » وقد توفى ببلده سنة ٢٨٧ هـ(٥٨) . ومحمد بن عبيد الله بن أيوب القرطبى الذى رحل الى بغداد فى طلب الحديث وتلقى على العلماء فيها وخاصة عبد الله بن أحمد بن حنبل واسماعيل قاضى بغداد وقد نزل بعد ذلك القيروان وسمع منه علماء القيروان ومنهم عمر بن يوسف ثم عاد الى الأندلس فتوفى بها سنة ٣١٧ هـ(٥٩) ومنهم يحيى بن عمر بن يوسف الذى رحل من الأندلس فسمع بالقيروان من سحنون كما رحل الى مصر فسمع من علمائها ثم عاد الى القيروان واستوطنها حيث سمع منه أهل القيروان وغيرهم وكانت الرحلة اليه فى وقته وقد توفى بسوسة سنة ٢٨٩ هـ(٦٠) ويحيى بن عبد العزيز القرطبى الذى رحل الى مصر ومكة وسمع من العلماء فيها وفى عودته مكث بالقيروان مدة سمع منه فيها المستخرجة للمعتبى وغير ذلك من حديثه كما حدث عنه من أهل القيروان احمد بن نصر وأبو العرب محمد بن أحمد التميمى وقد توفى بالأندلس سنة ٢٩٥ هـ(٦١) .

---

(٥٦) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ١٤٦ ، عياض المدارك جـ ٤ ص ٣٩٥

(٥٧) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ص ١٦٣

(٥٨) نفس المرجع قسم ٢ ص ١٨

(٥٩) نفس المرجع ص ٣٧

(٦٠) نفس المرجع ص ١٨٤

(٦١) نفس المرجع ص ١٨٥

كما نجد فى مجال تأثر القيروان بغيرها ما اشرنا اليه فى الترجمة سابقا من ان ابراهيم بن الأغلب الثانى قد اختار بعض المصنفات اللاتينية فى علوم الرياضة وكلف بعض الرهبان الصقليين الذين يعرفون العربية بترجمتها ومن ذلك كتاب بلينوس الرومانى فى علم النبات ، وكتاب تاريخ الأمم القديمة ليروتيم الرومانى(٦٢) .

كما نلاحظ التأثر الناتج عن ايراد التسميات البربرية للنباتات فى المعاجم اللغوية التى جمعت بين العربية والبربرية وما قام به بعض العلماء من تسجيل لأنساب البربر وحروبهم وترجمة لأخبارهم(٦٣) .

(هـ) سماتها :

وفى ختام هذا الفصل أحب أن اشير الى بعض المظاهر والسمات فى الحياة الفكرية فى القيروان والتى تدلنا على تمتع القيروان بالاستقلال الفكرى الذى نلمسه فى بعض مظاهر الحضارة فيها ومن بعض الحوادث التى وقعت بدون استقصاء لهذه الحوادث ولتلك المظاهر : ومن ذلك مئذنة مسجد القيروان التى لها تأثير بعيد لا فى المغرب والأندلس فحسب بل فى بعض المآذن المصرية مثل مئذنة مسجد الجيوشى وضريحه ومئذنة مسجد قلاوون وقبتها بحيث أصبحت مئذنة جامع القيروان تؤلف طابعا قيروانيا بحتا(٦٤) وقد كان لطابع مسجد القيروان الفريد فى محرابه وقبابه ومئذنته أثر كبير فى حمل المسلمين على بناء المساجد على نظامه فى المغرب والأندلس .

ومنها ما عبر عنه عبيد الله المهدى بأنه رآه فى القيروان ولم يره فى المشرق عندما قال : « رأيت بافريقية شيئين لم أر مثلهما بالشرق

---

(٦٢) حسن حسنى الورقات ص ٢٠٣

(٦٣) عثمان الكعاك البربر ص ١٠٥ ، يوسف الجزايرلى أرض البطولة ص ١٨٣

(٦٤) السيد محمود سالم بيوت الله مساجد ومعاهد ص ١٧٣

الحفير الذى بباب تونس (من ابواب القيروان) يعنى الماجل والقصر الذى بمدينة رقادة المعروف بقصر البحر »[٦٥] ويضيف بعض المؤرخين قنطرة باب الربيع[٦٦] الى الأثرين السابقين • ومما يؤيد استقلال القيروان فى فكرها وبراعة أبنائها فى دلك وذيوع شهرتهم ما ذكره صاحب الديباج من أن حماس بن مروان الهمدانى القيروانى اتى حلقة محمد بن عبد الحكم وتكلم حماس فصرف اليه ابن عبد الحكم وجهه ثم سأله ابن عبد الحكم عن مسألة من الجراح فأجابه ثم ساله عن أخرى فأجابه وجود فقال ابن عبد الحكم يمكن أن تكون حماس بن مروان قال نعم • وقد شهد لحماس بن مروان يحيى بن عمر بعد ان قدم من بغداد وشهد ما يدور فى حلقة حماس فقال : ما تركت فى بغداد من يتكلم فى الفقه بمثل هـذا الكلام[٦٧] كما تتمثل ظاهرة الاستقلال فى المؤلفات التى دونت فى الرد على المخالفين من الأحناف والشافعية والشيعة • وان ما حدث عندما الف أبو محمد بن ابى زيد كتبه على الفكرية ونقض كتاب عبد الرحيم الصقلى بتآليفه الكشف وكتاب الاستظهار والاعتراض على كثير مما نقلوه من خارق العادات ثم رد جماعة من أهل الأندلس ومن أهل المشرق على ابن ابى زيد بتاليف كتب عدة[٦٨] لخير دليل على حيوية الفكر القيروانى وعلى تتبع المراكز الفكرية لما يصدر عنه من أفكار ومؤلفات • كما ان فى امتداد تاثير الفكر القيروانى الى أوربا عن طريق صقلية وايطاليا وخصوصا فى علوم الأوائل كالطب والصيدلة والرياضة والفلك وغيرها لأقوى دليل على تقدمه وازدهاره الذى هو نتيجة للاستقلال والتحرر •

واننا عندما ننظر الى الحياة الفكرية فى القيروان نرى انها كغيرها من الحياة الفكرية التى نشأت فى غيرها من مراكز الفكر فى العالم

---

(٦٥) البكرى المغرب ص ٢٦
(٦٦) حسن حسنى ورقات ص ٣٧٤
(٦٧) ابن فرحون الديباج ص ١٠٨
(٦٨) عياض المدارك جـ ٤ ص ٤٩٥

خلاصـــة وافيـــة
عن البحث ونتائجــه

مضى البحث فى مقدمة وثمانيــة فصـول وستتبع الخـــــلاصة بتعريف بالمصادر وبعض الملاحق ٠

وكانت المقدمة عن الموضـوع واهميته والهدف منه والمنهج الذى سيسير عليه البحث ، وتحدث الفصل الأول عن الفتح الاسـلامى لافريقية وتأسيس القيروان فبين كيف كان الاتجاه لفتح برقة ضرورة لتأمين الاستيلاء على مصر لاسيما وقد ظهرت مساعدة حاكم برقة لحاكم الاسكندرية ٠ ولنشر الدعوة الاسلامية التى جعلت العرب يخرجون من جزيرتهم وليس للحصول على المغنم كما يدعى المستشرقون ومن يدور فى فلكهم ٠

وبين كيف تمكن المسلمون من الاستيلاء على برقة وطرابلس وبسطوا سلطانهم على الأقاليم الداخلية لهما ٠ وبذلك وقفوا على أبواب افريقية حيث استأذن عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مواصلة الفتح ولكن الخليفة أمر عمرا بايقافه الى أن كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه فأمر باستئناف الفتح بعد استشارة الصحابة فى ذلك ، وتولى أمر الغزوة الأولى عبد الله بن أبى السرح سنة ٢٧ هـ وانتصر المسلمون فيها على جرجير فى سبيطلة وعاد عبد الله بعد الانتصار الى مصر لأسباب دعته الى ذلك بعد ان عقد صلحا مع اهل افريقيــــة ٠

ثم وضح توقف فتح افريقية الى أيام معاوية بن أبى سفيان حيث أرسل فى سنة ٤٥ هـ معاوية بن جديج فى عشرة آلاف جندى لفتح افريقية فاستولى المسلمون على جلولاء وسوسة وبنزرت وظهرت على يديه فكرة ايجاد مصر اسلامى يكون مركزا للمسلمين فى افريقية ، ولكنه عاد من افريقية الى مصر لكى تسند القيادة فى افريقية الى عقبة بن نافع الفهرى الذى اسس القيروان وامن البلاد من الداخل بالاستيلاء على المدن والقري الداخلية واشعر الروم والبربر بقوة المسلمين وقبل ان يتم بناء القيروان عزل عن افريقية سنة ٥٥ هـ وأسندت قيادة افريقية الى أبى المهاجر الذى

نازل قرطاجنة وعقد صلحا معها بعد أن استولى على جزيرة شريك ٠ ثم توجه الى المغرب الاوسط فوصل الى تلمسان واقام بها حوالى عامـين وصالح عجم افريقية وحاول نشر الاسلام بين البربر بعد ان انتصر على كسيلة الأوربى الذى اعتنق الاسلام ٠ ولكنه عزل عن الامارة وعاد عقبة ثانيا ليتولى أمر افريقية فعمر القيروان وجعلها موطنا ومقرا للمسلمين ثم اتجه الى المغـرب الأقصى فى حملته الكبرى الطويلة السريعة التى تغلب فيها على الروم والبربر فى الزاب وتاهرت وتابع سيره الى المغرب الأقصى وجاوزه الى بلاد السوس ٠ وهو فى ذلك يدعو الى الله ويقيم المساجد ويترك الدعاة الى الله فى هـذه الأماكن وينتصر على كل من يعترض سبيله ٠ ثم قفل راجعا الى القيروان وعند تهودة كان استشهاده على يد كسيلة الذى ارتد عن الاسـلام وتراس الروم والبربر وزحف بهم نحو القيروان فاستولى عليهـا بعد ان انسحب الجيش الاسـلامى منها وبقى حاكما عليها مدة خمس سنوات ٠

وكان اسـتيلاء كسيلة على القيروان دافعـا للمسلمين الى محاولة استردادها وأخذ الثأر لمقتل عقبة بن نافع وقد اسندت هـذه المهمة الى زهير بن قيس البلوى الذى ظل مرابطا فى برقة مدافعا عنها الى أن أتاه المدد الذى ارسله اليه عبد الملك بن مروان من الشـام ومصر فتمكن بهذا المدد بعد معركة قاسية من تحقيق الانتصار على الروم والبربر فى معركة ممس التى قتل فيها كسيلة ٠ واسترجع زهير القيروان وثبت هيبة المسلمين وبث الفزع بين الروم والبربر لكى لا يعاودوا مقاومة المسلمين وبعد ان تم له ذلك قرر العودة الى المشرق وعندما مر ببرقة وجد حملة من الروم تغير عليها فقاومهم الى أن استشهد هو ومن كان معه دفاعا عن أسرى المسـلمين ٠

واختار الخليفة عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغسانى ليثبت أقدام المسـلمين فى افريقية ويقضى فيها على مقاومة الروم فى الشمال ومقاومة البربر فى الجنوب وقد أطلق الخليفة يده فى أموال مصر وأمده بجيش كبير بلغ أربعين الفا تمكن به حسان من فتح قرطاجنة

وهزيمة الروم والبربر فى صطفورة . وكان ذلك ايذانا بقضائه على الروم ثم توجه حسان الى جبال الأوراس ليلتقى بالكاهنة زعيمة البربر بعد كسيلة فتقابل معها على نهر نينى ولكنها تمكنت من هزيمة حسان بعد معركة شرسة فنى فيها كثير من ابطال العرب والبربر وتتبعته الكاهنة الى ان خرج من حدود قابس وكانت نتيجة ذلك استطاعة الروم أن يسترجعوا قرطاجنة من أيدى المسلمين وأن الكاهنة ملكت افريقية خمس سنوات أفسدت خلالها فى افريقية فمهدت بذلك السبيل امام حسان ليتمكن من هزيمتها وقتلها بعد معركة حامية استعد لها حسان خير استعداد بالمدد الذى وصله من الخليفـة وبتقصيه لأخبار عدوه وقد نتج عن هـذا الانتصار دخول البربر فى الاسـلام وانضوائهم تحت لوائه ليقاتلوا فى سـبيل نشره . وبعد القضاء على الكاهنة تمكن حسان من طرد الروم من قرطاجنة الى الأبد . وبذلك قضى حسـان على مقـاومة الروم والبربر ونشر الأمن والسلام فى ربوع البلاد ليستأنف مجهوداته فى سـبيل الاصلاح الصناعى باقامة دار الصناعة فى تونس لتكون تونس ميناء بحريا تجاريا تطل منه القيروان على البحر المتوسـط ، واقامة نظم ادارية ثابتة فى القيروان واعمال عمرانية أخرى كاصلاح مسجد القيروان وقد ضرب حسان بذلك مثالا رائعا فى الحرب والسـياسة التى أدت الى استقرار أقدام المسلمين فى القيروان .

ووضح الفصل الثانى كيف كان تأسيس القيروان خطوة ناجحة فى سبيل استقرار أقدام المسلمين فى افريقية ودفعهم الى العودة اليها اذا أرغموا تحت هزيمة من الهزائم على الخروج منها ، وقد وفق عقبة ومن معه فى اختيار مكانها لتقوم بالهدف المقصود من انشائها بحيث تكـون قاعدة حربية ودفاعية عن المسلمين ومنارة لنشر هداية الاسلام بين سكان افريقية وما حولها ، ثم قاعدة للولاة الأمويين والعباسيين وللدولة الأغلبية والفاطمية من بعد .

وبين الفصل كيف ابتدىء فى تأسيس القيروان بالمسجد ودار الامارة ثم مساكن الجنود وأسرهم وقد بلغت مساحة دورها ثلاثة عشر الف ذراع

وستمائة ذراع ٠ وكان داخل المدينة ينقسم الى أرباض وحارات وشوارع وأزقة واسواق ولقد أضيف الى القيروان بعد ذلك تحصينات حربية كالسور والمحارس واقيمت بعض المساجد كمسجد الأنصار ومسجد الزيتونة وغيرهما من المساجد واقيمت المصالح العـامة كدار الدواوين ودار الضرب ودار الضيافة وانشئت مشاريع المياه كالآبار والمواجل فى داخل المدينة وخارجها وبنى بالمدينـة اسـواق كثيرة أهمها سـوق القيروان الكبير الذى يدعى (السماط) نظمت فيه المتاجر والصناعات كما بنيت بالقيروان الحمامات والمتنزهات والمستشفيات والملاجىء وخصص فى خارج المدينة اماكن لدفن الموتى (المقابر) ٠

كما أشار الفصل الثانى الى ما نشأ حول القيروان من مدن هامة كانت مقرا للحكام واعوانهم حيث ازدهرت هـذه المدن ازدهارا عظيما وهى مدينة القصر القديم ورقادة والمنصـورية التى تبعد عن القيروان نصف ميل ونقل اليها اخيرا أسواق القيروان الا أن هـذه المدن قد تخربت واندثرت ولم يبق منها سوى الاطلال وبقيت القيروان محتفظة بآثارها وتاريخها ٠ كما رأيت كل ذلك فى رحلتى اليها ولا تزال الحفريات قائمة لمعرفة المدى التى وصلت اليه تلك المدن من الحضارة ٠

وتحدث الفصل الثالث عن الحالة السياسية فبين كيف انه بعد استقرار الفتح فى أيام حسان بن النعمان توافد الولاة من بنى أمية وبنى العباس على القيروان وقد بلغ عددهم حوالى تسعة عشر واليا أولهم موسى بن نصير وآخرهم محمد بن مقاتل العكى وقد وطد موسى بن نصير سلطان المسلمين فى افريقية والمغرب ثم فتح الأندلس وعمل اسماعيل بن عبيد على نشر الاسـلام بين البربر وتفقيههم فى الدين وقد مهد بشر بن صفوان أمور افريقية وغزا صقلية وسار خلفه عبيدة السلمى على نفس سيرته ٠ أما ابن الحبحاب فقد نظم شـئون القيروان وبنى المسجد الجامع بتونس وزاد فى دار الصناعة فيها وأرسل الولاة الى كل الأقاليم وفى أيامه بدأت ثورات البربر بقيادة ميسرة المدغرى حيث دارت معارك قتل فيها كثير من العرب والبربر وأدت الى انتقاض المغرب الأقصى والى استشهاد

كلثوم بن عياض امير افريقية الذى أسند اليه أمر القضاء على ثورة البربر ونتج عن ذلك انفصال المغرب الأقصى عن سلطة القيروان • وحاول البربر الصفرية الاستيلاء على القيروان ولكن حنظلة بن صفوان الكلبى والى افريقية تمكن من الانتصار عليهم فى موقعتى القرن والأصنام التى شارك فيها الرجال والنساء من أهل القيروان •

وبعد استقرار الأمر لحنظلة تمكن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى ثار بتونس من الاستيلاء على السلطة فى القيروان حيث تركها حنظلة كراهية لسفك دماء المسلمين وقد اعترفت الخلافة الاموية وهى تترنح للسقوط بعبد الرحمن بن حبيب فمكث واليا على افريقية عشر سنوات اعترفت به خلالها الخلافة العباسية وتازمت الامور ثانيا فى القيروان ، فأرسل العباسيون محمد بن الاشعث فاسترجع القيروان ونشر الأمن والسكينة فى افريقية ولكن الجند ثاروا عليه فرجع الى المشرق واسندت ولاية افريقية الى الاغلب بن سالم الذى حاول نشر السكينة فى افريقية الى ان استشهد فأسند المنصور امر افريقية الى عمر بن حفص وبعد ثلاث سنوات من امارته ثار عليه البربر الصفرية والاباضية باعداد كثيرة وحاصره فى القيروان حتى استشهد وهو يقاتلهم فولى بعده يزيد بن حاتم الذى قضى على ثورات البربر ونشر الأمن فى افريقية وجدد بناء المسجد الجامع ورتب أسواق القيروان • كما تولى امر افريقية هرثمة بن اعين فحاول اصلاح الأمور فى افريقية الا انه استعفى من امارتها لما رأى من كثرة الثوار فيها فاستعفاه الرشيد وولى محمد بن مقاتل الذى اساء السيرة فاضطربت الامور وثار الجند عليه واخرجوه من افريقية ولكن ابراهيم بن الاغلب اعاده ثانيا فكره الناس امارته مما جعل الرشيد يستطلع رأى خاصته فأشاروا بتولية ابراهيم بن الاغلب الذى كانت ولايته ايذانا بقيام الدولة الأغلبية ، ونلاحظ على هذه الفترة كثرة الولاة وكثرة الثورات من الخوارج وبعض زعماء الجند وتوالى ارسال الجيوش الى افريقية • وكان لهذه الثورات تأثير فى الحياة الفكرية فى القيروان وخاصة فى

الناحية العقائدية كما نلاحظ اهتمام العباسيين باسترجاع القيروان وبارسال كبار رجال دولتهم اليها خشية انفصال افريقية عن الخلافة ٠ ولكن افريقية حصلت على نوع استقلال بتولية ابراهيم بن الأغلب ٠ كما كان لظاهرة تتابع الجيوش على افريقية من المشرق أثر فى سرعة تعريب البلاد وسيادة سلطان اللغة العربية فى افريقية ٠

وكانت تولية ابراهيم بن الاغلب ايذانا بقيام عصر الاغالبة وباستقلال افريقية استقلالا داخليا ، وكان ابراهيم يتصف بصفات اعانته على النهوض بافريقية والرقى بها وقمع الثورات التى قامت ضده وبنى بجوار القيروان مدينة لتكون عاصمة لامارته وعهد بولاية العهد بعده لابنه عبد الله الذى توفى بعد خمس سنوات من ولايته ٠ وكانت الامور فيها هادئة مستقرة فتولى الامور زيادة الله الأول حيث قامت ضده بعض الثورات تمكن من قمعها ثم انصرف الى القيام بالأعمال الاصلاحية من بناء للمساجد والقناطر وتحصين للبلاد وتكوين جيش واسطول قوى تمكن به من فتح صقلية وضمها الى سلطان القيروان ٠ وقد تولى الامر بعده أخوه الاغلب الذى قام بتحسين حالة الجيش والرعية وتابع السرايا الى صقلية الى أن توفى فتولى الأمر ابنه محمد بن الأغلب الذى حاول نشر العدل بين الرعية والأخذ على يد الظالمين وولى سحنون شئون القضاء وتابع عماله على صقلية الغزو والفتح وقد مهد ذلك السبيل لمن تولى بعده وهو أحمد بن محمد ابن الأغلب الذى أحسن السيرة فى الرعية واتصف بالسماحة والكرم وقام بأعمال عمرانية ودفاعية عن البلاد وفى عهده فتحت قصريانة من مدن صقلية وبعد وفاته تولى زيادة الله الثانى الذى لم يطل عمره فتولى أمر افريقية أبو الغرانيق محمد بن احمد ففتحت فى عهده جزيرة مالطة وقد أسرف فى تبذير الأموال وفى اللهو واللعب فكان بيت المال خاويا بعد وفاته وأسند أهل القيروان ومشايخها الولاية بعده الى ابراهيم ابن أحمد الذى أصلح أمور الدولة وقضى على البغى والفساد وبنى الحصون والمحارس واهتم بالتجارة وبنى مدينة رقادة وتابع الفتوح

فى صقلية ورد الحملة التى قدمت الى افريقيـة من مصر وفى آخـر أيامه كان ظهور الدعوة الفاطميـة فى بلاد كتامـة ٠ وختم حيـاته بالجهـاد فى صقليـة فتولى بعـده ابنه عبد الله الذى اتصف بالعقل والشـجاعة وحسـن السيرة فى الرعيـة وقد عامـل ابنه زيادة الله بالحزم والشـدة مما جعل زيادة الله يتآمر على أبيه ويقتله وتولى زيادة اللـه الأمر بعـده فعامل أسرته معاملة سـيئة أضعفت الدولة وانهمك فى لهوه وملذاته وأهمل شـئون الدولة وقد مكن كل ذلك عبد الله الشيعى من القضاء على الدولة الأغلبيـة واضطر زيادة الله الى الفـرار الى المشرق لأ جمادى الآخـرة سـنة ٢٩٦ هـ ٠

وكانت هناك أجهزة تسـاعد الأمير على ادارة شـئون الامـارة وأهمها الوزير الذى كان يشرف على دواوين الدولة ، وهو ديوان الجيش الذى يشـمل القوات البرية والبحرية والشرطة وديوان الجباية الذى يهتم بدخل الدولة ونفقاتها وديوان الرسـائل الذى يحرر المكاتبات ٠

وقد استطاع ابو عبد الله الشيعى داعيـة الفاطميين فى افريقيـة أن ينشر الدعوة الفاطمية فيها وتمكن بقبيلة كتامة ومن تبعه من البربر الذين اعتنقوا المذهب الشـيعى من ان يتغلب على جيش زيادة الله وأن يسـتولى على المدن الافريقيـة واحدة بعد الأخـرى وكانت المعركة الحاسـمة بين الشـيعة وجيش الأغالبـة فى الأربس حيث انجلت عن انتصـار الشـيعة فيها مما حمل زيادة الله على مغادرة افريقية فدخل عبد الله الشـيعى القيروان ورقادة وتولى مقاليـد الأمور فيها فى رجب سـنة ٢٩٦ هـ ثم استنقذ عبيد الله المهدى من سـجن سجلماسـة حيث بويع بالخـلافة ثم توجه المهـدى الى رقادة فذكر اسـمه فى الخطبة وتلقب بالمهـدى أمير المؤمنين وأخذ يدير شـئون البـلاد ويعين الولاة على الاقاليم ٠ وقد قضى عبيد الله المهدى على الثورات التى قامت ضده كما قضى على عبد الله الشيعى مؤسس الدولة لتآمره عليـه ، وحـاول فتح مصر مرتين ولكنه لم يفلح فى محاولته ٠ وأنشـأ المهدى عاصـمة خلافتـه المهدية وانتقل اليها وعمـل على نشر سـلطانه فى المغرب الاوسـط

والأقصى . وتابع الحملات على بلاد الروم وبذلك بسط سلطان الخلافة على البلاد من برقة الى المغرب الأقصى وعلى صقلية وقد تولى الخلافة بعد وفاة المهدى ابنه القائم الذى ثبت اقدام الخلافة فى المغرب وأرسل أسطولا استولى على جنوة بايطاليا واثخن فى بلاد الروم وحاول الاستيلاء على مصر فلم يفلح أيضا وفى أيامه قام ابو يزيد مخلد ابن كيداد الخارجى الصفرى بالثورة عليه وهزم جيوش الفاطميين واستولى على معظم البلاد وحاصر القائم فى المهدية فاستعان القائم بصنهاجة حيث واصل الحرب للقضاء على أبى يزيد وتوفى القائم اثناء ذلك فحمل عبء القضاء على ابى يزيد خليفته المنصور الذى تمكن بعد مطاردة شاقة لأبى يزيد من القضاء عليه وعلى ثورته التى كادت تذهب بالخلافة الفاطمية وبعد انتصار المنصور عليه بنى مدينة صبرة على نصف ميل من القيروان ونقل مقر الخلافة اليها ، وبعد أن ادركته الوفاة تولى الخلافة رابع الخلفاء الفاطميين وآخرهم بالمغرب المعز لدين الله الذى نشر الامن فى البلاد وناوش أسطوله الأمويين فى الاندلس وهدد بنقض الهدنة مع الروم عند اغارتهم على اقريطش وارسل المعز حملة بقيادة جوهر الصقلى بسطت الأمن فى المغرب الأوسط والأقصى وقضت على العصاة وبعد أن استقر له الأمر فى المغرب وجه المعز جهده الى المشرق فأعد حملة أمر جوهر الصقلى عليها وزودها بكل ما يستطيع . وقد سهل ضعف مصر السياسى والاقتصادى آنذاك ووضع الخلافة العباسية فى المشرق على جوهر الاستيلاء على مصر بدون قتال يذكر وتابع جوهر بسط النفوذ على الشام والحجاز وبنى مدينة القاهرة ودعا المعز للقدوم الى القاهرة واستعد المعز للرحيل الى مصر وعين ولاته على المغرب وصقلية ورحل من افريقية فى صفر سنة ٣٦٢ هجرية متوجها الى مصر فدخلها فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ وبذلك انتقلت الخلافة الفاطمية من افريقية الى مصر وصارت افريقية امارة تابعة لمصر . وقد اعتمد الفاطميون فى سياستهم على أنصارهم الشيعيين وكان لهم جهاز سرى منظم يبين لهم حالة الرعية والحكام . وكانت البلاد مقسمة الى ولايات يعيين الخليفة الوالى

لكل منهــا والوالى مسئول عن ادارة شئون ولايته وحمايتها والدفاع عنها والى جانب الوالى كان يوجــد عامل الخراج والقاضى وصــاحب الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين بما يؤدى الى ادارة الولاية ادارة حســنة هذه لمحة عن الحالة الســياسية ٠

أما الفصل الرابع فقد تحدث عن الحالة الاقتصادية والاجتماعيــة :

فبين أنه بعــد أن اســتقرت اقدام المســلمين فى القيروان وجهوا عناية كبيرة الى الاهتمام بالحيــاة الاقتصادية فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة ٠ ففى الزراعة : تنوعت المحصولات وجلبت الى القيروان أنواع لم تكن موجودة ووزعت الأرض الموات واقيمت مشــاريع الرى للاحتفاظ بمياه الأودية لينتفع بها فى الزراعة كما اهتموا بتربية المواشى ٠

وفى الصناعة : عنى المسلمون بصناعة السفن الحربية والتجارية وآلات الحرب وسـك النقود وصناعة المنســوجات الصوفية والحريرية والقطنية والكتانية وكان فى القيروان مصنع خاص يسمى دار الطراز لصنع الأقمشة الراقيــة كما وجدت صناعة دبغ الجلود التى تســـتعمل للكتابة عليها أو للسروج والاحذية والمناطق وتجليــد الكتب وظهرت الصناعات الخشبية التى ظهر فيها الفن الدقيق ٠ وصناعة الصدفيات والعاجيات وصناعة الزجاج والبلور وقد رايت بنفسى بقايا من صناعات الزجاج والبلور فى الحفريات الموجودة فى القيروان الآن كمــا اشــتهر القيروان بصــناعة المعــدنيات على اختلاف أنواعها وخاصــة صنع المجوهرات والفضيات وصناعة الخزف المطلى وصناعة الورق والكاغد والصــابون ووجه اهتمامه الى التعدين والمناجم وخصص مكان لكل صناعة فى المدينة مما ادى الى التنافس والرقى فى الصــناعات ٠

وقد نشــأ عن التقدم الزراعى والصناعى نشــاط تجارى واســع : فكانت القيروان ســوقا كبيرا للمنتجات الزراعيــــة والصــــناعية ومقرا للتجارة الداخليــة والخارجية ٠ وقد نظمت فيها الأســواق حسب السلع المبــاعة وأنواعها وكان كثير من منتجات القيروان تصــدر الى الخــارج

كما يرد اليها بعض السلع من الخـارج وبذلك كان للقيروان علاقات نجارية مع مالى ٠ والبلاد الواقعة حول بحيرة تشاد ومع غيرها من البلاد شرقا وغربا وساعدها على ذلك موقعها الجغرافى المتوسط وكثرة مراسيها فكانت البضائع تخرج من العاصمة محمولة على القوافل الى السودان أو على طريق البحر الى مصر وصقلية والاندلس والمغرب ٠

ولقد ساعد هذا التقدم الاقتصادى فى الزراعة والصناعة والتجارة على القيام بالمشروعات الكثيرة التى كانت تقوم بها السلطة الحاكمة فى القيروان من بناء للمدن والحصون والأسوار وانفاق على الاسطول والجيش والفتوح وغير ذلك من أوجه الانفاق فى المشاريع الداخلية فى الصحة والصناعة وبناء المساجد والمستشفيات وغيرها وقد مكن هذا الازدهار الاقتصادى القيروان من التغلب على بعض الأزمات الاقتصادية التى كانت تعتريها فى بعض الأحيان وضمن لها وضعا اقتصاديا ممتازا ٠

كما بين فى هذا الفصل أن الحياة الاجتماعية فى القيروان بدأت منذ تأسيسها وكانت تتسم بالروح العسكرية فى بداية أمرها ومع مطلع القرن الثانى الهجرى زخرت القيروان بالسكان من مختلف الامصار الاسلامية وصارت بيئتها الاجتماعية تتألف من عرب وأفارقة وبربر وروم وكانت طبقات المجتمع حسب الأعمال التى يقومون بها تتكون من طبقة الحكام وكبار رجال الدولة وطبقة التجار وطبقة المثقفين والطبقة الشعبية من الجنود وأصحاب الحرف اليدوية ومنهم الفلاحون والارقاء ٠ وكان فيها رأى عام جماعى كثيرا ما حمل الحكام على مراعاته وعلى أن يكون له أثر فى تصرفات الحكام وسلوكهم تجاه الرعية ويمكن الاشارة الى المظاهر الاجتماعية فيما يلى :

١ ـ السلوك الاجتماعى العام :

حيث شاع العدل وارتفع الظلم وحورب المنكر وروعيت المصلحة العامة وانتقد كل عمل يخالف قوانين المجتمع ٠

٢ ـ وضع المرأة فى القيروان :

حيث شاركت الرجل فى الدفاع عن المدينة وحمل السلاح معه جنبا الى جنب مع رعايتها لشئون بيتها ، وقامت ببعض الاعمال اليدوية داخل المنزل وكانت تتمتع بشخصية قوية وبالحرية الكاملة مما ادى الى قلة تعدد الزوجات فى القيروان وادى هذا الوضع المشرف للمرأة الى تماسك الاسرة وقوة بنيانها وشدة تأثيرها فى المجتمع القيروانى .

٣ ـ فى اللبـــاس :

كان له انماط مختلفة ومناسبات لكل نمط يلبس فيها حسب المناسبة وخاصة بالنسبة للمرأة . وتوجد نماذج من اللباس القيروان فى مختلف الباردو بتونس شاهدتها اثناء زيارتى له .

٤ ـ فى الطعـــام :

حيث كان هناك الوان متعددة منه : بعضه جاء به العرب والبعض الآخر اقتبس من البربر وبعضه رئيسى فى الطعام والبعض الآخر للتفكه .

٥ ـ فى المواكب :

كانت تقام بعض السرادقات وتعد بعض الزينات فى المناسبات . واقيمت بعض المصليات للاجتماعات العامة كصلاة العيدين والاحتفال بالمواسم وبيعة الأمراء .

٦ ـ فى الهبات والثروة والترف :

العطاء بسخاء الذين كان يعطى للقاصدين أو يباح للرعيه أو يفرق عليهم فى المناسبات كما حدث عند ختان أبناء المعز .

٧ ـ التســلية والملاهى :

فى أيام العطلات وفى الأفراح والأعياد فكانت توجد العاب الفروسية

واللعب بالحراب وكان هناك ربض البقرية فى طرف القيروان الذى يجتمع الشبان فيه يطربون بسماع آلات الطرب ورقص الغانيات ٠

٨ ـ الصحة والنظافة :

حيث اهتم بالنظافة وبالشئون الصحية حيث كثر الأطباء واقيمت المستشفيات التى خصص بعضها للامراض المعدية كما وجدت الحمامات العامة وكانت الشوارع واسعة والاسواق منظمة مما ساعد على نظافة المدينة وادى الى التقدم الصحى ٠

٩ ـ الأمن والروح العسكرية :

كان هناك حراس بالليل وبالنهار يحافظون على الامن وينشرون السلام ويقبضون على من يحاول العبث به وكان هناك المراقبون للأسواق لمنع الغش والاحتكار او التلاعب بالأسعار وفى أيام عبيد الله المهدى والمعز حاولا نشر الروح العسكرية فيها خاصة بين الاتباع من الشيعة وحاول المعز أن يكون المجتمع متماسكا خلقيا وعسكريا وبذلك توطدت العلاقة بين الحاكم والمحكوم وشاع الأمن وظهرت الروح العسكرية ، وصارت الأمة قوية تمكنت من تحقيق سلامتها وامنها ونشر سلطانها على الشمال الافريقى كله وجزر البحر المتوسط بل تمكنت من فتح مصر وبسط سلطان الفاطميين عليها ٠

وتحدث الفصل الخامس عن بداية الحياة الفكرية :

ووضح انه قد ابتدأت الحياة الفكرية فى القيروان بالعلوم الدينية وكان الأساس لها القرآن الكريم والحديث والفقه والتفسير ٠ وقد اضطلع صحابة رسول الله ﷺ والتابعون من بعدهم بهذه المهمة فكانوا هم الذين وضعوا فيها بأيديهم بذور الحياة الفكرية لتنمو وتزدهر وتمتد أغصانها وفروعها ويفىء الى ظلالها الراغبون من كل مكان وقد تيمن البحث بذكر أسماء هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم ٠ كما ذكر بعض أسماء التابعين وخاصة من كان له مساهمة فى غرس الحياة الفكرية فى القيروان ٠

وعن هؤلاء الصحابة والتابعين تلقى ناشئة العرب وأبناء الأفارقة والبربر الذين شرح الله صدورهم للاسلام القرآن الكريم والسنة النبوية والتعاليم الدينية ٠

وأثناء خلافة عمر بن عبد العزيز ارسل بعثة من الفقهاء الى القيروان لتعليم الناس ونشر الثقافة الاسلامية فيها حيث بنى كل منهم فى القيروان دارا ومسجدا وكتابا أو مدرسة صغيرة ليحفظ الصغار القرآن ويتعلم الكبار الحديث والاحكام الفقهية والتفسير وسيرة الرسول ﷺ وغزواته وقد ترجم البحث لكل منهم بايجاز مع التركيز على الجانب الفكرى الذى قام به كل منهم ٠ وكان المجهود الذى قام به أولئك الدعاة باعثا لبعض أبناء القيروان على الرحلة الى المشرق للاستفادة من العلوم الشرعية فى المشرق وكان من أبرع واشهر هؤلاء الذين ابتداوا الرحلة الى المشرق :

١ - عبد الرحمن بن أنعم :

الذى تلقى عن التابعين فى القيروان وبرع فى العلوم الشرعية والعربية وقد روى عنه بعض أبناء المشرق كسفيان الثورى وابن لهيعة وكبار أصحاب أبى حنيفة وقد تولى قضاء القيروان آخر أيام الخلافة الأموية كما ولاه محمد بن الاشعث قضاء الفيروان بأمر المنصور فمكث قاضيا الى صدر ولاية يزيد بن حاتم فتخلى بنفسه عن القضاء وكان صريحا فى الحق لا يخشى فى الله لومة لائم سواء مع الخليفة فى بغداد أو الأمير فى القيروان فكان طول حياته رفيع القدر معظما فى صدور الناس الى أن أدركته الوفاة سنة ١٦١ هـ فدفن بباب نافع ٠

٢ - عبد الله بن فروخ الفارسى :

الذى تلقى العلم فى القيروان وكان ورعا حافظا للحديث والفقه جاهرا بالحق لا يخشى الا الله سبحانه وتعالى ثم رحل الى المشرق فلقى مالك بن أنس وسفيان الثورى وبعض التابعين كما صحب أبا حنيفة وذاكره وأخذ عن هشام بن حسان الاسدى أحد كبار محدثى

البصرة وقد كان ابن فروخ متحرر الفكر فهو أول من اظهر اراء اهل العراق بالقيروان وكان مالك يجله ويجلسه الى جواره ويجعله يفتى فى مجلسه وقد قام بنشاط كبير فى تعليم الناس فى القيروان فكان له منزلة كبيرة فيها وفى غيرها وكان البعض يرميه بالاعتزال الا انه تبرأ من ذلك • وارغمه روح بن حاتم على تولى القضاء ولكنه استطاع ان يستعفى منه ويشير بتوليه ابن غانم بدلا عنه ثم خرج الى مصر فتوفى بها ودفن بالمقطم •

٣ ـ البهلول بن راشد الرعينى :

الفقيه الزاهد الذى تعلم بالقيروان ورحل الى المشرق فسمع بمكة والمدينة من مالك والثورى وغيرهما وكان مالك ينظر اليه ويقول هذا عابد بلده وكان لا يسلم ولا يرد السلام على أهل الاهواء ويعظم الجهاد وطلب العلم وقد تعلم منه جلة العلماء بالقيروان • وله كثير من الادعية المأثورة كان يناجى بها الله سبحانه وتعالى ويعلمها تلاميذه ليسيروا على نهجها وقد بلغت شهرة البهلول الى سمرقند فى خراسان • وقد كان استشهاد البهلول نتيجة لجهره بالحق ونصحه لامير افريقية سنة ١٨٣ هـ •

٤ ـ عبد الله بن غانم الرعينى :

الذى تلقى ثقافته بالقيروان ثم رحل الى الحجاز والشام والعراق وسمع من مالك وابى يوسف وغيرهما من العلماء وقد قدره مالك وقال عنه : هذا قاضى بلده ، وعرض عليه أن يزوجه ابنته على أن يقيم عنده • وقارنه الشيرازى بقاضى البصرة وكان يقرأ لتلاميذه فقه أبى حنيفة يوما فى الاسبوع وولى القضاء فى القيروان وهو ابن اثنين وأربعين عاما فخصص يوما للفصل فى خصومات النساء وقد ذكرنا بعض ما كان يتصرف به فى قضائه خاصة عندما تكون الخصومة مع الحكام وعدم خوفه منهم وكان الخليفة يخبر ابراهيم بن الأغلب بأنه لا يفك كتابه الا اذا كان معه كتاب ابن غانم القاضى • ولذلك كان ابراهيم يحذره ويحاول كسب رضاء ابن غانم ويكتم غيظه عندما يقف

ابن غانم فى وجـه تصرفاته الخاطئـــة وقد توفى ابن غانم وهو قاض سـنة ١٩٠ هـ ٠

ومن هنا نرى ان بذورا للمذهب المـالكى والحنفى قد وصلت الى القيروان مع بدء الرحلة مما يوضـح لنا خطأ من يقول ان أهل القيروان كانوا حنفيين أو أوزاعيين ٠ كما ان علماء القيروان برحلتهم الى المشرق اضـافوا الى ما كان عندهم من علم الصحابة والتابعين فى القيروان علم الصحابة والتابعين فى المشرق ، وكان من علماء القيروان من له نظر واسـتدلال بالنسـبة للمذاهب كابن فروخ ومن يعتمد على مذهب مالك ومع ذلك يقرأ فقه أبى حنيفة لتلاميذه يوما فى الاسـبوع كابن غانم مع حرصهم على الجهر بالحـق فى كل الظروف وكان هـذا الجيل من العلماء ممهدا لازدهار الحيـاة الفكرية فى هذه العلوم ٠

ولقد اتسمت القيروان منذ نشأتها بأنها نصر اسلامى يقع على كاهله واجب كبير وشـاق فى نشر الدعوة الاســلامية وتعميم اللســان العربى فى هذه البقاع وقـد تمكنت القيروان فى النهاية من ذلك وسـاعدها على نشر اللغة كثير من الامور منها الدعوة التى اسست من أجلها والكتـاب الذى جاء بها ثم النشــاط الذى أبداه المســلمون العرب فى فتح الكتاتيب وجعل اللغة العربية لسـان للدولة الرسـمى والصـلة التى تربط بين اللغة العربية والفينيقية السـابقة التى خالطت البربرية منـذ أمد بعيـد ٠ بالاضـافة الى خصوبة اللغة العربية وضحالة اللغة البربرية ثم طول أمد الفتح وغير ذلك من الأمور التى سـاعدت على انتشـار اللغة العربيـة وجعلها لغة للبلاد ووعاء لآدابها ٠ من خطابة : ظهرت على أيدى القواد والفاتحين والولاة وقد حفظ لنا التاريخ بعض نماذجها وهى تبين الـدور الذى قامت به فى بداية الحياة الفكرية وقد ذكر البحث نماذج منها ٠ وشـعر : صور لنـا الأفكار التى كان يدور حولها من حث على الشجاعة ومقاتلة للبربر والخارجين على الولاة ٠ وقد أمدنا المؤرخون ببعض أسماء الشـعراء الذين وفدوا على ولاة القيروان وببعض شـعرهم الذى تردد صـداه فى القيروان وقد سـكن بعض هؤلاء الشـعراء القيروان وتلقى

عنهم أبناؤها اشعار الجاهليين والمخضرمين كالحكم بن ثابت السعدى وعامر بن المعمر التيمى ٠

ولم تخل القيروان فى بداية الحياة الفكرية من الكتاب أيضا وقد ذكر المالكى ان دجين بن عامر الحجرى كان يكتب لعقبة بن نافع وكان ترتيب حسان للدواوين عاملا على رقى الكتابة كما كان احد ولاة القيروان ممن تولى الكتابه قبل ولايتها وهو عبد الله بن الحبحاب ويذكر ابن النديم عن خالد بن ربيعة الافريقى انه مترسل بليغ رحل الى المشرق ونشأ فى الدواوين وله رسائل مجموعة فى الادب وقد تولى الكتاب لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى وله صداقة بعبد الحميد بن يحيى الكاتب ٠ أما الحسن بن سعيد البصرى فقد كتب ليزيد بن حاتم واستفاد بعلمه الجم وأدبه الغزير كثير من شباب القيروان ٠

وفى هذه الفترة سعدت القيروان كذلك بقدوم بعض علماء اللغة والنحو من المشرق وعنهم أخذ أبناء القيروان أصول اللغة واشعارها وأيام العرب وأخبارها ووقائعها ٠

ومن هؤلاء العلماء عياض بن عوانة الكلبى الكوفى الذى اشتهر بمعرفة النحو ورواية اللغة وتعلم على يديه النحو والعربية وآدابها أبناء القيروان وخاصة أبو الوليد المهرى الذى تثقف بعلمه الغزير كما حظيت القيروان بقدوم يونس بن حبيب الضبى البصرى الذى سمع من أبى عمرو بن العلاء وتلقى العلم عنه الكسائى والفراء وروى عنه سيبوية ولا شك ان أبناء القيروان قد اغتنموا فرصة وجوده فحاولوا الاقتباس من علمه الغزير وأدبه الجم وروايته الواسعة ٠ وقتيبة الجعفى الكوفى صاحب الكسائى الذى وفد على يزيد بن حاتم فى القيروان فروى عنه جماعة من أبناء القيروان الشعر ووقائع العرب واستفادوا منه فائدة جمة ٠

وعلى أيدى هؤلاء العلماء تخرج باكورة أبناء القيروان فى النحو واللغة والشعر وفى مقدمتهم امان بن الصمصامة الذى قال عنه الزبيدى انه عالم باللغة والشعر حافظ للقريض وشاعر مفوه ٠ وقد الف جزءا

فى النحو واللغة والشعر رواه عنه تلميذه عبد الملك المهرى . وكان ذلك ايذانا بازدهار العلوم العربية فيما بعد .

وخلال القرن الأول كان سكان القيروان مشغولين بالفتح وتثبيت اقدام المسلمين يأخذون بالكتاب والسنة دون لجوء الى تأويل ، وفى مطلع القرن الثانى الهجرى انعكس على الحياة العقلية فى القيروان بعض ما كان يدور فى المشرق من مناقشات أثارتها الفرق المختلفة (من مرجئة ومعتزلة وقدرية وخوارج) حول مسألة الايمان وهل العمل جزء منه أم لا ؟ ومسألة علاقة صفات الله تعالى بذاته ، وحرية الارادة الانسانية والامامة ، وكان أهل السنة متشددين ضد من يميل او يأخذ بهذه المذاهب .

هذا ما يمكن ان نلاحظه مما ذكرته لنا المصادرعنهذه الفترة فقد ذكرت أنه كان يوجد بالقيروان ابن صخر المعتزلى وسقيفة العراقى وعند وفاة ابن صخر المعتزلى ابى علماء السنة أن يصلوا على جنازته وقالوا « كل حى ميت » ونرى البهلول يهدد تليمذا له تمنعه من حضور درسه لأنه انصت الى المتناظرين فى حلقة سقيفة المعتزلى ، ونرى الاعتزال تهمة يرمى بها علماء السنة كما حدث مع عبد الله بن فروخ حتى نفاه عن نفسه وهذا يبين لنا وصول آراء الاعتزال الى القيروان واعتناقها من بعض العلماء . كما تمدنا المصادر بأن يحيى بن سلام نفى عن نفسه اعتقاد الارجاء مما يدل على ان الارجاء كان معروفا وان البعض كان يعتقد به . وقد قدم الى افريقية فى بداية القرن الثانى الهجرى أفراد من الخوارج الصفرية المتطرفين الذين يستحلون سفك دماء المسلمين وسبى وقتل اطفالهم ونسائهم وبثوا نحلتهم بين البربر فى المغرب الاقصى وعندما كثر جمعهم وقويت شوكتهم قدموا الى القيروان يريدون الاستيلاء عليها الا أن حنظلة بن صفوان تمكن من دحرهم فى موقعتى القرن والأصنام ولكنهم عادوا فتمكنوا من الاستيلاء علىالقيروان وعاثوا فيها فسادا وبذلك كانت افكار الخوارج الصفرية معروفة لاهل القيروان خاصة للعلماء منهم الا أن احدا من اهل القيروان لم يعتنق مذهب الصفرية ، وقد قدم من المشرق سلمة

ابن سعيد بمذهب الخارج الاباضية وتلقاه عنه بعض ابناء افريقية الذين رحلوا الى البصرة خاصة لتعلمه فتلقوا المذهب على ابى عبيدة مسلم ابن أبى كريمة البصرى احد علماء الاباضية المشهورين ومكثوا عنده فى البصرة خمسة أعوام ثم عادوا الى افريقية حيث نشروا المذهب الاباضي ومن يومها والمذهب الأباضى معروف بافريقية وقد تمكن الخوارج الاباضية من طرد الخوارج الصفرية من القيروان واستولوا عليها الى أن أخرجهم محمد بن الاشعث منها ليسود فيها مذهب اهل السنة وتعود الى سلطة الخلافة العباسية ٠

ولم يذكر لنا أحد مؤرخى الطبقات انه كان للخوارج فى هذه الفترة فى القيروان حلقات يبثون فيها تعاليمهم فى القيروان لنشر مذهبهم وعقائدهم ٠

وقد عرفت القيروان خلال هذه الفترة شيئا عن علم الطب والعناية بالصحة فقد كان موجودا بها يوحنا المتطيب طبيب يزيد بن حاتم وهو دليل على وجود الفكر الطبى الذى سوف يؤدى بعد ذلك الى ازدهار الحياة الطبية فيها ٠

وكان كل ذلك تمهيدا لازدهار الحياة الفكرية فى القيروان الذى خصص لـه الفصل الرابع :

الذى بين ان ازدهار الحياة الفكرية كان مصاحبا لقيام الدولة الأغلبية واستمر الازدهار خلال الدولة الفاطمية حيث شملت جميع العلوم والفنون ودامت الرحلة خلال هذه الفترة الى المشرق وقد ادى ازدهار الحياة الفكرية فى القيروان الى جعلها مقصدا للطلاب من شتى الاقاليم حولها ٠ من المغرب الاوسط والاقصى والاندلس وصقلية ٠ وقد ساد فى القيروان خلال هذه الفترة المذهب المالكى وكان المذهب الحنفى يليه فى معرفة العلماء أو التمذهب به٠ولكن ذلك لم يمنع من ان يكون من بين علماء القيروان من يميل الى المذهب الشافعى ويدرسه او يرد عليه ٠ وكان هناك من يسمع من عالم

حنبلى وصل كذلك الى القيروان كما وجد الفقه الشيعى عند قيام الدولة الفاطمية • وبذلك نرى المذاهب الأربعة المشهورة والمذهب الشيعى قد وصلت الى القيروان وان كان بعضها كان له الغلبة وكثرة الاتباع وبعضها لا يعتنقه الا افراد قلائل • وفى ذلك دليل على ان كل الآراء التى كانت تدور حول التشريع الاسلامى فى ارجاء العالم الاسلامى كانت معروفة وتدرس فى القيروان • وقد ساعد على ذلك علاوة على الرحلة قدوم العلماء الى القيروان والمناظرات التى كان الحكام يشجعون على عقدها بين العلماء وصولا الى وجه الصواب فى مسألة من المسائل او مشكلة من المشكلات مما أدى الى الازدهار فى الفقه والتشريع وقورن علماء القيروان بغيرهم من علماء مصر ومكة والمدينة •

وكان الوئام والصفاء بين المذاهب سائدا فى بعض الأوقات متأزما فى بعضها الآخر يصل أحيانا الى الضرب والتشريد والتعذيب الذى يؤدى فى بعض الحالات الى القتل خاصة عند قيام الخلافة الفاطمية وحملها للعلماء على اعتناق مذهبها ومقاومة علماء المالكية للشيعة بحيث كان الانتصار لهم فى النهاية ويبدو ان بعض المؤرخين قد اشتطوا فى وصف الاضطهاد بين المذاهب نتيجة الميل الى مذهب من المذاهب وان كان من المحتمل وقوع بعض الأخطاء نتيجة لانهيار حكم وقيام حكم آخر • ولكن هذا الاحتكاك بين المذاهب فى القيروان قد دفع الى بذل كل الطاقات الكامنة فى سبيل دفاع علماء كل مذهب عن مذهبهم مما ادى الى اثراء الحياة الفكرية بالأفكار والآراء وكانت مجالا لظهور علماء للشيعة كانوا يدرسون مذهبهم ويعلمونه للناس مما أضاف الى الفكر التشريعى عنصرا جديدا ومن نبغاء الفقهاء فى هذه الفترة •

١ ـ أسد بن الفرات :

الذى رحل الى المشرق فالتقى بمالك بن انس وأبدى شغفا بالبحث عن المعرفة أدى الى تقدير مالك له • وفى العراق التقى بأصحاب أبى حنيفة وكان نهما أيضا الى المعرفة ثم رجع الى مصر فالتقى بابن القاسم وكتب عنه الاسدية يسأل أسد ويجيب ابن القاسم حتى دون ستين كتابا

بطريقة المراجعة بينه وبين ابن القاسم وقد ادرك اهل مصر قيمة العمل الذى قام به أسد فنسخوه منه واخيرا عاد اسد الى القيروان ليقوم بدوره فى المساهمة فى الحياة الفكرية فيها فتلقى عليه العلم كثير من العلماء فى القيروان مالكيين وحنفيين وكان فى درسه يأخذ من اقوال أهل المدينة واهل العراق ما وافق الحق عنده ٠ وكان اسد يعلم تلاميذه كيف يجيبون ويفتون عندما تتعدد الآراء بما يدل على قدرة المفتى نفسه على التمييز بين الآراء أو عدم قدرته وهذا يبين لنا عدم تعصبه للآراء ما دام له رأى ثاقب يرى ما يطمئن اليه ٠ وقد أسند اليه القضاء فى القيروان مشاركا لابى محرز فيه وكان يجهر بالحق فى قضائه شديدا على من يخالفه فى حلقة درسه خاصة فى مسائل العقيدة مما جعل مالكا وابن القاسم يوصيانه بتقوى الله والقرآن ونشر العلم والمناصحة لهذه الأمة وختم حياته بالاستشهاد فى سبيل الله غازيا لصقلية وقائدا للجيش سنة ٢١٣هـ ٠

٢ ـ ابو سعيد سحنون بن سعيد :

ولد بالقيروان سنة ١٦٠هـ وتعلم بها ثم رحل الى مصر والمدينة ومكة سنة ١٨٨ هـ فالتقى بكثير من العلماء واخذ عنهم وعاد من رحلته الى القيروان سنة ١٩١هـ وقد أحاط بكل المسائل المالكية والف المدونة اخذا من ابن القاسم وتصحيحا للأسدية ٠ فمال الناس الى التفقه بكتب سحنون التى ذيل معظم ٠ مسائلها بالحديث والآثار الا كتبا منها بقيت على اصل اختلاطها فسميت بالمختلطة ٠ وقد رد سحنون بمدونته الفقه المالكى الى طريقة أهل المدينة الأولى مع الحفاظ على ما اضافه اسد الى الفقه من لقاح جديد بطريقة أهل العراق ، وقد انتشرت المدونة فى الآفاق وعول الناس عليها ٠ واقبل علماء القيروان عليها بالاختصار والشرح فكان لها اثر كبير واقبل الطلاب من كل مكان للتلقى على سحنون فكانت حلقته غاصة بالطلاب وذكر علماء التراجمكثيرا من تلاميذه ٠

وقد ولى القضاء سنة ٢٣٤ هـ فمكث فيه الى أن توفى سنة ٢٤٠ هـ وكان لا يتقاضى اجرا على قضائه وادخل على القضاء فى ولايته كثيرا من التنظيمات والاصلاحات التى كان لها شأن كبير فى نشر العقيدة الصحيحة

واصلاح الحياة الاجتماعية · وكان متأنيا فى فتواه الى ان يظهر له وجه الصوا بفيقضى بالحق الذى يعتقده بدون محاباة لكبير أو صغير وفى كثير من المرات وقف فى وجه الأمير واعوانه غير عابىء بهم فى تنفيذ الحق الذى يقضى به عليهم فحصل الناس بتوليه القضاء امنا واستقرارا وعدالة بين الكبير والصغير · وهو يعتبر من ائمة أهل السنة وقد امتحن بخلق القرآن وله كثير من الوصايا الدالة على تفكيره ونظره الى الأمور وقد اورد البحث بعضها · وذكر رأى العلماء الذين شاهدوا مجهوده بأعينهم بما يدل على عظيم تقديرهم له وارتفاع منزلته فى المشرق والمغرب وذكر البحث بعض ما كان يتحلى به فى لبسه ومطعمه ومعاملته ·

٣ ـ سليمان بن عمران الحنفى :

الذى تلقى عن أسد وسحنون · ومن قدم الى القيروان من علماء الكفة وبرع فى العلم حتى أشار سحنون وغيره بان يسند اليه القضاء · وتلقى العلم عن سليمان عدد من أبناء القيروان منهم محمد بن عبدون وغيره · وبعد توليه القضاء كان يعلم تفسير القرآن وغيره يومين فى الاسبوع مما يدل على أن ولاية القضاء لم تكن تلهى عن التعليم · وعندما ولاه سحنون قضاء باجة كان يحكم بمذهب ابى حنيفة وهذا يوضح لنا الصلة بين المذهب المالكى والحنفى وقد اسند اليه القضاء فى القيروان مرتين مكث فيهما سبعة وعشرين عاما ، وكان للناس رأى فيه عند توليه القضاء وعند عزله عنه · وكان سليمان لطيفا فى قضائه يعرف كيف يصل الى الحقيقة بين المتخاصمين مع ميله الى النادرة تفكها وكان متسامحا مع من يعرض عن الصلاة خلفه وتوفى سنة ٢٧٠هـ ·

٤ ـ سعيد بن محمد الغسانى بن الحداد :

تعلم بالقيروان وتونس وطرابس ولم يرحل الى المشرق ولم يتقيد بالمذهب المالكى بل درس المذهب الشافعى ومال اليه من غير تقليد كما درس غيره من المذاهب ورد على كل المذاهب وتلقى عليه العلم بعض أبناء القيروان وأورد ابو العرب فى الطبقات وعياض فى المدارك كثيرا من الروايات عنه · وقد ألف ابن الحداد كثيرا من الكتب والمقالات ولم

يستطيع المزنى صاحب الشافعى أن يرد على النقد الذى وجهه ابن الحداد الى الشافعى ، كما أحصى ابن الحداد مسائل كثيرة لأبى حنيفة ركب فيها المحال اضطرارا . وكان كل جهد ابن الحداد موجها الى الدفاع عن السنة والرد على أهل البدع حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة فكان هو القائم فى وجه الشيعة والمدافع عن السنة وقد أشير الى بعض هذه المناظرات فى البحث . ولابن الحداد حكم مأثورة أشار البحث الى بعض منها . وقد ظل يدافع عن السنة الى أن ادركته الوفاة سنة ٣٠٢هـ فحزن أهل القيروان عليه حزنا شديدا .

٥ ـ النعمان بن محمد بن منصور المغربى :

كان مالكيا ثم تشيع ودخل فى خدمة الفاطميين سنة ٣١٣ هـ وقد اهتم بجمع وحفظ ونشر كتب المذهب الشيعى وعينه المهدى قاضيا ، وعينه المنصور قاضيا لقضاته وكان عادلا فى قضائه لا يفرق بين شريف ومشروف وقوى وضعيف وكان يخطب فى المساجد الجامعة فى القيروان والمنصورية والمهدية . وكان يولى قضاة الأقاليم ويوجه اليهم الوصايا فى التمسك بالحق وقد ألف كتبا كثيرة فى فنون مختلفة فى العلم بقى منها حتى اليوم عشرون كتابا وبعض كتبه يجعلها الشيعة فى منزلة بعد الكتاب والسنة وتختص كتبه بالعقيدة والفقه والاخبار والسيرة والوعظ والارشاد وهى تمتاز بالاسلوب السهل ـ والفكرة الواضحة وقد انتقل الى مصر عند رحيل الفاطميين اليها . وظل يتولى القضاء فى عسكر المعز لدين الله الى ان أدركته الوفاة فى القاهرة سنة ٣٦٣ هـ .

وبهذا كانت القيروان موطنا للمذاهب كلها حتى الشيعى منها ولم تقصر القيروان من غيرها من مراكز الفكر الاسلامى الاخرى فحملت الفكر الاسلامى الى الأقاليم المجاورة لها فى المغرب والاندلس وصقلية ووسط وغرب افريقيا .

وفى هذه الفترة عنى بمعرفة علم القراءات وكان أهل القيروان يقرأون بحرف حمزة ولا يقرأ بحرف نافع الا الخواص حتى قدم محمد بن خيرون

فنشر قراءة نافع حتى صارت القراءة الغالبة عليهم ، ووجد عدد كبير من العلماء اهتم بالقراءة وبتجويد الصوت وفى نهاية ايام الفاطميين كان فى القيروان محمد بن سفيان المقرىء الذى ألف فى القراءات كتابه (الهادى فى القراءات) فكان هناك اهتمام بالقرآن قراءة وحفظا وتجويدا .

ووجه اهتمام كذلك الى تفسير القران ومن اشهر المفسرين فى ايام الاغالبة يحيى بن سلام النميمى وله كتاب فىالتفسير توجد أوراق منه بمكتبة القيروان العتيقة . وكان ابن الحداد يهتم بفهم القرآن وبمعانيه وقد الف موسى بن عبد الرحمن القطان اثنى عشر جزءا فى أحكام القرآن وضرب ابن اللباد بسهم وافر فى علم القرآن قراءته واعرابه واحكامه وناسخه ومنسوخه .

وبلغ اهتمام علماء القيروان بالحديث غايته : جمعا وحفظا ومعرفة لرجاله وتقصيا للضعفاء منهم والثقات والعلم بمعانى الحديث وعلله وغريبه وقد بذل موسى بن معاوية الصمادحى جهدا كبيرا فى جمع الحديث من علماء القيروان وعلماء الامصار الأخرى وخاصة المدينة ومكة والكوفة والبصرة بل وصل الى الرى منارض خراسان طلبا للحديث وجمعا له ثم عاد الر القيروان فسمع منه الحديث كثير من علماء القيروان وغيرها وقد ألف كتاب الزهد وتوفى سنة ٢٢٥ هـ وقد ألف يحيى بن عمر بن يوسف فى اصول السنن : كتاب الميزان وكتاب الرؤية وتوفى سنة ٢٨٩ هـ ، وممن كان حافظا عالما بمعانيه وعلله وغريبه ربيع بن عطاء الله القطان فكانت له حلقة بجامع القيروان أيام ابى يزيد وقد قتل شهيدا فى حصار المهدية سنة ٣٣٤ هـ وهذا يوضح عناية القيروان بالحديث وتصحيحه والبحث عن رجاله وعلله .

وقد نهضت العلوم اللغوية والادبية وشجع على ذلك تحلى كثير من الأمراء بالميل الى الآداب والعلوم . وكان قيام الدولة الاغلبية والفاطمية وحاجتهما الى الألسنة الناطقة لشرح المبادىء والأهداف من الامور التى أدت الى ازدهار الخطابة التى كانت محرضا قويا فى الحرب وحاثة على الصبر

عند اللقاء كما ازدهرت الخطابة الدينية خاصة بعد تفتح اكمام العلـوم الشرعية ٠

واستطاع الشعر فى عصر الازدهار أن يطرق جميع الاغراض : الشعر السياسى والمذهبى والغزل والرثاء والفخر والزهد والحكمة ووجد الشـعر الوصفى والتاريخى والاجتماعى ٠ وقد بلغ عدد الشعراء عند موت ابن سحنون ثلاثمائة شاعر ٠ وكانوا يحتكمون الى علماء اللغة لتقويم شعرهم ولا شك ان ذلك مما ادى الى رقى الشعر وخلوه من العيوب ٠ وبعض الامراء كان يقول الشعر فى بعض الاغراض ٠ وكانت الجوائز تعطـى للشعراء وكان لبعض الأمراء ذوق أدبى ينقدون به الشعر ، وقد ذكـر البحث امثلة للاغراض التى قيل فيها الشعر ٠ ومن شعراء الأغالبة الأمـير محمد بن الاغلب ، ومجبر بن ابراهيم بن سفيان واحمد بن ابى سليمان ، وبكر بن حماد الزناتى الذى قال الشعر فى المدح والزهد وذكر الموت وهوله ، وكانت القيروان تحظى ببعض الشاعرات منهن مهرية الاغلبية ٠ ومن الشعراء فى العصر الفاطمى أبو القاسم محمد بن عبد الله الغزارى الذى قال شعرا فى الرثاء وفى المدح ٠ ومحمد بن هانىء الازدى شاعر المغرب الكبير والذى لقب بمتنبى المغرب ٠ وقد صور امجاد الفاطميين فى الفتح والدفاع عن الاسلام وان كان قد جاوز الصواب فى مدح المعز لدين الله ٠ اما على بن محمد الايادى فكان مبجلا عند العامة والخاصـة ويقرنوه بفحول الشعراء البلغاء المعاصرين له كمتنبى المشرق ومتنبـى المغرب ،وقد قال فى الوصف كثيرا من شعره كما قال الشعر كذلك فى توحيد الله والرد على الزنادقة الملحدين ٠

وقد نهضت الكتابة وازدهرت فى ذلك العصر وكانت الرسائل مشتملة على آيات من القرآن وأبيات من الشعر وقد ذكر البحث نماذج من الكتابات المتداولة بين الولاة والخارجين عليهم وكذلك بين بعض القضاة ٠ وهنـاك نماذج من الحكم ذكرها البحث ٠

ومن الكتاب فى هذا العصر أبو سليمان داود الكاتب القيروانى وله

كتابة فيها حسن الاعتذار • وأبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيبانى البغدادى الذى ادخل رسائل المحدثين وشعرهم الى القيروان وقد تولى الكتابة فى نهاية الدولة الاغلبية وبداية الدولة الفاطمية وأورد البحث نموذجا للكتابة الموجزة • وكان للكاتب منزلة رفيعة فى الدولة الفاطمية وكان تقدم الكاتب فى كتابته دليل على تاهله لتولى الوزارةومن الأمثلة الواضحة على رقى الكتابة عهد جوهر الى أهل مصر وهو يبين مدى تقدم الكتابة فى عصر الازدهار •

وقد عظمت العناية بالعلوم اللغوية فوصع بعض العلماء دراسة مقارنة بين العربية والعبرية والبربرية ، كما وضعت معاجم مقارنة فى ذلك وكان العلماء يجمعون بين الاحاطة بالنحو والاشتغال باللغة ورواية الأدب •

وممن غلب عليه الاشتغال بالنحو عبد الملك بن قطان المهرى الذى تبحر فى اللغة الى ان استطاع أن يشرح الشعر الجاهلى من تلقاء نفسه وتلقى عنه النحو بعض أبناء القيروان والف كتبا فى النحو والصرف واللغة • ومحمد بن اسماعيل الذى كان يحفظ كتاب سيبوية وكان له حلقة يتلقى عليه فيها راغبوا النحو واللغة • واحمد بن أبى الاسود النحوى الذى كان له حلقة يعقدها فى مسجد القيروان • وكان ابراهيم بن عثمان الوزان يميل الى مذهب البصريين مع علمه بمذهب الكوفيين •

ومحمد بن جعفر التميمى القزاز الذى برع فى النحو واللغة وتخرج عليه كثير من نجباء التلاميذ والف كتبا كثيرة منها كتاب الحروف • ومن علماء اللغة ابو محمد عبد الله بن محمد الذى اشتهر بتفوقه فى اللغة وشرح الدواوين وأحمد بن ابراهيم اللؤلؤى الذى الف كتابا بعنوان الظاء والضاد • وحسن بن محمد التميمى العنبرى الذى اشتهر بكثرة شرحه للدواوين وخاصة ديوان ذى الرمة •

اما فى مجال العقيدة فلم يمنع سيادة مذهب أهل السنة من وجود مذاهب أخرى وكانت المجادلات تدور حول الآراء الكلامية من اختلاف

فى رؤية الله وخلق القرآن • ووجد من كان عارفا بأصول الديانات والف كتبا فى الرد على النصارى وأهل الشرك والبدع مما يدل على دراسة الاديان كما ثار الخلاف بين أهل السنة والشيعة فى مسألة التفضيل وقد تصدى أهل السنة لكل من خالف مذهبهم من المعتزلة خاصة فى رؤية الله تعالى وفى خلق القرآن وعندما ولى سحنون القضاء فرق أهل الاهواء من الخوارج الصفرية والاباضية • وكان السنى عندما يموت يوصى بالكتابة على قبره بأنه كان يشهد ان القرآن غير مخلوق • وبعد وفاة سحنون ثار خلاف بين ابن سحنون وابن عبدون حول الاستثناء فى الايمان وسمى من يستثنى الشكوكية كما ثار النزاع بين أهل السنة والشيعة فى التفضيل بين الصحابة وتفضيل عائشة على فاطمة ودارت مناقشات فى ذلك وقد بلغ عدد المتكلمين من أهل السنة فى القرن الثالث وبداية القرن الرابع نحو الثلاثين عالما ومن أشهرهم : محمد بن سحنون الذى أسلم يهودى على يديه فى مصر بعد مناقشة فى الدين كما جادل ابن سحنون احد المعتزلة فى خلق القرآن فلم يستطع المعتزلى اجابته • وقد الف كتبا كثيرة فى العقائد وغيرها •

ومحمد بن أبى زيد الذى لقب بمالك الصغير والذى حضر على كثير من العلماء وكان بصيرا بالرد على أهل الأهواء والف كتبا كثيرة منها رسالة فى الرد على القدرية ومناقضة رسالة البغدادى المعتزلى وكتاب الاقتداء بأهل السنة والرد على الفكرية وغير ذلك من الكتب وحضر عليه طلاب كثيرون من القيروان وغيرها •

ونجد من أهل السنة فريقا مال الى الزهد والتصوف مع الحرص على الجهاد والرباط ومن هؤلاء شقران بن على الذى قدم عليه ذو النون المصرى ليلتقى عنه وكان مجاب الدعوة •

وأبو محمد عبد الرحيم الربعى الزاهد الذى زهد فى الدنيا وبنى قصر زياد ولازم الرباط فيه وكان ينقد المرابطين عندما لا يلتزمون بآداب الرباط من الزهد فى الطعام وظل مرابطا فى سبيل الله الى ان توفى •

وقد أمدتنا المصادر بما يبين وجود فرق للخوارج بالقيروان كانت تتحدث عن الخلافة والعمل وشرط الايمان وكان من فرقها الازارقة وهى قليلة الانتشار فى المغرب والصفرية والاباضية وهما كثيرا الانتشار فى المغرب وانقسمت الاباضية الى النكارية والخلفية والنفاتية · وفى مطلع القرن الثالث الهجرى نادى المعتزلة بخلق القرآن وأوذى بعض علماء السنة من جراء ذلك وكان المعتزلة يقولون بحدوث الأسماء والصفات ويتناظرون فى ذلك ·

وفى بداية الخلافة الفاطمية تناظر بعض المعتزلة مع الشيعة ولكن كثيرا من المعتزلة انضموا الى الشيعة كابى بكر القمودى ·

وظهر التشيع فى نهاية القرن الثالث واعتنقه بعض وزراء زيادة الله كما أن محمد بن عمر المروزى الذى تولى القضاء للشيعة أمر بتنفيذ مذهبهم من ترك صلاة الاشفاع وزيادة حى على خير العمل فى الآذان مما يدل على معرفة المذهب الشيعى قبل تعلب الفاطميين على القيروان · وقد أخذ بمذهب الشيعة بعض علماء الاحناف وقليل من المالكية · والشيعة ينزهون الله تعالى عن الاتصاف بالصفات التى يتشارك فيها مع الموجودات والايمان عندهم هو الباطن والاسلام هو الظاهر ، والايمان مبنى على المعرفة والمعرفة قائمة على التأويل الباطنى لآيات الكتاب وهو وقف على الائمة ومن هنا وجب الاتباع للائمة وقد عارضهم اهل السنة فى أن يكون هناك مصدر ثالث بجوار الكتاب والسنة وهم الأئمة الذين يقتصر عليهم التاويل الباطنى لآيات الكتاب وأورد البحث أمثلة من التأويل الباطنى وبين مبالغة ابن عذارى فى وصف الشيعة بانهم كانوا يحلفون بالمهدى عالم الغيب والشهادة وقد دار نقاش حول المبادىء الشيعية فى بداية الدولة الفاطمية وعقدت لذلك المجالس التى بلغت أربعين مجلسا وقامت مناقشات كثيرة بين أهل السنة والشيعة حول مبادئهم وأوذى كثير من اهل السنة وطردوا من أعمالهم واسس الشيعة مدارس الدعوة لبث مذهبهم ونشر مبادئه وكانت تعقد الاجتماعات لذلك فى مقر المعز بالمنصورية وكان المعز يؤلف الرسائل ليلقيها قاضى قضاته على المستجيبين · وهناك كثير من النصائح التى كانت

توجه للدعاة لنشر دعوتهم وقد أدى الصراع العنيف بين اهل السنة والشيعة الى توضيح عقائد السنة والشيعة مما أدى الى ازدهار الحياة الفكرية والعقائدية فى القيروان ٠

أما فى التاريخ فنجد أن بعض المؤلفات قد وضعت فيه الا أنها فقدت كفتوح افريقية لعيسى بن محمد بن أبى المهاجر وممن اشتغل بالتاريخ عبد الله بن أبى حسان اليحصبى وكان عالما بالتاريخ وأنساب العرب واسحق الملشونى الذى كان عالما بأخبار الأمم السالفة والاعوام الماضية وغيرهم من المؤرخين الذين ظهروا فى القيروان ومن المؤرخين الذين انتفع البحث بمؤلفاتهم أبو العرب تميم والرقيق القيروانى من مؤرخى هذا العصر ٠ وقد اهتم البربر كالعرب بأنسابهم والفوا فى ذلك بعض الدواوين لحفظ انسابهم وربما أخذ عنها ابن خلدون أنساب البربر ، وقد اهتم الفكر التاريخى بسيرة الرسول ﷺ وقصص الانبياء وتاريخ الأمم السابقة ومغازى الفتح وتسجيل حياة العلماء ٠

وقد مارس علماء القيروان الرحلة والمرور بالبلدان وملاحظة البلاد الا أنه لم يصلنا ما يفيد شيئا عن مؤلفاتهم الجغرافية الا فى القرن الرابع : فمحمد بن يوسف الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ألف فى مسالك افريقية وممالكها وعنه ينقل البكرى فى مسالكه مما يبين الاهتمام بوصف الاماكن ٠ وعلى نضج الفكر الجغرافى ، كما عملت خريطة للمعز لدين الله مبينا عليها اقطار العالم وخاصة مكة والمدينة ولعل كتب الجغرافيين فى المشرق قد وصلت الى القيروان :

وفى الاجتماع نجد سحنون القاضى يحث الناس على شكر الأمير على التزامه بالحق الذى قضى به حتى يكون ذلك دافعا للأمير على السير فى طريق العدل دائما ٠ كما نجد ما يدل على مراعاة الآداب العامة عند الزيارة ، وعلى تميز العلماء بزى خاص ٠ وتمييز اليهود والنصارى ، وكان فى القيروان الملاهى والملاعب ٠ كما جمع العلماء بين الجهاد والعلم ، وقد شاركت المرأة الرجل فى الرباط والدفاع عن البلاد وفى كثير من

الاعمال وكل ذلك يدل على ملاحظة للمظاهر الاجتماعية الدالة على الفكر الاجتماعى ٠

وفى التربية نجدهم يلاحظون الاختلاف فى طبائع الاطفال ومراعاة حال السامع ولذلك وجه بعض المعلمين النقد الى ابن سحنون لأنه لم يراع هذه القاعدة ٠ كما اوصوا باختيار المعلم صحيح العقيدة والاخلاق٠ كما رأوا ان على الاستاذ محاولة اصلاح التلميذ عندما يعتريه نازع نفسى يلهيه عن دراسته ، وان اللعب حق للاطفال كذلك ٠ ولكنهم كانوا يتسمون بالجد فى تحصيل العلوم والمعارف وكان العلماء يسلكون طريق السؤال لتوضيح المسائل ، ويرون أن يتلقى العلم على العلماء ، وكان يعلم فى المكاتب والمساجد وفى المنازل ايضا كان يعلم ابناء الاثرياء وكان التعليم للذكور والأناث وهو مباح للجميع وللفرد ان يحضر الحلقة التى يريدها ٠ وكانوا يلاحظون حاجة الطالب الى التربية الجنسية وأن يتم ذلك عن طريق حلال مع مراعاة التزام الطالب بآداب فى التعلم وفى التعليم ٠

واشار البحث الى انه قد وجد فى القيروان من يعرف بعض اللغات ويتكلم بها وخاصة فى أواخر الدولة الاغلبية وهناك بعض الحوادث تدل على ذلك كالسفارات بين القيروان وايطاليا وفرنسا والأسر الذين يؤخذون من صقلية كما كان هناك من يشتغل بالترجمة وفى القيروان نسخة مترجمة لكتاب تاريخ الأمم القديمة ومن المترجمين ابو سهل دونش بن تميم وهو يتقن العربية ٠ وقد ترجمت مؤلفات من اللغات اليونانية واللاتينية الى العربية ، كما ترجم كذلك بعض المؤلفات العربية العلمية الى اللاتينية ، وكان المعز لدين الله يتقن خمس لغات عدى العربية ٠

أما الطب والصيدلة فقد بدأ الاهتمام به فى القرن الثانى وازدهر عند تأسيس بيت الحكمة وقدوم اسحاق بن عمران الذى ادخل الطب فى القيروان وتعلم عليه كثير من ابنائها والف ابن عمران كتبا كثيرة اهمها كتاب المانخوليا ٠ وبرع بعده تلميذه اسحاق بن سليمان الذى عاصر الاغالبة والفاطميين وألف كتبا فى الطب لا يزال بعضها موجودا الى اليوم ـ

وهناك عدد كبير من أطباء البدن ذكرهم المؤرخون مما يدل على نهضة طبية قد قامت فى القيروان . وممن نبغ من أبناء القيروان ونال شهرة واسعة أحمد بن ابراهيم الجزار الذى الف كتبا قيمة فى الطب وكانت له عيادة وصيدلية خاصة ويعتبر كتابه زاد المسافر وقوت الحاضر من أهم الكتب العربية ، وقد ترجم الى اليونانية واللاتينية والعبرية . وكان الاطباء يخصصون فى الامراض الباطنية وفى العيون والجراحة ، وكان يقوم بشأن مستشفى الدمنة بالقيروان مسئولون عنه ليسهرون على راحة المرضى . وقد رحل الى مصر بعض الأطباء عند رحيل المعز الى مصر .

كما تدل النهضة المعمارية والحربية على نهوض هندسى ورياضى ظهر فى المنشآت والمبانى وفى صناعة بناء السفن والآلات ، ولذلك كان هناك عناية بالحساب والرياضة وبحركة الأفلاك والنجوم وتحديد الأوقات وخاصة أوقات الصلاة وقد درس ذلك الذين رحلوا الى المشرق أو القادمون منه ومن أشهر العلماء فى ذلك أبو سهل « دونش » ادنيم بن تميم القيروانى الذى برع فى الحساب والفلك وعمل فى خدمة الفاطميين وألف كتبا فى الحساب والنجوم منها كتاب فى الحساب الهندى وكتاب فى الفلك وحركة الكواكب وغير ذلك وتوفى بالقيروان سنة ٣٦٠ هـ . ونسيم بن يعقوب الذى برع فى الفلك ووصلت شهرته الى العراق والأندلس وكان يوجد فى بيت الحكمة آلات رصد الكواكب وحساب سيرها وقد ألف غير هؤلاء كتبا فى مواقيت الصلاة ومعرفة النجوم .

وقد وجدت اشارات قليلة عن الكيمياء فى المصادر وممن تعلمها فى المشرق وعمل بها فى القيروان اسماعيل بن يوسف الذى نقلها الى القيروان وكان يحضر المواد الكيمائية وقد تعلم عليه بعض التلاميذ ومنهم محمد بن حادث الخشنى ، كما حضر الكبريت الأحمر فى القيروان وغير ذلك من عمليات التقطير وتحضير الروائح .

وقد قامت فى القيروان نهضة تأليفية واسعة شملت جميع العلوم

والفنون وقد اشار البحث الى كثير من هـذه الكتب التى ذكرها المؤرخون والتى توضح الحركة التاليفية فى القيروان ومازال ينتفع ببعض هـذه المؤلفات الى اليوم ٠

وقد نشأ عن هذه النهضة المكتبات التى حوت شتى الكتب المؤلفة فى مختلف العلوم وخاصة بعد تأسيس بيت الحكمة الذى جلبت له الكتب من كل مكان وساعد على كثرة الكتب تولى المرابطين لنسخها وكانت الترجمة من العوامل المشجعة لنمو المكتبات ، ولذلك نجد مكتبات تابعة للدولة ومكتبات فى المساجد موقوفة عليها ومكتبات خاصة يملكها بعض العلماء ، وقد بلغت بعض هـذه المكتبات الخاصة الى خمسة وعشرين قنطارا من الكتب ، وبعضها بيع بعد وفاة صاحبه بالف ومائتى دينار وقد حمل هـذا الشغف بالكتب ان قدم التجار بالكتب من المشرق لتباع فى القيروان مما يوضح لنا النضج الفكرى فى القيروان ٠

وتحدث الفصل السابع عن العلاقات بين القيروان وغيرها ٠

وبين كيف توثقت العلاقات بين القيروان ومكة والمدينة منذ البداية واستمرت على مدى فترة البحث وتمثلت هـذه العلاقات فى :

١ ـ رحلة العلماء من القيروان واليها وقد ذكر البحث بعض هؤلاء الراحلين ٠

٢ ـ وفى الرسائل التى كانت ترسل الى المدينة ٠

٣ ـ وبوفود بعض العلماء الى القيروان للزيارة او للاقامة وكان ممن قدم الى القيروان ايضا من الحجاز بعض القراء وعلماء اللغة ٠

كذلك اتصل ابناء القيروان بالعراق وتلقوا على علمائه كما ارسلت الرسائل والاستفتاءات والمكاتبات فيما يحدث فى القيروان من المشكلات الى علماء بغداد ووصل بعض ابناء القيروان الى الرى وخراسان ٠ وبجانب ذلك كان هناك اتصال بشراء الكتب واحضارها الى القيروان

ووصول بعض الكتب المؤلفة فى القيروان الى بغـداد مما وثق العلاقة الفكرية بين القيروان والعراق ٠

ولكننا نلاحظ قلة اشارة المؤرخين الى من رحل من القيروان الى الشـام وان كان عمر بن عبد العزيز هو الذى أرسل بعثة الفقهاء الى القيروان كما نجد ان بعض أبناء القيروان قد ذهب لتلقى العلم فى الشـام واتصل بعلمائها ٠ وان كان المؤرخون لم يزودونا بأسماء كثيرة مما يزيل الخفاء عن هـذه العلاقة ٠

أما بالنسبة لمصر فقد كانت فى طريق كل من ذهب الى المشرق من القيروان وكثير من الراحلين نزل بهـا وتلقى العلم فيها وخاصـة أسد وسحنون وقد كان العلماء المصريون يعظمون علماء القيروان كمـا حدث لعبد الله بن فروخ ومحمد بن سحنون وربما درس علوم اللغة فى مصر القزاز كما نجد رد علماء القيروان على بعض العلماء الذين نزلوا مصر ودعوا الى الاعتزال ، ولقد تزعم الطب فى القيروان اسحاق بن سليمان المصرى وهـذا يوضح قوة الاتصال بين القيروان ومصر ٠

وكانت القيروان هى المركز الفكرى للمغرب الأوسط والأقصى ولذلك حضر اليها الكثير من ابنائهما واغترفوا من فكرها وعلمها وقد استقر فى القيروان بعض أبنائهما بعد رحلته الى المشرق ٠

وكانت علاقة القيروان بالأندلس وثيقة قوية منذ البداية ولذلك أقبل أبناء الأندلس الى القيروان جماعات جماعات ومن كل أنحاء الأندلس ليتعلموا على علماء القيروان ثم يعودوا الى الأندلس وقد ذكر علماء الطبقات كثيرا من أسماء الذين قدموا الى القيروان من الأندلس من كل مدنها وعلى مدى فترة البحث وتعلموا شتى انواع العلوم فالقيروان هى المقر العلمى الذى تهوى اليه أفئدتهم وذكر البحث اسم طالب أو عالم من كل بلد من الأندلس قدم الى القيروان ٠ كما اشار الى بعض القضـاة فى قرطبة الذين حضروا الى القيروان وتعلموا فيها وكذلك بعض الأطباء ٠

ونلاحظ اهتمام طلاب الأندلس بالتعليم فى القيروان والاستعداد لذلك وخاصة بالنسبة للسماع من سحنون . وكان هناك اتصال بالمراسلة بين القيروان والأندلس وخاصة بين القضاة ، كما رحل بعض علماء القيروان الى الاندلس ودرسوا فيها وعلموا ابناءها فكانت لهم جهود مشكورة فى الحياة التعليمية فى الأندلس وفى توثيق العلاقات بينهما وقد اشار البحث الى بعضهم . ولقد كانت الأندلس ترحب بهؤلاء العلماء الذين كانوا يقدمون اليها بسبب اضطهاد الفاطميين لهم . ومعظم العلماء الذين رحلوا الى الأندلس كانت رحلتهم للتعليم ونشر المعرفة وليس للتعلم . وبذلك كانت القيروان عاملا فى تغذية الفكر فى الأندلس .

أما علاقات القيروان بصقلية فقد كانت قوية حيث كانت صقلية تحت حكم القيروان ، ولا شك ان كثيرا من ابناء صقلية قدم للتعلم فى القيروان وان لم يذكر المؤرخون ذلك . كما رحل بعض العلماء من القيروان الى صقلية فقاموا بنشر العلم والمعرفة فيها . وكان للقضاة جهود كبيرة فى بث العلم فيها . ومما شجع على الرحلة الى صقلية ما كان فى القيروان من اضطهاد لعلماء السنة أيام الفاطميين لم تصل صقلية الى درجته وكانت الكتب وسيلة قوية لتوثيق العلاقات بين القيروان وصقلية كما اتصلت القيروان بغير صقلية من جزر البحر المتوسط ونشرت فيها العلم والمعرفة .

وقد توثقت هذه العلاقات واستمرت بالجهود الخاصة للعلماء وبحبهم للعلم والمعرفة ولم يستطع أى حاجز ان يقف فى سبيلها أو يمنعها . مما حمى القيروان من العزلة الفكرية عن غيرها من مراكز الفكر وضمن لها التجدد الفكرى المستمر .

وكان الفصل الثامن والاخير عن التاثير والتاثر .

وقد وضح ان الحياة الفكرية فى القيروان بدأت متأثرة بالمشرق بالأخذ عن الصحابة والتابعين ثم عن بعثة الفقهاء ولم تلبث ان بدأت الرحلات الى المشرق وصاحبها رحلة العلماء الى القيروان فكان هذا

الاتصال هو المظهر العملى الواقعى لتاثر القيروان بهذه المراكز فى المشرق والتفاعل معها فى حقل الحياة الفكرية وبجانب ذلك كان استقدام الأطباء من المشرق وشراء الكتب التى كانت تظهر فى المشرق واحضارها الى القيروان ليتعلم منها أبناء القيروان ، ولقد بلغ الأمر بهم الى احضار بعض الخزف لتزيين محراب جامع عقبة بن نافع وكل ذلك يوضح مبلغ تاثر الحياة الفكرية فى القيروان ٠

وقد استطاع أبناء القيروان أن يكون لهم نصيب من التأثير فى المشرق واورد لنا المؤرخون شيئا من مظاهر هذا التاثير فى رواية الحديث عن بعض أبناء القيروان وفى انتصارهم على بعض أبناء المشرق فى المناظرة ومن نسخ الأسدية من أسد فى مصر ، ووصول سمعة البهلول الى سمرقند ، وتحليق العلماء على محمد بن سحنون فى مصر ، ووصول منهج سحنون فى تفكيره الى أولى العلم فى المدينة ، وتقدير اهل بغداد لكتاب ابن سحنون فى الامامة ، وانتشار رسالة ابن أبى يزيد الى كافة اقطار العالم الاسلامى كما ان المعز لدين الله عند انتقاله الى مصر استصحب معه كثيرا من علماء القيروان وادبائها وكثيرا من الكتب القيمة فيها ٠

وبذلك نرى ان الحياة الفكرية فى القيروان بعد ان كانت متاثرة بالمشرق وصلت فى النهاية الى التأثير فى المشرق مع اختلاف فى درجة التاثير والتاثر ٠

أما بالنسبة للمغرب فقد كان للقيروان تاثير فكرى قوى فى المدن والأقاليم والجزر التى اتصلت بها ٠ وقد تولى كثير من أبناء الأندلس الذين تعلموا فى القيروان مناصب كبيرة فى الاندلس وقاموا بنقل العلوم اليها ٠ كما رحل الى المدن والأقاليم المحيطة بالقيروان بعض علماء القيروان أو أوفدوا اليها فكانوا عاملا من عوامل التأثير فيها ٠

(أ) فى مجال العلوم الشرعية حيث تولوا مناصب القضاء والافتاء وتدريس العلوم الشرعية فكان المتعلمون فى القيروان هم المصابيح فى كل بلد ٠

(ب) وفى مجال العلوم اللغوية والأدبية نجد أبناء هـذه البلاد قد رووا الشعر واللغة عن علماء القيروان ٠

(جـ) وفى العلوم الصقلية نجد أبا جعفر بن نطف أو نطيف يقرأ فى صقلية كتاب تجديد الايمان وشرائع الاسلام ٠

(د) وفى العلوم الاجتماعية نجد بعض من تعلم فى القيروان من أهل الأندلس قد ألف فى تاريخ المحدثين كما نجد ابن حارث من القيروان وألف فى الأندلس فى التاريخ وابن الفرضى أيضـا تعلم فى القيروان ٠

(و) وفى مجال علوم الأوائل قامت القيروان بتأثير قوى وخاصة فى الطب الذى وصل أثره الى مدن المغرب والأندلس وصقلية والى ايطاليا وخاصة فى كلية سالرن التى انتقل اليها بعض مترجمى القيروان ونقلوا اليها الكتب العلمية فى الرياضة والنبات والطب والصيدلة بعد ترجمتها الى اللاتينية وكانت القيروان بذلك أسبق تأثيرا فى أوربا من مدرسـة طليطلة ٠

ومع هـذا التأثير للقيروان على غيرها من المدن والأقاليم المحيطة بها فى مجالات الحياة الفكرية فاننا نلاحظ حالات فردية تدل على بداية لتأثر القيروان بغيرها من المدن والأقاليم المحيطة بها فنجد عالمـا من فاس ينقل كتاب ابن المواز الى القيروان ويحدث به كما نجد علماء من الأندلس قد درسوا فى القيروان وتلقى عليهم أبناء القيروان العلم وخاصـة بعـد رحلتهم الى المشرق كمـا كان للرهبان الصقليين الذين احضرهم ابراهيم بن الأغلب والكتب اللاتينيـة التى قاموا بترجمتها تأثير فى القيروان بالاضافة الى بعض التأثر الناتج عن الاتصال بالبربر والـذى ظهر فى المعاجم اللغوية التى جمعت بين العربية والبربرية ٠

ومما ذكرناه يتجلى لنـا تمتع القيروان بالاسـتقلال الفكرى الذى نستطيع أن نلمس مظاهره فى بعض الحوادث والمظاهر ٠ كمئذنة مسجد

القيروان ومحرابه وقبابه وتأثير ذلك فى المغرب والأندلس ومصر ، واعجاب عبيد الله بأشـياء لم يرها فى المشرق ثم شهرة علماء القيروان فى مراكز الفكر الأخرى من العالم الاسـلامى وشهرة الكتب التى ألفت فى القيروان للرد على المخالفين وتتبع المراكز الأخرى لما يجد من فكر فى القيروان وأخيرا فان امتداد الفكر القيروانى الى أوربا دليل على تقدمه وازدهاره ، الذى هو نتيجة للاستقلال والتحرر .

واذا كان طابع الحياة الفكرية فى القيروان يعتبر متشابها مع غيره من ناحية نوع العلوم التى تدرس حيث كان يبتدىء بالعلوم الشرعية والعربية والعقلية مع اتصال بعلوم الأوائل الا ان التأثير بالبيئة ظهر مع ذلك فى بعض النماذج بالجمع بين الجهاد والعلم وكالرباط بجوار التفقه للعلماء والزهاد ، والجمع بين العربية والبربرية فى القواميس مثلا .

كما ان القيروان قد أدت واجبها بالتأثير بافكارها وحياتها العلمية فى غيرها ، فهى لم تنعزل ولم تتجمد وان كانت الصبغة الغالبة عليها هى الالتزام بالكتاب والسنة مع التحرر من الالتزام بأقوال الفقهاء وميل بعض العلماء الى المذاهب المختلفة فقهيا وعقائديا وميل آخرين الى الزهد والتصوف والمرابطة فى سبيل الله نشرا للفكر الاسلامى ودفاعا عن جزء من الوطن الاسلامى الكبير .

ونستطيع أن نلخص النتائج التى توصل اليها البحث بعد دراستنا للحياة الفكرية للقيروان فى الأمور التالية :

١ ـ كان فى القيروان نهضة واسعة النطاق فى مختلف العلوم الشرعية من الفقه والحديث والتفسير والقراءات وكان الطابع العام لها هو التمسك بالكتاب والسنة وبالمذهب المالكى وان كان ذلك لم يمنع من وجود مذاهب فقهية أخرى اخذ بها بعض العلماء .

٢ ـ كان هناك اهتمام بالعلوم العربية : فى النحو واللغة والأدب وتجلى ذلك فى النحو التنظيرى أو الدراسة المقارنة مع الاحاطة بمذاهب

البصريين والكوفيين ، وفى وضع معاجم لدراسة العربية والعبرية والبربرية وفى رقى الأدب وخاصة الشعر الذى قيل فى كثير من اغرضه مع اهتمام بالكتابة والخطابة ٠

٣ ـ مع التزام علماء القيروان بالكتاب والسنة والسير على منهج السلف فى العقيدة الا أن القيروان قد عرفت المذاهب المختلفة من خوارج ومعتزلة وشيعة وكان من أهل السنة من مال الى الزهد والتصوف الذى تحول الى الرباط والدفاع عن وطن الاسلام وثغوره ٠

٤ ـ اهتم الفكر القيروانى بتاريخ الحوادث التى عاصرته ودراسة الأحداث الماضية ومرصد المسالك والممالك وتسجيل المظاهر الاجتماعية ووضع الأسس والنظريات التربوية من أجل الرقى بالحياة الفكرية ٠

٥ ـ كان هناك اهتمام بدراسة اللغات والترجمة من اللغات الأخرى وخاصة فى علوم الطب والصيدلة والفلك والرياضة ٠

٦ ـ حققت القيروان تقدما واضحا فى الطب والصيدلة والرياضة والفلك والكيمياء ٠

٧ ـ قامت فى القيروان حركة تاليفية واسعة شملت جميع العلوم والفنون وبعض هـذه المؤلفات مازال يدرس حتى اليوم ٠ وانشئت المكتبات المتعددة : حكومية مملوكة للدولة وعامة موقوفة على المساجد ، وخاصة مملوكة للأفراد ٠

٨ ـ فى مجال العلاقات نلاحظ :

(أ) ان القيروان داومت على عقد الصلات الفكرية بمراكز الفكر المختلفة فى المشرق وكان لها صلات بالمدن والأقاليم فى المغرب ، وتم ذلك بشتى الطرق (من رحلة اشخاص ـ احضار كتب ـ ارسال رسائل) ٠

(ب) كانت تلك العلاقات بمجهود ذاتى اختيارى وبدافع فطرى حبا للعلم والمعرفة ٠

(ج) لم يستطع أى عائق - سواء من تغير الولاة أو الامارات أو العداء السياسى - أن يوقف مد العلاقات الفكرية المتدفق على مدى الفترة الزمنية التى خصص البحث لها .

٩ - ضمن الاتصال القيروانى الوثيق بمراكز الفكر الأخرى الاحاطة بما يجد من فكر فى غيرها وجعل معين الفكر فيها دائم التجدد والتطور والتقدم ولم يجعلها تنعزل عن تيار الفكر والمعرفة فى فترة البحث .

١٠ - كانت الحياة الفكرية فى القيروان ذات اثر قوى فى نقل الفكر الاسلامى والحضارة العربية الى المدن والأقاليم المحيطة بها والى الأندلس وجزر البحر المتوسط ثم الى ايطاليا عن طريق تأثيرها فى صقلية .

١١ - ظلت الحياة الفكرية فى القيروان فى هذه الفترة هى الرائد للفكر الاسلامى والعربى فى غرب العالم العربى الاسلامى واستمرت تحمل مشعل الهداية والفكر بما يحقق ما أراده لها مؤسسها صاحب رسول الله ﷺ عقبة بن نافع الفهرى رضى الله عنه عندما دار حولها هو والصحابة رضى الله عنهم ودعا لها قائلا : « اللهم املأها علما وفقها واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر واعز بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » .

« ولله الحمد والمنة »

* * *

الملاحـــق

(ملحــق ١)

من نمــاذج الخطابة :

الخطبة السياسية التى القاها ابراهيم بن الأغلب على منبر القيروان عندما طرد تمام بن تميم التميمى وذكر الناس فيها بحالتهم وخشيتهم من اتباع الخارج على السلطان . وقد ذيل خطبته بالشعر وهى خطبة توضح المهمة التى قدم من أجلها بان يخلص القيروان من الثائرين ويرجعها الى والى أمير المؤمنين .

فقد صعد ابراهيم منبر مسـجد القيروان واجتمع اليـه الناس . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس اذكروا ما كنتم فيه من الضر ، وتتابع عفوان البلايا اذ الدولة عليكم لا لكم ، واستقر قلوبكم خشـية الاتباع ، لا تطمعون فى انصاف ، ولا تتجاوز همتكم الكفاف لا تنتصرون من عدوكم الا بالدعاء ، فى كل يوم دولة وعصبية وتحرق لا يغير صاحب ذى خلاف ، ولا يرعوى ذو خلاف الى طاعة ، فقد عادت عليكم ... يامن بها خوفكم ويعز بها ذلكم . لست اميركم ولكنى أخذت ثغر أمير المؤمنين ممن أخذه بالخلاف .

وأميركم محمد بن مقاتل . وأنا مكاتبه ثم مسلمه اليه ان شاء الله .

« ثم انشــد :

لو كنت لاقى تمام لســـار به ... ضرب يفرق بين الروح والجســـد
لكنــه حين ســام المـوت يقدمنى ... ولى فرارا وخلى لى عن البلـــد
ان يســتقم نعف عما كان قدمه ... وان يعد بعدها فى غيه نعــد(١)

* * *

---

(١) الرقيق تاريخ افريقية ص ٢١٨ ، ٢١٩

(ملحـــق ٢)

من نمـــاذج الشعر :

قال أحمد بن ابى سليمان فى طول العمر وأثره فى الانسان وكيف نتحول حاله من قوة الى ضعف فى السمع والبصر والجوارح والنطـــق ومن طلب للغنى الى زهد فى الدنيا ٠ ثم الآمل فى عفو الله بمغفرتـه وهو يعبر عن ذلك بأسلوب سـهل ومعان واضحة فيقول :

ولما محا عمرى ثمانـين حجـــة ... هجرت تكاليف الحياة لما فجـــا
ولاقيت اترابى فاحـــدب ماشيا ... وآخر مكفوفا وآخـر أعرجــــا
وخالف عينى العشا بعد حـــدة ... وصار لسانى ان تكلم لجلجــــا
وفى أذنى وقر وظهرى به حنـا ... وما ابتغى مما أنا فيـه محرجا
واصبحت مما كنت أبغى من الغنى ... الى الزهد فى الدنيا الدنية أحوجا
وحبست نفسى بين بيتى ومسجدى ... وقد صرت مثل النسراهوىالنعرجا
كأنى بهم قد اعلنوا بعدى البكـا ... اذا أنا صرت فى المدارج مدرجـا
وفىحين يقبضنى وفى قولبعضهم ... لبعض :توفى الشيخ وانقطع الرجا
فياخير مرغوب اليـه لراغـــب ... وياخير من يلجأ اليه من لجـــا
كما لم تضعنى رب منذ خلقتنــى ... قنى فى معادى حر نار تأججا[1]

ومن قصيدة له ايضا وهى طويلة قالها فى تغير الدنيا بأهلها وصبره على أفراحها وأتراحها ووصفه للجنة والنار وأمله فى عفو الله ومغفرته منها :

تفهم ما حييت هديت قيلـــــى ... تنال بفهمه خيرا كثـــــــيرا
سمعتك تذكر الشعراء طـــــرا ... وتنشد قولهم جمـــا غفـــيرا
وليس مؤلف قولا حكيمـــــــا ... كآخر قائـلا افكـــــا وزورا

---

(١) حسن حسنى مجمل تاريخ الادب ص ٦٩ ٠

يزخرف قوله لينال دنيا اذا ما نالها نال الغرورا
فلا تشتغل بقول غير قيلى فما فى النفع كان له نظيرا
ودع عنك المذاهب واتبعنى متابعة تجد خيرا كثيرا
وكنت مؤدبا نفسى لنفسى على نفسى أجنبها النكيرا
فنلت من العلوم لطول عمرى وامضائى وتجربتى الدهورا
وحزت من السلامة ما كفانى ووقانى وبلغنى السرورا
ولم البس لذل الفقر ثوبا ولم أك فى الغنى بطرا فخورا
ولم أجزع وللايام صرف يعود عسيرها سهلا يسيرا
ولم افرح الآن لها انقلابا يعيد بصيرها صعبا عسيرا
وانى ان تولى الفجع جلد على أحداثها اغضى صبورا
ولا ابدو لنائبة خضوعا ولا متضعضعا جزعا ضجورا
أرى الدنيا تغيرها الليالى واياما مؤلفة شهورا
أرى يوما يجىء بكل خير ويوما بالحوادث مستطيرا
كذا أحوال دهرك حال امن وحال تجزع البطل الجسورا
وكم ملك عظيم ذى اختيال أعد خزائنا وبنى قصورا
وكان مده ذا خطر عظيم فصار مؤجلا أجلا قصيرا
ومن ذاك التملك والتعالى وسكنى قصره سكن الحفيرا
واضجع فى التراب بلا مهاد يضيق اللحد منجدلا عفيرا
وكم من طالب للمال يسعى ويركب فى مطالبه البحورا
فصار يود لو أن كان اضحى على تفريق ما يحوى قديرا
وعاد يود أن لو كان أمسى وليس بمالك منه نقيرا
وقد حبس اللسان فلا كلام وقد سمع الصياح المستطيرا
فاماًمؤمنا يرجو خلاصا واما كافرا يصلى سعيرا
فويل للشقى اذا تردى وصار الى التى ساءت مصيرا
الى نار تلظيها شديد وتزفر فى تغيظها زفيرا
وطوبى للسعيد اذا حباه اله العرش فى الفردوس حورا
وطاب له جنان الخلد حالا كما حلى مع الذهب الحريرا
وصار شرابه من سلسبيل وانهار مفجرة خمورا

اراني قد كبرت ورق عظمـــــى ... وصرت مخامرا ضرا ضريــــرا
كأنى بالبـــــكاء على فاش ... وقد حملوا بجثنـــى السريــرا
الى دار البلى حملا سريعـــا ... وينصرفون عن قبــــرى نفـــورا
وخلونى بأعمـــال فروحـــى ... على الحالات تنتظـــر النشورا
اجرنى من عذابك واعف عنـــى ... وكن لى منـــك يا أملى مجـــيرا
فانى قد كبرت ورق عظمـــى ... لجـــأت الى فنـــائك مســـتجيرا
وانى لم ازل ارجوك عفـــــوا ... لأنك لم تـــزل ربـــا غفورا[٢]

ومن قول بكر بن حماد فى الموت :

قف بالقبور فنادى الهامدين بها ... من اعظم بليت فيهـــا واجســـاد
قوم تقطعت الاسباب بينهـــم ... من الوصال وصاروا تحت اطـــواد
راحوا جميعا على الاقدام وابتكروا ... فلن يروحوا ولن يغدو لهم غادى
والله والله لو ردوا ولو نطقـــوا ... اذن لقالوا التقى من افضل الزاد
ما بالقلوب حياة بعد غفلتهـــا ... والله سبحانه منهـــا بمرصـــاد
اين البقاء وهذا الموت يطلبنـــا ... هيهات هيهات يابكر بن حمـــاد
بينا ترى المرء فى لهو وفى لعـــب ... حتى تراه على نعش واعـــواد
هذا يباكر دنياه منغصـــــــة ... فيهـــا حزازات احشـــاء واكبـــاد
فكلنا واقف منها على ســـــفر ... وكلنا ظاعن يحدوا بـــه الحـــادى
فى كل يوم نرى نعشا نشيعـــــه ... فرائح فارق الاحبـــاب اوغـــــاد
الموت يهدم ما تبنيـــه من فـــرح ... فما انتظارك يابكر بن حماد[٣]

وقال أيضا يصف مدينة تاهرت :

ما اخشن البرد وريعانـــــه[٤] ... واطرف الشـــمس بتاهـــرت[٥]

(٢) المـــالكى رياض ص ٤١١ ـ ٤١٣

(٣) الدباغ معالم جـ ٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤

(٤) ريعان البرد : اضطرابه

(٥) تاهرت : مدينة بالجزائر تسمى اليوم تيارت كانت قاعدة لامارة بنى رستم ولها ذكر كبير فى التاريخ الافريقى .

تبدو من الغيم اذا ما بدت — كانها تنشر من تخت
فنحن فى بحر بلا لجة — تجرى بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت — كفرحة الذمى بالسبت (٦)

ومن قوله فى الرثاء :

وهون جدى اننى بك لاحق — وان بقائى فى الحياة قليل
وان ليس يبقى للحبيب حبيبة — وليس بباق للخليل خليل
ولو أن طول الحزن يرده — للازمنى حزن عليه طويل (٧)

وقال : ابو القاسم محمد بن عبد الله الفزارى :

فى قصيدته التى ألقاها امام المنصور وذكر فيها أخبار مشاهير العرب فى الجاهلية والاسلام بما يبين مقدار الثقافة التى كانت موجودة فى القيروان آنذاك ويوضح لنا مدى ما وصل اليه الشعراء من معرفة :

لعمرك ما أوس بن سعدى بقومه — ولا سيد الاوبار قيس بن عاصم (٨)
ولا كان ذو الحدين بين كتائب — لها ميم من بكر وحى اللهازم (٩)
ورب معد والاحاليف حوله — عباب كموج اللجة المتلاطم (١٠)

---

(٦) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٧٤

(٧) معالم الايمان ج ٣ ص ٦٩

(٨) أوس بن سعدى : هو أوس بن حارثة الطائى ، كان من سادات العرب وكرمائها وسعدى أمه وقيس بن عاصم من بنى منقر من تميم وهو سيدهم فى زمانه وفيه قال الرسول صلى الله عليه وسلم (هذا سيد أهل الوبر) .

(٩) ذو الحدين هو مسعود بن بسطام من بنى شيبان من ربيعة وكان شريفا سيدا فى قومه واللهازم بطن من بنى شيبان .

(١٠) يقصد برب معد : قصى بن كلاب جامع كلمة قريش وبانى دار ندوتها بمكة .

ولا حاجب ذو القوس يخطر حوله ... قروم كأسد الغيل من آل دارم (٩)
واحنف سعد بين سعد ومالـــك ... ومن رامهم من نهشل والبراجم (١٢)
ولا خالد سم العداة ابن جعفـــر ... ولا الحارث الشهم الفؤاد بن ظالم (١٣)
وذو الجبلين فى عصائب طىء ... فتى الفضل والنعمى عدى بن حاتم (١٤)
ولا كان زيد الخيل والخير والقنا ... وزيد المنايا والسيوف الصوارم (١٥)
وعمرو ابو ثور وعمرو بن عامـــر ... وعمرو بن عمر فى الأسود الضراغم (١٦)
ولا علم الاجواد كعب بن مامـــة ... عقيد الثناء المحض دون اللوائم (١٧)
ولا عوف الموفى بذمة جـــاره ... ولا جر فى واديه غير المسالم (١٨)

---

(١١) حاجب ذو القوس : هو ابن زرارة بن عدس التميمى المشهور بشرفه فى الجاهلية والاسلام وسمى ذو القوس لأنه كان رهن قوسه فى عام شدة فى أرض فارس ليحصل على توسعة لقومه .

(١٢) يعنى الأحنف بن قيس التميمى وبه يضرب المثل فى الحلم عند العرب ونهشل والبراجم قبيلتان .

(١٣) خالد بن جعفر : سيد بنى كلاب . اما الحارث بن ظالم : فهو احد فرسان غطفان المشهورين بالشجاعة .

(١٤) يعنى جبلى طىء هما : أجا وسلمى ، ومن فخر عدى بن حاتم ان النبى صلى الله عليه وسلم قدمه على قومه واكرمه .

(١٥) زيد الخيل سـمى بذلك لطرادها والغارة عليهـا وسماها رسول الله بعد اسلامه زيد الخير .

(١٦) أبو ثور عمـرو بن معدى كرب البطل العربى المشـهور وبشجاعته يضرب المثل ، وعمـرو بن عامر : هو ابن ماء السماء كان من سـادات العـرب وامرائها ، وعمـرو بن عمـرو من اشرافه قبيلة عبس المشـار اليهم .

(١٧) كعب بن مامة الايادى : احـد أجواد العرب وبه يضرب المثل فى الجود .

(١٨) عوف بن هود الشيبانى وهو المقول فيه : « لا حرب بوادى عوف » لشرفه ورفعه مكانه .

ولا الاشعث الكندى بين فوارس | صفوف على أهل النجيرصلادم[١٩]

وبعد ذلك تخلص الشاعر الى مدح الخليفة المنصور الفاطمى بقوله :

بأمنع منى فى جوار خليفة | عطوف على أهل البيوتات راحم
كريم المساعى والايادى سمت به | أبوه صدق من ذؤابة هاشم[٢٠]
شريف الادانى والاقاصى مهذب | اذا ما عددنا فضل أهل المكارم[٢١]

وقال محمد بن هانىء الأزدى يمدح المعز أيضا ويبين انه بجيشه وأسطوله متحكم فى البر والبحر · وان ظهور اسطوله ناشرا للاعلام والبنود ـ اخاف ملك الروم لأنه يقدح النار ويزفر غيظا · وان كل ذلك موجه الى اعلاء دين الله · وكيف صار أسطوله سيد الأساطيل والاسلوب جزل قوى والمعانى مبتكرة رائعة تبين لنا مقدار الازدهار الشعرى ·

ولم ار مثلى ماله من تجلد | ولا كجفونى ما لهن جمود
ولا كالمعز بن النبى خليفة | له الله بالفخر المبين شهيد
فأسيافه تلك العوارى نصولها | الى اليوم لم تعرف لهن غمود
لك البر والبحر العظيم عبابه | فسيان اغمار تخاض وبيد
اما والجوارى المنشآت التى سرت | لقد ظاهرتها عدة وعديد
ولله مما لا يرون كتائب | مسومه تحدو بها وجنود
وما راع ملك الروم الا اطلاعها | تنشر اعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره | له بارقات جمة ورعود

---

(١٩) الاشعث أمير كندة أسرته مذحج ففدى بما لم يفتد به عزيزا ولا أمير سواه ويعنى بصفوف نجير يوم أخذ الأشعث الراية فغلب عسكر معاوية على ماء بصفين وصلادم : أسود أو صلاب ·

(٢٠) الذؤابة فى الأصل : الشعر المنسدل من الراس الى الظهر ومعناها هنا السلالة أى سلالة هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم ·

(٢١) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب ص ٨٤ ـ ٨٦

من الرئسيات الشم لولا انتقالهـا ... فمنها قنان شمخ وريـــود
من الطير الا انهن جـــوارح ... فليس لها الا النفوس مصيــد
من القادحات النار تضرم للصلى ... فليس لها يوم اللقـاء خلـود
اذا زفرت غيظا ترامت بمـارج ... كما شب من نار الجحيم وقـود
فانفاسهن الحاميات صـواعق ... وافواههن الزافـرات حـديد
الا فىسبيل الله تبذل كنه مـا ... تضمن بـه الانـواء وهى جمـود
فلا غرو ان اعززت دين محمـد ... فأنت له دون الملوك عقيــد
غضبتله ان ثل بالشام عرشـه ... وعادك من ذكر العواصم عيـد
فبت له دون الانام مسـهدا ... ونام طليق خائن وطريــد
فعزمك يلقى كل عزم مملــك ... كما يتلاقى كائد ومكيــد
وفلكك يلقى الفلك فى اليم من عل ... كما يتلاقى سـيد ومسوود(٢٢)

وانشـد ابن هانىء المعز فى المنصورية قصيدته التى أعلن فيهـا استيلاء الفاطميين على مصر واستسلامها لهم دون أن تراق قطرة دم وبين كيف حبرت فيها الخطب ودبجت المقالات وقد حسنت السيرة مما جعل بغداد تود لو أنها مصر وبين ان الفاطميين احق بالخلافة من بنى العباس : وأعلن نبأ استيلاء الفاطميين على مصر بقوله :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قضى الامـر
وقد جاوز الاسكندرية جوهـــر ... تطالعه البشرى ويقـدمه النصـر
وقد أوفدت مصر اليه وفودهـا ... وزيد الى المعقود من جسرها جسر
فقد دانت الدنيـا لآل محمـد ... وقد جررت أذيالها الدولة البكـر
ورد حقوق الطالبيين من زكـت ... صنائعه فى آله وزكا الذخـر
فدونكموها أهـل بيـت محمـد ... صفت بمعز الدين جماتها الكـدر
وما ضر مصرا حين القت قيادهـا ... اليك أمد النيل أم غاله جـزر
وقد حبرت فيها لك الخطب التى ... بدائعها نظم والفاظها نثـر

---

(٢٢) الديوان ص ٤٥ ـ ٤٩

فلم يهرق فيها لذى ذمـــة دم حرام ولم يحمل على مسـلم اصر
غدا جوهر فيها غمامة رحمـــة يقى جانبيها كل نائبـــة تعـرو
كأنى به قد سار فى القوم سيرة تود لها بغداد لو انها مصر(٢٣)

وقال يصف الغيث والروض وكيف ان الغيث كدموع من لؤلؤ وان الربيع عطر الجو وملأه بالعبير وهى صورة بديعة مبتكرة ٠

الؤلؤ دمع هذا الغيث ام نقـــط ما كان احسنه لو كان يلتقـــط
بين السحاب وبين الريح ملحمـة معامع وظبى فى الجـو تخترط
كأنه ساخط يرضى على عجـــل فما يدوم رضى منه ولا ســـخط
أهـدى الربيع الينا روضـه انفا كمـا تنفس عن كافوره السـقط
غمائم فى نواحى الجو عاكفـــة حفل تـحدر منها وابل ســـبط
كأن تهتانها فى كل ناحيـــة مد من البحر يعلو ثم ينهبـــط
والبرق يظهر فى الآلاء طلعتـــه قاض من المزن فى أحكامه شـطط
والارض تبسط فى خد الثرى ورقا كمـا تنشر فى حافاتها البسـط
والريح تبعث انفاسا معطـــرة مثل العبير بماء الورد مختلط(٢٤)

ومن قوله فى الهمة والجد والسعى الدؤب وان الانسان حسب عمله :

ولم أجد الانسان الا ابن ســعيه فمن كان أسعى كان بالمجد اجدرا
وبالهمة العلياء يرقى الى العـــلا فمن كان ارقى همة كـــان اظهرا
ولم يتأخر من يريد تقدمـــــا ولم يتقدم من يريد تأخـــرا(٢٥)

وقد أخذ على بن هانى ما بالغ به فى وصف المعز حين قال :

ما شئت لا ما شاءت الأقـــدار فاحكم فأنـت الواحـــد القهـار
وكأنما أنت النبى محمـــــد وكأنمـا انصـارك الأنصـــار

(٢٣) الديوان ص ٧٨ ـ ٨٢
(٢٤) الديوان ص ٩٦
(٢٥) نفس المرجع ص ٨٦ ، ٨

انت الذى كانت تبشرنا بـــــه
في كتبها الاحبار والرهبـــــان
هذا امام المتقين ومن بـــــــه
قد دوخ الطغيـــان والكفـــــار
هذا الذى ترجى النجاة بحبـــه
وبـــــه يحـــط الآصر والاوزار
هـذا الذى تجدى شفاعته غـــدا
حقا وتخمد أن تراه النــــــار
من آل احمد كل فخر لم يكـــن
ينمى اليهم ليس فيه فخـــار(٢٦)

وقال على بن محمد الايادى :

يصف أسطول القائم الفاطمى بالمهدية وكيف تتعجب العيون من منظره والأمواج تتلاعب به مشبها لقوادم النسور سريعة الطيران . وسفنه مملوءة بالوقود الذى يرمى على الأعداء . والأسطول ذو مجاديف صلبة يحركها الرجال عند عجز الشراع عن تسييرها . وعلى سفن الأسطول الدبابات التى ينقب الجنود منها الحصون . وكيف ان الأسطول يتحكم فى سيره باستعمال المجاديف عند معاكسة الرياح له حتى يتعبها . ويختم القصيدة بأن على سفن الأسطول أسود الخلافة المدافعين عنهـا تختال فى عدد السلاح الرهيب .

أعجب لاسطول الامـــام محمد
ولحسنه وزمانـه المســتغرب
ليست به الامواج أحسن منظـــر
يبدو لعين الناظر المستعجـــب
من كل مشرفة على ما قابلـــت
اشراف صدر الاجدل المنتصب(٢٧)
دهماء قد لبست ثياب تصـــنع
تسبى العقول على ثياب ترهب
من كل أبيض فى الهواء منشر
منها واسحم فى الخليج مغيب(٢٨)
كقـــوادم النسر المرفرف عريت
من كاسيات رياشـــه المتهـدب
خـرقاء تذهب ان يـد لم تهـدها
فى كل أوب للرياح ومذهب
ولها جناح يستعار بطيرها
طـوع الرياح وراحـة المتطرب

(٢٦) نفس المرجع ص ٨٨ ، ٨٩
(٢٧) الأجدل : هو الصقر .
(٢٨) اسحم : أسـود .

تسمو بأجرد فى الهواء متوج ... عريان منسوج الذؤابة شـوذب[٢٩]
فكانما رام استراقة مقعـد ... للسـمع الا أنه لم يشهب

ومنهـا :

سجروا جواحم نارها فتقاذفوا ... منها بألسن مارج ملتهب[٣٠]
محفوفة بمجادف مصـفوفة ... فى الجـانبين دوين صلب صلب
وتحثها أيدى الرجال اذا ونت ... بمصعد منه بعيـد مصوب
جوفاء تحمل كوكبا فى جوفها ... يوم الرهان وتستقل بمركب
يعلو بها حدب العباب مطارة ... فى كل لج زاخـر مغولب
يتركب المـلاح من دبابـة ... لورام يركبها القطا لم يركب[٣١]
وكأنمـا جن ابن داوود اذا ... ركبوا جوانبها بأعنف مركب
من كل مسجور الحريق اذا انبرى ... من سجنه انصلت انصلات الكوكب[٣٢]
عريان يقذفه الدخان كأنـه ... صبح يكر على الظلام الغيهب
يذهبن فيمـا بينهن لطـافة ... ويجئن فعل الطـائر المتغلب
شرجو جوانبه مجادف أتبعـت ... شـأو الرياح لها ولمـا تتعب[٣٣]
والبحـر يجمع بينها فكأنه ... ليل يقرب عقربا من عقرب
فكأنما البحـر استعار بزيهم ... ثوب الجمال من الربيع المذهب
ولو حق مثـل الأهلة جنح ... لحق المطالب فائتات المهرب

---

(٢٩) الشوذب : الطويل الحسن .
(٣٠) سجروا جواحم نارها : ملؤها وقودا وهو يشير الى نار النفط التى كانت تلقى على العدو فى الحرب .
(٣١) الدبابة : آلة من خشب وحديد على شكل البيت تتخذ فى الحروب لركوب العساكر فتندفع على عجلات فى أصل الحصون وينقب الجنود منها الحصن وهم فى جوفها .
(٣٢) انصلت : أسرع .
(٣٣) شرجوا : شبكوا .

كنقائض الحيات رحن لواعبا ... حتى يقعن ببرك ماء الميزب[٣٤]
تنصاع من كثب كما نفر القطا ... طورا وتجتمع اجتماع الربرب[٣٥]
وعلى مراكبها اسود خلافة ... تختال فى عدد السلاح المرهب[٣٦]

وقال يصف البستان فى صورة شعرية رائعة . وكيف ان شذاه حملته الرياح فدل عليه قبل رؤيتها . وكيف خجل الورد من الضحى وابتسمت ثغور الاقاح وان الحمام يصدح فى جنباتها منذ انبلاج الصباح :

نم بالروض خفق الرياح ... واقتدح الشرق زناد الصباح
واخجل الورد شعاع الضحى ... وابتسمت فيه ثغور الاقاح
وقام فى الدوح لنعى الدجى ... حمائم تطربنا بالصياح
مذ ولد الصبح ومات الدجى ... صاحت فلم تدر غنى أم نواح
ويوم دجن حجبت شمسه ... وأشرقت فى ليلة شمس راح
فما ظننا الصبح الا دجى ... ولا حسبنا الليل الا صباح

وقد قيل الشعر فى أغراض أخرى غير هذه الأغراض :

فمن ذلك ما قاله محمد بن زرزر فى توحيد الله عز وجل والرد على الزنادقة والملحدين المكذبين[٣٧] :

تهتك الستر عن ذى البغى والفند ... وحصحص الحق أهل البغى واللدد
وايقن المشرك الداعى له ولدا ... بأنه الله لم يولد ولم يلد
لا موت يدركه لا شىء يشبهه ... تبلى الابوة لا يبلى على الأبد
وفى الخلود نعيم غير منصرم ... باق بقدرته باق بلا امد

---

(٣٤) نضائض الحيات : الحية النضاضة هى التى لا تستقر بمكان واذا نهشت قتلت من ساعتها أو التى أخرجت لسانها تنضنضه أى تحركه .
(٣٥) الربرب : القطيع من بقر الوحش .
(٣٦) حسن حسنى مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٩٨
(٣٧) انظر المالكى رياض ص ٤١٥ الدباغ معالم ج ٢ ص ١٦٧

ومن الشعر الاجتماعى ما ذكره البكرى[٣٨] عن بعض الظرفاء فى نقد تحريم النبيد فى القيروان واباحته فى رقادة قوله :

ياسيد الناس وابن سيدهم ومن اليه الرقاب منقادة
من حرم الشرب فى مدينتنا وهو حلال بأرض رقادة

ومن الأراجيز ما قاله أبو جعفر احمد بن المروزى عندما انتصر مصلة بن حبوس والى تاهرت لعبيد الله المهدى على سعيد بن صالح الحاكم على سعيد بن صالح الحاكم على نكور واحضرت رؤسهم وطيف بها فى القيروان ونصبت بمدينة رقادة فقال فى ارجوزة[٣٩] له :

لما طغى الأرذل وابن الأرذل فى عصبة من الطغام الجهل
قال نكور دون ربى معقلى اتاه محتوم القضاء الفيصل
من الاله كالحريق المشعل فحل ارضا طال ما لم تحلل
حطم أهل كفرها بالكلكل وجاء راس راسها المبذل
على القنا من الرماح الذبل ذو لمة شاعثة لم تغسل
ولحية غبراء لم ترجل

أما عيسى بن مسكين فقد قال فى الشباب :

لعمرى يا شبابى لو وجدتك بما ملكت يمينى لارتجعتك
ولو جعلت لى الدنيا ثوابا وما فيها عليك لما وهبتك
فقدتك فافتقدت لذيذ نومى وطيب معيشتى لما فقدتك
ونحتك وانتحيت عليك دهرا فلم تغن النياحة حين نحتك

***

---

(٣٨) البكرى المغرب ص ٢٨
(٣٩) البكرى المغرب ص ٩٦

(ملحــق ٣)

من نمــاذج الكتابة :

أرسل عامر بن نافع بن عبد الرحمن الى زيادة الله بن الأغلب يقول : اما بعــد

« فقد اتانى كتابك وفهمت ما ذكرت : أنك شفيق على ذرية وعيال صيرتها بأرض مضيعة ، وعد مكتنف وفتنة أوقدها من صبره الله جزلا لها وصيرت نفسى مكانة فيها وقد كنت انا الشفيق عليها ، والناصر لها فى الأيام التى قطعت بالتهديد قلوبها وحرصت على ايتامها وكشف سترها اذ كنت اغدو واروح الى بابك متوقعا لأمرك بسفك دمى من وراء حجابك وان كان شعارى كنفى أعتد به دون دثارى مكتتما به من الخلق لا يظهر الى منك الا اصلح فطرب ولا يبلغنى عنك الا تجنى الذنوب وقد كان نظرك ونصرتك لتلك الحرم احق منك قبل اليوم وتسكينك لروعتها أولى وأحرى .

ثم ذكرت انه لا حقــد ولا أحنة ولا ترة الا وذلك مضمحل مع الألفة والانابة . فقد والله حقدت بلا ذنب وونزت بلا ترة وحلفت بعهود ومواثيق وايمان معلظة قلدتها عنقك وأخفرت بها ،ز را ذمتك وما بينى وبينك هوادة الا ضرب السيف حتى تضع الحرب أوزارها ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »[1] .

ومن الحكم النثرية التى قيلت فى هــذا العصر مما يصور الكتابة الحكمية والفكر الحكمى ما ورد من حكم عيسى بن مسكين فى قوله :

أشرف الغنى ترك المنى . من قاس الأمور علم المستور . من حصن شهوته صان قدره من أطلق طرفه كثر أسفه . فى تقلب الأحوال على

(١) ابن الأبار الحلة السيراء ج ٢ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥

جواهر الرجال . بحسن التانى تسهل المطالب . الحسن النية يصحبه التوفيق . المعاش مذل لأهل العلم . كفاك أدبا لنفسك ما كرهته لغيرك . قارب الناس فى عقولهم تسلم من غوائلهم[٢] .

وما ورد عن عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتى :

من قل كلامه قلت آثامه . من كانت له وليه لم يعدم بليه . الصوم عن الكلام أثقل من الصوم عن الطعام . من خزن لسانه كثر فى الدنيا والآخرة أمانه .

ومن خلا بربه لم يعدم النور من قبله . ومن خلا بغيره لم يعدم الزيادة فى ذنبه . من كان فى الله همه قل فى الدنيا والآخرة غمه . من كان بالليل نائما وبالنهار هائما متى ينال الغنائم ؟ من سكت سلم . ومن تكلم بذكر الله غنم . ومن خاض اثم ما ابعدنا منه على قربه منا . كل كلمة لم يتقدمها نظر فالكلام فيها خطر . وان كانت من أحباب النظـر[٣] .

وكتب جوهر الصقلى فى عهده الى المصريين عند فتح مصر[٤] :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

هـذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعـز لدين الله صلوات الله عليـه ، لجماعة أهل مصر ، الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم . انه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتمـاع معى وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاه ، وابو اسماعيل الرسى أيده

---

(٢) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٢٥

(٣) عياض المدارك ج ٣ ص ٢٦٣

(٤) المعز لدين الله حسن ابراهيم طه شرف ص ٢٩٨ عن المقريزى أتعاظ الحنفا ص ٦٧ ـ ٧٠

الله ، وابو طالب الهاشمى ايده الله ، وابو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ، وذكروا عنكم انكم التمستم كتابا يشتمل على امانكم فى انفسكم واموالكم وبلادكم وجميع احوالكم ، فعرفتم ما تقدم به امر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم ، وقد ابوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم (العائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم وهو انه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة الا لما فيه اعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتكم الأيدى واستطال عليكم المستدل وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة والتغلب عليه وأحر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله فى عيركم من اهل بلدان الشرق ، وتأكد عزمه واشتد كلبه[٥] فعاجله مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة وبادرة بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق ، الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة واكتنفتهم المصائب وتتابعت عليهم الرزايا واتصل عندهم الخوف استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغشهم الا من ارمضه أمرهم ومضه حالهم وأبكى عينه ما نالهم ، واسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه واحسانه لديه وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاد من أصبح منهم فى ذل مقيم وعذاب اليم وأن يؤمن من استولى عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر اقامة الحج الذى تعطل واهمل العباد فروضه وحقوقه ، للخوف المستولى عليهم واذ لا يؤمنون على انفسهم ولا على أموالهم ، واذ قد أوقع بهم مرة بعد اخرى ، فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرى به عادته من صلاح الطرقات، وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنيين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، اذ كان

---

(٥) اى طعمه ويقصد بذلك الدولة البيزنطية .

قد انتهى اليه صلوات الله عليــه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها اذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ثم تجويد السـكة وصرفها الى العيار الدى عليه السـكة لميمونة المنصورية المباركة قطع الغش منها ، اذ كانت هــذه الثلاث خصال هى التى لا يسع من ينظر فى أمور المسلمين الا اصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منهــا وما او عزيه سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صـلوات الله عليه الى عبده من نشر العــدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام فى الحق واعانة المظلوم مع الشـفقة والاحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبه ولطف العشرة واقتفاء الأحوال وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم فى اوان ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم الا على ما لم شعثهم وأقام أودهم وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسـيدنا أمير المؤمنين صـلوات الله عليــه باثباتها عليكم وان أجريكم فى المواريث على كتاب الله وسـنة نبيه ﷺ واضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم ببيت المـال من غير وصية من المتوفى بها فلا اسـتحقاق لمصيرها لبيت المــال . وان اتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد وان أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها ارزاقهم عليهم ، ولا اقطعها عنهم ولا أدفعها الا من بيت المــال ، لا باحالة على من يقبض منهم ، وغير ما ذكره مولانا وسـيدنا أمير المؤمنين صـلوات الله عليــه مما ضمنه كتابه هـذا من ترسـل عنكم ايدكم الله وصانكم اجمعين بطــاعة مولانا وسـيدنا أمير المؤمنين صـلوات الله عليــه من انكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسـكم فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة اذ كان الاسـلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهى اقامتـكم على مذهبكم وان تتركوا على ما كنتم عليــه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليــه فى جوامعكم ومساجدكم وثابتكم على ما كان عليــه سلف الأمة من الصـحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم وان يجرى الأذان والصــلاة وصيام شــهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج

والجهاد على ما أمر الله به فى كتابه ونصه نبيه ﷺ فى سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه ٠

ولكم على أمان الله التام العام الدايم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتاكد على الأيام وكرور الأعوام فى انفسكم واموالكم واهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم وعلى انه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض الى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم وعلى الا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل اليكم خيره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ٠ ولكم على الوفاء بما التزمته واعطيتكم اياه ، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا امراءا المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف اليها وتخرجون الى وتسلمون على وتكونون بين يدى الى ان أعبر الجسر وأنزل فى المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون الى فروضها ولا تخذلون وليها لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين »[٦] ٠

* * *

---

(٦) عن كتاب المعز لدين الله للدكتور حسن ابراهيم وطه شرف ص ٢٩٨ نقلا عن المقريزى الفاظ الحنفا ص ٦٧ ـ ٧٠

(ملحـــق ٤)

سجل بأسماء مخطوطات مكتبة القيروان العتيقة بالقيروان ومعظمها بالخط الكوفى على الرق ولها صور بالمكروفيلم ٠

وقد نقلت هـذه المكتبة من القيروان الى دار الكتب القومية بتونس ٠

وقد قال لى المسئولون عنها ان ذلك أمر مؤقت الى حين بناء دار الكتب والمتحف الاثرى بالقيروان ٠ فتنقل مكتبة القيروان العتيقة الى القيروان مقرها الأصلى ٠

والكتب الموجودة بالمكتبة مسلسلة بالأرقام الآتية :

من ١ الى ٥٣ : من الرقم ٥٣ صور لنماذج من المصاحف العتيقة المكتوبة بالخط الكوفى ٠

من ٥٤ الى ١١٣ : الجزء الأول من كتاب الحج من النوادر والزيادات على ما فى المدونة لعبد الله بن أبى زيد ٠

من ١١٤ الى ١٣٦ : كتاب التخيير والتمليك والخلع من المستخرجة من الأسمعة مما ليس فى المدونة استخراج محمد بن أحمد العتبى رواية يحيى بن عبد العزيز مما عنى بترسيمه وتبوبيه عبد الله بن أبى زيد ٠

من ١٣٧ الى ١٥٨ : الجزء الثالث من النكاح من مختصر المدونة والمختلطة تاليف الشيخ ابى محمد عبد الله بن ابى زيد ٠

من ١٥٩ الى ١٩٨ : الجزء الثالث من الصلاة من النوادر الزيادات على ما فى المدونة ٠

من ١٩٩ الى ٢٢٩ : كتاب القذف والاشرية والجنايات من مختصر المدونة والمختلطة لعبد الله بن أبى زيد ٠

من ٢٣٠ الى ٢٤٦ : كتاب المرابحة وشراء الغائب وبيع الغرر تأليف عبد الله بن أبى زيد ٠

من ٢٤٧ الى ٢٦٥ : الجزء الثانى من الزكاة من مختصر المدونة والمختلطة تأليف أبى محمد عبد الله بن أبى زيد ٠

من ٢٦٦ الى ٢٧٧ : كتاب التخيير والتمليك والظهار من مختصر المدونة والمختلطة تاليف عبد الله بن أبى زيد ٠

من ٢٧٨ الى ٢٩٧ : كتـاب الجراح والديات من مختصر المدونة والمختلطة باستيعاب المسـائل واختصار اللفظ فى طلب المعنى وطرح السؤال واسـناد الآثار وكثير من الحجاج مما عنى بجمعه واختصاره ابو محمد عبد الله بن أبى زيد ٠

من ٢٩٨ الى ٣٠٩ : الجزء الثانى من كتاب السلم من مختصر المدونة والمختلطة تأليف أبى محمد عبد الله بن أبى زيد ٠

من ٣١٠ الى ٣١٣ : الجزء الأول من النكـاح من مختصر المدونة والمختلطة تأليف عبد الله بن ابى زيد ٠

من ٣١٤ الى ٣٣٢ : كتاب القطع فى السرقة من مختصر المدونة والمختلطة تاليف عبد الله بن أبى زيد ٠

من ٣٣٣ الى ٨٠٩ : تفسير يحى بن سـلام البصرى القيروانى المتوفى سـنة ٢٠٠ هـ ٠

من ٨١٠ الى ٨٥٧ : من كتاب المبسـوط لمحمد بن الحسن الشيبانى رواية أسـد بن الفرات القيروانى ٠

من ٨٥٨ الى ٨٧٦ : كتاب الضحايا والصيد عن موسى بن معاوية عن على بن زياد عن مالك بن انس (قطعة من الموطأ رواية على بن زياد التونسى) ٠

من ٨٧٧ الى ٩٠٤ : قطعة من تفسير فى قالب طـــويل يظهر أنه لأبى سـعيد الحداد أولها : ولا يجوز فى الصفة ، وآخرها : يدخلون عليهم (بها نقص) ٠

من ٩٠٥ الى ٩١٨ : لا أول لها ولا آخر فى الكلام يظهـــر أنه لأبى عثمان سـعيد الحداد ، أولها : ما لواهما اللذان ، وآخرهما : واعصب كما يعصبون ٠

من ٩١٩ الى ٩٣٦ : كتاب فيه احاديث فى السنة والنهى عن البدعة لمـا حدثنى به احمد بن زيد المعلم عن موسى بن معاوية الصـمادحى وغيره ٠

من ٩٣٧ الى ٩٨٩ : الجزء الرابع من كتاب أدب القاضى والقضاء تاليف البشر بن سليمان ٠

من ٩٩٠ الى ١٠٣٤ : كتاب الشـــهادات من المختصر الكبـــير لأبى عبد الحكم لصلاة ابن ابى القاسم ٠

من ١٠٣٥ الى ١٠٥٧ : الاسدية ـ كتاب السرقة وقطع الطريق عن محمد بن ابان عن المعمر بن منصور عن اســد بن الفرات عن محمد بن الحسن عن ابى يوسف عن ابى حنيفة ٠

من ١٠٥٨ الى ١٠٨٢ : كتاب الزكاة من مجالس ابى زيد عبد الرحمان ابن ابى الغمر عن عبد الرحمان بن القاسم ٠

من ١٠٨٣ الى ١١٢٤ : الجزء الخامس والجزء الرابع من كتب الحج لأشهب بن عبد العزيز المصرى رواية أبى سعيد سحنون بن سعيد ٠

من ١١٢٥ الى ١١٥٥ : الجزء السـابع من كتاب ايضاح الوقف والابتداء فى كتاب الله عز وجل تاليف ابى بكر محمد بن القاسم الانبارى ٠

من ١١٥٦ الى ١٢٢١ : قطعة فى الرد على الشافعى مبدؤها فتحرم الصلاة التى صلاها فى الكعبة وآخرها آخر الكتاب لأبى عثمان سعيد الحداد .

من ١٢٢٢ الى ١٢٤٤ : كتاب فيه الخلاف بين نافع بن أبى نعيم المدنى وبين ابى عمرو بن العلاء البصرى وما اتفقا عليه وما انفرد به أبو عمرو عن أصحابه .

من ١٢٤٥ الى ١٢٨٧ : كتاب فيه تفسير غريب موطأ مالك بن انس مما فسره الاخفش أحمد بن عمران بن سلامة البجوى .

من ١٢٨٨ الى ١٣١٠ : الجزء الثانى عشر من كتب الحجة فى الرد على الشافعى فيما اغفل من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة نبيه محمد ﷺ فى نفى العبيد اذا زنوا الى آخره ليحى بن عمر .

من ١٣١١ الى ١٣٤١ : الجزء الثانى من الحج من موطأ مالك بن أنس المدنى رواية يحيى بن زكريا بن عبد الواحد الاموى عن أبى مصعب عن مالك .

من ١٣٤٢ الى ١٣٥٣ : كتاب البيوع من موطأ مالك رواية عبد الرحمن بن القاسم برواية سحنون بآخره نقط .

من ١٣٥٤ الى ١٣٨٠ : الجزء الثانى من تفسير موطأ مالك بن أنس مما سال عنه يحى بن ابراهيم للقابسى .

من ١٣٨١ الى ١٣٩٥ : قطعة باولها نقص بالورقة الاولى بيع الحيوان باللحم وهى تفسير موطأ مالك .

من ١٣٩٦ الى ١٤٢٦ : الجزء الخامس من تفسير موطأ مالك بن انس مما سال عنه يحيى بن ابراهيم بن عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ومحمد بن عيسى واصبغ بن الفرج فيه كتاب الجهاد .

من ١٤٢٧ الى ١٤٧١ : قطعة كاملة من موطأ مالك للقابسى ٠

من ١٤٧٢ الى ١٤٧٩ : قطعة من الجزء السابع والثامن والتاسع من تفسير موطأ مالك بن انس بآخرها نقص ٠

من ١٤٨٠ الى ١٥١٨ : كتاب الطلاق من امالى ابى عثمان سعيد بن محمد على اجوبة مسائل المدونة ٠

من ١٥١٩ الى ١٥٤٩ : الجزء الرابع من معانى الاخبار خرجه وشرح معانيه ابو عثمان سعيد بن محمد ٠

من١٥٥٠ الى ١٦٠٠ : قطعة يظهر انها تفسير الموطأ ليحى بن يحيى الليثى رواية محمد بن الوضاح الاندلسى ٠

من ١٦٠١ الى ١٦٣٢ : كتاب العلم من جامع عبد الله بن وهب البصرى رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب ٠

من ١٦٥٣ الى ١٦٩٢ : كتاب المحاربة من موطأ عبد الله بن وهب ٠

من ١٦٩٣ الى ١٧١٨ : كتاب الحجة مما دون يحى بن عون ٠

من ١٧١٩ الى ١٧٧٨ : لابى الحسن على بن محمد الربعى اللخمى القيروانى ٠

من ١٧٧٩ الى ١٧٨٢ : قطعة لا أول لها ولا آخر لعلها من كتاب يحيى بن عمر فى البيوع أول الورقة الاولى : لا تبتدعوا فى دينكم ، وآخرها : فقال له من انت قال فلان ٠

من ١٧٨٣ : آخر وجه من كتاب النكاح كتب حريز بن أحمد الكلى بالمنستير بقصر الكبير وذلك فى شهر شوال من سنة خمس وأربعمائة٠

من ١٧٨٤ الى ١٧٨٥ : الوجه الأول من الجزء الخامس من المقدمات

الممهدات والوجـه الأخير من حيث أنه بخط أحمد بن محمد بن رشد وقع الفراغ منه بالجمادى الآخر سـنة ٥٢٩ ٠

من ١٧٨٦ الى ١٧٨٧ : قطعة من المدونة بها سماع مؤرخ فى ٣٠٦ هـ وبها تعداد كتب اشهب سماعات بخطوط أصحابها فى آخر ورقة من كراس من جزء من المدونة وهو كتاب الايمان بالطلاق ٠

من ١٧٨٨ : سماع بآخر كتاب حديث من يحيى بن عون وتاريخـه جمادى الاولى سـنة ٢٩٣ هـ ٠

من ١٧٨٩ الى ١٨١٣ : كراس من جزء من احكام القرآن لاسماعيل بن اسحاق ومنتسـخ فى سنة ٤٠٧ لا أول له ٠

من ١٨١٤ : آخر ورقة من كتاب فقه مكتوب بخط محمد بن على الربعى وذلك فى آخر ذى الحجة سنة ٤١٠ هـ ٠

من ١٨١٥ الى ١٨١٦ : وجه كتاب فيه رسالة مالك بن أنس الى هارون أمير المؤمنين ٠

من ١٨١٧ الى ١٨٣٨ : كتاب الشعر والغناء من جامع عبد الله بن وهب رواية عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب ٠

من ١٨٣٩ الى ١٨٨٣ : كتاب من أمهات مذهب مالك ٠

من ١٨٨٣ الى ١٨٨٥ : ورقتان بظاهر أولهما : الكتاب الثالث من البيوع عن يحيى بن سلام بخط أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم ٠

من ١٨٨٦ الى ١٩١٦ : الجزء الاول من الصلاة فى السـفر تصنيف ابى عبد الله محمد بن ابراهيم بن زياد المواز ٠

من ١٩١٧ الى ١٩٥٣ : الجزء الثانى من الاول من كتاب الوصايا من الموازنة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من ١٩٥٤ الى ١٩٨٢ : كتاب القذف من كتب الموازنة ٠

من ١٩٨٣ الى ٢٠٠٤ : كتاب التفليس من كتب الموازنة ٠

من ٢٠٠٥ الى ٢٠٤٦ : الجزء الثالث من كتاب الوصايا من الموازنة ٠

من ٢٠٩١ الى ٢١٢٢ : الجزء الاول من كتاب الديات من الموازنة ٠

من ٢١٢٣ الى ٢١٣٨ : الجزء الاول من جنايات العبيد من الموازنة٠

من ٢١٣٩ الى ٢٢٠١ : الجزء الثانى من كتاب الزكاة من الموازنة ٠

من ٢٢٠٢ الى ٢٢١٧ : الجزء الثالث من الديات من الموازنة ٠

من ٢٢١٨ الى ٢٢٢٥ : المعقود والابل من الموازنة ٠

من ٢٢٢٦ الى ٢٢٧٣ : قطعة من اختصار الموازنة ٠

من ٢٢٧٤ الى ٢٢٨٨ : قطعة من الموازنة اولها ما جاء فى البيع والسلف وآخرها ما جاء فى العنية وبيوع الآجال ٠

من ٢٢٨٩ الى ٢٣٧٠ : الجزء الثالث من كتب الحج من الموازنة ٠

من ٢٣٧١ الى ٢٣٩٤ : الجزء الثانى من كتاب النكاح من الموازنة٠

من ٢٣٩٥ الى ٢٤٠٢ : أربع ورقات من الموازنة ٠

من ٢٤٠٣ الى ٢٤٠٦ : ورقتان من الموازنة على ظاهر الاولى الجزء الخامس من العتق وطالع الاخيرة باب فى بيع الموبر ٠

من ٢٤٠٧ الى ٢٤١٢ : قطعة من الموازنة بآخرها نجز كتاب الاقرار الثانى ٠

من ٢٤١٣ الى ٢٣٢٨ : قطعة من العتبية ، اولها : ذلك على أهل تلك البلد ، وآخرها : قلت لمحمد كيف راى مالك واصحابه • بأولها وآخرها نقص •

من ٢٤٢٩ الى ٢٤٩٤ : قطعة من اختصار الموازنة اولها من كتاب الوضوء • .

من ٢٤٩٥ الى ٢٥٠٥ : قطعة من الموازنة اولها : المائة والخمسين، وآخرها : آخر الجزء الثانى من كتاب الجهاد •

من ٢٥٠٦ الى ٢٥٠٩ : قطعة من الموازنة على ظاهرها : الجزء الأول من الجرائم والديات •

من ٢٥١٠ الى ٢٥١٣ : ورقتان من جزء كتاب طلاق السنة من الموازنة •

من ٢٥١٤ الى ٢٥١٥ : ورقة أولى من الجزء الثانى من الزكاة من الموازنة •

من ٢٥١٦ الى ٢٥٢٠ : ثلاث ورقات من الموازنة على ظاهر الأولى منها : الجزء الثانى من البيوع ومنها ورقة صغيرة •

من ٢٥٢١ الى ٢٥٥٠ : كتاب الحج من المستخرجة (العتبية) •

من ٢٥٥١ الى ٢٦٢١ : كتاب الصلاة والوضوء من المستخرجة (العتبية) •

من ٢٦٢٢ الى ٢٦٧٢ : كتاب المكاتب من العتبية •

من ٢٦٧٣ الى ٢٧٠٧ : الجزء الاول من كتاب العتق والتدبير من الواضحة •

من ٢٧٠٨ الى ٢٧٣٠ : الجزء الثانى من كتاب الطلاق من الموازنة.

من ٢٧٣١ الى ٢٧٧٨ : كتـــاب القضاء فى الدين والتفليس من الواضحة .

من ٢٧٧٩ الى ٢٧٩٥ : قطعة من الواضحة ، طالع الورقة الاولى : العمرى عن نافع عن ابن عمر ، وآخره : آخر الكتاب .

من ٤٠٤ الى ٤٣١ : الأول من كتاب التصاريف ليحيى بن محمـد بن يحيى بن سلام البصرى (حفيد المفسر) والكتاب فيما اتفق لفظـه واختلف معناه من كلام الله عز وجل .

تنبيـه

الأرقام اليمنى (داخلة فى اعداد التفسير) .

* * *

تعريف ببعض المصـــادر

١ ـ طبقات علماء افريقية وتونس لابى العرب محمد بن احمد ابن تميم القيروانى المتوفى سنة ٣٣٣ هـ :

من نفائس المخطوطات التى طبعتها الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ وقد قام بتحقيقه على الشابى من الجامعة التونسية ونعيم حسن اليافى من الجامعة السورية ٠

والمؤلف هو ابو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمى ٠ وقد اشتهر بأنه رافع لواء التاريخ بافريقية ووصفه المؤرخون بأنه ثقة عالما بالسند والرجال من ابصر اهل وقته بها كثير الكتب والتقييد وكانت له مكتبة تحتوى على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب خطها بنفسه ٠

والكتاب يعتنى عناية بالغة بالسند مما يدل على أن فن التراجم لم ينفصل فى ذلك الحين عن الطريقة التحديثية ٠ وهو يختصر بعض الاحداث ٠ ويوجز فى ترجمته ويكثر الرواية عن أبى عثمان سعيد الحداد ، ومحمد بن محمد اللباد كما ينقل عن الواقدى وأبو العرب لا يذكر دائما تاريخ وفاة من يتحدث عنه ، كما انه مع كثرة نقله عن أبى سعيد الحداد لم يترجم له ٠ ومن اتى من المؤرخين بعد أبى العرب ينقل عنه ٠ مثل كتاب الرياض ، وترتيب المدارك ، ومعالم الايمان ٠ وقد ذكر أبو العرب فى الكتاب أسماء من دخل افريقية من الصحابة والتابعين ٠ ومن روى عن التابعين من أهل افريقية وبعض من قدم الى القيروان وأقام فيها أو رجع الى المشرق ٠ وهو يورد بعض الاحداث عمن يترجم لهم بدون ربط بينها كما يذكر بايجاز أساتذة العلماء الذين ترجم لهم ٠

وأخبار ابى العرب خالية من المبالغات ٠ وقد يشير الى المظاهر الاجتماعية كقوله عن ابن غانم « انه يجيد اللباس لقد مات فأصابوا له

كسى قومت بألف دينار » كما يصدر احكاما على بعض من ترجم لهم كقوله عن ابن فروخ « كان ثقة فى حديثه ورمى بشىء من القدر حتى تبينت براءته » وربما ذكر بعض الرؤى مثل ما ذكره بالنسبة لاستسقاء النعمان أبى المنذر ٠

ويعتبر كتاب طبقات أبى العرب من اهم المصادر التى وصلتنا عن هذه الفترة باعتبار انه كان معاصرا لهذه الفترة ومن أقدم كتب الطبقات التى وصلت الينا وقد استفدت منه كثيرا فى تلمس الحياة الفكرية فى القيروان ٠

٢ ـ قضاة قرطبة لمحمد بن حارث بن اسد القيروانى الخشنى المتوفى سنة ٣٦١ هجرية ـ المكتبة الاندلسية نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب سنة ١٩٦٦ م ٠

عاش المؤلف سنواته الاولى فى القيروان وسمع من علمائها ثم رحل الى الاندلس ونبغ فيها ونال حظا وشهرة والف فيها مؤلفات عدة ٠

وقد استخلص المؤلف مادة كتابه من مصادر مختلفة ٠ منها ما سمعه من طبقات الشعب المختلفة من الحكام الى المحكومين ، وبعض الخطابات التى تبودلت بين الحكام والقضاة ، وبعض الوثائق التى كانت محفوظة عند بعض الاسر وربما اعتمد كذلك على بعض الكتب ولكنه لم يشر اليها وكان يعتمد على الروايات المتوارثة بين الاجيال مثال ذلك ما ذكره عن القاضى مهاجر بن نوفل القرشى عما سمع منه بعد أن هيل عليه التراب وفى حديثه عن القاضى عمر بن شراحيل يقول : وأخبرنى من اثق به من أهل العلم قال « وعن القاضى محمد بن بشير المعافر يقول : فمن مستفيض الاخبار التى لا يتواطأ على مثلها أن ٠٠٠ وعن القاضى الفرج بن كنانة وقرأت فى الديوان جواب الحكم رضى الله عنه ٠٠٠ الخ وهو يسجل الاخبار التى يسمعها دون تغيير أو اضافات والكتاب بعيد عن الميل والتحيز أو الانسياق وراء شطحات الخيال ولم يكن يميل الى التعصب السياسى أو التملق والمداهنة ٠

وقد افادنا هـذا المصدر فى معرفة العلماء والطلاب الذين قدموا ووضح لنـا الرسـائل التى كانت تدور بينهم ومنزلة كل منهما من الاخر . كما انه يذكر من تعلم من قضاة قرطبة فى القيروان .

٣ ـ تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى عبد الله بن محمد بن يوسف الازدى المتوفى سـنة ٤٠٣ هـ نشر الدار المصرية للتأليف والترجمـة مطابع سـجل العرب سـنة ١٩٦٦ م .

أحد الكتب الهامة من المكتبة الاندلسية (التى قامت بطبعها الدار المصرية للتأليف والترجمة من كتب التراث) وهو يضم تراجم مختصرة لفقهاء الاندلس وعلمائه ورواته . وقد اقتصر المؤلف على ذكر الميلاد والوفاة والسـماع والرواية . وهو مرتب على حروف المعجم . واهتم كثيرا بالفقهاء وان كان فد ترجم لبعض الأدباء والشعراء وذكر بعض أشـعارهم . وهو لا يغرق فى حديثه عن العلماء بالتفاصـيل والروايات وانما يذكر لمن يترجم له الاسم والكنية والأساتذة الذين تعلم عليهم ومقر نشـاطه العلمى وولايته او رحلاته ثم وفاته . وقد ذكر فى مقدمة كتابه المصـادر التى اعتمد عليها فى كتابه ومن أخذ عنهم مشـافهة .

وقد افادنا هـدا الكتاب فى بيان الصلة بين قضاة قرطبة والقيروان من الاندلس الى القيروان وتلقوا العلم فيها وكذلك من رحل من علمـاء القيروان الى الأندلس وان لذلك جانب كبير فى فصل العلاقات والتأثير والتاثر بالنسـبة للأندلس .

٤ ـ تاريخ افريقية والمغرب . للرقيق القيروانى تحقيق المنجى الكعبى . نشر مطبعة الوسط تونس سـنة ١٩٦٧ م .

وهو جزء لقطعة من كتاب الرقيق : تبدأ من أواسـط القرن الاول الى أواخر القرن الثانى وقد الف فى منتصف القرن الخامس الهجرى .

وهو المصـدر المفضل عند ابن عذارى وابن خلدون والتيجانى .

وكان لتأليف كتاب الرقيق اثر كبير بالنسبة لما الف قبله حيث لم يعد هناك ذكر قوى لكتب الواقدى وابن الوراق وغيرهما من قدامى المؤرخين والاخباريين المغاربة فقد غطى عليهما كتابه واصبح عمدة عند المؤرخين ٠

وكتاب الرقيق لا يخلو من بعض القصص الشائعة التى قد يكون لها اساس من الواقع ٠ وهو لا يهتم بالسند فى الاخبار فمعظم الاخبار يرسلها دون اشارة للمصادر التى استقاها منها ويظهر أنه كان يعتمد فى نقلها على كتب القيروانيين أمثال ابن أبى حسان اليحصبى ٠

وأسلوب الرقيق سهل مسترسل ٠ ولا يكاد يشغله استطراد يخرج به عن الموضوع الذى يأخذ فيه ٠ وهو يهتم بتحديد الاماكن والدقة فى تاريخ الوقائع والاحداث لتحديده لمكان وزمان التقاء زهير بكسيلة ٠

وقد افادنى ذلك الكتاب بايراد الشعر الذى قيل فى يزيد بن حاتم ووفود الشعراء عليه ، وبايراد المحاورات والمكاتبات والاشعار والخطب التى دارت بين الولاة ومن ثار عليهم ٠ مثل حوادث ثورة تمام التميمى على محمد بن مقاتل العكى ، ونصرة ابراهيم بن الاغلب له وذكر الكتب التى دارت بينهما مما يعطينا صورة عن الحياة الفكرية فى القيروان ٠

٥ – كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم تأليف ابى بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى المتوفى سنة ٤٣٨ هـ ٠

قام على نشر الجزء الاول الدكتور حسين مؤنس نشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٥١ م ٠ فى صدر هذا الكتاب أخبار الفتح الاسلامى الى أيام حسان بن النعمان ثم يذكر المؤلف من دخل افريقية من أصحاب النبى ﷺ ثم الطبقة الاولى من علماء التابعين فى القيروان كما يشير الى من دخل القيروان من العلماء ثم عاد الى بلده ٠

يبدأ بعد ذلك فى الترجمة لفقهاء مدينة القيروان مبتدئا لهم بعبد الرحمن بن أنعم ويخصص كل طبقة بذكر الذين اشتهروا منها بالعبادة والنسك . ويشير الى العلماء الذين لم يلقوا مالكا ولا رووا عنه . وهو يطيل فى بعض التراجم حتى تصل ترجمة بعضهم الى أربعين صفحة .

وقد يورد لمن يترجم له ذكر بعض الكتب وبعض الحكم والاقوال المأثورة . كما يذكر الشعر لبعض من قاله ويسجل بعض المواعظ بطولها وقد اعاننى ذلك على تصور الفكر واستجلاء جوانبه . وهو فى حديثه عن الزهاد يذكر اجابة الدعوات وصنوف الكرامات مما نراه فى ترجمته لعبد الرحيم الزاهد وغير ..

والمالكى ينقل كثيرا عن أبى العرب تميم كما ينقل عن مجالس سليمان بن سالم ، وعن المجموعة لابن عبدوس وعن مدونة سحنون وموطأ مالك وكتاب انطبقات لمحمد بن سحنون وتصانيفه ابن وهب وهو ينقد السابقين أحيانا ، فقد نقد أبا العرب وابن اللباد فيما ذهبا اليه من أن ولاية أبى كريب القاضى كانت أيام يزيد بن حاتم ، ويحققها بأنها كانت أيام عبد الرحمن بن حبيب وهو الصواب .

وهو يفصل بعض ما أوجز أبو العرب وبذلك كان مكملا لوضوح الصورة مع اتسامه بسهولة الأسلوب وبالأمانة فى اسناد الأقوال الى أصحابها .

٦ ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك تاليف أبى عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ نشر مكتبة المثنى ببغداد .

الف هذا الكتاب فى النصف الثانى من القرن الخامس وهو وصف عن جغرافية افريقية وتاريخها وقد اشتمل على معلومات وافرة ودقيقة مستندة الى وثائق صحيحة . ومع أنه كان منصرفا الى الجغرافيا

الا انه يأتى بنبذة تاريخية يسندها غالبا الى الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ٠ وقد افادنى هذا المصدر فى تخطيط القيروان وبيان المنشآت والمشاريع والاصلاحات والاضافات التى تمت فيها كما أنه افاض فى وصف المدن التى قامت حول القيروان ٠ كما أشار الى دخل البلاد من المزروعات والحاصلات وغيرها من الامور التى أفادتنا فى فصل تأسيس القيروان وفى الحالة الاجتماعية والاقتصادية ٠

٧ ـ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس : تاليف محمد بن أبى نصر فتوح الازدى ، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ـ المكتبة الاندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة مطبعة سجل العرب سنة ١٩٦٦ م ٠

هذا المؤلف كتبه مؤلفه فى بغداد من حفظه ٠ وقد طلب منه ذلك بما يعطى صورة عن الاندلس ٠ وقد ترجم فيه مؤلفه لرجال الحديث والفقه والتاريخ ٠ ورتبه على الحروف وذكر فيها كثيرا من القطع الادبية والشعرية وذكر كثيرا من الوقائع والاحداث التى دارت بين العلماء والحكام ٠ ومع اهتمامه برجال الحديث والفقه فهو يذكر قضايا سياسية واجتماعية وأدبية تستغرق جانبا كبيرا من الكتاب ولم يخل الكتاب من الطرائف التى تشير الى طبيعة هذا المجتمع ومزاجه وهو يختار نصوصا شعرية وأدبية ذات لون خاص يشعر قارئها بشفافية المؤلف ودوقه الرقيق وهى مثبتة فى جميع صفحات الكتاب ٠ وبعد أن ذكر المؤلف مقدمة عن الاحوال السياسية التى عاش فيها العلماء ٠ بدأ يترجم للعلماء فيذكر النسب والبلد والشيوخ الذى تلقى العالم عليهم والنشاط الذى قام به ثم يذكر مؤلفاته ٠

ولصاحب الجذوة عدة مؤلفات تدور حول الامور الدينية والاخلاقية والعلاقات الاجتماعية والتاريخ والتراجم والسير وفنون الادب وخاصة فن الشعر ٠

وقد استفاد البحث من هذا الكتاب مع كتاب ابن الفرضى فى بيان العلاقات خاصة بين الاندلس والقيروان حيث بينا لنا الصلة الوثيقة بينهما ٠

٨ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك : للقاضى أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى أربعة أجزاء تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود من منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان سنة ١٩٦٧ م ٠

وهو يبتدىء باظهار فضل علم اهل المدينة وترجيحه على غيره وهو يدافع عن رأى المالكية فى الاخذ بعمل أهل المدينة ، ويرد على من خالفهم بالمنطق وبالأمثلة ويرجح مذهب مالك على المذاهب الأخرى ٠

وعياض يذكر فى ترتيب المدارك من روى عن الامام مالك ومن أخذ بمذهبه من أهل العراق والمشرق ومن أهل الحجاز ٠ واليمن ٠ ومصر ٠ والشام ومن أهل القيروان والأندلس ٠ وقد ذكر ممن أخذ عن مالك نحو الف اسم ممن عرف اسمه وصحت روايته وشهرت صحبته ٠ وبالنسبة للقيروان يذكر العلماء الأول من اهل القيروان الذين رحلوا الى مالك والتقوا به ٠ ثم يترجم للمالكيين من اهل القيروان الذين التزموا بالمذهب المالكى سواء رحلوا الى المشرق أو لم يرحلوا ٠

وهو يذكر الكرامات لبعض العلماء ومنهم واصل العابد ، وعبد الرحيم الربعى ، ويذكر الاساتذة لمن يترجم لهم ٠ ويورد أسماء المؤلفات لمن يترجم لهم متتالية مثل ما ذكر لمحمد بن سحنون وغيره ٠

ومن مراجعه التى يشير اليها فى مؤلفه وينقل عنها مؤلفات محمد ابن سحنون وسليمان بن سالم فى مجالسه ، وسعيد بن الحداد ، وأبى العرب تميم ، ومحمد بن حارث الخشنى ٠ وعن كتاب التعريف لابن الجزار الذى ذكر نقله عنه فى ترجمة ابن فروخ كما يأخذ عن المالكى فى رياض النفوس ٠

وترتيب المدارك يوضح أشياء عن المترجم له بالنسبة لما ذكر فى الرياض ويذكر سنة الوفاة ، كما يذكر عدة روايات لمن تقدمه

من المؤرخين كما يحدث فى ترجمة ابن غانم • وهو عندما يستشهد بالشعر يترك الفاحش منه ويقول : تركناه لفحشه وان كان بيت الأبيات •

وقد افاد هذا الكتاب البحث فى معرفة علماء الاندلس الذين تعلموا فى القيروان فكان تقسيمه لعلماء الامصار معينا للباحث فى سرعة الوصول الى ضالته بدون عناء كبير • وصاحب المدارك يقسو فى حكمه على الفاطميين ويبالغ فى وصف ما قاموا به بالنسبة للصحابة والعلماء •

وهو يضع عناوين جزئية لمن يترجم لهم فيقول بعد ذكر الاسم والحديث عنه كالبهلول مثلا : ذكر فضائله وعبادته وورعه وتواضعه وشمائله وبقية أخباره • ذكر تسننه ومجانبته أهل الاهواء وموالاته ومعاداته فى الله • ذكر محنته ووفاته •

ونلاحظ فى الكتاب : الدقة فى اسناد الأقوال الى مصادرها • والتفصيل فى بعض الحوادث كما ذكر بالنسبة لمجلس أسد بن الفرات وحديثه عن المالكية والأحناف •

٩ ـ معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان : لعبد الرحمن بن محمد الانصارى الاسدى الدباغ المتوفى سنة ٦٩٦ هـ واكمله وعلق عليه أبو القاسم بن عيسى التنوخى المتوفى سنة ٨٣٩ هـ وهو فى أربعة أجزاء الجزء الاول الطبعة الثانية مكتبة الخانجى سنة ١٩٦٨ م تصحيح ابراهيم شبوح وثلاثة الاجزاء الأخرى طبع المطبعة العربية التونسية سنة ١٣٢٠هـ•

وهذا الكتاب قد ذكر ما ورد فى مدح القيروان والاشعار التى قيلت فى فضلها وتحدث عن المساجد السبعة القديمة الفاضلة فى القيروان مما لم يذكره بهذا التفصيل أحد قبله ـ ثم يذكر أسماء من نزل القيروان من الصحابة ويخص كل صحابى بحديث مسند • كما يتحدث عن فتح افريقية الى أيام حسان بن النعمان •

ومن المراجع التى رجع اليها الدباغ فى كتابه الواقدى ومحمد بن

سحنون وابو العرب تميم ومحمد بن يوسف الوراق والمـالكى فى الرياض وعياض فى المدارك ٠

وما اسـند فيه الى الدباغ يصدر بيقال ٠ وما اسـند الى ابن ناجى يصدر بقلت وابن ناجى يستدرك اشياء على الدباغ او يزيد اشـياء أخرى وهو ينقل فى زياداته عن المـالكى وعياض او يبدى رايه هو ٠

والكتاب يهتم بذكر الوفاة واذا لم يعثر على تاريخ الوفاة يقول : لم اقف له على تاريخ وفاة ٠

وابن ناجى ينقد أحيانا آراء المترجم لهم كما حدث فى رفض ابن فروخ لتولى القضـاء كما يذكر فى تعليقه شيئا من سيرته هو كما حدث فى ترجمة القاضى سليمان بن عمران وتعليقه على الفراسة ٠

وقد ترجم الدباغ لابى سـعيد الحداد بينما لم يترجم له ابو العرب وعياض مع كثرة نقل ابى العرب فى طبقاته عنـه ٠ وهو فى ترجمته له يبين الدور العظيم الذى قام به ابن الحداد فى الرد على الشـيعة والدفاع عن السـنة ٠

وهو يشـير أحيانا الى بعض الاحلام والرؤى ويورد اشعارا لمن قال شـعرا من العلماء ، أو لمن قيلت فى رثائهم ، كما يتحدث عن بعض الفقهاء بأنه كان فقيـه البدن وعرفه بأنه كان طبيبا ٠ ولا شك أن هذا المصدر قد أفاد البحث فى الرجوع الى بعض التراجم خاصـة سـليمان بن عمران القاضى الحنفى حيث أن المـالكى لم يترجم للفقهاء الأحناف وانما يشـير الى ما حدث بينهم وبين المـالكية من وقائع ٠

١٠ ـ البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب : لابن عـــذارى المراكشى ، تحقيق ليفى بروفنسال ، وكولان ـ نشر دار الثقافة بيروت لبنـان ٠

كتب ابن عذارى البيان المغرب فى نهاية القرن السـابع الهجرى

واعتمد كثيرا على تاريخ الرقيق كما اعتمد على كتب الواقدى والمسعودى والوراق والبكرى وعبد الله بن أبى حسان من المؤرخين السابقين • وهو يفصل فى الاخبار ويعرض أمور الفتح والاحداث • ومع أنه يهتم بالاحداث السياسية الا أنه يذكر كذلك وفيات العلماء من رجال الفقه والقضاء والحديث والطب والعربية وغيرهم • وهو خلال ذلك يورد الأشعار مثل ما يذكر عن بكر بن حماد وغيره ويشير الى ذكر الأحداث التى وقعت مع العلماء عند قيام دولة الفاطميين والتعذيب الذى لقيه العلماء منهم مع تلميح الى الامور الاقتصادية والاجتماعية •

وهو يورد الاحداث عاما بعد عام • ولقد اعانني التفصيل الذى يمتاز به ابن عذارى على التصور الواضح للجوانب التى تحدث عنها •

* * *

المصـــادر والمراجـــع

نورد فيما يلى المصادر والمراجع التى رجعنا اليها . وقـد رتبت اسـماء المؤلفين حسـب احرف الهجـاء مع ذكر سـنة وفاة المؤلفين الأقـدمين .

آدم مـتز :

١ ـ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع او عصر النهضـة فى الاسلام ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . الطبعة الثالثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سـنة ١٣٧٧ هـ سنة ١٩٥٧ م .

آنخل جنثالث بالنثيا :

٢ ـ تاريخ الفكر الأندلسى نقله عن الاسبانية دكتور حسين مؤنس من مختارات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية . الطبعة الاولى سـنة ١٩٥٥ م ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية .

ابن الأبار ـ أبو عبد محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضـاعى المعروف بابن الأبار المتوفى سـنة ٦٥٨ هـ .

٣ ـ الحلة السـيراء جـ ١ ، ٢ حققه وعلق حواشـيه دكتور حسين مؤنس الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ م .

ابراهيم العدوى دكتور :

٤ ـ موسى بن نصير اعلام العرب عدد اغسطس سنة ١٩٦٧ م

ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ العلامة أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى المقلب بعز الدين .

٥ ـ تاريخ الكامل جـ ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ الطبعة الاولى بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١ هـ .

٦ ـ اسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ١ نشر مطابع الجمعية التعاونية .

احسان حقى :

٧ ـ تونس العربية دار الثقافة بيروت .

احسان عباس دكتور :

٨ ـ العرب فى صقلية مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ م .

احمد امين :

٩ ـ ظهر الاسلام جـ ١ ـ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م .

احمد توفيق المدنى :

١٠ ـ كتاب الجزائر . طبعة ثانية نشر دار الكتاب ـ البليدة ـ الجزائر .

أحمد زينى دحلان :

١١ ـ تاريخ الدول الاسلامية بالجداول المرضية . المطبعة البهية سنة ١٣٠٦ هـ .

أحمد شوكت الشطى دكتور :

١٢ ـ الطب عند العرب ـ مع العرب ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة .

أحمد فكرى ـ دكتور :

١٣ ـ المسجد الجامع بالقيروان ـ مطبعة المعارف سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م .

الادريسى ت ٦٤٩ هـ : محمد بن عبد العزيز الشريف :

١٤ ـ صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ـ مطبعة بريل بمدينة ليدن سنة ١٨٦٤ م ٠

ابن ابى اصيبعة ت ٦٦٧ هـ موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجى :

١٥ ـ عيون الأنباء فى طبقات الاطباء ـ الطبعة الاولى المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٩ هـ ٠

الاصطخرى ت فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى ـ ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى :

١٦ ـ المسالك والممالك ـ تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال الناشر دار القلم سنة ١٩٦١ م ٠

اميل لود فيغ :

١٧ ـ البحر المتوسط (مصاير بحر) ترجمة عادل زعيتر دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ م ٠

الباجى : أبو عبد الله محمد الباجى المسعودى :

١٨ ـ الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ـ مطبعة الدولة التونسية بتونس سنة ١٢٨٣ هـ ٠

ابن بشكوال : ابو القاسم خلف بن عبد الملك :

١٩ ـ الصلة فى تاريخ ائمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ج ١ ، ٢ ـ طبع فى مدينة مجريط بمطبعة روخس سنة ١٨٨٢ م٠

البكرى ت ٤٨٧ هـ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز :

٢٠ ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ مكتبة المثنى ببغداد ٠

البلاذرى ت ٢٧٩ هـ : أحمد بن يحيى بن جابر :

٢١ ـ فتوح البلدان ٠ نشره ووضع ملاحقه د٠ صلاح الدين المنجد ملتزم النشر مكتبة النهضة المصرية ٠

التجانى : ابو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد قام بالرحلة فى البلاد التونسية وطرابلس من سنة ٧٠٦ هـ ـ ٧٠٨ هـ :

٢٢ ـ رحلة التجانى : قدم لها حسن حسنى عبد الوهاب المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨ م نشريات كتاب الدولة للتربية القومية ٠٠

ابن جلجل الفه سنة ٣٧٧ هـ ابو داود سليمان بن حسان الأندلسى :

٢٣ ـ طبقات الأطباء والحكماء ـ تحقيق فؤاد سيد ـ مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م

الحبيب تامر ـ دكتور :

٢٤ ـ هذه تونس مطبعة الرسالة ـ مكتب المغرب العربى ٠

الحبيب الجنحانى ـ دكتور :

٢٥ ـ القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ م ٠

الحبيب حسن عمر :

٢٦ ـ تقويم تونس سنة ١٩٤٦ ـ مطبعة الادارة ـ تونس ٠

ابن حزم ت ٤٥٦ هـ ابو محمد على بن سعيد :

٢٧ ـ جمهرة أنساب العرب ٠ تحقيق وتعليق ا ٠ ليفى بروفنسال ذخائر العرب ـ دار المعارف بمصر ٠

حسن ابراهيم حسن ـ دكتور :

٢٨ ـ تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب الطبعة الثالثة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٤ م ٠

٢٩ ـ عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ بالاشتراك مع طه أحمد شرف دكتور ٠

٣٠ ـ المعز لدين الله الفاطمى مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤ بالاشتراك مع طه احمد شرف ٠ دكتور ٠

حسن احمد محمود ـ دكتور :

٣١ ـ الاسلام والثقافة العربية فى افريقية طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٨ م ٠

حسن حسنى عبد الوهاب :

٣٢ ـ ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ـ الناشر مكتبة المنار تونس سنة ١٩٦٥ م ٠

٣٣ ـ بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق المطبعة التونسية تونس سنة ١٣٣٠ هـ ٠

٣٤ ـ خلاصة تاريخ تونس الطبعة الثانية ٠

٣٥ ـ الامام المازرى ملتزم الطبع دار الكتب الشرقية تونس ٠

٣٦ ـ مجمل تاريخ الأدب التونسى الناشر مكتبة المنار تونس سنة ١٩٦٨ م ٠

حسين مؤنس ـ دكتور :

٣٧ ـ فتح العرب للمغرب الناشر مكتبة الآداب بالجمامير ٠

الحميدى ت ٤٨٨ هـ ابو عبد الله محمد بن ابى نصر فتوح بن عبد الله الأزدى :

٣٨ ـ جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ـ المكتبة الأندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م ٠

الخشنى ت ٣٦١ هـ ابو عبد الله محمد بن حارث بن اسد القيروانى :

٣٩ ـ قضاة قرطبة ـ المكتبة الاندلسية ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م ٠

ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربى :

٤٠ ـ العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ٠ جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ نسخة من مكتبة الأزهر رقم ١٠٥ اباظة ٠

٤١ ـ المقدمة : تحقيق الدكتور عبد الواحد وافى ٠ الطبعة الثانية ١٩٦٨ م نشر لجنة البيان العربى اربعة أجزاء ٠

ابن خلكان ت ٦٨١ هـ شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن ابى بكر الشافعى :

٤٢ ـ وفيات الأعيان تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد فى ستة أجزاء نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م ٠

خواد بخش المؤرخ الهندى :

٤٣ ـ الحضارة الاسلامية ترجمة وتعليق د٠ على حسنى الخربوطلى دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه سنة ١٩٦٠ م ٠

الدباغ ت ٦٩٦ هـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى :

٤٤ ـ معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان جـ ١ الناشر مكتبة

الخانجى بمصر سنة ١٩٦٨ تحقيق ابراهيم شبوح ، جـ ٢ ، ٣ ، ٤
نشر المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٠ هـ ٠

ابن أبى دينار ت ١١١٠ هـ محمد بن أبى القاسم بن عمر القيروانى :

٤٥ ـ المؤنس فى تاريخ افريقية وتونس ـ تحقيق محمد شمام ـ الناشر المكتبة العتيقة بتونس ٠

الرقيق القيروانى ابو اسحق ابراهيم بن القاسم ت القرن الخامس الهجرى :

٤٦ ـ تاريخ افريقية والمغرب ٠ تحقيق المنجى الكعبى الناشر مطبعة الوسط بتونس ٠

زكى محمد حسن دكتور :

٤٧ ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ٠

زيدان : جرجى زيدان :

٤٨ ـ تاريخ التمدن الاسلامى خمسة اجزاء مطابع دار الهلال سنة ١٩٥٨

٤٩ ـ تاريخ اداب اللغة العربية جـ ١ ، ٢ مراجعة وتعليق شوقى ضيف دكتور ـ مطابع دار الهلال سنة ١٩٥٧ م ٠

السلطان المؤيد : عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل صاحب حماة :

٥٠ ـ تقويم البلدان ـ طبع باريس سنة ١٨٤٠ م ٠

السلاوى : احمد بن خالد الناصرى :

٥١ ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ـ طبع المطبعة البهية بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ٠

السنوسى : محمد بن على السنوسى :

٥٢ ـ الدرر السنية فى اخبار السلالة الادريسية ـ دار ليبيا للنشر والتوزيع .

سـيد امير على :

٥٣ ـ مختصر تاريخ العرب ـ ترجمة عفيف البعلبكى الطبعة الثانية دار العلم للملايين سـنة ١٩٦٧ م .

السيوطى ت ٩١١ هـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى :

٥٤ ـ بغية الوعاة فى طبقـات اللغويين والنحاة الطبعة الأولى سـنة ١٣٢٦ هـ مطبعة السعادة .

السيد عبد العزيز سالم دكتور :

٥٥ ـ المغرب الكبير جـ ٢ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٦ م .

٥٦ ـ مقال فى كتاب الشعب بيوت الله مساجد ومعاهد جـ ٢ مطابع الشعب سنة ١٩٦٠ ـ عنوان المقال المسجد الجامع بالقيروان ص ١٦٩

شكرى فيصل دكتور :

٥٧ ـ حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول ـ مطابع دار العلم للملايين الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢ م .

٥٨ ـ المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول ـ مطابع دار العلم للملايين سنة ١٩٥٢ م .

شمس الدين ابو عبد الله محمد ابو طالب الأنصارى الدمشقى :

٥٩ ـ نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ـ مكتبة المثنى بغداد .

الطاهر احمد الزاوى الطرابلسى :

٦٠ ـ تاريخ الفتح العربى فى ليبيا الطبعة الثانية دار المعـارف سـنة ١٩٦٣ م .

الطبرى ت ٣١٠ هـ : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى :

٦١ – تاريخ الأمم والملوك – الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية ج ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٠

عباس محمـود العقاد :

٦٢ – أثر العرب فى الحضارة الأوربية دار المعارف الطبعة الثانية سـنة ١٩٦٣ م ابن عبد الحكم ت ٢٥٧ هـ ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى ٠

٦٣ – فتوح مصر وأخبارها طبع ليدن بمطبعة بريل سـنة ١٩٣٠ م ٠

عبد الرءوف مخلوف :

٦٤ – ابن رشيق القيروانى – طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤ م ٠

عبد الرحمن باغى دكتور :

٦٥ – حياة القيروان وموقف ابن رشـيق منها ٠ الطبعـة الأولى سـنة ١٩٦١ م دار ريحانى للطباعة والنشر بيروت ٠

عبد الوهاب الشعرانى :

٦٦ – الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار فى طبقات الأخيار ج ١ ، ٢ مكتبة ملتزمية ٠

عثمـان الكعـاك :

٦٧ – الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ٠ طبع معهد الدراسات العربية سـنة ١٩٦٥ م ٠

٦٨ – البربر (كتاب البعث) مطبعة الترقى سـنة ١٩٥٦ م ٠

ابن عذارى توفى أواخر القرن السـابع الهجرى : ابو عبـد الله محمـد المراكشى :

٦٩ ـ البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب تحقيق كولان ، ليفى بروفنسال ـ دار الثقافة ـ بيروت لبنان ٠

ابو العرب تميم ت ٣٣٣ هـ محمد بن احمد التميمى القيروانى :

٧٠ ـ طبقات علماء افريقية وتونس ـ تحقيق على الشابى ونعيم حسن اليافى الدار التونسية للنشر سـنة ١٩٦٨

العماد الأصفهانى الكاتب :

٧١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب ـ تحقيق محمد المرزوقى ومحمد العروسى الدار التونسية للنشر سـنة ١٩٦٦ م ٠

عمـر الركبانى :

٧٢ ـ خلاصة التاريخ التونسى ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الادارة بتونس سـنة ١٩٣٩ م ٠

غسـتاف لوبون :

٧٣ ـ حضارة العرب ـ ترجمة عادل زعيتر ـ الطبعة الثالثة ـ طبع دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة سـنة ١٩٥٦ م ٠

ف ٠ بارتـــولد :

٧٤ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ـ ترجمة حمزة طاهر ـ الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر سـنة ١٩٥٨ م ٠

ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون المدنى المـالكى :

٧٥ ـ الديباج المذهب فى معرفة اعيان علماء المذهب فرغ مؤلفه من تأليفه سـنة ٧٦١ هـ ـ الطبعة الأولى سـنة ١٣٢٩ هـ مطبعة السعادة بمصر ٠

ابن الفرضى ت ٤٠٣ هـ ابو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى :

٧٦ ـ تاريخ علماء الأندلس ـ المكتبة الأندلسية ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م ٠

فون كريمر :

٧٧ ـ الحضارة الاسلامية ومدى تاثرها بالمؤثرات الأجنبية ٠ ترجمة مصطفى طه بدر ـ دكتور ـ الناشر دار الفكر العربى ٠

الفيروز آبادى : محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى :

٧٨ ـ القاموس المحيط ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢ ـ مطبعة الحلبى بمصر ٠

القاضى عياض ت ٥٤٤ هـ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى :

٧٩ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ـ تحقيق أحمد بكير محمود دكتور ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ٠

كارل بروكلمان :

٨٠ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ١ ، ٢ ترجمة نبيه فارس ـ دكتور ، منير البعلبكى ـ الطبعة الثالثة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت سنة ١٩٦٠ م ٠

الكندى ت ٣٥٠ هـ أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب :

٨١ ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة ـ طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٨ م ٠

المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الاسلامية :

٨٢ ـ بحث عن أثر الحضارة الاسلامية فى رقى البشرية وسعادتها للدكتور محمد خلف الله أحمد ـ الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٥م

المالكى ت سنة ٤٢٨ هـ أو سنة ٤٥٣ هـ أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله المالكى :

٨٣ ـ رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية ـ نشر حسين مؤنس دكتور ـ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١ م

مبارك محمد الهلالى الميلى :

٨٤ ـ تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ١ ، ٢ الناشر مكتبة النهضة الجزائرية ٠

مجلة العربى : تصدرها وزارة الارشاد والانباء بحكومة الكويت :

٨٥ ـ العدد ٨٤ مقال بعنوان ابن شرف للدكتور طه الحاجرى ص ٤٨ ـ ٥٣

٨٦ ـ العدد ١٠٤ مقال بعنوان أسد بن الفرات للواء محمود شيت خطاب ص ١٠٤ ـ ١١٠

٨٧ ـ العدد ١١٨ مقال بعنوان ابن هانى الأندلسى بقلم حسن الأمين ص ٦٠ ـ ٦٤

أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى :

٨٨ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ـ الطبعة الاولى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهر ةسنة ١٩٢٩ م

محمد رفعت :

٨٩ ـ تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ـ مكتبة العلوم السياسية ـ دار المعارف بمصر ٠

محمد بن عثمان الحشائشى التونسى ت ١٩١٢ م :

٩٠ ـ رحلة الحشائشى الى ليبيا سنة ١٨٩٥ م ـ تحقيق على المصراتى ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٥ ـ دار لبنان للطباعة والنشر ٠

محمد على دبوز :

٩١ ـ تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ ـ طبع دار احياء الكتب العربية ٠

محمد غلاب ـ دكتور :

٩٢ ـ الفلسفة الاسلامية فى المغرب ـ جمعية الثقافة الاسلامية سنة ١٩٤٨ م ٠

محمد الفاسى :

٩٣ ـ التعريف بالمغرب ـ طبع معهد الدارسات العربية سنة ١٩٦١م

محمد الفاضل بن عاشور :

٩٤ ـ أعلام الفكر الاسلامى فى تاريخ المغرب العربى ـ نشر وتوزيع مكتبة النجاح بتونس ٠

محمد فريد وجدى :

٩٥ ـ دائرة معارف القرن الرابع عشر ـ المجلد السابع ـ طبع دائرة معارف القرن العشرين سنة ١٩٣٨

محمد لبيب البتنونى :

٩٦ ـ رحلة الأندلس ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة مصر ٠

محمود شيت خطاب ـ اللواء الركن :

٩٧ ـ قادة فتح المغرب العربى ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٦ ـ الناشر دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ج ١ ، ٢

المراكشى ت ٦٦٩ هـ : محيى الدين ابو محمد عبد الواحد بن على التميمى :

٩٨ ـ المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ـ تحقيق محمد سعيد العريان ، محمد العربى ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م

المسعودى ت ٣٤٦ هـ ابو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى :

٩٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر جزءان ـ طبع المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ

المقدسى ت ٣٨٧ هـ شمس الدين ابو عبد الله محمد الشافعى المقدسى المعروف بالبشـارى :

١٠٠ ـ أحسن التقاسم فى معرفة الاقاليم ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة بريل بلندن سنة ١٩٠٦ م .

المقرى ت ١٠٤١ هـ : أحمد بن محمد المقرى التلمسانى :

١٠١ ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ ستة اجزاء ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة السعادة سنة ١٩٤٩ م .

م. م. شـارف :

١٠٢ ـ الفكر الاسلامى منابعه وآثاره ـ ترجمة وتعليق أحمد شلبى دكتور ـ مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٦٢ م

المنجى الكعبى :

١٠٣ ـ القزاز القيروانى ـ الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ م .

ميخائيل أمارى :

١٠٤ ـ المكتبة العربية الصقلية نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع طبع مكتبة المثنى ببغداد بالاوفست •

النبهانى المالقى : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الاندلسى :

١٠٥ ـ تاريخ قضاة الاندلس ـ وسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ـ نشر ليفى بروفنسال ـ القاهرة ـ دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨ م •

ابن النديم ت ٣٨٣ هـ محمد بن اسحاق :

١٠٦ ـ الفهرست ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة •

الواقدى ت ٢٠٧ هـ ابو عبد الله محمد بن عمر الواقدى :

١٠٧ ـ فتوح الشام جزءان ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٤ ـ مطبعة مصطفى الحلبى بمصر •

ابن هانى ، ت ٣٦٢ هـ : ابو القاسم المكنى بابى الحسن محمد ابن هانى الازدى :

١٠٨ ـ ديوان بن هانىء ـ المطبعة اللبنانية ـ بيروت سنة ١٨٨٦ م

ياقوت ت ٦٢٦ هـ : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى البغدادى :

١٠٩ ـ معجم البلدان ـ الطبعة الاولى ـ طبع مطبعة السعادة فى عشرة أجزاء •

يحيى هويدى ـ دكتور :

١١٠ ـ تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية ـ نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٥ م

اليعقوبى ت ٢٨٢ هـ : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح :

١١١ ـ تاريخ اليعقوبى ـ طبع بريل سنة ١٨٨٣ م •

يوسف فهمى الجزايرلى :

١١٢ ـ أرض البطولة الجزائر : طبع الوكالة العربية للدعاية والنشر•

الفهرسـت

الصفحة

الاهـــداء ٥

المقـــدمة ٩

الفصـل الاول
الفتح الاسلامى فى افريقية
(١٥ ـ ٦٨)

الفتح الاسلامى فى افريقية ١٧

* فتح برقـــة ١٧
* فتح طرابلس ٢٠
* فتح افريقيـــة ٢٤

ـ غزوة عبد الله بن سعد بن ابى السرح ٢٤

ـ غزوة معاوية بن حديج ٣١

ـ عقبة بن نافع فى افريقية ٣٤

ـ ابو المهاجر دينار ٣٧

ـ عقبة بن نافع فى افريقية ثانيا ٤٠

ـ زهير بن قيس البلوى يسترد القيروان ٤٨

ـ حسان بن النعمان الغسانى يثبت اقدام المسلمين فى افريقية ويقضى على مقاومة الروم والبربر . ٥٤

الفصـل الثانى
تأسيس القـــيروان
(٦٩ ـ ١٠٠)

(ا) الاسباب التى دعت عقبة لتأسيس القيروان . . . ٧٢

الصفحة
(ب) اختيار مكانها ٧٣
(جـ) تخطيط عقبة للقيروان ٧٨
(د) الحركة العمرانية فى القيروان فى فترة البحث . ٨١
(ا) التحصينات الحربية ٨٢
(ب) معالم دينية ٨٣
(جـ) المنافع العمرانية العامة للدولة والشعب . ٨٩
١ ــ دار الامارة والدواوين ٨٩
٢ ــ مشاريع المياه والقناطر ٩٠
٣ ــ الأسواق وحوانيت التجارة والمصانع . . ٩٣
٤ ــ الحمامات والمتنزهات والمستشفيات . . ٩٥
٥ ــ المقابر ٩٥
(د) المنشآت الخاصة ٩٧
(هـ) حول القيروان ٩٨
١ ــ القصر القديم او العباسية ٩٨
٢ ــ رقادة ٩٨
٣ ــ صبرة او المنصورية ٩٩

الفصل الثالث
الحالة السياسية فى القيروان بعد ان تم فتح افريقية
(١٠١ ــ ١٤٩)

(ا) عصر الولاة من بنى أمية وبنى العباس ١٠٣
١ ــ موسى بن نصير ٢ ــ محمد بن يزيد ٣ ــ اسماعيل بن عبيد الله ٤ ــ يزيد بن ابى مسلم ٥ ــ بشر بن صفوان الكلبى ٦ ــ عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ٧ ــ عبيد الله ابن الحبحاب ٨ ــ كلثوم بن عياض القشيرى ٩ ــ حنظلة ابن صفوان الكلبى ١٠ ــ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ١١ ــ محمد بن الاشعث الخزاعى ١٢ ــ الأغلب بن سالم

الصفحة

التميمى ١٣ ـ عمر بن حفص ١٤ ـ يزيد بن حاتم ١٥ ـ روح ابن حاتم ١٦ ـ نصر بن حبيب المهلبى ١٧ ـ الفضل بن روح ١٨ ـ هرثمة بن أعين ١٩ محمد بن مقاتل العكى ١٠٣

(ب) عصر الاغالبة ١٢٢

١ ـ ابراهيم بن الاغلب ٢ ـ عبد الله بن ابراهيم ٣ ـ زيادة الله بن ابراهيم ٤ ـ الاغلب بن ابراهيم ٥ ـ محمد بن الاغلب ٦ ـ أحمد بن محمد بن الاغلب ٧ ـ زيادة الله الثانى ٨ ـ أبو الغرانيق محمد بن احمد ٩ ـ ابراهيم بن أحمد ١٠ ـ عبد الله الثانى ١١ ـ زيادة الله الثالث . . ١٢٢

(جـ) عصر الفاطميين ١٣٤

قيام الدولة الفاطمية ١٣٤

١ ـ عبيد الله المهدى ١٣٧

محاولات فتح مصر فى ايام المهدى ١٣٩

٢ ـ القائم أبو القاسم محمد ١٤٢

٣ ـ المنصور اسماعيل بن القائم ١٤٣

٤ ـ المعز لدين الله معد بن اسماعيل المنصور . . . ١٤٤

الفصـــل الرابع

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

(١٥١ ـ ١٨٢)

١ ـ الحالة الاقتصادية ١٥٣

(ا) الزراعة ١٥٥

(ب) الصناعة ١٥٧

(جـ) التجـــارة ١٦٢

٢ ـ الحالة الاجتماعية ١٦٨

المظاهر الاجتماعية ١٧٢

١ ـ فى السلوك الاجتماعى العام ١٧٢

٢ ـ وضع المراة فى القيروان ١٧٣

الصفحة

٣ ـ اللبـــاس ١٧٤
٤ ـ الطعـــام ١٧٥
٥ ـ المواكـــب ١٧٦
٦ ـ الهبات والثروة والترف ١٧٧
٧ ـ مظاهر التسلية والملاهى ١٧٩
٨ ـ الصحة والنظافة ١٨٠
٩ ـ الأمن والروح العسكرية ١٨١

الفصـــل الخامس
بداية الحياة الفكرية فى القيروان
(١٨٣ ـ ٢٣٧)

تمهيــــد ١٨٥
١ ـ العلوم الشرعية : تعليم القرآن ـ الحديث ـ الفقه ـ التفسير ١٨٥
أسماء الصحابة وبعض التابعين الذين دخلوا القيروان . ١٨٦
بعثه الفقهاء الى القيروان ١٩٠
علماء الشريعة من أبناء القيروان : ١٩٦
١ ـ عبد الرحمن بن زياد انعم ١٩٧
٢ ـ عبد الله بن فروخ الفارسى ٢٠١
٣ ـ البهلول بن راشد الرعينى ٢٠٥
٤ ـ عبد الله بن غانم الرعينى القاضى ٢٠٨
٢ ـ العلوم العربية : الادب واللغة ٢١٥
١ ـ الادب ٢١٥
(ا) الخطابة ٢١٧
(ب) الشـــعر ٢١٩
١ ـ الحكم بن ثابت السعدى ٢ ـ ربيعه بن
ثابت الرقى ٣ ـ عامر بن المعمـر بن سـنان
التيمى ٤ ـ المسهر التميمى ٢٢٤
(جـ) الكتـابة ٢٢٤
١ ـ دجين بن عامر الحجرى ٢ ـ خالد بن ربيعة
الافريقى ٣ ـ الحسن بن سعيد البصرى . . ٢٢٦

الصفحة

٢ ـ اللغة ٢٢٧
النحو ورواية الادب واللغة ٢٢٧
١ ـ المعمر بن سنان التيمى ٢ ـ عياض بن
عوانة الكلبى ٣ ـ يونس بن حبيب الضبى
٤ ـ قتيبة الجعفى النحوى ٥ ـ امان بن
الصمصامة بن الطرماح الطائى ٢٢٩

٣ ـ العلوم العقلية العقائدية ٢٣٠
١ ـ اهل السنة ٢٣١
٢ ـ المعتزلة ٢٣٢
٣ ـ المرجئة ٢٣٣
٤ ـ الخوارج : ٢٣٣
(ا) الصفرية ، (ب) الاباضية ٢٣٤

الفصل السادس

ازدهار الحياة الفكرية

(٢٣٩ ـ ٤١٥)

تمهيد ٢٤١
١ ـ العلوم الشرعية : ٢٤١
الفقه : ٢٤١
١ ـ اسد بن الفرات ٢٤٨
٢ ـ سحنون بن سعيد ٢٥٧
٣ ـ سليمان بن عمران ٢٧١
٤ ـ ابو عثمان الحداد ٢٧٧
٥ ـ النعمان بن محمد ٢٨٣
القرآن والتفسير والحديث ٢٨٧
٢ ـ العلوم العربية ٢٩٥
تمهيد ٢٩٥

الصفحه

١ ـ الادب : خطابة ـ شعر ـ كتابة ٢٩٦
(ا) الخطابـــة ٢٩٦
(ب) الشعر ٢٩٨
(ا) الشعراء خلال حكم الاغالبة ٣٠١
١ ـ محمد بن الاغلب ٣٠١
٢ ـ مجبر بن ابراهيـم . . . ٣٠٣
٣ ـ أحمد بن ابى سليمان الربعى . . ٣٠٤
٤ ـ مهرية الاغلبيـــة ٣٠٦
٥ ـ بكر بن حماد ٣٠٧
(ب) الشعراء خلال حكم الفاطميين . . ٣١٠
١ ـ محمد بن عبد الله الفزارى . . ٣١٠
٢ ـ محمد بن هانىء الازدى . . . ٣١٢
٣ ـ على بن محمد الايـادى . . . ٣١٦
(جـ) الكتابة ٣١٨
١ ـ داود الكاتب ٣٢٢
٢ ـ ابراهيم بن محمد الشيبانى . . ٣٢٣
٢ ـ اللغـــة : ٣٢٦
النحو ورواية الادب واللغة ٣٢٦
(ا) من غلب عليهم الاشتغال بالنحو . . . ٣٢٧
١ ـ عبد الملك بن قطن المهرى . . . ٣٢٧
٢ ـ ابو عبد الله محمد بن اسماعيل . . . ٣٢٨
٣ ـ أحمد بن أبى الاسود ٣٢٩
٤ ـ ابراهيم بن الوزان ٣٢٩
٥ ـ محمد بن جعفر القزاز ٣٣٠
(ب) من غلب عليهم الاشتغال والميل الى اللغة . ٣٣٢
١ ـ عبد الله بن محمد ٣٣٢
٢ ـ أحمد بن ابراهيم اللؤلؤى . . . ٣٣٣

الصفحة

٣ ــ حسن بن محمد التميمى العنبرى . . . ٣٣٤

٣ ــ العلوم العقلية العقائدية ٣٣٤
تمهيــــــــد ٣٣٤
١ ــ أهل السـنة ٣٣٧
١ ــ محمد بن سحنون ٣٤٢
٢ ــ عبد الله بن ابى زيد ٣٤٦
٢ ــ الزهد والتصـوف ٣٤٩
(ا) شقران بن على ٣٥٠
(ب) عبد الرحيم الربعى ٣٥٢
٣ ــ الخـــوارج ٣٥٤
٤ ــ المعتزلة ٣٥٧٠
٥ ــ الشـــيعة ٣٦٠

٤ ــ العلوم الاجتماعية والتربوية ٣٧٠
١ ــ التاريخ ٣٧٠
٢ ــ الجغرافيـــا ٣٧٤
٣ ــ الوعى الاجتماعى ٣٧٧
٤ ــ التربيـــة ٣٨١
٥ ــ الترجمة ٣٨٩

٦ ــ العلوم الطبيعية او علوم الاوائل ٣٩٢
(ا) الطب والصيدلة ٣٩٣
١ ــ اسحاق بن عمران ٣٩٣
٢ ــ اسحاق بن سليمان ٣٩٥
٣ ــ احمد بن الجزار ٣٩٨
(ب) الرياضة والفلك ٤٠١
ابو سهل دونش ٤٠٢
(جـ) الكيمياء ٤٠٤

الصفحة

٧ ـ التاليف والمكتبات ٤٠٥
(ا) التــاليف ٤٠٥
(ب) المكتبــات ٤٠٩

الفصــل السابع
العلاقات الفكرية بين القيروان وغيرها من مراكز الفكر
(٤١٧ ـ ٤٤٦)

تمهيـــد ٤١٩
١ ـ القيروان ومكة والمدينة ٤١٩
٢ ـ القيروان والعراق (الكوفة والبصرة وبغداد) . . ٤٢٤
٣ ـ القيروان والشام ٤٢٨
٤ ـ القيروان ومصر ٤٢٩
٥ ـ القيروان والمغرب الاوسط والاقصى ٤٣٢
٦ ـ القيروان والاندلس ٤٣٣
٧ ـ القيروان وصقلية ٤٤١

الفصــل الثامن
الحياة الفكرية فى القيروان بين التاثير والتاثر
(٤٤٧ ـ ٤٦٧)

تمهيـــد ٤٤٩
التاثير والتاثر بالنسبة للمشرق ٤٤٩
التاثير والتاثر بالنسبة للمغرب ٤٥٥
(ا) فى مجال العلوم الشرعية ٤٥٦
(ب) فى مجال العلوم اللغوية والادبية ٤٥٩

الصفحة

(جـ) فى مجال العقائد ٤٦٠
(د) فى مجال العلوم الاجتماعية . . . ٤٦١
(هـ) سماتهـــا ٤٦٤
خلاصة وافية عن البحث ونتائجه ٤٦٩
الملاحق ٥٠٩
ملحق رقم (١) من نماذج الخطابة . . . ٥١١
ملحق رقم (٢) من نماذج الشعر . . . ٥١٢
ملحق رقم (٣) من نماذج الكتابة . . . ٥٢٤
ملحق رقم (٤) سجل مكتبة القيروان . . . ٥٢٩
تعريف ببعض المصـادر ٥٣٨
المصادر والمراجع ٥٤٩
الفهرس ٥٦٥
كتب للمؤلف ٥٧٤

* * *

للمؤلف

١ ـ كتاب المسلمون فى الفلبيين جهادهم ومشكلاتهم : دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٢م .

٢ ـ كتاب أضواء من سيرة محمد ﷺ بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم دار الوفاء للطباعة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢م .

٣ ـ كتاب الخلفاء الراشدين : بالاشتراك مع الدكتور عبد العزيز غنيم ـ دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨١ م .

٤ ـ كتاب تاريخ الدولة العباسية وحضارتها بالاشتراك مع الدكتور محمد الطيب النجار ـ مطابع دار الهلال بالرياض سنة ١٩٧٨ م .

٥ ـ كتاب دراساتفى تاريخ مصر الاسلامية : دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٢م .

٦ ـ كتاب المسلمون فى المغرب والاندلس : دار الوفاء للطباعة سنة ١٩٨٣ م .

٧ ـ المسلمون فى الشرق الاقصى .

٨ ـ بحث عن مسلمى الفلبين منذ الاحتلال الاسبانى حتى الوقت الحاضر : (بحث قدم الى المؤتمر الجغرافى الاسلامى الاول الذى عقد فى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٩٧٩م .

٩ ـ العلاقات الثقافية بين القيروان وبين مراكز الفكر فى الشرق حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض العدد الاول سنة ١٩٧٧ م) من ص ٣٦٧ ـ ٣٨٣ .

١٠ ـ تحليل تاريخى لما يذكره المؤرخون عن موسى بن نصير فى فتح الاندلس (مجلة كلية العلم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن سعـــود الاسلامية ـ العدد الثانى سنة ١٩٧٨م) من ص ٣٥٩ ــ ٣٦٨ ٠

١١ ـ العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية فى المغـرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (مجلة كلية العلوم الاجتماعيـــــة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية العدد الثالث سنة ١٩٧٩) من ص ٣٠٣ ـ ص ٣٣٢ ٠

١٢ ـ الفتح الاسلامى للاندلس : دراسة وتحليل (مجلة كلية العلوم جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية العدد الرابع سنة ١٩٨٠) من ص ٣٠٣ ـ ص ٣٣٢ ٠

١٣ ـ عائد من الفلبين : مجلة الازهر عدد ابريل واغسطس ســنة ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ٠

١٤ ـ مع بعثة الفقهاء الى شمال افريقيا مجلة المهدى الاسلامى ليبيا سنة ١٩٧٠ م ٠

١٥ ـ الردة ، بحث قدم الى مؤتمر تاريخ الجزيرة العربية الثالث الذى عقد فى جامعة الملك سعود سنة ١٩٨٣ م ٠

١٦ ـ بحث عن موقف المجتمع المكى من الدعوة : قدم الى مؤتمر السيرة والسنة الذى عقد فى الازهر عام ١٩٨٥ م ٠

١٧ ـ بحث عن الهجرة وإثرها فى قيام الدولة الاسلامية قدم الى مؤتمر السيرة والسنة الذى عقد فى الازهر عام ١٩٨٥ م ٠

١٨ ـ بحث عن تاثير الازهر فى الخارج بين الماضى والحــاضر نشر فى مجلة الأزهر عدد رمضان وعدد ذو الحجة سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٧٣ م ٠

١٩ ـ بحث عن الحياة الفكرية فى القيروان بين التاثير والتاثر : نشر فى حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٣ ٠

٢٠ ـ مجلة التضامن الاسلامى ـ المسلمون بناة حضارة عددى جمادى الثانية ، شوال ١٤٠٧ هـ وصفر وشعبان ١٤٠٨هـ ٠

٢١ ـ مجلة المؤرخ العربى ـ الفتح الاسلامى لشمال افريقيا ـ العدد السادس عشر ـ القسم الاول سنة ١٤٠١هـ ـ سنة ١٩٨١م ٠

تحت الطبـــع :

١ ـ دولة الاغالبة واثرها فى الفتح الاسلامى ٠

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٤٥٤١

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر / عطفة حيضان الموصلى
بجوار جامع الدعاء
ت ٩٢٥٣٠٤ القاهرة

هذا الكتاب

يعرض هذا الكتاب صورة صادقة عن مدينة إسلامية عريقة كان لها دور كبير فى نشر الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية .

ويوضح الفتح الإسلامي فى إفريقية وكيف تأسست مدينة القيروان وما احتوت عليه من منافع عمرانية ومشاريع حضارية بالإضافة إلى الدور السياسي الذي ساهمت به فى عصر الولاة والأغالبة والفاطميين .

وقد تناول المؤلف فى هذا الصدد الحياة الاقتصادية والاجتماعية فتحدث عن الزراعة والصناعة والتجارة وعن طبقات المجتمع التي ساهمت بدور بارز فى اثراء الحياة الفكرية والحضارية كطبقة الحكام والعلماء والتجار وسواهم .

واهتم المؤلف بصفة خاصة بالحديث عن مظاهر الحياة الفكرية وازدهارها وشمولها لعلوم الشريعة واللغة والأدب والطب والطبيعة والرياضة وغير ذلك من العلوم والفنون .

ويبين أيضاً دور الصحابة والتابعين وترجم للعلماء المجيدين فى كل علم وفن .

وفصل القول فى علاقة القيروان بغيرها من مراكز الفكر والثقافة فى المجتمع الإسلامي مبيناً إلى أي مدى كان تأثرها وتأثيرها بهذه المراكز .

[الناشر]